PDF Eraser Free

رفع محمود العثماني

دكتور صلاح هريدى

دراسات فى
تاريخ مصر الحديث والمعاصر

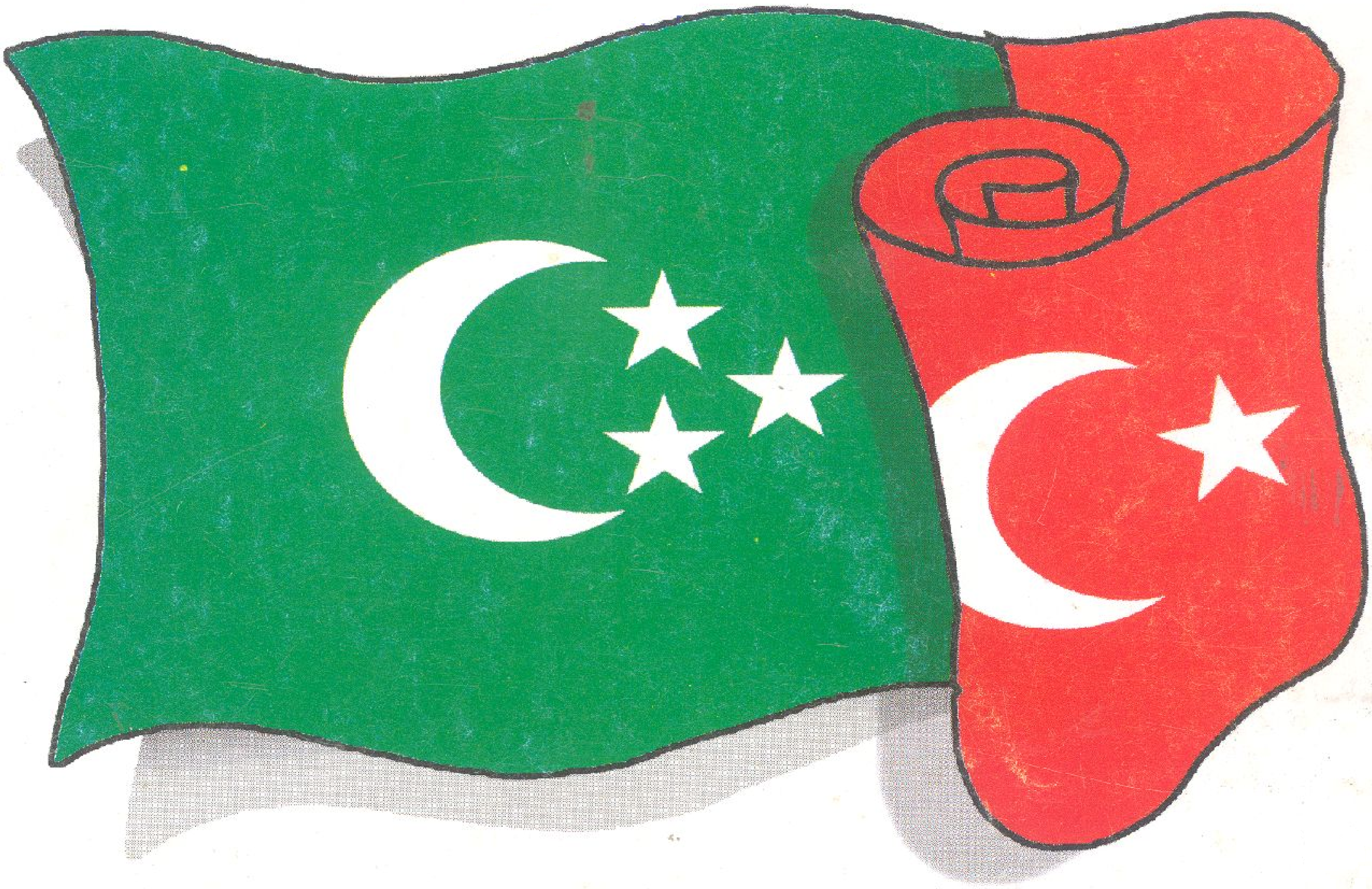

دراسات فى تاريخ مصر الحديث
٩٢٣ - ١٢١٣ هـ / ١٥١٧- ١٧٩٨م
«الجزء الأول»

تأليف
دكتور صلاح أحمد هريدى على
أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - فرع دمنهور
جامعة الأسكندرية

الطبعة الأولى
٢٠٠٠

عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمـــــد إبراهيم الهـــــوارى

د . شـــوقى عبد القوى حبـــيب

د . علـــى الســـيـــد علـــى

د . قاســـم عبده قاســـم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشـر : عين للدراســات والبحــوث الإنسانيــة والاجتماعيــة

- ٥ شــارع ترعة المريوطية - الهــرم - ج.م.ع - تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خـالـد بـن الـولـيـد بـالـهـرم - رمـز بـريـدى ١٢٥٦٧

Publisher: ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, MaryoutiaSt ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P . C 12567

إهــداء

إلى أستاذى العالم الإنسان

الدكتور عمر عبد العزيز عمر ، ، تحية ووفاءً .

صلاح أحمد هريدى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد رسول الله ص وبعد ... أقدّم هذه الدراسات عن تاريخ مصر العثمانية ، ويتحدث الفصل الأول عن الدراسة التحليلية لبعض مصادر ومراجع مصر العثمانية ، فقد تعرضت لأهم المصادر التى رجعت إليها سواء كانت وثائق لم تنشر بعد ، مثل سجلات المحكمة الشرعية التى شملت اسقاطات القرى ، والقسمة العسكرية ، وسجلات الباب العالى . (أما أرشيف دار الوثائق القومية بالقلعة فتحوى من بين سجلاتها دفاتر الالتزام التى تعطى صورة واضحة عن النظام الاقتصادى فى مصر إبان الحكم العثمانى وسجلات محكمة قنا وإسنا ، وتعطى صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية وخاصة الزواج والطلاق والأوقاف ودور أهل الذمة وغير ذلك) ولابد من التنويه هنا أن هذا البحث أول من اهتم بالبحث فى هذه المحافظ بالإضافة إلى محافظ الحجج الشرعية وغير ذلك. وسجلات المحكمة الشرعية فى أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية .

وبالنسبة للمخطوطات تعرضت بالدراسة لأهم المخطوطات التى أفادتنى إفادة كبيرة ، بخاصة أن أصحاب تلك المخطوطات قد شاركوا فى الأحداث الهامة التى شهدتها مصر فى تلك الفترة مثل أحمد كتخدا عزبان " الدرة المصانة فى أخبار الكنانة " وإبراهيم الصوالحى "تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق " وأحمد شلبى عبد الغنى " أوضح الإشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء " والباشات " وأحمد بن زنبل المحلى الرمال " تاريخ غزو السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع السلطان قانصوه الغورى سلطان مصر " والشيخ على بن محمد الشاذلى الفرا " ذكر ماوقع بين عسكر المحروسة بالقاهرة (١١٢٣ هـ / ١٧١١م) " وغيرهم الإضافة إلى كثير من المخطوطات التى تعرضت لها فى مواطنها أثناء الكتاب .

وهناك مصادر أخرى هامة ككتاب محمد ابن إياس الحنفى" بدائع الزهور فى وقائع الدهور"وعبد الرحمن الجبرتى " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" وعند التعرّض للمراجع أشرت إلى دراسات بعض المؤرخين المصريين والأجانب أمثال محمد شفيق غربال " مصر عند مفترق الطرق "والدكتور عمر عبد العزيز عمر " دراسة لمصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية " والدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم " الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ".

أما المراجع الأجنبية فقد رجعت إلى كتابات ستانفورد شو Stanford Shaw وبيتر . م . هولت P. M. Holt وغيرهما ممن ساهموا فى هذا المجال .

ويتحدث الفصل الثانى من هذا الكتاب عن الفتح العثمانى لمصر ونتائجه . وتعرضت للعلاقات المملوكية العثمانية ، حيث كانت حسنة وتدهورت بعد ذلك . ولذلك فقد كانت العلاقات فى أول الأمر ، ووضح ذلك عندما كان يحقق أى طرف نصراً على القوى المعادية ، فيقوم الطرف الآخر بإرسال التهانى وإقامة البشائر . وظهر ذلك واضحًا فى عهد السلاطين المماليك والسلاطن العثمانيين وتبادلهما رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما . وتأزمت العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية بسبب متاخمة أراضيها وسبب صراعها على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت فى حالة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الأوج وتطمع بزعامة العالم ، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر .

وتمثل ذلك فى الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان ولجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك ، مثل لجوء الأمير سليمان العثمانى وأخته فاطمة شهرزادة إلى السلطان برسباى ، وأدى ذلك إلى تدهور العلاقات بين الطرفين ، وثورة الأمير جم ابن السلطان محمد الثانى والتجائه إلى السلطان قايتباى ، وأدى ذلك إلى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية . وظل الحال إلى أن تولى سليم وهروب أبناء أخيه أحدهم إلى فارس ، وسليمان وعلاء الدين وقاسم ، وإن كان الغورى قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون فأرسل سليم يطالب من الغورى تسليم قاسم . وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغورى طلبه بسبب أن الغورى كان يرى أن سليمًا الذى اجترأ على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين بسبب الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته . بالإضافة إلى قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين .

أما الفتح العثمانى للشام ومصر فقد تم بعد أن تدهورت العلاقات المملوكية العثماني ، وخاصة بعد قيام الصراع بين الصفويين والعثمانيين وانتهت بانتصار العثمانيين فى موقعه تشالديران عام ٩٢٠ هـ . ١٥١٤م ، بدأت بعد ذلك الاستعدادات من جانب كل من الغورى

وسليم ، ودخل المماليك المعركة ولم يستعدوا لها الاستعداد الكافى ، والنزاع بين المماليك الذين اصطحبوا السلطان الغورى إلى الشام ، بالإضافة إلى الخيانة التى دبت فى صفوف المماليك وانتهت بموقعة مرج دابق ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م بهزيمة المماليك ، واتخاذ السلطان سليم بعض الإجراءات فى الشام .

وبالنسبة للموقف فى مصر فقد تم اختيار السلطان طومان بعد موت السلطان قانصوه الغورى ، ورفض العرض المقدم من السلطان سليم بالتبعية ، وحدثت عدة معارك فى غزة ، ومساعدة بدو سيناء للعثمانيين ، والمتاعب التى ظهرت من جانب المماليك أنفسهم ، ووصل العثمانيين إلى الريدانية وحدثت موقعة مهولة ، حيث قتل فى هذه الموقعة سنان باشا الصدر الأعظم ، حيث ظن طومان باى أنه السلطان سليم . وانتقم العثمانيون لذلك أشد الانتقام من المصريين والمماليك ودخل سليم القاهرة . ولجأ طومان باى إلى الصعيد والوجه البحرى ، ودارت عدة معارك ، وبدأت الخيانة تدب فى صفوف المماليك مرة أخرى ، وانفض عرب هوارة الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باى خاسرة ، ورفض عرب المغاربة الاشتراك معه لكونه مسلمًا يحارب مسلمًا .

وتم التعرُض لموقف القبائل العربية الأخرى بالوجه البحرى وخاصة أولاد مرعى بالبحيرة وانتهى الأمر بتسليم طومان باى إلى السلطان سليم ، وتم اعدامه على باب زويلة ، واتخذالسلطان سليم عدة إجراءات إدارية فى مصر ، وعيَّن جانم السيفى كاشفًا على البهنسا والفيوم ، كما عيَّن اينال السيفى على الجيزة والغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة إلى غير ذلك من الإجراءات . وانتهى هذا الفصل بشرح الأسباب التى أدت إلى هزيمة المماليك .

أما التنظيم الادارى فى مصر العثمانية ، فكان عنوان الفصل الثالث ، فقد اشترك فى حكم مصر الباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثانى ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها ، وهيئة أمراء المماليك ورجال الحامية العسكرية يشتركون فى الحكم والإدارة أيضًا إلى جانب مهمتها الحربية .

فقد كان الباشا على قمة الجهاز الإدارى ، وألقابه ، ومقره ، ومدة حكمه ، واختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وتفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة المملكة ورعايا الأمن ، وله حق الإشراف على جيمع الشئون الإدارية فى مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالى ويحضره قادة الأوجاقات وينفذ أوامر السلطان لإدارة

مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثمانى فيها . ورعاية المبادىء الخلقية فى ذلك العصر، وإبطال المنكرات والخمامير ومواقف الخواطىء والبوظ . وإقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية ، ورئاسة الاحتفالات بوفاء النيل ، والاحتفال بالعيدين ، وحفل خروج المحمل والكسوة فى طريقها إلى الحجاز .

وتم التعرُض لاختصاصات الباشا المالية ، حيث اعتبر المسؤول الأول عن مالية مصر ، والجهاز الذى يساعده فى ذلك مثل الدفتردار والروزنامجى ، وهو المسؤول عن إدارة خزينة مصر وموازنة إدارتها ومصروفاتها . وإرسال الخزينة الإرسالية إلى استانبول بالإضافة إلى الضريبة النوعية وتشمل مواد غذائية ترسل أيضًا . ودفع مرتبات الموظفين من مرتبات نقدية وعينية .

وعرفت أوامره الإدارية باسم البيورلدى وموارد الباشا ومصروفاته . وطريقة عزل الباشا وأسبابها ومحاسبته .

أما الديوان ، فكان يعرف باسم " ديوان محروسة مصر " و " ديوان حضرت والى النعم والى مصر " ويرأسه الباشا أو الكتخدا . ويضم الديوان خلاصة العناصر التى تشترك فى إدارة مصر ، مثل الدفتردار ، والمهردار ، حامل الأختام والدويدار حامل الدواة ، وقاضى عسكر أفندى ، والمفتون على المذاهب الأربعة ، وكبار رجال الدين ، والأمراء الصناجقة وأغاوات واختيارية الأوجاقات السبع . ولهم مهمة ثابتة فى ذلك . كذلك وجد فى مصر الديوان الصغير وكان يجتمع فى كل الأيام فى قصر الباشا .

والحامية العثمانية والأوجاقات السبعة ، وهى هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك فى حروب السلطان ، وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية فهى تساعد الباشا والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وتم التعرُض للأوجاقات السبعة مثل جماعات السباهية (الفرسان) ومنهم جماعة الكلوكليان ومهمتهم وتفنكجيان سوارى ، الجراكسة ، ومستحفظان وعزبان وجاوشان متفرقة وأهم أعمالهم .

ويأتى بعد ذلك القضاء كعنصر من عناصر الإدارة واختصاصاتهم الإدارية مثل الإشراف على الأوقاف والمرتبات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ... إلخ ومدتهم واختصاصاتهم القضائية وخاصة لقضاة الأقاليم . ويساعدهم المفتون وإيراداتهم ومدة خدمهم بالإضافة إلى الشخصيات الدينية الأخرى مثل نقيب الأشراف .

أما الإدارة المالية ، فقد تم التعرض لأقسام الخزينة السلطانية إلى قسمين :

١ - ديوان الدفتردار أو الديوان الدفترى .

٢ - ديوان الروزنامة .

أما التنظيم الإدارى حيث تعرضت للتنظيم الإدارى الذى كان موجوداً قبل ذلك ومجهودات العثمانيين بعد الفتح ، والصراعات التى كانت تدور حول التسابق للحصول على منصب حاكم ولاية من الولايات الكبرى كالشرقية ، والغربية ، والمنوفية ، والبحيرة وجرجا . والكاشفيات التى كانت موجودة مثل الكاشفيات الكبرى والكاشفيات الصغرى التى كانت تتبع بعض الولايات ، وتدهور هذا النظام وخلط مابين كلمة كاشفية وولاية ، وادارة الأقاليم كانت تتم عن طريق صناجق يحملون لقب بك ، وكان منصب الصنجقية من المناصب الهامة ولها الكثير من الامتيازات مثل حصولهم على نصيب عينى من القوافل الواردة من دار فور وسنار . وعلى هذا الأساس حرص الأمراء المماليك على جعل هذا المنصب قاصرا على أولادهم وأتباعهم .

أما الكاشفيات فى الصعيد فقد كان يتولاها أمير درجة ثانية ، شأنها فى ذلك شأن بقية الكاشفيات . وكانت هذه المناصب تتأرجح بين فرقتى الفقارية والقاسمية ، وهما من دعائم سلطة الحزب المملوكى المسيطر على الحكم ، وأشرت إلى التعديلات التى حدثت على هذه الكاشفيات طوال القرن الثامن عشر الميلادى ، وأضافة بعض الاقاليم الادارية الهامة والتعديلات التى أدخلت على تلك الكاشفيات . وقد ركزت على الولايات أو الاقاليم التى قامت بدور هام فى الأحداث السياسية التى شهدتها مصر العثمانية ابان تلك الفترة مثل اقليم الأشمونين والبهنسا وجرجا وغير ذلك .

وتعرضت للجهاز الادارى ابتداء بحاكم الولاية ، واجراءات توليته والرتبه التى كان يحملها ومدته ، ومحاسبته عند انتهاء خدمته أو عزله ، ومرتبه النقدى والعينى وواجباته وسلطاته التى كانت متمثلة فى المعاقبة بالسجن وفرض الضرائب وتحصيلها ، والشروط التى يجب توافرها لمن يتقلد هذا المنصب ، ولقد فقد هذا المنصب أهميته بعد دخول قبائل العربان ميدان الالتزام .

أما الكشاف فقد اقتصر اختيارهم على مشايخ العربان فى الصعيد الأعلى ، وكشف البحث عن مهمتهم وعددهم ومدة توليتهم ودخولهم النقدية والعينية واستغلالهم لنفوذهم باستيلائهم على بعض الأراضى .

ومن عمد النظام الأوجاقاتالعسكرية ، لذا فقد تعرضت لأهم الأعمال التى تقوم بها ومشاركتها فى ادارة الريف ، واستغلالها للفرص باستيلائها على أجود الأراضى الزراعية ، مما جعلهم مصدر قلق وازعاج للسلطات الحاكمة فى القاهرة ، وقد ازداد نفوذهم وقوتهم حيث قاموا بعزل بعض حكام جرجا عام ١١٢٠هـ/١٧٠٧م وقاموا بتعيين آخرين مكانهم متجاهلين السلطات الحاكمة .

وبينت التغييرات التى طرأت على منصب القضاة بعد أن أبطل السلطان سليمان المشرع نظام القضاة الأربعة فى مصر وعيَّن قاضيا عثمانيا - قاضى عسكر أفندى - على أن يتصرف حسب المذاهب الأربعة ، وطريقة تعينه وتعيين نوابه ، والاهمال الذى تطرق الى هذا النظام ، كما تعرضت للمدة التى قضاها هؤلاء القضاة فى عملهم والمساعدين لهم ، وهم المفتون الذين كانوا موجودين بجانب القضاة .

أما الجهاز الادارى فى ريف مصر العثمانية ، فقد كان يتمثل فى الملتزم وشيخ القرية والقائمقام والشاهد والصراف والخولى والمشد والخفير والكلاف .. الخ . وتعرضت لاختصاصات كل منهم وواجباتهم والمدة التى يمضونها فى مناصبهم .

أما الجهاز الادارى فى ميناء الاسكندرية فكان على رأس الجهاز الادارى القابودان ، وكانت الدولة العثمانية تعينه مع غيره من القبودنات الذين يعينون فى دمياط ورشيد والسويس ، وكان قبودان الاسكندرية أهم هؤلاء القبودانات وحددت اختصاصاته الادارية والعسكرية ودخله السنوى والعينى ، ويساعده الديوان الخاص بالإسكندرية وأعضائه . والجهاز الادارى الذى يعمل بالديوان والمسائل التى يبحثها الديوان وواجباته الادارية والقضائية والمالية والعسكرية والاقتصادية . واعلان وفاء النيل ، ثم تم التعرض للأوجاقات العثمانية فى الإسكندرية ودورها فى الادارة ، وادارة القلاع الموجودة والعناصر المشتركة فى ادارتها وتحديد دور كل أو جاق فى الادارة فى الميناء .

وتم التعرض بعد ذلك إلى التطور التى حدث فى المراكز الهامة مثل القبودان ، والأغاوية ، والسرداريه ، والمحتسب والإجراءات الادارية التى اتخذتها الحملة الفرنسية والتدهور الذى حدث بالقضاء أيضا .

أما الفصل الرابع فقد دار حول "الالتزام والضرائب فى مصر العثمانية "حيث أن نظام الالتزام لم يبدأ مرة واحدة فى مصر ، وانما بدأ بنظام الاقطاع والفئات التى كانت توزع عليها

الاقطاعيات ، والقاعدة العامة فى توزيعها ونصيب العربان منها . وكانت هناك مناسبات عديدة توزع فيها الاقطاعيات مثل تعيين سلطان جديد فى الحكم ، أو استيلاء الدولة على أراضى جديدة . واختلاف النظام الاقطاعي فى مصر عن مثيله فى أوروبا . وأصيب هذا النظام بالخلل والفساد فى أواخر عصر المماليك واتبعت الدولة العثمانية نظام الاقطاع الحربى الذى كان يوزع على الأمراء من سلاح الفرسان أو الخيالة والسباهية ، ثم اتبع بعد ذلك نظام المقاطعات أو نظام الأمانات الذى فشل ، ويرجع ذلك الى اتباع الموظفين المشرفين على هذا النظام وسائل غير مشروعة فى جمع الأموال . وازاء ذلك اضطرت الدولة العثمانية الى تطبيق نظام الالتزام فى ولاياتها منذ عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م بعد نجاحه فى الأناضول والروملى وشمال العراق . واختلف هذا النظام عن نظام الأمانات فى جمع الضرائب حيث أن الملتزم هو الذى كان يقوم بعملية جمع الضرائب لاعن طريق موظفين حكوميين ، ولكن عن طريق المزايدة أو الاتفاق بين الملتزم والروزنامة بعد موافقة شيخ البلد على عقد هذا الالتزام .

وقد حل الملتزمون طبقا لهذا النظام محل الحكومة ، ولايعنى ذلك ملكية الأرض للملتزم ، ويجوز للملتزم حق توريث التزامه لمماليكه البيض أو لأولاده نظير "حلوان" ويجوز له رهن حصة التزامه ، وقد أدى ذلك إلى ظهور العديد من المشاكل . واختلف نظام الالتزام فى الوجه القبلى عنه فى الوجه البحرى ، لأن أغلب الأراضى الزراعية كانت ملكا مشاعا ، ويرجع ذلك إلى طبيعة النظام المتبع فى هذه الجهات ، بالإضافة إلى بعده على مقر الحكم فى القاهرة .

وقد دخلت ميدان الالتزام الاوجاقات العسكرية والمماليك والجلبية وبعض التجار والنساء وبعض العلماء والمشايخ . وقد تعرضت لهذا من واقع الوثائق الخاصة بذلك مثل دفاتر الالتزام وسجلات اسقاطات القرى ثم تعرضت لمزايا ومساوئ نظام الالتزام .

وقد مرت الضرائب بتطورات عديدة ، فقد كان خراج الصعيد يجبى عينا أو نقدا ، وغالبا يكون غلة ويرجع ذلك إلى وصول كمية المياه ، وقد كان عربان الصعيد كثيرى المماطلة فى الدفع ، وكان شيخ العرب همام هو الذى يقوم بعملية جمع الضرائب بموجب التزام من الحاكم . وتمثلت أنواع الضرائب فى ضريبة الخراج ، ضريبة الالتزام وضريبة الكشوفية بالاضافة إلى ضرائب اضافية فرضت فى حينها .

وقسمت مصر العثمانية إلى أربعة أقاليم رئيسية لجباية الضرائب فكان أولها اقليم الشرقية واقليم الصعيد اقليم الفيوم واقليم الغربية . وتأثرت عملية جمع الضرائب بقوة الولاة

العثمانيين وضعفهم . وقام الأقباط بجباية الضرائب ، وربما يرجع ذلك إلى خبرتهم ، وفرضت أعباء مالية فى ظل نظام الالتزام .

وتتم عملية التحصيل على أربع مرات سنويا ،وتجمع الأموال ثم تصرف منها على الادارة وصيانة الجسور السلطانية ، ويرسل الباقى للروزنامة . ويوجد العديد منها ، بالإضافة إلى وجود الضرائب المفروضة على الأقباط وعرفت بالجزية ، كما عرفت أيضا باسم ضريبة الجوالى. وكان من حق حاكم ولاية جرجا جباية الخراج المطلوب من المسيحيين واليهود ، كما أعفى الأولاد على حسب أعمارهم وكذلك النساء .

أما الفصل الخامس عن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى وهى جمارك الإسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس ، وقد ركزت هذه الدراسة على هذه الجمارك لأنها كانت تعد المنافذ الرئيسية لمصر فى البحر المتوسط وأهميته كحلقة إتصال بين الشرق والغرب .

وقد تم التعرض لأهمية موقع مصر الجغرافى ، وطرق المواصلات العالمية ودراسة هذه الموانى ، ودور كل منها فى حركة التجارة الخارجية لمصر خلال هذه الفترة ، والإدارة لكل منها والعناصر المشتركة فى إدارتها .

فقدمت هذه الدراسة ميناء الإسكندرية وأهميته ، وجمركه ونظام الادارة فيه ، والعناصر المشتركة فى إدارته . ثم تعرضت بعد ذلك لميناء رشيد وجمركها وانضمامه إلى جمرك الإسكندرية فى القرن العاشر الهجرى / منتصف القرن السادس عشر الميلادى . ثم أهمية جمرك رشيد فى القرن الثامن عشر الميلادى .

وميناء دمياط وأهميته الإقتصادية فى البحر المتوسط ، وإدارته وجمركه والعناصر المشتركة فى إدارته أيضا ، والبرلس حيث كانت أهميتها تأتى من كونها مركزاً للقوافل الواردة من شمال أفريقيا وفزان ، والخسائر التى لحقت به ، مما ترتب عليه إنضمامه إلى جمرك دمياط فى أواخر القرن الثامن عشر .

وبالنسبة لإدارة الجمارك فقد تم التعرض لها من حيث نظام التفتيش الدقيق للسفن الواردة والإجراءات التى كانت تتبع ، والرسوم التى كانت تفرض سواء على الأشخاص أو البضائع ، والمعاهدات التى عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية بهذا الخصوص . والمشاكل التى نجمت عن ذلك . والهيئات الأخرى التى كانت تشارك فى إدارة هذه الجمارك مثل القناصل وغيرهم .

وطبقت الدولة العثمانية نظام الإلتزام فى جماركها ، وسرى ذلك على مصر ، حيث أصبحت هذه الجمارك تمثل العنصر الثانى للايراد فى الدخل بعد الأرض وعملية نقل المزاد فى الجمارك إلى الملتزمين .

وتميز القرن السابع عشر بأن جمارك مصر المهمة أعطيت كالتزام للباشا ومقاطعاته المهمة ، وظل كذلك بالنسبة لجمرك الإسكندرية حتى نهاية القرن السابع عشر ، ثم سيطرت بعد ذلك الإنكشارية وتبع ذلك رشيد ودمياط والبرلس ومصر القديمة وبولاق . وأصبحوا يدفعون للباشا عوائدها وبالتالى إستولوا على إيراداتها .

أما فى القرن الثامن عشر . فقد تم تأجير مقاطعات جمارك إسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر القديمة إلى إختيارية المستحفظان وظل ذلك حتى عهد على بك الكبير ، وحاولت الدولة العثمانية أن تعيد التزام هذه الجمارك للباشا ولكنها لم تفلح . بل إننا قد لاحظنا إزدياد قوة الإنكشارية وتمادت حتى أنها ضغطت على الباشا وجعلته يدفع والعوائد المقررة عليها .

وبالنسبة للمصاريف التى كانت تنفق من حصيلة الجمارك فقد أوردتها الدراسة بالتفصيل.

وختمت الدراسة بنهاية القرن الثامن عشر وكيف استولى كل من مراد وابراهيم بك على جمارك مصر واقتسماها . وظل ذلك الوضع إلى نهاية هذا القرن والسياسة التى اتبعاها نحو الأوروبيين ، وخاصة عندما فرضا رسوما اضافيا ، مما أدى ذلك لتدخل بعض الدول الأوروبية لحماية رعاياهم من مظالم مراد بك وإبراهيم بك ، وانتهى الأمر بعقد إتفاقيات تجارية معهم مثل فرنسا وإنجلترا .

وقد إعتمدت هذه الدراسة على سجلات الروزنامة بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة ، ودار المحفوظات القومية ، وأرشيف الشهر العقارى بالقاهرة والإسكندرية .

أما الفصل السادس فقد دار حول التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى وهناك جوانب عديدة مازالت فى إحتياج لإلقاء الضوء عليها فى تاريخنا الحديث ، ويمثل التعليم جانبا من تلك الجوانب . ولذلك نتناوله بالبحث والحديث عنه فى مصر وبخاصة فى القرن الثامن عشر ، لما شهده هذا القرن من الأحداث المهمة والعديدة التى كان لها أكبر الأثر فى نواحى الحياة المتعددة ومن هذه الأحداث ذات الأثر الكبير تجدد الصراع بين البيوتات المملوكة بغرض السيطرة على السلطة . فقد أثر هذا الصراع على نواح متعددة وما من شك أن التعليم

قد تأثر بذلك الصراع فهو ناحية مهمة وحيوية من نواحى المجتمع وأثر عليه ذلك الصراع وبخاصة العلوم العملية منه فقد تدهورت أحواله .

إلا أنه فى أواخر هذا القرن قد شهد شهد التعليم بعض التطورات المهمة للنهوض به وقد جاء ذلك متأخراً . فمصر قد واجهها قدوم الحملة الفرنسية عليها عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، وكان لقدوم تلك الحملة على مصر أثر فى تلك النهضة العلمية وذلك لما إتخذته من خطوات إبان وجودها فى مصر من الناحية العلمية ، وما إتخذه محمد على من خطوات فى هذا المجال وفى مجالات أخرى .

ولذلك فقد تحدثنا عن الحياة العلمية فى مصر منذ عصر دولة المماليك والنشاط العلمى فى عصرهم ، وخاصة بعد إحيائهم للخلافة العباسية فى القاهرة وتشجيع كل من السلاطين والأمراء المماليك للحياة العلمية ، بل واشتغال بعضهم - أى الأمراء - بالتاريخ والفقه والحديث .. إلخ .

وإنتهى أمر مصر وسقطت فى أيدى الأتراك العثمانيين إعتباراً من عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م. وتدخل مصر مرحلة جديدة نلحظ منها وضع التعليم فيها وما أصابه . وقد كان للسلطان سليم الأول موقف من ذلك كله وخاصة عندما أصدر قراره بترحيل بعض علماء الأزهر إلى استانبول، ومعهم بعض الحرفيين وآخر خلفاء العباسيين وبعض الأعيان والتجار وترتب على ذلك إتخاذ البعض هذا القرار للتشهير بالدولة العثمانية . علما بأن السلطان سليمان القانونى أصدر قراره بعودة هؤلاء بعد وفاة والده السلطان سليم عام ١٥٢٠م وتبع ذلك عدة قرارات وتباطئ البعض فى العودة .

وأصدر السلطان سليم عند وجوده فى مصر قرارا بعدم التعرّض للأوقاف التى كانت مخصصة للصرف على أوجه الخير ومنها التعليم . ومجهودات بعض باشوات مصر العثمانيين فى هذا المجال وخاصة فى العلوم الدينية . وهذا يرجع إلى طبيعة ذلك العصر الذى كان قائما على قانون العرض والطلب ، حيث تركت مهنة الطب والجراحة فى أيدى الحلاقين والمشايخ ، وإنحطت علوم الصيدلة وبعض العلوم الأخرى مثل الفلاحة والمساحة .. إلخ . بالإضافة إلى الإهتمام بدراسة اللغة التركية واللغة الفارسية ، وأهملت اللغات الأجنبية ولم يهتم بها إلا فى عهد محمد على .

أما عن مراحل التعليم المختلفه ، فكانت تتمثل فى الكتاب والمدرسة وبعض المؤسسات التعليمية الأخرى التى ساهمت بشكل واضح فى مجال التعليم وإن إختلفت وسائله ومناهجه

مثل الروابط والزوايا والخانقاوات ، وأهل الذمه والأوروبين ، وإن لم يتضح ذلك بالنسبة لهم- الأوربين - إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

فتناولت الحديث عن الكتاب سواء كان للمسلمين أو المسيحين أو اليهود ، والتعرّض إلى النظام الذى كان متبعا فى كل منهم ، والمواد التى تدرس ونظام العمل فيه ، وطريقة الثواب والعقاب ، وتتبعنا ذلك كله بدءا من دخول التلاميذ فى هذه المرحلة حتى إتمامها . والإجراءات التى كانت تتبع فى مثل هذه الحالات كما كانت هناك المكاتب العامه حيث كانت مهمتها تعليم أبناء الأيتام والفقراء مجانا ، ويتم الانفاق عليها من الأوقاف والمكاتب الخاصة التى يتم التعليم فيها الأجر ، بالإضافة إلى جهود العثمانيين فى ذلك .

أما كتاتيب المسيحين فقد اكتسبت شهرة خاصة ، مما ترتب عليه إرسال بعض أبناء المسلمين إليها ، وقد حدث العكس أيضا بالنسبة لكتاتيب المسلمين . أما اليهود فلم يكن لهم نظام ثابت بسبب وجودهم فى الشتات . إلى أنهم كانوا يعيشون فى أحياء خاصة بهم . وبالرغم من ذلك فقد كان لهم نظامهم فى التعليم الخاص بهم .

أما المدارس وتطورها . والمواد التى تدرس بها ، وأسباب إنشائها ومجهودات كل من المماليك والعثمانين والأهالى فى هذا المجال ، ودورها فى المجالات الأخرى ، والمبانى التى ألحقت بها مثل مساكن الطلبه والمدرسين ، وخضوعها لنظام التفتيش من جانب السلطات المختصه . ومدارس الأقباط فانها لم يتم إنشاؤها إلا فى القرن التاسع عشر ، كذلك كان هناك المدارس اليهودية التى إلتحق بها بعض الطلبه المسلمين ، كما تعرضت للمناهج الدراسية والمدة التى يقضيها الطالب .

وكان هناك أيضا المؤسسات التعليميه الأخرى مثل المساجد والربط والترب والزوايا والتكايا ، والمعاهد الخاصة بكل مذهب ، فقد كان للمسجد عدة وظائف أخرى غير التعليميه والصلاة ، فهو يمثل مركزا للاعلام ومركزا للاشعاع الفكرى والثقافى والسياسى ، ثم تكلمنا عن جهود كل من المماليك والعثمانيين فى هذا المجال ، والربط والزوايا والتكايا والمواد التى تدرس بها والغرض الذى من أجله انشئت . وأيضا جهود المسيحين واليهود والأوربيين وهدفهم من إنشاء هذه المؤسسات التعليمية .

وتعليم المماليك ونظام تعليمهم والمواد التى كانوا يدرسونها ، وظهور بعض أمرائهم فى مجال التعليم وبخاصة فى بعض التخصصات . وتطور نظام تعليمهم بعد ذلك فى عهد محمد

على ، والبدو ونظامهم ومجهوداتهم فى المناطق التى عاشوا فيها ، والصرف على التعليم وإنشائهم لبعض المدارس وغير ذلك ، وتم التعرض بعد ذلك لتعليم البنات المسلمات والمسيحيات واليهوديات وطريقة تعليمهن وغير ذلك .

أما عن الأزهر فقد كان يمثل مرحلة التعليم العالى ومعه بعض المعاهد الأخرى المنتشرة فى البلاد ، وكان للمسلمين والأتراك العثمانيين والأمراء المماليك جهود تذكر وتناولنا الحديث عن المواد التى كانت تدرس به ، وحفلة التخرج بالنسبة لطلبته والأجازات التى تمنح للطلبة ونوعها.

وإتصالا بالتعليم فقد أنشئت المكتبات التى وجدت فى الجوامع والمدارس والروابط والخوانق، والمكتبات الخاصة لدى الأهالى ، وتكلمنا عن ذلك وعن نظام الإستعارة ومدتها والموظفين العاملين فيها مثل خازن الكتب وإختصاصاته ، والمترجم ، والنساخ ، والمجلد ، والمناول ، والخادمون ، والفراشون .

أما الإدارة فى التعليم ، فكانت تنقسم إلى قسمين ، القسم الفنى ويشمل أعضاء هيئة التدريس فى الكتاب وهم المعلم أو الفقيه أو المؤدب والعريف والشروط التى يجب توافرها فى كل منهم. وفى المدرسة يكون المدرس والمعيد . وفى الأزهر كان يوجد الاساتذة المخصصون والالقاب العلمية ، التى كانوا يحملونها ، أما القسم الثانى من الإدارة ، فهو الناظر ، والمباشر والصراف ، والشادية وكاتب الغيبة ، والمعمار ، والمرخم ، والسباك ، والنجار ، بالإضافة إلى وظائف الخدمات مثل الطباخ والعاملين بالساقية والمزملة والبواب والفراش وإختصاص كل منهم .

أما الإنفاق على التعليم ، فكان من أموال الأوقاف الموقوفة للصرف على التعليم ولأغراض أخرى . وتسابق كل من العثمانيين والامراء المماليك والأهالى للصرف على هذه الاماكن وعلى طلبتها والعاملين فيها . وذلك بعكس أوروبا التى كانت الحكومة هى التى تتولى الصرف على التعليم . وكان تعليم المسيحيين هو الآخر يعتمد على الإعانات التى تأتيهم من الأديرة.

وتم التعرض بعد ذلك للركود والجمود الذى أصاب التعليم ، والأمثلة على هذا التدهور فى بعض العلوم المختلفة وأثر ذلك كله على التعليم .

أما الخاتمة فكانت للجهود المبذولة لحركة إحياء الثقافة فى جميع الدراسات الرياضية والفلكية والأدبية ، وجهود علماء الحملة الفرنسية وما ترتب على ذلك .

أما الفصل السابع عن الأوبئة والأزمات الاقتصادية فى مصر العثمانية ، (٩٢٣هـ/ ١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م) ، فقد تعرض للأوبئة التى وقعت فى مصر العثمانية ، وقد نتجت هذه الأوبئة عن سوء الأحوال الصحية ودور الدولة العثمانية فى ذلك وقد تم التعرض إلى انتشار الطاعون وماترتب عليه وجهود الباشوات العثمانيين ازاء ذلك . ومن الملاحظ فى فترات انتشار هذا الوباء كان الولاة أشد فتكا من الطاعون فمنهم من استغل الموقف وارتكب الكثير من المظالم ، خاصة ضد التجار وأصحاب الأموال . بالإضافة إلى أن الطاعون لم يكن واحداً ، فهناك الطاعون الأصفر ، وطاعون الحريق ، وطاعون عجيب انتشر فى الشتاء .

وكانت الكوارث الطبيعية التى حاقت بمصر العثمانية احتراق سوق البارود ، وتعرض البلاد للزلازل ، والأمطار الغزيرة التى كانت حبيباتها فى حجم بيض النعام وتدميرها لبعض القرى .

أما الازمات الاقتصادية فكانت كثيرة ومتنوعة وكان لها آثارها السلبية فى الحياة الاجتماعية ، وأسبابها كثيرة منها ثورات جند السباهية ، والصراع بين البيوتات المملوكية ، وأثر ذلك على ارتفاع أسعار المواد الغذائية وموقف السلطات الحاكمة من ذلك والأهالى أيضا. بالإضافة إلى تزييف العملة وغشها فى عهد بعض الولاة وتحديد اسعار العملة ودور اليهود فى حدوث تلك الأزمات الاقتصادية والاختلاسات والعربان وانخفاض وزيادة منسوب النيل .

وختمت الدراسة بشهود مصر الرخاء وقد عبر النساء عن فرصهم بالزغاريد واستبشر الناس بذلك واحتفلوا بختان ابنائهم وأقيمت الأفراح .

أما الفصل الثامن : فيدور حول الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . حيث تتعرض مشروع الحملة والاستعداد ، والسياسة الأوروبية فى تلك الفترة ، وحالة الإمبراطورية العثمانية ، وسياسة فرنسا تجاه الشرق والمفهوم الجديد للحضارة ، وظهور نابليون بونابرت والثورة والشرق . ثم الاعداد للحملة وموقف انجلترا والدولة العثمانية ، ووصول الحملة إلى الإسكندرية واحتلالها واحتلال القاهرة والمقاومة المصرية والإجراءات التى اتخذها نابليون فى مصر ، ثم رحيل الحملة ونتائج الحملة الفرنسية على مصر .

وأخيراً أرجو أن يهم هذا الجهد المتواضع الذى أقدمه فى هذه الدراسات فى حركة اعادة كتابة تاريخ مصر الحديث .

اسبورتنج فى أغسطس سنة ١٩٩٩ .

صلاح أحمد هريدى

الفصل الأول
دراسة تحليلية
لبعض مصادر ومراجع مصر العثمانية

لقد اهتم الباحثون في تاريخ مصر الحديث ، بالفترة التى تبدأ بالغزو الفرنسى لمصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م أو بتولية محمد على باشا حكم مصر عام ١٢٢٠-١٢٢١هـ/١٨٠٥م وأغفلوا فترة هامة من تاريخ مصر الحديث ألا وهى فترة الفتح العثمانى لمصر منذ عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م حتى الغزو الفرنسى عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م .

وليس معنى هذا أن أحداً لم يعتن بهذه الفترة ولكن قلة فقط اهتموا بها أمثال الأستاذ محمد شفيق غربال [١] والدكتور عبد العزيز الشناوى[٢] والدكتور حسن عثمان ومحمد توفيق[٣] والدكتور عمر عبد العزيز عمر[٤] والدكتورعبد الرحيم عبد الرحمن[٥]

---

(١) انظر : محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨-١٨٠١م) ، رسالة حسين أفندى الروزنامجى ، (المقالة الأولى) ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة المجلد الرابع ، الجزء الأول مايو ، عام ١٩٣٦ ، ص١-٧١ .

(٢) انظر : عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جزءان ، القاهرة ١٩٨٠ ، عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، القاهرة ، عام ١٩٦٧ .

(٣) انظر : حسن عثمان ، محمد توفيق ، تاريخ مصر فى العهد العثمانى (١٥١٧-١٧٩٨م) ، نشر فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ، القاهرة ، عام ١٩٤٢م .

(٤) انظر : عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربى من الفتح العثمانى حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى ، بيروت عام ١٩٧١ .

- دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، بيروت عام ١٩٧٥ .
- دراسة لمصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ .

(٥) انظر : عبد الرحيم ، عبد الرحمن الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٧٤ .

- دور المغاربة فى تاريخ مصر الحديث ، المجلة التاريخيةالمغربية ، الأعداد ٩ : ١١ .
- تحقيق دراسة نصيبة لكتاب "هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف" المجلة التاريخية المصرية ، المجلد العشرون ، بالإضافة إلى مجهوداته فى تحقيق الكثير من المخطوطات مثل :

أوضح الإشارات لأحمد شلبى عبد الغنى ، كشف الكربة ، نهاية الأرب برفع الطلب وغير ذلك .

والدكتورة ليلى عبد اللطيف[١] وغيرهم ، ومن المؤرخين الأجانب ستاتفورد شو[٢] Stanford Shaw وبيتر م . هولت[٣] P.H. Holt وأندريه ريمون[٤] André Raymond بالإضافة إلى مجهودات علماء الحملة الفرنسية التى حفظت فى مجلداتهم الضخمة تحت عنوان : Descripon de L'Egypté .

واستناداً على ماتقدم فقد كان لزاماً على أن أقف طويلا لدراسة المصادر الأصلية التى اعتمد عليها ، وقد صنفتها حسب أهميتها على النحو التالى :

أولا : أرشيف دار الوثائق القومية بالقاهرة :

ويوجد به الكثير من الوثائق الهامة التى تتعلق بتاريخ مصر الحديثة والمعاصرة عامة ، ومصر العثمانية خاصة وتتمثل فى الآتى :

١- دفاتر الالتزام

وكانت هذه الدفاتر موجودة فى دار المحفوظات العمومية ، ثم نقلت بعد ذلك إلى دار الوثائق القومية ، وبدراسة هذه الدفاتر وجدت أنها تبدأ بسنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م ، وقد سجل بها وخاصة دفاتر التزام الولايات القبلية ، أسماء النواحى التى تتبع كل ولاية وأسماء الملتزمين ، والضرائب المقررة عليها ، الأموال الأميرية وغير الأميرية ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر - دفاتر التزامات الوجه القبلى رقم ١٠٥ عين ٣ مخزن تركى لسنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م وأرقام ٤٦١٩ ، ٤٦٣٩ .

وكان لكل عام سجل خاص ، مدوّن به أسماء الولايات والنواحى التابعة لها ، وبنهاية كل سجل ، سجل للحساب الإجمالى المطلوب من الولاية ، كما أنه يلاحظ أنها مكتوبة بخط القيرمة ، الذى يصعب قراءته ، إلا أننى استفدت كثيراً من الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ،

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد شيخ العرب همام وحكم جرجا ، القاهرة ١٩٨٧ .

- الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٨ .

(٢) انظر : ستانفورد شو Stanford Shaw ومؤلفاته ص ٧٨ ومابعدها .

(٣) انظر : بيتر هولت P.H. Holt ومؤلفاته ص٧٩ ومابعدها .

(٤) انظر أندريه ريمون André Raymond .

مما ساعدنى على قراءتى هذا الخط أثناء وجودي معه فى القلعة ، وتمكنت بعد فترة من التعود على قراءته ، كما استعنت أيضاً بالمختصين بدار الوثائق ، وقد أفادتنى هذه الدفاتر كثيراً عند التعرض لنظام الالتزام إبان هذه الفترة .

٢- سجلات محكمة قنا وإسنا :

قبل التحدث عنها لابد من الإشارة إلى أننى كان لى شرف الاهتداء إلى هذه السجلات التى بها من المعلومات القيمة الكثيرة خاصة عن قبائل هوارة وأهل الذمة وغيرهم . وتشتمل على ثلاث محافظ وهى السجلات الوحيدة الموجودة بدار الوثائق القومية والخاصة بالوجه القبلى إبان هذه الفترة ، إلا أنه لم يتمكن ن العثور على سجلات ومحافظ أخرى ، والمحافظ الموجودة على النحو التالى :

(أ) المحفظة الأولى

يلاحظ على وثائقها أنها غير مرقمة ، وأغلبها متآكل كما أن محتوياتها تشتمل على وثائق وحجج من محكمة قنا وإسنا عن نسب الهوارة وانتمائهم إلى الأسرة النبوية الشريفة وينبغى أن أوضح هنا أن الدكتورة ليلى عبد اللطيف أشارت فى رسالتها لدرجة الماجستير إلى أن نسب الهوارة تم فى عهد محمد على ، ولكن الوثائق التى عثرت عليها تدل على أنهم حاولوا قبل ذلك بكثير ففى سنوات ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م ، ١١٠٩هـ/١٦٩٧م ، ١١٣٦هـ/ ١٧٣٣م ، ١١٨٧هـ/١٧٧٣م حصلوا على حجج بذلك[١] . ويبدو أنهم قاموا بهذه المحاولات نظراً للأحداث التى شهدتها مصر فى ذلك الوقت .

وتشتمل هذه المحفظة أيضاً على التزام الهوارة واشهادت وباقى المحتويات عبارة عن بيوع وديون وممتلكات وخلافه وزواج ومؤخر صداق .

(ب) المحفظة الثانية

وهى عبارة عن إشهار تعيين السيد أبو على سليمان الهوارى ناظراً أعلى لوقف الهمامية ، أما باقى محتويات المحفظة فهى عبارة عن إشهادات متنوعة من بيوع وممتلكات وخلافه زواج ومؤخر ، وقد استعنت بهذه الوثائق فى دراسة الحياة الإجتماعية فى مصر .

---

(١) ليلى عبد اللطيف ، شيخ العرب همام وحكم جرجا ، القاهرة ١٩٨٧ .

(ج) المحفظة الثالثة

وهى عبارة عن إشهادات من سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م إلى سنة ١١٥١هـ/١٧٢٨م وسنوات ١١٥٣هـ/١٧٤٠م ، ١١٧٦هـ/١٧٦٢م ، وإشهادات بنسب السادة الهمامية إلى الأسرة النبوية الشريفة .

٣- محافظ الحجج الشرعية :

وهى منظمة فى محافظ خاصة ، وتشتمل على الحجج الأصلية المختومة من قضاة الشرع فى الجهات التى صدرت منها ، وقد أشرت إلى أرقامها فى هوامش الكتاب .

ثانيا : أرشيف المحكمة الشرعية بالشهر العقارى ، القاهرة :

(أ) سجلات إسقاطات القرى

ومسجل بها جميع إسقاطات القرى ، سواء بالبيع أو بالرهن ، والنزاعات التى كانت تحدث بين الملتزمين بعضهم البعض وبينهم وبين الفلاحين أو غيرهم ، وعددهم ٤٩ سجلا وتبدأ بسنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م ، ويعتبر هذا التاريخ بداية إفلاس نظام الالتزام . والدليل على ذلك كثرة عمليات الإسقاطات الخاصة بالالتزامات ، مما اضطر الروزنامة إلى إنشاء سجلات خاصة بها وسميت بـ «سجلات إسقاطات القرى» . وبدراسة هذه السجلات نجد أنه فى خلال القرن الثامن عشر الميلادى (الثانى عشر الهجرى) دخلت فئات جديدة ميدان الالتزام مثل التجار نتيجة للأرباح الهائلة التى جنوها من تجارتهم ، أمثال محمد داده الشرايبى ، كما دخل فى هذا الميدان أيضاً العلماء والنساء ، ووجد العديد من تلك الإسقاطات لصالح الفئات المذكورة .

وظل هذا النظام سارياً حتى ألغاه محمد على فى عام ١٢٢٨هـ/١٨١٤م وأوجد نظاماً آخراً ألا وهو نظام الاحتكار .

ويلاحظ أن الفلاح المصرى قد تعرَّض للظلم فى كلا النظامين ، فنجده فى النظام الأول قد خضع لإشراف جهات متعددة مثل شيخ البلد ، والكاشف ، والخولى ، والشاهد ، والمشد إلى غير ذلك ، أما فى النظام الثانى فقد تعرض لنظام السخرة .

(ب) سجلات الديوان العالى

وتبدأ بسنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م واستمرت إلى عصر محمد على وبعده ، وترجع أهميتها إلى أنها درست الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الريف ، والعلاقات الاجتماعية أمثال الوقف على أعمال الخير وغيرها .

(ج) سجلات القسمة العسكرية

وقد سميت بهذا الاسم ، لأنه كان يسجل فيها كل مايتعلق بأفراد الحامية العسكرية ، أو من ينتمون إليها حتى ولو كانوا من التجار فالمقياس هو الانتماء إلى الأوجاقات العسكرية ، وتسجل بها كذلك كل تركات ومخلفات العسكريين بمختلف أوجاقاتهم ، كذلك تسجل بها الحجج التى كان أحد الأطراف فيها عسكرياً . ويوجد بك قسّام عسكرى إلى جانب القاضى ، حتى يكوُن من أبناء الطائفة .

وتعطى هذه السجلات فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية ، خاصة الوقف الكثير على أعمال الخير كالمساجد وغيرها . وتتعرض لجميع الطوائف والحرف التى قامت بمثل هذا التنازل لصالح أعمال الخير . وتبدأ هذه السجلات من سنة ٩٦١هـ/١٥٥٧م ، كما تتعرض للزواج والطلاق وإعتاق المماليك وعددها ١٨٣ سجلا . وقد استفدت من السجلات الخاصة بفترة بحثى فقط . ومما يلاحظ أن بعض السنوات لم يكن لها سجلات مثل من سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م إلى سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م ، ومن سنة ١١٦٣هـ/١٧٤٨م إلى سنة ١١٦٩هـ/ ١٧٥٥م ومن سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م إلى سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م .

ثالثا : أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية

سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية

تعد سجلات المحكمة الشرعية المحفوظة بالشهر العقارى بالإسكندرية وثائق هامة ، ومصدرا من مصادر تاريخ مصر العثمانية ، لما تحتوى عليه من الحقائق والمعلومات فى شتى نواحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كما أن تلك السجلات تضم أحكام محاكم عديدة تابعة لمحكمة الاسكندرية مثل : رشيد ودمياط وأبو قير [١] .

---

(١) سجلات محكمة اسكندرية ، بالشهر العقارى ، أرقام ٧ ، ٨ مادة ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ص١٠٨ ، ١١٢، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م ، بتاريخ ٢٦ ذى الحجة عام ٩٧٢هـ/١٥٦٤م ، وهناك المئات من السجلات . ونقلت هذه السجلات إلى دار الوثائق القومية الجديده بالقاهرة .

فمن الناحية الاقتصادية ، نجدها سجلا لتعاملات التجار المحليين من الأهالى ، والتجار العرب (كالحجازيين ، والشوام ، والمغاربة .. وغيرهم) وكذا من الأوروبين من مختلف الجنسيات ، فمن خلالها نستطيع أن نتعرف على أنواع السلع التى تعاملوا فيها ، وطرق تعاملاتهم التجارية ، فنرى فى مصر العثمانية مارس التجار العرب نشاطهم التجارى ون أية قيود على إسلوبهم التجارى وطرق إستثمارهم لرؤس أموالهم ، مادامو لايلحقون الظلم بالناس ، مما أعطى لاستثماراتهم مجالا للحرية الاقتصادية ، فتمكنوا من تنمية ثرواتهم عن طريق إستيراد السلع التى تحتاجها السوق المحلية من منتجات بلدانهم والبلدان الأخرى ، وتصدير الفائض عن حاجة السوق المحلية من المنتجات المصرية ، والسلع المستوردة اليها إلى البلدان العربية الأخرى [١] .

أما بالنسبة للأوروبيين ، فقد كان من بين النظم السائدة فى الدولة العثمانية ، النظم الخاصة بالأجانب من رعايا الدول الأوروبية ، وعلى وجه الخصوص التجار الأجانب ، ثم المقيمين بالقسطنطينية ، فلقد وضعت الدولة العثمانية نظاما خاصا يعرف باسم نظام الامتيازات ، وعاشت كل مجموعة من هؤلاء الأجانب طبقا لما نص عليه فى المعاهدات الرسمية التى أبرمتها الدولة العثمانية مع حاكم الدولة التى تنتمى اليها المجموعة ، ومنذ البداية ، عملت الدولة العثمانية على تنظيم اقامة الأجانب فى داخل الإمبراطورية [٢] .

وبالنسبة للنشاط الاقتصادى الذى شارك فيه الأهالى والتجار العرب والأوربيين فى الاسكندرية ، جميع أوجه الأنشطة المعروفة فى ذلك الوقت سواء فى التجارة أو الصناعة أو الحرف أو قطاع الأموال ، فقد تعامل الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوروبيون

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية ، ص ٢٨ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، الشرق العربى من الفتح العثمانى ، حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى ، ص٥٧ .

فى تجارة الحبوب مثل الأرز حيث كان للتجار العثمانيين نصيب فيها [١] والقمح[٢] والدقيق[٣] والفول [٤] والعدس والحمص[٥] .

وتعامل الأهالى فى تجارة المواد الغذائية ، ومعهم الحجازيون والشوام والمغاربة ، مثل الجبن[٦] حيث لوحظ أن المغاربة يحدون قيمة الصفقة والعملة [٧]

---

(١) سجل رقم ٦ ، مادة ٢٢ ، ص٢ ، بتاريخ ٢٩ صفر عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م .

، نفسه ، مادة ٣٢٢ ، ص١٠٧ ، بتاريخ ١٧ رمضان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

، سجل رقم ٢٦ ، مادة بدون رقم ، ص٥٨ ، بتاريخ ١٣ شعبان عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م .

، سجل رقم ٧ ، مادة ٥٦٤ ، ص٥٦٤ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١٠٠٧هـ/١٦٠٨م .

(٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٩٦٨ ، ص٢٣٩ ، بتاريخ ٢٢ ذو القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ٣ ، مادة ٣٨٥ ، ص١٢٨ ، بتاريخ ١٢ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م .

، سجل رقم ٨ ، مادة ٨٩٥ ، ص٣٣٣ ، بتاريخ ١٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

، سجل رقم ١٢ ، مادة ٤٨٠ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٤ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٣) سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٥ ، ص١٧٧ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٧٢هـ/١٥٦٥م .

، سجل رقم ٢٩ ، مادة ٢٥٣ ، ص٩٧ ، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م .

، سجل رقم ٦ ، مادة ١٧٣ ، ص٦٩ ، بتاريخ آخر ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م .

(٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٤٥ ، ص١٦ ، بتاريخ ١٢ محرم عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٥) سجل رقم ١٧ ، مادة ٢٩ ، ص٧ ، بتاريخ ١٩ رجب عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

، سجل رقم ٥١ ، مادة ١٠٨٢ ، ص ٧٩٣ ، بتاريخ ١٢ رمضان عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٢م .

(٦) سجل رقم ٥ ، مادة بدون رقم ، ص١٩٨ ، بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

، سجل رقم ١ ، مادة ١٥٥ ، ص٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/١٥٥م .

، سجل رقم ٥٦ ، مادة ٩٨٧ ، ص٢٣١ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م .

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٩٣٩ ، ص٢٣٤ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٦٢ ، ص٢٣٨ ، بتاريخ ٢٦ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠ .

، سجل رقم ٥٦ ، مادة ٦٨٩ ، ٢٣٢٢ ، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م . =

والعسل الأبيض[١] والزبد والمسلى[٢] والزيت الحار [٣] وتخصص المغاربة فى السيرج[٤] والسكر[٥] حيث كان يفضل المصنوع فى فوة [٦] والقصب[٧] .

كما تخصص المغاربة فى سلع معينة مثل البقسماط[٨] حيث كان يتم توريدة للعمارة الشريفة ، وكانت الأوامر دائما تصدر بضرورة الاهتمام بتصنيعه وتوريده[٩] والخضار واشتهروا بتلك التسمية [١٠] والليمون المخلل الذى كان يورد للبقالين [١١] والزيت الطيب[١٢] والزيتون[١٣] وتخصص الشوام فى البن اليمنى [١٤] والبيض الذى كان يورد للحلواتية [١٥]

= ، سجل رقم ٥٦ ، مادة ٦٨٠ ، ص٢٣٢ ، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧ .

، سجل رقم ٤ ، مادة بدون رقم ، ص٢٣ ، بتاريخ ٥ ذى القعدة عام ٩٨٤هـ/١٥٧٦م .

(١) نفسه .

، سجل رقم ٤٦ ، مادة ٢٠ ، ص٨ بتاريخ أواخر ربيع الثانى عام ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م .

(٢) سجل رقم ٦ ، مادة ٣٥٦ ، ص١٤٥ ، بتاريخ ١٦ صفر عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م .

(٣) سجل رقم ٤ ، مادة ١٠٧٣ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢٢ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٤) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤٠ ، ص١٥٤ ، بتاريخ ١٨ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ١٣٦ ، ص٤١ ، بتاريخ ٢١ رجب عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م.

(٦) سجل رقم ١١ ، مادة ١٣٦ ، ص٤١ ، بتاريخ ٢١ رجب عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٧) سجل رقم ٩ ، مادة ٦٦٢ ، ص٢١٢ ، بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

(٨) سجل رقم ، ١٢ ، مادة ٣٦٣ ، ص ١٣٦ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٩) سجل رقم ١٥ ، مادة ١٤ ، ص٩ ، بتاريخ ١ ذو القعدة عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م .

(١٠) سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٨٧ ، ص٢٠٠ ، بتاريخ ١٦ رمضام عام ٩٨٧هـ/١٥٦٣م .

(١١) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٣٥ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(١٢) سجل رقم ١١ ، مادة ١٨٤ ، ص١٥٤ ، بتاريخ ١ شعبان ، عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(١٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ٤٨٠ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٤ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

، سجل رقم ٥٦ ، مادة ٦٨٠ ، ص٢٣٢ ، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .

(١٤) جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ص٣٠١ .

(١٥) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٩٨٧ ، ص٢٣١ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م .

والبطـــارخ [١] وتخصــص الأوربيــون فــى الســمــك المملــح [٢] وزيت الزيتـــون[٣] والخمـور[٤] .

أما تجارة التوابل فكانت تتعامل فيها الشوام ، والمغاربة والأوربيون وخصوصا الفرنسيين، حيث تعاملوا فى الفلفل الأسود[٥] وجوزة الطيب[٦] والقرفة[٧] والزرنيخ[٨] والصبر[٩] والزئبق والجنزبيل والصمغ العربى[١٠] والشمع الأصفر[١١] والمسك[١٢] وأهـل الذمة فى الخيار الشنبر [١٣] .

أما تجارة الياميش فقد تعامل الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوربيون فيها مثل الجوز القبرصى[١٤] والزبيب الأحمر والأسود[١٥] واقتصر تعامل الشوام

(١) سجل رقم ٩ ، مادة ٤٩٤ ، ص٩١ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م .

(٢) سجل رقم ٢١ ، مادة ٧٩٩ ، ص٢٩٠ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م .

(٣) سجل رقم ٤٦ ، مادة ٢٥٤ ، ص١١٧ ، بتاريخ غاية ذى الحجة عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م .

(٤) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٦٨٠ ، ص٢٣٢ ، بتاريخ ٢٦ رجب عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .

(٥) سجل رقم ٦ ، مادة ٩٣٩ ، ص١٣٥ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م .

(٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٤ ، ص٢٩ ، بتاريخ ١٢ رجب عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٧) سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٠ ، ص٢٤٠ ، بتاريخ أول ذى القعدة عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

(٨) سجل رقم ٥٩ ، مادة ٤٥ ، ص١٤٢ ، بتاريخ ١١ ربيع الثانى عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٩) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٧ ، ص٥٨ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(١٠) سجل رقم ٢١ ، مادة ٥٤ ، ص١٢ ، بتاريخ ٦ شوال عام ٩٩٢هـ/١٥٨٥م .

(١١) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٠٥ ، ص٢٠٥ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ٤٣ ، مادة ٥٣٥ ، ١٨١ ، بتاريخ ٨ شوال عام ١٠١٩هـ/١٦١٠م .

(١٢) سجل رقم ٨ ، مادة ٤٢١ ، ص١٤٥ ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(١٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٠٥ ، ص٢٠٥ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(١٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٨٧ ، ص١٣٢ ، بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(١٥) سجل رقم ٩ ، مادة ٦٦٤ ، ص٢١٣ ، بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

(خيار الشنبر ، نبات ملين . أنظر ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص٤٤٦) .

على التمر والعجوة[١] والأوربيين على الخروب[٢] .

أما تجارة الفواكه فقد تعامل المغاربة فى البطيخ والقرع[٣] والأوربيون فى العنب والتين[٤] حيث يباع المحصول قبل حصاده فى الخارج مثل رودس والتفاح[٥] .

وبالنسبة لتجارة العبيد والجوارى فقد شارك الأهالى فيها ، فأحيانا لم يذكر جنسية العبد أو الجارية [٦] وفى تلك الحالة يباع العبد المجهول الجنسية بسعر منخفض[٧] كما كان سعر الجارية مرتفعا عن العبد[٨] .

وشملت تجارة العبيد والجوارى بعض الأحيان أسرة بأكملها ، مثل الزوج والزوجة والابن ، من القبارصة ، وفى مثل هذه الحالة يكون المشترى أوروبيا[٩] وخصوصا الايطاليون[١٠] ، وأحيانا تكون جارية بابنها الرضيع ، وقد تكون هذه الجارية ميراثا لأحد الأبناء ، وارثها

---

(١) سجل رقم ٥ ، مادة بدون رقم ، ص١٩٨ ، بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

، سجل رقم ١٧ ، مادة ٨٢٥ ، ص٢٧٣ ، بتاريخ ١٦ صفر عام ١٠٠٣هـ/١٥٥٤م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٥١٥ ، ص١٤٢ ، بتاريخ ٢٨ رمضان عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

(٢) سجل رقم ٢٥ ، مادة ١٨٩ ، ص١٦٣ ، بتاريخ ١١ رجب عام ٩٩٦هـ/١٥٦٧م .

، سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٢ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

، سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة بدون رقم ، ص١٤ بتاريخ ١٤ شعبان عام ٩٦٥هـ/١٥٥٧م .

(٤) سجل رقم ١٤ ، مادة بدون رقم ، ص٢١٦ ، بتاريخ ٢٩ رمضان عام ٩٨٧هـ/١٦٠٩م .

(٥) سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص٧٢ ، بتاريخ ٨ ذى القعدة عام ١٠٠٨هـ/١٦٠٩م .

(٦) سجل رقم ٦ ، مادة ٢١ ، مادة ٨ ، بتاريخ ٢٩ صفر عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م .

(٧) سجل رقم ٦ ، مادة ٢٦ ، ص١٥ ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م .

(٨) سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٣٩ ، ص١٧٨ ، بتاريخ ٢٥ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٩) سجل رقم ١١ ، مادة ٤٠٩ ، ص١٢٢ ، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(١٠) سجل رقم ١٣ ، مادة ٢٤ ، ص١٢ ، بتاريخ ١٣ ذى الحجة عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م .

عن والدته ، وقاصرا ، ففى مثل هذه الحالة يقوم الوالد الوصى بالبيع نيابة عنه ، ويقوم المشترى بالشراء بعد الفحص والمعاينة[١] .

وأمتد نشاط الشوام التجارى إلى الجوارى[٢] من جنسيات وديانات مختلفة[٣] ويشترط أن يذكر فى عقد البيع أنها خالية من الحمل[٤] والمغاربة فى تجارة العبيد ، والتى شملت أحيانا تجارة الجملة[٥] ويكون البيع بعد الفحص والمعاينة[٦] وكذا المماليك[٧] وشاركهم فى ذلك الأوربيون وخصوصا البنادقة[٨] والجنويين[٩] وشملت هذه التجارة أيضا الأطفال الصغار الأحرار الذين كانوا يسرقونهم من بلادهم الأوربية ، ويباعوا فى الإسكندرية[١٠] .

وللأهالى دور هام فى تجارة الماشية والأغنام ، كما ساهم أيضا كل من الحجازيين والشوام والمغاربة والأوربيين[١١] وتعامل العربان المقيمين فى رشيد[١٢]

---

(١) سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٦٧ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م .

(٢) سجل رقم ٥ ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/١٥٩٠م .

(٣) سجل رقم ٥ ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/١٥٩٠م .

(٤) سجل رقم ١٢ ، مادة ٩٥٨ ، ص٢٩٤ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ٩٨٦هـ/١٥٥٨م .

(٥) سجل رقم ٨ ، مادة ٥٤٨ ، ص٩٤ ، بدون تاريخ .

(٦) سجل رقم ٧ ، مادة ٦١٦ ، ص٢٥٠ ، بتاريخ ١ صفر عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م .

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ١٣٥٥ ، ص٣٣٦ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م .

، سجل رقم ٨ مادة ٥٩ ، ص٢٣ ، بتاريخ ٣ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٨) سجل رقم ٤٤ ، مادة ٦٩٥ ، ص٣٥٧ ، بتاريخ ٨ رمضان عام ١٠٣٠هـ/١٦٢١م .

(٩) سجل رقم ٣٦ ، مادة ٢٣٧ ، ص٨١ ، بتاريخ ٩ جمادى الأولى عام ١٠١٧هـ/١٦٠٨م .

(١٠) سجل رقم ٦ ، مادة ٨٠ ، ص٣٦ ، بدون تاريخ .

(١١) سجل رقم ٥٨ ، مادة ٢٧٤ ، ص٩٨ ، بتاريخ ٧ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(١٢) سجل رقم ٥ ، مادة ٢٧٣ ، ص١٠٠ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ٩٦٩هـ/١٥٦١م .

، سجل رقم ٦ ، مادة ١٥٧ ، ص٦٢ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثانى عام ١٠٤٤هـ/١٥٩٥م .

والحجازيون[١] والشوام في الجمال [٢] وتاجر كل من الأهالي والشوام في البغال[٣] واقتصرت تجارة الأحصنة على الأهالي[٤] والأكديش على الشوام والمغاربة[٥] والبقر والجاموس والثيران على الأهالي والحجازيين والمغاربة[٦] والأغنام على الأهالي والشوام والمغاربة[٧] أما الحمير فكانت تمثل وسيلة النقل الأساسية في تلك الفترة ، فاقتصرت على المكارية من الأهالي والشوام والمغاربة[٨] .

---

(١) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٦٣ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذي الحجة عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م .

، سجل رقم ٦ ، مادة ١١ ، ص٦ بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٥ ، ص٢٤٣ ، بتاريخ ٢٩ ذي القعدة عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٢٢ ، ص٢٥١ ، بتاريخ ٣ ذي الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٢) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٢٣ ، ص ٨٢ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

، سجل رقم ٨ ، مادة ٣٥٣ ، ص ٨٩ ، بتاريخ ٢ جمادى الآخرة عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

، سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٥٨ ، ص١٥٦ ، بتاريخ ٩ ذي القعدة عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٠٢ ، ص٢٩٦ ، بتاريخ ١ محرم عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م .

(٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٥٥٢ ، ص٢٣٣ ، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

، سجل رقم ١٨ ، مادة ١١٠٧ ، ص٣٣٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الثاني عام ٩٥٩هـ-١٥٥١م .

(٥) سجل رقم ١ ، مادة ١٤١٨ ، ص٣٣٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الثاني عام ٩٥٩هـ/١٥٥١م .

، سجل رقم ٦ مادة ١٥٧ ، ص٦٢ ، بتاريخ ٢١ ذي الحجة عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٦٦٣ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذي الحجة عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م .

(٦) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٩٤ ، ص٧٣ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

، سجل رقم ٩ ، مادة ٣٠٠ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٢ جمادى الأولى عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

(٧) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٩٤ ، ص٧٣ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

، سجل رقم ٩ ، مادة ٣٠٠ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٢ جمادى الأولى عام ٩٩١هـ/١٥٨١م .

(٨) سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٧٤ ، ص٣١٦ ، بتاريخ ١٩ محرم عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م .

، نفسه ، مادة ٥٢٠ ، ص ١٥٠ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

واعتمدت تجارة الجلود أساسا على جلود الثيران والبقر[١] وشارك الأوربيون فى هذه التجارة وخصوصا الفرنسيين[٢] والشوام[٣] والمغاربة[٤] .

أما تجارة الأقمشة والمنسوجات ، فقد قام بها الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوربيون ، وكان منها الكتان[٥] والجوخ بأنواعه المختلفة(٣) والحرير[٦] والمنسوجات الحريرية [٧] والصوف المغربى حيث كانت له شهرة واسعة وخاصة المخلوط بكتان[٨] وصناعة الأحرمة الصوفية[٩] وأغطية الرأس للسيدات ، وخاصة الأغطية الحجازية والتى كانت لها شهرتها ، والبسط الرومة[١٠] .

---

(١) سجل رقم ١٤ ، مادة ٤٧٢ ، ص٨٤ ، بتاريخ ٥ رجب عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

، نفسه مادة ٨٨٣ ، ص٢٥١ ، بتاريخ ٤ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٢) سجل رقم ١٤ ، مادة ٤٧٢ ، ص٨٤ ، بتاريخ ٥ رجب عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٣) سجل رقم ١٢ مادة ٨٤٨ ، ص٢٩١ ، بتاريخ ١٦ ربيع الثانى عام ٩٨٦هـ/١٥٨٧م .

(٤) سجل رقم ٩ ، مادة ٧٣٦ ، ص٢٣٣ ، بتاريخ ١٥ رمضان عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

(٥) سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٤٣ ، ص٢٥٥ ، بتاريخ ٧ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ٨ ، مادة ٥٠٢ ، ص ١٧٣ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ١١٨٦ ، ص٢٨٥ ، بتاريخ ١٦ ذى الحجة عام٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ٨ ، مادة ٥٢٤ ، ص١٧٩ ، بتاريخ ١٢ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٦) سجل رقم ١٦ ، مادة ٤٧٧ ، ص١٩٣ ، بتاريخ ٢٣ محرم عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤ .

(٧) سجل رقم ١٨ ، مادة ١١٨٣ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ مستهل شهر ربيع الأول عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

، سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٧٦ ، ص٣٥٣ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

، سجل رقم ٢٤ ، مادة ٢٨١ ، ص٩٠ ، بتاريخ ٢٠ شوال عام ٩٨٣هـ/١٥٧٥م .

(٨) سجل رقم ٢١ ، مادة ٥٦٩ ، ص٩٦ ، بتاريخ ٢٨ جمادى الثانية عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م .

(٩) سجل رقم ١ ، مادة ١٧٧ ، ص٣٨ ، بتاريخ ١٨ رمضان عام ٩٥٧هـ/١٥٧٩م .

(١٠) سجل رقم ١٤ ، مادة ١٤٧ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١١ شعبان عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

، سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٧٦ ، ص ٣٥٣ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

كما تخصص الشوام بتجارة المنسوجات الحريرية[١] والمغاربة والأوربيون فى البسط الرومى[٢] والحجازيون فى الفوة [٣] كما تاجروا فى النيلة الهندى التى تستخدم فى صباغة الملابس ، وتاجروا أيضا فى قماش القلاع والفوط[٤] والألبسة[٥] .

أما تجارة مواد البناء والمعمار ، فقد شارك فيها كل من الأهالى والحجازيين والشوام والمغاربة والأوروبيين ، حيث تاجروا فى الأخشاب التى تورد للترسخانة (الترسانة) حيث كانت السلطات الحاكمة تهتم بذلك دائما ، وتصدر أوامرها بخصوص ذلك [٦] والزفت[٧] والمسامير[٨] والمرايات[٩] والعصيان من الخيرزان[١٠] والجير[١١] والحديد[١٢] وتخصص

---

(١) سجل رقم ١١ ، مادة ٣٤٣ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

، سجل رقم ٥ ، مادة ٣٧٠ ، ص١٣١ ، بتاريخ غرة شعبان عام ٩٩٦هـ/١٥٢٨م .

(٢) سجل رقم ٢١ ، مادة ٥٦٩ ، ص٩٦ ، بتاريخ ٢٨ شعبان عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٤٣٢ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

، سجل رقم ٥ مادة ٣٧٠ ، ص١٣١ ، بتاريخ غرة شعبان عام ٩٩٠هـ/١٥٨١م .

(٤) سجل رقم ٢٥، مادة ١١٤٥ ، ص٤٠٥ ، بتاريخ ١٥ محرم عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م .

(٥) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤ ، ص٥٦ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

(٦) سجل رقم ٧ ، مادة ١٢٥ ، ص١٢٩ ، بتاريخ ١٦ شعبان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(٧) سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٧٩ ، ص٢٠٠ ، بتاريخ ١٦ رمضان عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

، سجل رقم ١٨ ، مادة ٢٧٣ ، ص٢١٤ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٨) سجل رقم ١٤ ، مادة ٦٨٩ص٢٠٦ ، بتاريخ ٢٠ رمضان عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٥) سجل رقم ١٥ ، مادة ١٩ ، ص٢٤ ، بتاريخ أواسط جمادى الأولى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

(٩) سجل رقم ١٣ ، مادة ٢١٩ ، ص٨٢ ، بتاريخ ١٦ محرم عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م .

(١٠) سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠١ ، ص٦٣ ، بتاريخ ٢٣ جمادى الثانى عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(١١) سجل رقم ٢٥ ، مادة بدون رقم ، ص٣١٩ ، بتاريخ ٤ محرم عام ٩٩٧هـ١٥٨٩م .

(١٢) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٢٠٩ ، بدون رقم ، بتاريخ ١٣ محرم عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .

، سجل رقم ٦ ، مادة ٢٠٠ ، ص١٨١ ، بتاريخ ١٦ رمضان عام ٩٧٠هـ/١٥٦٣م .

، سجل رقم ٤٧ ، مادة ٢٨٦ ، ص١٠٣ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ١٠٥٤هـ/١٦٤٣م .

الشوام فى تجارة مصنوعات القيشانى من الصينى والأدوات الفخارية [١] والأوانى النحاسية[٢] .

واقتصر تعامل الأوروبيين على تجارة المجوهرات مثل الفضة[٣] والصدف [٤] والمرجان[٥] .

بالاضافة إلى ذلك ، كانت هناك تجارة من نوع غريب فى رشيد ، إلا وهى تجارة الشعر ، حيث يتفق البعض مع أحد الشعراء على كتابة عدد معين من أبيات الشعر نظير مبلغ معين[٦].

أما عن طرق التعامل فى ميدان التجارة ، فكانت متعددة ، ولاشك أن بعض التجار كان يعمل لحسابه الخاص ، سواء على مستوى صغير أو فى حجم تجارة كبير ، وهنا نجد أن أرشيف المحكمة يسجل لنا أنواع تعاقداتهم وخلافاتهم مع الغير ، الذين يتعاملون معهم ، وكان هناك كذلك من يقوم بتكوين شركات للتجارة ، الداخلية والخارجية ، ووجدت وثائق عن تكوين شركة لتجارة القصب فى رشيد[٧] . وثانية للتجارة فى الكتان والعجوة ، وقد لوحظ أن أحد الشركاء من السقايين ويذكر فى عقد الشركة قيمة رأس المال النقدى والعينى[٨] وتكوين شركة بين أحد الحجازيين وأحد السودانيين لتجارة النيلة[٩]. وأسس بعض الشوام شركات

---

(١) سجل رقم ٩٥ ، مادة ٧٢ ، ص٤٨ ، بتاريخ ١٨ رجب عام ١١٨٦هـ/١٦٦٤م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٧ ، ص٨٤ ، بتاريخ ١٩ شعبان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م.

(٢) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠١٢ ، ص٣٧٤ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٩٥هـ/١٥٨٧م .

، سجل رقم ٢٧ ، مادة ٤٣٩ ، ص٢٢٠ ، بتاريخ ١٢ صفر عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م .

(٣) سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٣ ، ص١٧٦ ، بتاريخ ١٥ ذى القعدة عام ٩٧٣هـ/١٥٦٤م .

(٤) سجب رقم ٥٦ ، مادة بدون رقم ، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٠م .

(٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ١٩٠ ، ص٦٠ ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٦) نفسه .

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٨٩٩ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٨) سجل رقم ١٤ ، مادة ١١٦٥ ، ص٣٥٧ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثانى عام ١٥٧٩/٩٨٧م .

(٩) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٤٤ ، ص٥٦ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .

لتجارة الأقمشة والمنسوجات [١] والحرير [٢] والجلود [٣] كما استأجر بعضهم بالمشاركة مع أحد الأهالي مخبزا فى وقف سنان باشا ، ولقد فسخ العقد بعد ذلك [٤] .

وقام المغاربة بتكوين شركات فى تجارة الكتان ، وشاركهم الأوربيون فى بعض الأحيان[٥] وكذلك فى الخروب [٦] والزيتون [٧] والبطيخ والقرع [٨] . كما ساهم الأوربيون فى هذا المجال، فأنشأوا شركات للتجارة فى المشروبات المطبوخة [٩] وشاركوا الأهالى فى تجارة الصدف والمرجان [١٠] وشراء المراكب مثل الشيطيلة ، والاكريب ، والقرة ، والغليون وغيرها[١١] وقد لوحظ أنه فى بعض الأحيان نجد أنه بعد تأسيس الشركة ببضعة أيام ، طالب أحد الشركاء ببيع نصيبة ، ووافقه الشركاء على ذلك [١٢] على الرغم من أن نصيبه ثلاثة أرباع رأسمال الشركة ، وحل محله أحد الأتراك العثمانيين [١٣] وأحيانا تحدث مشاكل بين

---

(١) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠١٢ ، ص٣٧٤ ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م .

(٢) سجل رقم ٦٥ ، مادة ماذة ٣٣١ ، ص ١٧٢ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١١٣٠هـ/١٧١٧م .

(٣) سجل رقم ٢٩ ، مادة ٨٧٦ ، ص٢٩٩ ، بتاريخ ١٠ ذى القعدة عام ١٠٠٢هـ/١٥٦٤م .

(٤) سجل رقم ٨٣ ، مادة ٤٦٩ ، ص٢٦٣ ، بتاريخ ١٢ رجب عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٧م .

(٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ٥٩٨ ، ص١٧٧ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٧٢٦ ، ص١٨٥ ، بتاريخ ١٣ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٧٢٦ ، ص١٨٥ ، بتاريخ ١٣ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠ .

(٨) سجل رقم ٤ ، مادة ١١ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٤ شعبان عام ٩٦٥هـ/١٥٥٧م .

(٩) سجل رقم ٤١ ، مادة ١٦٦ ، ص٩١ بتاريخ ٥ رجب عام ١٠٦٧هـ/١٥٧٦م .

(١٠) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٦٢ ، ص٦٤ ، بتاريخ ٢ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(١١) سجل رقم ٥١ ، مادة ٨١٠ ، ص٣٧٩ ، بتاريخ ٢٢ ذى الحجة عام ١٠٠٧هـ/١٦٦٦م .

(١٢) سجل رقم ١٤ ، مادة ٣٩٨ ، ص١٤٦ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م .

(١٣) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٧٩٩ ، ص٢٤٦ ، بتاريخ ١٨ صفر عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م .

، سجل رقم ٣٢ ، مائة ١٠٣١ ، ص٩١ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٨١هـ/١٥٧٧م .

الشركاء نتيجة لحدوث خسائر كما حدث فى تجارة الخمور ، وأصر أحد الشركاء على استلام حقه كاملا ، فاضطر صاحب المركب الحجز على الصفقة ضمانا لحقه[١] .

وكان يذكر فى عقد الشركة نصيب كل شريك واختصاص كل منهم ، والمسؤول عن الادارة والصيانة ، وغير ذلك من الشروط الأخرى[٢] .

واشتهر المغاربة باشتغالهم بأعمال الوكالة لحساب الغير ، فعلموا كوكلاء لتجار حلبيين مقيمين بالقسطنطينية ، يشترون لحسابهم البقسماط[٣] والتجار الكارميلية يشترون لحسابهم القماش المخصص للتفصيل[٤] والعبيد لحساب أحد الأمراء الميراللو [٥] والجوارى[٦] والبهار لحساب بعض الأوروبيين وخصوصا البنادقة[٧]واليهود المغاربة حيث عملوا كوكلاء للأوروبيين فى تجارة الجوخ بأنواعه المختلفة[٨].

ولم يكن المغاربة وحدهم فى هذا المجال ، بل شاركهم فى ذلك الشوام ، حيث اشتغلوا لحساب بعض الأوروبيين فى تجارة الحرير[٩] ولدقتهم فى ذلك ، كانوا يحررون عقود البيع متضمنة النوع والكمية ، وأن يقر المشترى ذلك بأنه استلم بضاعته كاملة[١٠] وساهم الأوروبيون أيضا فى هذا المجال ، فقد عملوا كوكلاء للتجار المحليين فى تجارة الحرير[١١]

---

(١) سجل رقم ٥٩ ، مادة بدون رقم ، ص٥٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر عام ٩٨٣هـ/١٥٧٥م .

(٢) سجل رقم ٥١ ، مادة ١١٤٣ ، ص٢٦٣ ، بتاريخ أول ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/١٥٥٠م .

(٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٧ ، ص١٣٢ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٧٦هـ/١٥٧٨م .

(٤) سجل رقم ٤ ، مادة ١١ ، ص ٤ بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٦٥هـ/١٥٥٧م .

(٥) سجل رقم ١١ ، مادة ١٣٥٥ ، ص٣٣٦ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م .

(٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩ ، ص١١ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/١٥٨٠م .

(٧) سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٠ ، ص٢٤٠ ، بتاريخ أول ذى القعدة عام ٩٨٩هـ/١٥٨٣م .

(٨) سجل رقم ١١ ، مادة ١١٦٨ ، ص٣٨٥ ، بتاريخ ١٦ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٨٠م .

(٩) سجل رقم ٦٥ ، مادة ٣١ ، ص١٧٢، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١١٣٠هـ/١٧١٧م .

(١٠) نفسه .

(١١) سجل رقم ٥٩ ، مادة بدون رقم ، ص٥٦ ، بتاريخ ١٨ ربيع الآخر عام ٩٨٣هـ/١٥٧٥م .

والبهار وجوزة الطيب[١] وبعض التجار الأوروبيين المقيمين في الخارج ، وفي تجارة الخروب من أضاليا[٢] وزيت الزيتون[٣] والسمك المملح[٤] والجوخ[٥] والأواني الفخارية بجميع أنواعها[٦] والمراكب بجميع أنواعها [٧] والجلود[٨] والعبيد[٩] .

كما شهد مجال التعامل التجاري نوعا آخرا من التعامل ، مثل المقايضة ، فقد تم مقايضة تمر على ورد ، ويحدد السعر لكل صنف ، ثم يدفع الفرق أحيانا على أقساط يومية[١٠] والخمور بالكتان ، والتي كانت غالبا تتم بين الأوروبيين[١١] وغزل ومنسوجات بالحرير صناعة الشام[١٢] وجمال بأثوار[١٣] وجلود بثيران ومحصولات زراعية[١٤] وأوراق بفلفل أسود[١٥] .

---

(١) سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٠ ، ص٢٤٠ ، صبتاريخ ١ ذي القعدة عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

(٢) سجل رقم ٣١ ، مادة ٤٤٢ ، ص٤٤٢ ، بتاريخ ١٥ شوال ٩٧٥هـ/١٥٦٧م .

(٣) نفسه .

(٤) سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص٧٢ بتاريخ ٨ ذي القعدة عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م .

(٥) سجل رقم ٢٥ ، مادة ١٢٤٥ ، ص٤٠٥ ، بتاريخ ١٥ محرم عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م .

(٦) نفسه .

(٧) سجل رقم ٤٩ ، مادة ٢٩٠ ، ص٨٦ ، بتاريخ ٤ صفر عام ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م .

، سجل رقم ٢٢ ، مادة ٣٧ ، ص١٠١ ، بتاريخ ٢١ ربيع الآخر عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م .

(٨) سجل رقم ٤٣ ، مادة بدون رقم ، ص٧٢ ، بتاريخ ٨ ذي القعدة عام ١٠٨٨هـ/١٦٠٩م .

(٩) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٤٣ ، ص٦٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م .

، سجل رقم ٢٦ ، مادة ١٣٥٦ ، ص٤٧٥ ، بتاريخ ١ رجب عام ٩٩٨هـ/١٥٨٩م .

(١٠) سجل رقم ١٨ ، مادة ٧٧ ، ص٢٦ ، بتاريخ ١٧ رمضان عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢ .

(١١) سجل رقم ٤ ، مادة ١٧٨ ، ص٥٦ ، بتاريخ ١٩ جمادي الثانية عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(١٢) سجل رقم ١٨ ، مادة ١١٨٣ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ مستهل ربيع الأول عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

(١٣) سجل رقم ٦ مادة ١٥٧ ، ص ٦٢ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثاني عام ١٠٤٤هـ/١٥٩٥م .

(١٤) سجل رقم ٦ ، مادتي ١١٠ ، ١٢٠ ، صفحتي ٤٥ ، ٢٥٨ ، بتاريخ ١٢ ذي الحجة عام ١١٠٣هـ/١٦٠٤م ، ٢٥ ربيع الثاني عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(١٥) سجل رقم ٢٤ ، مادة بدون رقم ، ص ٢٥٣ ، بتاريخ ٤ ربيع الثاني عام ٩٧٢هـ/١٥٦٥م .

وشهد قطاع التجارة فى مدينتى الاسكندرية ورشيد الكثير من المنازعات فى هذا الميدان ، فالسجلات تعطينا صورة كاملة عن طريقة التعامل البسيطة ، وطريقة التقاضى ، والاحكام التى تصدر أو الطرق التى كانت تتبع لتسوية الخلافات الودية ، وأرشيف المحكمة الشرعية ملئ بهذه الصور المعبرة عن أنماط وأساليب التجارة فى مصر العثمانية .

وكان من الطبيعى أن تنشأ خلافات فى حالات الشراء بالأجل فمنها أن أحد الحمامين فى رشيد تباطأ فى دفع بقية الأقساط الخاصة بشراء الدقيق ، وانتهى الأمر به فى النهاية بإيداعه فى السجن[١] ويتباطأ بعض الأهالى دفع بقية أقساط القمح[٢] ويتباطأ أحد الفرنسيين فى دفع بقية صفقة جلود وينتهى به الأمر بايداعه فى السجن[٣] ونفس الأمر لأحد العاملين فى صناعة الكحك[٤] واشترى البعض كمية من الدقيق ، ودفع جزء من ثمنها ، وطالبه البائع بتسديد مبلغ يفوق المبلغ المتبقى عليه ، وأصر البائع على المبلغ الذى طالبه ، وانتهى الأمر بحدوث نزاع بين الطرفين ، وتم القبض على البائع وسجن[٥] كما كانت هناك حالات للوفاء بالأجل ، حيث يتباطأ البعض فى دفع بقية الأقساط ، ولكن يتم الاتفاق على تسوية الموقف بالدفع[٦] أو يستمر المشترى - وهو أحد الحلوانية - فى تسديد ماتبقى عليه معتذرا بعدم توافر المال لديه ، وينتهى الأمر بالحكم عليه بالسجن[٧] وفى هذا النوع من الخلافات نجد أن بعض المشترين يتذرع بارتباكه المالى ويطلب من المحكمة اعطائه فرصة للتسديد ، مثال ذلك شراء أحد الشوام كمية من الزبيب من بعض تجار السوس المغاربة ، وعجز عن التسديد فى الوقت المحدد له ، وطلب من المحكمة اعطائه فرصة للتسديد ، ووافق البائع وأقرت

---

(١) سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٥ ، ص١٧٧ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٢) سجل رقم ١٦ ، مادة ٤٥٥ ، ص١٨٥ ، بتاريخ ١٧ محرم عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩٨ ، ص٩٣ ، بتاريخ ٢٣ رجب عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٢٠٨ ، ص٦١ ، بتاريخ أوائل ذى الحجة عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م .

(٥) سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠ ، ٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر الخير عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

(٦) سجل رقم ٢٨ ، مادة ١٠٧٦ ، ص ٣٥٣ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

(٧) سجل رقم ٥٩ ، مادة ٢١٦ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٩ ربيع الثانى عام ٩٨٣هـ/١٥٧٥م .

المحكمة هذا الاتفاق[١] وكان الدفع بالأجل ، أحيانا يتم اسبوعيا كما فى تجارة العجوة ، وعندما يتعثر المشترى بدفع بقية الأقساط ينكر البائع هذا الاتفاق[٢] وشملت الأقساط الاسبوعية بعض السلع مثل الياميش[٣] والسكر[٤] وأحيانا أقساط كل خمسة وعشرون يوما ، كما فى تجارة الجلود[٥] وفى هذه الحالة يضاف فائدة اذا تأخر المشترى عن الدفع فى الميعاد المحدد[٦] وهنا يتم اتفاق جديد على أساس دفع نصف المبلغ ، ويقسط الباقى[٧] ويضمن بعض القساوسة هذا الاتفاق كما فى تجارة العبيد[٨] والجوارى[٩] . وفى حالة بيع الجوخ يصر البائع على وضع عقار المشترى كرهن حتى يتم تسديد باقى الأقساط [١٠] وعند الشوام نجد أن البيع بالأجل وعدم قدرة المدين على الوفاء بالتزاماته يتطور الأمر فى حالة بعض الأحيان إلى اعطائه بعض ممتلكاته ، حصانه مثلا للوفاء بجزء من الدين ، ولكن اذا كان الحصان لم يكف للوفاء بكل الثمن ، وينتهى الأمر بإعلان إفلاس التاجر[١١] ، وكان بعضهم يعطى بعض منقولاته رهناً للوفاء بدينه ، مثل وضع أحد المشترين مركبه كرهن لدى البائع[١٢] ورغم ذلك فان البائع لم يستلم البضاعة كاملة ، بل خصم نسبة من وزن القمح كتالف وفاقد ، هدفة

---

(١) سجل رقم ١١ ، مادة ٥١٥ ، ص١٤٢ ، بتاريخ ٢٨ رمضان عام ٩٨٧هـ/١٥٧١م .

(٢) سجل رقم ٢٥ ، مادة ١٨٩ ، ص٦٣ ، بتاريخ ١١ رجب عام ٩٩٦هـ/١٥٦٧م .

(٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٣ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٤) سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٩٣ ، ص٦٨ ، بتاريخ ١٦ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٨م .

(٥) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٦٢ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ١٥ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٦) سجل رقم ٨ ، مادة ٢٨٤ ، ص١٩٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٧) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٥١٧ ، ص٢٠٢ ، بتاريخ ٢ رمضان عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٨) سجل رقم ٨ ، مادة ٢١٩ ، ص٨٤ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٩) سجل رقم ١٦ ، مادة ٧٩٥ ، ص٢٩٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ٩٧٢هـ/١٥٦٤م .

(١٠) سجل رقم ١٦ ، مادة ٤٧٧ ، ص١٩٣ ، بتاريخ ٢٣ محرم عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

(١١) سجل رقم ١٨ ، مادة ١٧ ، ص٦ ، بتاريخ ٧ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م .

(١٢) سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م .

من ذلك الضغط على المشترى[١] وبالنسبة للأوربيين نجد أن بعضهم أعطى مجوهراته نظير تسديد ثمن صفقة من الدجاج[٢] أو مركبه نظير تسديد ثمن جلود[٣] أو أوانى نحاسية وترد عند تسديد ثمن الخروب[٤] أو أسماك مملحة[٥] .

وحدث أن اشترى أوروبى مركبا من أهالى رشيد ، ودفع جزءا من ثمنها على أن يسقط الباقى على أقساط شهرية ، الا أن البائع توفى قبل نهاية تسديد الأقساط ، فطالب ورثته بدفع باقى الأقساط فأنكر المشترى وأدعى أنه دفع المبلغ كاملا للمتوفى [٦] . وفى حالة ثانية توفى البائع دون أن يحصل بقية أمواله ، وطالب ورثة المشترى ، الذى إعترف بالمبلغ وطالب إعطائه فرصة للتسديد ، وسدد المبلغ بعد خصم نسبة منه ، كما فى تجارة الجبن والعسل[٧] وحالة أخرى ، فاتفق على دفع نصف المبلغ وتعهد بدفع الباقى على أقساط مثل تجارة المسلى والزبد[٨] .

وهناك حالة أنكار أحد الحجازيين الخبازين حول المبلغ المتبقى لديه ، ولم يستطع بائع الدقيق أثبات حقه[٩] وحدث نزاع بين أحدهم مع البعض حول بيع جمل وتبقى مبلغا ، وعند حلول ميعاد السداد انكر المشترى بقية المبلغ ، وتدخل البعض ، وترتب على ذلك دفع مبلغ يقل عن المطلوب[١٠]. وانكر البعض دفع بقية الأقساط فى صفقة قماش قلاع المراكب[١١]

---

(١) سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م .

(٢) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٨٣١ ، ص٢٧٨ ، بتاريخ ٢٥ ذى القعدة عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

(٣) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٨٠٣ ، ص ٢٦٨ ، بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٦م .

(٤) سجل رقم ٢٨ ، مادة ٢٦١ ، ص٢٠ ، بتاريخ ١٢ شعبان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(٥) سجل رقم ٢٢ ،مادة ٧٩٩ ، ص٢٩٠ ، بتاريخ ٩ محرم عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .

(٦) سجل رقم ١٧ ، مادة ٨٣٢ ، ص٧٦ ، بتاريخ ٢٨ صفر عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٢م .

(٧) سجل رقم ٩ ، مادة ١٥٥ ، ص٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٨) سجل رقم ٣٦ ، مادة ٢٠ ، بتاريخ ٨ ، بتاريخ أواخر ربيع الثانى عام ١٠٥٠هـ/١٥٦٧م .

(٩) سجل رقم ٣ ، كادة ٣٨٥ ، ص١٣٨ ، بتاريخ ٢ ذى الحجة عام ٩٦٤هـ/١٥٥٦م .

(١٠) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٨٦ ، ١٣٨ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م .

(١١) سجل رقم ٨ ، مادة ٧٧١ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ٢١ ذى الحجة عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

فيحصل على جزء من مبلغه بدلا من أن يفقد كل المبلغ ، وهناك حالات كثيرة يتذرع فيها المشترى ، ويصر على أن المتبقى من المبلغ يقل كثيرا عن المطلوب [١] وقد يضطر المشترى بعد انكاره إلى أن يرضخ أمام شهادة الشهود إلى الاعتراف بالصفقة ويتعهد بالدفع[٢] وفى حالة أخرى نجد عدم اعتراف المشترى بالمبلغ المتبقى بعد شراءه لعدد من الخرفان[٣] .

وبالنسبة لحالات الغش التجارى نجد أن بعض الحجازيين قد تعاقد مع أحد عربان هوارة على توريد كمية من التين ، وفوجئ عند استلامها أن بها عيبا ، وطالب البائع برد المبلغ ، وحدث نزاع ، وانتهى الأمر بتسوية الموقف على بيع الكمية على حالتها مع تحمل البائع فرق السعر[٤] كما نجد أن بعض الشوام واجهته مشكلة أخرى تتمثل فى فقدان كمية من البن المصدر إلى استانبول لحساب بعض التجار ويتطور الأمر فى مثل هذه الحالة الى تقديم المستندات الدالة على ذلك وشهادة الشهود[٥] كذلك حالة مشترى الخشب الذى دفع مبلغا مقدما من الصفقة على أساس دفع الباقى بعد المعاينة ، وثبت أنه يوجد بعض العيوب ، وعند مطالبته برد المبلغ ، رفض البائع ، وتلفظ بألفاظ نابية فانتقل الأمر إلى القضاء[٦] .

وفى نفس الوقت نجد حالات كثيرة لدى الشوام ، لايصر البائع على أخذ رهن ، ويسلم السلع ، ويتفق مع المشترى على الدفع بعد فترة معينة وفى ثقة كاملة[٧] وهناك صفقات تم دفع ثمنها بالكامل وضح ذلك مع المتحدث على بيت المال الحشرى[٨] والبيع بصفة أمانة بين

---

(١) سجل رقم ٢٦ ، مادة ٦٩٥ ، ص٢١٩ ، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م .

(٢) سجل رقم ٣٢ ، مادة ٣٩٧ ، ص١٥١ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ١٠٠٨هـ/١٦٠٠م .

(٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٩٤ ، ص٧٣ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٤) سجل رقم ٣ ، مادة ١٣٤٠ ، ص٣٢٠ ، بتاريخ ٢٤ ذى الحجة عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٥) سجل رقم ٤٥ ، مادة ٣٢٩ ، ص١٤٥ ، بتاريخ ٢٤ محرم عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م .

(٦) سجل رقم ٢٥ ، مادة بدون رقم ، ص٣١٩ ، بتاريخ ٤ محرم عام ٩٩٧هـ/١٦٩١م .

(٧) سجل رقم ٢٤ ، مادة ٢٠٨ ، ص٦١ ، بتاريخ ٧ جمادى الاولى عام ٩٨٣هـ/١٥٧٥م .

(٨) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٧١ ، ص١٣٤ ، بتاريخ ٢ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

الشوام والمغاربة[١] وهناك حالات أخرى تمكن فيها المشترى وفى نفس القطاع ، وهو أحد الخبازين بتسديد ماعليه فى الميعاد المحدد[٢] .

وبالنسبة للتصدير والاستيراد ، فنجد أن الكثير من الأهالى والحجازين والشوام والمغاربة والأوروبيين كان لهم دور فى هذا المجال ، حيث ساهم الأهالى برشيد بتصدير الأرز والقمح إلى أزمير[٣] ويحدث فى حالات حدوث أزمات اقتصادية بمنع تصدير القمح ، مثال ذلك أزمة عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م ، حيث صدرت الأوامر بتفتيش السفن للتأكد من عدم تصديره[٤] . وكان الشوام يقومون بتصدير البن والبغال إلى استانبول[٥] والمغاربة بتصدير الخيش والكتان والأقمشة إلى بلاد المغرب[٦] وصدر الأوربيون الكتان والجلود والسمك المملح[٧] .

أما بالنسبة للإستيراد ، فاستورد الأهالى الجبن من قبرص[٨] والخمور من سالونيك[٩] والبن من اليمن[١٠] والجوخ من الهند[١١] والمرايات من أوروبا ، وان كانت الوثيقة لاتذكر

---

(١) سجل رقم ١٣ ، مادة ١٠٦ ، ص٤٤ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٩١هـ/١٥٧٤م .

(٢) سجل رقم ١٨ ، مادة ١٠٦٠ ، ص٣٤٩ ، بتاريخ ١ صفر عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

(٣) سجل رقم ١٢ ، مادة ٣٨٠ ، ص١٣٧ ، بتاريخ ٨ صفر عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٠م .

(٤) سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٨ ، ص١١٢ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م .

وكان ذلك ابان ولاية على باشا الصوفى (٩٧١-٩٧٣هـ/١٥٦٣-١٥٦٥م)

(٥) سجل رقم ٤٥ ، مادة ٣٢٩ ، ص١٤٥ ، بتاريخ ٢٤ محرم عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م .

(٦) سجل رقم ٦٢ ، مادة ١٦٧ ، ص٧١ ، بتاريخ ٢٩ ربيع الأول عام ١١١٣هـ/١٧٠١م .

(٧) سجل رقم ٢٥ ، مادة١٢٢١ ، ص٣٩٨ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م .

(٨) سجل رقم ١٨ ، مادة ١٢ ، ص٥ ، بتاريخ ٦ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م .

(٩) سجل رقم ١٧ ، مادة ١٢١٣ ، ص٣٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(١٠) ب-س جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ص٣٠١ .

(١١) سجل رقم ١١ ، مادة ٩١٣ ، ص٢٢٨ ، بتاريخ ٢١ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

البلد المستورد منها[١] واستورد الأوروبيون البطارخ والصابون وخشب القرو من استانبول[٢] .

ومن الطرائف أن بعض أفراد أوجاق مستحفظان تاجر فى الحطب ، وخاصة مع أهل الذمة من الشوام الذين عملوا كبحار فى إحدى المراكب[٣] واشترى أحد الأهالى مركبا من بعض المغاربة من نوع القايق ، ويستخدم هذا النوع فى نقل الناس من شاطئ إلى آخر ، ولدقة البائع صرح للمشترى بأن به بعض العيوب ، واستلمه على هذا الأساس ، وعارض سردار ادكو هذا البيع ، لأن صاحب المركب الاصلى متأخر فى دفع الرسوم المقررة على هذا القايق ، واستشهد البائع ببعض الشهود الذين أكدوا بأنه هو القايق المطلوب[٤] وشراء قابودان الاسكندرية احدى الجوارى وبنتها[٥] وشراء أحد الأفراد احدى الجاريات ، واتضح بعد ذلك أنها كانت حاملا ، مما أدى إلى قيام المشترى بشكوى البائع ، وتطور الأمر إلى إلى نزاع بين الطرفين ، وتدخل بعض وجهاء المدينة ، حيث أقسم لهم ، بأنه لم يجامعها بالمرة ، واقتنع المشترى بذلك[٦] وقدم أحد الأهالى حرام من الصوف لرفيه عند أحد الشوام ، وفوجئ عند استلامه بقيام الرفا باعارته لأحد الأشخاص ، مما الزمه بدفع ثمنه ، وطالبه بسعر مرتفع ، مما جعل المحكمة تستعين بأحد المختصين ، الذى قدره بسعر معقول[٧] وهناك الكثير من الطرائف وأرشيف المحكمة ملئ بمثل هذه الموضوعات .

وأخيرا أن علينا أن نذكر ، أن سجلات المحكمة الشرعية بالإسكندرية ، تشتمل على نوع جديد من النشاط المالى والخلافات التى تحدث فيه ، وهو ميدان الاقتراض ، ثم ما قد يترتب

---

(١) سجل رقم ١٣ ، مادة ٢١٩ ، ص٨٢ ، بتاريخ ١٦ محرم عام ٩٥٥هـ/١٥٤٨م .

(٢) رقم ٢٥ ، مادة ٢٢١ ، ص٣٩٨ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م .

، سجل رقم ١٧ ، مادة ٤٨٤ ، ص١٦٥ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(٣) سجل رقم ٥٨ ، ماد ٤٣ ، ص١٣٦ ، بتاريخ ٩ شوال عام ١١٠٢هـ/١٦٩١م .

(٤) سجل رقم ٩٥ ، مادة ٨٢ ، ص٤٨ ، بتاريخ ١٨ رجب عام ١١٨٧هـ/١٧٧٣م .

(٥) سجل رقم ٥ ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م .

(٦) سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٨٥ ، ص٧٩ بتاريخ ١٠ ربيع الثانى عام ١١٢٩هـ/١٧١٦م .

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٨٣٤ ، ص٢٠٩ ، بتاريخ ١٠ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

عليها من خلافات فى تسديد مثل هذه الديون ، ولقد شارك الأهالى والحجازيون والشوام والمغاربة والأوربيون والعثمانيون وغيرهم فى هذا المجال ، وكانوا يقترضون من بعضهم البعض، وشاركهم فى ذلك بعض أفراد الأوجاقات العثمانية الموجودة فى الاسكندرية[١] ووجدت أيضا الأمانات والرهونات .

وكان الكثير من عمليات الاقتراض تنتهى إلى خلافات وبسداد المقترض ما قام به من اقتراض ، ولكن سجلات المحكمة الشرعية لاتحتفظ إلا بالأمور التى حدث فيها خلاف وفى أشكال متعددة .

ولم يكن الأهالى وحدهم يمارسون عملية القرض والاقتراض ولكن شاركهم فى ذلك المغاربة، حيث كان بعضهم يقرض بعض الأهالى[٢] والحجازيون من أهل مدينة بدر ومن الشرايفة بالذات[٣] كما كان الحجازيون يقترضون من بعضهم البعض ويقرضون بعض أبناء الإسكندرية والمغاربة[٤] وبعض النساء الخاسكيات[٥] كما حدث تعامل بين المسلمين وأهل الذمة وخصوصا من اليهود ، حيث أقرض ميراللو الشريف السلطانى بثغر رشيد ودمياط مبلغا من المال لأحد اليهود ، والذى كان يشغل وظيفة ملتزما للأموال السلطانية برشيد[٦] وشمل هذا المجال أيضا أهل الذمة حيث كانوا يقترضون من بعضهم البعض[٧] حتى القضاة كانوا

---

(١) سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٠٨ ، ص٢٥٢ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

، سجل رقم ١١ ، مادة بدون رقم ، ص١١٣ ، بتاريخ بدون .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٠٣ ، ص٢٢٦ -٢٢٧ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

(٢) سجل رقم ٩ ، مادة ٤٠٥ ، ص١٤١ ، بتاريخ ١٩ رمضان عام ٩٨٤هـ/١٥٧٦م .

(٣) سجل رقم ١٧ ، مادة ٩٥ ، ص٣٠ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢ .

(٤) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٣٦ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

(٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٩٥ ، ص٢٥٦ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٦) سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٩ ، ص٤٤١ ، بتاريخ ٢١ صفر عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م .

، سجل رقم ٧ ، مادة ٤٤ ، ص١٦ ، بتاريخ ١٢ محرم عام ٩٧٣هـ/١٥٧٥م .

(٧) سجل رقم ١٧ ، مادة ١٢٣ ، ص٣٩ ، بتاريخ ١٧ شعبان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

يقترضون ويقرضون في بعض الأحيان بعضهم البعض ، ويشترطون في بعض الحالات بتسديد هذه القروض على أقساط ، ولدينا بعض الوثائق تصف المقترض ومواصفاته الجسمانية حرصا على حفظ الحقوق[١] ونجد حالات الاقراض بالوكالة عن الغير ، وخاصة لدى المغاربة ، فقد اقرض أحدهم بعض الأمراء السابقين في أوجاق مستحفظان[٢] .

وتعددت أغراض القروض ، فقد يكون القرض بقية أجرة شحن بضاعة[٣] أو أجرة سفر لرودس[٤] أو ثمن علف جمال[٥] أو اصلاح مركب[٦] ، وقد يكون القرض أوالدين عبارة عن تأخير ايجار لاحدى الوكالات في وقف الأشرف قايتباى بالمدينة ، وعند المطالبة بالتسديد أدعى المستأجر بدفع ماعليه من ايجار[٧] أو يكون قيمة حصة في رأسمال شركة سابقة ، تم تصفيتها وتحدث بعض المشاكل كالإنكار وينتهي بهم الأمر بايداعهم في السجن[٨] وقد يكون في حالة افتداء الأسرى في مالطة ويتعهد في أثناء هذه الحالة بتسديد قيمة القرض عند عودته[٩] أو فك الاسرى في مسينا[١٠] أو لتمويل صفقة تجارة مثل تجارة الجوارى[١١]

---

(١) سجل رقم ١٤ ، مادة ٩٠٣ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

(٢) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٦٤٦ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

، سجل رقم ٢ ، مادة ١٥٢ ، ص٤٤٢ ، بتاريخ ١٩ جمادى الأولى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م .

(٣) سجل رقم ١٦ ، مادة ١١٢٨ ، ص ٤١٤ ، بتاريخ ١٤ ذى الحجة عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م .

(٤) سجل رقم ١٢ ، مادة ٢٢٥ ، ص٨٦ ، بتاريخ ١١ محرم عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

، سجل رقم ١٧ ، مادة ٢٣٧ ، ص٧٧ بتاريخ ٢٢ رمضان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(٥) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٢٦ ، ص١٦٧ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

(٦) سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٩٥ ، ص٢٥٦ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م .

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٣٥ ، ص١٢ ، بتاريخ أول رجب عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٨) سجل رقم ١١ ، مادة ١٢٠٨ ، ص٢٥٢ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٩) سجل رقم ٣٥ ، مادة ٦٨٠ ، ص٢٧٣ ، بتاريخ ٢٠ رجب عام ١٠١٥هـ/١٦٠٦م .

(١٠) سجل رقم ٥٦ ، مادة ٧٤٦ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ٢١ جمادى الثانية عام ٩٧٨/ ١٥٧٠م .

(١١) سجل رقم ١ ، مادة ١٤٥٠ ، ص٣٦٥ ، بتاريخ ١٤ جمادى الاولى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٧٠م .

والعسل والجبن ، وفى مثل هذه الحالة يتفق على دفع المبلغ بعد خصم نسبة منه[١] أو ثمن جاموسة[٢] .

وشملت القروض الحرفيين فى حرفة واحدة أو بين أبناء حرفة وأخرى ، مثال ذلك اقتراض بعض الصرافين من بعض الطحانين[٣] وأحد العاملين فى تجارة الجمال لأحد القصابين[٤] .

وكان بعض المقرضين يصر فى بعض الأحيان ، على أخذ رهن لديه حتى يتم السداد ، مثل مفروشات المنزل (غطاء - وسادة) ، وفى مثل هذه الحالة يضاف فائدة إلى المبلغ الذى يتفق على كيفية تسديده على أقساط اسبوعية[٥] أو مصوغات[٦] أو ملابس وأقمشة ، وفى هذه الحالة اذا تأخر المقترض عن التسديد يباع الرهن دون الرجوع إلى المقترض[٧] .

أما عن المشاكل الناجمة عن ذلك ، فنجد أن سجلات المحكمة الشرعية مليئة بمثل هذه المشاكل ، مثال ذلك اقتراض أحد العاملين بتجارة الجمال من أحد القصابين الشوام ، واتفق على دفع جزء من المبلغ ، ويسدد بعد ذلك ماتبقى ، ولكنه يتباطأ فى الدفع ، وقام نزاع بين الطرفين ، وتدخل البعض ، واتفق على دفع الباقى ، وقد أقرت المحكمة هذا الاتفاق [٨] ومماطلة أحد المغاربة لبعض الشوام فى تسديد ماعليه من قرض ، ثم أدعى بأنه كان ضامنا ، واستشهد بالبعض ، وانتهى الأمر بدفع ماتبقى عليه من المبلغ[٩] .

---

(١) نفسه .

(٢) سجل رقم ١ ، مادة ١٤١٨ ، ص٣٤٤ ، بتاريخ ١٤ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/١٥٧٠م .

(٣) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧٤ ، ص٣٩٠ ، بتاريخ ١٧ جمادى الثانى عام ٩٥٩هـ/١٥٦٨م .

(٤) سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٥ ، ص٤٣ ، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٥) سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٥٧ ، ص٢٤٧ ، بتاريخ ٢٨ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٦) سجل رقم ١٦ ، مادة ١١٢٨ ، ص٤١٤ ، بتاريخ ١٤ ذى الحجة عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م

(٧) سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٧١ ، ص٢٢٥ ، بتاريخ ٢٠ رجب عام ١٠١٥هـ/١٦٠٦م .

(٨) سجل رقم ١١ ، مادة ١٠٢٨ ، ص٢٥٢ ، بتاريخ ٤ ذى الحجة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٩) سجل رقم ٣٢ ، مادة ٩٠٣ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

أمابالنسبة للأمانات ، فقد حدث أن أودعت أحدى السيدات مصاغها عند شقيقها بصفة أمانة ، وتذكر أنواعها وأوزانها ، واستردتها دون نقصان[١] وقام البعض ايداع مبالغ كبيرة لدى البعض بصفة أمانة واستردها كاملة[٢] ، وقد أودع أحد الشوام مبلغا من المال لدى أحد المغاربة ، بصفة أمانة لاستثماره ، ولكن حدث أن خسر المبلغ وقام نزاع بين الطرفين ، وانتهى بخسارته للمبلغ على حسب شهادة الشهود[٣] .

وتحدث بعض المشاكل فى هذا المجال ، مثال ذلك قيام بعض الأهالى بتأدية فريضة الحج ، وترك مبلغا من المال لدى البعض بصفة أمانة ، وحدث أثناء تأديته فريضة الحج ، أن توفى هناك ، وعندما طالب الورثة ، برد المبلغ ، أنكر واستشهد ببعض الشهود الذين أيدوه، وكانت النتيجة ضياع المبلغ[٤] .

وقد أودع أحد الحجازين بعض الأوانى النحاسية كرهن عند البعض ، الا أنها فقدت ، فحدث نزاع بين الاثنين ، وأنتهى ذلك بدفع قيمة هذه الأوانى[٥] .

أما الوضع بالنسبة للأوربيين فانهم كانوا يحصلون مبالغ على هذه الأمانات ، التى اتخذت أشكالا تختلف مثل النقود الذهبية كالدينار الذهبى ، ويفقد هذا المبلغ ، وتكون النتيجة دفع مايوازيه من العملات المحلية التى كانت تتداول خلال هذه الفترة[٦] وقد تكون الأمانة مجوهرات ويطمع فيها ، ولايردها بل وينكر استلامها ، ولكن فى النهاية تلزمه المحكمة بردها بم لديها من مستندات[٧] .

---

(١) سجل رقم ١١ ، مادة ٦٩٨ ، ص١٧٩ ، بتاريخ ٣ ذى الحجة ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٥٧ ، ص١٥٢ ، بتاريخ ١٥ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٣) سجل رقم ٥١ ، مادة ٨٤ ، ص١١٧ ، بتاريخ ١١ جمادى الاولى عام ١٠٧٤هـ/١٦٧٣م .

(٤) سجل رقم ١٦ ، مادة ٢٥٣ ، ص١٠٦ ، بتاريخ ٥ رجب عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(٥) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧٤ ، ص ٣٩٠ ، بتاريخ ١٧ جمادى الثانية عام ٩٥هـ/١٥٨٦م .

(٦) سجل رقم ٩ ، مادة ٨٧٧ ، ص٢٤٧ ، بتاريخ ٢٩ محرم عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

(٧) سجل رقم ٢٩ ، مادة ٨١٠ ، ص٢٥٢ ، بتاريخ ٦ صفر عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

بعض الحرف والصناعات :

أما عن الحرف والصناعات ، فان دراسة موضوع طوائف الحرف فى مصر العثمانية ، تلقى الضوء على جانب عام من جوانب حياة المجتمع المصرى العثمانى الذى انقسم فيه المجتمع إلى هيئات طائفية كان منها العلماء والملاك والتجار والصناع ، فجميع الأفراد الذين تضمهم مهنة واحدة ، أو عمل واحد أو مذهب دينى واحد . فكانوا ينظمون أنفسهم فى شكل طائفة لرعاية مصالحهم وقد ضمت الطوائف جميع فئات المجتمع بلا استثناء أو تفرقة بينهما ، فكان منها طائفة المسلمين ، وطائفة المسيحيين وطائفة اليهود ، وكان رعايا كل طائفة يميلون إلى تقديم ولاءهم إلى طائفتهم أكثر من تقديمه إلى السلطة الحاكمة[١] وكان نظام الحرف قائما على التكوين الدينى أو العرقى للطوائف ، فمع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون إلى نفس المجتمع المحلى الدينى أو العرقى ، وإذا مارس أعضاء نفس الديانة نفس الحرفة ، فانهم يشكلون طوائف على حسب بلادهم ، ونوع تجارتهم وعبادتهم الدينية[٢] وتدرجوا فى مراتب هذه المهن الطائفية طبقا لنظام الطوائف من صبى إلى أسطى أو معلم إلى شيخ حرفة أو شيخ طائفة[٣] .

أما بالنسبة للصناعات فإنها كانت صناعات صغيرة وتعتمد على ورش صغيرة . وقد كانت فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر الميلادى بدائية تعتمد على عدد قليل من العمال لتزويد السكان بما يحتاجون اليه من غذاء وكساء وأدوات منزلية . وكانت تعتمد فى المقام الأول على القوى العضلية والمواشى ، واستخدم بعض المهاجرين الأجانب قوة الهواء فى ادارة الطواحين[٤] .

أما الحرف فإنها كثرت وخاصة التى ترتبط ارتباطا وثيقا بالمدن الساحلية مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط ، والسويس وغيرها ألا وهى حرفة قلفطة المراكب ، ونجد أن بعض أهالى

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ، ابان الحكم العثمانى ، ص٥٧.

(٢) Gabrial Baer, Guilds in Egypt in Modern Times, Jerslum, 1964 .

ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ، ابان الحكم العثمانى ص٨٣ .

(٣) سجب رقم ٥٣ ، مادة ٢٦١ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م .

(٤) على الجريتلى و تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ص١٦-١٧ .

الأندلس الذين وفدوا بمراكبهم إلى الاسكندرية ورشيد ينتهزون فرصة رسوهم فى رشيد ويقومون بعملية القلفطة[١] وقد احترف هذه الحرفة كل من الأهالى والاوروبيين اليونانيين والعرب الشوام والحجازيين[٢] وبحارة المراكب[٣] وخاصة اليونانيين الذين خدموا فى الإسطول العثمانى ، كما أن الأتراك العثمانيين قد تركوا تجارتهم مع الغرب فى أيدى اليونانيين ويرجع ذلك لخبرتهم البحرية[٤] كما أن الأهالى عملوا كبحارة فى النيل وفى البحر المتوسط ، والنقل بين الموانى الداخلية مثل دمياط ورشيد[٥] ونقلوا البضائع بين موانىء البحر المتوسط مثل : من طرابلس الى الاسكندرية [٦] وقد لوحظ أن رئيسهم أحيانا يكون من المغاربة[٧] بالإضافة إلى ذلك استخدموا معهم بحارة أوربيون[٨] وقد يطردوا لسوء سلوكهم أو غير ذلك من الأسباب وينتقموا منهم بالاستيلاء على بعض ماتحمله المركب[٩] .

ووجدت حرفة أخرى تتعلق بصناعة المراكب أو عمليات البناء الا وهى حرفة الحدادة ، وقد مارسها الأهالى فى رشيد[١٠] وحرفة المعمار[١١] وكان يرأس هذه الحرفة معمارجى باشى الذى كان يحصل من الحرفيين (أو من مباشرهم فى كل عمارة من العمارات السلطانية التى يشرف

---

(١) سجل رقم ١ ، مادة ٢٤٦ ، ص٥٥ ، بتاريخ ٢٨ رمضان عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

(٢) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م .

، سجل رقم ٨ ، مادة ٣٧٩ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فى أصول التاريخ العثمانى ، ص١٢٩ .

(٤) محمد عبد اللطيف البحراوى ، حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ، ص٣٤.

(٥) سجل رقم ٨ ، مادة ١٤١ ، ص٥١ بتاريخ ٩ جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٤١ ، ص٧٠ ، بتاريخ ١١ شعبان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٣٢٨ ، ص٩٤ ، بتاريخ ٢٦ شعبان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٨) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٩) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٧ ، ص٢٨ ، بتاريخ ٢٨ ربيع الأول عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

(١٠) سجل رقم ١٤ ، مادة ٣٧١ ، ص٨٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

(١١) سجل رقم ٧ ، مادة ١٦٥ ، ص٦٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م .

عليها محبوبا واحدا) أو ١٨٠ نصف فضة يوميا[١] وقد لوحظ أن الأهالى قد احترفوا هذه الحرفة وشاركهم فيها الشوام[٢] .

وقد احترف الأهالى ، حرفة أخرى تتعلق بوسيلة النقل الأساسية التى كانت موجودة سواء أكان ذلك داخل المدن أو خارجها ، وتعتمد أساسا على النقل بالحمير ، وكان لهؤلاء حرفة معينة عرفت بحرفة المكارية ، وكانت لهم مواقف خاصة بهم ، ويتفق معهم على الأجرة مقدما ، ويدفع أحيانا عربون وقد يسترد[٣] وقد احترفها كل من الأهالى والشوام[٤] .

كما احترف الأهالى السقا[٥] لأن هذه الحرفة كانت موجودة فى تلك الفترة ، وكانوا ينقلون الماء فى مزادات[٦] فكانت جماعة السقايين عنصراً أساسيا من عناصر المظهر الاجتماعى . وبحكم ذهابهم من منزل الآخر - كما تقتضى وظيفتهم - فقد هئ لهم أن ينفذوا إلى أعماق البيوت حيث السيدات ، وربما يكون نتيجة لذلك قد لعبوا دورا هاما فى نقل الأخبار ونشرها وساهموا بطريقة مباشرة فى الحياة اليومية للأهالى[٧] .

وهناك حرفة أخرى كانت سائدة فى تلك الفترة فى مصر العثمانية ، الا وهى حرفة الحمامين، والتى يبدو أن التقاليد الطائفية "النقابية" عندهم كانت قوية لحد كبير اذ أنهم وحتى نهاية القرن التاسع ، ظلوا يقومون باحتفالات الشد ، وكان يمارس هذا التقليد بالإضافة اليهم الحذا ءون والحلاقون[٨] والحمامون وبجانب حرفتهم كانوا دائما يتعاملون فى التجارة وخصوصا تجارة الدقيق[٩] . ويرجع ذلك إلى أن بعض الذين يدخلون للاستحمام يقضون أغلب اليوم

(١) محمد شفيق غربان ، مصر عند مفرق الطرق ، ص١٩ .

(٢) سجل رقم ١ ، مادة ١٨٢٠ ، ص٤٣٧ ، بتاريخ ٢٨ جمادى الثانية عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٣) سجل رقم ٩ ، مادة ١١٦ ، ص٣٩ ، بتاريخ ١٧ محرم عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٤) سجل رقم ١١ ، مادة ٧٣٩ ، ص١٨٧ ، بتاريخ ٢٥ شوال عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٥) سجل رقم ٥ ، مادة ١٧٦ ، ص٦٥ ، بتاريخ ٣ محرم عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م .

(٦) وليم لين ، المصريون المحدثون ، عاداتهم وشمائلهم وتقاليدهم ، ص٢٨١ .

(٧) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، ص١٠٦ ، وانظر أيضا ، صلاح هريدى ، الحرف والصناعات فى عهد محمد على ، ص٥٥-٦٢ .

(٨) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية من ٥٥-٦٢ .

(٩) سجل رقم ٨ ، مادة ٥١٥ ، ص١٧٧ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

هناك فيلزم إطعامهم ان لم يكن معهم طعاما . وقد مارس هذه الحرفة كل من الأهالى والمغاربة والشوام وكانوا يتعلمونها عن بعض المغاربة[١] واحترف كل من الأهالى والمغاربة حرفة الحلاقين[٢] .

أما الخياطين فقد احترفها كل من المغاربة والحجازيين واليونانيين المسلمين الذين اشتهروا بخياطة الطواقى[٣] وعمل الشوام برفى الملابس[٤] .

بالإضافة إلى ذلك فقد وجدت حرف أخرى كمهنة الخبازين حيث عمل فيها كل من الأهالى والمغاربة والشوام[٥] وعمل كل من المغاربة والأهالى والشوام فى حرفة القصابين[٦] وعمل أيضا كل من المغاربة والحجازيين كمداحين وطبالين[٧] ومهنة السمرة احترفها المغاربة

---

(١) سجل رقم ١ ، مادة ١٢٢٢٤ ، ص٢٧٦ ، بتاريخ ١٨ ذى القعده عام ٩٩٠هـ/١٥٨٣ .

، سجل رقم ١٨ ، مادة بدون رقم ، ص٢٧٦ ، بتاريخ ١٨ ذى القعدة عام ٩٥٧هـ/١٥٥١م .

(٢) سجل رقم ٦ ، مادة ١٨ ، ص٦ ، بتاريخ ١٢ ربيع الأول عام ٩٧٢هـ/١٥٦٤م .

(٣) سجل رقم ٨ ، مادة ١٢٦ ، ص٤٤ ، بتاريخ ٢٤ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٤) سجل رقم ١ ، مادة ٤٩٩ ، ص١٠٤ ، بتاريخ ٢٠ ذى القعدة عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

وهى حرفة خاصة باصلاح عيوب الملابس .

(٥) سجل رقم ٤ ، مادة ٦١٣ ، ص٢٠٥ ، بتاريخ ٧ صفر عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

، سجل رقم ٥ ، مادة ٣٣٩ ، ص١٢١ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ٩٨٧هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ٩ ، مادة ٦٦٢ ، ص٦٦٢ ، ص٢١٢ ، بتاريخ ٨ رمضان عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٨٩٩ ، ص٢٢٦ ، بتاريخ ١٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٦) سجل رقم ٦ ، مادة ٢٢٥ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٣١٥ ، ص٩١ ، بتاريخ ٢٤ شعبان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٥ ، ص٢٤٣ ، بتاريخ ٢٩ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٧) سجل رقم ١ ، مادة ٩٢٩ ، ص٢٨١ ، بتاريخ ٢٥ ذى القعدة عام ٩٦١هـ/١٥٥٣م .

، سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥١٨ ، ص١٤٥ ، بتاريخ مستهل شعبان عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م .

واليونانيين[١] واحترف كل من المغاربة والأوربيين والأهالى الصرافة[٢] وعمل المغاربة كدلالين[٣] والشوام قواسين[٤] والحجازيين فى الصياغة لحساب الغير[٥] واليونانيين كصناع للكراسى وكانت لهم وظائفهم المنفصلة ، وكان بين أعضاء الطائفة المحلية فى هذه الحرفة الأقباط واليهود[٦].

واقتصرت بعض الحرف على فئة معينة مثل الشوام ، فقد احتكروا حرفة القهوجية[٧] والدخاخنية وتبيض النحاس[٨] وكان شيخ الحرفة يتولى شئونها ويفصل فى المنازعات بين الأفراد ، ويوزع عليهم الضرائب ، وينزل بهم العقاب اذا أهمل أحد الأفراد فى حرفته[٩] .

أما أجور الحرفيين ، فاما أن تكون نقدية أو عينية مثل الملابس وغيرها[١٠] وقد يتفق الحرفى من الحجازيين مثلا على القيام بعملية معينة بأجرة محددة[١١] وغالبا كانت أجرة الحرفى تتساوى تقريبا عند مختلف الجنسيات[١٢] .

---

(١) سجل رقم ٦ ، مادة ٥٨ ، ص٢٨ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الآخر عام ٩٦٠هـ/١٥٥٢ .

، سجل رقم ٨ ، مادة ٣٨٧ ، ص١٣٢ ، بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/١٥٦٥م .

(٢) سجل رقم ٨ ، مادة ٧٦٥ ، ص ٢٨٥ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/١٥٦٥ .

، سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٥ ، ص٣٨ ، ٣٩ ، بدون تاريخ

، سجل رقم ٧ ، مادة ١٩٩ ، ص٨١ ، بدون تاريخ .

(٣) سجل رقم ٦ ، مادة ٢٢٥ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٥ ذى الحجة عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

(٤) سجل رقم ٩١ ، مادة ١٣٢ ، ص٨٧ ، بتاريخ ١٠ جمادى الأولى عام ١١٨٣هـ/١٧٦٥م .

(٥) سجل رقم ١ ، مادة ٤٩٩ ، ص١٠٤ ، بتاريخ ٢٠ ذى القعدة عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

(٦) سجل رقم ١ ، مادة ١٦٢ ، ص٣٥ ، بتاريخ ١٧ رمضان عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

(٧) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٠٤٨ ، ص٣٨٤ ، بتاريخ ١١ جمادى الثانية عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م .

، سجل رقم ٥ ، مادة ٤٦٨ ، ص ١٩٦ ، بتاريخ ١٠ رمضان عام ٩٦٣هـ/١٥٥٥م .

(٨) سجل رقم ١٢ ، مادة ٢٩ ، ص١٢ ، بدون تاريخ .

(٩) محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديثة ، ص٣٤ .

(١٠) سجل رقم ٨ ، مادة ٩٢ ، ص٣١ ، بتاريخ ٦ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(١١) سجل رقم ٥٨ ، مادة ٢٨٨ ، ص١٦٠ ، بتاريخ ١٩ ذى الحجة عام ١١٠٢هـ/١٦١٩م .

(١٢) سجل رقم ٤٩ ، مادة ٤٦٩ ، ص١٧٦ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ١٠٦٥هـ/١٥٦٤م .

وبالنسبة للمشاكل التى تحدث فى هذا المجال ، نذكر على سبيل المثال تباطأ بعض الحرفيين الشوام فى تسليم الستائر التى سلمها له البعض لتصنيعها ، وعندما استفسر عن سبب ذلك ، اتضح أنها سرقت منه[١] وتسليم بعض العاملين فى تبيض النحاس بعض الأوانى لسيدة غير صاحبتها[٢] وفى هذه الحالة أصرت صاحبة الأوانى على أخذ قيمة أوانيها[٣] .

وفى هذا القطاع نجد الكثير من الخلافات حول اتمام العمل دون دفع الأجرة المتفق عليها ، كما حدث فى قلفطة احدى المراكب [٤] أو اهمال تعليم الحرفة ، ورفضة دفع المبلغ المدفوع وانكار الاستلام[٥] .

وبالنسبة للصناعة فى العصر العثمانى ، فكانت هناك بعض الصناعات مثل صناعةالنسيج وخاصة نسج الملابس المغربية والملابس الصوفية التى استخدمها البدو فى الصحراء الغربية ، والأحرمة المغربية والشيلان المغربية التى كانت لها شهرة واسعة[٦] . كما انتشرت صناعة المنسوجات فى كثير من المدن الشمالية (فى الوجه البحرى) ، نظرا لسهولة استيراد الحرير من سوريا[٧] وملاءمة تلك المناطق للتصدير إلى أسواق الأقطار المجاورة ، وقد أصبح لبعض القرى شهرة واسعة بالصناعات مثل منوف ، محلة مرحوم ، وبربة ، وأبيار ، وبيسون ، وسمنود ورشيد ودمياط وأنشاص[٨] كما وجدت صناعة التيل والمنسوجات الكتانية[٩]

---

(١) سجل رقم ١١ ، مادة ٣٥ ، ص١٢ ، بتاريخ أول رجب عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٢) سجل رقم ١٢ ، مادة ٢٩ ، ص١٢ ، بدون تاريخ .

(٣) نفسه .

(٤) سجل رقم ٨ ، مادة ٣٧٩ ، ص١٣٠ ، بتاريخ ٢٣ جمادى الاولى عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٥) سجل رقم ١٨ ، مادة بدون رقم ، ص٢٧٦ ، بتاريخ ١٨ ذى القعدة عام ٩٩٠هـ/١٥٨٣م .

(٦) عمر عبد العزيز عمر ، مجتمع الاسكندرية فى العصر العثمانى ، ضمن ندوة مجتمع الاسكندرية عبر العصور المختلفة ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٧) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص١٨٢ .

(٨) ب.س جيرار الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ص ٣٠٨ .

(٩) S.J. Shaw, ottoman Egypt in the Age of . The French Revolution, p. 132 .

وكان يصنع فى رشيد نوعا من الأقمشة الكتانية بها خطوط من الحرير الأبيض ، تستخدم بصفة خاصة فى صنع قمصان النساء [١] كما كانت تصنع قلوع المراكب من الكتان ، وكان لها شهرة واسعة فى تلك الفترة[٢] كما قامت صناعة تمليح السمك[٣] والسكر[٤] وكان يصدر من الخارج[٥] والمراكب وقد اشتهرت رشيد بذلك ، واعتمدت على خبرة أهالى مطوبس فى هذا المجال[٦] .

وتخصصت كل طائفة فى صناعة معينة مثل المغاربة فى صناعة عصر الزيوت ، والصابون والسكر ، والمخلل والأقمشة ، والأحرمة الصوفية ، والشيلان المغربية والملابس الصوفية والمنسوجات الكتانية بأنواعها ، والاقفاص ، والخمر ، والأدوات المنزلية ، والأدوات الخشبية ، والسروج ، والقزازة ، والأدوات الحديدية ، ودباغة الجلود[٧] وتخصص الشوام فى صناعة الحلوى[٨] واليونانيون فى صناعة المرجان[٩] .

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية :

أما الحياة الاجتماعية ، فكانت من واقع سجلات المحكمة الشرعية ، متمثلة فى العادات والتقاليد ، مثل الزواج والطلاق ، والميراث ، والخلافات العامة ، واعتاق العبيد والجوارى والأوقاف ، واعتناق بعض أهل الذمة من أهل البلاد والأوروبيين للاسلام ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية الأخرى .

---

(١) ب .ص ، جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ص٣٠٨ .

(٢) سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٦٧ ، ص٩٢ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م .

(٣) على الجريتلى ، تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن ١٩ ، ص١٩ .

(٤) محمد محمود زيتون ، اقليم البحيرة ، ص١٢٧ .

(٥) نفسه .

(٦) سجل رقم ١٧ ، مادة ٦٨٤ ، ص٢٢٥ ، بتاريخ ١٨ محرم عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م .

(٧) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٨٣ .

(٨) سجل رقم ٢٦ ، مادة ٣٠٨ ، ص١٢٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م .

(٩) سجل رقم ٢ ، مادة ١١٤٧ ، ص٢١٦ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٦٥هـ/١٥٥٧م .

ومن الملاحظ فى حالة الزواج ، يذكرون دائما مقدم الصداق والمؤخر ، الذى كان فى أغلب الأحوال بقسط شهرية ، وأحيانا لايدفع مؤخر الصداق طالما أنها فى عصمته ، وقد لوحظ أيضا أن مقدم الصداق يختلف من فئة لأخرى ، ويكون ذلك راجعا إلى حرفته ، أو إلى مقدرته المالية ، فنجد المكارى مثلا يدفع مقدم صداق معقول بالنسبة له ، أما المؤخر فهو يقسط على أقساط شهرية متساوية[١] وعندما يتباطأ بعضهم - فى بعض الحالات فى دفع بقية الأقساط الشهرية لجأت الزوجة إلى القضاء لتحصل أقساطها الشهرية من مؤخر الصداق[٢] لأن تقسيط مؤخر الصداق كان ساريا فى بعض فئات المجتمع خلال هذا العصر[٣] كما يتعهد الزوج بكسوة زوجته شتاء وصيفا[٤] .

كما تمت عملية الزواج بين الأهالى والمغاربة[٥] وبين الأهالى والهوارة الصعايدة[٦] وان كان ذلك يخالف عاداتهم وتقاليدهم بعدم الزواج من غير الهواريين ، كما أن البدو الأزديين المقيمين بالبحيرة يتزوجون من الأهالى ويشترط عليه كسوتها[٧] .

وبالنسبة للحجازيين فقد تزوجوا من بنات الأهالى[٨] وبنات المغاربة[٩] واحدى المعتوقات الحبشيات[١٠] ، وهناك ماعرف بالزواج المشروط ، ومثال ذلك تشترط احدى الزوجات على زوجها ، بأنه اذا تزوج بغيرها ، تكون طالقا دون أن يطلق اللفظ نفسه[١١] .

---

(١) سجل رقم ٦ ، مادة ٢٢٩ ، ص١٨٤ ، بتاريخ ٢٢ صفر عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م .

(٢) سجل رقم ٧ ، مادة ٣٧٧ ، ص٣٦٧ ، بتاريخ ١٩ صفر عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م .

(٣) سجل رقم ٧ ، مادة ٣٧٧ ، ص٢٦٧ ، بتاريخ ١٩ صفر عام ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م .

(٤) سجل رقم ٦ ، مادة ٦٢٢ ، ص٢٥٩ ، بتاريخ ١٣ رجب عام ١٠١٣م .

(٥) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٦٠ ، ص١٦٢ ، بتاريخ ٢٨ ذى الحجة عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .

(٦) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٣٩ ، ص٥٥ ، بتاريخ ٢٦ شعبان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(وانظر أيضاً ، صلاح هريدى ، دور الصعيد فى مصر العثمانية ، ص٤١٩)

(٧) سجل رقم ١٦ ، مادة ٦٥٠ ، ص٢٥١ ، بتاريخ ٤ جمادى الآخرة عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

(٨) سجل رقم ٧٢ ، مادة ٢٣٠ ، ص١٧٨ ، بدون تاريخ .

(٩) سجل رقم ٥١ ، مادة ٢٥ ، ص١٤٤٣ ، مادة ٥ ، ص٦١٦ ، بتاريخ ١٨ رمضان عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م .

(١٠) سجل رقم ٧١ ، مادة ٥٦٦ ، ص٢٤٣ ، بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م .

(١١) سجل رقم ١٨ ، مادة ٤٤ ، ص١٥ ، بتاريخ ١٠ جمادى الأولى عام ٩٩٠هـ/١٥٨٣م .

وبالنسبة للشوام ، فقد تزوج أحدهم من بنات احدى أهالى الصعيد المقيمين بالإسكندرية[١] وتزوج أيضا أحد الشوام الدروز من بنات الاهالى[٢] كما تزوج بعض الأهالى من احدى بنات الشوام[٣] واللاتى كن صغيرات السن تقدر بعشر سنوات[٤] ومن الطريف أن احدى النساء الشاميات اشترطت على زوجها اذا تركها مدة ثلاث شهور دون متعة او نفقة تصبح طالقا دون أن يطلق اللفظ[٥] .

أما المغاربة ، فقد لوحظ أنه يحدد المقدم والمؤخر ، الذى يقسط أحيانا على سنوات معينة يتفق عليها[٦] وتزوجوا من عربان هوارة[٧] وأيضا من أحدى السردينيات المعتقات بعد أن أشهرت اسلامها[٨] .

أما الزواج عند الجاليات الأوربية ، فقد تم بين بعضهم البعض ، وبينهم وبين بعض الجنسيات الأخرى ، ويذكر مقدم الصداق ولايذكر المؤخر ولاكسوتها[٩] ولابد أن ينكر أنها خالية من الموانع الشرعية[١٠] وتزوجوا من الأهالى وتزوج الأهالى كذلك من الأوربيات المسلمات[١١] .

وهناك حالات من الزواج المشروط بعدة شروط ، مثل عدم مطالبة الزوجة بمؤخر الصداق طالما أنها على عصمته ، وتكون الزوجة طالقا منه ، لو تزوج بأخرى دون أن يطلق اللفظ ، أو الالتجاء للقضاء ، وفى هذه الحالة تبريه من جزء معين من مؤخر صداقها[١٢] .

---

(١) سجل رقم ٢٢ ، مادة ١١٤٧ ، ص٣٤٧ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٥٦هـ/١٥٤٩م .

(٢) سجل رقم ٦ ، مادة ١٢١ ، ص٤٨ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٧٦هـ/١٥٦٣م .

(٣) سجل رقم ٦ ، مادة ١٢١ ، ص٤٨ ، بتاريخ ٢٥ ربيع الأول عام ٩٧٦هـ/١٥٦٣م .

(٤) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٧٨٤ ، ص٢٤٠ ، بتاريخ ٢٨ صفر عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م .

(٥) سجل رقم ٤٢ ، مادة ١١٢ ، ص٣٥ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ١٠٠٥هـ/١٦٠٧م .

(٦) سجل رقم ٤ ، مادة ١١ ، ص٣٤٣ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٧) سجل رقم ٤ ، مادة ٦٩٧ ، ص٢٢٠ ، بتاريخ ١٧ صفر عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٨) سجل رقم ٨ ، مادة ٧٦٥ ، ص٢٨٥ ، بتاريخ ٢٢ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٩) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٩٧ ، ص٢٨ ، بتاريخ ١٠ ربيع الثانية عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م .

(١٠) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٣٧٢ ، ص١١٠ ، بتاريخ ١١ شوال عام ١٠١٠هـ/١٦٠٧م .

(١١) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥٣ ، ص١٥ ، بتاريخ ١٩ ربيع الثانى عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

(١٢) سجل رقم ٢١ ، مادة ٢٤٦ ، ص١١٣ ، بتاريخ أول جمادى الأولى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

وفى حالة الطلاق عند الأهالى ، فقد تبرئ الزوجة زوجها من مؤخر صداقها[١] وأحيانا يدفع مؤخر الصداق المتفق عليه [٢] .

أما الطلاق عند الحجازيين فيتفق على اقتسام أثاث المنزل وغير ذلك ومن الممكن فى مثل هذه الحالة تطلب من مطلقها رد بعض الأشياء الخاصة بها[٣] ويطلب الزوج أحيانا أحيانا أن تبريه من مؤخر الصداق[٤] .

وعند الشوام ، كان الطلاق يتم فى بعض الحالات بأن تطلب الزوجة نفسها الطلاق ، وتتنازل عن مؤخر صداقها[٥] وهناك حالة أخرى بأن تتنازل الزوجة عن مؤخر صداقها وبالرغم من ذلك فانه يحكم لها بنفقة شهرية[٦] وينطبق نفس الحالة على المغاربة[٧].

أما بالنسبة للأوربيين ، فانه من المفروض للمطلقة أن تستلم مؤخر صداقها المتفق عليه دفعة واحدة ، ولكن يدفع المطلق المؤخر على دفعات ، ويتفق الاثنان على استلام مايخص كل منهما من أثاث المنزل[٨] وأحيانا تبرئ الزوجة زوجها من مؤخر الصداق ، ومايخصها من مجوهرات وأثاث وغير ذلك من مستحقاتها اذا كانت هى الراغبة فى الطلاق[٩] .

أما عملية النزاع على الميراث ، فقد يحدث أن يستولى أحد الأخوة على ميراث أخوته ، من أرض زراعية وغير ذلك ، ويتولى على ريعها من الحاصلات الزراعية ويلجأ الورثة للقضاء الذى ينصفهم برجوع حقهم فى الأرض والريع[١٠] ويحدث أن يكون لأحد المغاربة المقيمين خارج

---

(١) سجل رقم ١٤ ، مادة ٧٣٤ ، ص٢١٦ ، بتاريخ ٢٧ رمضان عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٢) سجل رقم ٦ ، مادة ٣٨١ ، ص ٢٧٤ ، بتاريخ ١٥ رجب عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م .

(٣) سجل رقم ١ ، مادة ٣٣٣ ، ص٧٢ ، بتاريخ ٩ شوال عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م .

(٤) سجل رقم ٩ ، مادة ١٨٦ ، ص٥٨ ، بتاريخ ٨ رجب عام ٩٨٥هـ/١٥٧٧م .

(٥) سجل رقم ١ ، مادة ٤٩٩ ، ص١٠٤ ، بتاريخ ٢ ذى القعدة عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م .

(٦) سجل رقم ٩١ ، مادة ٣١٩ ، ص٢٢٨ ، بتاريخ ٨ رجب عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م .

(٧) سجل رقم ٤ ، مادة ٤٤٠ ص١٥٠ ، بتاريخ ١١ رمضان عام ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م .

(٨) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٦٣٢ ، ص١٩٦ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١٠١٦هـ/١٥٦٧م .

(٩) سجل رقم ٧ ، مادة ٥١٧ ، ص٢١٧ ، بتاريخ ١١ ذى القعدة عام ٩٩٨هـ/١٥٨٩م .

(١٠) سجل رقم ٥ ، مادة ٥٦٨ ، ص٢٤٧ ، بتاريخ ١ ذى القعدة عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

البلاد ميراثه الشرعي في رشيد ، ويوكل أحد الأهالي باستلام ميراثه وصرف ربعه على الورثة الشرعيين الموجودين في رشيد(١) .

أما الميراث عند الحجازيين فانه اختلف حسب نوعه ، فقد يكون الميراث عبارة عن أموال ثمن بضاعة ، باعها التاجر قبل وفاته ، ففي مثل هذه الحالة طالب الورثة المشتري بالمبلغ ، الذي وعد بالتسديد بعد خصم نسبة منه(٢) وقد تكون التركة تشمل بعض الأبنية ، وبضاعة ومراكب وعقارات مشاركة بينه - المتوفي - وبين أخية ، وأراد أبناؤه الانفرد بالميراث وحدهم، ولكن يثبت أخوه في المشاركة ، وانتهى الوضع على تقسيم الميراث مناصفة(٣) .

وبالنسبة للشوام فانه قد يكون حصة الميراث في أشياء أخرى غير الحصص المقارنة(٤) قد تكون في بعض الحيوانات ، ويستشهد الورثة بمقدم السقائين وغيره(٥) ويتنازل أحد الورثة نصيبه في الميراث لأخيه وأخوته البنات(٦) كما يوهب البعض قبل وفاته ميراثه لبعض الناس الذين كانوا يقومون برعايته أثناء مرضه ، وكتب حجة بذلك وشهد عليها بعض الشهود(٧) كما يهب آخر حصته في القايق لشخص ما(٨) .

وبالنسبة للمغاربة وتصفية تركاتهم فقد أخذت أشكالا وأنماط معينة ، فقد أخذ أحدهم حق والدته وشقيقته ، فاستشهد ببعض الأندلسيين ، الذين أكدوا حقهما في الميراث وأقر بيت المال ذلك(٩) وحدد بعضهم الوصي على أولاده مثل زوجته(١٠) وكتبت احدى الدلالات وصيتها

---

(١) سجل رقم ٧ ، مادة ٤٥ ، ص١٢٨ ، بتاريخ ١٥ ربيع الثاني عام ١١٤٣هـ/١٧٢٩م .

(٢) سجل رقم ١ ، مادة ١٥٠م ، ص٣٦٥ ، بتاريخ ٣ جمادي الأولى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٣) سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٠ ، ص٣١ ، بتاريخ أواخر ذي القعدة عام ١١٢١هـ/١٧١٠م .

(٤) سجل رقم ٢٠ ، مادة ٤٢٠ ، ص١٦٤ ، بتاريخ ٢١ ربيع الأول عام ٩٩٥هـ/١٥٦٧م .

(٥) سجل رقم ٢١ ، مادة ١٧٨ ، ص٥٣ ، بتاريخ ١٦ شوال عام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م .

(٦) سجل رقم ٩١ ، مادة ٢٢٦ ، ص١٤٩ ، بتاريخ ختام عام ١١٨٣هـ/١٧٧٠م .

(٧) سجل رقم ٩٥ ، مادة ٨٠ ، ص٥٢ ، بتاريخ ٨ رجب ١١٨٧هـ/١٧٧٣م .

(٨) سجل رقم ٨١ ، مادة ١٥٢ ، ص١١٢ ، بتاريخ أواخر صفر عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م .

(٩) سجل رقم ٥ ، مادة ٤٥٣ ، ص١٨٢ ، بتاريخ أول ذو القعدة عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م .

(١٠) سجل رقم ٥ ، مادة ١٩١ ، ص٧١ ، بتاريخ ١٧ ربيع الثاني عام ١١١٠هـ/١٦٩٧م .

قبل أن تؤدى مناسك الحج ،[١] ويتوفى بعضهم وهو خارج البلاد ، ويقوم من ينوب عنه بتسليم وصيته إلى بيت المال[٢] .

وبالنسبة للأوربيين ، قد تكون التركة مشتملة على بعض البضائع مثل الأحرمة والأرز[٣] ويذكر في وصيته قيمة ماله ، وما عليه من ديون ، ويذكر سبب هذه الديون سواء أكان ذلك فى شكل قروض أو فى بضاعة ويستشهد ببعض الشهود[٤] .

ويأتى بعد ذلك مظهر آخر من مظاهر الحياة اليومية الخاصة بالأهالى والعرب والجاليات الأوربية وغيرهم من المقيمين بالإسكندرية ، والتى اتخذت أنماطاً عديدة ، مثل التعامل مع بعضهم البعض ، وقضايا قذف العرض ، فسجلات المحكمة الشرعية ، مليئة هذه القضايا . فقد تعرض بعض الأهالى للاعتداء بالضرب من جانب بعض الأتراك العثمانيين الاستانبوليين[٥] واتهمه بالكفر[٦] وشمل الاعتداء من جانب بعض الأهالى على الآخر بالاعتداء على ممتلكاته الخاصة مثل ذبح بقرته ، وطالب صاحبها بثمنها[٧] واعتدى آخر بالضرب والتلفظ بألفاظ نابية ، مما جعله يطلب التعويض عن الضرب والتلفظ بألفاظ نابية ، مما جعله يطلب التعويض عن الضرب والاهانة[٨] واتهام البعض بسرقة ماله أثناء نومه عنده ، واتضح بعد ذلك أن صاحب المبلغ برأ المتهم[٩] الذى صفح عنه نتيجة للتهمة الموجهة ضده[١٠] .

---

(١) سجل رقم ٤ ، مادة ٤٦٩ ،ص١٥٩ ، بدون تاريخ .

(٢) سجل رقم ٣٦ ، مادة ٦٧ ، ص٢٧ ، بتاريخ ١٤ جمادى الآخر عام ١٠١٧هـ/١٦٠٦م .

(٣) سجل رقم ٤٢ ، مادة ٥٧٣ ، ص١٧٧ ، بتاريخ ١٠ رمضان عام ١٠١٦هـ/١٦٠٥م .

(٤) سجل رقم ٩ ، مادة ١٠ ، ص٦ ، بتاريخ ٢ ذى الحجة عام ٩٧٥هـ/١٥٦٧م .

(٥) سجل رقم ٩ ، مادة ٥١٥ ، ص ١٧٨ ، بتاريخ ١٦ ربيع الآخر عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(٦) نفسه .

(٧) سجل رقم ١٧ ، مادة ١٨ ، ص٦ ، بتاريخ ١٩ رجب عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

(٨) سجل رقم ١٣ ، مادة ٥٦ ، ص٨١ ، بتاريخ ٢٠ صفر عام ٩٨٦هـ/١٥٦٨م .

(٩) سجل رقم ١٧ ، مادة ٩٦ ، ص٢٣٠ ، بتاريخ ٢٠ شعبان عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

(١٠) سجل رقم ١٧ ، مادة ٩٤٢ ، ص٣١٥ ،بتاريخ ١٥ ربيع الأول عام ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م .

وتعرض بعض الحجازين للسب والألفاظ النابية من جانب بعض الادكاوية ، وطالب بالتعويض المناسب ، وقد أتضح بعد ذلك أن الحجازى قد استولى على علف جماله مما أدى إلى الاشتباك ، وتناولا الالفاظ النابية ، وترتب على ذلك إلى أن أصدر القاضى حكما تأديبيا ضدهما[١] كما اعتدى أحد الاهالى على آخر بألفاظ نابية ، وعند مواجهته أنكر حدوث ذلك ، ولكن أكد الشهود ذلك[٢] ، وعلى الجانب الآخر اعتدى أحدهم على بعض الزياتين بلفظ ناب ، وطالب بالتعويض المناسب[٣] .

وبالنسبة للشوام ، فنجد أن أحد الحدادين اتهم أحد السكندرين بأنه تفوه بعبارات ضد زوجته ، وعند مواجهته بذلك أنكر ، وأمام شهادة الشهود الذين أكدوا حدوث ذلك اعترف وتعهد بعدم فعل ذلك مرة أخرى [٤] واكتفى القاضى بتعهده . واحتست بعض النساء الخمر فى احدى خمارات المدينة ، وعند مواجهتها بذلك عللت فعلها بأن بعض النساء قد غررن بها ، وأدخلتها هذه الخمارة التى يمتلكها أحد الذميين ، ووجدت بعضهن يحتسين الخمر ، وقدمن لها ، واحتست كمية كبيرة حتى فقدت وعيها تماما[٥] ومن الملاحظ أنه لم يصدر حكما ضدها . وممارسة احدى الشاميات الدعارة ومعها احدى الساقطات الأخريات فى أحد الحدائق العامة بالمدينة ، وتم ضبطهن بمعرفة صوباشى المدينة أثناء مروره ليلا . وعند مواجهة الجميع من الرجال والنساء ، ادعى أحد الرجال بأن البستانجى ، هو الذى أحضر لهم هؤلاء النساء لممارسة الدعارة معهن ، نظير دفع مبلغ معين ، وانتهى الأمر بتطبيق الشرع الشريف ضد الجميع[٦] ومن الملاحظ بأنه لم يصدر أى حكم ضد البستانجى باعتباره أنه مارس مهنة القواد . وهناك العديد من القضايا المتنوعة فى مثل هذه الأمور .

---

(١) سجل رقم ١٤ ، مادة ٢٠ ، ص٦١ ، بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى عام٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٢) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٧٦ ، ص١٥٦ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

(٣) سجل رقم ٢٣ ، مادة ٥١٨ ، ص١٤٥ ، بتاريخ مستهل عام ٩٤هـ/١٥٨٥م .

(٤) سجل رقم ١ ، مادة ١٨٢٠ ، ص٤٣٤ ، بتاريخ ٢٠ جمادى الثانية عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٥) سجل رقم ٣ ، مادة ٦٠٧ ، ص٢١٧ ، بتاريخ ١٦ شوال عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م

(٦) سجل رقم ٥٣ ، مادة ٢٦٢ ، ص١٥٥ ، بتاريخ ١٧ ذى الحجة عام ١٠٨٣هـ/١٦٢٣م .

أما المغاربة فقد أعتدى أحدهم على الآخر بالألفاظ النابية ، وتفوه بألفاظ أخرجته عن دين الاسلام ، وعندما سئل ، اعترف واستغفر ربه ، وتاب ، وتلفظ بالشهادتين(٣) واعتدى بعض اليهود على أحدهم بالسب ، وعندما ووجه بذلك ، اعترف وتم الافراج عنه بضمان أحد المترجمين لدى الفرنسيين[١] واعتدى بعض الأضاليين على أحدهم بالألفاظ النابية ، فطالبه بالتعويض عن ذلك [٢] .

وشهدت الاعتداءات مظهرا آخر ، مثل ممارسة الشذوذ الجنسى مع الأطفال والرجال[٣] والاعتداء على أملاك بعضهم مثل المركب[٤] والسلاح مثل البندقية [٥] أو حيواناته[٦] أو مجوهراته[٧] .

أما الجاليات الأوروبية ، فنجد اعتداء بعض الأوروبيين على منزل بعض اليهود ، لمجرد سماعه أن لديه جارية مسيحية ، يريد تهويدها بالقوة ، وهجم على منزله ، وحدث نتيجة لذلك ضرر ألم بزوجته وابنها الرضيع فيطالب بالتعويض عن ذلك[٨] ويعتدى البعض الآخر على يهودى بالضرب بدعوى أنه يمارس الزنا لزوجاته الثلاثة ، ويستشهد بأحد المسلمين وبعض الأوروبيين ، ويطالب عما لحقه من أضرار مادية وأدبية ، فأنكر الشهود الأوربيين الضرب ، أما الشهود المسلمين فقد أكدوا عملية الاعتداء بالضرب[٩] .

---

(١) سجل رقم ١ ، مادة ١٧٩٧ ، ص٤٣١ بتاريخ ١٥ جمادى الثانى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٢) سجل رقم ٨ ، مادة ١٣١ ، ص٤٥ ، بتاريخ ١٤ ربيع الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٩ ، ص١١ ، بتاريخ ٢٩ مادى الآخرة عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٤) سجل رقم ١ ، مادة ١٥٣٩م ، ص٣٦٥ ، بتاريخ ١٣ جمادى الأولى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٥) سجل رقم ٤ ، مادة ١٣٧١ ، ص٣٥٣ ، بتاريخ ٩ صفر عام ٩٦٢هـ/١٥٨٤م .

(٦) سجل رقم ١ ، مادة ١٤٦٦ ، ص٣٤٦ ، بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٧) سجل رقم ١ ، مادة ١٣٩ ، ص٣٢٨ ، بتاريخ ١٠ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٨) سجل رقم ٨ ، مادة ٨٣٣ ، ص٣١٠ ، بتاريخ ٢٥ جمادى الثانى عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

وقد وجد بنفس السجل وثيقة رقم ٩٠٠ ، ص٣٥٥ بنفس الحادث بتاريخ ٢ رجب عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٩) سجل رقم ١١ ، مادة ٤٥٠ ، ص١٤٧ بتاريخ ٩٧٨هـ/١٥٧٠م ذكر لى أستاذنا الدكتور حسن ظاظا ، أنه ممكن السماح لبعض طوائف اليهود بالزواج اكثر من واحدة .

واعتدى بعضهم على بعض أفراد الأوجاقات العثمانية بالضرب ويطالب المعتدى عليه بالتعويض المناسب[١] ويحتسى البعض الخمر ويهجم على مسكن أحد المسلمين ، ويسرق بعض الأوانى النحاسية ، ويعترف باحتسائه الخمر ، ولكن ينكر السرقه[٢] واعتدى بعض الأهالى على منزل أحد الأوربيين ، وقت أداء صلاة الجمعة ، وسرق بعض الأشياء النفيسة ، وقد شاهد صاحب المنزل السارق لأنه جار له[٣] وقيام بعض الأوروبيين بالسطو على مساكن أحدهم أثناء تغيبه وأسرته بالسفر ، واستيلائه على أمواله وبعض مجوهراته ، ولكنه ينكر ذلك بالقسم أمام قسيس الكنيسة[٤] .

وكان الاعتداء بالألفاظ النابية شائعاً بينهم ، وكان الرد الطبيعى فى مثل هذه الحالات الرد أيضا بالألفاظ النابية[٥] وهناك الاعتداء بالالفاظ حتى وصلت إلى التجريح بأمهاتهم [٦] كما وصل بهم التجريح فى نسب الشخص نفسه ، أى أنه "لقيط"[٧] ونذكر بعض هذه الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر ، وقد ظهرت عمليات التعدى بالالفاظ بشكل واضح[٨] .

وحدث أن اعتدى بعض الطباخين الأوروبيين على بعض السقائين بالضرب ، بسبب بيع الماء، وتدخل بعض المارة ليفض هذا الشجار ، فقام الأوروبى بالاعتداء عليه هو الآخر ،

---

(١) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٧١ ، ص٦١ ، بتاريخ ١ محرم عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٢) سجل رقم ١٢ ، مادة ١٢٢٤ ، ص٣٨٩ ، بتاريخ ١٠ جمادى الثانية عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧١م .

(٣) سجل رقم ٢٧ ، مادة ١٠٨٢ ، ص٥٠٠ ، بتاريخ ٣ رجب عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م .

(٤) سجل رقم ٥٨ ، مادة ١٠٠ ، ص٣١ ، بتاريخ ٢ ربيع الثانى عام ٩٩٢هـ/١٥٨٥م .

(٥) سجل رقم ١٦ ، مادة ١٤٩ ، ص١٥٤ ، بتاريخ ١٦ جمادى الثانية عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م .

، سجل رقم ٢٦ ، مادة ٧٤٣ ، ص٢٣٥ ، بتاريخ ٣٠ ذى الحجة عام ٩٩٧هـ/ ١٥٩٠م .

(٦) سجل رقم ٣٧ ، مادة ٣٩٤ ، ص٢٠٣ ، بتاريخ ١٣ محرم عام ٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م .

(٧) سجل رقم ٦٢ ، مادة ١٠٠ ، ص٤٦ ، بدون تاريخ .

(٨) سجل رقم ٣٢ ، مادة ٣٦٦ ، ص١٤٠ بتاريخ ٩ ذى القعدة عام ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م .

، سجل رقم ٣٥ ، مادة ٨٢٧ ، ص٣٩٠ ، بتاريخ ١٠ ذى القعدة عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م .

، سجل رقم ٣٥ ، مادة ٣٩٠ ، ص٣٩٠ ، بتاريخ ٩ ربيع الأول عام ١٠٢٥هـ/١٦٠٦م .

وسال الدم منه ، وعندما ووجه بذلك انكر ، ولكن بشهادة الشهود حكم لهما القاضى بالتعويض المناسب[١].

واذا كان البعض قد اعتدى على الآخرين بالألفاظ النابية أو بالضرب ، فانه قد حدثت هناك اعتداءات لا أخلاقية ، كممارسة الشذوذ الجنسى مع البعض[٢] وممارسة الدعارة بين أحد الأوروبيين وإحدى المسلمات بإحدى الحدائق الخاصة بشيخ طائفة المغاربة بالمدينة ، وضبطت هذه الحالة ، وطبق عليهما ما أمر به الشرع وأقره فى مثل هذه القضية[٣] .

كما شهدت الاعتداءات أيضا نوعا آخر كالاعتداء على ممتلكات بعضهم واتلافهم أو سرقة البضائع منهم ، فحدث أن اعتدى البعض على مراكب الآخرين وأتلفها ، ويطالب بالتعويض عما أصابه من أضرار[٤] وشمل هذا الاعتداء أيضا استيلاء البعض على عبيد الآخرين ، فقد اتهم بعض الاسبرطيين أمين بيت المال باستيلائه على عبدين خاصين به ، ولكنه أنكر ذلك - أمين بيت المال - ويذكر أنهما ملكا خاصا به ، ولكن يثبت الأوروبى بالمستندات والشهود بملكيته لهما ، وعلى هذا يسلمان لصاحبهما الأوروبى[٥] .

أما اعتاق العبيد والجوارى لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته ، فكانت سمة موجودة خلال هذه الفترة - حيث قام بعض الأهالى باعتاق عبده ، ففى تلك الحالة ، يذكر جنسيته ومواصفاته الجسمانية ، وغير ذلك ، ويقر بأنه - العبد - قد أصبح حرا من احرار المسلمين وله نفس الحقوق وما عليه من الواجبات[٦] ولم يكن اعتاق العبيد قاصرا على الرجال ، بل شمل أيضا الجوارى من النساء[٧] .

---

(١) سجل رقم ١٦ ، مادة ٩٤٧ ، ص٣٤٤ ، بتاريخ ٣ رجب عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

(٢) سجل رقم ٢٦ ، مادة ١٧١٢ ، ص٦١٩ ، بتاريخ ٣ صفر عام ٩٩٨هـ/١٥٨٩م .

(٣) سجل رقم ٥٣ ، مادة ٢٦١ ، ص١٢٥ ، بتاريخ ١٤ محرم عام ١٠٨٧/١٦٨٦م .

(٤) سجل رقم ٢٤ ، مادة بدون رقم ، ص٩٣ ، بتاريخ ١٢ شوال عام ٩٨٣هـ/١٥٧٥م .

(٥) سجل رقم ٢٦ ، مادة ٣٨١ ، ص٣٨٢ ، ص١٢٤ ، بتاريخ ٧ شوال عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م .

(٦) سجل رقم ١٤ ، مادة ٨٥٤ ، ص٢٤٦ ، بتاريخ ٢٨ شوال عام ٩٩٨هـ/١٥٧٩م .

، سجل رقم ٥٥ ، مادة ٤٦٢ ، بتاريخ ٢١٤ ، بتاريخ ٦ رجب عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م .

(٧) سجل رقم ١٤ ، مادة ١١٧٣ ، ص٣٦١ ، بتاريخ ٥ محرم عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م .

وقام أحد القهوجية الشوام باعتاق عبد له ، لوجه الله تعالى وابتغاء رحمته ، وأنه أصبح حرا ، من أحرار المسلمين ، وعليه حقوقهم ، وله واجباتهم[١] وقد يقوم أحد الأفراد باتخاذ الإجراءات لاعتاق جارية له ، ويحدث أثناء ذلك ، وافته المنية ، ولكن يؤكد الشهود ذلك وتصبح هذه الجارية حرة من أحرار المسلمات [٢] .

وقيام أحد المغاربة باعتاق بعض عبيده وجواريه ، ابتغاء وجه الله[٣] وآخر أحضر عبده المسيحى ، واعلن اسلامه ، ووافق على ختانه واعتقه[٤] وآخر أثبت أنه لم يمسه الرق والعبودية لا هو ولا أهله ، وأنه مسلم أبا عن جد[٥] ولانعرف سببا لذلك !

أما بالنسبة للأوروبيين فانها كانت قاصرة على المسلمين فقط منهم ، مثال ذلك اعتناق احدى الجوارى الخاصة بأحد المسلمين للاسلام ، وشهد على اعتناقها لدين الإسلام وسجل ذلك فى المحضر ، أنه اعتقها لوجه الله تعالى ، وأنها أصبحت حرة من أحرار المسلمات لها مالهن وعليها ماعليهن[٦] ، واعتنق بعض العبيد الإسلام ، وخشى من اعلانه ، وسمع بعض المسلمين بذلك ، فأحضر الشخص الذى له الحق فى بيع هذا العبد ، وتم الاتفاق على بيعه فى اسواق المدينة ، برضا صاحبه ، واشتراه ثم اعتقه لوجه الله تعالى[٧] .

أما الأوقاف والحياة الدينية منها الأوقاف الموقوفة للحرمين الشريفين . فكانت تؤجر للأهالى ، ومن حصيلة ايجارها يصرف على الحرمين الشريفين[٨] ولم يقتصر على ذلك

---

(١) سجل رقم ٤١ ، مادة ٧٧١ ، ص٤١٦ ، بتاريخ ١٤ جمادى الاولى عام ١٠٤٧هـ/١٦٢٧م .

(٢) سجل رقم ٢٥ ، مادة ٧٦٥ ، ص٢٤٤ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٩٦هـ/١٥٨١م .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة ١٩١ ، ص٥٥ ، بتاريخ ٢ شعبان عام ٩٧٨هـ/١٥٥١م .

، سجل رقم ٨ ، مادة ٨٤٦ ، ص٢١٢ ، بتاريخ ٣ رجب عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٤) سجل رقم ١ ، مادة١٤٦٦ ، ص٣٤٦ ، بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م .

(٥) سجل رقم ١١ ، مادة ١٥٠٥ ، ص٣٧٥ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م .

(٦) سجل رقم ٣٥ ، مادة ٥٥٣ ، ص٢٢٨ ، بتاريخ ٥ جمادى الأخرة عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م .

(٧) سجل رقم ٤٥ ، مادة ٣١٥ ، ص ١٣٦ ، بتاريخ ١٩ محرم عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م .

(٨) سجل رقم ٨ ، مادة ٦٣٨ ، ص بدون رقم ، بتاريخ ١٣ ربيع الثانى عام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م .

نقد، فقد كان هناك وقف الأشرف قايتباى فى مدينة الاسكندرية ، ودمياط ورشيد ، ويصرف مايحصل منه على أوجه الخير[١] ويلجأ البعض لوقف بعض أملاكه للصرف على أولاده القصر، على أن يستردون أوقافهم بحجة شرعية[٢] وأحيانا يوقف بعضهم لبعض املاكه وتؤجر للأهالى مدة معينة[٣] واتخذت الحياة الدينية مظهرا آخرا مثل تأسيس المساجد فى بعض البلاد الأوروبية مثل قبرص ، ويرسلون اليها البسط والحصر والأموال للصرف عليها[٤]. كما يقوم البعض بحبه للخير والعطف على الفقراء والمحتاجين ، فيقوم بشراء الغلال من بلاد الشام ابان حدوث الأزمات الاقتصادية ، كما حدث فى عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م ، ويبيع بسفر معقول للفقراء فى ثغرى الاسكندرية ورشيد ففى هذه الحالة يدعو الأهالى دائما للسلطان العثمانى ودوام الدولة[٥] .

وأوقف بعض الحجازيين بعض الأراضى الحجازية على الطريقة البرهانية[٦] كما أوقف بعضهم مكانا بجوار مقام الشيخ ياقوت العرشى اشتمل على بيت للسكن ، وبيت آخر ، وقطعة أرض خاليه بالمكان المذكور ، وقد ذكر أن هذه الأشياء آيلة للورثة بالميراث الشرعى ، من قبل والدتهما . وأقرا بأنهما وقف شرعيا بحيث لايباع لأحد ، ولايرهن ، ولايستبدل جزءا منه أو بعضه ، ويظل هذا الوقف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، واشترط الواقف من الوقفية يتم الصرف منها على مقام سيدى ياقوت العرشى ، وعلى فقراء المسلمين من قبل أنفسها ، وفى ذريتها من بعدهما ، ومن هم فى درجات القرابة ،

---

(١) سجب رقم ١٥ ، مادة ٢١ ، ص٣٠ ، بتاريخ ١٥ جمادى الثانية عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م .

(٢) سجل رقم ١٣ ، مادة ٤٨٩ ، ص١٥٢ ، بتاريخ ٤ رمضان عام ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م .

(٣) سجل رقم ٤١ ، مادة ٤٨٩ ، ص٢٧٩ ، بتاريخ ١٢ رجب عام ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م .

(٤) سجل رقم ١١ ، مادة ٨٦٧ ، ص ٢١٧ ، بتاريخ ١٧ ذى القعدة عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٥) سجل رقم ١١ ، مادة ٩٨٤ ، ص٢٤٣ ، بتاريخ ٢٩ شوال عام ٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م .

(٦) سجل رقم ٤٦ ، مادة ١٧٨ ، ص٦٧ ، بتاريخ مستهل شهر صفر عام ١٠٥١هـ/١٦٤٦م .

والطريقة البرهانية ، هى احدى الطرق الصوفية التى كانت موجودة فى العصر العثمانى ، (انظر ، توفيق الطويل ، التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى (ص٧٥)

وعُيِّن الناظر على الوقف وحدد واجباته التى تشتمل الصرف على الوقف والعناية بالمبانى وصيانتها وغير ذلك من الشروط الأخرى[١] .

أما الشوام فكان منهم من يتبرع للصرف على وقف معين بالمدينة ، ويحدد المبلغ المقرر لهذا العمل ، وهو قيام أحد القهوجية المستأجرين لهذا الوقف بالتعهد بصيانتها وترميمها على نفقته الخاصة . كما تبرع البعض بمبلغ للصرف على روح المتوفى عن المنتفع بالوقف[٢] ويشترى البعض منزلا ، ثم يوقفه بعد ذلك للصرف قاعدتين مذهبية شريفتين وعلى مذهب الامام المنيف ملك بن أنس رضى الله تعالى عنه[٣] .

وبالنسبة للأوقاف للمغاربة ، وجد الكثير من الأوقاف الخاصة بهم[٤] واستأجر البعض بعض المخابز فى مبانى الأوقاف وفى مثل هذه الحالة يتفق على مدة الايجار وطريقة الدفع [٥] وشمل الايجار أحيانا فى الوقف ، ايجار حصة تقدر بالثلث[٦] وتأخر بعض المستأجرين فى وقف زاوية المغاربة فى دفع الايجار[٧] كما تأخر أحدهم فى دفع ايجار وكالة فى وقف الحرمين الشريفين [٨] كما تبرع أحدهم لأحد المتعسرين فى دفع الايجار الخاص بوقف المغاربة فى المدينة[٩] .

---

(١) سجل رقم ١ ، مادة ٩٥٨ ، ص٢١٧ ، بتاريخ ٢٨ محرم عام ٩٥٨هـ/١٥٥١م

(٢) سجل رقم ٣١ ، مادة ٧٢ ، ص٣٠ ، بتاريخ ٧ رجب عام ١٠٢١هـ/١٦١٢م .

(٣) سجل رقم ٨١ ، مادة ١٥٢ ، ص١١٢ ، بتاريخ أواخر صفر عام ١١٦٧هـ/١٧٥٣م

(٤) سجل رقم ١١ ، مادة ١٥٠٥ ، ص٣٧٥ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ٩٦٩هـ/١٥٧١م .

(٥) سجل رقم ١ ، مادة ٩٠ ، ص١٩ ، بتاريخ ١٩ رمضان عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م .

(٦) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٠٢ ، ص١٤٠ ، بتاريخ ٢٦ رمضان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

، سجل رقم ٣ ، مادة ٧١٣ ، ص٢٤٧ ، بتاريخ غرة صفر عام ٩٨٢هـ/١٥٧٤م

(٧) سجل رقم ١١ ، مادة ٥٠٢ ، ص ١٤٠ ، بتاريخ ٢٦ رمضان عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م

(٨) سجل رقم ١ ، مادة ٥ ٤ ، ص٣٦ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥م

(٩) سجل رقم ١ ، مادة ٤٠٥ ، ص٣٦ ، بتاريخ ١٧ شوال عام ٩٥٧هـ/ ١٥٥٥م

وقام بعض الأوروبيين بوقف بعض الممتلكات الخاصة للصرف على الكنائس بالمدينة ، وعلى فقرائها ، ويذكر فى حجة الوقف بأنه لايجوز البيع أو الرهن ، ولا بأى وجه من الوجوه الا للصرف عليها ، ويذكر أنه فعل ذلك لوجه الله تعالى[١] ويقوم البعض باستئجار الوقف الخاص بفقراء الفرنسيين ، وينص فى عقد الايجار لمدة سنة هجرية ، تدفع على ثلاث أقساط متساوية[٢] .

أما اعتناق الاسلام ، فقد اعتنق أحد اليهود الشوام الإسلام ، فيذكر أنه قد حضر طائعا مختارا دون إكراه أو إجبار وتلفظ بالشهادتين أمام الجميع[٣].

ويعتنق بعض الأوروبيين المسيحيين الدين الإسلامى ، ويقر بأنه جاء دون أى ضغط عليه ، وتلفظ بالشهادة بقوله "أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمد رسول لله صلى الله عليه وسلم[٤] ويذكر البعض أنه قد أبرأ نفسه من كل دين يخالف الدين الاسلامى ، وأنه قد سمى نفسه محمد[٥] وشمل أيضا اعتناق الدين الإسلامى لبعض الجاريات التابعة لأحد الفرنسيين[٦] .

وكان يحضر اعتناق الإسلام بعض الشخصيات الهامتمثل بلك باشى الينكجرية بالثغر ، ونقيب الأشراف ومفتى الإسلام ، وكثير من أعيان المدينة[٧] .

ويأتى بعد ذلك اختيارهم للقناصل بالمدينة ، ويبدو أنها كانت اختيارية بين رعايا الدول الأوروبية ، ويطالبون أحيانا كما حدث فى عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م . طلباً لتجار الانجليز والجنويين والمسينين ، بعزل القنصل الفرنسى ، لمجرد شكهم فى أنه غير نزيه ، غير عادل فى تحصيل الرسوم المفروضة على تجار المدينة من الأوروبيين[٨] .

---

(١) سجل رقم ٨ ، مادة ٧٦١ ، ص٢٨٣ ، بتاريخ ١٧ جمادى الثانية عام ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م .

(٢) سجل رقم ٤٧ ، مادة ٦٨ ، ص ٢٥ ،بتاريخ ٥ شوال عام ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م .

(٣) سجل رقم ٢١ ، مادة ٢٦٤ ، ص٣١٥ ، بتاريخ ٢٦ شعبان عام ١٩٨٦هـ/١٥٧٨م .

(٤) سجل رقم ١٦ ، مادة ٣٨٦ ، ص١٦١ ، بتاريخ ١٣ جمادى الأولى عام ١٠٠٣هـ/١٥٠٤م .

(٥) سجل رقم ١٨ ، مادة ٣٨١ ، ص١٢٨ ، بتاريخ ٩ شعبان عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م .

(٦) سجل رقم ٤٨ ، مادة بدون رقم ، ص٢٧٩ ، بتاريخ ٤ شعبان عام ١٠٤٩هـ/١٦٣٩هـ .

(٧) سجل رقم ٣٠ ، مادة ٣٦٠ ، ص٣٠٦ ، بتاريخ ٦ ربيع الثانى عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م .

(٨) نفسه .

هكذا ساهم الأهالى والتجار العرب والجاليات الأوروبية فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى فى مدينتى رشيد والاسكندرية فى العصر العثمانى ، ففى المجال الاقتصادى تعرضت الدراسة بكافة أنواع السلع التى تعاملوا فيها ، وتخصص كل فئة منهم ، فى تجارة سلعة معينة ، وقيام كل من الشوام والمغاربة والحجازيين والأوروبيين والأهالى فى هذا المجال اما لحسابهم الخاص أو كوكلاء للآخرين ، أو تكوين شركات خاصة بتجارة سلعة معينة ، وقد لوحظ فى تعاملهم بتجارة المراكب تعرضهم لمختلف الأنواع المستخدمة خلال هذه الفترة مثل القرة ، والأكريب ، والغليون والشيطيلية وغير ذلك من الأنواع الأخرى ، بالإضافة إلى ذلك دورهم فى تصدير واستيراد بعض المنتجات التى تعاملوا فيها فى هذا المجال .

ومن جانب آخر سلطت الدراسة الأضواء على جوانب التعامل الاقتصادى بين الأفراد ، ومن أهم الظواهر التى أبرزتها الدراسة ظاهرة الاقتراض التى ظهرت أغراضه سواء أكانت أغراضها اقتصادية لتمويل صفقات تجارية أو لأغراض أخرى ، ثم عرضت للمشاكل المصاحبة لتسديد هذه القروض وضماناتها .

وفى الجانب الاقتصادى أيضا تعرضت الدراسة لأنواع العملات التى سكت خلال هذه الفترة مثل العثمانلى والدينار الذهبى الجديد ، والبندقى .. الخ بالإضافة إلى الأوزان مثل الرطل والأقة والقنطار والاردب ، والكيلة والمقاسات مثل الأمتار .

وقد ضم المجال الاقتصادى الحرف والصناعات التى عملوا بها ، واحترفوها ، وتخصص كل فئة منهم فى حرفة معينة وصناعة معينة ، وقد لوحظ أن نظام الحرف كان قائما على التكوين الدينى أو العرقى مع استثناءات قليلة كان أعضاء الطائفة ينتمون الى نفس المجتمع المحلى الدينى أو العرقى ، واذا مارس أعضاء نفس الديانة ، فانهم يشكلون طوائف على حسب بلادهم ، ونوع تجارتهم وعبادتهم الدينية[1] وقد لوحظ أيضا أن اليهود والأوربيون احترفوا حرفا معينة مثل السمسرة والترجمة وشاركهم فى ذلك المغاربة ، وكان لهم عمل أيضا بصفتهم سماسرة للمعادن النفيسة والسمكرة وصناع الزراير[2] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثمانى، ص١٢٥ .

(٢) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، جـ٢ ، ص١٤٣ .

أما الجانب الثانى للدراسة فيتعرض لحياتهم الاجتماعية ومظاهر هذه الحياة وأهمها ظاهرة الزواج سواء أكان هنا الزواج من بعضهم البعض أو من الجوارى بعد اعتاقهن ، وتعرضت لاجراءات الزواج المختلفة وتقاليده كالمقدم والمؤخر وشروط الزواج التى تدون بالعقد والطلاق ومشاكله الناجمة على ذلك .

وعرضت الدراسة لمظاهر العلاقات الاجتماعية ، التى أظهرت الدراسة مشكلاتها والجوانب اللاأخلاقية فيها ، خاصة وأن البحث محدود باطار الوثائق التى تسجل هذه العلاقات، وكلها مشاكل تتعرض فى الغالب الاعتداءات بالضرب أو السب ، أو ممارسة الشذوذ الجنسى أو الدعارة أو الاغتصاب وموقف السلطات الحاكمة من كل ذلك .

كما عرضت الدراسة لجانب خيرمن جوانب الحياة الاجتماعية كظاهرة عتق العبيد والجوارى، موضحة الدوافع وراء ذلك وحالات العتق وشروطه ان وجدت ، ومن ناحية أخرى تعرضت الدراسة لظاهرة الأوقاف وتوجيهها للخير والبر ، كما أنها سجلت حالات اعتناق بعض أهل الذمة للاسلام ، ولجوء بعض الأوروبيين لتغيير جنسياتهم والإجراءات التى تتخذ فى مثل هذا الحالات .

رابعا : المخطوطات :

١- ابراهيم الصوالحى العوفى ، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، وهو موجود بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٢١٨٣ وقد حصلت على صورة منها بحوزتى . وقد قام الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيقه ونشره عام ١٩٨٩م .

وهذا المخطوط يتكون من مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة ، وتعالج المقدمة موضوع القضاء والقدر ، والايمان بهما ، أما الابواب فمقسمة على النحو الآتى : يشتمل الباب الأول على بعض الآيات الشريفة وتفسيرها وأحاديث منيفة وتعبيرها مناسبة لواقعة الحال التى يضرب بها الأمثال ، أما الباب الثانى فيشتمل على تاريخ الواقعة [1] ويتعرض الباب الثالث لواقعة

---

(١) تعود هذه الواقعة الى عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م فقد انتهز مصطفى باشا الوالى العثمانى (١٠٦٦هـ/١٦٥٦) فرصة وفاة أمير الحج رضوان بك الفقارى للقضاء على نفوذ الفقارية ، وذلك بمنح هذا المنصب إلى أحمد بك بوشناق القاسمى ، وكان من نتيجة هذا التصرف من جانب الوالى أن تحدته الفقارية ، وقاموا بعزله وعينوا بدلا منه قائم مقام يدعى يوسف بك ، ونفوا احمد بك بشناق إلى الإسكندرية ، وعينوا =

محمد بك بتاريخ ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م وناقشت الخاتمة بعض المصيبة ، ومالها من الثواب وأحكام الصبر مايعقبه من حسن المآب وفى التوبة والاستقصار .

ويضم هذا المخطوط العديد من تراجم طائفة من الأمراء الذين قتلوا فى واقعة الصناجق بمصر (١٠٧١-١١١٣هـ/ ١٦٦٠-١٧٠١م) ، كما أنه يصور أحداث العصر ، والصراعات السياسية والعسكرية التى كان الريف يتأثر بها غالباً وخاصة الصعيد خلال تلك الفترة ، كما يتعرض لدور حكام ولاية جرجا فى الفترة التى أرخت لها . مثل ذلك تعرض العربان لقوافل الحج والاستيلاء عليها كما حدث فى عام ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م .

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المخطوط كتب بخطوط مختلفة ما بين الرقعة والنسخ ، كما يلاحظ أن الناسخ ليس واحداً .

٢- أحمد شلبى عبد الغنى الحنفى المصرى ، «أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات» ، وقد قام الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيق هذه المخطوط ونشره فى عام ١٩٧٨م ، ويعتبر ذا أهمية كبيرة فى تاريخ مصر العثمانية ، وخاصة من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ، ونتائج تلك النواحى على المجتمع المصرى ، وأثرها فى الريف المصرى خاصة ، ولاسيما المفاسد التى قام بها العربان والجند ، ينتهى المؤلف ومخطوطه عند أحداث عام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م .

وعندما يتحدث أحمد شلبى عن التاريخ السياسى فإنه يلقى الأضواء على كثير من وقائع التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، وبخاصة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومما

= بدلا منه حسين بك الفقارى أميراً على الحج ، ورغم ذلك استمر أحمد بك بشناق فى تدعيم مركزه ، حتى عيِّن حاكماً على الصعيد ، وفى عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م عين مصطفى باشا قائم مقام لحاكم مصر الجديد . وفى عهده ظهر الصراع بين الفقارية والقاسمية فحاولت الأولى الإبقاء على نفوذها بينما كانت الثانية تريد توطيد سيطرتها والقضاء على الفقارية .

وتطورت الأحداث التى كانت لها أبلغ الأثر فى القضاء على نفوذ الفقارية بانضمام مصطفى باشا إلى جانب القاسمين وإساءته لمعاملة خمسة أفراد من طايفة العزب ونتيجة لهذا الموقف توجه أغلب الفقارية إلى جرجا وتمردوا هناك وحدثت بعض المعارك وانتهت تلك الواقعة عام ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م . (للمزيد من التفصيلات انظر : عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١٦٠-١٦١) .

يلاحظ أنه دون تاريخ تولية وعزل كل وال من ولاة مصر والأحداث الهامة التى حدثت فى عهده .

وعندما يشير أحمد شلبى إلى الناحية الاقتصادية ، فإنه يتعرّض عن خلط العملة بالنحاس فى عهد على باشا الصوفى (٩٧١-٩٧٢هـ/١٥٦٣-١٥٦٥م) الذى انتهى الأمر بعزله ، كما تحدث أيضاً عن فساد بعض الأجهزة الإدارية وتلاعبها ، مثال ذلك قيام بعض رجال الإدارة بإحراق الدفاتر الديوانية ، لإخفاء الاختلاسات التى حدثت فى عام ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م ، ويشير المؤلف إلى أن الحادث لم ينته بذلك ، ولكنه انتهى إلى بيع موجودات المتسببين فى هذا الحادث .

وعندما تطرق المخطوط إلى الناحية الاجتماعية فإنه ركز على عملية هامة فى بناء المجتمع المصرى العثمانى فى ذلك الوقت ، مثال ذلك الاستغناء عن الصرافين اليهود لخراب ذمتهم والاستعانة بصيارفة مسلمين ، كما تعرض المخطوط لدور التجار الهام فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ودخولهم ميدان الالتزام والاشتغال بالربا .

٣- أحمد كتخدا عزبان الدرداشى ، «الدرة المصانة فى أخبار الكنانة» ويوجد هذا المخطوط تحت رقم MS. OR. 1073-4 بالمتحف البريطانى بلندن وقد قام الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيقه ونشره عام ١٩٨٩م .

ويتكون هذا المخطوط من جزءين ، كتبا بخط النسخ الواضح ، وقد تعرض لفترة هامة من تاريخ مصر العثمانية ، وتناول أيضاً التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى الفترة من (١٠٩٩هـ/١٦٨٨م إلى ١١٦٩هـ/١٧٥٦م) .

فمن الناحية السياسية يركز المخطوط أساساً على أحداث مصر السياسية والصراعات بين الأوجاقات العسكرية ، ويذكر المؤلف أنه شارك فى كثير من الأحداث وشاهدها ، فيذكر دائماً وكان «العبد الحقير واقفاً أو مشاركاً وهكذا» ويركز أحمد كتخدا على دور حكام الصعيد فى ذلك الوقت ومشاركتهم فى الأحداث السياسية ، كما تعرض للإنقسامات والأحزاب العثمانية المملوكية ، وتعرّض كذلك لظهور القاسمية والفقارية .

ومن الناحية الاقتصادية تعرض المؤلف للأحوال التى كانت سائدة فى عهده ، مثال ذلك ارتفاع الأسعار بسبب الظروف السياسية المضطربة وانخفاض الأسعار مرة أخرى فعندما ذكر ارتفاع الأسعار فإنه ذكر بالتفصيل السلع التى ارتفعت أسعارها مثل البن ، والصابون والسكر

الخام والمكرر والعسل ، والزيت بأنواعه والطحينة والزيتون والجبن واللحم والسمن والدقيق والعيش ، وتعرض أيضاً لفساد العملة وغشها وأثر ذلك على الناحية الاقتصادية ، ثم تحدث بعد ذلك عن أثر انخفاض النيل وزيادته فى حياة المصريين الاقتصادية ، فيصف الحالة الاقتصادية بقوله (١) :

ودخل شهر رمضان ١١١٤هـ ١٧٠٢م) والناس فى كرب من قبل المعاملة وعدم الجدد النحاس ، والجمعت على التجار وأرباب الصنايع ودخلوا إلى الجامع الأزهر اشتكت إلى ساداتنا العلماء ما هم فيه من قبل الفضة المقصوصة وعدم الفلوس النحاس واقتضى الرأى أنهم يكتبوا عرض حال فى خصوص ذلك وطلعوا به إلى الديوان قدموه للباشا قرأه عرف مافيه وإذا به كتب فرمان بالجمعية فى بيت حسن أغا بلفيه بحضور السادات والبكرية والسادة العلماء والصناجق والأغاوات واختيارية السبعة أوجاقات بأبطال الفضة المقصوصة وظهور الجدد النحاس وتنزيل أصناف الأسعار أى وجه وأعطاه ليد كتخد الجاويشية كتب عليه كاتب حوالة التنايبية» .

وعن ارتفاع الأسعار يذكر فى حوادث عام ١١١٧هـ/١٧٠٥م (٢) بقوله :

«وإذا بأسعار الأصناف زادت قدمت التجار عرض حال إلى رامى محمد باشا كتب الجمعية فى بيت الدفتر دار دارت التنابية على السناجق والأغاوات واختيارية السبعة أوجاقات باتوا وأصبحوا الجمعوا تماماً فى بيت الدفتر دار وقال الجميع لايصلح لأمور البلد إلا على أغا جابوه غصباً عملوه أغا الانكشارية ثانى مرة وإذا به دار بالموكب مثل الأول فى البلد عادت أسعار الأصناف مثلما كانت سابق على أيامه وإذا بالنيل المبارك توقف سنة سبعة وماية وألف» .

ومن الناحية الاجتماعية ، يتطرق المؤلف إلى العادات والتقاليد التى سادت المجتمع المصرى العثمانى فى ذلك الوقت مثل أبطال شرب الدخان فى الأماكن العامة ، وخاصة عند مرور محمل الحج ، وضرب كل من يضبط يشرب دخاناً (٣) ، وتعرض أيضاً إلى إقامة الأفراح

---

(١) أحمد كتخدا عزبان ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، ج١ ، ص١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج١ ، ص٥١٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج١ ، ص٥١٢ .

وخاصة فى أسرة الباشا ومشاركة جميع طوائف المجتمع فى ذلك الاحتفال [١] ، كما تعرّض أيضاً للتركيب الطائفى للمجتمع المصرى العثمانى ، وتحدث عن الكثير من شيوخ الطوائف الحرفية مثل شيخ الطحانين ، وشيخ الخبازين وغيرهم من شيوخ الطوائف الحرفية ومكانتهم .

ويلاحظ أن أحمد الدمرداشى قد عاصر الكثير من المؤرخين الذين عاشوا تلك الفترة التى أرخوا لها مثل إبراهيم الصوالحى [٢] ، ويوسف الملوانى [٣] وعلى الشاذلى الفر [٤] وأحمد شلبى عبد الغنى [٥] ومصطفى بن الحاج إبراهيم [٦] .

٤- أحمد بن زنبل المحلى الرمال ، «تاريخ غزوة السلطان سليم خان بن السلطان بيازيد خان مع السلطان قنصوة الغورى سلطان مصر» ورقمه ٣٦٣٣/٢٣٥٨٠ ب بمكتبة بلدية إسكندرية ، وقد قام السهيلى بترجمته إلى التركية فى القرن السابع عشر ، ضمن كتاب له اسمه الدرة اليتيمة فى تاريخ مصر القديمة [٧] تعرض هذا المخطوط للعلاقات التى قامت بين سلاطين المماليك والسلاطين العثمانيين ، ثم التعرض للحروب التى قامت بينهم فى موقعة مرج دابق عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م ، ووصف هذه المعركة وصفاً دقيقاً ، وكيف دبت الخيانة فى صفوف المماليك والمتمثلة فى خاير بك ، وجان بردى الغزالى ، ونتيجة لخيانتهم وتفوق العثمانيين العسكرى انتصروا فى تلك الموقعة ، ثم تقدمهم إلى مصر بعد ذلك بتشجيع من خاير بك والغزالى إلى موقعة الريدانية عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وتعرّض بعد ذلك للمفاوضات

---

(١) المصدر السابق ، ج١ ، ص٥١٢ .

(٢) إبراهيم الصوالحى ، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق . وقد قام الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ونشرها فى عام ١٩٨٨ .

(٣) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب بين ملك مصر من الملوك والنواب . وقد قام بتحقيها ابراهيم يونس محمد وحصل بها على درجة الماجستير عام ١٩م .

(٤) على الشاذلى الفرا ، ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة بالقاهرة .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات .

(٦) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، القاهرة . وقد قام بتحقيها ونشرها الدكتور صلاح أحمد هريدى ١٩٨٩م .

(٧) عمر عبد العزيز عمر ، دراسة المصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية ، ص٣٧ .

التى دارت بين طومان باى سلطان المماليك فى مصر وبين السلطان سليم خان سلطان العثمانيين وكيف استعاد سلطان مصر قواته وحقق بعض الانتصارات إلى أن تعثرت تلك المفاوضات ، بقتل بعض أعضاء الوفد المرسل من قبل السلطان العثمانى إلى السلطان المملوكى فى البهنسا ، وانتهى الأمر باستئناف القتال ثانية وانسحاب طومان باى إلى الدلتا وخيانة ابن مرعى ، وتسليمه إلى السلطان سليم ، وانتهى الأمر بإعدامه على باب زويلة عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م .

وأهمية هذا المخطوط ترجع إلى أنه يُبّين أن المفاوضات التى دارت بين طومان باى والسلطان سليم كانت إبان وجوده بالصعيد إلا أن هذه المفاوضات تعرضت للفشل بعد قتل بعض أعضاء الوفد المرسل من قبل السلطان العثمانى .

٥- الشيخ على بن محمد الشاذلى الفرا ، «ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة القاهرة (١١٢٣هـ/ ١٧١١م) » وقد قام الدكتور عبد القادر طليمات بتحقيق هذا المخطوط ونشره بالمجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع عشر ، عام ١٩٦٨ .

تعرض هذا المخطوط لانقسام المماليك إلى القاسمية والفقارية وتنافسهما للحصول على الزعامة والحكم . ولم يقتصر الأمر على على هذا الحد بل وصل التنافس على الزعامة فى البيت الواحد ، وشهدت مصر كثيراً من الفتن والحروب ، وتحدث الفرا عن فتنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م التى استمرت سبعين يوماً فى القاهرة ، وقد شارك محمد بك حاكم جرجا فى ذلك الوقت فى المعارك العسكرية والمعارك الاقتصادية عندما كان يستخدم الغلال كسلح ضد سكان القاهرة إبان تلك الفترة .

وتعرَّض المخطوط لأسباب هذه الفتنة ، وأوضح أنها ترجع إلى التنافس بين ضباط أوجاق الانكشارية على النفوذ والسلطان ، ودور إفرنج أحمد ، أوضا باشا ، الذى أراد أن يسيطر ويبسط نفوذه على الأوجاق كله ، وانتهى الأمر بحدوث حرب قاسية الأهوال ، ترتب عليها هدم البيوت ، وحرق المتاع ، ونهب الأموال ، وسقوط الجرحى والقتلى .. إلخ .

ومما يذكر أن الفرا شاهد هذه الفتنة وعاصرها وتعرض لمواقف كل من :

١- الأوجاقات العسكرية والنزاع الذى نشب ، والتنافس بينهم إلى حد الاشتباك المسلح .

٢- الوالى : وضعفه عند نشوب النزاع بين الأوجاقات العسكرية ، ووصل ضعفه إلى الانحياز إلى الجانب الأقوى دون مراعاة للصالح العام .

٣- علماء الأزهر : وقد اختلفوا فيما بينهم على نفى خصوم أفرنج أحمد ، بالإضافة إلى إصدارهم فتاوى أضرت بالمجتمع المصرى العثمانى ، ومن ضمن هذه الفتاوى جواز قتال فريق ضد الآخر ، وانقلب الحال عندما أفتوا بنفى أفرنج أحمد بعد هزيمته .

٤- الأمراء : وشرح كيف كانوا يعيشون عيشة كلها ترف وبذخ ، ولم يقاسوا من تلك الفتنة ، كما قاسى المجتمع المصرى أثناءها .

٥- سكان القاهرة : وقد انقسموا بدورهم إلى قسمين ، قسم يؤيد فريقاً على الآخر ، والقسم الآخر يعارض ذلك ، وانتهى ذلك التقسيم بأثره السئ للاثنين معاً ، للمنتصر والمهزوم .

٦- القبائل العربية : التى استغلت الموقف لصالحها ، والمقصود هنا بالقبائل العربية العربان الذين استغلوا الموقف وقاموا بعملية السلب والنهب .

٧- محمد البرلسى السعدى ، «بلوغ الأرب برفع الطلب» وقد قام الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيق هذا المخطوط بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع والعشرون ، ونشره عام ١٩٧٧ .

وتعرض هذا المخطوط للاضطرابات التى تعرّضت لها مصر ، وخاصة منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، واضطربت أحوال البلاد ، كما اضطر جنود الحامية العثمانية إلى الاشتراك فى هذه الاضطرابات ، وخاصة جنود السباهية .

وترجع أسباب هذه الثورات إلى العوامل الاقتصادية وخاصة منذ ولاية على باشا الصوفى (٩٧١-٩٧٣هـ/١٥٦٤-١٥٦٦م) حيث بدأ زيف العملة وخلطها بالنحاس ، واضطربت أحوال الأمن بالبلاد وكثر اللصوص وقطاع الطرق وظهر ذلك واضحاً ، وعلى هذا الأساس بدأ جند السباهية (الفرسان) يستغلون الموقف لصالحهم ويقومون بالثورات ضد الولاة العثمانيين أنفسهم ، وازداد نفوذ هؤلاء الجند وخاصتفى الريف ، حيث قاموا بفرض الكثير من الامتيازات والعادات ، وأدى ذلك الموقف الضعيف من جانب الولاة العثمانيين إلى استنجاد الأهالى بالدولة العثمانية التى تدخلت نتيجة ما قام به هؤلاء الفرسان من اغتصاب النساء والأولاد ، ووصل بهم الأمر إلى تهديد الولاة العثمانيين وقتلهم كما حدث عندما قتلوا إبراهيم باشا (١٠١٢-١٠١٣هـ/١٦٠٤-١٠٦٥م) بل وصل تحديهم للسلطات الحاكمة إلى درجة إعلان استقلالهم بمصر ، وكان نتيجة ذلك ظهور المماليك كقوة عسكرية وسياسية .

وانتهى الأمر بالقضاة عليهم فى ولاية محمد باشا (١٠١٦-١٠٢٠هـ/١٦٠٧-١٦١١م) الذى قضى عليهم تماماً واعتبر ذلك القضاء بمثابة الفتح العثمانى الثانى لمصر .

ويذكر السعدى هذا الحادث بقوله (١) :

« أنعم بإيالة مصر المحمية ، مع الوزارة العلية لحضرة مولانا وسيدنا الوزير المعظم والمشير المفخم ، والدستور المكرم ، ممهد أمور جمهور الأمم ، منصف المظلوم ممن ظلم نقد العالم ، رافع آثار الجور والفتن وقالع مآثر الظلم والأحسن ، جواد لم يمحق الهلال إلا ليكون نعلا لحافر جواده، ولا مدت الثريا أكفلها الغضب إلا للتمسك بذيل كرمه وإمداده ولا سل الصبح سيفه إلا قال الله أكبر على أعدائه ، ولا حمرت الشفق من الخافقين إلا حرمة لحمرة خافق لواية ولا أمطرت السحب لا بكاء من خشية جلاله ، ولا استقرت البروق إلا خجلا من لمعان سيوفه ونصاله ، ولا تحلت الخناصر بالخواتم إلا لأنها تعقد عليه ، ولا كحلت العيون السود بسواد النور الباصر ، إلا لتتشرف بالنظر إليه ، ولا فتحت الدوى أفواهاً إلا لتنطق بمدحه السنة الأقلام ، ولا حبر الحبر بيا الطروس بسود الساطور إلا لنشير أن الليالى والأيام من جملة الخدام ليث عرين الوطيس بأساً وجاشاً ، حضرة سيدنا ومولانا الوزير المعظم محمد باشا أنعش الله تعالى به بساط البسيطة انتعاشاً ، ولازال عمود خيام هذا الدين القيم بعدالته الشريفة قايماً ، وكلما نوت لغذاؤها فعلا مضارعاً كان سيفه له جازماً ، وهو الذى قهر الأعداء من طوايف الأشقياء المذكورة أخذاً بالنواصى ، ويدد شمل البغاة العصاة وفرقهم إلى الأقاصى وهو الذى من جل قناته آمن من عوارض الفناء ومن أشجاره بحماه خلص من بوايق البلاد ، ومن استظل بظل رافنه وحده ظليلا ، وهو الذى من قصد بابه ما خابه ومن لزم جنابه الشريف عاش وطاب ، وهو الذى دابه إغاثة الملهوف وأسدى المعروف .

٧- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، «كشف الكربة فى رفع الطلبة» ورقم هذا المخطوط ٨٣٠ تاريخ بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوى بسوهاج وقام الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم بتحقيق هذا المخطوط ونشره بالمجلة التاريخية المصرية المجلدالثالث والعشرون عام ١٩٧٦م .

---

(١) محمد البرلسى السعدى ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، ص٣١-٣٢ .

وتعرض هذا المخطوط أيضاً للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى حدثت بمصر، وخاصة إبان فتنة الجند السباهية الذين فرضوا الطلبة وغالوا فى تحصيلها ، وبدأ تحصيل هذه الطلبة منذ عهد أويس باشا (٩٩٥هـ/١٥٨٦م) وكانت تحصل فى أول الأمر شهرياً ، ثم بدأ هؤلاء الجند السباهية يغالون فى جمعها ، وأصبحت يومياً ووصل بهم الأمر إلى جمعها خمس مرات يومياً [١] .

ويلاحظ أن محمد البرلسى السعدى[٢] تحدث عن فساد وطغيان هؤلاء الجند السباهية فى القرى والمدن وأدى بهم الأمر إلى تحدى السلطات الحاكمة وقتلهم لأحد الولاة كما تعرضنا سابقاً .

وتعرض المخطوط لما أصاب الريف من غبن وقسوة وظلم من هؤلاء الجند ، حتى جاء محمد باشا (١٠١٦-١٠٢٠هـ/١٦٠٧-١٦١١م) وقضى تماماً على طغيانهم ، وكان نتيجة ذلك القضاء على قوة المماليك العسكرية والسياسية لفترة ما وخاصة بعد أن ازدادت قوتهم .

ب- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، «المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية» ورقم هذا المخطوط ١٩٢٦ تاريخ بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

وتعرض هذا المخطوط لتاريخ السلاطين العثمانيين وعن ولاة كل منهم فى مصر ابتداء من عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م إلى عام ١٠٢٥هـ/١٦١٩م ، والحوادث الهامة التى حدثت فى عهد كل وال من ولاة مصر العثمانية إبان تلك الفترة . واشتمل هذا المخطوط على خمسة عشر باباً تناول فى كل باب سلطاناً من سلاطين آل عثمان ، تاريخ توليته العرش وأعماله وحياته حتى إذا ما وصل إلى عهد السلطان سليم الأول فى الباب التاسع ، يذكر ولاة مصر الذين حكموها مبتدئاً بخاير بك ، وفى الباب العاشر يبدأ الحديث عن السلطان سليمان القانونى وأعماله ومن ولى مصر من الولاة العثمانيين والأحداث الهامة التى وقعت فى عهد كل منهم . كما تناول قضاة العسكر الذين تولوا رئاسة القضاة فى مصر العثمانية إبان تلك الفترة .

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، كشف الكربة برفع الطلبة ، ص٤٣ . ويجدر الإشارة هنا إلى أنه الوالد وليس أبا السرور الأبن ، لأن محمداً الابن كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاما عندما انتهى الوالد من تأليف المنح الرحمانية وكان فى سن لايسمح له إطلاقا بتأليف مثل هذا الكتاب . (انظر : عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص٤١) .

(٢) محمد البرلسى السعدى ، بلوغ الأرب فى رفع الطلب .

جـ- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى «اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية» ورقم هذا المخطوط ٨٠ بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

ويعتبر هذا المخطوط تكملة لمخطوط المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ويلاحظ أنه يتعرض لتاريخ بعض الولاة العثمانيين فى مصر والقضاء .

وتعرض البكرى فى هذا المخطوط لتاريخ الولاة باختصار شديد ، ولوحظ أنه ينقل كثيراً عن إبن إياس الحنفى وخاصة عند تعرضه لأحداث الفتح العثمانى والمناوشات والمفاوضات التى دارت بين السلطانين العثمانى والمملوكى ، وما انتهت إليه هذه المفاوضات حتى تم إعدام السلطان المملوكى طومان باى . كما تعرّض لتاريخ مصر من عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م إلى ولاية مصطفى باشا الثانى عام ١٠٢٧هـ/١٦١٨م .

د- محمد بن أبى سرور البكرى الصديقى ، «الكواكب السائرة فى أخبار مصر القاهرة» وهو عبارة عن مخطوط مصور بالميكروفيلم عن المتحف البريطانى تحت رقم ٧٨٤ ورقمه بمكتبة البلدية بالإسكندرية ١-١٧/١٣٤١ج . وقد اشتمل على مقدمة وعشرين باباً على النحو التالى :

يشتمل الباب الأول على ذكر مصر وأول أمرها وما قيل فى تسميها ويتحدث الباب الثانى عن ذكر حدود مصر ، أما الباب الثالث ففى ذكر ملوك مصر قبل الطوفان فى الجاهلية إلى زمن الإسلام ثم خلفائها ونوابها وملوكها ونوابهم إلى ستين ألف ، ويشير الباب الرابع فى ذكر كور مصر وعدد قراها ، وفى الباب الخامس فى ذكر ما ورد فى فضل مصر ، والباب السادس فى ذكر دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والسلام لمصر وأهلها ، والباب السابع فى وصف العلما لمصر ، والباب الثامن فيمن ولد بها من الأنبياء والباب التاسع فى ذكر فتوح مصر ، والباب العاشر فيما بمصر من ثغور الرباط والمساجد الشريفة ، والباب الحادى عشر ، فيمن ذكر مصر ، والباب الثالث عشر ، فى ذكر ما اختصت به مصر من ملبوس ومأكول وكنوز ، والباب الرابع عشر ، فى ذكر ما كان يعمل بأرض مصر من حفر الترع وعمارة الجسور ، والباب الخامس عشر ، فخصصه المؤلف للحديث عن عجائب مصر وغرائبها كالأهرامات والنيل والباب السادس عشر ، فى ذكر مقاييس النيل ، والباب السابع عشر ، فى ذكر القاهرة بالخصوص وأول أمرائها والباب الثامن عشر ، فى ذكر محاسن مصر الكلية الجامعة التى تفضل بها غيرها على سبيل الإجمالى ، والباب التاسع عشر ، فى ذكر أقاليمها ، والباب

العشرون يختتم به المخطوط فى ذكر أخبار الإسكندرية والمنارة وما فيها من العجايب (العجائب) .

وتناول هذا المخطوط التنظيمات الإدارية التى وضعها السلطان سليم ، ثم عرض أعمال ولاة مصر العثمانيين وصفاتهم من عهد خاير بك (٩٢٣هـ/١٥١٧م) والأحداث التى وقعت بمصر من هذه الولاية إلى سنة ١٠٦٠هـ/١٦١٠م) وتعرّض البكرى لتاريخ تولية كل وال وتاريخ انتهاء حكه سواء بالعزل أو القتل ، وتناول معالجة السياسة والمشاكل الاقتصادية وازدياد نفوذ الأوجاقات العسكرية وخاصة السباهية ، بالإضافة إلى تعرضه لقضاة العسكر العثمانيين الذين تولوا هذه المناصب .

هـ- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى ، «تحفة الظرفاء فى ذكر دولة الملوك والخلف ويليه الفتوحات العثمانية للديار المصرية» ورقمة ٦٨٩/٢٣٥ج بمكتبة بلدية الإسكندرية .

وكالعادة تناول المؤلف تاريخ مصر منذ العصر الإسلامى إلى أن فتحها السلطان سليم خان، وتعرض لتاريخ مصر السياسى والعسكرى ، وتعرّض أيضاً للوقائع العسكرية التى حدثت بين المماليك والعثمانيين ويلاحظ عليه أنه ذكر أحيانا الأحداث يوماً بيوم ، وقد نقل عن محمد بن إياس الحنفى فى بعض الأحداث الهامة مثل عملية الفتح العثمانى مثلا فى مخطوطة «تحفة الظرفاء فى ذكر دولة الملوك ويليه الفتوحات العثمانية للديار المصرية[١] كما يتفق مع كتاب اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية»[٢] .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل نجده - أبا السرورالبكرى ، نفسه دائماً فى مخطوطاته ، وأحياناً يجد الباحث نفسه وكأنه يقرأ نفس المخطوط السابق ، أذكر على سبيل المثال مخطوطة تحفة الظرفاء «متفقة تماماً مع اللطائف الربانية»[٣] .

---

(١) وجد هذا التشابه فى صفحات ١٦٢-١٦٣ ، ١٦٠ ، ١٤ وقد نقل أبو السرورعنه فى صفحات ١٠٩-١١٣ .

(٢) وجد هذا التشابه فى صفحات ابن إياس ١١١-١١٢ ، ونقل البكرى عنه فبصفحات ٩٥-٩٦ .

(٣) تحفة الظرفاء صفحات ٩٨ ، ١١١ ، ١٢٢ متفقة مع صفحات ٩٥-٩٦ بالنسبة إلى اللطائف الربانية .

٨- مجهول المؤلف ، «أخبار أهل القرن الثانى عشر الهجرى ، تاريخ المماليك فى القاهرة» ورقم هذا المخطوط ١٣٤١ بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

ونعرض هذا المخطوط لتاريخ مصر السياسى والاقتصادى من عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م إلى عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م ، وقد تطرقت إلى الصراع بين البيوتات المملوكية خلال الفترة وموقف الصعيد منها ، وخاصة عند التجاء أحد أمراء المماليك للصعيد حتى يستعيد قوته ويعود مرة أخرى بفضل مساندة حاكم جرجا له ، كما تعرَّض لدور العربان أيضاً فى هذه الحوادث واستغلال الموقف لصالحهم .

٩- مصطفى بن الحاج إبراهيم ، تابع المرحوم حسن أغا عزبان الدمراشى ، «تاريخ وقايع مصر القاهرة من سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م - ١٠٥٠هـ/١٧٢٧م) وقد قمت بتحقيقه ونشره عام ١٩٨٩م .

تعرَّض هذا المخطوط لتاريخ مصر العثمانية السياسى والاقتصادى والاجتماعى خلال هذه الفترة ، ومدة حكم كل باشا حكم مصر والأحداث الهامة التى حدثت فى عهده بخاصة فى عدد من الوقائع بين عسكر مصر والصناجق الأغوات . والنتائج التى ترتبت بعد مقتل الصناجق الفقارية .

واتبع مؤلف هذا المخطوط نفس طريقة أحمد كتخدا عزبان[1] باتباعه نظام التاريخ بالحوليات ، دون مقدمات لا عن فضل علم التاريخ ولا عن تاريخ مصر منذ الخليفة ، كما فعل معظم مؤرخى الحوليات فى القرنين السابع والثامن عشر .

ويذكر عن الوقائع بقوله[2] :

«عن وقائع مصر القاهرة كنانة الله فى أرضه من غم لأن السلطان محمد خان والسلطان سليم خان ، والسلطان أحمد خان والسلطان مصطفى خان والسلطان أحمد خان والسلطان محمود خان نصره الله تعالى من سنة ماية بعد الألف تاريخ آخر المجموع والبشاوات على الترتيب ما قد حصل فى مدتهم من الوقايع بين عسكر مصر والسناجق والأغاوات واختيارية السبعة أوجاقات الجوربجية واجب رعايات وأنفار محافظين مصر بعد مقتل السناجق الفقارية قبل دخول سنة ماية بعد الألف» .

---

(١) أحمد كتخدا عزبان ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة .

(٢) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، تاريخ وقايع مصر ، ص١ - ٢ .

ويلاحظ على هذا المخطوط رداءة الخط ، وتكاد الكتابة تتشابه تماماً مع الدمرداشي ، وخاصة أن الفقرة واحدة فالمؤلف هنا بدأ بسرد الأحداث من سنة ١١٠٠هـ/١٦٨٨م والدمرداشي بدأ من عام ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م ، وأنهى حوادثه بعام ١١٥٠هـ/١٧٣٧م بينما أنهى المؤلف الآخر حوادثه بعد هذه الفترة عام ١١٦٩هـ/١٧٥٦م بفارق حوالى عشرين عاماً أو أقل ويكاد يلاحظ الباحث عند اطلاعه على هذا المخطوط أنه يطلع على مخطوط الدمرداشي وخاصة عند تعرُّض المؤلف للأحداث السياسية مثل تعرضه لفتنة ١١٢٣هـ/١٧١١م والاقتصادية والاجتماعية .

وفى مجال سرد الأحداث السياسية ، تعرض إلى حادثة كوجك محمد وصراعه من أجل الوصول إلى السلطة السياسية ، والصراع بين البيوتات المملوكية وبخاصة الفقارية والقاسمية من أجل الوصول إلى الحكم وموقف حكام الصعيد وخاصة حاكم ولاية جرجا وموقف الهوارة أيضاً وعربان الصعيد الآخرين مثل عربان ابن موافى وغيرهم .

وأشار المؤلف إلى أنه نتيجة لاضطراب الأحوال السياسية فى البلاد أن ساءت الأحوال الاقتصادية ، فارتفعت الأسعار وتعرضت العملة للغش ، كما أشار إلى موقف قبيلة هوارة من إمداد القاهرة بالغلال أو منعها وأثر ذلك على السلطات الحاكمة فى القاهرة من هذه القبيلة .

ثم تعرُّض المؤلف للناحية الاجتماعية فى مصر العثمانية فى تلك الفترة ، والتركيب الطائفى للمجتمع المصرى والحرفيين وغير ذلك ويشير إلى المحن التى تعرضت لها مصر وخاصة فى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م عندما انتشر وباء الطاعون فى البلاد وأثره على السكان .

١١- يوسف الملوانى (الشهير بابن الوكيل) ، كتاب «تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب»(١) .

ويتكون الكتاب من أربعة أبواب ، وتعرُّض لتاريخ مصر والقاهرة السياسى والاقتصادى والاجتماعى إبان الحكم العثمانى ، وخاصة فى الباب الرابع الذى تعرض فيه لذكر سلاطين آل عثمان وتوابها بمصر من سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٣م إلى سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م .

---

(١) رسالة ماجستير ، تحقيق إبراهيم يونس محمد سلطح ، بعنوان تاريخ مصر العثمانية ٩٢٣-١١٣١هـ/١٥١٧-١٧١٩م .

وتناول الكتاب معلومات تاريخية إضافية تشمل الريف والمدينة ، ويبدو أن الجبرتى اعتمد عليه كثيراً كما اعتمد على أحمد شلبى عبد الغنى من قبل ، وخاصة لوجود تشابه كبير فى الفقرات التى أرخ لها .

مثال ذلك نرى أن الملوانى يذكر عن فتنة ١١٢٣هـ/١٧١١م فيقول(١) :

«وفى ثالثة (رجب ١١١٩هـ/١٧٠٧م) وقعت فتنة بباب الينكجرية فعزلوا أحمد إفرنجى الذى كان ريس الأوده باشه وحسين أغا الأوده باشى ثم نفوهم إلى الطينة بدمياط» .

أما عبد الرحمن الجبرتى فتعرض فى تاريخه لأحداث هذه الفتنة وأسبابها فقال(٢) :

«وفيها (١١١٩هـ/١٧٠٧م) وقعت فتنة بباب الينكجرية فعزلوا إفرنج أحمد باشى أوده باشه وحسين أوده باشه ثم نفوهم إلى الطينة بدمياط» .

وبتحليل هذين النصين نجد أن عبد الرحمن الجبرتى قد نقل عن يوسف الملوانى الذى عاصر أحداث هذه الفتنة وأرخ لها ، حتى أننا نرى أن الجبرتى قد تأثر بأسلوب الملوانى .

ويذكر كل من الملوانى والجبرتى عن اشتراك حاكم الصعيد محمد بك فى هذه الفتنة .

وعن حادثة عودة إفرنج أحمد من النفى اتفقت رواية الجبرتى مع رواية الملوانى الذى ذكر عن هذه الحادثة عام ١١١٩هـ/١٧٠٧م ، الذى ذكر عن هذه الحادثة عام ١١١٩هـ/١٧٠٧م بقوله(٣) :

«وفيه فر أحمد الفرنجى وحسين أغا من حبس الطينة ودخل مصر ليلا فالتجأ الفرنجى أحمد إلى أغات الجراكسة وأما حسين فالتجأ إلى باب التفكجية وفى سادس عشرينه أصبحت الينكجرية بالباب بأسلحتهم لما بلغهم قدوم إفرنجى أحمد إلى مصر وقالوا لابد من نفيه إلى الطينة فعاند فى ذلك طايفة الجركسة وامتنعوا عن التسليم فيه وقالوا لهم لابد من أننا ننقله

---

(١) عصمت محمد حسن ، عبد الرحمن الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، ص٣٣٠ ، رسالة ماجستير غير منشورة .

(٢) المرجع السابق ، ص٣٢٨ .

(٣) يوسف الملوانى ، المصدر السابق ، ص٢٧٥ ؛ عصمت محمد حسن ، المرجع السابق ، ص٣٣٢ .

من وجاقكم وساعدهم على ذلك بقية البلكات ولم يوافقهم الينكجرية على ذلك ومكثوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بلك ببابه فلما رأى العلما والفقهاء والأشراف تفاقم الأمر وخشوا من الفتنة اجتمعوا على الصناجق وساير أعيان البلد وأجمعوا على أن يجعلوه صاحب طبلخانة ولما تم التوافق أرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأرباب الدرك وأحضروه إلى مجلس الأغا وقروا عليه فرمان الصنجقية وأنه إن خلف يكون عليه بخلاف ذلك فامتثل الأمر ولبسوا قفاطين الصنجقية وطلع من منزل أغاة الجراكسة فى موكب عظيم إلى منزله وفى غاية شعبان نزل له الصنجق السلطانى على العادة والطبلخانة» .

أما رواة الجبرتى عن هذا الحادث فإنها تشابه تماماً رواية يوسف الملوانى ويلاحظ الباحث أن الجبرتى قد تأثر بأسلوب الملوانى ويظهر ذلك بقوله عن حوادث عام ١١١٩هـ/١٧٠٧م[1] :

«وفيه (شعبان) فر إفرنج أحمد أوده باشا وحسين أغا من حبس الطينة ودخلا مصر ليلا فاختبأ عند أغات الجراكسة والتجأ حسين إلى باب التفكجية .. (وفى سادس عشرينه) اجتمع الينكجرية بالباب بأسلحتهم لما بلغهم قدوم إفرنج أحمد إلى مصر وقالوا لابد من نفيه ورجوعه إلى الطينة فعاند فى ذلك طائفة الجراكسة وامتنعوا من التسليم فيه وقالوا لابد من نقله من وجاقكم وساعدهم بقية البلكات ولم يوافق لابد من نقله من وجاقكم وساعدهم بقية البلكات ولم يوافق الينكجرية على ذلك ومكثوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بلك ببابه فاجتمع كل العلماء والمشايخ على الصناجق والأعيان وخاطبوهم فى حسم الفتنة فوقع الاتفاق على أن يجعلوه صاحب طبلخانة وأرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأرباب الدرك وأحضروه إلى مجلس الأغا وقرأوا عليه فرمان الصنجقة وطلع من منزل أغات الجراكسة بموكب عظيم إلى منزله ونزل له الصنجق السلطانى والطبلخانة فى غايته» .

وقد قسم الملوانى كتابه إلى أربعة أبواب رتبت على النحو التالى :

الباب الأول : ما ملك . مصر بعد الطوفان إلى أن فتحها الله على يد المسلمين .

الباب الثانى : يتحدث عن ولاة المسلمين منذ زمن عمر بن الخطاب والخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ج١ ، ص٣٢ ؛ عصمت محمد حسن ، المرجع السابق ، ص٢٣٨-٢٣٩ .

الباب الثالث : ويتحدث عن سلاطين الأكراد ومماليكم الأتراك والجراكسة إلى أن جاء السلطان سليم خان بن عمر وفتح مصر .

الباب الرابع : يتضمن ذكر ملوك آل عثمان ونوابهم .

خامسا : مصادر منشورة :

١- محمد بن إياس المصرى الحنفى ، «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» .

يعتبر الجزء الخامس الذى حققه الدكتور محمد مصطفى عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م بالقاهرة ، المرجع الرئيسى لحوادث الفتح العثمانى لمصر ، والتنظيمات التى وضعها العثمانيون لمصر عقب الفتح ، وسرد الأحداث الهامة التى حدثت بمصر ، كان دائم النقد للحكم العثمانى ومساوئه ولإهماله مصالح المصريين .

وقد تعرض ابن إياس لحكم العثمانيين لمصر حتى وفاة خاير بك وصدور الفرمانات العثمانية كل عام لتجديد حكم خاير بك حتى وفاته عام ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م .

ودون الحوادث شهراً بعد شهر فى الأجزاء غير المعاصرةمن كتابه ، ثم يوم بعد يوم فى الأجزاء الأخيرة منه ، مما يدل على دقته ورغبته فى استقصاء الحقائق واستخدم فى أسلوب الألفاظ العامية والألفاظ وغير العربية ويرجع ذلك إلى انتشار اللسان التركى فى مصر خاصة بينأفراد الطبقة الخاصة فى العصر المملوكى[١] .

كما أن ابن إياس يتعرض لعملية الثأر التى قام بها إينال السيفى كاشف الغربية ، وجانم كاشف البهنسا والفيوم ، وخاصة أنه عرف عنهما أنهما أبدا الفتح فى أول الأمر[٢] .

٢- عبد الرحمن الجبرتى ، «عجائب الآثار فى التراجم والآثار» ، أربعة أجزاء .

وهو غنى عن التعريف ، وتعرض لتاريخ مصر الحديثة خلال ثلاث فترات الفترة الأولى لتاريخ مصر العثمانية ، وتاريخ مصر إبان الاحتلال الفرنسى ، وتاريخ مصر إبان حكم محمد على حتى عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م .

---

(١) سيدة إسماعيل الكاشف ، مكانة بن إياس بين مؤرخى مصر فى العصور الوسطى ، ص٦١ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

وتعرض الجبرتى للمجتمع المصرى وطبقاته وفئاته وطوائفه وخاصة العلماء والمماليك والتجار والحرفيين وغيرهم ، كما يلاحظ عليه أنه أفرد تراجم عن الشخصيات الهامة فى نهاية كل عام فى تاريخه للوفيات .

واعتمد الجبرتى فى تأريخه على كثير من كراريس الأجناد وكثير من المؤرخين الذين سبقوه أمثال أحمد شلبى عبد الغنى[1] ويوسف الملوانى[2] ، بالإضافة إلى ذلك فإنه عاصر بعض الأحداث الهامة ، بل شارك فيها ، وإذا لم يشارك فيها فإنه كان قريباً منها . واتبع فى كتابته طريقة الحوليات واليوميات ، وصور الحياة فى الأماكن التى أرخ لها ووصف الأماكن والميادين والدروب والمنازل حتى أن القارئ يستطيع أن يستنتج صورة تفصيلية عن هذه الحياة وتعرض أيضاً لظهور القاسمية والفقارية .

سادسا : دراسات وثائقية منشورة :

١- محمد شفيق غربال ، «مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨-١٨٠١) رسالة حسين أفندى الروزنامجى» المقالة الأولى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو عام ١٩٣٦م .

وهو عبارة عن مخطوط عنوانه «ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولةالعثمانية» ينسب إلى حسين أفندى أحد أفندية الروزنامة فى مصر العثمانية ففى هذا المخطوط إجابة لأسئلة طرحها استيف مدير المالية فى عهد الاحتلال الفرنسى عن أحوال مصر الإدارية المالية فى العصرالسابق على الحملة الفرنسية ، وقد انتظمت هذه التساؤلات والإجابات فى ستة عشر باباً ، وأوضح المؤلف أنه قام بتحريرها عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م أى قبل خروج الفرنسيين من مصر .

وجاء إجابات حسين أفندى على تساؤلات استيف كالأتى :

١- وصف ترتيب القاهرة ونظامها وأمرائها .

٢- فى تعريف صناجق مصر وعدتهم وخدمتهم .

---

(١) أحمد شلبى عبد العزيز ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات .

(٢) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب فيمن ملك مصر من الملوك والنواب .

٣- فى ترتيب الأوجاقات السبعة وأسمائهم .

٤- فى تعريف الحكام القاطعين بالأحكام الشرعية مثل القاضي وغيره .

٥- فى تعريف الأفندية وخدمتهم .

٦- فى تعريف الولايات وبلاد الأقاليم المصرية .

٧- فى تعريف التزام الملتزمين .

٨- فى تعريف الأراضى ووضع يد الملوك عليها .

٩- فى ترتيب البلاد وضبط أطيانها حين تداولت هذه المملكة إلى السلطان سليم .

١٠- فى تعريف الميرى وتمكين الملتزم من الالتزام .

١١- فى تعريف تمكين الملتزمين فى الالتزام والفلاحين من الأراضى .

١٢- فى تعريف مقدار الميرى إلى غاية تحرير حسن باشا كان قدره أي شئ .

١٣- فى تعريف سبب ترتيب الميرى على البلاد وغيره .

١٤- فى تعريف سبب ترتيب مصاريف الميرى .

١٥- فى تعريف المواريث ومايخص بيت المال .

١٦- عن تعريف الأسئلة الآتى ذكرها فيه .

وقد قام ستانفورد شو Stanford Shaw بتحقيق هذا المخطوط والتعليق عليه ونشره عام ١٩٦٤ بعنوان :

"Ottoman Egypt inThe Age of The Freneh Revolution by Husen Efendi".

وفى هذا التحقيق تعرَّض للتكوين الاجتماعى والإدارى لمصر العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر . وتعالج المقدمة التكوين الإدارى والاجتماعى لمصر العثمانية ، فى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم يشير المؤلف بعد ذلك للاحتلال الفرنسى لمصر ، ويناقش شو Shaw فى نفس المقدمة شخصية حسين أفندى ويرى أنه لم يكن واحداً من المماليك أو أصدقائهم ، ويتعرَّض لمناقشة التقرير ويبين أن حسين أفندى تحدث فى بعض الأحيان عن الوضع الذى آلت إليه أنظمة مصر الإدارية والمالية فى العصر العثمانى فى نهاية القرن الثامن عشر[١] .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

٢- ستانفورد شو :

Stanford Shaw, The Financial and Administrative Qrganization and Development in Ottoman Egypt, 1517-1798 .

وهذا الكتاب عبارة عن رسالة دكتوراة عن التنظيم الإدارى والمالى لمصر العثمانية ، واعتمد المؤلف فى إعداد هذه الرسالة على دفاتر الالتزام بدار الوثائق القومية بالقلعة ، مما أكسب عمله صفة التاريخ الاقتصادى والإدارى ، إلى جانب أنه تعرض لبعض الأحداث الهامة التى مرت بها مصر العثمانية .

٣- بيتر م . هولت P.M. Holt :

وله العديد من المؤلفات والمقالات الخاصة بمصادر تاريخ مصر العثمانية ، والأحداث الهامة بها ، وقد نشرت هذه المقالات فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن ، وسيشير الباحث إلى اختصارها B.S.O.A.S .

وأهم هذه المقالات مقالة عن رضوان بك أمير الحج فى القرن السابع عشر ، وتحدث فيها عن أصل المماليك الجراكسة بعنوان :

The Exalted Lineage of Ridwan Bey-Some Observation on Seventeenth Century Mamluk Genealogy, B.S.O.A.S. XXII 21959 . (pp. 222-230) .

أما المقالة الأخرى فهى عبارة عن :

The Beylicate in Ottoman Egypt During Seventeenth Century B.S.O.A.S. XXIVI 2 1962, (pp. 214-248) .

وقد بدأ هذه المقالة بمقدمة بيلوجرافية عن المصادر الهامة لتاريخ مصر العثمانية ، ثم تعرض بعد ذلك للتاريخ السياسى لمصر العثمانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتحدث عن البكوية فى مصر العثمانية ، وولاتها من العثمانيين ثم ختم حديثه لتراجم لحياة بعض سناجق مصر من البكوات فى القرن السابع عشر .

كما ألف هولت كتاباً عن :

Egypt and Fettile Crescent 1516-1922 A Political History, London 1966 .

وفيه تعرّض لتاريخ مصر السياسى والصراع بين البيوتات المملوكية طمعاً فى الوصول إلى الحكم دون مراعاة مصالح الأهالى ووقف عند انقسامات الفقارية والقاسمية ومشاركة عربان الصعيد فى هذه الانقسامات وانحيازهم إلى جانب ضد الجانب الآخر ، وبالإضافة إلى ذلك فإن للمؤلف أعمالا أخرى من بينها :

The Pattern of Egyptian Political History From 1517-1798 in Political and Social Change in Modern Egypt, London, 1959 .

٤- دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : «الريف المصرى فى القرن السابع عشر» ، القاهرة ١٩٧٤م .

ويعد من المراجع الهامة عن تاريخ مصر العثمانية بصفة عامة ، والريف المصرى بصفة خاصة ، واعتمد فيه على مصادر تاريخ مصر العثمانية الهامة فى الشهر العقارى مثل إسقاطات القرى التى تؤكد بداية أفلاس نظام الالتزام وتعطى فكرة واضحة عن الإسقاطات التى تمت سواء من جانب الأمراء العثمانيين أو المماليك أو من الأهالى ، ويعتمد المؤلف على سجلات مبايعات الباب العالى ، بالإضافة إلى أرشيف المحكمة الشرعية ، التى أعطت وصفاً دقيقاً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى الريف المصرى .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الكتاب قد اعتمد على وثائق دار الوثائق القومية ودار المحفوظات المصرية ، التى تعتبر بحق من أغنى المصادر الهامة لتاريخ مصر العثمانية .

ويلاحظ أن الكتاب قد أعطى وصفاً دقيقاً لإدارة الريف المصرى فى مصر العثمانية والهيئات المشتركة فى إدارته - الريف المصرى - مثل الملتزم والكشاف أو الصناجق ، وشيخ القرية ومعاونيه مثل الصراف والخولى والمشد ، .. إلخ .

ومن خلال الدراسات الاجتماعية للريف فإنه استطاع أن يعطى وصفاً دقيقاً للعادات الاجتماعية فى الريف مثل الأفراح والمآتم . كما أشار إلى العربان الذين استقروا فى الريف ودورهم الإيجابى والسلبى ، والعلاقة بينهم وبين الفلاحين ، الذين قاسوا من تعسفهم إلى جانب تعسف الإدارة وظلمها .

٥- دكتور عمر عبد العزيز عمر ، «دراسة لمصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية» ، بيروت عام ١٩٧٧م .

وفى هذا الكتاب يتعرض الباحث لدراسة وافية عن المخطوطات الخاصة بمصر العثمانية سواء فى داخل مصر أو خارجها ، كما تعرض أيضاً للمؤرخين الأجانب الذين اهتموا ونشروا أبحاثهم عن مصر العثمانية من أمثال بيتر م. هولت P.M. Holt وأبحاثه فى هذا المجال سواء فى المجلات العلمية أو الكتب الخاصة ، وستانفورد شو Shaw ومؤلفاته العديدة والمنشورة . وبالإضافة إلى ذلك فقد تعرض لبعض المؤرخين المصريين الذين اهتموا بتاريخ هذه الفترة أمثال محمد شفيق غربال والدكتور حسن عثمان ومحمد توفيق ، ودكتور رفعت رمضان ومحمود الشرقاوى ، وقد أفدت فائدة كبيرة بالرجوع إلى هذه المصادر والمراجع .

٦- دكتور محمد أحمد أنيس ، «مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى» ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦٢م .

وقد قسم المؤرخين المهتمين بهذه الفترة إلى ثلاثة أقسام على النحو التالى :

القسم الأول : المتأثر بمدرسة التاريخ الإسلامى مثل ابن إياس والجبرتى .

القسم الثانى : واعتنوا بكتابة السير مثل العينى والزبيدى والجبرتى .

القسم الثالث : المؤرخون الأجناد وتعرّض لبعضهم مثل ابن زنبل الرمال والدمرداشى كتخدا عزبان ومصطفى بن الحاج إبراهيم .

قد تطرق إلى الحديث الذى أدى إلى إهمال دراسة تلك الفترة والمجهودات التى تبذل الآن .

٧- دكتورة ليلى عبد اللطيف أحمد ،«الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى» ، القاهرة ١٩٧٨م .

يتعرّض الكتاب لنظام الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، وقبل التعرض لمحتوياته لابد من الإشارة السريعة إلى مصادره الأساسية الهامة التى تعتبر بحق من أهم مصادر تاريخ مصر العثمانية . فاعتمدت الباحثة على دفاتر الالتزام الموجودة حالياً بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، التى كانت موجودة من قبل بدار المحفوظات المصرية ، وتتبعت لنظام الالتزام من بدايته حتى الغائه على يد محمد على عام ١٢٢٨هـ/١٨١٤م .

وقد كشفت عن أدق التفصيلات الخاصة بنظام الالتزام وفئات الملتزمين وتقسيم القرى والمصروفات المحلية للأقاليم ، والضرائب المفروضة على الأرض والمضافات التى تعرضت لها ضريبة الأرض فى مصر وسيطرة رجال الإدارة من أمراء المماليك ورجال الإدارة المالية على التزامات الأرض فى مصر كمصدر ربح هام لهم .

ثم أوضحت التقسيم الإدارى لمصر بصفة عامة والصعيد بصفة خاصة وكيفية تكوين ولاية جرجا فى العصر العثمانى ، بالإضافة إلى تعرضها لمرتبات الباشا ، والقاضى عسكر أفندى والدفتر دار ، والأمراء والصناجق ، إلخ ، كما تعرضت أيضاً للتقسيم الإدارى للولايات وكيفية إدارتها ونظامها المتبع .

وبالإضافة إلى المصادر السابقة فقد اعتمدت الباحثة على سجلات محكمة الإسكندرية والمحكمة الشرعية التى يوجد بها الكثير من الحقائق الهامة عن تاريخ مصر العثمانية بالإضافة إلى سجلات الدفتر خانة بالأوقاف .

وبعد أن تعرضت لدراسة بعض المصادر والمراجع الأساسية التى استعنت بها فى كتابى هذا ، وهناك مجموع أخرى لم أعرضه ، ولكننى أفدت منها فائدة حقيقية فى هذا الكتاب .

الفصل الثانى
الفتح العثمانى لمصر ونتائجه

أولاً : العلاقات المملوكية العثمانية :

فى أول الأمر ، فإن المماليك لم ينظروا إلى العثمانيين بمنظار العداوة ، أو حتى المنافسين لهم فى السيطرة أو النفوذ فى العالم الإسلامى ، على أساس أنهم لم يعادوهم بعد ، لأنهم فى نظرهم لايرقون إلى مرتبتهم ، حتى وإن كانوا قد أحرزوا انتصارات هائلة على القوى الصليبية فى آسيا الصغرى وأوربا ، إلا أنهم فى رأيهم لايقيمون مثلهم فى قلب العالم الإسلامى العربى ، وإنما فى آسيا الصغرى وأوربا ، موئل شعوب غير إسلامية ، فهم اتخذوا القسطنطينية عاصمة الروم السابقة عاصمة لهم ، وإن سموها استانبول بكل ماكانت تمثله من عداء شديد للإسلام طوال قرون عديدة ، لذلك فهم مسلمون مجاهدون فقط [1] .

وعلى العكس ، فإن المماليك بسبب وجود دولتهم فى الشرق الإسلامى ، اعتبروا أنفسهم حماة الإسلام وعلى الخصوص بسبب اتخاذهم مصر قلب العروبة والإسلام ، مركز الثقل فيها ، قاعدة أصيلة لدولتهم الإسلامية المترامية الأطراف ، وخاصة أن سياستهم هى نفسها سياسة الفاطميين والأيوبيين من قبل ، باتخاذ مصر قاعدة للنضال فى سبيل الإسلام . ثم أن المماليك كان رصيدهم السابق بالنسبة للإسلام كبيراً جداً ، فهم الذين قطعوا دابر الصليبيين من الشرق، وإنهم هم الذين أوقفوا الخطر المغولى ، الذى لم يكن يقل تهديداً للبلاد الإسلامية عن الخطر الصليبى ، كما استطاعوا أن يعيدوا الخلافة التى قضى عليها المغول فى بغداد ، وبذلك أعادوا للإسلام ركنًا هامًا فى شرعية وجوده ، بحيث أصبحت القاهرة مركز خلافة العباسيين. وبعد أن قاموا بهذه المهام الكبرى لصالح الإسلام العام ، فإنهم لم يستكينوا فى الجهاد ضد القوى المسيحية ، فهاهو برسباى يذكى روح الجهاد ويهاجم قبرص ثلاث حملات أخضعها له ، وانتصر على ملكهم جانوس الثانى لوزينان ، وأحضره معه أسيراً للقاهرة [2].

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ٢٤(٣) ٣٢٥ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

ولذلك ، فإن المماليك لم يكونوا يخلطون أنفسهم بالعثمانيين أبداً على الرغم من أن كليهما من الترك ، وإن سعى كل منهما إلى إيجاد أصل عربى ، على أساس أن العروبة هى مادة الإسلام ، فالجراكسة اعتبروا أنفسهم من أصل عربى ، فهم يربطون نسبهم بقريش . وحتى العثمانيين كانوا يرون أن جدهم عثمان هو عربى من سكان نواحى المدينة ، وإن اتصل بالسلاجقة فى آسية الصغرى وتكلم لغتهم . ويظهر عدم خلط أنفسهم بالعثمانيين فى أنهم كانوا يطلقون على دولتهم إسم العثمانية ، نسبة إلى عثمان جدهم أو الروم أو مملكة الروم[١] ، أما سلاطينهم فيطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان[٢] ربما كان بسبب استقرارهم مكان الروم فى آسية الصغرى ، يطلق عليهم سلاجقة الروم ، لمجاورتهم لهؤلاء أو حتى لأنهم بعد ذلك أصبحوا مثل الروم يهاجمون فى بلاد الإسلام ، وهى على كل حال تسمية مقبولة من العثمانيين أنفسهم ، فقد كان سلطان العثمانيين - كما يظهر من مفاتيح الكعبة الشريفة - يسمى نفسه سلطان الروم[٣] .

وفى أول الأمر ، فإن المماليك مثل بقية المسلمين ، كان ثلج قلوبهم انتصارات العثمانيين على الرم ، وقضائهم نهائيًا عليهم . وفتحهم فى بلاد أوروبا ، بل يرون أنهم أفضل من سلاجقة الروم ، الذين عاصروا نشأة دولتهم ، ولو أن هؤلاء جاهدوا الروم والصليبيين من قبل، إلا أنه بسبب ضعفهم بعد ذلك ، نتيجة لانقسامهم فإنهم أصبحوا ضعافًا متداعيين . فكان مظهر التقدير للعثمانيين المجاهدين : هو أن الخليفة الذى يستظل بحماية المماليك فى مصر ، كان يرسل إلى سلاطين آل عثمان إذا وصل خبر انتصار للعثمانيين على الروم إلى مصر ، كانت تزين البلاد[٤] .

ومن ناحية العثمانيين ، فإنهم كانوا على وئام مع المماليك فى أول الأمر ، يظهر ذلك من الرسائل التى تبادلوها مع سلاطين المماليك ومعظمها بالعربية ، فيها تفخيم لهم باعتبارهم

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق ، محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٦ .

قادة العرب ، وحماة الحرمين الشريفين ، أو أن السلطان المملوكي هو خادم المساجد الثلاثة ، أي المسجد الأقصى مضافًا للحرمين الشريفين . وأحيانًا تتبادل بتبادل عبارات الحب والوله . وإن كان ذلك من قبل سلاطين المماليك أيضًا [١].

ويظهر ذلك عندما تولى برقوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٣- ١٣٩٩م) عرش السلطنة فى مصر أرسل إليه السلطان العثمان مراد الأول (٧٦١ - ٧٩٢هـ/ ١٣٥٩- ١٣٨٨م) سفارة للتهنئة عام ١٣٨٨/٧٩٢م ومعها الهدايا وتحذره من تحركات تيمورلنك ، من تبريز نحو الغرب مما يهدد الدولتين المماليكية والعثمانية[٢] وإن لم يغفل برقوق نفسه عن هذا الخطر، إلا أنه كان يخاف أكثر من أطماع العثمانيين[٣] وخطورتهم على مستقبل دولته . فقال " أنى لا أخاف منه (تيمورلنك) فإن كان أحد يساعدنى عليه وإنما أخاف من ابن عثمان[٤].

وصدقت مخاوف برقوق ، فقد هاجم السلطان العثمانى بايزيد الأول (٧٩٣ - ٨٠٥هـ / ١٣٨٩- ١٤٠٢ م) قيصرية عام ٧٩٤ هـ / ١٣٩١م ، وقبض على أميرها الذى كان مشمولاً بحماية المماليك . ولكن بايزيد الأول سرعان ما أحس بحرج موقفه وخطأه مما أقدم ، عندما شعر بالخطر المغولى يقترب من بلاده ، ولانصير له فى المنطقة سوى المماليك . فاعتذر لبرقوق عما أقدم عليه ، وأرسل له هدية ثمينة مع أحد رسله ، وطلب منه أن يبعث إليه أحد أطبائه المهرة لكى يشرف على علاجه ، فلبى برقوق طلب السلطان العثمانى ، وأرسل إليه الطبيب شمس الدين محمد بن الصغير ومعه الأدوية والعقاقير [٥].

وقد تبادل السلطانان رسائل الود والصداقة لتأكيد التحالف بينهما فقد أرسل برقوق رسالة إلى بايزيد الأول مع قاصده سعد الدين سعد الله البريدى ذكر له فيها " أن المملكتين كروحين

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة له ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٥ - ٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٦٦ ، إبراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية العلية ، المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٤٩ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٥) نفسه ، ص ٢٦٧ .

فى جسد وساعدين فى عضد " وشكا له من سوء معاملة الجنويين وكفار كفه - مدينة فى شبه جزيرة القرم - تطل على البحر الأسود لتجار المسلمين وابن قابونى ، فرد عليه بايزيد الأول برسالة فى ٦ شوال عام ٧٩٣ هـ / ١٣٩١م ، أوضح له فيها أنه أرسل قاصده إلى أمير جنوة وإلى مشركى كفة ، لتنبيههم إلى عدم التعرض لتجار المسلمين وأموالهم وإطلاق سراح السجناء منهم ، وابن قابونى وتسليم أموالهم إليهم كاملة ، وأكد على أواصر الصداقة بينهما ، وطلب منه الاستمرار فى المراسلة (١).

ورد برقوق على بايزيد الأول برسالة عبر فيها عن فرحته بما ورد فى رسالته ، وبما قام به نحو حماية تجار المسلمين من اعتداء الجنويين عليهم . وذكر له أن تاجرين عثمانيين أحدهما يدعى الحاج تنكر ورمش من مماليك التاجر خواجة قاسم ، قد اتجر فى مصر بأموال مولاهما فى تجارة الفلفل على خلاف القوانين المصرية ، ثم طلب منه أن يعفو عنهما لكى يعودا بما معهما إلى صاحبهما (٢).

دأب السلطان بايزيد الأول على تأكيد صداقته واحترامه لسلاطين المماليك ، فأرسل عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤م ، تحفًا وهدايا إلى الخليفة العباسى فى مصر هو المتوكل على الله فى ذلك الوقت ، طالبًا منه تشريفًا وتقليداً باعتماده سلطانًا ، فبعث له المتوكل بهذا التقليد ، وهذا دليل واضح على مدى مركز السلطنة المملوكية وسيادتها الإسلامية العليا ، فى المجال الدولى والعالمى(٣) . ومن ناحية أخرى فإن السلطان بايزيد الأول حرص على إرسال سفارة إلى مصر ليبشر المسلمين بانتصاره على التحالف الصليبى فى نيقوبوليس ٧٩٧ هـ / ١٣٩٦م ، كما أرسل إلى السلطان برقوق هدية من أسرى الفرنج بلغ عددهم مائتى أسير(٤) .

وفى عهد فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨١٥ / ١٤٠٠- ١٤١٢م) أغار بايزيد الأول على أطراف دولة المماليك واستولى عام ٨٠١ هـ / ١٤٠٠م على ملطية وداندرة . ولاشك فى أن

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤- ٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٧ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٣) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير بعلبكى ، بيروت الطبعة العاشرة ، بيروت ، لبنان ١٩٨٥ ، ص ٤٢٠ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ، ص ٢٦٩ ؛ عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ١٩٨ ، ص ٤٢ .

ذلك العدوان كان كافيًا لحد ذاته لتحذير سلطنة المماليك من نوايا بنى عثمان ، هذا وإن كان خطر تيمورلنك ظل يدفع العثمانيين دفعًا إلى الاحتفاظ بود المماليك ، بدليل أن بايزيد عاد بعد قليل يطلب محالفة السلطان فرج لإقامة جبهة متحدة ضد الخطر المغولى المقترب من بلادهما ، فرفض فرج ذلك التحالف بعد مشاورة امرائه[١] . وأرسلوا يذكرونه بعدوانه على ملطية [٢]، وبهذا تمكن تيمورلنك من مداهمة كلا القوتين على انفراد فهاجم أراضى المملوكية، وتمكن من إنزال الهزيمة بالمماليك عام ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م بالقرب من دمشق ، كما استطاع أن يهزم بايزيد الأول ويأسره فى موقعة " جوبوق أووه " القريبة من أنقرة فى عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م[٣].

وبعد أن أنهت آثار هزائم تيمورلنك عند كلا الجانبين عادت العلاقات الودية بين الدولتين من جديد ، ولكنهما اقتصرت على تبادل التهانى والهدايا عندما يتحقق النصر لأحداهما ضد عدوهما .

وفى عهد المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٣٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١م) الذى تولى عرش السلطنة، وتأخر سلطان العثمانيين الجديد محمد الأول فى تهنئته باعتلاء العرش وفى أواسط شهر ذى الحجة عام ٨١٧ هـ / ١٤١٤م أرسل السلطان محمد الأول كتابًا إلى السلطان المملوكى شيخ المحمودى على يد قاصده قوام الملك والدين قاض « اينه كول » من أعمال بروسة يعتذر فيه عن تأخره فى المراسلة بسبب ماوقع بينه وبين إخوته من نزاع عى العرش بعد موت أبيهم سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م ومساعدة تكفور[٤] من القسطنطينية عمانويل لهم وتحريضهم إياهم ضده ، ويهنئه باعتلاء العرش ، ويطلب منه تجديد أواصر الصداقة القديمة .

وقد أرسل محمد الأول هدية مع رسوله إلى السلطان المملوكى ، وقد رد السلطان المؤيد شيخ على رسالة السلطان محمد الأول ، يبين فيه سروره بما تحقق للسلطان محمد من نصر على تكفور القسطنطينية وأرسل هو الآخر هدية له . واستمرت العلاقات الطيبة بين الدولة

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٢١.

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٠ .

(٤) عبد الرزاق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٣ .

المملوكية والعثمانية ، وتبادل الطرفان الرسائل من آن لآخر تأكيداً لأواصر الصداقة وتبادل مايستجد من أخبار [١].

وتجددت العلاقات الودية بين السلطنة العثمانية والسلطنة المملوكية ، فأرسل السلطان العثمانى مراد الثانى (٨٢٤ - ٨٥٤هـ / ١٤٢١- ١٤٥١م) سفارة عام ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ لتهنئة السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ هـ / ١٤٢٢- ١٤٣٨م) بالرسالة ومعها هدية ، وقد رد السلطان على الهدية ، ولكن قدر لهذه الهدية أن تقع فى أيدى قراصنة البحر المتوسط من القبارصة ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع السلطان مراد الثانى من إرسال سفارة عثمانية أخرى إلى برسباى عام ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦م ، وقد أقامت هذه السفارة فى القاهرة لحين مجىء ثالث حملات السلطان برسباى على قبرص عام ٨٣١ هـ / ١٤٢٧م ، وهى الحملة التى نجحت فى غزو الجزيرة وأسر ملكها جانوس لوزجنان ، وهنئه مراد الثانى بالفتح القبرصى ، الذى يسامى الفتح القدسى من قبل[٢] ويبدو أن أخبار هذا النصر الذى احرزته سلطنة المماليك أثار غيرة السلطان مراد الثانى العثمانى ، فبادر فى العام التالي ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م ، بإرسال خمسين أسيراً أوربياً للسلطان برسباى[٣] الذى رد على ذلك معبراً عن فرحته الشديدة بنصر الإسلام وجنود المسلمين .

وعندما استولى العثمانيون على قلعة سلانيك فى ٥ رجب عام ٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م أرسل السلطان العثمانى قاصده بدر الدين محمود بك برسالة إلى السلطان المملوكى يزف إليه بشائر النصر ويخبره أيضًا بانتصاره على حاكم المملكة الأرناؤطية المسمى إيوان بعد تظاهره بعدم القدرة على دفع الجزية ، كما أرسل مراد الثانى رسوله هذا ليقدم مراسم التعزية فى وفاة شيخ المحمودى والتبشير بنصر العثمانيين وقد جهز معه بعض الهدايا[٤] .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢- ١٣ ، عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٠ (٢)٩٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣١٨ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٤) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

وفى عـهـد السلطان الظاهر جقـمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٢٨- ١٤٥٣م) زادت مظاهر الصداقة والود بين الطرفين ، وتوطدت العلاقة بينهما ، فتبادل مراد الثانى وجقمق الهدايا والرسل فى المناسبات المختلفة ، فبعد أن اعتلى جقمق سلطنة عرش مصر ، أرسل إلى مراد الثانى رسالة فى نفس العام مصحوبة ببعض الهدايا والتحف ، مع قاصده استدمر الخاصكى[١] . ليخبر مراداً بأخبار مصر . ولكي يظهر نوايا ، الطيبة مع العثمانيين أمر نواب السلطان العثمانى أحمد بك ، الذى كان حاكمًا على سيواس وتوقات وآماسيا وغيرها ، ثم طلب من مراد الثانى فى نهاية رسالته أن يسهل عودة التاجر المملوكى خواجا زين الدين بكيسمان بما عسى أن يكون صحبته من المماليك الأجلاب[٢] .

وقد رد مراد الثانى بكتاب مصحوب ببعض الهدايا والتحف مع قاصده ولد بك لتهنئة جقمق بالجلوس على العرش ، ولتبشيره بفتح قلعة سمندرة ، وتخريب بلغراد وكوهين وطمشواز، وانتصاره على اليونانيين وقد امتلأت رسالة مراد الثانى بعبارات كلها تبجيل وإجلال مما يدل على مدى توثق عرى الصداقة والمحبة بينهما .

---

(١) الخاصكى : الخاصكية هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفة ، ويتعينون للإمرة ، والمقربون فى المملكة ، كان عددهم فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكيًا ، ثم ازدادوا على ذلك حتى صاروا فى أيام الأشرف برسباى نحو ألف خاصكى ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة .

وأما فى الدولة العثمانية فإن كلمة خاصكى تطلق علي هذه الطوائف الثلاث :

(١) الخاصكية من النساء .

(٢) والخاصكية طائفة من موظفى القصر تابعة لجماعة البستانجية كانوا يرسلون فى المهمات السرية إلى الولاة وغيرهم من كبار رجال الدولة وكانوا أيضًا حملة البريد من القصر ، ومنهم من يعرف باسم تبديل خاصكى ، يتجسسون مبدلين قيافتهم ، ويصاحبون السلطان إذا خرج للعس ، ومنهم ستون رجلاً يحافظون على السلطان إذا خرج فى موكبه للسفر .

(٣) كانت فى الجيش الانكشارى أربع كتائب تعرف بالخاصكية وهى الكتائب الآتية الرابعة عشر والتاسعة والأربعون والسادسة والستون والسابعة والستون وكان من هؤلاء الخاصكية متخصصون فى تربية كلاب الصيد ، وكان أربعة منهم يصاحبون السلطان إذا خرج للصيد . (انظر : أحمد سعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٨٤ - ٨٥) .

(٢) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٥٤ - ٥٥ .

ولما وقعت معركة فارنا ببلغاريا الحالية عام ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤م ، إثر حصار هنيادى نائب رئيس ترانسلفانيا لبلغاريا ، وانضم إليه لادسلاس Ladislas ملك المجر لحصار فارنا ، وقد انتصر مراد الثانى على هذا التحالف ولقى لادسلاس ملك المجر مصرعه . وأسر الكثير من الصليبيين فأوفد مراد الثانى إلى جقمق بعض الأسرى ومنهم بعض الأمراء . واستمرت المراسلات وتبادل القصاد بين الطرفين [١].

وكان لهذه العلاقة الوطيدة بين جقمق ومراد الثانى أثرها فى استمرار صفائها فى محمد بن مراد (محمد الفاتح) (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١- ١٤٨١م) وتأكيداً لهذه العلاقة والمودة، أنه لما علم جقمق أن السلطان محمد الثانى أرسل جنده لتأديب بعض حكام شرق الأناضول الذين يقطعون طرق التجارة وينهبون الأموال ويستبيحون قتل الأنفس ، أرسل له عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١ رسالة شكر على ما قام به خدمة للمسلمين [٢].

وفى عهد برسباى (٨٢٥ - ٨٤١ / ١٤٢٢- ١٤٣٨م) ازدادت أواصر الصداقة والمودة بين الأشراف برسباى وبين مراد الثانى (٨٢٤ - ٨٥٤ هـ / ١٤٢١ -١٤٥١م) ، وقد أظهر برسباى مع وفد عثمانى قدم إليه فى طريق الحج مودة ، وعامل أفراده معاملة طيبة . ولما ظهر خطر شاه رخ الخصم العنيد للمماليك والعثمانيين معا ، أعاد إلى الأذهان صورة أسر بايزيد الأول السابقة من تيمورلنك ، لذلك أسرع مراد بإرسال بعثة سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣م إلى القاهرة لتهنئة برسباى بالسلطنة ومعها هدية .

واغتبط برسباى بمقدم البعثة وبما احضروه معها من هدايا ثمينة . ثم رد برسباى على هذه الهدية بما يناسب مقام السلطنة العثمانية ، وليؤكد المودة بين الجانبين ، ولكن قدرة لهذه الهدية أن تقع فى أيدى قراصنة قبرص فى البحر المتوسط . وكان رد الفعل من جانب برسباى إلى أنه أرسل عدة حملات للقضاء على القراصنة القبارصة ، ونجح فى ذلك وأسر ملك الجزيرة جانوس لوزجنان وأقام احتفالاً بذلك ، وقد صادف هذا الاحتفال وجود بعثة عثمانية شهد أعضاؤها الاحتفالات المقامة ، ولما عادت البعثة العثمانية ، أعادت ذكر الاحتفال والاستقبال أمام

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص٢٧ ، ٢٨ ، يلماز اوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، استانبول ١٩٨٩م ، ص ١٢٧ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

سلطانهم الذى أثارته الغيرة ، ودفعته إلى القيام بحملة ضد إينال ، وزحف على بلاده فاستولى على طرسون وأدرنة وكولك ، وما أن سمع السلطان بهذه الأخبار ، عين على الفور تجريدة إلى ابن قرمان وقد استطاعت هذه القوات إعادة النظام والأمن إلى هذه المنطقة ، واستعادة البلاد التى انتزعها بن قرمان .

أما موقف السلطان محمد الفاتح ، فقد أرسل فى جمادى الأولى عام ٨٦٠هـ / ١٤٥٦م سفارة عثمانية ثانية برسالة تنبىء بانتصار قواته على الصرب فى وقعة نوفو بردا وغيرها من الوقعات الدامية ببلاد يوغسلافيا الحالية . وأرسل هدية للتأكيد على علاقات المودة بينهما[١] .

ولما تولى السلطان قانصوه الغورى بعد قايتباى سعى إلى أن يصلح الأمور أكثر مع بايزيد الثانى ، فأعلن فى رسالة أن سلفه قايتباى " انعوج على المصادقة إلا أنه على عكسه يسعى إليها ، ويعترف بمواقف بايزيد فى الجهاد ، ويصفه بالسلطان الغازى . وتبدو حيطة الغورى فى أنه رفض مجىء ابن بايزيد الثانى قرقورد ، إلى مصر فى طريقه إلى الحج ، إلا إذا أذن له والده بذلك ، الذى كان قد وصل إلى القاهرة برسالة[٢] أو التماس إلى أبيه يستأذنه فى ذلك، مع بعض علماء الأزهر الشريف ، بحيث أن بايزيد الثانى أرسل رسالة للغورى شكره على ذلك، ويلقبه فيها بالأخ ، مما يدل على أن العلاقات الودية قد عادت بين المماليك والعثمانيين بعد التوتر السابق[٣] .

من الطبيعى أن تتأزم العلاقات بين السلطنة المملوكية والإمبراطورية العثمانية ، بسبب متاخمة أراضيها ، وبسبب صراعهما على النفوذ ، خاصة وأن السلطنة المملوكية كانت فى مرحلة الانحطاط ، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الأوج ، وتطمع بزعامة العالم، بشأن الدول الإسلامية الكبرى ، وقد وجدت عدة مناسبات للاحتكاك ، ثم الاصطدام بين المماليك والعثمانيين ، فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، ومطلع القرن السادس عشر.

---

(١) عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٧- ٣٣١ .

(٣) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٣١ .

(١) الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان :

تركز الصراع على النفوذ بين المماليك والعثمانيين فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر فى منطقة ألبستان Albistan على الفرات الأعلى بين مرعش وملطية ، وسميت المنطقة بذلك نسبة لمدينة تحمل الاسم نفسه . وقد احتلها الصليبيون ثم الدانشماند المتمركزون فى سيواس ، ثم سلاجقة لروم المتمركزون فى قونية بين ٧٣٨ - ٧٤٠ هـ / ١٣٣٧- ١٣٣٩م ، أصبحت البستان عاصمة إمارة ذى القدر ، وهى سلالة تركمانية حكمت حتى عام ٩٢٨هـ/١٥٢٢م . وقد استولى تيمورلنك عى هذه الإمارة فى عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م . كما أن السلطان محمد لأول تزوج من ابنة أميرها [١].

وفى عهد حاكم ألبستان ، ملك أرسلان (٨٥٨ - ٨٧هـ / ١٤٥٤- ١٤٦٥م) تهددت هذه الإمارة من قبل أوزون حسن (حسن الطويل) حاكم إمارة الشاه الأبيض . وفى سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م اغتيل ملك أرسلان بتآمر أخيه شاه بداق ، الذى كان يؤيده السلطان المملوكى خشقدم ، والذى احتل مكانه ، بمساعدة السلطان العثمانى محمد الثانى ، وحين قوى شاه سوار رفض حماية العثمانيين له ، مما مكن المماليك من مهاجمته وقتله فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ وأعيد شاه بداق إلى الحكم . ولكن العثمانيين أيدوا أخًا آخر لشاه بداق يدعى علاء الدولة ، الذى تزوجت ابنته من السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، وانجبت له سليمًا الذى أصبح فيما بعد السلطان سليم الأول ، وفى عام ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩م . استطاع علاء الدولة أن يطرد شاه من الحكم [٢].

ووضح ذلك من أعمال هؤلاء الأخوة الحاكمين ، الواحد تلو الآخر ، النزعة القبلية التركمانية التى سادت هذه الإمارة والتى وجدت مشجعًا لها ، فى موقع الإمارة الاستراتيجى، بين المماليك والعثمانين ، الذى تمثل صراعهم على النفوذ فى المنطقة فى دعم أمير ضد آخر . ونتج عن ذلك ليس تأزم العلاقات بين أفراد الأسرة الحاكمة فى ألبستان فحسب ، بل اضطراب العلاقات بين المماليك والعثمانيين . كما أن توتر الوضع بين هاتين القوتين ، لأسباب أخرى ، كثيراً ما انعكس على العلاقات بين الأخوة فى الأسرة الحاكمة فى هذه الإمارة[٣] .

---

(١) عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت على مصر ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ص٤٥ .

وقد بدأوا أول صدام مسلح بين المماليك والعثمانيين باعتداء قام به علاء الدولة أمير ذو القادر ، ومعه بعض الفرق من جنود العثمانيين عام ٨٨٩ هـ / ١٤٨٣م على الحدود المملوكية، فتصدى له تمراز الشمسي للمعتدين واستطاع أن ينزل هزيمة فادحة ، وأسر جنداً من قوات العثمانيين وعلى الرغم من انتصار المماليك ، فقد آثر قايتباى حقن الدماء وأرسل قاصده أمير آخور[١] الثاني جاني بك حبيب عام ٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥م ليعقد الصلح مع العثمانيين ، ويقدم للسلطان العثماني تقليد الخليفة العباسي ، بأن يكون بايزيد سلطانًا على بلاد الدولة العثمانية وما سيفتحه من البلاد الكفرية .

التقى القاصد بعد أن عبر الحدود الملوكية العثمانية بعلاء الدولة أمير ذو القادر . فاستوقفه الأمير المذكور ، وأرسل ما معه من رسائل وأخبار إلى الصدر الأعظم مع مصلح الدين بك لكى يعرضها على السلطان ، وحمله رسالة شخصية إلى الصدر الأعظم قال فيها :

" وعندما قدم إلينا عبدكم مصلح الدين ، جاءنا شخص
من الشام يدعى خاير بك . وجاء قاصد الخليفة العباسي
فى مصر حاملاً معه رسالة . أخذ عبدكم المشار إليه الرسائل
وحمل الأخبار وتوجه إلى خدمتكم لعرضها عليكم "[٢] .

---

(١) آخور : من الفارسية بمد الألف بمعنى المعلف أو المذود . ثم أطلقت على الأسطبل . وقد عرف صاحب هذه الوظيفة عند سلاجقة الروم ، باسمين أمير آخور وكنداصطبل .

وأمير الآخور عند المماليك هو الناظر فى أمور الاسطبلات والمناخات السلطانية ورئيس العاملين بها جميعًا ، وأهم هؤلاء العاملين هو المسئول عن الأعلاف والمسمى بالسلاخور .

وكان يعاون أمير الآخور موظف إدارى من المتعممين : أي من غير الجند ، يمسك بالسجلات ، وعدد من أمراء الآخور أدنى من أمير الآخور المبير درجة ، ولكل واحد منهم النظر فى أمر نوع من أنواع الحيوان : فأمير آخور للمهارى وأمير آخور للدشار ينظر فى أمور الإبل ، وأمير آخور للبقر كان يسمى أحيانًا بأمير آخور السواقى ، ويرأس أمير الآخور طوائف أخرى من العاملين بالاسطبلات كالبياطرة والأوجاقية « أوجاق : من التركية " أوجاق بضم الهمزة ضمة مبسوطة مفخمة ومعناه الأول فى التركية الموقد والمدخنة ، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه نار فأطلق على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ثم على الجماعة تتلاقى فى مكان واحد ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٩٤» والغلمان والسواس والسقائين . وكان للبريد أمير آخور البريد يعنى بدواب حمل البريد . (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١١) .

(٢) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

ويذكر أحمد فؤاد متولى[١] ويقول من المحتمل أن تكون الخيوط الأولى لخيانة خاير بك المشهورة فى تاريخ المماليك ، قد بدأت مذ ذلك الوقت الذى عبر فيه الحدود المملوكية العثمانية ، دون علم قايتباى ورغم وجود عداء شديد بين الدولتين ، واستمرت من بعد على شكل اتصالات مستمرة بين خاير بك وبين بايزيد الثانى وابنه سليم من بعده[٢] ونميل إلى الأخذ بهذا الاحتمال ، لأن الأحداث اللاحقة تؤيد ذلك .

ولم يذكر أحد المعارضين للفترة من مؤرخى العرب والعثمانين شيئًا عن توجه خاير بك إلى العمانيين فى هذه الفترة . وليس هناك مجال للشك فى أن هذه أول مرة يعبر فيها خاير بك الحدود المشتركة لكى يلاقى العثمانيين [٣].

لم يستجب بايزيد الثانى لنداء الصلح ، وقام بالاعتداء على حدود المماليك المجاورة ، فإن قايتباى أرسل قائده أزبك بن طخطخ نحوهم ، وأوقف تقدمهم واسترد المدن المستولى عليها ، وتكريمًا لهذا القائد ، أنشأ قايتباى مسجد عرف بمسجد الأزبكية ، حيث بقيت تسمية الأزبكية إلى وقتنا هذا ، على الرغم من زوال المسجد ، ولكن العثمانيين استمروا فى موقفهم العدائى ، وأرسلوا جيشًا كبيراً بقيادة على باشا ، الذى توغل مرة أخرى فى أطنة وطرسوس مما دعا قايتباى إلى أن يرسل أزبك من جديد ، الذى تمكن أن يهزم عليا باشا هزيمة منكرة[٤] .

ولما لم يكن قايتباى حينذاك فى وئام تام مع امرائه المماليك ، فإنه أقام السلام مع العثمانيين بقصد وقف العداء بينه وبينهم حقنًا لدماء المسلمين ، وقد استعان على ذلك بوساطة باى تونس المسمى عثمان الذى أرسل زين الدين أحد فقهائه المشهورين للتوسط بين بايزيد وقايتباى ، ومع لباقة الفقيه التونسى ، فإن الوساطة لم تنجح ، مما جعل قايتباى يتنازل للعثمانيين على أطنة وطرسوس ، وكان هذا أول وهن للمماليك أمام العثمانيين [٥].

(٢) لجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك :

فى عام ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م لجأ إلى القاهرة الأمير سليمان العثمانى واخته فاطمة شهر زادة فراراً من السلطان مراد الثانى ، فأنزلهما السلطان برسباى القصور السلطانية برسباى القصور

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .
(٢) نفسه ، ص ٣٥ .
(٣) نفسه ، ص ٣٦ .
(٤) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٠ .
(٥) نفسه ص ٣٣٠ .

السلطانية وأحسن وفادتهما ، ورفض طلب السلطان مراد الثانى إعادتهما إليه ، وذلك خشية أن يقتل الأمير سليمان خوفًا على عرشه ، على جارى عادة السلاطين العثمانيين فى قتل إخوانهم وأقاربهم ، فساءت العلاقات بين الطرفين . وقد التحق سليمان بحاشية يوسف بن برسباى ، وانضمت فاطمة إلى حريم القصر . وفى عام ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م تزوج برسباى فاطمة شهر زادة [١]. ولما فشل مراد فى استردادهما من برسباى دبر محاولة لإغراء العبد الذى هرب بهما إلى القاهرة لكى يحضرهما إلى استانبول ، ولكن المحاولة باءت بالفشل . لذلك ساءت العلاقة بين الطرفين مؤقتًا [٢] .

أما الحدث الثانى فهو الحادثة المعروفة بثورة الأمير جم وهو ابن السلطان العثمانى محمد الثانى (٨٥٥ - ٨٨٦هـ / ١٤٥١- ١٤٨١م) وقد عيِّن حاكمًا على صنجق[٣] قسطمونى (فى شمال الأناضول) ثم ذهب إلى أدرنة لحمايتها ، حين كان السلطان محمد الثانى منهمكًا فى القتال ضد أوزون حسن . وحين انقطعت لفترة ، أخبار محمد الثانى عن جم أقنعه مستشاروه فى عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م بالبيعة له مكان أبيه ، وعندما عاد محمد الثانى قتل مستشارى جم . ويدل هذا الحادث على أن جم كانت تحدثه نفسه بالسلطنة ، متجاوزًا بذلك أسبقية أخيه الأكبر بيازيد الثانى ، ويبدو وبالفعل استمر جم يعمل فى هذا الاتجاه . وقد عين فى عام ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م حاكمًا على ولاية كرمان . وكان قرمانى محمد باشا الصدر الأعظم (٨٨١ - ٨٨٦هـ/٤٧٦-١٤٨١م) مقربًا إلى جم ، فى حين أن بيازيد الثانى كان يعارض سياسة قرمانى ، وخاصة إجراءاته المالية [٤].

---

(١) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ص ٣٣٠ .

(٢) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) صنجق : من التركية سنجاق وهى العلم والقسم من ولاية كبيرة ، والحاكم على قسم من ولاية ، وقد تكون الصنجقية أيضًا مجرد رتبة ، وصنجق طبل خانة يجمع بين مصطلحين ، مصطلح عثمانى ، ومصطلح مملوكى . فبعض الأمراء فى دولة المماليك ، كانوا أمراء طبلخانة ، أى يكسبهم مقامهم أن تدق لهم الطبول وغيرها من الآلات الموسيقية ، التى تتكون منها طبلخانة السلطان ، ولم يكن عدد الصناجق دائمًا أربعة وعشرين ، وقد احتفظت حكومة الدولة لنفسها بتعيين صناجق الثغور الثلاثة المهمة الأسكندرية ودمياط والسويس وكذلك كتخداء الوزير أو الباشا .

أما التعيين للصنجقيات الباقية ، فكان يحدث فى مصر نفسها لقوة المتنافسين عليها . فكان الرجل ذو النفوذ يسعى لأن يجعل الصناجق أو مماليكه وهكذا (انظر ، محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، رسالة حسين أفندى الروزنامجى ، ص ١٤) .

(٤) يلماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

وعندما توفى السلطان محمد الثانى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، تجمع أعداء الصدر الأعظم، قرمانى محمد باشا فقتلوه ، وجعلوا بيازيد الثانى سلطانًا فى استانبول . ولكن جم توجه إلى بروسة ، وأعلنت له الخطبة فيها ، وضربت النقود بأسمه كسلطان . وقد رفض بيازيد اقتراح جم باقتسام السلطنة وهزم جم فى موقعة ينى شهر فى عام ٨٨٦هـ / ١٤٨١م ، وهرب جم إلى قونية ومنها إلى طرسوس التى كانت تحت نفوذ المماليك . والتجأ جم فى السنة نفسها إلى حلب فدمشق التى دخلها فى ٢٢ جمادى الأول عام ٨٨٦هـ / ١٩ يوليو ١٤٨١م ثم سافر فى ٣ رجب / ٢٨ أغسطس متوجهًا إلى مصر حيث رحب به السلطان المملوكى قايتباى ، وقد حج جم فى تلك السنة ليعرف المسلمين ، كما يبدو يعمل لقضيته(١) وقد أخطأ قايتباى بموافقة أمراء المماليك فى مصر فى تشجيع العنصر الضعيف وهو جم ضد بيازيد الذى نجح فى تولى السلطنة بفضل الانكشارية (٢) وكبار رجال الدولة العثمانية على أساس تقدير قايتباى أن يمد يد المعونة إلى جم فى مصلحة دولة المماليك (٣).

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٤٤٣ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ ابراهيم بك حليم ، تاريخ الدولة العثمانية المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ص ٧١ ؛ يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٨٦ .

(٢) انكشارى : تركية من الكلمتين - يكى yeni بالنون الخيوشمية جديد (٢) جرى cery بالجيم المشوبة بمعنى العسكر ، يكيجرى = العسكر الجديد ، ترد فى الجبرتى بصيغة الينكجرية .

جيش من المشاة ، أنشىء فى عهد أورخان (٧٢٦هـ/١٣٢٥م) كانت نواته من أهل الفتوة فى الأناضول ، ثم اعتمد على أبناء نصارى البلقان بعد تتريكهم وتنشئتهم على الإسلام ، كان جنوده عزابا ، ثم سمح لهم فى عهد السلطان الأول بالزواج بشرط كبر السن ، ثم أطلق حق الزواج ، جرى هذا الجيش على سنة أرباب الحرف فى اختيار شيخ patron لكل طائفة ، وكان شيخه هو الصوفى التركى الجاج بكتاش ولى .

كان لهم عدا المشاركة فى الحروب وظائف داخلية منها حراسة الديوان الهمايونى فى أثناء الاجتماعات ، والمحافظة على الأمن فى استانبول .

خسر معظم المعارك التى خاضها طوال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، واستعصى مع ذلك كل محاولات الإصلاح ، ورفض التدريب على فنون القتال الحديثة ، وقد استطاع السلطان محمود الثانى أن يدمره هو والطريقة البكتاشية (فى الواقعة الخيرية سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٨م) (انظر ، أحمد السعيد سليمان، المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

ترك الأمير جم مصر أمه ووالده ، وسار باتجاه بلاد الشام ، بعد أن ساعده السلطان قايتباى بالعتاد ضد بيازيد الثانى ، وفى ٧ ربيع الأول عام ٨٨٧ هـ / ٢٦ أبريل ١٤٨٢م خرج الأمير جم من دمشق متجهًا نحو حلب . ثم تابع سيره باتجاه الأناضول وانضم إليه أنصاره ، حيث هزم مرة أخرى ضد بيازيد فى موقعة ينى شهر فى ٢٣ جمادى الأولى / ٢ يوليو[١] ، وكان دعم السلطان قايتباى للأمير جم سببًا هامًا فى تأزم العلاقات المملوكية العثمانية ، التى انتهت بعد توتر دام ثلاث سنوات زال فى نهايتها خطر الأمير ، باصطدامات مسلحة بين الطرفين .

طلب بيازيد الثانى من أخيه جم الاستقرار فى القدس ، بعد تقديم مايحتاجه من مال ، إلا أن جم عقد اتفاقًا مع رئيس فرسان الاستبارية القديس يوحنا فى رودس ، ليساعده فى العبور إلى روميلية لمتابعة الثورة من هناك ضد بيازيد ، وقد اتصل رئيس الفرسان بالبابا إسكندر السادس طالبًا مساعدته لتأييد جم ، وذلك لإضعاف الدولة العثمانية . ولكن عقد السلطان بيازيد اتفاقًا مع رئيس الفرسان ، تنازل بيازيد بموجبه عن بعض الامتيازات لقاء احتجازهم فى رودس . وبالفعل خدع رئيس الفرسان جم بأن أعلنه بأنه سينقله بطريق فرنسا إلى هنغاريا لمتابعة الثورة منها ، ولكنه احتجزه مدة سبع سنوات بدئًا من عام ٨٧٧هـ / ١٤٨٢م . وقد توسط السلطان قايتباى وملك هنغاريا لانقاذ جم دون جدوى . ونقل جم فى عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٩م إلى روما ، وأرسل بيازيد وفداً إلى البابا لاحترام الاتفاق الذى عقده مع رئيس الفرسان . وقد حاول أيضًا ملك فرنسا نقل جم إليه ، ليساوم عليه ، ولكن جم توفى في نابلى فى عام ٩٠٠هـ / ٢٥ فبراير ١٤٩٥م[٢] ويزعم أن دس له البابا السم خوفًا من أن يهاجم بيازيد الثانى فى إيطاليا[٣] فاحضر السلطان جنازته إلى بورصة ودفن فيها .

وهكذا نرى كيف أن المساعدة التى قدمها المماليك للأمير جم قد أفسدت العلاقة بينهم وبين العثمانيين [٤]. عندئذ قرر بيازيد الثانى الانتقام من قايتباى بالتحرش ببقايا الدولة

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٤- ٣٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ إبراهيم بك حليم ، المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٣ ؛ يليماز أوزتونا ، المرجع السابق ص ١٨٦ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

التيمورية فى إيران ، التى كان قايتباى قد حالفها ، ربما استشعاراً لطموح العثمانيين حيث كانت الدولة التيمورية على عداوة لهؤلاء منذ غزو تيمورلنك (١).

وبعد موت بايزيد الثانى ، تجدد النزاع بين العثمانيين والمماليك ، وحدثت حوادث متشابهة بالتجاء أحد أمراء آل عثمان إلى مصر ، بسبب النزاع على الحكم ، فقد قام بيازيد الثانى ، قبل موته بأن وزع مملكته بين أولاده ، مما أغضب ابنه سليمًا ، فتآمر سليم ضد والده معتمداً على الانكشارية ، على الخصوص وأجبره على التنازل عن السلطنة ، ودخل استنابول ، مما جعل والده يتركها إلى الكوفة بالعراق الذى توفى فيها عام ٩١٨ هـ / ١٥١٢م . ثم حارب سليم أخاه الأكبر أحمد الذى لحق بأبيه خوفًا منه ، ولم يسمع بأحمد بعد ذلك إذ يبدو أن سليمًا قد قتل بيده معظم إخوته بما فيهم قرقورد ، وربما دس لأبيه السم ، كما يعتقد جمهور المؤرخين وهو ظن صائب بلاشك ، حتى عرف باسم ياووز Yuvuz أى الصارم أو الجبار البطاش(٢) .

ومع ذلك فقد تمكن أبناء أحمد لمقتول من الهروب ، فقد هرب مراد إلى فارس ، أما الذين هربوا إلى مصر وهم على التوالى : سليمان وعلاء الدين ، وقاسم ، وإن كان الغورى قد استقبلهم على مضض . وقد مات سليمان وعلاء الدين بالطاعون . فأرسل سليم يطلب من الغورى تسليم قاسم ، وكان أصغرهم ، لايتعدى الثلاث عشر سنة . فرفض الغورى طلبه ، بسبب أن الغورى كان يرى أن سليمًا الذى أجترأ على ارتكاب كل هذه الجرائم ، لايتورع عن التحرش به ، خاصة وأن الأمور قد تأزمت بين الدولتين ، بسبب مدن الحدود ، أما سليم فقد وجد أن الغورى يتدخل فى شئون أسرته ، وعزم على حربه حربًا شاملة(٣) .

ومع ذلك فقد تأخر حرب سليم للمماليك ، بسبب حربه فى إيران ، التى اختصت بمذهب الإمامية الشيعى ، الذى يدعو إلى سلالة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، من سلالة على بن

---

(١) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٥ - ٤٤٦ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، آخر المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، ص ١٨- ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٢٩ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣١.

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٢ .

أبى طالب ، فعرفت بالجعفرية أيضًا ، نسبة إلى جعفر الصادق وبخاصة الإثنى عشرية ، بسبب استكمال الأئمة إلى إثنى عشر حيث آخرهم هو محمد بن الحسن المعروف بصاحب السرداب ، بسبب أنه غاب فى سرداب مسجد سامراء فى أيام المعتصم العباسى وهو الذى أصبح مهديهم المنتظر[١] بالإضافة إلى ذلك أدت سوء العلاقات ، قد أضيف إليه عنصر ثالث ألا وهو الصراع فى إمارة البستان بصورة غير مباشرة إلى ازدياد تأزم العلاقات بين المماليك والعثمانيين [٢].

٣ - قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى العلاقات بين المماليك والعثمانيين :

شهدت منطقة جنوب - شرق الأناضول - منذ معركة منزيكرت فى عام ٤٦٩هـ / ١٠٧١م تجمع قبائل تركمانية تمكن بعضها أحيانًا من تشكيل إمارات فيها ، مثل إمارة البستان ، أو دعم إمارات غازية ، مثل إمارة الدانشماند . وكان هذا الوضع ، بالإضافة إلى طبيعة المنطقة الهضبية المتوسطة ، الموقع بين سهول آسية وغربى الأناضول ، وروميلية ، البعيدة نسبيًا من سيطرة مراكز المدن الكبرى ، ومشجعًا للتركمان على اللجوء إليها[٣] .

وفى منتصف القرن الرابع عشر ، شكلت القبائل التركمانية المتجمعة فى ديار بكر ، والمناطق المجاورة لها إمارتين ، عرفت إحداهما باسم آق قيونلو أى الشاه الأبيض ، التى نشأت أساسًا فى آذربيجان أو منطقة الجبال ، موطن الإيرانيين الأوائل[٤] وكانت مناطق نفوذها ديار بكر ، وعرفت الأخرى باسم القراقيونلية أو الشاه الأسود ، وكانت مناطق نفوذها شمالى بحيرة وان Van وربما كانت التسمية نسبة لتربية الشاهين أو نسبة لتوئم خاص بهذه القبائل . وكانت هاتان الإمارتان عى نزاع مع بعضهما ، وزاد فى حدة ذلك أن إمارة الشاه الأبيض ، كانت سنية ، بينما كانت إمارة الشاه الأسود شيعية[٥] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٢ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٨ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، طومان باى آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٨٧، ص ١١٣ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

كان مؤسس إمارة الشاه الأبيض قرة بولاق حسن ، وقد تغلب على أمير إمارة الشاه الأسود قرة محمد حوالى عام ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ، كما تغلب على برهان الدين حاكم سيواس العثمانى حوالى عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٧م . وبمجىء تيمورلنك فى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى ، وقف إلى جواره قرة بولاق عثمان ، واشترك معه فى معركة أنقرة عام ٨١٥ هـ / ١٤٠٢م ، فكافأه تيمورلنك بإعطائه حكم منطقة ديار بكر . ولكن قره بولاق عثمان لم يستطع بعد موت تيمورلنك ، إثبات نفوذه ، فى وجه منافسيه ، أمراء الشاه الأسود ، وظل الأمر كذلك حتى وفاته فى عام ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م ، ثم تلت ذلك فترة من الصراع بين أبناء قرة بولاق عثمان إلى أن ظهر أوزون حسن (٨٧١ - ٨٨٢هـ / ١٤٦٦ - ١٤٧٨م) ورفع من شأن إمارة الشاه الأبيض[1] .

انتصر أوزون حسن فى عام ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م على شاه جيهان ، آخر حكام الشاه الأسود ، وضم إمارته إليه ، فازدادت بذلك سلطته كثيراً وامتدت نفوذه على أرمينية الكبرى ، وشمالى العراق ، وجزء من فارس ، مما أوقعه فى نزاع مع العثمانيين ، وكان هؤلاء يحاولون آنذاك ، بعد أن توطدت فتوحاتهم فى البلقان ، الاستيلاء على مابقى من الإمارات المسلمة فى الأناضول ، مما اضطر أمراء كرمان المهددين أن يتفقوا مع جارهم فى الشرق أوزون حسن . وقد أخذ العثمانيون يخشون أوزون حسن ، لأنه كأمير تركمانى سنى باستطاعته تهديد سلطاتهم المدنية والدينية فى منطقة حدودهم الجنوبية الشرقية حيث يسكن كثير من التركمان ، كما خشوا احتمال اتفاقه مع المماليك ضدهم[2] .

حدثت عدة اصطدامات بين جيش السلطان العثمانى محمد الثانى وجيش أوزون حسن فى عامى ٨٧٧ ، ٨٧٨ هـ / ١٤٧٢ ، ١٤٧٣م ، وقد هزم العثمانيون فى موقعة قرب الفرات جيش أوزون حسن عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٣م . وكانت البنادق التى استخدمها الجيش العثمانى حاسمة فى القتال ضد فرسان أوزون حسن ، وفى هذا درس بليغ للمماليك . ولم يتابع السلطان العثمانى هجومه على إمارة أوزون حسن ، فسلمت ولكن هزيمة أوزون حسن كانت ضربة معنوية له ، جعلته يطلب النجدة من الدول الأوروبية وخاصة البندقية ، التى كانت تحاول

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

الإبقاء على نفوذها فى شرقى البحر المتوسط . ولكن السؤال لماذا يطلب النجدة من هذه الدول وليس من المماليك ؟ كان أوزون حسن بالنظر إلى موقع إمارته وإلى توسع سلطته ، يعتبر خطر بالنسبة للمماليك والعثمانيين ، على حد سواء ، وقد حاول أوزون حسن فى البدء كسب مودة المماليك ، ليتمكن من استخدام أراضيهم للوصول إلى ساحل البحر المتوسط والحصول على المعونة من الأوروبيين . ولم يكن المماليك آنذاك بحاجة إلى التحالف مع هذا الأمير الطموح لأنهم لم يكونوا واثقين من قدرته على البقاء فى الحكم ، ولأن ذلك سيدخلهم فى نزاع مع العثمانيين ، الذين كانت علاقاتهم بالمماليك طيبة آنذاك ، قبل أن تسوء بثورة جم. وفى محاولته الوصول إلى ساحل البحر المتوسط ، احتل أوزون حسن فى عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧١م ، حصن جرجر على الفرات ، جنوبى شرقى ملطية من أيدى الأمراء الأكراد ، الخاضعين للمماليك، فرد هؤلاء باحتلال مدينة البيرة منه . وقد حاول المندوب العثمانى لدى المماليك أثارتهم ضد أوزون حسن ، ولكن المماليك لم يشنوا عليه حربًا كبيرة ، ربما ليبقوه شوكة فى جنب العثمانيين[١].

نشب صراع داخلى فى أسرة أوزون حسن ، إثر هزيمة فى عام ٨٧٨هـ / أغسطس ١٤٧٣م. ولم تشجع هذه الهزيمة الدول الأوروبية وخاصة البندقية على مساعدته ، فعقدت هذه الأخيرة الصلح مع الدول العثمانية فى عام ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م ، وقد توفى أوزون حسن فى تبريز فى رمضان عام ٨٨٢ هـ / يناير ١٤٧٨م . فخلفه ابنه يعقوب الذى حكم حتى عام ٨٩٦هـ / ١٤٩٠م ، دون حدوث أزمات كبرى فى عهده . وقد حاول التقرب من المماليك ، ولم يهدد ممتلكات العثمانيين الذين شغلوا فى عهده بثورة جم ، وبالصراع مع المماليك على النفوذ فى إمارة ألبستان[٢] .

وبدأ الصراع يدب بين أبناء يعقوب ، بعد وفاته ، واستغل ذلك الصفويون الذين بدأوا بتقويض حكم إمارة الشاه الأبيض السنية ، بواسطة دعاياتهم الشيعية بين قبائل التركمان وفى عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م تغلب الشاه إسماعيل الصفوى على إمارة الشاه الأبيض فى معركة شرور ، فانتقل مركز حكم الإمارة إلى ماردين ، وساعدت فيما بعد العثمانيين ضد الصفويين ، وقتل آخر أمرائها فى حوالى ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م[٣].

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) نفسه ، ص ٥١ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

إن قيام إمارتى الشاه الأبيض والشاه الأسود فى جنوبى شرقى الأناضول يجذب إلى هذه المنطقة كثيراً من القبائل التركمانية التى قد انتقلت فى العهد السلجوقى إلى غربى الأناضول. وزاد فى اتجاه هذه القبائل من غربى الأناضول نحو الشرق استتباب الحكم العثمانى فى الغرب بالتدريج وكره القبائل ، تبعًا لذلك ، ازدياد وطأة السلطة المركزية . وهكذا إن الفترة التى شهدت انهيار سلطة الشاه الأبيض ، شهدت أيضًا تكاثر التركمان فى شرقى الأناضول . وقد التقت غالبة هذه القبائل بالإضافة إلى القبائل المنشقة من إمارة الشاه الأبيض ، حول قوة جديدة بدأت تظهر فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، فى المنطقة الممتدة بين شرقى الأناضول وشمالى فارس ، وهى قوة الصفويين التى ملأت بالتدريج الفراغ السياسى الذى بدأ يشمل هذه المنطقة(١) .

وينتسب الصفويون إلى الشيخ صفى الدين اسحق (ت ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م) الذى أسس طريقة صوفية فى أردبيل فى أذربيجان فى أواخر القرن الثالث عشر . وحين مر تيمورلنك بأردبيل ، إثر عودته من الأناضول طلب منه الشيخ على حفيد صفى الدين أن يطلق أسرى الروم (العثمانيين) ففعل وألحقهم بخدمته . كما أغدق تيمور على الصفويين الامتيازات والنعم .

وفى الفترة بين ٨٥٢ و ٨٦١ هـ / ١٤٤٨ ، ١٤٥٦ م طرد الشيخ جنيد ، حفيد على من أردبيل ، فاتصل بأوزون حسن ، وأقام عنده ثلاث سنوات (٨٦١ - ٨٦٣ هـ / ١٤٥٦ - ١٤٥٩م) وتزوج من أخته . كما أن الشيخ جنيد أقام مع السلطان العثمانى . وفى عهد الشيخ حيدر ، ابن الشيخ جنيد ، ازدادت أتباعهما وبسبب ازدياد قوتها عسكريًا ، فظلوا لما التف من حولها من تركمان ، وقد اتصل الشيخ حيدر ، كما فعل والده من قبله ، بأوزون حسن ، وتزوج ابنته ، ولكنه قتل ، كما قتل والده من قبله ، فى حربه مع حاكم شروان ، شمالى آذربيجان فى عام ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨م . وبعد أن تنبه الصفويون إلى إمكانية التوسع فى غربى أردبيل ، أي فى شرقى الأناضول وشمالى فارس ، أتاح لهم ضعف إمارة الشاه الأبيض إثر وفاة أوزون حسن الفرصة لتأسيس دولتهم فى هذه المنطقة (٢).

يعتبر الشاه إسماعيل بن حيدر ، وهو سادس شخص ينحدر من صفى الدين ، المؤسس الفعلى للدولة الصفوية . وقد توصل إلى زعامة الصفويين فى عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م متخذاً

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٢ - ٥٣ .

تبريز عاصمة لهم ، كما ضم أجزاء من الأناضول المجاورة للدولة العثمانية ، وحتى إجزاء من بقايا الدولة التيمورية ، التى قامت فى بلاد ماوراء النهر ، وهزم قبائل السنية التى استقرت مكانها . وأكثر من ذلك أن الشاه إسماعيل الصفوى ضم أجزاء كثيرة من بلاد العرب مثل بلاد الجزيرة والعراق حتى أصبح يعرف بملك العراقين[١] إثر صراع على السلطة مع أخوته وسجل فى العام التالى نصراً عسكريًا على إمارة الشاه الأبيض ، مما أخاف المماليك ، فأخذوا يستعدون لقتاله . ويذكر أن إسماعيل الصفوى قد اعتمد على سبع قبائل تركمانية أسس منها جيشًا بلغ عدد أفراده سبعة آلاف دعوا بالقزلباش[٢] . وفى عام ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢م احتل إسماعيل شروان وآذربيجان ، وقسمًا كبيراً من العراق ، واتخذ لقب شاه أى ملك وبذلك أصبح الحاكم الصفوى يتمتع بسلطة سياسية بالإضافة إلى السلطة الدينية فهو كحاكم سياسى كان يلقب شاها ، وكزعيم روحى فى النظام الصوفى الشيعى كان يلقب بالمرشد الأكبر[٣] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١١٤ .

(٢) القزلباش : اسم أطلقه العثمانيون على تسع قبائل من التركمان كانت تلبس قلانس حمراء على الرؤوس . وهى روما وشاما وواستاجلوا ويه لو وذو القادر وأفشار وقاجار وورساق وصوفية قرا باغ . والكلمة عبارة عن لفظين تركين الأول قزل) ومعناه أحمر اللون والثانى (باش) ومعناه رأس ومعنى الاصطلاح (أصحاب الرؤوس الحمراء) .

استطاع الشيخ صفى الدين الأردبيلى وأولاده من بعده - بزعامتهم لجماعة المتصونة والدراويش - جذب الكثير من المريدين ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات العثمانية من آسيا الصغرى والشام والعراق العربى بتأثير دعاياتهم القوية . وكان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيرانى فى ذلك الوقت .

وقد تحولت فرقة الدراويش التى يتزعمها الشيخ صفىّ الدين إلى مركز مذهبى لبث الدعوة الشيعية . وكان لممارسة شيوخ الأسرة الصفوية للناحيتين الدينية والعسكرية معًا الأثر الكبير فى إبراز قدرتهم ونفوذهم . وقد مهد لشيخ صفى الدين وأبناء جنيد المناخ لخليفتهم إسماعيل الصفوى الذى أعلن قيام الدولة مستفيداً من مركزه الروحى والمعنوى ومستخدمًا أفراد القزلباش الذين لايهدفون إلى شىء سوى التضحية فى سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم الكامل . ولايستطيع دارس للعصر الصفوى أن يتجاهل دور هذه القبائل فى إيجاد الكيان الصفوى .

وتطلق الوثائق العثمانية والعربية التى كتبها العثمانيون والمماليك فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) على إسماعيل الصفوى لقب الصوفى وعلى القزلباش لقب الصوفية ، وتصفهم بصفات مختلفة ، منها (الصوفية الملاحدة) (القزلباش) والطائفة المخذولة الأوباش و (الأوباش القزلباش الملاعين) و (طائفة الملاحدة الملاعين) دمرها الله . (انظر : أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ٤٣) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ٥٣ ، يليماز أوزتونا ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

قاد الشاه إسماعيل الصفوى الأول فى عام ٩١٣هـ / ١٥٠٧م حملة كبيرة ضد علاء الدولة حاكم ألبستان وتغلب عليه . وبذلك وصل الصفويون إلى جانب المماليك والعثمانيين ، ميدان الصراع على النفوذ فى منطقة ألبستان ، وحلوا فى هذا المكان مكان إمارة الشاه الأبيض . وعلى غرار أوزون حسن ، حاكم هذه الإمارة السابق ، حاول الشاه الاتصال بالفرنجة فى محاولة لإيجاد حلفاء . وقد توسعت ممتلكات الشاه إسماعيل فى عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م ، فأصبحت تمتد من هراة فى الشرق إلى بغداد وديار بكر فى الغرب ، وجعل مركز حكمه مدينة تبريز ، كما جعل المذهب الشيعى مذهب الدولة الرسمى ، وأخذ ينشره خارج حدوده ، مما آثار جيرانه السنيين . خانات بخارى والسلاطين العثمانيين . أما المماليك وهم سنيون أيضًا ، فكانوا بسبب ضعفهم ، ومنافسة العثمانيين لهم ، يحاولون التفاهم مع الصفويين[١] .

تغلب الشاه إسماعيل على شيبانى حاكم تركستان فى معركة قرب مرو فى عام ٩١٦ هـ / ١٥١٠م ، وأمن بذلك لفترة ، حدود فى الشرق ، ولكن نزاعه مع العثمانيين لم يكن يمثل تلك السهولة فالصفويين كقوة ناشئة ، كانوا يعتبرون بالنسبة للعثمانيين ، خطراً جديداً بتهديدهم وزاد فى الأمر أن الصفويين ، كشيعة متحمسين أثاروا نقمة العثمانيين[٢] . فقد كان يسكن مقاطعات الأناضول الشرقية ، الواقعة ضمن الدولة العثمانية كثير من القبائل تتجاوب مع دعوة الشاه الشيعية ، لأنها اعتبرته تركمانيًا مثلها ، وقامت فى عام ٩١٦هـ / ١٥١٠ - ١٥١١م حركة بين تركمان الأناضول بقيادة رجل يدعى شيطان قولى (وتعنى عبد الشيطان ، وربما سمى بذلك من قبل أعدائه لشره) الذى أعلن ولاءه للشاه إسماعيل ، والتفت من حوله جموع من التركمان ، مما اضطر العثمانيين إلى إرسال قوة قضت على حركته . وكانت هذه الحركة إنذاراً للعثمانيين بالخطر الذى يمثله الشاه إسماعيل بالنسبة لسكان الإمبراطورية العثمانية بالذات[٣].

أدت العوامل السابقة إلى تأزم العلاقات بين الصفويين والعثمانيين ، وزاد فى ذلك وصول السلطان سليم الأول العثمانى إلى الحكم فى عام ٩١٨هـ / ١٥١٢م . فقد تعرَّض السلطان سليم فى أول عهده إلى ثورة عليه من قبل إخوته الطامعين فى الحكم ، والتجأ ابن أخيه أحمد

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) مرعى بن يوسف الحنبلى ، نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ، ص ٥٤.

(٣) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٤٦ .

الثائر إلى الشاه إسماعيل الذى استغل وجوده لتأليب المعارضة على السلطان سليم . وبعد أن وطد سليم سلطته فى الحكم عام ٩١٩ هـ / ١٥١٣م التفت إلى مقارعة الشاه إسماعيل الذى بدأ بدوره يستعد للدفاع . وكان السلطان سليم قد عقد ، أو ربما اتفاق مع الدول الأوروبية ، لإقامة السلم على حدوده في الغرب ، وذلك ليتفرغ لقتال الصفويين ، ونتج عن استعدادات العثمانيين والصفويين أن اشتبكت جيوشهما فى القتال فى موقعة جالديران قرب تبريز فى عام ٩٢٠هـ / ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤م وانتصرت قوات السلطان سليم على قوات الشاه إسماعيل . وقد أظهرت هذه الموقعة فعالية بنادق الرصاص والمدفعية التى استخدمها الانكشارية المشاة العثمانيون ، على نطاق واسع ضد قوى الصفويين المؤلفة بغالبيتها من التركمان الفرسان ، وتمكن العثمانيون من احتلال تبريز ، عاصمة الصفويين ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء نهائيًا علي الصفويين أو على الشاه إسماعيل لأسباب كثيرة ، أهمها طبيعة بلاد فارس الجبلية ، وصعوبة المواصلات فيها ، وتمرد الانكشارية فى جيش السلطان سليم ، وكثرة الغلاء والقحط فى المنطقة بسبب سياسة الأرض المحروقة التى اتبعها الشاه إسماعيل بعد انسحابه ، إذ أتلف كل مايمكن أن يفيد منه العدو[١] وأيضًا بسبب ماذكر من تعرض المماليك لقوافل المؤن العثمانية[٢] وقد احتل العثمانيون نتيجة معركة جالديران ، منطقة الموصل ، ولكن منطقتى بغداد والبصرة بقيتا فى هذه الأثناء فى أيدى الصفويين إلى أن ضمها السلطان سليمان القانونى فى الربع الثانى من القرن السادس عشر ، وقد حاول الشاه إسماعيل أثر هزيمته فى جالديران التحالف مع الدول الأوروبية ضد العثمانيين ، ولكن بعد المسافة ، وعدم وجود حدود مشتركة لم تجعل ذلك ممكنًا[٣] .

أظهرت هزيمة جالديران ، بالنسبة للصفويين ، ضعف الأسس التى كان يقوم عليها جيشهم. فالشاه إسماعيل الصفوى كان يعتبر فى النظام الصوفى المرشد الكامل ، والمظهر الحى المتوارث للإله ، ودعى أتباعه من القزلباش المريدين . ولكن انكسار الشاه إسماعيل فى جالديران ، وهو أول انكسار له حطم أسطورة عدم غلبته . ورغم أن القزلباش ظلوا يعترفون ظاهريًا بهذه الأسطورة إلا أنهم لم يعودوا يقدمون عمليًا طاعة عمياء للحاكم . وبتحطم

---

(١) مرعى الحنبلى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٥ - ٥٦ .

الرابطة الدينية بين إسماعيل وأتباعه ، تشجع هؤلاء على التمرد عليه . واحتاج الشاه بعد ذلك إلى مقدرة كبيرة لإخضاع جنوده لأوامره ، وعوضًا عن أن يأمر فيطاع ، أصبح يبتهل إلى مشاعر أتباعه وولائهم بمخاطبتهم بتعبير شاهى سيفان أى الذين يحبون الشاه . وأخذ ولاء القزلباش يتحول من الشاه نحو القبيلة وزعيمها . وينعكس أثر هذا التبديل فى الولاء وفى العلاقة بين الصوفيين ومرشدهم ، فى انحطاط تعبير (صوفى) إذا ماقورن بتعبير (قزلباش) فتعبير صوفى فقد كثيراً من قيمته على مر الزمن ، حتى أنه أطلق في عام ١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م على الكناسين خارج القصر الملكى[١] .

وبعد أن ضعف ولاء القبائل التركمانية ، نحو الشاه أخذ يحاول توطيد سلطته فى وجه معارضتهم . وبدأت عملية التوطيد هذه بعد وفاة الشاه إسماعيل فى عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م، فى عهد ابنه طهماسب الذى طرد أفراد القبائل المتمردة من الجيش . وبلغت هذه العملية أوجها فى عهد الشاه إسماعيل عباس الأول (٩٩٦ - ١٠٣٩هـ / ١٥٨٧ - ١٦٢٩م) الذى أنقص عدد جنود القبائل ، وأوجد إلى جانبهم جنوداً من نوع آخر مزودين بالأسلحة النارية ويدينون بالولاء للحكومة المركزية مثل الجنود الإنكشارية فى الدولة العثمانية . وكان يؤتى بالقسم الأكبر من هؤلاء الجنود الجدد من جورجيا والقفقاس ويدربون فى مدارس خاصة . واستعادت بذلك الدولة الصفوية كثيراً من هيبتها العسكرية ، وتوالت اصطداماتها مع الدولة العثمانية[٢].

ثانيًا : الفتح العثمانى للشام ومصر :

وكان موقف المماليك من هذا الصراع بين العثمانيين والصفويين ، موقف المترقب الذى ينتظر دوره ، إذ تيقن المماليك من طموح العثمانيين إلى الفتح فى الشرق الإسلامى أيضًا ، ولو لجأوا إلى محاربة المسلمين ، مثلما يحاربون الفرنجة ، خصوصًا وأن سليمًا كان قد أرسل إلى السلطان قانصوه الغورى يتهدده أن تدخل فى النزاع بينه وبين الشاه إسماعيل الصفوى[٣].

---

(١) مرعى الحنبلى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٦ .

وعلى كل حال أدرك الغورى أن قصد سليم من تحركه إلى الشرق لم يكن محاربة الصفويين، بقدر محاربته هو ، بدليل أن السلطان سليم لم يسر فى هزيمة الصفويين للنهاية ، وربما أيضًا بسبب أن بلاد الصفوى واسعة وجبلية أو حتى خوفًا من أن يهاجمه المماليك فى الوقت نفسه[١] ومع ذلك كان سليم فى وقت محاربته للصفوى يتحرش بالغورى ، بحجة أنه ينحاز إلى جانب الشيعة ضده[٢] واعتبر ذلك تحديًا له . وفى الوقت نفسه الذى أرسل فيه سليم إلى الغورى رسالة يصفه فيه بالوالد[٣] وذلك على حسب التقليد الذى جرى عليه سلاطين العثمانيين فى مكاتباتهم لسلاطين مصر ، ويطلب فيها سكراً وحلوى[٤] حيث أسرع الغورى بإرسال مائة قنطار[٥] منها فى علب كبار ، فإنه أخذ يهاجم الإمارات التركمانية الحليفة للغورى على الحدود ، التى تقع بين العثمانيين والصفويين والمماليك ، وتعتبر لهؤلاء منافذ للتجارة القادمة من الشرق[٦] وبعد انتصار سليم على الصفويين قضى على إمارة ذى القادر[٧] التى تقع فى وديان طوروس ، حليفة الغورى ، كما استولى على بعض مدن الحدود المصرية مثل مرعش التى كان نائب الغورى عليها ، وهو علاء الدين الذى ساعد الشاه إسماعيل من قبل ضد سليم ، وأصبحت حدود سليم ملاصقة لحدود مصر[٨] .

ويبدو أن إرادة قتال العثمانيين المماليك أصبحت أمراً مسلمًا به لديهم ، بسبب أن المماليك كانوا يسيطرون على الحرمين الشريفين ، وأن العقلية الإسلامية وقتذاك لاتقبل أن يكون صاحب سيادة وشرعية على المسلمين ، إلا من كان يسيطر على الحرمين الشريفين . ولما كان

---

(١) كارل بروكلمان ، المرجع السابق ، ص ٤٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٧ ؛ إبراهيم بك حليم ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٣) محمد بن إياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٤٣٤ .

(٤) نفسه ، جـ ٤ ، ص ٤٣٥ .

(٥) قنطار : وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعًا للزمان ، كذلك المكان الذى يستخدم فيه عملية الوزن ، وفى أواخر العصر المملوكى كان يتراوح وزن القنطار مابين ٤٥ ، ٩٦ كيلو جرام ، وفى سنة ١٦٦٥م وصل وزنه إلى ١٢٠ كليوجرام . (انظر : سميرة فهمى ، إمارة الحج فى مصر العثمانية ، ص ١٢٠).

(٦) إبراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ١٧٧ .

(٧) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ٣٤٢- ٣٤٥ .

٨ - عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٨ .

العثمانيون يريدون أن تكون لهم زعامة المسلمين دون المماليك : فإنهم لم يتهيأ لهم هذه الزعامة إلا بالاستيلاء على أملاك المماليك فى الحرمين الشريفين ، ومن قبل فإن سليمًا قد أرسل إلى شريف مكة بركات هدايا منها مفتاح وطبلة للكعبة ، وذلك دون استئذان الغورى الذى غضب على شريف مكة(١) .

ويؤيد الطموح العثمانى تلك الأقوال التي نقلت عن سليم ومن حوله(٢) قبل فتح مصر ، فقد وجه الصدر الأعظم العثمانى ، هرسك زاده أحمد باشا ، أخبره بقوة المماليك عندما أسر . وحذره من ذلك كذلك ورد على لسان آخر فى حاشية سليم قوله " ... إن ولاية الحرمين وقيام الخلافة ، سيؤولان إلى أسرة العثمانيين ، وحتى شيخ الإسلام زنبللى على أفندى(٣) قد إفتى بشرعية التحرك إلى مصر وشن حرب عليها ، فقال " الحرب ولقتال مع أهلها غزو وجهاد ... والمقتول على أيديهم شهيد ومجاهد "(٤) .

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٢٤- ١٢٥ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٣٩ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٣) أفندى : من الكلمة اليونانية (أفنديس) المأخوذة من الكلمة اليونانية Avbents دخلت اللغة العثمانية الأناضولية فى وقت مبكر . واستعملها العثمانيون فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فى الحديث عن ملكة خاتون بنت جلال الدين الرومى بقول الأفلاكى (أفندك يرمك قبرى) أى بنت أفندينا أى سيدنا ، وكثر استعمالها بعد ذلك فى العهد العثمانى ، وقد استعملها محمد الفاتح فى فرمانه الموجه لأهل غلطة ، حيث قال جمله بمعنى أنا السيد العظيم ، واستعملها العثمانيون لقبًا للرجل الذى يقرأ ويكتب ولقبًا لبعض كبار الموظفين ، فقد كان يقال لرئيس الكتاب «رئيس أفندى » ولقاضى استانبول « استانبول أفنديسى » أى أفندى استانبول . وكانت لقبًا للأمراء أولاد السلاطين ، وأطلقت على مشايخ الإسلام ، وكثيراً ماتقول (العلا أبو السعود أفندى ، وكان العثمانيون يطلقونها على روساء الديانات الأخرى ، وكان الجيش العثمانى يلقب الضباط بلقب أفندى حتى رتبة البكباشى ، فأما الملازمون واليوزباشية (والآلية العلالية) أى المتخرجون فى الالاى ، وهم الذين يقال لهم فى مصر من تحت السلاح ، فقد كانوا لأميتهم يلقبون أغا لا بلقب أفندى وكانت المرأة تلقب بلقب أفندى . فيقال (خانم أفندى) وكان يقال لزوجة السلطان (قادين أفندى) وربما الحقت كلمة أفندى بكلمة بك . وكانت كلمة أفندى تطلق فى العربية على الكاتب الموظف فى الدولة ، وكان الروزنامجى فى مصر هو رئيس الأفندية (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ص ٢٠) .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٤٤ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

غادر قانصوه الغورى مصر ، باتجاه الشام ، فى ١٥ ربيع الثانى عام ٩٢٢هـ / ١٨ مايو ١٥١٦م على رأس جيش كبير ضم حوالى خمسة آلاف من القرانصة[١] والأجلاب وأولاد الناس ، عدا عن السيفية ، وعين طومان باى نائبًا عنه[٢] واصطحب معه الخليفة العباسى المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله الذى كان مقيمًا فى مصر يتحكم به سلاطينها ويستخدمون نفوذه الدينى لأغراضهم ، وأهل العلم جميعًا فى مصر وقضاة القضاة والمتصوفة وغيرهم [٣] وكان هدف الغورى استعادة مرعش من العثمانيين وتخليص ألبستان من نفوذهم [٤]ودخل الغورى دمشق فى ١٨ جمادي الأول عام ٩٢٢ هـ / ١٩ يونيو ١٥١٦م. واستقبل فى دمشق استقبالاً رسميًا حافلاً ، برز فيه كبار الإداريين المماليك والقضاء والعلماء الفرنجة المستأمنون فى دمشق . ونثر صدقة اليهودى الدراهم[٥] على الأهالى بهذه المناسبة للتعبير عن ولائهم ولكسب رضى السلطان ، وربما لاستثارة الشعب للترحيب به وفى يوم

---

(١) القرانصة : هم مماليك السلاطين السابقين فهم مماليك تابعين لسلطان حاكم ، وكانوا قبلاً أجلاب السلاطين السابقين وسموا قرانص أو قرانصة وتألف هؤلاء من طوائف مختلفة ، وكانت كل منها تتبع سلطانًا. ونظرًا لكثرة عدد السلاطين بسبب قصر مدد حكمهم ، خاصة فى عهد المماليك الجراكسة ، ازداد عدد هذه الوظائف ، وازدادت بالتالى المنافسة بينهم . وكان هذا عامل إضعاف لهم أجلاب السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة واستغل السلطان الحاكم المؤلفين من طبقة متراصة متجانسة . واستغل الحاكم كثرة طوائف القرانصة لضرب طائفة بالأخرى . والرابطة الوحيدة التى كانت تجمع بين القرانصة هى كرههم للأجلاب الذين هم عادة أصغر منهم سنًا وأقل خبرة ويحاولون مع ذلك أن يطغوا بنفوذهم عليهم (انظر ، عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٦) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٤ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٣٩ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ص ٤٧ .

(٥) الدرهم : وحدة من وحدات السكة الإسلامية الفضية ، وهو مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ، وقد استعاره العرب فى المعاملات من الفرس إذ كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامى تتعامل بالدرهم الفضية عند الفتح العربى لها . ويزن الدرهم ١٥ قيراطًا . والقيراط أربع حبات والحبة واحدة . الحب وتعنى بذور الشعير ، ويبلغ وزن الشرعة سبعة أعشار الدينار أى ٢,٩٧ جرامًا . ولازالت بعض البلاد العربية تستعمل الدراهم كعملة أساسية إلى اليوم ، وإن كانت غير فضية . (انظر ، سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص ٨٢) .

الأربعاء ٢٤ جمادى الأولى ٩٢٢ هـ / ٢٥ يوليو ١٥١٦م غادر الغورى دمشق متجهًا نحو حلب ، وانضم إليه فى القطفة نائب حلب خاير بك ، ونائب حماة جان بردى الغزالى [١].

ولم يستمع الغورى لنصيحة نائبه فى الشام سيباى[٢] الذى كان يتمتع باحترام وتقدير أهل الشام ، بأن لايأتى لمحاربة سليم بنفسه ، وإنما يمده بالعسكر[٣] واستحلفه ألا يحارب فى هذا العام لوجود قحط فى البلاد[٤] وعلى العكس فإن الغورى كان يتخوف من سيباى ، ويظن بأنه يسعى أن يحل محله ، ويسأل رجال الطالع ، فيقولون له أن من يتولى السلطنة من بعده يبدأ اسمه بحرف سين[٥] فيظن له أن هو سيباى فى الشام ، وربما قد أتى هذا الخوف من سيباى ، من أن نواب الشام كثيراً ماكانوا يثورون ضد سلاطينهم وأحيانًا يتولون السلطنة من دونهم[٦] .

كذلك كان المماليك الذين اصطحبوه إلى الشام فى نزاع فيما بينهم مماليك الجلبان[٧] أى الذين اشتراهم السلطان لنفسه ، وجلبهم من خارج مصر وبلغ عددهم فى عهد السلطان الغورى ١٣ ألفًا[٨] أصبحوا يعادون مماليك السلاطين السابقين قبله ، والذين عرفوا بالمماليك السلطانية أو القرانص أو القرانصة أو القرانيص ، ولعل أساس النزاع بن الفريقين قد أتى من تقريب الغورى لمماليكه الجلبان على حساب الآخرين[٩] فكان يترتب على تنازعهم حدوث فوضى وفتن فى البلاد ، حتى قيل أنه قبل سيره إلى الشام ، وكان قد قتل أحد جلبانه ، فاتهم به القرانصة[١٠] وربما كان تحت تحريض الجلبان من مماليكه ، فإنه ترك كثيراً من القرانصة فى مصر [١١] .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .
(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٠.
(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٥٢ .
(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ - ٢٥ .
(٥) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .
(٦) نفسه ، ص ٣٥١ .
(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .
(٨) نفسه ، ص ٣٥١ .
(٩) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٦ .
(١٠) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص ٣٤١ .
(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٣ .

ومما يؤكد أن الغورى قد أخذ حرب سليم بخفة ، من أن خروجه إلى الشام سمى فقط تجريدة[١] وليس حملة وأنه خرج فى موكب تتقدمه الأفيال تفوح منها رائحة البخور ، وحتى صحبته المغانى[٢] كما أخذ معه آلات السلاح الفاخر ، المستعملة فى المواكب الرسمية من ذخائر السلاطين السابقين ، مثل السيوف والسروج المذهبة والمزينة بالجواهر ، وحملت على خمسين جملاً[٣] .

وظن الغورى أن مجرد ظهوره على الحدود الشمالية من سلطنة سيخيف سليم فيتنازل له عما يريد . وكان الغورى فى الوقت ذاته يفاوض الشاه إسماعيل الصفوى ليتحالف معه ضد العثمانيين . ولكن وقوع مراسلات الغورى مع الشاه إسماعيل فى أيدى العثمانيين ، جعل سليمًا يتعجل الأمر للقضاء على جيش المماليك . ولهذا استولى سليم عنتاب واستعد للمسير نحو حلب للقاء الغورى ، فقد قصد فعلاً من مجيئه إلى بلاد الشام مجرد إخافة العثمانيين ودفعهم للتنازل له عما يطلب ، فيكون ، إزاء ماحدث قد أساء التقدير ، لأنه بعمله هذا استثار العثمانيين ودفعهم إلى القتال [٤].

وقد أسرع الغورى فور وصوله إلى حلب بإرساله الأمير مغلباى إلى سليم ، ومعه نص الصلح ، كما أن خطبة إمام جامع حلب كانت كلها عن الصلح ، وحتى الأمراء المماليك ينتظرون الجواب بالصلح ، ويحنون العودة إلى الوطن[٥] إلا أن سليمًا رفض الصلح وقبض على رسول الغورى[٦] ووضعه فى الحديد ، وحلق لحيته[٧] وربما أرسل إليه الغورى آخرين ، فقطع سليم رؤوسهم[٨] ، مما جعل الغورى يدفع بطوالع جنده إلى مرج دابق[٩] من مدن الحدود ،

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٥٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٢ .

(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٥٣ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص ٣٤٣ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

(٨) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٩) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٣ .

قرب حلب ، وقال إنها إرادة الله . وخوفًا من غدر أمرائه فإنه جمعهم وجعلهم يقسمون على المصحف الشريف أن لايخونوه ولايغدروا ، فأقسم كلهم على ذلك ، أما غير الأمراء من الجند، فإنهم مروا تحت سيفين على هيئة قنطرة ، عنوان القسم على الولاء [١].

ولقد قسم الغورى عسكره ، بإزاء عسكر سليم ، فوضع فى المقدمة سيباى نائب الشام ، وميمنة على رأسها جان بردى الغزالى نائب حماة ، وميسرة على رأسها خاير بك نائب حلب ، أما هو فقد أقام لنفسه في الوسط سرادقًا كبيراً ، وقد أحاط به الخليفة وقضاة القضاة ، وأعلام رجال الصوفية ، وقاسم بك ابن أخ سليم وغيرهم ، وحولهم أربعون مصحفًا منها مصحف الصحابى الخليفة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، الذى قتل وهو يقرأ القرآن . وقد طلب الغورى من القراء قراءة الختمة[٢] وقرأها معهم ، كما أكثر من الصلاة ، وعلى الرغم من أن سيباى قد شك أن خاير بك يتراسل مع سليم وأراد قتله ، إلا أن الغورى لم يستمع له ، خوفًا من أن يقتتل المماليك فيما بينهم[٣] .

واصطدم الجيشان المملوكى والعثمانى فى ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ / ٢٤ أغسطس ١٥١٦م، فى موضع يعرف بتل الفار فى مرج دابق ، وإن أحاطت بها الخيانة منذ بدايتها . فقد سرت إشاعة مغرضة بأن الغورى يريد أن يتخلص من القرانصة ، وأنه طلب من الجلبان وهم مماليكه ألا يقاتلوا ، مما جعل لقرانصة الذين كانوا فى المقدمة يتوقفون عن القتال[٤] ، مما ترتب عليه الهزيمة الكاملة وفرار المماليك بجميع فئاتهم ، وكان خاير بك أول من هرب من الأمراء[٥] وتبعه جان بردى الغزالى فلعلهما كانا متفقين في الباطن مع سليم[٦] حيث كان كلاهما يرى فى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغورى ، ومع ذلك لم يكن تصرفهما جديداً على الأمراء

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٦٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٣.

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٤ .

(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٦٤ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٥) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٩ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٦) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

المماليك الذين تعودوا على خيانة سلطانهم[١] هذا كان الحال بالنسبة للمماليك أما الجيش العثماني بالمقابل ، يتمتع بكثير من التنظيم إذ أن الفساد لم يدب بعد بشكل كبير في صفوف الأنكشارية ، فكانوا عنصراً فعالاً في القتال ، وأحسنوا استخدام الأسلحة النارية . وكانت الدولة العثمانية في أوج قوتها تخرج من نصر إلى آخر . وكان انتصار قواتها قبل فترة وجيزة وفي منطقة قريبة في جالديران عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م ثبطًا لهمة المماليك بقدر ماكان مشجعًا للعثمانيين على القتال [٢].

وقد حاول الغوري أن يوقف فرار المماليك - خاصة من الجلبان - حيث أصبح في نفر قليل، وكان ينادي بصوته[٣] هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة ، إلا أن المماليك استمروا يفرون ، حينئذ طوى حامل راية السلطان الصنجق السلطاني رايته ، وحدث شلل مفاجيء للسلطان وفاضت روحه ، بعد أن انقلب عن فرسه ، وأن يبدو أن رأسه قد قطعت ، حتى لايتعرف عليه العثمانيون فلم تظهر له جثة بين القتلى[٤] وكأن الأرض ابتلعتها في الحال إذ كانت جثث كثيرة ملقاه بلا رؤوس ، فقد قتل كثير من أمراء الشام ومصر فوق الأربعين منهم سيباى نائب الشام [٥].

حينئذ أستولى سليم على خيام الغوري ، وأستولى على ما فيها من أسلحة ، وخاصة سيفه، ومال وتحف واحتوى على خيام الأمراء ، بحيث لم يقع لأحد من سلاطين العثمانيين مثل ذلك ، كما أنه أخذ الخليفة وعدداً كبيراً من الأسرى[٦] .

عاد الغزالي إلى دمشق يوم الثلاثاء في ٥ شعبان عام ٩٢٢هـ/٣سبتمبر ١٥١٦م ، ونادي به الأمراء المماليك نائبًا عليها ، أما السلطان سليم فتابع سيره إلى حلب ، يرافقه خاير بك ،

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ٣٤٤ .

(٢) محمد بن أياس الحنفي ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧٠ - ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٤) نفسه ، ص ٢٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٩ .

(٦) محمد بن أياس الحنفي ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ص٣٤٥ .

فخلع زى المماليك ، ويرغبهم فى الدخول تحت طاعة سليم ، ويعدهم بأن يبقى كل أمير فى منطقته ويحفظ له رزقه[١] بحيث سماه سليم " خاين بك " بدلاً من خاير بك وبذلك أشبه الوزير ابن العلقمى ، الذى خان خليفته المستعصم آخر خلفاء العباسيين فى العراق وملك بغداد[٢]. والخليفة العباسى ودخلها بقبول أهلها الذين طردوا عساكر المماليك الهاربين حين حاولوا اللجوء إليها ، وذلك بسبب ماقاسوا منهم قبل المعركة ، وخطب للسلطان سليم فى جوامع حلب فى يوم الجمعة ٨ شعبان ، ولقب بخادم الحرمين الشريفين ، وقد أستولى على أموال المماليك فيها ، وأحسن إلى العلماء . وبعد أن عين حاكمًا عثمانيًا عليها ، توجه للاستيلاء على دمشق[٣] .

وعين الغزالى الذى ظل يؤيد فى الظاهرة ، السلطنة المملوكية حكامًا من قبله على حماة وحمص ، وتحالف مع ناصر الدين بن الحنش ، الأمير البدوى المسيطر عى البقاع ، وعينه حسب طلبه نائبًا على حمص ، لقاء تعهده بمقاومة العثمانيين وحماية المنطقة الممتدة بين حماة والبقاع . كما عين صهر ابن الحنش ، ابن جانباى البدوى الملقب بأمير الشام ، على بلاد حوران والمرج . إلا أن أخبار تقدم السلطان العثمانى جعلت حاكمى حماة وحمص يفران إلى دمشق . وأخذ المماليك ومن بينهم الغزالى يخرجون منها باتجاه مصر . وتسلم نائب القلعة المملوكى المحافظة على الأمن فى دمشق . وقد استغل الذعر فى المدينة اضطراب الوضع السياسى ، وقاموا بهجمات المماليك وحصل نزاع بين أهل المزة وداريا الذين استفادوا من الفوضى لتصفية خلافات قديمة[٤].

أرسل السلطان سليم الرسل إلى دمشق يطلب تسليمها ، فاجتمع العلماء ومشايخ الحارات، وقرروا تسليم البلد . ولكن نائب القلعة المملوكى عارض ذلك واعتصم بالقلعة . وكان هدف العلماء ومشايخ الحارات الذين ألقيت عليهم القبض المسؤولية، حماية البلد من النهب، وخاصة وأن حكم المماليك وتعدى الجند على الأهالى،لم يكن فيه ما يجعلهم يدافعون

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٧١ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٤) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

عنه ، بعد أن فشل المماليك عسكريًا . وساعد على ذلك أن عرب الشام لما تحققوا من موت السلطان الغورى ، وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشام ، واضطربت أحواله[١] وحتى دمشق التى قد بدأت المقاومة على يد ابن الحنش[٢] أمير العربان إلا أن أحوال دمشق كانت قد فسدت بعد مقتل سيباى نائب الشام ، بحيث نهبت أسواقها واضطر أهلها إلى الخروج منها ، فقتل العثمانيون لما دخلوها عدداً كبيراً من أمرائها المماليك ، ومن كانوا قد لجأوا إليها غير الرعية[٣] . وفى يوم الجمعة ٢٩ شعبان / ٢٧ سبتمبر دخل فريق من العثمانيين إلى دمشق ضم المتسلم ، وخاير بك . وقدم بعد ذلك الوالى العثمانى يونس باشا المعين لدمشق . وقد وفق خاير بك بين الوالى ونائبه فى القلعة ، ريثما يصل السلطان العثمانى . وخطب فى ذلك اليوم فى الجامع الأموى اسم السلطان سليم وأخذ الجنود العثمانيون يتوافدون على دمشق . كما وصل إليها ، القاضى الحنفى زين العابدين بن الغزى الرومى فتعاطى الحسبة[٤] فيها ، وعين من قبله قضاة من المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية، وأدخل بعض التنظيمات القضائية[٥].

وصل السلطان سليم فى رمضان عام ٩٢٢ هـ / ٢٩ سبتمبر ١٥١٦م إلى برزة فى ظاهرة دمشق ، فقدم له قضاة المذاهب الأربعة والسيد كمال الدين بن حمزة ومعه جماعة من الأشراف[٦] خضوعهم ، وكذلك فعل نائب القلعة المملوكى . وكان مع السلطان سليم الخليفة

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٦٠ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٧٤ .

(٤)أمين الاحتساب : وصحته أمين الحسبة ، وهو الشخص المسئول عن الإشراف على طوائف الحرف القائمة على صنع المأكولات ، للتأكد من صحتها وخلوها من الغش ، ومراقبة الأوزان والمقاييس والمكاييل ومعرفة الأسعار ، ومعاقبة كل مخالف لها ، والتشهير به . (انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٠) .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ١٠٢ .

(٦) الأشراف : كلمة أشراف تعنى أولئك الذين هم من نسل سيدنا محمد (ﷺ) ، سواء إن كان ذلك عن طريق إنحدارهم من الأب أو الأم ، ولم يكن هؤلاد بالضرورة رجال دين ، وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح ، وقد تمتع الأشراف باحترام خاص بين جموع الناس ، وشكلوا جماعة منفصلة ، وكان يطلق على =

العباسي ، وقد هرع ناصر الدين بن الحنش أمير البقاع فقدم الطاعة للسلطان سليم فمنحه صنجقًا وبعض الإقطاعات والتزام ابن الحنش بأن يقدم البدو ولاءهم للسلطان العثماني[١] .

وأدخل الإداريون العثمانيون في دمشق تنظيمات جديدة فيما يختص بالقضاء والعلماء والشئون المالية . وطلب القاضي الحنفي العثماني من أرباب الوظائف الدينية إحضار مستنداتهم للموافقة عليهما من قبله ومن قبل قاضي العسكر [٢]العثماني ، وكانوا يدفعون رسمًا لقاء ذلك . وبدأ الدفتردار[٣] العثماني بتسجيل الدخل والمنصرف ، وطلب إحضار المربعات والمناشير التي منحت بموجبها الإقطاعات ، في السابق ، لينظر فيها ، كما أجرى إحصاء للسكان ، والممتلكات في دمشق . حدث كل هذا والسلطان مقيم في برزة ، وقد كان أثناء ذلك في إحدى حمامات دمشق ، كما صلى في الجامع الأموي . وكانت قوته العسكرية

= رئيس هذه الجماعة ، اسم نقيب الأشراف أو النقيب ، وتختاره الدولة من أبرز هؤلاء الأشراف ، وكانت وظيفته محترمة ، وكان لنقيب الأشراف في استانبول سلطة على نقباء الأشراف في الولايات وهو الذي كان يعينهم ، وكان له سلطة قضائية عليهم . (انظر : عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٨م ، ص ٣٢٤) .

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) قاضي العسكر : أنشأت الدولة العثمانية على رأس النظام القضائي قاضي القضاة أو رئيس القضاة. وكان يطلق على شاغل هذا المنصب اسم قاضي عسكر . وكان مقره العاصمة . ويشرف على أعمال القضاة في سائر أنحاء الدولة . ويقوم بترشيح من يقع اختياره عليهم لشغل وظائف القضاة على اختلاف فئاتهم ، ويراقب أعمالهم ، ويعد حركات تنقلاتهم ، وتعرض عليه التقارير والمذكرات التي يبعث بها إليه قضاة الأقاليم . وكانت تقوم بجانب قاضي عسكر أجهزة فنية وإدارية يعمل فيها موظفون بمثابة مساعدين له، وأطلقت عليهم شتى المصطلحات ، نذكر منها على سبيل المثال ، المطبعجي ، والتطبيقجي والمكتوبجي وكان يحتفظ بعضهم بسجلات تحوى أسماء القضاة وفئاتهم ، وكان يختص بعضهم بإعداد كشوف مرتبات القضاة ، ومن إليهم ، بينما كان يحتفظ فريق آخر بصور من أختام القضاة للتحقيق من صحة الأختام على المذكرات والتقارير التي ترفع إلى قضاى العسكر (انظر : عبد العزيز الشناوي ، المرجع السابق جـ ١ ، ص ٤٢٤) .

٣ – دفتردار : دخلت كلمة دفتردار في الفارسية بلفظها وبمعنى جماعة الصحف ، وأما (دار) ففارسية بحت ، ومعناها الصاحب أو القيم ، فالدفتردار لغويًا هو صاحب الدفتر . وكان الدفتردار بمثابة وزير للمالية . وينص قانون محمد الفاتح على أن فتح الخزينة الخاصة بالمال وخزانة الدفاتر وإغلاقها إذا لزم الأمر بحضر من الدفتردار (انظر : أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ٩٨ – ٩٩ ؛ وانظر أيضًا : محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ١٦) .

وخاصة الأسلحة النارية التى جربها فى تظاهره قوة ، وهو فى برزة ، فظنت أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض مرهبة للأهالى ، فلم يشوروا على الإجراءات التى قام بها موظفوه. ولكن حصل تعد من قبل الجنود العثمانيين على الأهالى فى دمشق إذ استخدموا منازلهم للسكن ، ولم يوقروا حتى العلماء مما أثار النقمة فى النفوس [١].

ويبدو أن هدف السلطان سليم من إقامته فى برزة مراقبة الوضع فى دمشق ، وتهيئة الجو لدخوله ورؤية رد فعل الدمشقيين تجاه الإجراءات وجد السلطان سليم الجو مناسبًا ليدخل دمشق كمنقذ لأهلها ، فدخلها فى ١٣ رمضان / ١٠ أكتوبر ووزع المال على العلماء ، وعزل يونس باشا من نيابة دمشق فى محاولة منه[٢] ، كما يبدو لإرضاء الدمشقيين ، وعين مكانه شهاب الدين أحمد بن يخشى . كما أنه عين لنيابة القلعة أميراً عثمانيًا . وعزم سليم على هدم البيوت والمحلات المبنية حول القلعة وسور المدينة ، ليعزز تحصيناته العسكرية ، كما فعل فى حلب . ويدل وجود البيوت والمحلات فى هذه الأماكن الاستراتيجية على الإهمال العسكرى زمن المماليك ، ويفسر ذلك بعدم تعرض المماليك إلى غزو خارجى منذ غزو تيمورلنك فى مطلع القرن الخامس عشر [٣]. وقد حاول سليم التعويض على أصحاب الأماكن إلا أن كثرة التعويضات على هذه الأماكن المقدرة جعلته يعدل عن خطة الهدم . ويظهر أيضًا أنه كان يحرص فى هذه المرحلة على كسب رضى الأهالى ، ويؤيد ذلك طرده للدفتردار العثمانى الذى تشكى عليه أهل القرى بسبب متطلباته المالية . وفى محاولة من سليم لزيد تقربه إلى السكان، وليكسب عطف العلماء والرأى العام الإسلامى ، وليظهر أنه جدير بلقب خادم الحرمين الشريفين فقد زين ثوب المحمل ، الذى يرافق الحاج إلى الحجاز ، وعين جنداً كثيراً إلى غزة والقدس والمناطق المجاورة للمحافظة على سلامة الحاج ، ويبدو أن إرسال هؤلاء الجند كان يقصد منه أيضًا رؤية رد الفعل لدى مماليك مصر فيما لو توسع جنوبًا وهاجم مصر [٤].

ويبدو أن سليمًا لم يكن فى هذه الأثناء ، مهتمًا جداً بفتح مصر . لقد حطم إمكانية التحالف بين الصفويين والمماليك ، وفتح بلاد الشام ، وفى هذا فوائد عسكرية ودينية كبيرة .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٣ .

ثم أن حملته على مصر ستعرضه لمخاطر اجتياز منطقة سيناء ، بما فى ذلك خطر هجوم البدو عليه ، وامتداد خطوط مواصلاته[١] وأن سهولة فتح بلاد الشام يجب ألا تؤخذ مقياسًا فى فتح مصر . والمماليك فى بلاد الشام كانوا قلة ، إذا ما قورنوا بأعدادهم فى مصر . كما أن كراهية الشعب فى بلاد الشام للمماليك ونقمته عى ظلمهم وتعسفهم ، وخاصة منهم الأجلاب، بسبب اعتدادهم برعاية السلاطين المباشرة لهم ، سهلت الفتح العثمانى الذى لم يلق مقاومة شعبية . ومع ذلك فإن الفتح العثمانى والحق يقال ، لم يلق ترحيبًا حاراً ، لأن السكان المحليين إنما كانوا يستبدلون حاكمًا (تركى اللغة بحاكم آخر تركى اللغة) وكان سليم يتوقع أن تكون المقاومة المملوكية أثر عنفًا فى مصر ، نظراً لتمركز المماليك فيها ، واعتبارهم مصر آخر معقل لهم . ويضاف إلى هذه الاعتبارات أن توغل العثمانيين فى مصر من شأنه أن يشجع الصفويين على استجماع قوتهم ، وإعادة تهديد المناطق العثمانية ، وهذا ماتم بالفعل ، بعد قليل ، إذ هرع سليم ، إثر فتحه لمصر لرد خطر هجمات الصفويين على بلاده . كما أن فتح العثمانيين لمصر سيترتب عليه التزامات دفاعية جديدة ، ويجعلهم وجهًا لوجه أمام الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر . ولهذه الأسباب مجتمعة فاوض السلطان سليم وهو فى دمشق ، طومان باى سلطان المماليك الجديد على الخضوع له ، والبقاء حاكمًا فى مصر من قبله ، شريطة أن تضرب السكة فى مصر باسم السلطان العثمانى ، وتكون الخطبة باسمه أيضًا[٢] .

١ - الموقف فى مصر :

فى ذلك الوقت نجد أن أهل القاهرة لما علموا بموت السلطان قانصوه الغورى فى حربه مع العثمانيين ، اختاروا نائب الغيبة طومان باى على أساس أن محمداً ابن الغورى كان صغير السن ، ولأن الغورى نفسه كان قد أوصى جميع أمرائه أنه إذا ما أصابه شىء أن يسلطنوا عليهم طومان باى[٣] إلا أن طومان باى امتنع فى أول الأمر غاية الامتناع ، بسبب قلة المال ، والخوف من عدم التفاف المماليك حوله ، وإمكانية الغدر به ، واستمر تمنعه مدة خمسين يومًا ،

---

١) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣١ - ٣٤ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى، الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٢٢ - ١٢٥ ؛ أحمد بن زنبل الرمال، المرجع السابق ، ص ٢٦ - ٢٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ٨٥ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط رجال الدين ، في مصر وبخاصة عالم وشيخ كبير منهم ، اسمه أبو السعود الجراحي [١]. فكانت مبايعة طومان باى بالسلطنة فى مصر فى يوم ١٤ رمضان ٩٢٢هـ / ١١ أكتوبر ١٥١٦م ، ولقب بالملك الصالح ، فكان رجال الدين يأتون بالأمراء المماليك ، ويجبرونهم على وضع أيديهم على المصحف الشريف ويحلفون عليه ، أنهم إذا سلطنوه ألا يتآمروا ولايغدروا ولايثيروا شغبًا ، وأنهم ينهون عن مظالم المسلمين قاطبة . ولا شك ماقام به زعماء المصريين فى هذا الصدد كان مبدأ خطيراً فى تقاليد مصر الإسلامية[٢] وفى اليوم التالى عيَّن طومان باى جان بردى الغزالى نائبًا من قبله . وكانت الخطبة فى مصر أعلنت فى الفترة بين وصول أنباء موت السلطان الغورى وسلطنة طومان باى ، باسم الخليفة فقط . وكان الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله محتجزاً آنذاك ، لدى سليم، ويرافقه فى تنقلاته ، بينما كان والد الخليفة يعقوب وشقيقه هارون موجودين فى مصر، وكان المماليك يلجأون إليهما لاسباغ الشرعية على أعمالهم ، ولإثارة الرأى العام الدينى على العثمانيين ، كما حدث فى مبايعة يعقوب للسلطان طومان باى بطريقة الوكالة عن الخليفة محمد المتوكل على الله[٣] .

رفض طومان باى تحت إلحاح أمراء المماليك ، عرض التبعية للسلطان سليم ، وقتل المماليك رسل العثمانيين الذين حملوا العرض إلى مصر . وليس هذا الرفض بالأمر الغريب نظراً لتألم المماليك من انكساراتهم ، ولأن قبولهم العرض العثمانى يعنى مساهمتهم فى القضاء على سلطنتهم . ولكن الغريب حقًا استمرار اعتداد المماليك بفروسيتهم رغم ماقاسوا فى سبيلها من انكسارات وعدم اعترافهم بفاعلية رصاص العثمانيين ، وبالتالى عدم استخدامهم له بصورة فعالة فى صفوفهم ، وإزاء هذا الرفض وبإلحاح من خاير بك على السلطان سليم بالتوجه إلى مصر طمعًا بحكمها من قبل العثمانيين وخوفًا على حياته إذا لم يقض على السلطنة المملوكية ، بعد الاستيلاء على مناطق غزة والقدس وانعدام المقاومة الشعبية له ، (أرسلت قلعة صفد مفاتيحها للسلطان سليم وهو فى دمشق) ، غزو مصر

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٨٦ .

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٤٥ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

وبالفعل فإن وجود قوة معادية للسلطان سليم فى مصر من شأنه أن يهدد حكمه فى بلاد الشام[١].

ومع ذلك ، فقد حدثت معركة حقيقية فى غزة ، بحيث اعتبر أنه لم تحدث معركة فى الشام، بعد مرج دابق ، إلا فيها وخاصة وأن نائب الغورى فيها ، كان قد طلب من طومان باى أن يمده بالعسكر[٢] وبالفعل شرع طومان باى فى إعداد الجند وجمع منهم عشرة آلاف[٣] فأرسل إليه بعض المماليك الذين كانوا فى الطباق - وهى المدارس الحربية المملوكية - ولم يكونوا قد اشتركوا فى القتال بعد[٤] ، كما أرسل إليها بعض الذين هربوا من الأمراء ومماليكهم من مدن الشام الأخرى ، وإن كانت سمة هؤلاء التباطىء والتراخى والتقاعس الزايد بسبب أن طومان باى لم يجد المال الكافى لينفق عليهم[٥] ، وأظهر بعضهم الجبن وأراد أن يهرب من القاهرة[٦] بحيث اضطر طومان باى أن يظهر أنه يذهب بنفسه لقتال سليم[٧] ويستحثهم طلب منهم القتال عن أعراضهم وأموالهم . كذلك أرسل بعض رماة البنادق من أهل مصر وسودانها[٨] - العبيد - بقيادة الأمير جان بردى الغزالى ، أما العثمانيون بقيادة الوزير سنان باشا[٩] فى ١٦ ذى القعدة / ١١ ديسمبر وذلك عند خان يونس ، وأسر جان بردى الغزالى ، وكاد العثمانيون يجزون رأسه لولا غلمانه الذى خلصوه . وقد انتقم العثمانيون من أهل غزة بسبب أنهم ساعدوا المماليك ، فقتلوا منهم ألف إنسان من الرجال والنساء والأطفال[١٠] ، أما المماليك الذين نجوا من هذه المعركة - وهم قلة - فإنهم عادوا إلى وهم فى أسوأ حال ، بعضهم جاءها راكبًا الحمير ، وقد فقد سلاحه ، وملابسه ، أو حتى حافيًا [١١].

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .
(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٧٥ .
(٣) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٧٩ .
(٤) نفسه ، جـ٥ ، ص ٨٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .
(٥) محمد بن أياس الحنفى ، جـ ٥ ، ص ٨١ - ٨٤ .
(٦) نفسه ، جـ٥ ، ص ٨١ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٤٩ .
(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨١ .
(٨) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٢ .
(٩) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٢ .
(١٠) نفسه ، جـ ٥ ، ص ٨٩ .
(١١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ،ص٩١؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٤٩ .

وزاد من مشاكل القاهرة ، أنه بعد هزيمة غزة بالذات هاجر إلى القاهرة أهالى الشرقية وبلبيس خوفًا من النهب والقتل إذا ما تحرك العثمانيون نحو مصر ، فكانت هجرتهم من الكوارث ، إذ تبع ذلك أن قلت الأقوات وأرتفعت أسعارها ، وقل الدقيق والخبز ، وتعطلت الطواحين مما جعل طومان باى يغير المحتسب [١].

وقد ساعد بدو سيناء العثمانيين فى معركة خان يونس ، وأرهب هذا الانتصار بدو بنى بقر المسيطرين على إقليم الشرقية فى مصر ، فقدم شيخهم أحمد بن بقر وأولاده عبد الدايم وبيبرس ولاءهم للسلطان سليم الذى أبقاهم وغيرهم من مشايخ البدو المؤيدين له على مناطقهم وامتيازاتهم [٢]وكان ولاء البدو عاملاً هامًا ، فى نجاح العثمانيين لأنه لو لم يكن الأمر كذلك لكان بإمكانهم إشغال قسم كبير من الجيش العثمانى فى قتالهم ، فى منطقة هم أدرى بجغرافيتها ، عدا عن تهددهم لقوافل المؤن . ولم تخرج قافلة الحاج المصرى ، فى هذه الأثناء إلى الحجاز ، للاضطرابات فى مصر ، وكان أثر ذلك شديداً لدى الرأى العام الإسلامى[٣] .

وكان من رأى طومان باى أن يهاجم سليمًا فى وسط الطريق ، ولايتركه حتى يأتى إلى القاهرة ، على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها ، من الممكن أن تنهك جيشه[٤] ولكن تحت إلحاح أمراء المماليك ، فإنه اضطر أن يطرح استراتيجية للمعركة كما كان يريدها ، جانبًا وأجبر على انتظار مجيء العثمانيين . ولذلك لم يجد هؤلاء أى مقاومة فى زحفهم على مصر، إلا من بعض العربان الذين كانوا يميلون بطبعهم إلى النهب والسلب ، فكانوا يقطعون بعض رؤوس العثمانيين ويرسلونها إلى القاهرة ، لقبض الثمن[٥] ومع ذلك فإن طومان باى قد أمر بحرق بعض الشون التى تقع خارج القاهرة[٦] حتى لاتقع فى أيدى العثمانيين[٧] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٤٨ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١١٨ – ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٧ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ١٢٨ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٣٩ – ١٤٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥١ .

(٥) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤١ .

(٦) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٤٢ .

(٧) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٢.

وعلى كل ، استعد طومان باى لمقابلة العثمانيين بجوار القاهرة - فى المطرية - فى مكان اسمه الريدانية واستعد ، وأمر طومان باى الأمير ماماى الصغير المحتسب بضرورة التنبيه على أرباب البضائع والزياتين أن يتوجهوا بمنتجاتهم إلى الريدانية ، وأصدر أوامره إلى جيشه بأن كل من يحاول الهروب سيكون مصيره الإعدام[١] .

إلا أن المتاعب مالبثت أن ظهرت من المماليك أنفسهم ، على الرغم من أن طومان باى ، كان قد أصدر أمره للذين جمعوا فى الريدانية من بقايا المهزومين فى غزة أو المقيمين منهم فى القاهرة أو غيرها ، حتى تجمع لديهم أكثر مما تجمع للغورى من قبل[٢] ، بأن يكونوا فى الميدان بكامل اللباس من آلة السلاح ، إلا أن أغلبهم رفضوا المبيت فى المعسكر ، فكانوا يرجعون إلى بيوتهم فى المساء[٣] .

وحتى الأسلحة النارية المملوكية ، التى كانت من المنتظر أن تلعب دوراً حاسمًا فى المعركة، لم تقم فيها بأى دور بسبب أن المدافع كانت قليلة ، لم تتعد المائة ، بينما كانت العثمانية زحفت بستمائة مدفع[٤] منها المائة والخمسون مدفعًا كبيراً . وبينما كانت هذه سهلة الحركة ، تتحرك على عربات فى أي اتجاه ، فإن المدفعية المملوكية وضعت على قواعد ثابتة وأصبحت غير قابلة للحركة - وزاد الطين بلة - أنها طمرت فى الرمال عمداً ، زيادة فى إخفائها وهى معمرة[٥] حيث قيل أن الذى أمر بوضعها هكذا هو الأمير جان بردى الغزالى[٦] الذى هزم فى موقعة غزة ، وخان قانصوه الغورى ، وتنبه طومان باى لذلك ، فأراد قتله لولا أن الأمراء منعوه[٧] لوصول العثمانية إلى الريدانية فى يوم الخميس ٢٨ ذى الحجة عام ٩٢٣ هـ /

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٣ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

(٢)- محمد بن زياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٤ .

(٣) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٧ .

(٥) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٣.

(٦) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٧) نفسه ، ص ٥٢

٢٢ من يناير ١٥١٧م وتدفقت القوات العثمانية بأعداد هائلة بلغت ٢٠٠ ألف أو أكثر بقصد الالتفاف حول المدافع المملوكية ، بالتواجد وراء فوهاتها ، ولم توجد فرصة لهذه المدافع لمواجهة العثمانيين فلم تنطلق إلا واحدة[١] ، مما أرعب العثمانيين ، الذين مالبثوا أن أدركوا عجز مدافع المماليك ، مما جعلهم ينهبون بارودها[٢] .

حينئذ لم ينتظر طومان باى وتوجه إلى معسكر سليم الذى أقيم فى أول الريدانية ، فوقعت وقعة مهولة[٣] وصفها المؤرخون العثمانيون فى دائرة مخابرات - وهى دفاتر المخابر العثمانية بأنها أعظم من الواقعة فى مرج دابق ، كما وصف البعض[٤] القتال فيها بأنه كان قتال الأبطال إذا اقتحمه طومان باى ومن معه بشجاعة نادرة ، وقتل من العثمانيين أعداداً هائلة ، بمن فيهم سنان باشا نفسه ، الصدر الأعظم ، الذى بارزه طومان باى وقتله بيده بأن رفعه إلى أعلى رأسه ثم ألقاه على الأرض بعنف فطبق أضلاعه بين جنبيه ، ثم جز رأسه ، ربما ظنًا منه أنه هو السلطان سليم نفسه ، وإن كان سليم لم يكن موجوداً وقتذاك [٥].

وقد حزن سليم على وزيره الكبير حزنًا كبيراً ، واعتبر فقده خسارة كبرى ، وفكر فى الانتقام ، وقال استولينا على مصر ، ولكن فقدنا سنان باشا ، خسارتنا فيه لايمكن أن تعدلها دولة [٦] ، فكانت الجند العثمانية تنتهك حرمة المساجد بدخول الخيل فيها[٧] وطلعت المآذن وصاروا يطلقون البنادق ، فكان معظم القتلى المماليك من رصاص البنادق[٨] وقد قدر عددهم بعشرة آلاف ، وبقى طومان باى فى قليل المماليك والرماة العبيد - السودان - الذين دافعوا عنه ببنادقهم ، فلما تكاثرت العسكر العثمانلية عليه انسحب إلى طرا المجاورة من كثرة البنادق [٩].

---

(١) أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٣ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٥) نفسه ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ .

(٦) أحمد بن زنبل ، المرجع السابق ، ص ٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٤ ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح العثمانية فى الدولة العثمانية ، ص ٨٠ - ٩٩ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٧٢ .

(٧) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٥ .

(٨) نفسه ، ص ٣٥٦ .

(٩) محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ٩٩ .

وبمجرد دخول طلائع العثمانيين القاهرة ، شرعوا فى تعقب المماليك فى كل مكان وحتى فى البيوت والمقابر ، فمن كان يقبض عليه ، تضرب عنقه فوراً ، وساعدهم فى ذلك العربان ، بحيث أنه قتل منهم فى يوم واحد ثلثمائة وثلاثون رأساً[١] مما جعل المماليك يتخفون فى زى الفلاحين[٢] أو يلبسون ملابس حرافيش القاهرة وهم صعاليكها أو فقراؤها . كذلك عمد العثمانيون إلى قتل الأهالى بوحشية لانظير لها خاصة وأن سليمًا وهو فى الشام كان قد هدد إذا ما دخل القاهرة - مصر - أن يحرق بيوتها قاطبة واللعب فى أهلها بالسيف[٣] فكانوا يقتلون الأهالى ويربطونهم من رقابهم بالحبال ، لافرق بين أعيانهم وخدامهم[٤] ومع أنه أعلن الأمان للناس ، إلا أن سليمًا كما يلاحظ ابن أياس لم يكن له أمان[٥] ، وفى الوقت ذاته ساد النهب فى القاهرة ، بحجة البحث عن المماليك ، بحيث صار الجند العثمانيون ينهبون مايلوح لهم ، فلم يتركوا خيلاً ولا بغالاً ولا أقمشة ولا قليلاً ولا كثيراً[٦] .وقد دخل سليم نفسه القاهرة فى ٣ محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٦ يناير ١٥١٧م[٧] وكان قد سبقه إليها الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله ، برفقة العثمانيين ، ونادى بالأمان وهدفه من ذلك أسباغ الشرعية على الحكم العثمانى وتهيئة الجو لدخول سليم إلى القاهرة[٨] وقد أثار دخول العثمانيين فزعًا كبيراً بين أهل مصر وشبه دخولهم القاهرة بدخول هولاكو بغداد ، وأن ماجرى فى مصر بسبب ذلك ، لم يحدث مثله منذ أن دخلها البابليون فى الزمن القديم [٩].

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٤٨ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٧ .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٤٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص٣٥٦ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

(٥) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ .

(٦) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٦ .

(٧) نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٨) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٥ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٩) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

ولكن مايحس سليم وهو فى القاهرة ، ولم تمض خمسة أيام على انتصار العثمانيين عليه، إلا طومان باى يطوقها معتمداً فى هذه الحرب على مؤازرة المصريين من أحياء القاهرة وخاصة من حى بولاق ، ومن رماة البندق من العبيد ، ولعل هذه أول مرة يشترك فيها المصريون فى مقاومة العثمانيين إذ أنهم بحسهم الوطنى قدروا أبعاد الكارثة التى وصلت بهم نتيجة لمجىء العثمانيين لمصر ، فلم يكن من الممكن أن يقفوا سلبين على طول الخط من هذا النضال بين المماليك والعثمانيين ، وخاصة أن أهل القاهرة كان لهم دور إيجابى فى اختيار طومان باى سلطانًا عليهم [١].

ففى ليلة الأربعاء الخامس من محرم عام ٩٢٣ هـ / ٢٩ من يناير ١٥١٧م ، تمكن طومان باى من تسريب أتباعه فى حاراتها حتى وصلوا إلى معسكر سليم ، حينئذ أطلق فيه جمالا محملة بمادة مشتعلة ، مما جعل معسكر سليم يشتعل بالنار ، وظن سليم أنه مأخوذ لامحالة ، فاستمرت مقاومة المماليك ومعهم المصريون أربعة أيام وليالى إلى يوم السبت ظهراً فيها على العثمانيين . وبسبب انتصار طومان باى فإنه خطب له فى الجمعة ، مع أنه فى الجمعة الماضية كان قد دعى لسليم [٢].

ويبدو أن حرب الحارات التى أكره عليها العثمانيون لم تعد تلائمهم ، مما جعلهم يلجأون إلى تكتيكهم السابق فى الحرب بالبارود وحده ، الذين يعتمدون عليه فى حرب ناجبة لتفوقهم فطلعت الانكشارية من رماة البندق إلى المآذن والأهالى على وقف المقاومة ، وخاصة وأنهم قد تعبوا من القتال المستمر طيلة هذه الأيام ، دون راحة فانسحب الجميع بما فيهم المماليك ، بحيث لم يبق إلا طومان باى وحوله رماة البندق من المصريين ، وبعض خاصة مماليكه - مماليك سلطانية - واضطر طومان باى هو الآخر أن ينسحب إلى خارج القاهرة [٣] .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى ، ص ٣٥٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٧ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٦ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى، ص٣٥٨ .

وقد انتقم العثمانيون من المصريين بحرق بيوتهم ، وقتلوا منهم فوق عشرة آلاف[١] أو ستين ألفًا[٢] تركوا جثثهم فى الطرقات تنهشها الكلاب ، حتى كاد أن يفنى أهل القاهرة . نتيجة لذلك . كذلك قتل العثمانيون كل من وقع فى أيديهم من المماليك ، الذين تخفوا فى بيوتهم أو فى أماكن أخرى ، بلغ عددهم نحو ثمانمائة[٣] من الأمراء والمماليك العادين ، بما فيهم كرتباس والى مصر - الفسطاط - الذى هتف وهو يموت بحياة طومان باى فى نصرة الله[٤] .

ولقد اعتبرت هذه المحاولة الفاشلة من قبل طومان باى الكسرة الرابعة للمماليك على أيدى العثمانيين ، بعد مرج دابق ، وغزة ، والريدانية ، مما يبين انتصار العثمانيين فيها ، بالفعل إنه بعد أن إستتبت الأمور للعثمانيين فى القاهرة طلع سليم القلعة لأول مرة فى موكب حافل ، ارتجت له القاهرة وذلك يوم الثلاثاء ١١ محرم ٩٢٣ هـ / ٣ فبراير ١٥١٧م[٥] .

ومما تجدر ملاحظته تضارب الأنباء فى الشام حول تقدم الجيش العثمانى وانعكاس ذلك على الأحداث المحلية . فقد راجت إشاعات تقول بهزيمة العثمانيين ، وحدثت اضطرابات نتيجة لذلك ، ففى صفد ثارت فتنة ضد العثمانيين وفى دمشق تحرك بعض الذعر فى ٢٢ محرم ٩٢٣ هـ / ١٤ فبراير ١٥١٧م ، ضد أعوان العوانية من المماليك ، وضد العثمانيين فلجأ هؤلاء إلى القلعة وفي ٢٧ محرم / ١٩ فبراير استعراض وإلى دمشق ، ونائب القلعة والقاضى الرومى القوات العثمانية تحت القلعة وفى الميدان لطمأنة الأهالى[٦] .

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٦ ؛ محمد بن أبى السرور البكرى ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ أحمد فؤاد متولى ، المرجع السابق ١٨٩ ؛ عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٤ .

(٣) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٥٦ ؛ محمد البكرى ، تحفة الظرفاء فى ذكر الملوك والخلفاء ، ص ١١٢ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٦) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

وردت إلى دمشق فى ٣ صفر عام ٩٢٣ هـ / ٢٥ فبراير ١٥١٧م أنباء عن انتصار العثمانيين فى الريدانية ، وفى ٦ صفر وردت إليها بلاغات عثمانية حول انتصار العثمانيين هذا واستيلائهم على القاهرة . وتذكر البلاغات قتل العثمانيين لكثير من العوام فى القاهرة بسبب مساعدتهم للمماليك . وتشيد أيضًا بمساعدة خاير بك للسلطان سليم فى الالتفاف حول خطوط دفاع المماليك ودحرهم ، وفى هذا تذكير لعوام دمشق بوجوب الخضوع للعثمانيين ، وتشجيع الموالين على غرار خاير بك ، وقد زينت دمشق لهذه الأنباء ، وأخذ العثمانيون ، إثر ذلك يوطدون نفوذهم فيها ، فبدأ بإبطال العملة القديمة ، وإصدار عملة عثمانية جديدة ، كما حضر الوالى العثماني زعماء الحارات ، وجعلهم مسؤولين عن سلوك العوام فى حاراتهم[١].

٢ - لجوء طومان باى إلى الصعيد والوجه البحرى :

وقد لجأ طومان باى هذه المرة إلى الصعيد فى البهنسا[٢] فأقام فيها فيها متخذاً من النيل كخط دفاعى له ، بأمل أن يعاود الهجوم فى الوقت المناسب . وفى الوقت نفسه لجأ سليم إلى الحيلة مع طومان باى فأرسل له أمانًا مع القاضى عبد السلام البكرى مع مندوب الخليفة[٣] يعينه فيه على بلاده مدى الحياة ويرضى أن تكون له الخطبة والسكة ، وحمل الخراج إليه ، إلا أن المماليك المتطرفين قتلوا الوفد ، ويبدو أن العثمانيين الذين استولوا على القاهرة ، وأثبتوا مقدرتهم العسكرية كانوا يحاولون كسب الوقت للإيقاع بطومان باى الذى سيبقى شوكة فى جنبهم إذا لم يقض عليه ، وربما كانوا مضطرين لتسوية الأمور بسرعة فى مصر ، نظراً لورود أنباء عن تحرك الشاه إسماعيل الصفوى فى منطقة آمد والرها وطرده الحكام العثمانيين منها[٤].

---

(١) عبد الكريم رافق ، ص ١٠٨ .

(٢) البهنسا : يعتبر هذا الإقليم من الأقسام الإدارية القديمة العهد ، وسمى فى عهد الفراعنة باسم وابو ، وقاعدته مدينة برمزيت (البهنسا) وسمى باسم أوكسير نشيث فى عهد البطالسة والرومان ، وسمى باسم كور البهنسا فى عهد العرب ، وسمى بعمل البهنسا فى عهد المماليك الجراكسة وباسم ولاية البهنسا فى عهد الدولة العثمانية . (انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، جـ ٣ ، ص ٦) .

(٣) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٥٩ ؛ عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

(٤) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ جلال يحيى ، مصر الحديثة ، الإسكندرية بدون تاريخ ، ص ١٠٨ - ١٠٠ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

وفى تلك الأثناء ، كان طومان باى قد قوى بكثرة من أتاه من العسكر ، حيث جند أهل الصعيد والأسكندرية والعربان وزحف بهم من جديد إلى الجيزة[(١)] وفى محاولة لكسب المؤيدين له ، أعلن طومان باى إلغاء ضريبة الخراج لمدة ثلاث سنوات ، فهرع لتأييده كثير من الفلاحين[(٢)] وخرج إليه سليم بنفسه ، وفى صحبته ابن الغورى سيدى محمد ليناوىء به طومان باى[(٣)] بمدفعيته التى وضعها على شواطىء النيل . ومع عدم تكافؤ قوة الأخير مع سليم إلا أنه قرر أن يخوض المعركة ، فكانت بالنسبة له ، ولزملائه أمراء المماليك ملحمة من ملاحم الفروسية النادرة . وقد رمى سليم فى هذه المعركة رماة البندق والمدافع[(٤)] بحيث زلزلت الصحارى من حولها ، وكانت نتيجة المعركة أن قتل معظم من كان مع طومان باى من الأمراء والجند[(٥)] . ولكن الخيانة أخذت تدب فى صفوف طومان باى ، فهرب الغزالى ، ومن معه من أمراء المماليك وانضم إلى العثمانيين بعد أن انكشف تواطؤه معهم ، وكان يطمع بمنصب كبير. وانضم أيضًا إلى العثمانيين جانم السيفى كاشف[(٦)] الفيوم بعد أن وعده سليم الفيوم إقطاعًا

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٢ ؛ عبد المنعم ماجد ، التاريخ ، ص ٣٥٩ ، أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٤) محمد ابن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٦) الكاشف : وهى كلمة مأخوذة من الفعل كشف فى العربية ، لأن فى وظيفة الكاشف أن يكتشفوا أحوال المديريات ، وهذا اللقب لم يكن معروفًا فى الإمبراطورية العثمانية ، وكان الكشاف أقل مرتبة من السنجق ، وكانت الكشوفية (الكاشفية) عبارة عن وحدة إدارية مالية ، على رأسها أحد البكوات المماليك برتبة كاشف له حق الإشراف على مجموعة من المقاطعات التى تقم داخل حدود الكاشفية ، ولم تثبت حدود الكاشفيات على وضع ثابت فكثيراً ماتحولت بعض الولايات إلى كاشفيات ، مثل المنصورة وأسيوط والجيزة والفيوم ، وأحيانًا كان يفصل جزء من ولاية ليكون وحدة إدارية قائمة بذاتها ، مثل فارسكور التى فصلت عن ولاية الجيزة فى عام ٩٧٧ هـ / ١٥٧٠م بقصد إخراجها من حوزة القبائل العربية المسيطر عليها . (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٧ - ١٣ ، القاهرة ١٩٧٨) وكانت مهمتهم تنحصر فى الإشراف على جسور النيل وصيانتها ، والإشراف على جميع الضرائب والأموال فى كشوفاتهم ، وإرسالها إلى الخزانة العامة بالقاهرة ، والإشراف على الأمن وحماية القرى من البدو . (انظر ، جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ - ١٦٦) .

وعينه مستشاراً له ، وانفض عرب هوارة [١] الأشداء بالصعيد عن التأييد بعد أن أدركوا أن قضية طومان باى أصبحت خاسرة ، وأن العثمانيين يفتكون بالأعداء بالأسلحة النارية . وقد استخدم العثمانيون الأمراء المنضمين إليهم فى قتال المماليك ، وكان هذا إضعافًا لجبهة طومان باى مع العثمانيين[٢] وقد حفظ السلطان سليم هذا الجميل لهم وثبتهم فى حكم الصعيد[٣] وإذا كان عربان هوارة قد رفضوا الحرب بجانب طومان باى ، فقد رفض عربان المغاربة[٤] الاشتراك أيضًا معه لكونه مسلمًا يحارب مسلمًا[٥] .

---

(١) عرب هوارة : وهى قبيلة مغربية ، استقرت فى إقليم البحيرة ، ولكنها اضطرت تحت ضغط قبائل زنارة وحلفائهم من عربان البحيرة إلى الهجرة جنوبًا ، وزاد نفوذهم عام ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م فى عهد حكم الأمير برقوق (٧٨٤ - ٨٠٢هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٩م) ، وقد قاموا بإصلاح الكثير الكثير من الأراضى التى طغت عليها الصحراء ، ونجح الهوارة دون سائر القبائل الأخرى التى هاجرت من المغرب فى توطيد أقدامهم بوادى النيل وزاد عددهم وقوى بأسهم وانتشروا فى معظم الصعيد . (انظر ، نسيم مقار ، أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٦ ، ص ١٩٢) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد ، شيخ العرب همام وحكم جرجا ، ص ٥٣ - ٥٤ ، القاهرة ١٩٨٤م.

(٤) المغاربة : جاءت بعض القبائل المغربية ، سواء أكانت من أصول بربرية أم من أصول عربية إلى مصر، فى فترات مختلفة ، سابقة للعصر العثمانى ، وقد استمر مجىء القبائل المغربية فى العصر العثمانى كذلك . وأتيحت لهذه القبائل المغربية فرصة الاستقرار فى الريف المصرى لمن أراد من هذه القبائل ، بينما آثر بعض هذه القبائل حياة التجوال والترحال ، بين أرجاء هذا الريف وعلى أطرافه من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، من أقصى غربه إلى أقصى شرقه ، وقد قدر للقبائل العربية التى استقرت فى بعض المناطق الريفية الزراعية أن يصبح لها وضعها على خريطة الريف المصرى ، بينما ظلت القبائل المتجولة غير مرتبطة بمنطقة معينة لأنها لاتجد بغيتها فى هذا النمط من الحياة (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى ، تونس ١٩٨٢م ، ص ٣١) .

(٥) محمد بن أبى السرور البكرى ، اللطائف الربانية على المنح الرحمانية ، ص ٩٩ .

بعد فشل هذه المعركة الخاسرة الحاسمة انسحب طومان باى إلى سخا[١] حيث كان ينتشر فيها عرب قبيلة غزالة ، ولكن بسبب عداء عربانها له ، تركها بسبب أنهم كانوا قد انضموا إلى سليم فى قتاله واتجه إلى إقليم البحيرة [٢] أو لأنه كانت له علاقة ودية مع عربانها من قبيلة محارب وهم غير قبيلة غزالة وكانوا يسمون أولاد مرعى حيث كان طومان باى أطلق شيخها حسن بن مرعى من حبس الغورى لما تولى السلطنة [٣].

وبالفعل فإن حسن بن مرعى ، وأخاه شكر ، قد أحسن استقبال طومان باى ومن معه ، حتى أن حسن بن مرعى قبّل يدى طومان باى ، وأقسم له بإيمان الطاعة هو وعشيرته . وقد أراد حسن بن مرعى أن ينزل طومان باى فى منزله مبالغة فى الضيافة ، إلا أن طومان باى فضل أن يلجأ ومن معه إلى أحد الأودية المجاورة فى قرية تروجة[٤] ولكن سليمًا عن طريق

---

(١) سخا : هى من القرى القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه باسمها المصرى Khast و Khasouout و Skhaouout واسمها الرومى Xois والقبطى Skhouy وهى سخا قاعدة القسم السادس بالوجه البحرى قديمًا ، وذكر لها أميلينو فى جغرافيته اسمًا قبطيًا آخر وهو Sekhôou .

وهى من أعمال الغربية (انظر : محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، الجزء الثانى ، ص ١٤١) .

(٢) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٦٨ .

والبحيرة هى الأقسام الإدارية التى استحدثت فى عهد العرب باسم كورة البحيرة ، وفى أيام الدولة الفاطمية أضيفت إليها كور أخرى مجاورة لها فصارت إقليمًا كبيرًا باسم البحيرة ، وفى عام ٧١٥ هـ / ١٣١٥م أطلق عليها أعمال البحيرة ، وفى سنة ٩٣٤ هـ / ١٥٢٧م ولاية البحيرة ، وفى سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م مديرية البحيرة ، ثم فى عام ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م محافظة البحيرة . وكانت أيام العثمانيين من الولايات الخمس الكبرى . (انظر : أحمد جلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق محمد فؤاد الماوى ، عام ١٩٧٨م ، ص ٧٥٦) .

(٣) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٢ .

(٤) تروجة : هى من البلاد المصرية القديمة وردت معجم البلدان بأنها قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية أكثر مايزرع بها الكمون ، قال وقيل اسمها تروجة ووردت فى التحفة تروجة من أعمال البحيرة .

وقد اندثرت هذه القرية ومكانها اليوم تروجة الواقع بحوض تروجة رقم ٨ فصل أول بأراضى ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بالبحيرة (انظر محمد رمزى ، القاموس الجغرافى فى القسم الأول ، البلاد المندرسة ، ١٩٠) .

جان بردى الغزالى ، اتصل بعربان أولاد مرعى ، ووعد حسن بن مرعى ، أن سلمه طومان باى ، فإنه يقدمه على جميع مشايخ العربان فى مصر ، ويجعل أرضه التى فيها إقطاعًا له ، ولايأخذ دراهم[١] ويبدو أن حسن بن مرعى ، قد استجاب لطلب سليم ، إذ مالبث أن جاءت الخيل العثمانية لأخذ طومان باى ، فقاوم الأمراء القليلون من حول طومان باى على غير جدوى ، وإن استطاع الأمير شريك وحده الإفلات ، أما طومان باى الذى كان يعرف أنه مأخوذ لم يبد أى مقاومة ، حينما أحاطت به العسكر العثمانية ، وهى تقدر أنها وقعت على فريسة عظيمة[٢] وسلم الأمر أحمد بن بقر من زعماء الشرقية الأمير شريك ، إلى السلطان سليم محاولة منه للتقريب للعثمانيين للاعتراف بسلطنته[٣] .

وحينما وصلت البشرى لسليم بالقبض على طومان باى ، وأنه فى الطريق إليه ، أبدى ارتياحه العظيم ، وقال الآن ملكنا ملك مصر وأمر بالزينة فى القاهرة ومصر[٤] - الفسطاط - وجعل الطبول والكوسات - نوع من الطبول - تدق فى أرجائها . فزين الناس مضطرين جميع البيوت والدكاكين ، والناس لاتعلم سبب الزينة[٥] وسرعان ماعلمت بعد ذلك وهى لاتكاد أن تصدق أن طومان قد قبض عليه[٦] .

ولما وصل طومان باى أمام سليم ، استقبله ، وقد أحاط به خاير بك وجان بردى الغزالى والوزير يونس باشا ، وقد وقفت العساكر العثمانية على حسب مراتبها ، وأسلحتها من البنادق فى أيديها ، فسلم طومان باى سلام الملوك ، فرد عليه سليم كما يجب ، ولم ينتقص فى سلامه ، وقد استمر طومان باى واقفًا ، إلى أن أمره بالجلوس فجلس . ودارت مناقشات وانتهى الأمر بأن قرر سليم شنق طومان باى على باب زويلة[٧] وجد أن حبل المشنقة معد له ،

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٤ ، أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص١٠٧ .

(٢) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١١ ؛ عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٤ .

(٣) أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٤) نفسه ، ص ١١٨ .

(٥) نفسه ، ص ١١٨ .

(٦) عبد المنعم ماجد ، طومان باى ، ص ١٧٥ .

(٧) باب زويلة ، بناء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢م وهو وزير المستنصر بالله، وهذا الباب باق إلى الآن . (انظر تقى الدين المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ١ ، ص ٣٨٠).

فأسرعوا به وأنزلوه عن البغلة بقصد شنقه من غير مهلة ، فتقدم طومان باى نحو الحبال بقلب جسور ، وحوله جنود العثمانية مسلولة السيوف ، فطلب طومان باى من الناس قراءة الفاتحة له ثلاث مرات قرأت والناس معه ، ثم قال للمشاعلى[١] أعمل شغلك ، فكاد الحبل يقطع به مرتين ، وفى كل مرة يعلقوه من جديد ، وشنق إلى أن مات ، وكان شنقه يوم الأحد ٢١ ربيع الأول عام ٩٢٣ هـ / ١٥ أبريل ١٥١٧ فأكد بذلك نفوذه سليم وقضى على الشائعات القائلة بأن طومان باى مازال طليقاً [١].

وصلت أنباء إلى دمشق فى ٨ ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ / ٣٠ أبريل ١٥١٧م أنباء القبض على طومان باى ، وأعلن نبأ شنقه فى اليوم التالى ، وأمر بتزيين دمشق مدة سبعة أيام . وقد تعاظم نفوذ العثمانيين فى الشام وتوطدت سلطتهم ، وقاموا بعد ذلك باتخاذ إجراءات هامة كتخفيض سعر العملة العثمانية بمقدار النصف ، فتضرر الدمشقيون كثيراً ولكنهم لم يجرؤا على الثورة واتخذت إجراءات أمن مشددة لردع الخارجين على القانون ، وإعدم إثنان من اللصوص ، وأقيمت الخوازيق[٢] فى الحارات لإرهاب الأهالى وأوعز للوالى والقاضى والدفتردار بضبط الممتلكات خارجها وبالتفتيش على المستندات المتعلقة لمعرفة النذور فيها كما طلبت مستندات الأوقاف لتوقيعها . وهكذا نرى كيف استغلت انتصارات العثمانيين فى مصر لإدخال كثير من التنظيمات فى الشام [٣].

وقد قام السلطان سليم إثر القضاء على طومان باى ، ببعض الإجراءات الإدارية فى مصر . ولم تكن هذه شاملة أو ذات صبغة عثمانية جذرية ، بل كان الهدف منها كعادة العثمانيين بعد

---

(١) المشاعلى : هو الشخص المكلف بتنفيذ حكم الإعدام .

(٢) الخازوق : عبارة عن عمود حديدى يسمى un Pieu يقوم الجندى المختص بتسخينة بالنار حتى يتوهج العمود بالإحمرار من شدة الحرارة ثم يقوم الجلاد بإجلاس من يرد تعذيبه حتى الموت على الطرف المدبب لهذا العمود الذى يتغلغل فى جسمه من فتحة الشرج بفعل السخونة وبتأثير وزن الجسم وثقله حتى يصل إلى الأمعاء فيمزقها . وكانت هذه الطريقة تستخدم فى مصر والشام إبان عصر دولتى المماليك والعصر العثمانى والحملة الفرنسية وحكم محمد على .

وقد أدخلت هذه الطريقة فى أيام حكم السلطان محمد الثانى والعامة فى مصر تقول « المخوزق يشتم السلطان وذلك لأن سب السلطان كان يستوجب الإعدام الفورى فكان الشخص الذى يموت بتلك الطريقة البطيئة بسبب السلطان لكى يعدم فوراً حتى يتخلص من عذاب الموت البطىء على الخازوق . (انظر : أحمد جلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٩٢٦ - ٩٢٧) .

(٣) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

فتوحاتهم تسيير الأمور بشكل مؤقت والإبقاء على الإدارة المحلية بكاملها تقريبًا ، ريثما تصدر تنظيمات أشمل وأدق . وقد عين السلطان سليم جانم السيفى كاشفًا على البهنسا والفيوم مكافأة له على دعمه العثمانيين كما عين زميلاً لجانم إينال السيفى على الجيزة وأقليم الغربية ، واعترف بقضاء المذاهب الأربعة ، كما كان عليه الأمر زمن طومان باى وأبقى امتيازات أصحاب الإقطاعات والأرزاق[١] ، الأوقاف من المماليك وأولاد الناس على ماكانت عليه . وقد خلع على الأمير على بن عمر شيخ قبيلة هوارة فى الصعيد ، وأبقى له إمارة الصعيد التى كانت مركزها فى جرجا ، وكذلك أبقى أكثرية أمراء البدو الآخرين فى إمارتهم[٢].

وقد أمر السلطان بإرسال عدد من أصحاب الحرف والصنائع إلى استانبول بحراً بطريق الاسكندرية للاستفادة بخبرتهم . وذكر أن البنائين والنجارين والحدادين والمبلطين ، من مسلمين ومسيحيين ، ممن أرسلوا من مصر إلى استانبول سيستخدمون فى بناء مدرسة على غرار مدرسة السلطان الغورى فى القاهرة . وقد أمر السلطان سليم أن يجلب بالمقابل ، من استانبول إلى مصر عدد من أفراد ، لم تذكر المصادر المحلية هوياتهم أو نوعية مهنهم . ويبدو أن هذا الإجراء يتفق مع عادة مألوفة فى الدولة العثمانية ، بإجراء تنقلات بين السكان إثر الفتح، لنقل الخبرات ، أو لترسيخ الصبغة العثمانية فى البلد المفتوح . وقد أرسل أيضًا من

---

(١) الرزق : جمع رزقة ، وهى الأراضى الزراعية المحبوس على أوجه البر والخير ولايفرض عليها مال . (انظر : محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص ٣١ ، هامش ٣) وكانت تمثل مساحات واسعة من الأرض ، فى جهات عديدة من البلاد ، أنعم بها السلاطين السابقون على بعض الناس ، وأصبح حق الانتفاع بها يتنقل بالميراث للورثة . وأصبح لأصحابها حق الانتفاع أن يتصرفوا فيها فى كافة وجوه الانتفاع، وكان أكثر أراضى الرزق موقوفًا على مكة والمدينة ، وأسبلة لسقى الناس ، وأحواض لسقى الدواب ، ومقارىء لتلاوة القرآن وبعض الأشراف ، وكانت أراضى الرزق معفاة من الضرائب ، ولايدفع عنها للروزنامة إلا ضريبة رمزية باسم مال حماية ، نظير حماية رجال الإدارة لهذه الأراضى ، من العبث بها أو السطو عليها ، ولذا فإن بعض الملتزمين لجأ إلي عمليات الاحتيال فى رصد جزء من الأراضى الداخلة فى التزاماتهم على أعمال البر وجعلوا الجزء الأكبر من هذه الأراضى وقفًا على ورثتهم وأرقائهم ، وكان السائد أن يلجأ الملتزم إلى وقف جزء من أراض وسيته ولايلجأ إلى وقف أراضى الفلاحة إلا نادراً . (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى ، فى القرن الثامن عشر ، ص ٦٩ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

مصر إلى استانبول عدد من كبار المماليك وأسرهم . وسمح السلطان سليمان القانونى فيما بعد لكثير من هؤلاء بالعودة إلى مصر[١] .

وقام السلطان سليم بزيارة إلى الإسكندرية ، وعين نائبًا عنه فى القاهرة يونس باشا . ثم عاد منها وبدأ يستعد لمغادرة مصر بعد أن وصلته أنباء عن تحركات الشاه إسماعيل الصفوى[٢].

وتلقى السلطان سليم وهو فى مصر وفداً أرسله الشريف بركات شريف مكة ، الذى قدم إليه الخضوع ، فأقره سليم فى شرافته وحرّضه على قتل حاكم جدة المملوكى . وأبقى سليم على نظام الشرافة كما كان من قبل مع إنشاء صنجقية عثمانية فى جدة أطلق عليها العثمانيون اسم ولاية الحبش . وعين عليها حاكمًا عثمانيًا يدعى حسين الرومى وكان مرتبطًا بوالى مصر خاير بك[٣] . وهكذا ظهر العثمانيون فى البحر الأحمر وأخذوا يعملون على إنقاذ هذا البحر من الخطر البرتغالى الزاحف من المحيط الهندى . ولما كان هدف السياسة العثمانية فى البحر قائمًا - كما يرى بعض المؤرخين المحدثين - على أساس أحياء تجارة الشرق فى البحر الأحمر ومصر [٤]. وصنع سليم كما فعل فى دمشق كسوة للمحمل الشريف ، مما أكسبه عطف المسلمين . وقد ترك من عسكره لدى خاير بك نحو خمسة آلاف فارس ونحو خمسمائة رام بالبندق ، وعين أميراً عثمانياً هو خير الدين باشا نائبًا على قلعة القاهرة . ثم غادر سليم مصر فى ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ / ١٠ سبتمبر ١٥١٧م متجهًا إلى دمشق . وكان قد خرج قبل ذلك إلى أستانبول الخليفة العباسى محمد المتوكل على الله بناء على أوامر سليم [٥]. ويبدو أن إخراج الخليفة من مصر قصد منه عدم تمكين أى تأثير محلى من استغلال سلطته الدينية ضد العثمانيين . كما أن إقامة الخليفة فى أستانبول يضفى عليها مجداً دينيًا كمركز لزعيم المسلمين . ولم تذكر المصادر المحلية بعد ذلك ، ماحل بالخليفة العباسى أو بخلفائه .

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) نفسه ، ص ١١١ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص ٩٥ .

(٤) محمد بن أياس الحنفى ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ١٧٧ - ٢٠٦ ؛ أحمد بن زنبل الرمال ، المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

وبقى السلطان العثمانى وحده زعيم المسلمين ، رغم أنه لم يتخذ لقب خليفة ، بشكل جدى حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، وباستيلاء العثمانيين ورثوا السلطنة المملوكية ومسئولياتها فى حماية الحرمين الشريفين ، وأصبحت بذلك زعيمة المسلمين السنيين(١) .

وصل السلطان سليم إلى دمشق فى ٢١ رمضان ٩٢٣ هـ / ٧ أكتوبر ١٥١٧م ، وقد أصبح العثمانيين فيها أكثر استقراراً عما كان عليه يوم دخلها السلطان سليم فاتحًا . وقد عرفنا كيف أنه حاول أنذاك التقرب من الأهالى بإعفائهم من بعض التنظيمات العثمانية الضارة بهم ، لأن الخطر المملوكى لم يقض عليه بعد . ورأينا أيضًا كيف أن كل انتصار للعثمانيين على المماليك فى مصر كان يتلوه اتخاذ إجراءات غير شعبية فى بلاد الشام ، واهتم السلطان سليم فى دمشق بأمور ثلاثة(٢) :

- أدخل بعض التنظيمات العثمانية فى دمشق ، بقصد إيجاد المال للدولة .
- توطيد السلطنة العثمانية خارج دمشق لإيجاد الاستقرار ولحماية قافلة الحج .
- الانتقال بسرعة إلى الأناضول لمواجهة خطر الشاه إسماعيل الصفوى .

ولم تكن التنظيمات العثمانية فى دمشق شاملة أو عقيمة على غرار التنظيمات العثمانية التى تمت فى مصر ، تسيير الأمور بصورة مؤقتة . وبعد يومين من دخول السلطان سليم إلى دمشق أى فى ٢٣ رمضان / ٩ أكتوبر أمر العثمانيون عرفاء الحارات ونفراً من أكابرها بحصر البيوت فى دمشق وكتابة أسماء أصحابها استعداداً لفرض ضريبة على كل شخص فيها . وبالفعل فرض أشرفى(٣) على كل شخص ، ولكن نظراً لاستياء الناس من ذلك عمد

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

(٣)الأشرفى : يعرف بالشريفى طره لى أو الطره لى أو الطرلى نسبة إلى الطراء (الطغراء) وهو نقد ذهب تركى ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وكان يزن ٢,٦جرام ، وأطلق عليه فى الدولة العثمانية (طغرالى التون) طغراً نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهى العملة ، وقد أطلق عليه الجبرتى الجنزرلى أو المحبوب الجنزرلى نسبة إلى الحلقة المشرشرة لهذا النقد وهى أشبه بالإطار أو الجنزير (انظر : عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص ٥٧٥ - ٥٧٦) .

العثمانيون إلى حساب مايمكن أن تجمعه هذه الضريبة من المال ، ووزع مجموع ذلك ، بشكل متفاوت على السكان حسب مراتبهم فى الفقر قد خففوا أعباء الطبقات الفقيرة ، دون أن يخسروا شيئًا من المال . وقد فرض العثمانيون إلى جانب ذلك ، ضريبة من القمح على كل حارة فى دمشق . وزاد فى تضجر الناس من العثمانيين هجوم كثير من عساكرهم على البيوت للسكن فيها ، وطلب القاضى العثمانى محاسبة نظار الأوقاف على وارداتهم[١] .

وقد أمر السلطان سليم ببناء جامع وتكية عند قبر محى الدين بن عربى فى الصالحية . ومن شأن ذلك أن يكسبه عطف من رجال الدين وخاصة من الصوفية فى دمشق . وسمح العثمانيون لأصحاب الإقطاعات بالبقاء فى إقطاعاتهم ، ولأرباب الوظائف المدنية بالبقاء فى وظائفهم . ولابد أن هذا الإجراء قد أرضى كثيراً من المنتفعين ، ورغم استمرار كثير من التنظيمات المملوكية التى كانت فى صالح جان بردى الغزالى فى المستقبل . وقد وطد العثمانيون الأمن والهدوء فى دمشق ، وفتكوا باللصوص الذين حاولوا استغلال تبديل السلطة السياسية ،فحفظوا بذلك هيبة حكمهم وحافظوا على أموال الناس وأمنهم . وهكذا نرى أن العثمانيين وازنوا فى سياستهم بين الاستثمار والتسامح فى سبيل استمرار حكمهم[٢] .

واتخذ سليم إجراءات تنظيمية خارج دمشق ، فأبقى الأمراء المحليين الذين أيدوه ، وأزال من السلطنة الذين عارضوه . وقد حاول أولاً القضاء على أمير البقاع البدوى ناصر الدين بن الحنش بسبب ازدياد نفوذه وتحكمه بمنطقة البقاع الغنية التى تمر فيها الطرق الرئيسية بين دمشق وبيروت ، وأيضًا بسبب إيوائه كثيراً من المماليك الفارين . فهرب ناصر الدين إثر سماعه بخروج سليم بنفسه على رأس حملة ضده . وعين السلطان سليم مكانه الأمير محمد بن قرقماش الشركسى ، وأضاف إليه حكم بيروت وصيدا . وقد تضرر الأمراء التنوخيون فى جبل لبنان بسبب تأييدهم لناصر الدين فيما بعد . وكان الأمراء التنوخيون زعماء جبل لبنان زمن المماليك ، إلا أنهم خسروا هذه الزعامة لصالح المعنيين ، وزعيمهم فخر الدين ، الذين أيدوا العثمانيين فى معركة مرج دابق ، فاعترف بهم العثمانيون بهم أمراء على جبل لبنان ، وقدم أمير منطقة صفد البدوى ، ابن طراباى ، خضوعه للسلطان سليم ، فاعترف بسلطته ، وجعله

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١١٤ .

نائبًا على صفد . وكان سليمًا مهتمًا بسلامة الحاج ، ولم يخرج الحاج عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م خوفًا من اعتداء البدو عليهم[١] .

اشتد تهديد الصفويين لمقاطعات العثمانيين فى شرقى الأناضول ، حين كان السلطان سليم منشغلاً فى قتال المماليك فى مصر . واستمرت أنباء تهديد الصفويين ومناوشاتهم مع العثمانيين تصل سليم حين كان فى دمشق ، وعززت تبعًا لذلك ، الحامية العثمانية فى ديار بكر وإزاء هذا الوضع وبعد غياب فى بلاد الشام ومصر دام سنة ونصف ، غادر سليم دمشق فى ١٠ صفر عام ٩٢٤هـ / ٢١ فبراير ١٥١٨م وكان قد عزل عنها واليها شهاب الدين أحمد بن بخشى الرومى ، فعين بدلاً منه جان بردى الغزالى الذى كوفىء أخيراً عى خيانة المماليك ، ونال ماطمع إليه على غرار خاير بك . وكانت المنطقة التى عهد إليه بولايتها تمتد من معرة النعمان إلى عريش مصر . وقد عين ولى الدين بن الفرفور الدمشقى لمنصب القاضى الحنفى فى دمشق ، وجعل قضاة المذاهب الأخرى فى ولاية الشام تحت إمرته . وفى ٢٣ رمضان ٩٢٤هـ / ٢٨ سبتمبر ١٥١٨م . وصلت إلى دمشق أنباء عن استيلاء العثمانيين لبعض القلاع التى كانت استولت عليها قوات الشاه إسماعيل الصفوى[٢] .

٣ - أسباب ضعف المماليك ونهاية دولتهم :

يرجع هذا الضعف إلى جذور عميقة على رأسها :

أولاً : فساد النظام الإقطاعى ، الذى قام على أساسه الحكم المملوكى ، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه ، فالدولة المماليكية دولة إقطاعية بيروقراطية يسند وجودها اقتصاد متين وجيش قوى ، وأرض مصر التى هى ملك السلطان توزع إقطاعيات على جنده وأى هزة زراعية معناه إنهيار النظام وبالتالى الدولة ، وإذا حرصت الدولة ، عندما عجزت الأرض التى أهملوها عن الإيفاء بمتطلباتهم ، على البحث عن موارد مالية جديدة تتمثل فى رفع الضرائب وتحصيلها مقدمًا ، ثم تنشيط التجارة عبر بلادهم تعويضًا عن هذا النقص المادى . وقد ساعدهم على هذا تحول التجارة نحو مصر والشام وتدفق الأموال على خزائنهم . وكلما زادت احتياجاتهم زاد تعلقهم بالتجارة ، واحتكارهم لكل مصادرها ،

---

(١) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٢) نفسه ، ص ١١٥ .

فأقصوا عنها الكارمية ، وتسلموها على غير مران وأجبروا التجار الأجانب على شراء التوابل الشرقية قسراً وبالسعر الذى يحددونه ، والويل والعقاب للمتنع عن الشراء ما أدى إلى تذمر الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر والشام وتكدس المتاجر وبوارها . فكان هذا بالإضافة فساد نظام الاحتكار وانهيار النظام الإقطاعى الزراعى ، وجهل المماليك بالنظام التجارى إيذاناً بالانهيار القريب للاقتصاد وللدولة ، ولم يبق إلا وضع النقط عى الحروف وإعلان الانهيار ، وتم هذا فعلاً فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالحدثين الخطرين : تحول التجارة ، وسقوط دولة سلاطين المماليك[١] .

ثانيًا : العوامل الداخلية : التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ ، فقد اختل نظامهم الاجتماعى والحربى ، لإهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى ، ولم يعودوا يصلون لمصر صغاراً يتعلمون الطاعة ويتحلون بالدين والأخلاق ، ويتدربون على الحرب وفنونها ، بل ولوا شباناً تتنازعهم أهواء واتجاهات وتعليم متضارب ، ففقدوا روح النظام والطاعة ، وحل محلها العصيان والتمرد ، وفشا بينهم التنازل عن الاقطاعيات والمقايضة بها من الباطن ، وخرجت الأراضى والذمم ، وانقسم المماليك شيعًا وأحزابًا ، يتجسسون بعضهم على بعض ، ويعمدون إلى حوادث النهب والسلب ويتنازعون السلطة والحكم . وظهر ذلك بوضوح منذ وفاة السلطان قايتباى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م حتى تولى الغورى السلطة عام ٩٠٧هـ / ١٥٠١م ، وتأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهوراً وأيامًا ، مما يعطى انطباعًا صادقًا بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة هذه الدولة ، حتى أن كبار الأفراد كانوا يعزفون عن تولى السلطة خوفًا من القتل . كما فعل قنصوه الغورى الذى اشترط لقبوله الحكم ألا يقتلوه إذا أرادوا عزله ، ولكن كانت الأحداث السياسية أقوى من أمنياته ، حتى أن مماليكه الجلبان كثيراً ما عصوه بسبب النفقة [٢].

ثالثًا : العوامل الخارجية : التى تضافرت جميعها لهدفين أساسيين أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية ، وهو التجارة في المياه الشرقية والتحكم فيها بين

---

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٧٠ .

(٢) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

الشرق والغرب . وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها ، ووقع الهدف الأول على عاتق القطالنة والبرتغاليين ، فى حين وقع الثانى على عاتق العثمانيين ، مع مابين الطرفين من تباعد وتناقض وإن اتحدت الأهداف . ويقترن العمل الأول كذلك بنمو القوميات فى أوروبا ، وخاصة فى البرتغال وأسبانيا ونجاح الأخيرة فى إنهاء الحكم العربى فى الأندلس عام ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م . أما محاولة تعقب العرب فى عقر دارهم ، فقد وقع عبؤه على البرتغاليين الذين حاولوا الاتصال بملك الحبشة المسيحى لتطويق المماليك ، وفى سبيل ذلك داروا حول إفريقيا ، ووصلوا للهند ، ودمروا الأسطول المماليكى فى وقعة ديو ٩١٥هـ / ١٥٠٩م ، وأنهوا السيطرة المماليكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر . أما الهدف الثانى فقد وقع على عاتق العثمانيين [١] .

---

(١) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

الفصل الثالث

التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية

اشترك فى حكم مصر فى العهد العثمانى عدة عناصر . فالباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثمانى ويحكمون الولاية ويشرفون على ادارتها . وهيئة أمراء المماليك من رجال "العسكرية" يشتركون فى الحكم والادارة أيضا إلى جانب مهمتها الحربية . فوجد تشابك وتداخل فى اختصاصات هذه العناصر ، كما وجد توازن بينها فى حكم البلاد . ولقد نظم قانون سليمان قواعد الحكم العثمانى كما اقتضتها ظروف الأحوال فى مصر . واليك وصفا عاما عن أهم عناصر الحكوة والادارة فى ذلك العهد .

الباشا :

كان الباشا فى مصر العثمانية هو ممثل السلطان ونائبه فى الحكم والادارة ، ونظرا لأن مصر كانت من أهم الولايات فى السلطة العثمانية ، فقد كان السلطان يبعث اليها بولاة من ذوى الخبرة ممن شغلوا منصب الصدارة العظمى أو عملوا فى المناصب الرئيسية فى البلاط العثمانى أو فى المناصب الادارية الهامة فى الدولة العثمانية أو فى ولاياتها[1] .

ومن أشهر رجال الصدارة العظمى الذين تولوا باشوية مصر ، الوزير ابراهيم باشا (٩٣١هـ/١٥٢٥م) محمد رامى باشا (١١١٦-١١١٨هـ/١٧٠٤-١٧٠٦م) ومحمد عزت باشا (١٢٠٥-١٢٠٨هـ/١٧٩٠-١٧٩٣م) .

ومن الباشاوات الذين شغلوا مناصب رئيسية فى البلاط العثمانى ، قبل توليهم باشوية مصر ، داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) الذى نشأ فى قصر السلطان سليمان القانونى ، وكان خازنداره ، وعلى باشا الذى تولى باشوية مصر (١١٠٢-١١٠٧هـ/١٦٩٠-١٦٩٥م) كان قائم مقام الركاب السلطانى[2] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص٦١ .

(٢) قائم مقام الركاب السلطانى : رئيس معظم ضباط الخدمة الخارجية وهم الذين عرفوا بأغوات الركاب، وقد استخدمت كلمة ركاب عند العثمانيين من قبيل الاستعارة للاشارة إلى السلطان أو إلى حضرته، اذ أن الحاكم فى الأيام الأولى كان يتلق العرائض والشكاوى وهو على ظهر حصانه ، وقد استخدم =

ومن الشخصيات ذات الخبرة فى الإدارة العثمانية المركزية وفى ادارة الولايات ، أويس باشا الذى تولى باشوية مصر (٩٩٤-٩٩٩هـ/١٥٨٥-١٥٩٠م) وكان قد تولى القضاة والدفتردارية فى السلطنة نفسها قبل توليه حكم مصر وسليمان باشا الخادم (٩٣١-٩٤١هـ/ ١٥٢٥-١٥٣٤م) الذى كان قائدا للحملة التى أرسلت لمساعدة الامراء المسلمين فى الهند[١]. وقره محمد باشا (١١١١-١١١٦هـ/١٦٩٩-١٧٠٤م) عمل فى منصب كتخدا الباشا السابق له فى مصر اسماعيل باشا وأحمد باشا الذى تولى باشوية مصر (١٠٢٤-١٠٢٧هـ/ ١٦٠٥-١٦١٧م) عمل دفتر دارا قبل تولية حكمها ، وابراهيم باشا (١٠٨١-١٠٨٤هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٣م) عمل محافظا لكريت ، قبل قدومه إلى مصر ، واسماعيل باشا الحلبى (١١٠٧-١١٠٩هـ/١٦٩٥-١٦٩٧م) قدم إلى مصر من ولاية الشام[٢] .

وكثيرا ماخرج الباشاوات بعد نقلهم من مصر إلى منصب الصدارة العظمى ، مثل حسين باشا الذى تولى حكم مصر (١٠٢٩-١٠٣١هـ/١٦١٩-١٦٢١م) ومحمد راغب باشا (١١٥٩-١١٦١هـ/١٧٤٦-١٧٤٨م) وأحيانا كان باشا مصر يخرج منها بعد عزله حكم ولاية أخرى من ولايات السلطنة ، وفى بعض الحالات كان الباشا يعود إلى مصر لتولى حكمها مرة ثانية بعد العمل فى الولايات الأخرى أو القيام بحملات حربية[٣] .

وقد اختلفت شخصية باشاوات مصر فلم يكونوا كلهم من طراز واحد ، فقد كان منهم باشاوات على جانب كبير من الحزم وحسن الادارة ، مثل ابراهيم باشا (٩٣١ هـ ١٥٢٥م) الذى قام بتنظيم الادارة فى مصر بناء على تكليف من السلطان سليمان القانونى ، وسليمان باشا الخادم (٩٣١-٩٤١هـ /١٥٢٥-١٥٣٤م) الذى قام أدق مساحة الأقاليم مصر تلك

= العثمانيون هذه الكلمة للاشارة إلى المواكب والاجتماعات التى يظهر فيها السلطان . ومن أغوات الركاب مير علم ، قابيجى باشا ، مير آخور ، طوبجى باشى (أنظر ، هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، جـ١ ، ص.١٢ ، القاهرة ١٩٧١) ، ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٦١ .

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٦٢ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، الإسكندرية بدون تاريخ ، ص١٣٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٦٣ .

المساحة التى سجلت فى ربيع سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م . وقد ظل ذلك الدفتر أساس لمساحة مصر طوال العهد العثمانى(١) ومحمد باشا (قول قران ومعمر ومبطل الكرية) (١٠١٦-١٠٢٠هـ/١٦٠٧-١٦١١م) استطاع بحزمة وقوة شخصيته أن يقضى على أخطر تمرد فى مصر العثمانية(٢) .

وقد شهدت فترة الحكم العثمانى لمصر باشاوات من طراز آخر فبعضهم كان محبا لجمع المال مثل محمود باشا المقتول (٩٧٣-٩٧٤هـ/ ١٥٦٥-١٥٦٦م) والذى كان لايلبس هو وأتباعه الا الديباج وجميع أوانيه من الفضه ومنهم من اشتهر بحب اللهو والخروج إلى المتنزهات فى خلاعة مثل محمد باشا (دوقة لين) ومعناها الخليع (٩٦١هـ-٩٦٣هـ/١٥٥٣-١٥٥٥م) (٣).

واشتهر باشاوات آخرون بالقسوة وسفك الدماء مثل على باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٢هـ/ ١٦٠١-١٦٠٣م) الذى كان سفاكا للدماء ، وكان اذا ركب يقتل عشرة أنفار وزيادة ويمر فى دمائهم بحصانه(٤) كما أخذ على بعض الباشاوات الاسراف فى الظلم وأخذ رشوة ، مثل حسن باشا الخادم (٩٨٨-٩٩١هـ/ ١٥٨٠-١٥٨٣م) بحيث أن خروجه من مصر لم يكن الا من على الترب من كثرةظلمه وخوفه من الرعايا(٥) .

وعلى النقيض من هذا اشتهر باشاوات آخرون بالعدل وتكريم أهل العلم مثل على باشا الخادم (٩٦٦-٩٦٧هـ/١٥٥٨-١٥٥٩م) فقد كان حاكما عادلا محبا للعلماء والفضلاء وكثير

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٦٣ .

(٢) يوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل ، تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣-١١٣١هـ/١٥١٧-١٧١٩م ، من خلال مخطوطه ، دراسة وتحقيق ابراهيم يونس محمد ، لنيل درجة الماجستير من قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية عام ١٩٨١ ، ص١٦٣ ، محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، دراسة وتحقيق وتعليق ، عبد الرازق عبد الرازق ، القاهرة ١٩٩٨م . ص١٨١ .

(٣) يوسف الملوانى ، تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، ص١٣٨ .

(٤) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٧٤ ، مصطفى الشافعى القلعاوى ، صفوة الزمان فيمن تولى مصر من أمير وسلطان ، ص١٥٠ .

(٥) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٤٦ ، محمد البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥٩ .

الاحسان لهم بحيث لم يوجد فى خزانته عند وفاته سوى سبعة دنانير ومن اللباس والتجملات شئ قليل[١]. وبينما كان بعض الولاة أميا لايقرأ ولايكتب مثل اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) كان البعض الآخر على جانب كبير من العلم مثل جعفر باشا (١٠٢٨هـ-١٦٩٥م) الذى كانت له اليد الطولى فى غالب العلوم خصوصا علم التفسير ، داوود باشا الخادلم (أطول باشاوات مصر العثمانية عهدا (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) وكان على درجة كبيرة من العلم وقد اهتم بجمع الكتب العربية ونسخ له النساخ كثيرا منها فتكونت لديه مكتبة كبيرة كان مواظبا على الاطلاع فيها[٢] . وعبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢-١١٤٤هـ/ ١٧٢٩- ١٧٣١م) كان ميالا إلى الأدب مما جعل الشعراء فى مصر يمدحونه لفضله وميله إلى الأدب[٣] وأحمد باشا كور (١١٦٢-١١٦٣هـ/١٧٤٨-١٧٤٩م) كان مهتما بالعلوم الرياضية وأتصل بالشيخ حسن الجبرتى واشتغل عليه برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها[٤].

ومن الشخصيات الفريدة بين ولاة مصر محمد باشا ملك (١١٩٥-١١٩٦هـ/ ١٧٨٠-١٧٨١م) ، وكان من أفاضل العلماء متضلعا فى سائر الفنون ويحب المذاكرة والمباحثة والمسامرة وأخبار التواريخ وحكايات الصالحين وكلام القوم[٥] . وقد اشتهر كثير من باشوات مصر بحب الخير ، ووقف الأوقاف العديدة واقامة المساجد والأسبلة والمكاتب العلمية والتكايا ، فقد أقام سليمان باشا الخادم (٩٣١هـ/١٥٢٥م) مسجدا ببولاق وأوقف عليه وقفا كبيرا وعمرمسجد سيدى سارية بقلعة الجبل[٦] ومحمد باشا (قول قران) (١٠٠٦هـ/١٧٠٦م) أوقف

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص١١٣ ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١١٢.

(٢) أحمد كتخدا عزبان الدمرداش ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الحيم ، القاهرة ١٩٨٩ ، ص٢٧ .

(٣) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٣٦ ، محمد البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٤٠ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٦٦ ، عبد الرحمن الجبرتى، تاريخ عجائب الاثار فى التراجم والأخبار ، جـ١ ، ١٤٤ .

(٥) نفسه ، ص١٨٦ .

(٦) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٣٤ .

عدة قرى ووكائل بثغر رشيد وأرضا بالأزبكية وبلغ ايراد تلك الأوقاف عشرين ألف دينار وجعل منها سحابة الحاج الشريف (أربعون جملا من الماء كل عام[١] . واسكندر باشا (٩٦٣هـ/٩٦٦هـ-١٥٥٥-١٥٥٨م) أقام جامعا بباب الخلق وتكية تجاه هذا الجامع وأوقف عليهما أوقافا كثيرة[٢] وخسرو باشا (٩٤٠-٩٤٣هـ/١٥٣٣-١٥٣٦م) أنشأ عمارة بسوق الصاغة صهريجا ومكتبا يقرأ فيه الأيتام مع ترتيب الخير لهم[٣] ، وقرة محمد باشا (١١١١-١١١٦هـ/ ١٦٩٩-١٧٠٤م) أقام جامعا وتكية لفقراء الخلوتية من الأروام فى حى الأربعين بجوار باب قرا ميدان وأسكن الأروام بالتكية وأنشأ تجاهها مطبخا ودار لضيافة الفقراء ، وفى اعلاها مكتبا للأطفال يقرءون فيه القرآن الكريم ورتب لهم مايكفيهم وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبد القادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم مرتبات وأنشأ صهريجا بداخل القلعة[٤] . وقد أقام اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥م) تكية فى قرا ميدان ووقف عليها وعلى سحابة بطريق الحجاز سبعة قرى أخذها من المحاليل فى اقليم البحيرة[٥] وقد بعض الباشاوات بتعمير الجامع الأزهر وتجديده مثلما فعل محمد باشا (١٠٠٤-١٥٩٥م) فقد عمر الجامع الأزهر وجدد ماهدم منه ورتب له من الشون العدس يطبخ فى كل يوم للفقراء ، ولأجل ذلك تسامعت الناس فأتوا اليه بطلب العلم من أقصى القرى[٦] .

ولم تقتصر أوقاف الباشاوات وخيراتهم على مدينة القاهرة وحدها بل امتدت إلى مختلف أنحاء البلاد فسنان باشا (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) الذى أقام مسجدا وسوقا وحماما ببولاق[٧]

---

(١) محمد بن أبى الشرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٨١ .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٣٩ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١١٢ .

(٣) محمد بن أبى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٢٩ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٠ .

(٥) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٢٦ ، عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٠٠ .

(٦) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق، ص٦٦ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٦٦ .

أنشأ أيضا جامعا كبيرا ببندر القصير على البحر الأحمر ، وأوقف على الجامع وعلى الخدمة به وقفا كبيرا بلغ ألفا وخمسمائه وسبعين فدانا من الأراضى الزراعية التى كانت من أملاك الباشا فى الوجه القبلى[١] .

ألقاب الباشا :

فى أوائل العهد العثمانى كان حاكم مصر يلقب بلقب بكلر بك[٢] وقد أوردت المصادر المعاصرة أسماء باشوات مصر منذ بداية العهد العثمانى إلى النصف الأول من القرن السابع عشر مقرونة بهذا اللقب[٣] وكان أول من لقب به خاير بك وقد أشار قانون نامة مصر إلى حاكم مصر بهذا اللقب[٤] .

ومن ألقاب الباشا الأخرى ، لقب والى ، فقد كان السلطان يخاطب باشا مصر بلقب والى مصر فيرد فى الفرمانات مثلا إلى عزت محمد باشا والى مصر) فى فرمانه بلقب (الباشا والى مصر) دون ذكر اسم الباشا بالتحديد . وتذكر ليلى عبد اللطيف[٥] ومن الالقاب التى أطلقت على باشا مصر ووردت فى الوثائق والمصادر المعاصرة :

لقب الوزير الاعظم كافل المملكة الشريفة الإسلامية بالديار المصرية والثغور المحمية والاقطار الحجازية .

محافظ أو حافظ مصر المحروسة

حافظ الديار المصرية والأقطار الحجازية .

وبعد صدور الأمر السلطانى بتعيين باشا مصر كان يأخذ طريقه إليها إما برا عن طريق الشام، إذا كان قادما إلى مصر من إحدى ولايات الشام أو العراق وإما بحرا إلى الإسكندرية إذا كان قادما من السلطنة نفسها [٦] . وفى الحالة الأولى كانت بعثة الاستقبال الرسمية

---

(١) نفسه ، ص٦٦ .

(٢) محمدبن ابى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٥٢ .

(٣) قانون نامة مصر ، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١٥ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٦٦ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٦٧ .

(٦) نفسه ، ص٦٨ .

تخرج لمقابلة الباشا فى العريش وفى الحالة الثانية كانت البعثة تذهب لاستقباله فى الإسكندرية .

وإذا كان الباشا قادما عن طريق الإسكندرية ، كان يتوقف بها لزيارة مقامات كبار الأولياء مثل أبى العباس المرسى ، أبى الفتح الواسطى ، وقد يوقف بعض الأوقاف الخيرية ويقدم العطايا والانعامات للفقراء ثم يزور قلعة قايتباى ثم يزور مدينة رشيد(١) . وبعد اتمام مراسيم الاستقبال بتوجه الباشا إلى مقره بالقلعة حيث يبدأ مباشرة مهام منصبه(٢) .

أما عن مقر الباشا فقد كانت القلعة مقرا للباشا الحاكم كما كان الحال فى العصور السابقة وقد بدأ اتخاذها مقرا لحاكم مصر العثمانية منذ ولاية خاير بك أول والى لمصر من قبل العثمانيين .(٣) ولما كان الباشاوات يشعرون بأنهم مؤقتين فى القاهرة فانهم لم يكن يهتموا كثيرا بالقصر الذى كانوا يسكنون . ويذكر بعض القناصل ومنهم دى ماييه . أن قصر الباشا فى حالة سيئة ، ونادرا ما كان أحد الباشوات يفكر بادخال أى أصلاح عليه ، ولكن نجد أن بعض المحبين للبذخ مثل اسماعيل باشا (١١٠٧هـ/١٦٩٥)(٤) فقد أدخل بعض الاصلاحات على هذا القصر فى مدة ولايته ، وذلك بمناسبة الاحتفالات التى أقامها لختان ابنه ، فأقام جناحا جديدا للقصر ، وزرع حديقه كان يحضر لها الماء يوميا على ظهور الجمال(٥) .

وقد حدد قانون نامة مقر الباشا ، أن يقيم كاسلافه فى القلعة ، ولكن القانون لم يربط الباشا بالقلعة كما وردت بعض المراجع الحديثة ، فقد وصف بعضهم بأن باشا القاهرة الأسير وأن قانون نامة قد حبس هذا الباشا بين جدران القلعة ، وقد أصبح الوالى سجينا

---

(١) محمد بن أبى السرور البكرى الصديق ، كشف الكربة فى رفع الطالبة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٢٣ ، عام ١٩٧٦ ، ص٣٢٨ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٧٠ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص ٧١ .

(٤) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٢٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ١٩٧ ، جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٦ .

(٥) جلال يحى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

فى القلعة[١] وهذه الأوصاف عن تقيد حرية الباشا وربطة بالقلعة أبعد ماتكون عن الحقيقة فقد كان باشوات مصر ينزلون من قصورهم فى القلعة[٢] ويتجولون بكل حرية فى مختلف أنحاء البلاد فابراهيم باشا (٩٩١-٩٩٢هـ/١٥٨٣-١٥٨٤م) ذهب بنفسه إلى جميع أقاليم مصر إلى الصعيد الأقصى [٣] وكان الباشاوات يذهبون إلى كبار العلماء فى منازلهم ويرأسون الحفلات العامة مثل الاحتفال بوفاء النيل ، ويذهبون للتفتيش على الشون الأميرية وأداء الصلاة بالجامع الأزهر وغير ذلك[٤] .

وربما كان ضعف سلطة الباشا وسيطرة العصبيات المملوكية على الادارة فى مصر العثمانية- تلك السيطرة التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن عشر هى التى أوحت إلى المؤرخين المحدثين بفكرة تحديد اقامة الباشا فى القلعة[٥] .

أما عن مدة حكم الباشا ، فقد كانت سياسة الدولة العثمانية بالنسبة للتعيين فى الوظائف الكبرى تقوم على اجراء التعينات لتلك الوظائف سنة واحدة لا أكثر وان كانت تعد فى الواقع فى كثير من الأحيان عن طريق التجديد بتقرير خاص بصدر لتجديد مدة الباشا وهو ماعرف بتقرير السنة الجديدة . وكان التقرير الخاص بتجديد مدة الباشا أو تعينه يصدر دائما فى شهر شوال من كل عام وكانت هذه عادة الدولة بالنسبة لجميع ولاياتها اذ تصدر التوجيهات السنوية بالمناصب أو مدها فى هذا الشهر من كل عام[٦] .

---

(١) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص١١ ، جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

(٢) Starford Shaw, The Fianancial and Administrative Organ ization and development of ottoman Egypt, P. 316 .

(٣) عبد الرحمن الجبرتى، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٥٢ ، ليلى عبد اللطيف الادارة فى مصر ، ١٧١.

(٤) محمد بن ابى السرور البكرى ، المرجع السابق ، ص١٣١ ، ليلى عبد اللطيف ، أحمد، الادارة فى مصر ، ص٧١ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٧١ .

(٦) أحمد عزت عبد الحكيم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص١١٢ .

وقد اختلفت مدة حكم الباشوات فى مصر ففى الفترة الأولى من العهد العثمانى الممتدة من بدايته إلى أواخر القرن السادس عشر ، استمر الباشاوات فى شغل مناصبهم لفترات طويلة وكانوا لاينتقلون منها الا اذا رقوا لمناصب أعلى أو اضطروا إلى الاستغناء بسبب كبير السن ومن أطول الولاة العثمانيين عهدا فى مصر داوود باشا الخادم ، الذى ظل واليا على مصر من (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩م) حتى وفاته بها وهو فى منصبه الذى شغله لمدة أحد عشر عاما [١] وسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر وادارتها لمدة عشر سنوات من (٩٣١-٩٤١هـ/١٥٢٥-١٥٣٥م) ثم عاد إلى باشوية مصر وشغلها لمدة عام وخمسة أشهر من ٩٤٢-٩٤٥هـ/١٥٣٥-١٥٣٦م) ومسيح باشا استمر بحكم مصر من ٩٨٢هـ-٩٨٨م/١٥٧٤-١٥٨٠م) أى لمدة خمسة أعوام وأويس باشا ، تولى باشوية مصر من ٩٩٤-٩٩٩هـ/١٥٨٥-١٥٩٠م) حيث توفى بها بعد حكم دام خمس سنوات وخمسة أشهر[٢] .

وقد لوحظ فى هذه الفترة طول عهد الولاة اذا ماقورن بالفترة التالية ، ويمكن تفسير تلك الظاهرة بالهدو النسبى الذى وجد فى مصر حينذاك حيث لم يتعرض الباشاوات بصفة عامة إلى معارضة قوية وذلك للقضاء على العناصر المتمردة التى شاركت فى ثورة أحمد باشا الخائن وثورة إينال وجانم السيفى [٣]. وقد كان للنفوذ الذى حصل عليه باشاوات الفترة الأولى لخدماتهم التى أدوها للدولة - أثركبير فى احتفاظهم بمناصبهم فترة طويلة ، فسليمان باشا الخادم الذى تولى حكم مصر مرتين ، كما سبق الإشارة كان قد أدى أجل الخدمات للدولة بقيادة حملاتها في اليمن وفى المحيط الهندى ، وسنان باشا الذى تولى باشوية مصر من (٩٧٥-٩٧٦هـ/ ثم عاد إلى حكم مصر ثانية من (٩٧٩-٩٨١هـ/١٥٧١-١٥٧٣م) منح الحكم فى المرة الثانية مكافأة له على حملاته فى اليمن[٤] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٧٢ .

(٢) نفسه ، ص٧٢ .

(٣) نفسه ، ص٧٣ .

(٤) نفسه ، ص ٧٤ .

ويضاف إلى الأسباب السابقة التى أدت إلى طول عهد ولاة الفترة الأولى الفرصة لهم لاقامة المنشآت الهامة التى كان منها ماهو للنفع العام وماهو للنفع الخاص[١] .

وقد تميزت الفترة الثانية من فترات الحكم العثمانى فى مصر ، والممتدة من أواخر القرن السادس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر - بقصر عهد الباشاوات ولم يدم حكم أطولهم مدة عن خمسة أعوام بالوزير ابراهيم باشا حاجى لم يدم حكمه الا ثلاثة أشهر وعدة أيام ، اذ تولى من ١٤ ذى الحجة ١٠١٢هـ/ ١٥ مايو ١٦٠٣م وقتله الجند فى آخر ربيع الثانى (١٠١٣هـ/٢٧ أغسطس عام ١٦٠٤م) [٢] وجعفر باشا لم يدم حكمه الا حوالى خمسة أشهر ، اذ توفى فى ٩ ربيع أول ١٠٢٨هـ/ ٢٥ فبراير ١٦١٨م) وعزل فى ١٤ شعبان من السنة نفسها (فى ٢٨ يوليو ١٦١٨م) وموسى باشا تولى حكم مصر فى (٣ جمادى الأولى ١٠٤٠هـ/٩ ديسمبر ١٦٣٠م وعزل فى (ذى الحجة ١٠٤٠هـ/يوليو ١٦٣٠م ، بعد حكم ثمانية أشهر تقريبا[٣] .

ويمكن تفسير قصر عهد ولاة الفترة الثانية بكثرة الاضطرابات التى حدثت فى مصر فى هذه الفترة ، وتمثلت فى ثورات الجند ومنازعات ومطامع الأمراء المماليك وسعيهم للسيطرة على ادارة مصر وقد أدى ذلك إلى كثرة عزل الباشاوات بالإضافة للأسباب الاقتصادية والتى بدت فى انتشار الغلاء الذى كان يقع كثيرا اما لسوء الأحوال الطبيعية أو لانخفاض قيمة النقد ، ذلك الأمر الذى كان مرتبطا باقتصاد الدولة العثمانية نفسها ، كما أن تكرر حدوث الطواعين والأوبئة أدى إلى تعطيل الطاقات البشرية . لكثرة الوفيات - وبالتالى إلى عدم استقرار الحالة الاقتصادية ، الا أمر الذى كان يثير شكاوى الأهالى فتقوم الدولة على عزل الباشاوات المسئولين عن ذلك[٤] .

---

(١) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٩٩ .

(٢) نفسه ، ص٢٢٥ .

(٣) نفسه ، ص ٢٣٩ ، يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٧٧ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٧٤ .

(٤) أحمد كتخدا عزبان ، المرجع السابق ، ص٣٨ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ٧٥ .

وكان تجديد مدة حكم الباشا يتم بارسال خط شريف (عرف بتقرير السنة الجديدة) من السلطان إلى الباشا فى مصر ويحمل هذا الأمر رسول خاص قد يكون أحد الأغوات أو قابيجى باشا[١] أو أمير آخور[٢] .

أما اختصاصات الباشا ، فقد لخص قانون نامة مصر اختصاصات الباشا فى الفقرة التالية (تفقد أحوال الرعايا وأحوال الأموال السلطانية وحفظ وحراسة المملكة ورعايا الأمن[٣]) . وتشير عبارة تفقد أحوال الرعايا إلى الاختصاصيات المدنية والادارية للباشا ، كما تعنى العبارة التالية وهى تفقد أحوال الأموال السلطانية والاختصاصات المالية للباشا أما العبارة التالية وهى حفظ وحراسة المملكة ورعاية الأمن ، فتعنى الاختصاصات العسكرية للباشا وسلطته فى حفظ الأمن وفى الشئون الجنائية ، وسيتم التعرض إلى هذه الاختصاصات فيما يلى :

من حيث الاختصاصات الإدارية والمدنية للباشا ، فقد كان له حق الاشراف على جميع الشئون الإدارية فى مصر عن طريق رئاسته لجلسات الديوان العالى أهم مجلس ادارى فى الولاية ، وقد كان من أهم أعمال الباشا كما جاء فى قانون نامة ، أن يقيم الديوان أربعة أيام فى الأسبوع ، لايفوته منها من غير مانع شرعى [٤] .

وقد استمر الباشاوات فى مصر طوال العهد العثمانى يعقدون الديوان ويرأسون اجتماعته بأنفسهم فيما عدا بعض الجلسات ذات الطابع الخاص والتى كان يرأسها نيابة عن الباشا كتخداه أو قاضى العسكر ، وعرف الديوان باسم الديوان العالى ويحضره قادة الأوجاقات

---

(١) القابيجى باشى : رئيس فرقة القابيجية وهم حرس بوابات القصر السلطانى ، وقد اقتصرت دخول هذه الفرقة على أبناء البكوات والباشاوات وبعض الأعيان الآخرين وقد كان للقابيجية مهمة أخرى فقد كانوا يوظفون فى المحل الأول بصفتهم تشريفاتية فى حفلات الاستقبال التى تجرى بالقصر والبعثات ذات الأهمية الخاصة والسرية بوجه خاص ، مما كان يوفد إلى الولايات . وقد بلغ عدد القابيجية ١٥٠٠شخصا فى القرن الثامن عشر ، وكان اثنا عشر منهم يصاحبون السلطان فى ذهابه إلى المسجد يوم الجمعة . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٥) .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص٨٥ .

(٣) قانون نامة مصر ، المرجع السابق ، ص٧٣ .

(٤) قانون نامة مصر ، المرجع السابق ، ص٧٣ .

والبكوات وكبار العلماء [١] وكان هناك ديوان اخر عرف بالديوان الصغير أو ديوان الباشا وينعقد يوميا فى قصره بحضوره مع الدفتردار والروزنامجى وكتاب الخزينة لتصريف الشئون الادارية العادية[٢] . وكان على الباشا أن يتلقى وينفذ أوامر السلطان الادارة مصر ، وهو المسئول عن تطبيق قواعد الحكم العثمانى فيها [٣] .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية المحافظة على النظام العام ، وكثيرا ما كان الباشاوات يتدخلون لحل الصعوبات التى تهدد أو تنذر باضطراب ذلك النظام كما حدث أثناء احدى أزمات الأسعار ، فقد أرتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا فى عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م، مما إلى سخط المجتمع فقد وصل سعر أردب القمح إلى مائة وثمانيين نصف فأمر عبد الرحمن باشا - حاكم مصر حينذاك أن يباع الأردب بمائة وثلاثين نصفا فقط[٤] فى عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م ، نزلت بالبلاد مجاعة شديدة فى عهد اسماعيل باشا (فلما رأى الباشا ما فيه الناس من الكرب والغلاء أمر بجمع الفقراء والشحاذين بقرا ميدان ، فلما اجتمعوا أمر بتوزيعهم على الأمراء والاعيان على كل قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانب ولأعيان دولته جانبا وعين لهم مايكفيهم من الخبز والطعام صباحا ومساء إلى أن انقضى الغلاء[٥] .

والأمثلة على حدوث هذا التدخل من الباشاوات للمحافظة على النظام العام كثيرة ومتعددة طوال العهد العثمانى فى مصر .

ومن أهم اختصاصات الباشا المدنية ، المحافظة على نظافةالعاصمة فقد كان يأمر (بقطع السقايف والدكاكين لتوسيع الطرق والأسواق) ويهتم بتمهيد الأرض كما فعل قرة محمد باشا (١١١١هـ/١٦٩٩م [٦] كما أصدر محمد باشا فى عام (١١٠٦هـ/١٦٩٩م) أوامره إلى

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٧٧ ، جلال يحيى ، المرجع السابق ،ص١٣٨ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٨ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص ٧٣ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٧ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٠ .

(٦) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية، ص١٨١ .

الأهالى بقطع ذراع فى عمق الأرض تجاه بيوتهم ودكاكينهم [١] وذلك فى كل شوارع القاهرة حيث تراكم الأتربة والقاذورات قد أدى إلى تشويه منظر العاصمة[٢] وفى عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م) أمر محمد باشا نظار المساجد فى القاهرة بتبيضها مما جعل الناس يطلقون عليه لقب (أبى النور محمد[٣] كما أمر مقصود باشا (١٠٥٢هـ/١٦٤٢م) بحفر الخليج الحاكمى والخليج الناصرى اللذين تهددهما تراكم الطمى[٤] وأرتبط اسم حسين باشا (١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) بترميم العيون التى تهدمت من الكوبرى القريب من الجيزة[٥] ولم يفتر حماس الباشاوات فى مجال التنظيم ورعاية نظافة القاهرة الا فى أواخر القرن الثامن عشر[٦].

ولقد اهتم الباشاوات برعاية المبادى الخلقية فى ذلك العصر من ذلك ما كان من قيام محمد باشا البدكشى (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) بابطال شرب الدخان من مصر والتشديد فى منع ذلك من الشوارع والمحلات التجارية وأبواب البيوت[٧] وقد اشتهر بعض الولاة بابطال المنكرات من مصر مثل عبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢هـ/١٧٢٩م) الذى وصل به الأمر الى التنازل للوالى (الزعيم) عن جزء من ايرادته نظير ذلك[٨] فقد أمر هذا الباشا بابطال المنكرات والخمامير ومواقف الخواطئ والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة ، وجعل للوالى والمقدمين عوضا عن ذلك فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشاوات وكتب ذلك حجة شرعية[٩] .

---

(١) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب ، ص١٩٦ .

(٢) نفسه ، ص١٨٩ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٧٨ .

(٣) نفسه ، ص١٨٩ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ص٧٨ .

(٤) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص١٨٩ .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٨ .

(٦) نفسه ، ص٧٨ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٥١ .

(٨) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تاريخ وقائع مصر ، تحقيق صلاح هريدى ، ص٣٦٤ .

(٩) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، ص١٤٤ . جـ١ .

ومن الاختصاصات المدنية والادارية الأخرى للباشا ، اقامة الاحتفالات عند علمه بانتصار الجيوش العثمانية[١] ورئاسة الاحتفالات العامة مثل الاحتفالات بوفاء النيل ، وله فرحة كبيرة عند الجميع ، فهو دلالة على الرخاء بالنسبة للفلاح ، ودلالة على جميع الأموال بالنسبة للحاكمين[٢] .

وكان يشارك فى صلاة الاستسقاء لنزول المطرفى سنوات الجفاف وانخفاض النيل[٣] .

ومن الاحتفالات العامة ذات الأهمية والتى كان الباشا يرأسها أيضا الاحتفال بالعيدين[٤] ويرأس حفل خروج المحمل والكسوة فى طريقها إلى الحجاز[٥] .

أما الاختصاصات المالية للباشا ، فقد اعتبر الباشا المسؤول الأول عن تنظيم مالية مصر[٦] يساعده فى تلك المهمة الدفتردار والروزنامجى والادارة المالية التابعة لهما ،وكان على الباشا أن يضمن للدوله حسن استغلال مصادر الثروة فى مصر حتى يمكنه الوفاء بمصروفات الولاية وقد اعتبرت ولاية مصر مقاطعة يأخذها الباشا من الدولة لادارتها مقابل ايرادته منها ، ومما يؤيد ذلك ماذكر عن الوزير على باشا الحكيم الذى عقد أول جلسة للديوان (عام ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) فى قرا ميدان بحضور مجموعة كبيرة من الأمراء وأرباب المناصب ، حيث قال لهم بعد تلاوة مرسوم ولايته على مصر أتيت لأعطى كل ذى حق حقه وحضرة السلطان أعطانى المقاطعات وأنا أنعمت بها عليكم فلاتتعبونى فى خلاص المال والغلال وأخذ عليهم حجة بذلك[٧] . وكان الباشا هو المسئول عن ادراة خزينة مصر وموازنة ايراداتها ومصروفاتها لذا كان ينص فى دفاتر الخزينة على أنها دربهاء الباشا أى فى عهدته[٨] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٧ .

(٢) نفسه ، ص١٣٨ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٣٨ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٩ .

(٥) جلال يحيى ، مصرالحديثة ، ص١٣٩ .

(٦) نفسه ، ص١٣٩ .

(٧) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٧٩ .

(٨) نفسه ، ص٨٠ .

ومن أهم واجبات الباشا المالية ارسال الخزينة الارسالية . وكان ارسال هذه الخزينة إلى استانبول يمثل أحد الواجبات الرئيسية للباشا وهناك بعض التلميحات فى كتابات القناصل أو المؤرخين عن ارسال هذه الخزينة إلى السلطان . ولم يشك الرحالة فرانسوا دى با فى عام ٩٣٣هـ/ ١٥٨٥م فى مسألة انتظام دفع مصر لهذه الجزية ، وحددها بنفس المبلغ الذى كان يصل إلى ٦٠٠,٠٠٠ قرش أى ما يعادل ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه فرنسى وذكر أنها كانت ترسل إلى استانبول بريا فى حراسة مشددة . وكان القناصل يذكرون من وقت إلى آخر أن الباشا كان يؤجل بعض العمليات نتيجة لانشغاله بارسال الخزنة إلى استانبول . وكانت هذه العملية تتم فى احتفال خاص ، يشارك فيه عدد من كبار الموظفين . ولذلك فان الخزينة الارسالة كانت تتم بطريقة منتظمة حتى منتصف القرن الثامن عشر ، ولكنها وصلت بشكل منقطع فى أثناء النصف الثانى من هذا القرن فانقطعت فى عام ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م وهى السنة التى سيطر فيها على بك الكبير على مصر ، وكان يطمع فى الاستقلال ورفض ارسال الخزينة الارسالية. أما محمد بك أبو الذهب ، الذى كان على علاقات أحسن مع السلطان ، فإنه سمح للوالى بعد أن أصبح شيخا للبلد ، بالقيام بواجبه من جديد ، فأرسلت الخزينة الارسالية فى عام ١١٨١هـ / ١٧٧٤م إلى استانبول ، وشكر السلطان أبا الذهب على ذلك ، وحينما ترك حسن باشا قبودان البحرية العثمانية مصر ، بعد حملته اليها فى عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م أوصى وكيله الذى سيصبح اسماعيل باشا فيما بعد بضرورة اعادة أمر ارسال الخزينة الارسالية بشكل منتظم . وحينما عاد ابراهيم بك ومراد بك إلى القاهرة فى عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م بعد أن كان القبودان باشا قد طردهما منها ، انقطع وصول الخزنة إلى استانبول . وفى أثناء العقد الأخير من هذا القرن كان من المؤلم على نفوس رجال الباب العالى أن يروا انقطاع وصول الخزينة من القاهرة[١] .

وكان باشا مصر يرسل كذلك إلى استانبول ضريبة نوعية تشتمل على مواد غذائية ، وعلى كميات من الحلوى لسيدات القصر ، وكانت تصل فى قافلة بحرية تضم عدداً من السفن ، مزودة بالمدفعية ، وكانت تشتمل على الأرز والسكر والتمر والزعفران والفلفل والمسك والسنامكى والصمغ ، هذا علاوة على البخور والحناء ، وكان ذلك يمثل أعباءا بالنسبة للباشا

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٤٤ .

في القاهرة[١] والباشا هو المسئول عن ادارة شتى شئون مالية مصر فى الحدود التى ترسمها له الدولة وفى حدود التعليمات التى كانت تصله باستمرار من الباب العالى[٢] .

ولابد من الحصول على موافقة الباشا على أى عملية نقل حق الالتزام (سواء فى الأرض أو الجمارك) من شخص إلى آخر فقد (أذن له السلطان بالختم والعلامة على جميع التمكينات[٣] التى يقع فيها التغيير بالبيع والشراء[٤] .

والباشا هو المختص بتعيين كل موظفى الادارة فى مصر ، وعند موافقته على تعيين أى موظف يصدر له بيورلدى[٥] بذلك وقد طبق هذا النظام بالنسبة لجميع موظفى الادارة فيما عدا منصب الدفتردار وأمير الحج فقد كان الباشا هو الذى يرشح بعض الأمراء لشغل هذين المنصبين الهامين ويرسل أسماء المرشحين إلى أستانبول ، وغالبا ما كانت الدولة تؤيد رأى الباشا وترسل خطا شريفا سلطانيا بالموافقة على تعيين من رشحها الباشا[٦] كما اختص الباشا بمنح رتبة الصنجقية لأمراء مصر أو عزلهم منها[٧] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٤٦ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨٠ .

(٣) التمكينات : من أهم اصطلاحات العصر العثمانى ويعنى التمكين منح الحق فى الانتفاع بأرض أو جمرك أو وظيفة ، وقد عرفت تمكينات الأرض والجمارك التى كانت تصدرها الروزنامة بعد اعتماد الباشا لها وتوقيع الدفتردار عليها باسم التقاسيط وبهذه التقاسيط كان الملتزم يثبت حقه فى حصة الالتزام الزراعى أو جهة الجمرك المعينة له وبتمكين الوظيفة يثبت الموظف حقه فى وظيفه . (أنظر ، محمد شفيق غربال ، مصر عند مفرق الطرق ، ص١١ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨١) .

(٤) نفسه ، ص ٨١ .

(٥) بيورلدى : كلمة تركية تعنى أمرا عاليا صادرا من الباشا ومحل بالطغراء أو الخاتم (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٤٢) .

(٦) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ٢١٢ ، عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١، ص٥٠ .

(٧) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٣٦ .

ومن أهم الاختصاصات المالية للباشا قيامه بدفع مرتبات الموظفين من ساليانات[١] ومواجب وعلوفات[٢] وجرايات[٣] ويقدر مايكون الباشا سخيا فى منح العلوفات بقدر مايعلو شأنه ويوصف بالكرم ، فقورد باشا (١٠٠٣-١٠٠٤هـ/١٥٩٤-١٥٩٥م) ، كان كريما يعطى العلوفات لكل من سأله من الرجال والعلماء والفضلاء والأصاغر حتى النساء ، وكذلك فعل فى الجرايات مثل فعله فى العلوفات [٤] .

واذا ما حاول الباشا تخفيض علوفات الجند كان يتعرض لمهاجمتهم ومحاولتهم الاعتداء عليه ، فعندما حاول أويش باشا فى عام (٩٩٧هـ/١٥٨٨م) قطع علوفة ثلاثة أيام من سائر العسكر ، هاجمه الجند وتعدوا على قصره ونهبوا أمتعته وقتلوا بعض أتباعه ، ثم أخذوا ابن الباشا رهينه عندهم حتى يستجيب لمطالبهم وهاجموا الحوانيب ونهبوا المنازل ، فاضطر الباشا لارسال بيورلدى للقاضى حتى نفذ مطالبهم[٥] .

وبالنسبة لاختصاصات الباشا فى الشئون العسكرية وفى رعاية الأمن ، فهو الرئيس الأعلى للأوجاقات العسكرية وهو المسئول عن الدفاع عن البلاد ضد أى عدوان خارجى ، وعليه اعداد وتوجيه الحملات العسكرية اللازمة ، لحفظ الأمن فى الداخل من ثورات المتمردين والعربان وعلى الباشا واجب تجهيز الفرق المطلوبة للاشتراك فى حروب السلطان خارج مصر ، والتى كانت تذهب بقيادة أحد كبار الصناجق بناء على تكليف الباشا له بذلك[٦] .

---

(١) ساليانة : مرتب سنوى نقدى يصرف من الخزينة للباشا ولكبار الأمراء والصناجق وغيرهم من كبار الموظفين . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٤٤٨) .

(٢) علوفة : جمعها علوفات وهى مرتبات العسكر . (أنظر ليلى عبد اللطيف ، أحمد ، المرجع السابق ، ص٤٥٠) .

(٣) جراية وعليق ، جمعها جرايات وعلائق وتعنى المرتبات العينية من قمح وشعير والتى كانت تصرف من الخزينة للباشا وكبار موظفى الادارة ترد فى الوثائق بمعنى دفتر أو قائمة . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٤٤٤) .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٤٤٤ .

(٥) محمد بن أبى الرور البكرى ، كشف الكربة ، ص٣٠١ ، ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ٨٢ .

(٦) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٨٢ .

وقد اهتم الباشاوات فى مصر برعاية الأمن عن طريق محاربة قطاع الطرق والقضاء على اللصوص ، وقد اشتهر منهم فى هذا المجال داوود باشا الخادم (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨م-١٥٤٩م) الذى تتبع المفسدين وقتل أعداد كبيرة منهم [١] وقد غالى بعض الباشاوات فى ذلك حتى وصفهم المؤرخون المعاصرون بأنهم كانوا سفاكين للدماء مثل على باشا السلحدار (١٠١٠-١٠١٢هـ/١٦٠١-١٦٠٣م) فقد أستأصل المفسدين وكان سفاكا للدماء[٢] ومسيح باشا الخادم (٩٨٢-٩٨٨هـ/١٥٧٤-١٥٨٠م) كان قتالا سفاكا للدماء يقال أنه قتل فى هذه المدة نحوا من عشرة آلاف نفس وغالبهم من أهل الفساد ، ولأن اللصوص كانت كثيرة فى زمن حسين باشا الذى سبقه فقطعها مسيح باشا المذكور[٣] .

وقد عبر المؤرخون المعاصرون عن اعجابهم باهتمام الباشاوات بشئون الأمن ونشر الرخاء بين الرعية فذكروا عن داوود باشا (٩٤٥-٩٥٦هـ/١٥٣٨-١٥٤٩) أن الرخاء فى زمنه موجود والجور والظلم فى دولته معقود والرعايا فى الرفاهية وتسهيل الأرزاق من غير مشقة[٤] .

وقد اشتهر بعض الباشاوات بالمغالاة فى استخدام هذه السلطة مثل محمود باشا (٩٧٣-٩٧٤هـ/١٥٦٥-١٥٦٦م) والذى عرف عنه أنه بمجرد وصوله إلى القلعة ، قدم اليه أمير الصعيد الأمير محمد بن عمر الهوارى بسفينة كبيرة مشحونة بأنواع الهدايا والتحف قدرت بخمسين ألف دينار ، ولكن كان رده على ذلك بمصادرة أمواله وممتلكاته[٥] . وقد اشتهر هذا الباشا بالظلم حتى على الموظفين وكان يتورع بالقتل والمصادرة ، وقد كانت نهاية هذا الباشا بالقتل على يد مجهول ، بتحريض بعض الأمراء المماليك[٦] وهناك الأمثلة العديدة على ذلك .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات ، ص ١٢٧ .

(٢) محمد بن أبى الرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص ١٥٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٦ .

(٣) محمد بن ابى السرور البكرى ، النزهة الزهية ، ص١٥٧ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة ص٨٢.

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٨٢ .

(٥) يوسف الملوانى ، تحفة الاحباب ، ص١٣٦ .

(٦) نفسه ، ص١٣٦ .

وبالنسبة لأوامر الباشا الادارية ، فقد عرفت أوامره الادارية باسم البيورلدى ، وهى كلمة تركية تعنى أمرا عاليا ، ويصدر البيورلدي دائما باللغة التركية ويحلى بالطغراء أو الخاتم الباشوى ويشار إليه باسم بيورلدى شريف حضرة وزير أى الأمر الشريف الصادر من الباشا الذى كان يصدر أوامره لسائر الشئون الادارية فى مصر[١] .

وفى القرن الثامن عشر عندما سرى التدهور الى النظم الادارية فى مصر ، كان يشار إلى أوامر الباشا بلفظ فرمانات[٢] وقد حدث ذلك من قبيل التجاوز اذ المسلم به أن الفرمان لايصدر الا عن السلطان فهو أمر سلطان وليس أمرا باشويا[٣] .

أما موارد الباشا ومصروفاته ، فقد كان له ايرادات من موارد دخل متعددة كرسوم بعض الجمارك وقرى الكشوفية وضريبة كشوف أرباب المناصب والمرتب أو السالبانة التى تصرفها له الخزينة[٤] وايرادات من قرى الحلوان[٥] .

وبالنسبة لعزل الباشا ومحاسبته ، فقد وجدت أسباب متعددة لعزل الباشا من ولاية مصر منها [٦] :

١- اعتلاء سلطان جديد عرش السلطنة .

٢- سوء تصرفات الباشا .

٣- النقل للعمل فى ولاية أخرى .

٤- النقل لمنصب الصدار العظمى أو غيرها من المناصب العليا فى السلطنة .

٥- فساد الإدارة المركزية .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٨٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر ، ٨٤ .

(٣) نفسه ، ص٨٥ .

(٤) نفسه ص٨٦-٩٨ .

(٥) نفسه ، ص٩٨ .

(٦) نفسه ٩٨-١٠٧ .

٦- مؤامرة الادارة المركزية .

٧- مؤامرات الحامية وأمراء المماليك .

وبعد صدور الأمر بعزل الباشا لم يكن يسمح له بمغادرة مصر قبل محاسبته على يد الباشا الجديد عن خزينة البلاد وايراداتها ومصروفاتها ، وإذا حاول الباشا مغادرة مصر قبل وصول خلفه ، وقبل القيام بعملية محاسبته كان الأمراء المماليك يمنعونه من السفر بالقوة ، فحين عزل مصطفى باشا فى عام ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٥م حاول السفر قبل وصول الباشا الجديد ولكن منعه الصناجق من السفر حتى يحضر بيرام باشا لمحاسبته ، وفعلا لما حضر وجد أن الخزينة تحتاج إلى عشرين كيسا فالزمه بدفعها وتم ذلك[١] وهناك الكثير على ذلك .

وعلينا أن نذكر أن معاونى الباشا فهو القائم مقام والكتخدا ، والخازندار والتورجمان ، وسر متفرقة وسر كيلار الوزير وسنجقدار ، كاتب الديوان وديوان أفندى ، مقابلة حضرة وزير ، وسهرمهران ختم ، ميرخو ، سرطباخين ، والجاشنكير وسر منادين ، وسر جاوشان ، وكيل خرج، رئيس الديوان[٢] .

ديوان الباشا :

قبل صدور قانون نامة ، كان باشا مصر يرأس مجلسا اداريا مكونا من رؤساء الحامية ومن الكتخداء والدفتردار وأمير الحج الذين يعاونون فى ادارة البلاد كما يحولون دون اساءة استعمال لسلطته . وقانون نامة قد حول ذلك المجلس الادارى إلى ديوان على غرار ديوان استانبول . وهذا الديوان تسميه وثائق القاهرة (ديوان محروسة مصر) و(ديوان حضرت ولى النعم والى مصر) ويرأس الباشا أو الكتخدا اجتماعاته . وفى الأحيان كان الباشا يتابع جلساته من وراء الستار كما كان يحدث فى استانبول . ويضم الديوان خلاصة العناصر التى تشترك فى ادارة مصر ، فيحضره طائفة من الموظفين مثل الدفتردار والمهردار ، حامل الاختام، والدويدار ، حامل الدواة ، وأكثر من فرمانجى لتحرير الفرمانات مع جماعة من الكتاب والتراجمة . وكذلك يحضره قاضى عسكر أفندى أى قاضى القضاة والمفتون على المذاهب

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ١٢٥-١٢٦ .

(٢) نفسه ، ص١٢٧ .

الأربعة ، وكبار رجال الدين والأمراء الصناجقة وأغارات واختيارية الأوجاقات السبع ، وعضوية هؤلاء الأشخاص ثابتة وتابعة لوظائفهم ، لذا كان لابد من حضورهم جلسات ارسال الخزينة الارسالية ، واعلان وفاء النيل ، واستلام أمير الحج لأموال الحرمين الشريفين ومحاسبة الباشا وغير ذلك[١] وكان الباشا يتلقى مباشرة فرمانات السلطان التى يخاطبه فيها عن ادارة مصر ، وكذلك يخاطب دفتردار وقاضى عسكره وأمراء مصر من البكوات المماليك ورجال الحامية ، فيعملون جميعا على تنفيذ أوامر السلطان . والباشا يدعو الديوان إلى الإجتماع أربع مرات فى الاسبوع ، وتلخص اختصاصاته فى ادارة شئون الولاية مثل الاجراءات المالية وأعمال الخزينة ، وضرائب الأرض وبحث القضايا الهامة والباشا لم يكن يستطيع أن يقطع فى شئون الادارة الا بعد الاستئناء باراء ممثلى الأمراء المماليك ورجال الأوجاقات كل فيما يخصه. وكانت تعرض أوراق الديوان المختلفة على الباشا فيصدر عليها أوامره التى تعرف باسم "بيورلدى" أى تفضل وتوقع بخاتم الباشا . وكذلك كان يصدر الباشا وفى أغلب الأحوال بناء على رأى الديوان . فرمانات باشوية باعتباره ممثل السلطان العثمانى ، وتفتتح عادة بهذا التعبير (صدور هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف عن ديوان مصر المحروسة) وكانت تسجل فرمانات الباشا فى القلم المختص بها[٢] .

وكذلك وجد فى مصر الديوان الصغير ، وكان يجتمع فى كل الأيام فى قصر الباشا ، ويحضره الكتخدا والدفتردار والروزنامجى وبعض رجال الأوجاقات السبعة ، وكان ينظر فى المسائل الادارية ويشرف على تطبيق قواعد الادارة العثمانية فى مصر[٣] .

هيئة المماليك ، الصناجق والكشاف :

بعد أن أتم السلطان سليم فتح مصرلم يعمل على القضاء على المماليك - كما رأينا - مكتفيا بما نالهم من الهزيمة . وأول والى على مصر العثمانية كان خاير بك وهو من المماليك . فلماذا اتبع السلطان سليم هذه السياسة أولا لأن المحافظة والابقاء على أمراء المماليك كان

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥١ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص ٢٥٢ .

متمشيا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب التى خضعت لها ، فالدولة العثمانية لم تكن تغير كثيرا فى نظم البلاد المفتوحة ، وامراء المماليك كانوا أدرى بعادات البلاد وحكمها. ومن ناحية أخرى فانه لم يكن من المستطاع القضاء نهائيا على قوة المماليك الحربية ، فلم يكن هناك بد من استخدام المماليك فى حكم مصر وفى الدفاع عنها . ومن ناحية ثالثة رأى السلطان سليم ومن بعده السلطان سليمان أن يدع المماليك يشتركون فى حكم البلاد وفى الدفاع عنها لكى يكونوا عنصرا موازنة ازاء الباشا ورجال الأوجاقات العثمانية[١] .

وكان الصناجق من أمراء المماليك المصريين عنصرا هاما فى حكم وادارة البلاد .ويعرف زعيمهم بشيخ البلد ومقره القاهرة ، وهو ثانى شخصية فى مصر بعد الباشا ، وكان يوازن سلطته وأحيانا يحل محل الباشا المخلوع حتى يأتى الباشا الجديد . وكان الباشا يعهد إلى بعض الصناجق البكوات بمهمة توطيد الأمن وحماية القاهرة من اعتداء العربان ويطلق عليهم لقب وال . وكان الصناجق يقومون أيضا ببعض السفارات الخاصة ، ويحمل أحدهم خزينة مصر إلى استانبول ، وكان يعهد اليهم أيضا بقيادة بعض فرق الأوجاقات العثمانية فى مصر ، أو بقيادة الفرقة المصرية العثمانية الذاهبة للاشتراك فى حروب السلطان أو بوظيفة الدفتردار أو أمير الحج[٢] .

الحامية العثمانية والأوجاقات[٣] السبعة :

الحامية العثمانية هيئة حربية مهمتها الدفاع عن مصر والاشتراك فى حروب السلطان . وكذلك لها اختصاصات أخرى غير حربية ، فهى تساعد الباشا والصناجق فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر ، وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطتهم . وكان أغوات الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة ، وهم كهيئة رسمية لهم كلمة مسموعة

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٣ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٤ .

(٣) الوجاق : من التركية أوجاق بضم الهمزتضمة مبسوطة ومعناه الأول فى التركية الموقد أو المدخنة . أطلق على كل ماتنفخ فيهنار فأطلق على البيت من وبر أومد ، ثم على أهله ثم على الجماعة تتلاقى فى مكان واحد ثم اطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف وعلى الصنف من أصناف الجند (أنظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ١٧-١٨ ، وانظر أيضا أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص١٩٤) .

فى ادارة البلاد ، ويتضح ذلك فيما تكافوا يقدمونه من المطالب إلى الباشا اذا ما أحسوا منه خروجا على العرف القديم ، وكلما فكروا فى استحداث قاعدة جديدة يعدلون به نصوص قانون نامة . وكذلك كان رجال الحامية العثمانية يشتركون فى صيانة الأمن فى القاهرة ويساهمون فى حكم الأقاليم وفى جمع الأموال الأميرية[١] .

وكان رجال الفرق السبع اما مشاة (بيادة) أو فرسان (أسباهية) ولكل أوجاق أغا أى رئيس وكتخداه . وقد اشتملت الحامية العسكرية منذ بداية العهد العثمانى على عنصرى العثمانيين والمماليك ثم دخلها أخلاط من الشوام والمغاربة وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر العثمانى حتى طغى عليه فى أواخر العهد العثمانى بمصر[٢] وكان عدد الحامية يتراوح بين ١٣ ألفا و١٥ ألفا وكانت طبقا لقانون نامة مصر منذ صدوره عام ٩٣١هـ/١٥٢٥م قواعد الجهاز العسكرى فى ولاية مصر ، حيث حددت مهام كل جماعة (طائفة أو أوجاق) على حده منعا لحدوث الاحتكاك والتنافس بين الجماعات كما كان يحدث قبل ذلك وأشار القانون أيضا إلى عدد كل جماعة وعلوفات العسكر على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، وفضلا عن ذلك وضع الضمانات الضرورية للاحتفاظ ، بالصبغة العسكرية لرجال الأوجاقات تفاديا لوقع الاختلال والتفكك بين صفوفها فى سبيل ذلك أعطى الأغاوات والباشا الحاكم عدة سلطات لمعاقبة الخارجين على القانون ، وندرس فيما يلى تلك النواحى بالتفصيل :

أ- جماعات السياهية (الفرسان) :

١- جماعة كوكلوبان : وقد وصفهم القانون بأنهم من الفرسان الذين يركبون الخيول ويتقنون استخدام الرماح فى حذق ومهارة ، فهم يجيدون اطلاقها يمينا ويسارا . وتنحصر مهمة أفرادها فى الأقاليم (الكشوفيات والصنجقية) فى خدمة الكشاف (حكام الاقاليم) وهم يخضعون لقادتهم وكبرائهم وينفذون أوامرهم ، ويقوم أفرادها بحفظ الأمن وحراسة البلاد

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص١٧٧ .

(٢) نفسه ، ص١٧٧ .

والتصدى لاعتداءات العربان على الأراضى الزراعية وعليهم الامتثال لأوامر الكاشف ونواهيه[(١)] .

وكان للأسباهية حاميات خاصة فى اقليم جرجا وابريم ، أى على حدود مصر الجنوبية عرفت فى الوثائق باسم جماعة كوكلويان محافظين جرجا وابريم وكذلك جماعة التفنكجيان[(٢)] .

وكانت السباهية مصدر إزعاج دائم للفلاح المصرى ، الذى كانوا يرهقونه دائما بطلباتهم الكثيرة وظلمهم ، مما أدى إلى حصولهم على الامتيازات الكثيرة واستغل البعض ذلك ، أمثال الهوارة الذين امتنعوا عن دفع الضرائب بحجة انتمائهم إلى هذه الأوجاقات العسكرية ، وظهر ذلك واضحا فى عام ١١٠٩هـ/١٦٩٨م ، ولولا اعلان تنكر هذه الأوجاقات لهم لما دفعوا أموال الميرى والغلال اللازم لحاكم جرجا عبد الرحمن بك فى ذلك الوقت[(٣)] .

وازداد نفوذهم وقوتهم ، حتى أنهم تدخلوا فى عزل حاكم جرجا فى عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م محمد بك لأنه أنزل عربان المغاربة وأمنهم ، وتعللوا بأن القيام بمثل هذا العمل من جانب حاكم الولاية سيؤدى إلى الفساد ، وانتهى الأمر برضوخ الباشا فى القاهرة لاجابة مطالبهم وعزل الحاكم وعين بدلا منه محمد بك قطامش[(٤)] .

ولم تقف قوتهم غند هذا الحد ، بل وصل تحديهم لسلطات القاهرة ، وأعلنوا استقلالهم بمصر وقتلوا واليها ابراهيم باشا عام ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ووصلت البلاد الى حالة من الفوضى حتى اضطر السلطان العثمانى أحمد الأول (١٠٠١هـ/١٦٠٣م - ١٠٢٦هـ/١٦١٧م) إلى ارسال محمد باشا (١٠١٦هـ/١٦٠٧م -١٠٢٠هـ/١٦١١م) المعروف بقول قران وقضى على نفوذهم تماما ، وعلى النفوذ السياسى والعسكرى للماليك مؤقتا ، وعرف عنه أنه أبطل الطلبة التى فرضوها على الفلاحين ، ونفى زعماءهم الثلاثة عشر إلى ابريم ،

---

(١) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى فى مصر ، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٧٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٢٤ .

(٣) يوسف الملوانى ، المصدر السابق ، ص٣٣٧ .

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٦١ .

وقضى على قوتهم تماما عام ١٠١٧هـ/١٦٠٨م[١]. وعرف ذلك بالفتح العثمانى الثانى ، ومما يجدر الاشارة اليه أن عربان هوارة قد اشتركوا فى القضاء على نفوذهم[٢] .

٢- جماعة تفنكجيان سوارى : ويقوم رجال هذه الجماعة مع زملائهم من الكوميلية بحراسة الأقاليم وحفظ الأمن بها وحمايتها من أغارات البدو كما يتعهدوا بحراسة الجسور للعناية بنظام الرى وحسن توزيع المياه على الأراضى الزراعية[٣] ومساعدة الملتزمين فى تسجيل الأموال من الفلاحين[٤].

٣- جماعة الجراكسة : وأفراد الطائفة من المماليك الجراكسة الذين دخلوا فى خدمة الدولة، واستظلوا بالسيادة العثمانية بعد أن سمح السلطان لهم بذلك ، وهم من الفرسان الذين اشتهروا بركوب الخيل واتقان فنون الفروسية ويعملون على تنفيذ وأداء الخدمات السلطانية ومسرح نشاطهم فى الاقاليم أيضا[٥] .

ب- أوجاق مستحفظان :

وهؤلاء هم الانكشارية ، وكانوا أقوى الأوجاقات وأكثرها عددا ، عرفوا بأوجاق السلطان ومهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان كما كانت لهم رقابة عليه ، ومنهم طائفة من كبار أصحاب المناصب مثل كتخدا الباشا فى بعض الأحيان ، وأغا الانكشارية الذى كانت له الرياسة العليا على ضبط مدينة القاهرة ، وكذلك سردار الحج وسردار الخزينة[٦] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المصدر السابق ، ص١٣١-١٣٤ وكانت الطلبة قد فرضت على الفلاحين منذ زمن أويس باشا عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م وقد وصلت قوة السباهية إلى اصدار أوامرهم بعدم استخدام العربان المماليك البيض ولايستخدم النصارى جوار ولاعبيد ويطشوا بهم (انظر ايضا البرلس السعدى ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن بالمجلة التاريخية العدد ٢٤ ، ص٢٨٦ .

(٢) محمد بن ابى السرور البكرى ، كشف الكربة برفع الطلبة ، ص٣٥١ .

(٣) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى فى مصر ، ص٧٦ .

(٤) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٧ .

(٥) قانون نامة مصر ، ص٣١ .

(٦) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٧ .

جـ- أوجاق عزبان :

كان لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات فمنهم بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس وكان من رجاله أمين البحرين وهو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة ، فيما يتعلق بالسفن وبالضرائب المفروضة على الغلال الواردة لهذين الساحلين . وكذلك كانت لهم اختصاصات بوليسية فتتألف منهم مراكز البوليس بالقاهرة ويشرفون أيضا على الملاهى والبهلوانات[١].

د- أوجاق جاوشان :

كان العمل الرئيسى لهذا الأوجاق تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزينة الروزنامة ،ومن واجبه أيضا الاشراف على شون الغلال الأميرية ، وكان المحتسب فى العهد العثمانى من رجال الجاوشان ، وتلخص اختصاصاته فى الاشراف على الاسواق وضبط الموازين والمكاييل وتسعير المواد التجارية وضبط الأمن [٢] .

و- أوجاق متفرقة :

أهم أعمال هذا الأوجاق حفظ القلاع التى تحيط بمصر مثل قلاع الإسكندرية ، ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وابريم ، ولكل من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاة والفرسان والطوبجية مع جماعة من الطبالين ونافخى البورى والمعمارين والنجارين . ويشرف هذا الأوجاق أيضا على تشهيل القوافل ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد والقاهرة والسويس ويتولى هذا العمل قافلة باشى أى رئيس القافلة ، وكذلك يعنى أوجاق المتفرقة بجمع البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر الذى يرسل جانب منه إلى السلطان[٣] .

٥- القضاء :

أولى العثمانيون شئون القضاء فى مصر جانبا كبيرا من اهتمامهم ، اسوة بما كانو يتبعونه فى مراكز السلطنة فى مختلف الولايات ، فأحاطوا منصب القاضى بأهمية كبيرة ومنحوه

---

(١) نفسه ، ص٢٥٧ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٦ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٦ .

سلطات واسعة قضائية وادارية ، مما جعل الوثائق تطلق عليه لقب الحاكم الشرعى ، فالقاضى هو المختص بالفصل فى خصومات الأفراد ، والنظر فى شئون تركاتهم ووصاياهم وسائرشئونهم الشرعية ، فلا يتم اتفاق بين شخصين الا أمام القاضى ، وأمامه تجرى جميع عمليات البيع والشراء فى الأرض والعقارات . وكل موظف لايستطيع أن يمارس مهامه المحددة له الا اذا أثبت لدى القاضى صحة تعينه ، وسجل براءة هذا التعيين فى سجل المحكمة . ويشترك القاضى اشتراكا فعليا فى ادارة شئون الولاية عن طريق عضويته بالديوان العالى وهو أعلى مجلس ادارة فى الولاية[1] .

وأصبح القضاء فى مصر العثمانية تابعا للقضاء الإسلامى فى استانبول ، وكان السلطان يرسل إلى مصر ، قاضى القضاة المعروف باسم "قاضى عسكر أفندى ، ويأتى فى البروتوكول العثمانى من حيث الترتيب ، بعد قضاة استانبول ومكة المكرمة والمدينة وبروصة ، بذلك يتضح أنه كان فى مقدمة قضاة الدولة العثمانية [2] والذى تنعته الفرمانات العثمانية "بأقضى قضاة المسلمين .. وارفع اعلام الشريعة والدين .. مولانا قاضى مصر ، ويشترك فى محاسبة الباشا فى آخر ولايته ، ويشرف على القضاء فى أنحاء البلاد . وفى بدء الحكم العثمانى فى مصر كان السلطان يرسل قضاة عثمانيين يعاونون قاضى العسكر فى تطبيق العدالة فى مصر، وهؤلاء يستعينون بالتراجمة لجهلهم لغة البلاد وتقاليدهم . وفى العهد العثمانى أصبح مذهب أبى حنيفه هو المذهب السائد ، ولم يمنع ذلك وجود مفتين على مذاهب الشافعى ومالك وابن حنبل ، يرجع اليهم القضاة عند الضرورة . وكان القضاة يفصلون فى أغلب القضايا المدنية والجنائية ، ولايصدرون أحكامهم الا بعد اثبات الحادث . وكانت أحكامه قابلة للنقض بعد الرجوع إلى المفتين وكانت تعرض المشاكل القضائية المهمة على ديوان الباشا لابداء الرأى فيها[3] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٢ .

(٢) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى لمصر العثمانية (١٥١٧-١٧٩٨م) القاهرة ١٩٩٨ ، ص٨٤ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٢ .

وكذلك من اختصاص القضاة فى مصر العثمانية الاشراف على ادارة الأوقاف والمرتبات الخيرية المخصصة للعلماء أو المجاورين بالأزهر . أو لأهل الحرمين الشريفين ، وتقسيم التركات وتحصيل الرسوم على المبايعات ، والتصرفات العقارية مع تسجيل حجج البيع والشراء . وكانت تحول إلى قاضى العسكر الأوراق من الديوان الدفترى ، فيما يستدعى التحقيق من عرائض الشكوى ، ومشاكل الملتزمين ، فينظر فيها ويصدر عنها أحكامه الشرعية التى يأخذ بها الباشا العثمانى[١] .

كما اختص قاضى العسكر فى قضايا ذات اختصاص نوعى إضافة إلى ماسبق هى [٢] .

١- فسخ الأنكحة .

٢- مبايعة الأنقاض .

٣- الكتابة على الواقف بماله من الشرط .

٤- الكتابة على أوقاف الدشايش .

وتصدر عن المحاكم الشرعية "حجج شرعية يثبت فيها صرف مرتبات العساكر وتسجل بها حالات انتقال الالتزامات و (اعلامات شرعية) وتحتوى على أحكام قاضى العسكر فى مسائل الالتزام ، واشهادات شرعية تسجل فيها حالات معينة كانشاء سفن نقل الغلال إلى الحرمين الشريفين أو حماية اليهود من استبداد الانكشارية ، و "تمكينات شرعية" تسجل فيها بعض المرتبات والمنح ، أو ينص فيها على حق الموظفين فى وظائفهم[٣] .

وكان قاضى العسكر وسائر القضاة يحصلون على مراكزهم بالشراء فى نظير الرسوم التى يحصلونها مثل رسوم التمغات والقضايا ومعاينة التركات وتقسيمها ورسوم الحجج والأوراق التى تصدر عن المحاكم . وقد يؤثر القاضى أحيانا الاقامة فى العاصمة دون الذهاب إلى مقر عمله فيرسل من ينوب عنه . وعندما ضعف النفوذ العثمانى فى مصر نقص العنصر العثمانى فى القضاة ، وحل مكانهم قضاة من المصريين . وقد نشأت قصص عن ذمم القضاة وشططهم

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٨ .

(٢) نفسه ، ص٢٥٩ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٥٩ .

فى جمع الرسوم دون العناية بتحقيق العدالة ، فكانت الحكومة تتدخل وتحاول أن تمنع ذلك الاختلال ، وأن تعمل على تحقيق العدل ، الا أن ذلك لم يكن من المستطاع فى الغالب فى عصر تأخر الدولة العثمانية[١] .

أما عن مدة تولية قاضى القضاة ، فنجد فى بداية العهد العثمانى كان قاضى القضاة ، يشغل منصبه لسنوات طويلة وصلت إلى ستة عشر عاما متوالية ، ثم قصرت مدة شغل القاضى لوظيفته تدريجيا ، فأصبحت تتراوح بين ثلاث سنوات وسنة واحدة ، وفى القرن الثامن عشر وحتى أواخر العهد العثمانى أصبح قاضى القضاة يعين لمدة سنة واحدة[٢] .

وفى حالة وفاة العسكر وهو فى الخدمة أو عند انتهاء مدته كان الباشا يصدر فرمانا بتعيين قائم مقام عنه حتى يصل القاضى الجديد من استانبول وفى هذه الحالة كان القائم مقام يطلع إلى الديوان ، ويتولى أعمال القائم مقامة حتى قدوم قاضى العسكر إلى مصر[٣] .

بالإضافة إلى ذلك يوجد قضاة الأقاليم حيث قسم الاقليم المصرى إلى ستة وثلاثين قضاة يضم ست رتب ، وكانت المرتبة الثانية فى كلا القسمين تسمى موصلة تمهيدية . وكان القضاة فى الاقاليم درجات أعظمهم قضاة المديريات البحرية والثغور .

ويعين قاضى عسكر الأناضول قضاة الاقاليم ولاتوجد سلطة لقاضى عسكر عليهم منهم مستقلون عنه تماما . كما أن كل اقليم مستقل من الناحية القضائية عن الآخر[٤] .

أما الاختصاصات القضائية لقضاة الأقاليم نظر قضاة الشرع فى الأقاليم فى كافة أنواع القضايا التى تعرض عليهم ، فلم تكن هناك قضايا مخصصة لهم ، ومرد ذلك أن القاضى فى الاقليم كان رئيس الهيئة القضائية بهذا الاقليم ، لذا فلم تكن هناك نوعية محددة من القضايا

---

(١) نفيسه ، ص٢٥٩ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص٨٧ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص٨٥ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، عبد الرازق ابراهيم عيسى ، تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ، ص٨٧ .

أو اختصاص قضائى نوعى ومن حق الناس اللجوء إلى المحاكم فى أى وقت ورفع الدعوى على خصوصهم وطلبهم امام الشرع . ويقدم مقدمو الادراك وهم المسئولون عن الأمن فى الاقاليم - من يقبضون عليه من المفسدين إلى القاضى الذى يقوم بالنظر فى حالته أو الأمر بسجنه حتى يظهر من أمره ماتكشف عنه التحريات[١].

وفى المحاكم الاقليمية أيضا ولدى القاضى كان يجرى تنصيب مشايخ طوائف الحرف وعزلهم أيضا[٢] واختصوا أيضا بالطب الشرعى والكشف على الجثة قبل دفنها وذلك بمساعدة الجراحجية[٣] وتحديد أسعار المأكولات ، كأنواع اللحوم والخبز وغير ذلك ، ويكون ذلك بحضور بعض المسئولين عن بيع هذه المأكولات ثم يقوم القاضى عن طريق رجاله بالجهر بالنداء بالتسعيرةالجديدة فى الأسواق[٤] .

أما عن مدة شغل القاضى لوظيفته تصل إلى عامين أو أكثر فى أوائل العهد العثمانى ، ولكن فى القرن الثامن عشر لم تعد مدة خدمة القاضى تزيد عن سنة واحدة[٥] .

٦- المفتون :

وقد عرف نظام الافتاء فى مصر فى العصر المملوكى السابق لوجود العثمانيين فى مصر اذ كان المماليك يعينون مفتيا من كل مذهب يقيم فى دار العدل القائمة فى عاصمة كل نيابة . وفى القرن السادس كان كثير من المفتين فى مصر والشام من أصل رومى أى من الأناضول أما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد غدا المفتون فى مصر وغيرها من البلاد العربية شخصيات محلية عربية ، والمفتى عالم دينى ولم يكن يشترط تخرج رجال الافتاء فى الاقاليم من مدارس استانبول كقاضى العسكر وانما كان يقبل تخرجهم من أية مدارس أخرى[٦] .

---

(١) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، القضاة فى مصر العثمانية ، ص٩٤ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٧٥ .

(٣) عبد الرازق ابراهيم عيسى ، المرجع السابق ص ١٠١٠ .

(٤) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٢٧٨ .

(٥) نفسه ، ص٢٨٥ .

(٦) نفسه ، ص ٢٩٠ .

وقد وجد فى مصر مفتون على المذاهب الأربعة فى الاقاليم كانوا يحضرون مجالس الشرع فى المحاكم الاقليمية حينما يكون موضوع الجلسة متعلقا بادارة الاقليم . ويأتى المفتى فى الاقليم بعد القاضى ، وفوق نائبه ، فلم يكن للمفتى فى مصر الدرجة التى وصل اليها المفتى فى دار السلطنة نفسها . وفى مصر العثمانية كان العلماء المحلين هم الذين يختارون مفتيهم ثم تعمل السلطات على الاعتراف بهم[١] .

أما عن ايرادات المفتين ومدة خدمتهم ، فقد كان المفتون يحصلون على بعض مرتبات الجراية والعليق من قمح وشعير يكون قد وقفها عليهم بعض الباشوات وهى مرتبات خيرية سنوية تصرف لهم من الخزينة . وبالنسبة للمدة فقد كان المفتى يحصل على منصبه لمدة الحياة لا لسنوات محددة ، ولايرتقى واحد منهم من منصب إلى آخرولا ينال أجرا من الدولة[٢] .

ومن الشخصيات الدينية الأخرى التى وجدت فى مصر العثمانية :

٧- نقيب الأشراف :

وكلمة أشراف تعنى أولئك الأفراد الذين هم من نسل سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أكان ذلك عن طريق الأم أو الأب ولم يكن هؤلاء بالضرورة رجال دين وإنما كان منهم التاجر والصانع والفلاح وان العلاقة القوية التى وجدت بين أرباب الحرف والاشراف نظرا لوجود كثير من الاشراف بين الحرفيين قد أفادت الاشراف من ناحيتى التنظيم والقوة فقد دعمهم أرباب الحرف وهم عادة ذوى سلطة سياسية وقد تمتع الاشراف باحترام خاص من مجموع الشعب وشكلوا جماعة منفصلة ومتميزة وحتى تراقب الدولة هذه الجماعة وتمنع الناس من ادعاء هذا النسب الشريف أوجد العباسيون ثم المماليك بعد رئيسا للاشراف اطلق عليه نقيب الاشراف سارت الدولة العثمانية على نفس المنهج وكان لنقيب الأشراف فى استانبول سلطة على نقباء الاشراف فى الولايات وهو الذى يعينهم وله سلطة قضائية عليهم[٣] وكان نقيب

---

(١) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩١ .

(٣) عبد العزيز محمد الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص١٣١ .

الاشراف فى مصر يرسل من استانبول فى بداية العهد العثمانى واستمر ذلك حتى القرن الثامن عشر ثم أصبح يتولاها شيخ السجادة البكرية من آل البكري فى مصر . ويعتبر جمع الأشراف فى مصر أتباع للنقيب وله أن يمارس عليهم سلطة قضائية تصل إلى عقوبة التعزير وعقوبة الحبس ولم تصل تلك السلطة إلى حد عقوبة الاعدام . وكان لنقيب الأشراف نواب يمثلونه فى الاقاليم ويمارسون نفس سلطته على الاشراف فيها . ويحضر نقيب الاشراف الاجتماعات الادارية الهامة التى كانت تعقدها الادارة فى مصر فى شكل جمعيات لحل الازمات العملية وذلك باعتباره شخصية لها وزنها فى المجتمع ولها تأثير على اتباعها ويتولى نقيب الاشراف منصبه لمدى الحياة . ولم يكن له مرتب من الخزينة ، وانما كانت أوقاف معينة من أراضى أوقفها السلاطين ليستعين بها النقيب فى معاشه ونفقة أتباعه[١] .

ب- الإدارة المالية :

كانت لمصر فى العهد العثمانى ادارة ماليةدقيقة ، اشترك فى ادارتها الديوان الدفترى وديوان الروزنامة ، وفريق من رجال الحامية العثمانية ووزعت الأراضى الزراعية والجمارك بطريق الالتزام ، وكانت تجبى الضرائب ، وتجمع ايرادات الولاية ، ثم تصرف فى الوجوه المخصصة لها ، وماتبقى يرسل لخزينة السلطان ، ولنعرض لهذه النواحي بصفة عامة[٢] .

واستبقى العثمانيون فى بداية حكم فى مصر الموظفين والكتاب الذين سبقت لهم الخدمة فى خزينة السلطنة المملوكية ، وعهدوا إليهم بإدارة الخزينة العامرة ، وقد عين العثمانيون "متحدثا" أو مباشرا أو مفتشا لكل اقليم وكان أكثرهم من القضاة "ويتولى "المتحدث" الاشراف على سجلات الأراضى الزراعية الخاصة باقليمه ، ويحدد مقدار الضريبة المطلوبة منه، ويستلم ايراداتها من العمال والكشاف الذين يسلمونه اياها فى القاهرة فى مقر الخزينة بالقلعة، وكان يرأس هؤلاء المباشرين فى عملهم ويراقبهم رئيس أطلق عليه لقب "ناظر الأموال" ويساعده فى اداء مهمته أمين الشهر[٣] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٧ .

(٢) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٦٠ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٧ .

أما أقسام الخزينة السلطانية فى مصر والعاملون بها ، نجد أن الخزينة السلطانية فى انقسمت آلى قسمين :

١- ديوان الدفتردار أو الديوان الدفترى .

٢- ديوان الروزنامة .

١- الديوان الدفترى :

هو بمثابة ديوان المالية ، ويرأسه الدفتردار أى صاحب الشئون المالية وهو فى العادة من الصناجق المصريين ومهمته الاشراف على شئون الولاية وتحصيل أموالها ، والتعجل بانجاز مهام الحرمين الشريفين وصرة أهالى مكة والمدينة ، و"تشهيل خزينة السلطان ومعتادات الاشتانة" ومحاسبة الباشا فى آخر ولاية عهده بالولاية . وللدفتردار ساليانة ثابتة نقدية يصرف له من الخزينة ومقدارها ٨٩٢٠٠ بارة سنويا ، يضاف اليها مبلغ ٣٤٩١ بارة تصرف له من الخزينة أيضا وقت ارسال الخزينة الارسالية . وكان يحصل أيضا على مرتب عينى من القمح والشعير وهو ماعرف باسم جراية وعليق وصلت الى ١٠٠ أردب غلال فى السنة ٥٠٠ أردب قمح و٥٠٠ أردب شعير[١] وعوائد مختلفة مثل بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض أموال على أصحاب المرتبات الثابتة ، وعلى بعض وجوه ايراد الباشا ، وللدفتردار وكيل ومهر دار ، وموظفون يعملون تحت اشرافه . وكان الديوان الدفترى عصب النظام المالى القائم على نظام الالتزام ، فهو الذى يطرح مقاطعات الالتزامات فى المزاد ، وهو الذى يقرر من يرسو عليه المزاد ، وهو الذى ترفع اليه أوراق الملتزمين من ديوان الروزنامة التابع له ، ويضع عنها البيانات اللازمة ، ويقدمها للباشا فى "عرضحال" خاص فيصدر الأوامر المناسبة ، ومن ثم يصدر عن الديوان الدفترى "تقسيط الالتزامات المحرر بخطى قيرمة والديوانى والمذيل بطغراء الدفتردار والمهمور بخاتم الباشا كما يصدر الديوان الدفترى "مراسيم دفترية" خاصة برفع أو تخفيض أموال وغير ذلك من الشئون المالية[٢].

وقد حل الدفتردار مكان ناظر الأموال ، وكان الدفتردار فى بداية العهد العثمانى شخصية عثمانية يعين لرئاسة الادارة المالية فى مصر من بين رجال الخزينة السلطانية المركزية فى

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٢٩٨ .

(٢) حسن ، المجمل فى تاريخ ، ص٢٦٠ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٢٩٨ .

استانبول ولقب الدفتردار فى الوثائق بلقب دفتردار أفندى دفتردار خزينة عامرة . وكان الدفتردار شخصية كبيرة فكان يتولى مناصب ادارية هامة بالإضافة لمنصبه فى رئاسة الادارة المالية فى مصر مثل منصب قائم مقام الباشا فى بعض الأحيان[١] .

ولم يكن للدفتردار مدة محددة بل كان يستطيع الاحتفاظ بمنصبه طالما هو فى مركز القوة والسادة بين أقرانه من البكوات الصناجق فى مصر[٢] .

٢- ديوان الروزنامة :

كان تابعا للديوان الدفترى مهمته جمع الأموال الأميرية وصرفها فى وجوهها المختلفة تحت اشراف الديوان الدفترى ، وكان يقوم بالعمل فيه أفندية من الكتاب أطراهم المؤرخون المعاصرون ووسموهم باللباقة ورقة الحاشية ودماثة الخلق ، وآثارها المودعة فى دار المحفوظات المصرية ، تنبئ عن دقتهم وطول باعهم فى العلوم الحسابية ومختلف شئون الادارة والزراعة وجباية الأموال وجمال خطوطهم ينبئ عن مهارة خطية ترتفع إلى مصاف كبار الخطاطين . ولعل هذه الوثائق من دفاتر وأوراق من الآثار التى توسم بالدقة فى عصر غلبت عليه القلاقل والفتن.

وكان أفندية الروزنامة يرأسون أقلام الروزنامة والتى تسمى بالمقاطعات ويؤدون أعمالهم لمدى الحياة ، ويورثون أبناءهم أو مماليكهم وظائفهم بعد التمرن على أعمال الروزنامة . وسجا على الروزنامة طوال العهد العثمانى جو من السرية والتكتم ، وتعددت الأوامر فى وثائق ذلك العصر بالا يفشى أحد الأفندية شأنا من شئون الروزنامة الا بأمر من الباشا نفسه . وضمن لهم سرية أعمال الروزنامة تحريرهم دفاترهم ومعظم أوراقهم بهذا الخط السرى العجيب - خط القيرمة- الذى يصعب قراءته الا بعد التمرين على مختلف قوالب الكلمات والجمل[٣] .

والروزنامجى هو المدير العام لديوان الروزنامة وكبير الأفندية وكان الباشا يعينة بموافقة شيخ البلد والصناجق ورؤساء الأوجاقات ومهمته الاشراف على تحصيل الأموال المقررة

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٣٠٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٠١ .

(٣) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٢ .

وصرفها ، وتعرض عليه الأوامر الصادرة من الباشا فيحيلها بدوره إلى الاقلام المختصة ، ويرفع البيانات المتحررة من مختلف أقلام الروزنامة إلى الديوان الدفترى . والروزنامجى معاونون مساعدون وأهمهم أربعة خلفاء أو قلفاوات[١] وكان أهمهم "الباش مباشر" أو "الباش خليفة" أو "الباش قلفة" أو سر خليفة وكان هو الوكيل الأول للروزنامجى ، ويحل محله اذا خلا منصب الروزنامجى فيعمل فيه كقائم مقام بدل الروزنامجى وكان الروزنامجية دائما يؤخذون من طبقة الباش خليفة ، ثم يأتى بعد الباش خليفة ، ثانى خليفة ، ثم رابع خليفة[٢] ومنهم يتألف مكتب مدير الروزنامة وهو الخلفاء أو القلفاوات يشرفون على كل الأعمال الحسابية التى يقوم بها الأفندية ، على كل السجلات التى تحت أيديهم[٣] ومن مساعدى الروزنامجى الآخرين ثلاثة صبيان شاكرديه وكيسة دار[٤] .

والروزنامجى عضو أساسى فى الديوان العالى ولابد من حضوره فى الجلسات الخاصة بالنواحى المالية ومعه بعض مساعديه ليقدم البيانات المطلوبة عن مالية مصر فى حالة محاسبة الباشا بعد عزله . وفى حالة ارسال الخزينة الارسالية للسلطان ، وارسال مال الحرمين الشريفين وغير ذلك من الجلسات التى تعقد للاغراض المالية[٥] .

وينقسم ديوان الروزنامة إلى عدة أقلام أو مقاطعات يرأس كل منها أفندى تنعته الوثائق "بالمقاطعجى" وتوزع الاختصاصات الحسابية والمالية على هذه الاقلام أو المقاطعات ، ولديها سجلات متعددة مثل سجلات التزامات الأراضى الزراعية وسجلات التزامات الجمارك وسجلات الغلال المطلوبة عينا من الوجه القبلى ، وسجلات معتادات الاستانة وأموال الحرمين الشريفين وسجلات الغلال المخصصة للباشا وللدفتردار ، ولقاضى عسكر أفندى وللأمراء الصناجق وسجلات الأراضى الموقوفة والاحسانات والمنح ولديها أيضا سجلات "مواجبات العسكر وجامكياتهم" والذى كان يعاون أفندية الروزنامة فى تشهيلها أفندية الأوجاقات السبعة الممثلين فى ديوان الروزنامة وقلم "الخزينة دار" من الاقلام المهمة ، وهو قلم مدير خزينة

---

(١) نفسه ، ص ٢٦٣ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص٣٠٦ .

(٣) نفسه ، ص٣٠٧ .

(٤) نفسه ، ص٣٠٧ .

(٥) نفسه ، ص ٣٠٤ .

الروزنامة التى هى خزينة مصر ، ويتولى جميع الأموال الأميرية وقيدها وصرفها فى وجوهها المعينة ، كما يراقب جميع الأعمال المالية فى ديوان الروزنامة[١] .

ويضاف إلى أفندية الروزنامة بعض الموظفين مثل "التذكرجى" وهو الذى يحرر مختلف تقاسيط الالتزام والتذاكر الديوانية عن مختلف المرتبات والمخصصات الأميرية ، و"التاريخجى" وهو الذى يضع تاريخ كل مستند رسمى ، وروزنامجى واردات ويكون دائما أحد أتباع الباشا وهو يقيد ايراداته ، و"اغاء جبة جيان" وهو الذى يقيد المطلوب من ملح البارودللجبة خانة العامرة و"أمين الصناديق" وهو بمثابة أمين دفتر خانة أو محفوظات الروزنامة،"كاغد أمين" أى أمين الأوراق والمهردار وهو حامل أختام الروزنامة[٢] .

ويعزل الروزنامجى من منصبه فى حالة فشله فى اصلاح مالية مصر وتجاوز الأزمات التى كانت تحل بها أو لاتهام الباشا له بالاثراء بطريقة غير مشروعة باستغلال منصبة وفى بعض الحالات كان الروزنامجى يعزل من منصبه لعجزه عن اداء عمله لمرضه أو بخلو المنصب لوفاة صاحبه[٣] .

جـ- التنظيم الإدارى لمصر العثمانية :

كانت النتيجة النهائية للفتح العثمانى لمصر ، أن أصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت مقر السلطنة والحكم ابان العصر المملوكى وتم عمل التنظيمات الادارية لمصر العثمانية ، وساهمت هذه التنظيمات فى الحفاظ على الكيان السياسى بعض الوقت ، وتبع ذلك عملية الفصل أو الاستقلال عن الولاية . كما حدث فى ولاية جرجا التى لعبت دورا هاما فى تاريخ مصر العثمانية ، وفى مقدمتها الأحداث السياسية الهامة التى تمثلت فى الصراع بين البيوتات المملوكية، وظهرت بشكل واضح فى الصراع بين القاسمية والفقارية وغير ذلك من الأحداث الهامة التى شهدتها تلك الفترة .

وقبل التعرض للتنظيمات الإدارية التى وضعها العثمانيون لمصر بصفة عامة ، لابد من الإشارة إلى التنظيمات الإدارية التى كانت موجودة فى عصر المماليك .

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٦٢ .

(٢) نفسه ، ص٢٦٢ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر ، ص ٣٠٥ .

فقد كانت الإدارة الإقليمية فى أعمال الوجهين البحرى والقبلى خارج القاهرة والاسكندرية فأشرف عليها مجموعة من الولاة . وكان الوجه البحرى مقسما إلى عشرة أعمال هى القلوبية والشرقية والدقهلية (المرتاحية) ودمياط والغربية والمنوفية وأبيار والبحيرة وفوة النستراوية، وحكم كل منها وال ماعدا البحيرة فكان يحكمها نائب . ولعل السبب فى ذلك يرجع بأمر البحيرة ، هو تخوف سلاطين المماليك من كثرة الاعراب وما يقومون به فيها من فتن وثورات بين حين وآخر ، أما أعمال الوجه القبلى فكانت ثمانية ، لكل منها واليها ، وهى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخميمية والأطفيحية والبهنساوية والأسيوطية والقوصية ، وكانت أسوان تتبع قوص ولكنها استقلت وصارت عملا قائما بذاته فى عهد الناصر محمد (٦٩٣هـ/١٢٩٣م - ٧٤١هـ/١٣٤١م) ويلاحظ أنه لم يوجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى الا فى عصر دولة المماليك الجراكسة أو الثانية ، أما فى دولة المماليك البحرية فوجد كاشف للوجه البحرى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الدلتا ، وآخر للوجه القبلى يمتد نفوذه على جميع أقاليم الصعيد . وجرى الاصطلاح بتسمية هذا الكاشف "والى الولاة "وتمتع بنفوذ كبير على الأقاليم التابعة له[١] .

أما الإسكندرية فقد كانت لها ادارة خاصة ، فقد عين لها نائب على أنها نيابة مثل نيابات الشام وذلك لزيادة أهميتها واعتبارها ثغر مصرالأول على البحر المتوسط ، وكثرة الجاليات الأجنبية بها مما تطلب اعطاؤها عناية خاصة[٢] وسنتعرض لها كمثال لنظام ادارة الموانى .

وأعاد العثمانيون النظر فى التقسيم الادارى القائم منذ الفتح العربى ، فغيروا كلمة أعمال باسم "ولاية" وقسموا البلاد من الوجهة الادارية إلى ١٣ ولاية ، منها سبع فى الوجه البحرى وست فى الوجه القبلى هذا بخلاف ستة موانى هى الاسكندرية ورشيد ودمياط والعريش والسويس والقصير[٣] .

وكان يرأس كل ولاية "كاشف" أو حاكم ويرأس كل ميناء قبودان ، غير أن الموانى الثلاثة الاسكندرية ودمياط والسويس اعتبرت تابعة رأسا للدولة العثمانية يحكمها ثلاثة قبودانات من أمراء البحر يعينهم السلطان[٤] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٥٨ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص١٤٣ ، ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص١٠٨ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص١٤٣ .

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٣٨٢ ، عمر ممدوح ، أصول تاريخ القانون ، ص٣٦١ .

(٤) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص٣٦٢ .

وأما القاهرة فكانت تحت ادارة أمير من المماليك ، وكان مقر السلطات الحاكمة والادارة ويشرف عليها الباشا ورجال الادارة كأغا الانكشارية الذى يقوم بالسلطة العليا للبوليس فى القاهرة يشاركه فى حفظ الأمن وتنظيم الشئون البوليسية والتموينية وفيها زعماء مصر الثلاثة وهم : زعيم مصر ، أو والى مصر وزعيم بولاق وزعيم مصر القديمة وأمين الاحتساب[١] وكان والى القاهرة أو شيخ البلد يأتى من حيث الأهمية بعد الباشا مباشرة ثم ازدادت سلطته فيما بعد على سلطة الباشا[٢] .

وعلى هذا فقد ارتكز التنظيم الادارى لمصر العثمانية على خمسة أقاليم ادارية كبرى تسمى باسم ولاية ، وكانت على النحو التالى[٣] .

١- الغربية وعاصمتها المحلة الكبرى .

٢- المنوفية وعاصمتها منوف .

٣- الشرقية وعاصمتها المنصورة .

٤- البحيرة وعاصمتها دمنهور .

٥- جرجا وعاصمتها جرجا .

ويلاحظ على التنظيم الإدارى الذى تم فى ذلك الوقت أن الوجه البحرى كانت له أربع ولايات ، أما الوجه القبلى فكان عبارة عن ولاية واحدة ، وربما يرجع ذلك الى عدم اهتمام العثمانيين بالصعيد ، أو أن القوى المسيطرة على الصعيد ، كانت فى مقدورها السيطرة عليه، ولاسيما عربان هوارة بالذات الذين حكموا الصعيد من المنيا إلى الشلال وأصبحت ولايات الوجه القبلى بعد ذلك كالآتى[٤] . بهنساوية ، أشمونين ، منفلوط ، جرجا ، أطفيح البر الشرقى ، الواح من داخل جرجا (أى الواحات) وسميت الواحات فى الصحراء الغربية بإقليم الواحات خلال حكم خاير بك ، وتعتمد فى دخلها على الرسوم التى كانت تجبى من القوافل الآتية من سنار ودار فور المحملة بالذهب والعبيد ، وقد كانت تعتبر محطة وتمتعت بهذا الاستقلال إلى عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥م حتى أنه إبان استقلالها كانت تابعة لولاية جرجا والجيزة والفيوم .

---

(١) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٢ .

(٢) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص٣٦١ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٣٨٢ .

(٤) محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص٣٣ ؛ Shaw, Op. Cit., pp. 15-16 .

وكثيرا ماينشب الصراع بين الصناجق من الأمراء المماليك حول تولى حكم هذه الولايات الخمس الكبرى (الشرقية - الغربية - المنوفية - البحيرة - جرجا) ، وبخاصة ولاية جرجا التى أصبحت مطمعا للكثيرين منهم ، ويرجع ذلك إلى أهميتها الاقتصادية ، حيث كانت تعد مركز التموين الأول للبلاد وخاصة القمح[١] .

تلك كانت أهم الولايات الأساسية ، ولكن وجد بالإضافة إلى ذلك أربعة وعشرون قسما آخر عرفت باسم الكاشفيات[٢] وكانت موزعة على النحو التالى [٣]:

---

(١) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٢٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص٢٦ .

(٢) الكاشفية : وجمعها كاشفيات وهى وحدة ادارية صغيرة اثناء الحكم العثمانى واشتق منها لفظ كاشف وهو الذى يحكم الكاشفية كما كان الكاشف ينوب عن الصنجق الذى كان يحكم الصنجقية ، وهى أحدى الاقاليم الادارية الكبرى فى مصر العثمانية . فكان الكاشف يحل محل الصنجق فى اثناء تغيب الأخير عن مقر منصبه وتفضيله قضاء معظم شهور السنة فى القاهرة . وكان هناك نوع ثان من الموظفين يحمل كل منهم لقب كاشف . وكان هؤلاء الكشاف هم وكلاء الباشا العثمانى الذين يشرفون على قرى الكاشفيات التى كان دخلها مخصص للباشا فى أقاليم معينة فى مصر .

ومما هو جدير بالذكر أن كثرة المراجع العربية والفرنسية تذكر كلمة كشوفية بدلا من كلمة كاشفية وجمعها كشوفيات بدلا من كاشفيات ، ويذكر عبد العزيز الشناوى أنه أخذ بالاحوط أن يستخدم لفظ كاشفية وجمعها كاشفيات طالما أن مصالح الكاشفية مأخوذ ومنسوب إلى كلمة كاشف .

وكان الكشاف من العسكريين من ذوى الرتب الكبيرة ، وينتمون إلى احدى الفرق الحامية العثمانية السبع، وكان من عادتهم فى أثناء جولاتهم فى مناطق عملهم أن يركب الواحد منهم جواده ، وحوله جنوده يقرعون الطبول لنشر الرهبة والرعب فى قلوب الفلاحين ، فيسارعون الى تقديم الهدايا اليه على الرغم من أن الأوامر كانت تصدرمشددة إلى الكشاف بضرورة رعاية الفلاحين والمحافظة على أرواحهم وأموالهم (انظر عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ١/ ١٦١ ، ابراهيم المويلحى ، الارض والفلاح فى العصر العثمانى ، ص ٢٤٤ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٨١.

ثلاثة بمصر السفلى ، وهى بلبيس وقليوب ، وشرق الدلتا ، ثم الطرانة غرب الدلتا وكانت تابعة لولاية البحيرة ، وسبعة فى مصر الوسطى ، وهى اطفيح (شرق النيل) الجيزة ، الفيوم ، بني سويف ، المنيا ، أشمونين ، منفلوط (غرب النيل) وأربعة عشر فى مصر العليا ، وتشمل أسيوط ، وأبوتيج ، وطما ، وطهطا ، واخميم ، وفرشوط ، وبرديس ، وبهجورة ، وقنا ، وقوص ، وابريم ، والواحات واسنا وهو .

ولم تكن هذه الكاشفيات مستقلة بذاتها ، وان كان بعضها تمتع بما يشبه الاستقلال لانفصالها فى تدبير بعض شئونها الداخلية عن الولاية الكبرى [١] كما أن نظام الولايات قد تدهور فى أواخر القرن الثامن عشر وتم الخلط بين استخدام كلمة "ولاية" وكلمة "كاشفية" .وكان يحكم الأقاليم الخمسة الكبرى حكام بكوات ، ويحمل كل منهم رتبة الصنجقية ، ويحصل على لقب حاكم . وكانت الصنجقية من أسمى الرتب فى مصر العثمانية وأمر السلطان سليم بعد أن فتح مصر أن يكون بها أربعة وعشرون طبلخانة ، أى أمراء تدق لهم الطبول وغيرها من آلالات الموسيقية تعبيرا عن مكانتهم العالية .

وكان منصب الصنجقية من المناصب الهامة ولها امتيازات مالية ، وقد تكون الصنجقية رتبة فقط أى يحملها صاحبها دون أن يشغل منصبا هاما ويعرف بأنه صنجق بطال ويرقى الصنجق الى رتبة بك ، طبقا لثروته ومركزه ، وكان أمراء المماليك يسعون دائما لجعل الصناجق من أولادهم وأتباعهم[٢] .

وكان حكام الأقاليم يقيمون دائما فى القاهرة ، ويعودون لبعض الوقت إلى أقاليمهم غير أن حاكم جرجا استقر فى اقليمه ، وقد ساعده ذلك على التمكن من اقليمه وكل بلاد الصعيد بحيث أصبح تحت ادارته ، العديد من القادة مثل قائد الشاويشية وأغا الانكشارية . وكان يحصل بك جرجا على نصيب عينى من السلع التى كانت تأتى من سنار ودار فور مع قوافلهم[٣] .

---

(١) حسن عثمان ومحمد توفيق ، تاريخ مصر فى العهد العثمانى ، ص٢٥٣ .

(٢) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ١٦ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٢٩٣ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٧٢ .

٢- الكاشفيات فى مصر العثمانية :

وكان يوجد بجانب الصناجق فى أقاليم الوجهين البحرى والقبلى ، مناصب أخرى عرفت بالكاشفيات ، ومن يتولى هذا المنصب أمير مملوكى من الدرجة الثانية ، ولم يقتصر اطلاق لقب كاشف على الأمراء فقط ، بل اطلقت على الموظفين الذين يتولون الادارة فى الاقاليم والعناية بالرى وحفظ الأمن فيها وذلك فى عهد السلطنة المملوكية ، أما فى عهد العثمانيين فقد كان يطلق لفظ الكاشف على طبقتين من الموظفين وهما :

١- حكام الأقاليم الادارية الصغرى .

٢- وكلاء الباشا الذين يديرون قرى الكشوفية التى كانت مخصصة له فى معظم أقاليم مصر .

وقد كانت هذه المناصب تتأرجح بين سلطة الحزب المملوكى المسيطره وكانت غالبا بين الفقارية والقاسمية ، مثال ذلك ماحدث فى عام ١٠٧٤هـ/١٦٦٣م عندما سيطرت الفقارية على الحكم وتولت حكم ولايات جرجا والغربية وكاشفية الفيوم ، وحدث العكس عام ١١٢٦هـ/١٧٠٤م عندما سيطرت القاسمية على الحكم تولى عدد من الصناجق امارة الحج والدفتردارية[١] وكذلك كاشفية بنى سويف [٢]والمنصورة وحكم ولايات جرجا والبحيرة[٣] .

والكشاف هم أتباع الصناجق من مماليكهم الممتازين ، وهم ينوبون عنهم فى حكم الولايات اذا ما آثروا البقاء فى القاهرة على الذهاب الى مقر ولاياتهم ، أو يديرون بعض مناطق من صنجقياتهم أو يحكمون بعض الأقاليم التى لم تبلغ مرتبة الصنجقية وتسمى كاشفيات . ولم تكن الكاشفيات ذات مساحات متساوية ، وكان بعضها قريبا وملاصقا ، وكان عددها متغيرا[٤] .

وكثيرا ماحدثت التعديلات على الكاشفيات وكانت أهمها فى القرن الثامن عشر على النحو التالى : دمنهور ، المنصورة ، المحلة الكبرى ، منوف ، بلبيس ، قليوب ، الجيزة ،

---

(١) حسن عثمان ، ومحمد توفيق ، المرجع السابق ، ص٢٥٤ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص١٦ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٣٩٣ .

(٤) حسن عثمان ، ومحمد توفيق ، المرجع السابق ، ص٢٥٤ .

الفيوم ، البهنسا ، الاشمونين ، أسيوط ، أبوتيج ، طهطا ، طما ، اخميم ، الجزيرة ، سوهاج ، العسيرات ، فرشوط ، بهجورة ، صدفا ، قنا ، الاقصر ، أرمنت ، اسنا ، أسوان .

وقد أدت كثرة هذه الكاشفيات الى عدم تناسق توزيعها ، خاصة فى المنطقة الممتدة إلى الجنوب من منفلوط ، بحيث أصبحت الكاشفيات متقاربة ذات حدود ضيقة حتى أن القرية الكبيرة كانت مركزا لبعض هذه الكاشفيات والمدينة الصغيرة مركزا لبعضها الآخر ، وقد يكون الهدف من ذلك تفتيت وحدة الصعيد الادارية ، وخاصة بعد كثرة الاضطرابات التى قام بها العربان وفى مقدمتهم قبائل عربان هوارة فى القرن الثامن عشر[١] .

٢- الجهاز الادارى فى الأقاليم :

بعد أن تبينت لنا أهم الولايات والكاشفيات فى ابان الحكم العثمانى فى مصر ، نرى أن نعرض لنظام الادارة فى الولاية والصنجقيةوالكاشفية ، حتى نلقى الضوء على النظام الادارى الذى كان متبعا فى العصرين المملوكى والعثمانى والذى استمر فى العصر العثمانى مايقرب من قرون ثلاثة .

فقد كان المتبع فى الادارة المحلية ونظامها فى الولايات أن الولاية كانت مقسمة الى عدة مقاطعات ، وكل مقاطعة تتكون من عدة قرى ومدن صغرى والأراضى المزروعة ، وقسمت كل مقاطعة إلى أربعة وعشرين قيراطا ، وكان الملتزم عادة اما أن يكون بمفرده فى ادارة المقاطعة أو أن يكون معه عدة ملتزمين كانوا غالبا من كبار ضباط العثمانيين ثم دخل هذا الميدان التجار ورجال الدين ومشايخ العربان ، وأصبحت غالبية الملتزمين من أمراء المماليك ، وكانت القرى تسمى أحيانا بأسماء الملتزمين[٢] .

ووجد بجانب هذه الأقسام الإدارية المالية ، جهاز إدارى محلى كان يتكون هذا الجهاز بفروعه المختلفة فى معظم الأحيان من أبناء القرية نفسها ويتبع الملتزم أو الملتزمين مباشرة ، مع ارتباطه بالجهاز المركزى سواء فى عاصمة الولاية ، أو فى القاهرة ينفذ أوامره ، وينوب عنه فى الاشراف على ادارة هذه الأقسام الادراية الصغيرة[٣] .

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص١٦ .

(٢) Shaw, Op : Cit., pp. 52-54 .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص١٨ .

وكـان الجـهاز الادارى يتـكون من حكام الاقـاليم أو الـولايات ثـم بعـد ذلك الصـناجق أو الكشاف ، والأوجاقات العسـكرية والوكيل أو القائم مقام أما ادارة القرى فى مصر العثمانية، فـكانت الادارة موكلة إلى الملتزم ويمثله قـائم مقام ومـعه مـوظفـون يختـارهم وهم الشـيوخ والشـاهد، والصراف ، والمشـد ، والخفراء ، والوكيل ، والكلاف ، وكان الاجراء المتبع بطريق الضرورة اختيار كل من الشاهد والخولى من بين سكان القرية[١] .

أما إدارة الولاية نفسها فقد كان يرأسها بك ، يحمل رتبة الصنجقية ويحصل على لقب حاكم . وكان لكل اقليم ادارى عاصمة سواء أكان ولاية أم كشوفية يقيم فيها البك أو الكاشف حاكم الاقليم[٢] .

وسنتعرض بالتـفصيل لكل من اشترك فى الجهاز الادارى سواء فى الاقليم أو المدن أو القرى على النحو التالى :

أ- حاكم الولاية :

وكان يعين من بين الأمراء المماليك من الصناجق أو الكشاف الذين يحملون لقب بك ، وكـان يعين دائما لحكم الولايات الخمس الكبرى (الغربيـة ، البحيرة ، الشرقيـة ، المنوفيـة ، جرجا) أمراء مماليك برتبة صنجق ، أما الولايات الأخرى فقد كان يحكمها أمراء مماليك برتبة كاشف[٣] .

ويلاحظ أن تعيين حكام الولايات الخمس ومنحهم رتبة صنجق كان يصدر به فرمان من الباشا ، بناء على مشورة الأمراء المحليين وموافقة السلطان العثمانى[٤] .

وكان يطلق عليه اسم حاكم سياسة تمييزا عن حاكم الشرع الذى يطلق عادة على قاضى الناحية . أما اختصاصاته فهى الاشراف على شئون الزراعة والرى بالولاية واقامة الجسور

---

(١) Estéve, Comete, Mémoire Sur Les finances de L'Egypte depuis sa conquéte par le Sultan Sélym I er; T.I pp; 71-72 .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٩١ .

(٣) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر ، ص٣٩٢.

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٤٦ .

وجرفها فى مواعيدها ، وتوطيد الأمن ، ومنع العربان من العبث بأموال الفلاحين ، والاشراف على أعمال الكشاف التابعين له ، وحل المشاكل التى تشب بين الأهالى والملتزمين أو بين بعضهم البعض أو بينهم وبين أجهزة الادارة التى يصدر فرمان من الباشا بشأنها[١].

وكانت القوات المحلية الموجودة تحت إمرة الحاكم تعاونه كما كان يساعده كاشفان يخضعان له ويعينهما لينوبا عنه فى النواحى ، وهى فروع إقليمة للولاية ، وأمين مالى (خازندار) الذى كان يدفع له الضرائب التى تجبى فى الولاية ، فيقوم بدوره بارسال الحصة المخصصة للادارة المركزية الى الروزنامة[٢] أى المكتب الحكومى الذى كانت تورد له الضرائب ويعاونه بعد ذلك رئيس كتبة يحتفظ بسجلات الولاية . وكانت النفقات التى تتطلبها ادارة الولاية تغطيها ضريبة خاصة وتسمى مال الكشوفية [٣]. ومما يلاحظ أن عمل بعض هؤلاء اتسم

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٧ .

(٢) الروزنامة : فى الفارسية روز بمعنى يوم ونامة أى الكتاب (كتاب اليوم) أى دفتر اليومية ، وديوان الروزنامة فى مصر ديوان مالى يجبى الضرائب ويتولى الانفاق على بعض جهات البر كتشغيل الكسوة الشريفة ونفقات قلاع الحجاز ، ومرتبات مجاورى الحرمين الشريفين ، وبعض أعيان استانبول ، وطلبة الأزهر والعتقاء والقضاء . وقد ألحق هنا الديوان بنظارة المالية عام ١٣٦٥هـ/١٨٤٨م وتحول بعد هذا الالحاق الى مايشبه المصرف يودعه الأهالى رؤس أموالهم لقاء راتب سنوى ، ولما كان قرض الروزنامة فى أيام الخديوى اسماعيل صارت الرواتب شهرية بسندات كانت تعرف باسم (سندات ايراد مؤبد) ثم تولت وزارة الداخلية أعمال الروزنامة الخاصة بالحج ، وتولت ادارة المعاشات بوزارة المالية صرف المعاشات ، وانتهى عمل هذا الديوان وكانت وثائق الروزنامة تكتب برسم أبجدى يقال له قيرمة أى المكسر .

والروزنامجى - وقد سماه العثمانيون متأخرا باسم كاتب اليومية (يومية كاتبى) من كبار الأفندية وهو بمنزلة نصف بك أو نصف سنجق وكان يرأس ديوان الروزنامة (جى) فى آخر الكلمة تدل على النسب إلى الصناعة (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص١١٧-١١٨) وانظر ايضا

Shaw : The Financial, pp. 107 - 108 .

(٣) Lancret, Michel-Angé, Mémoire Sur le Systéme d'imposition territoite, T.II. p. 48,

Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, pp. 78-79 .

، هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ص٥٣ ، ابراهيم المويلحى، الارض والفلاح فى العصر العثمانى ، ص٢٤٥ .

بالجور والظلم ، فاضطر الأهالى إلى ارسال شكاوى ضدهم إلى الوالى الذى كان يصدر أوامره باقصاء هؤلاء الحكام(١) .

وإلى جانب ذلك فان أهم الأقاليم فى مصر العثمانية ، والصعيد بصفة خاصة اقليم جرجا ، وكان أهم شخص هو حاكم جرجا الذى يلى فى الأهمية شيخ البلد وزعيم المماليك فى القاهرة . وكان حاكم جرجا يعين بمرسوم من الباشا ، وبعد التعيين يلبس خلعة المنصب ويذهب إلى مقر منصبه بموكب كبير ، يحف به الأمراء والأغوات والاختيارية ، وكثير من رجال الأوجاقات العسكرية ، وكان يقيم فى "خيمة" كبيرة قبل أن يذهب إلى اقليمه بحيث يفد اليه المهنئون بالمنصب وتوديعه(٢) .

وكان حاكم الولاة يصحب معه إلى مقر عمله عددا من رجال الفرق العسكرية المختلفة ومعهم قوادهم وأعلامهم الذين يمثلون حاميته(٣) . ويذهبون معه لمساعدته فى أداء واجباته ويحصلون على مرتباتهم من الخزينة كاخراجات من الإقليم نفسه ، بالاضافة إلى ضرائب اضافية يفرضها على اقليمه ، وكان يصطحب معه قواته العسكرية الخاصة التى تتكون من مماليكه وينفق عليهم من ماله الخاص . وعندما يصل إلى الاقليم يعقد الديوان الخاص به ثم يتلو عليهم الفرمان الخاص بتعينه(٤) .

وكان يساعده فى الحكم سدادرة الفرق السبعة وقائم مقام الأشراف (نقيب لأشراف) وقاضى الاقليم والمفتون الأربعة ، وأعيان الولاية من كبار الملتزمين والعلماء(٥) .

وكانت مدة حكمه فى الاقليم سنة واحدة وأحيانا ثلاث سنوات تجدد له دائما ، نظير قيامه بأعمال أدت إلى استقرار الحكم فى اقليمه ، مثال ذلك عندما جددت مدة حكم عبد الرحمن

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٤٧ .

(٢) أحمد الدمرداش ، المصدر السابق ، جـ١/٦٨ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٠٣ .

(٤) أحمد الدمرداش ، المصدر السابق ، جـ١/١١٨ ، مصطفى ابراهيم ، تاريخ وقايع مصر القاهرة ، ص٧٨ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٤٧ .

ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٠٣ .

(٥) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ٣٩٠ .

بك لمدة ثلاث سنوات متصلة نظير قيامه بالقضاء على تمرد الهوارةوتولى الحكم من عام ١١١٠هـ/١٦٩٨م - ١١١٣هـ/١٧٠١م[١] .

ويحاسب حاكم الولاية كما يحاسب الباشا عند عزله ، ويعين له قائم مقام بدلا منه ويعقد قاضى الاقليم جلسة خاصة لمحاسبة الحاكم المعزول الذى كان يعطيه بيانا بامضائه يفيد أنه ليس لديه بطرفه أى شئ[٢] وكان عليه أن يأخذ حجة من القاضى ليقدمها إلى الباشا فى القاهرة[٣] .

ويعامل حاكم الولاية وغيره من حكام الولايات الرئيسية بالتبجيل والاحترام ، وهو فى أغلب الأحوال لايقيم فى مقر ولايته أو اقليمه ، ويفضل البقاء فى القاهرة للمشاركة فى الأحداث السياسية مثل اشتراكه فى فتنة افرنج أحمد عام ١١٢٣هـ/١٧١١م وبناء على ماحدث فى القاهرة وقع الاضطراب فى ولايته[٤] .

أما عن مرتب حاكم الولاية فكان يتقاضى مرتبا سنويا قدر بحوالى ٣٠٠ر٠٠٠ بارة فى القرن السابع عشر ، وهبط هذا المبلغ الى ٤٠ر٠٠٠ بارة بالإضافة إلى مرتب عينى قدره ٣٦٠ أردبا سنويا فى القرن الثامن عشر[٥] .

وكان من واجبات حاكم الولاية حفظ الجسور السلطانية ورى البلاد ودفع الضرر عن الفلاحين عربانا أو غيرهم ، ويحكم بينهم بالعدل ، وكان يقوم بجمع العوائد التى يقررها السلطان على البلاد ثم يدفع منها مايستوجبه الميرى ومايتبقى بعد ذلك فيكون من نصيبه وكان من المقرر أن يحضر بنفسه إلى القاهرة ومعه نصيب الميرى ، فاذا لم يستطع أرسل رسله ومعهم الحجة يشهد عليها قاضى الولاية وأتباعها بعدم تمكينه من الحضور للقاهرة[٦] .

---

(١) أحمد الدمرداش ، المصدر السابق ، جـ١/٦٧ .

(٢) أحمد الدمرداش ، المصدر السابق ، جـ ٢/٣٨٧ .

(٣) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص١٦ ، ليلى عبد للطيف ، المرجع السابق ، ص٣٩٤ .

(٤) أحمد الدمرداشى ، المصدر السابق ، جـ ١/١٣٦ ، ابراهيم الصوالحى ، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، ص ٥٣٠-٥٤٥ .

(٥) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٣٩٨ .

(٦) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص١٧ .

كما كانت له سلطات واسعة مثل المعاقبة بالسجن أو القتل إلى جانب سلطة فرض الضرائب الاضافية فى اقليمه وكان الكتخدا أو القائم مقام يحمل دائما لقب بك كما كان المنصب مرموقا لايحصل عليه الا كل من قام بعمل عظيم كما سبق أن رأينا[١] .

وكانت ولاية جرجا تشغل جزءا كبيرا من الصعيد وتسيطر على الواحات ويقطن بها كثير من القبائل البدوية ، كما أن دخل هذه الولاية كبير ، وقد التجأ اليها عدد كبير من المماليك الفارين من القاهرة أدى ذلك الى غرور حاكمها وسطوتهم[٢] .

وعندما بدأ تطبيق نظام الالتزام فى الربع الأول من القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) ودخل الهوارة ميدان الالتزام ، فقد منصب جرجا قوته وخاصة بعد أن أصبحوا من كبار الملتزمين ولم تتعدى سلطة الحاكم سوى الاشراف على الرى[٣] .

أما القضاة فقد سبق أن أشرنا إلى ذلك سابقا ، أما الكشافين كانت مهمتهم تنحصر فى حكم الولايات الصغيرة التى لم تبلغ مرتبة الصنجقية ، وكانت تسمى غالبا كاشفيات وكانوا فى الغالب من أتباع الصناجق ، ومن مماليكم المتازين ، ولذا فانهم فى بعض الأحيان كانوا يشرفون على بعض مناطق من الولايات الكبيرة أوينوبون عن الصناجق فى حكم هذه الولايات، اذا ما آثروا هؤلاء البقاء فى القاهرة على الذهاب إلى مقر ولاياتهم[٤] .

أما بخصوص عددهم فيذكر البعض أنهم كانوا أربعة وعشرين كاشفا[٥] أما البعض الآخر فيذكر أن عددهم ستة وثلاثون كاشفا فى القرن الثامن عشر[٦] والرأى الأصوب هو أربعة وعشرون لأن أغلب المصادر تؤكد ذلك .

---

(١) أحمد الدمرداشى ، المصدر السابق ، جـ١/١١٧-١١٨ .

(٢) Combe, L'Egypte Ottoman en précis de l'Histoire d'Egypte, T3, p. 75 .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، شيخ العرب همام وحكم جرجا ، ص٨٥ .

(٤) حسن عثمان ومحمد توفيق ، المرجع السابق ، ص٢٥٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ٤٧ .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٤٧ .

(٦) Shaw, Ottoman Egypt in the eighteenth century, p. 30 .

وقد كان كاشفيات الصعيد تتبع كلها حاكم ولاية جرجا ، وقد تم توحيد هذه الكاشفيات فى عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م تحت أمر هذا الحاكم ، وأصبحوا مجرد مديرين لقرى الكشوفية الخاصة بالباشا ، وأصبحوا بعد ذلك وكلاء للحاكم فى التزامه ، وعندما يحضر حاكم الولاية يحضر معه كشافه ، وعندما يعزل يأخذهم معه[١] .

أما عن مدة توليتهم فإنها كانت سنة واحدة ، ولابد أن يكونوا من بيوت مملوكية ، وإذا لم يكونوا كذلك فلا يكون لهم عصبة[٢] وقد تمكن بعض أمراء المماليك من تقلد منصب الكشوفية خمس مرات فى اقليم واحد أو فى غيره من الأقاليم مثل الأمير قانصوه بك القاسمى تابع قيطاس بك الذى تولى منصب كشوفية بنى سويف خمس مرات[٣] .

أما عن دخولهم فقد كان الكاشف يتقاضى فى السنة ١٠٠ر٠٠٠ بارة فى القرن السابع عشر ثم هبط إلى ٢٠ر٠٠٠ بارة ولايوجد سببا لذلك[٤] ويبدو أن ذلك يرجع إلى الأرباح التى كان يحصل عليها نظير قيامه بدور الملتزم والامتيازات التى كان يحصل عليها .

وكانت اختصاصات الكاشف تشبه تماما اختصاصات الصناجق ، فكان لهم حق الاشراف على تنظيم الاستفادة من مياه الرى ، وجرف الجسور ، وشق الترع والمصارف السلطانية والبلدية ، وجميع الأموال الأميرية ومراقبة جامعيها ، وجمع الغلال وارسالها إلى الشئون الأميرية وتوطيد الأمن فى مناطقهم ، والقبض على الأشقياء من الفلاحين والعربان والاشراف على تنفيذ أحكام القضاء ، وحل المنازعات بين أهل القرى والادارة المالية[٥] ومن اختصاصاتهم أيضا التوصل إلى معرفة مكان الفلاح الهارب من أرضه والعمل على إعادته ، ومعاقبته واجباره على بذر البذور فى أرضه . ولم تكن مشكلة هروب الفلاح من أرضه وليدة

---

(١) أحمد الدمرداشى ، المصدر السابق ، جـ١/٨١ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٠٢ .

(٢) Shaw, Ottoman Egypt : P. 78 - 79 .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٤٨ .

(٤) Shaw, Op. cit., pp. 78 - 79 .

، ابراهيم المويلحى ،المرجع السابق ، ص٢٤٢ .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٤٨ .

العصر العثمانى ، ولكنها ظهرت منذ القرن الأول من الفتح الإسلامى ، ولم يفعل العثمانيون سوى المحافظة على الوضع الراهن والمقصود بذلك حالة مصر وقت الفتح العثمانى[١] .

ونظرا لاختصاصاتهم الواسعة ، استغلوا نفوذهم بصورة سيئة واستولوا على أرض الغير بغير وجه حق[٢] وسمى كاشفا لأنه يكشف عن الأقاليم الموضوعه تحت سلطاته بواقع نزلتين فى السنة : نزلة فى الصيف ونزلة فى الشتاء ، وكان يحصل على بعض الهدايا والتقادم من القرى الكبيرة أثناء مروره عليها [٣] .

أما الأوجاقات العسكرية فقد سبق أن تم التعرض لها وواجباتها .

من هنا استغل أفراد هذه الأوجاقات نفوذهم فى الريف وسيطروا على الكثير من أراضى الالتزام ، بل عندما أفلس هذا النظام اسقطت لهم الكثير من هذه الاسقاطات وخاصة فى الصعيد ، وكانت تتم لحسابهم أو إلى أفراد ينتمون إلى هذه الأوجاقات[٤] .

تلك كانت أهم عناصر الادارة الرئيسية المشتركتفى حكم الاقليم ، أما الجهاز الادارى فى ريف مصر العثمانية ، فقد كانت ادارته تنحصر فى الملتزم والقائم مقام والشاهد والصراف والمشد والخفير والكلاف .

جـ : الجهاز الادارى فى الريف :

١- الملتزم : كانت بعض القرى أحيانا تسمى بأسماء الملتزمين ويعين عليها حاكما بحكم التزامه[٥] ويزرع الملتزم جزءا لنفسه والباقى للفلاحين بخراج معين ويسمى بأرض الأوسية ،

---

(١) هاملتون ، هارولدبون ، المرجع السابق ، جـ٢/٩١ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٤٨ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، جـ١/ ١٦٥ ، إبراهيم المويلحى، المرجع السابق ، ص٢٤٤ .

(٤) أرشيف المحكمة الشرعية، سجل اسقاطات القرى رقم ١ ، ص١٠٩ بتاريخ ١٠ ذى الحجة عام ١١٤١هـ/١٧٣٨م

(٥) Shaw, TheFianacial, p. 62 .

، ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ٢٣٦ ، ابراهيم زكى ، الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهد الحملة الفرنساوية وفى عهد محمد على ، ص٣٤ .

ويعين له وكيلا يتولى الانفاق على الحيوانات وغيرها لحسابه[١] والأرض ملك حر له يزرعها لحسابه ، ويستخدم الفلاحين لزرعها بطريق السخرة ، ويعطى الفلاحين جانبا من الأراضى يحق لهم الانتفاع بها ، ولهم أن يهبوا أو يبيعوا هذا الحق . لأن الملتزم هو المالك الفعلى لتلك الأراضى مادام له هذا الحق فى رفع أو تخفيض ضريبتها ، ومادام قادرا على منحها أو بيعها لملتزمين آخرين نظير مبلغ معين ، وأنها تصير من بعده ملكا له ولأولاده[٢] وأنه يخول منحها إلى أعوانه المقربين ، أما اذا مات الفلاح ، ولا وارث له ، فإن الأراضى تؤول إلى بيت المال بالإضافة إلى ماتركه من ماشية وبيت ومنقولات[٣] .

وللملتزم استرداد الأطيان من الفلاح اذا عجز عن زرعها ، وخشى ألا يقدر على سداد اتاوتها ، على أنه له الحرية فى اختيار الأصناف التى يريد زرعها بشرط أن يدفع الاتاوة . ولايرث أولاد الملتزم الا بعد موافقة الباشا ودفع الحلوان[٤] وذلك فى خلال خمسة وأربعين يوما من تاريخ وفاته ويدفع عن سنة واحدة[٥] .

أما اذا أراد الملتزم أن ينسحب من التزامه قبل انتهاء السنة ، فعلية التنازل لشخص آخر بشرط أن يظل المنتفع الجديد على قيد الحياة لمدة ٤١ يوما بعد التوقيع على التنازل الذى كان

---

(١) يوسف الشربينى ، دراسة نصية لكتاب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، المجلة التاريخية ، ص٣٠٥ ، المجلد العشرون .

(٢) أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاطات القرى ، السجل رقم ٥ مادة ٢٥١ ، ص٣١٨ . بتاريخ ٥ ذى القعدة عام ١١٦٤هـ/١٧٥١م .

(٣) ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص٣٥ .

(٤) الحلوان : ضريبة كان يدفعها الملتزم الجديد للباشا وديوان الروزنامة نظير التصديق على نقل الالتزام اليه ، وكانت فى بدء الأمر تقدر بمقدار سنة من الأموال الأميرية المقررة على الحصة ، ثم أصبحت تقدر بمقدار ثلاث سنوات من فائض الحصة الذى أصبح يفوق مقدار المال الميرى (انظر عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٢٥٦-٢٥٧) ، ويوسف نحاس ، الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية ، ص١٤ ، محمد عبد العزيز عجمية ، دراسات فى التطور الاقتصادى ، ص٢٧ .

(٥) ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص٢٣٧ .

يسمى مصالحة[١] وكان ضمن اختصاصات الملتزم منع الفلاح من مغادرة القرية ، وله أن يعاقب بالحبس والجلد[٢] .

وتفرض الحكومة على الملتزم واجبات منها ايواء المسافرين والموظفين وضيافتهم وصيانة المدارس والمساجد والحمامات الموجودة بالناحية وتحمل جزء من نفقاتها[٣] .

٢- شيخ القرية :

كان يعين عادة من سكان القرية ، وإذا كان للقرية أكثر من ملتزم فلكل ملتزم شيخ يشرف على جهته الخاصة به ، واذا كان هناك أكثر من شيخ ، يرشح لهم رئيس يسمى بشيخ البلد أو شيخ المشايخ[٤] وكان شيخ القرية حجر الزاوية فى مجتمع القرية ، لأنه يمارس سلطاته على جميع سكان القرية[٥] .

ومن اختصاصاته مسئوليه الأمن فى القرية ، ويعتبر مسؤولا عن حماية القرية ومعاقبة الفلاحين المهملين ، ونقل أوامر الملتزم للفلاح[٦] وعليه تنفيذ أحكام قاضى الشرع بالناحية طبقا للحجج الشرعية التى يكتبها[٧] والاشراف على عمليات مسح الأراضى التى تتم فى مناطقهم ، وخاصة فى الصعيد حيث تتم عمليات المسح سنويا نتيجة لعمليات طرح النيل زمن الفيضان ، كما شارك أيضا فى توزيع الضرائب على الفلاحين ، ويساعده الصراف فى جمعها ، ويعتبر مسؤولا عن المال المقرر لفلاحي حصته[٨] والعمل على حل المنازعات التى تنشب بين أهل القرية الواحدة ، أو بين القرى المتجاورة ، وكان يؤخذ برأيه غالبا فى حل هذه المنازعات ،

---

(١) ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص٢٣٨ . أرشيف المحكمة الشرعية ، سجل اسقاطات القرى ، سجل رقم ١ ، ص١٢٦ بتاريخ ٥ ربيع الآخر عام ١١٤١هـ/١٧٢٨م .

(٢) يوسف نحاس ، المرجع السابق ، ص١٥ .

(٣) عمر ممدوح مصطفى ، المرجع السابق ، ص٣٦٢ .

(٤) Shaw, Ottoman Egypt, p. 146 .

(٥) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المرجع السابق ، جـ٢/٩٣ .

(٦) Estéve, Op. Cit., T.II, T. 85 .

(٧) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٢٠ .

(٨) Estéve, Op. Cit., T.II. pt. 66-67; Shaw, The finanacial, P. 54 .

كما كان عضوا دائما فى لجان المصالحات التى يصدر بشأنها فرمان من الباشا لحل هذه المنازعات التى تنشب بين الملتزمين وغيرهم من رجال الادارة أو بين الملتزمين بعضهم مع بعض، وهى المنازعات الخاصة بحدود الالتزامات أو أغتصاب الأراضى(١) .

وقد تمكن هؤلاء المشايخ من تكوين ثروات ضخمة ، وأصبح بعضهم يمتلك التزامات قرية بمفرده مثال ذلك امتلاك شريف عيسى شيخ بلدة بردوم بالبهنساوية(٢) وازداد نفوذهم وبخاصة فى القرن الثامن عشر وأصبحوا الحكام الحقيقيين للريف المصرى بدلا من الموظفين العثمانيين(٣) .

ويختار الملتزم شيخ القرية عادة من بين الأسر الثرية من الفلاحين(٤) كما كان يختار شيخ القرية من العربان ، وبخاصة فى الأماكن التى تقطن بها قبائل بدوية ، وقد حدد قانون نامه واجباتهم واختصاصاتهم (٥) التى تتضمن الآتى : "حين يبقى الحقل دون زراعة نتيجة لخطأ الزراع فعليهم ، أى الكشاف والمفتش ومن اليهم ألا يدخروا جهدا فى ضبط واحضار هؤلاء الزراع وبعد أن تتم اعادة كل فلاح إلى قريته وبعد توقيع العقوبة عليه ، يقوم الكاشف أو المفتش باجباره على بذر البذور فى حقله "وكان عليه ابلاغ الملتزم أسماء الفلاحين العصاة المشاغبين(٦) .

وإذا كان سكان القرية من المسيحيين يعين شيخ مسيحى ، أما إذا كان سكانها من المسلمين والمسيحيين ففى هذه الحالة يعين الشيخ من المسلمين(٧) .

ويحصل الشيخ من المالك فى مقابل الخدمات التى يؤديها له على إعفاء من البرانى عن قطعة الأرض التى يحوزها ، وهى قطعة محدودة فى كل قرية ، وزيادة على ذلك فيقدم اليه

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢١ .

(٣) Shaw, The financial, p. 22-25 .

(٤) جب ، بوون ، المرجع السابق ، جـ٢/٩٣ .

(٥) Combe, Op. Cit., T. 3. P. 71 .

(٦) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٣ .

(٧) هـ . ريفلين ، المرجع السابق ، ص٥٢ ، ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص١٠٣ .

المالك منحة مابين ٣٠٠ إلى ١٠٠٠ بارة ، وهذا المبلغ من جانب الملتزم للدلالة على رضاه وقد اطلق عليه مساهمة المشايخ[١] .

٣- الوكيل أو القائم مقام :

وقد كان موظفا يعاون الملتزم ويمثله فى تنفيذ كافة التعليمات[٢] ويقوم بجمع الضرائب كما يوكل اليه تسجيل كمية الغلال المودعة له بشهادة شيخ القرية ، ويدفع أجور الفلاحين ، اذ لم يكن هناك سخرة[٣] .

ومن اختصاصاته أيضا ، القيام بدور قاضى المصالحات فى حالة نشوب نزاع بين فلاحى القرية [٤] كما يقوم بالإشراف على الأراضى ، ويراقب تصرفات الأهالى واتجاهاتهم وتحركاتهم اذ فكروا فى ترك الأرض التى يعملون فى فلاحتها ، أو فكروا فى الهجرة كلية من القرية . وعليه ابلاغ الملتزم بأسماء الفلاحين العصاة أو المشاغبين[٥] .

٤- المباشر :

كان بمثابة وكيل القائم مقام ويباشر اختصاصاته وصلاحياته حين يسافر القائم مقام إلى القاهرة لمقابلة الملتزم ، وكان يسجل كل مايدفعه فلاحو الالتزام فى سجل خاص به[٦] .

---

(١) هـ.ريفلين ، المرجع السابق ، ص٤٩ .

Lancret, Op. Cit., T. II; P. 480 .

(٢) Shaw, The financal, p. 54 .

(٣) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٤١ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ص٣٢ ،

Shaw, Ottoman Egypt, pp. 148-149 .

(٤) ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص٣٣٥ .

(٥) Lancret, op. cit. ? T. 11 . p 480, Estéve, Op. Cit., T. 11 . 66 .

، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٣ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٢٠ .

(٦) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٥ ، ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

٥- المشد :

وهو المنفذ لأوامر شيخ البلدأو شيخ المشايخ وينزل العقاب بالفلاحين فى حالة خطئهم ، أو اذا تأخروا فى سداد ماعليهم [١] وأصبح من اختصاصاته أن يعرف عنوان سكن الفلاح ليأتى به عند الحاجة ، ويرشد الأغراب ويزودهم بما يحتاجون اليه ، ويتصرف بناء على أمر من شيخ البلد أو غيره من موظفى القرية ، وأصبحت سلطته فوق سلطة الخفير ويستخدم القسوة فى تنفيذ هذه الأوامر [٢] .

وقد اختلفت المصادر بشأن ذلك ، فمنها مايشير إلى أنه لم يكن له دور فى جباية الضرائب، وأنه كان مجرد تابع لشيخ البلد ، ووظيفته الوحيدة أنه كان بواب القرية [٣] وعلى هذا فقد كان يعتبرموظفا تابعا للقائم مقام ، وكانت مهمته الأولى تنحصر فى احضار الفلاحين إلى الديوان وقت جباية الضرائب [٤] .

٦- الشاهد :

وكان يساعد الخولى ، ويعينه شيخ البلد وكان تعيينه يعنى توكيد سلطة الخولى والمساح الذى يمسح الأرض ، ويسجل أيضا أراضى الأثر (مساحة محدودة من أرض الفلاحة تزرعها العائلات كل على حده وتنتقل من الأب إلى الابن) ويسجل عدد الفدادين المزروعة والمروية ، وأسماء الملتزمين والمزارعين والكميات المنتجة خلال العام[٥] ويسمى مفتى القرية [٦] .

---

(١) Estéve, Op. cit., T. 11. p. 67; Shaw, Ottoman Egypt. p. L48;

، ابراهيم زكى المرجع السابق ، ص٣٥ .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص٣٣-٣٤ ، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٥ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٠٩ ، ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

(٣) Lancret, op. cit; T. 11, pp. 485-486; Estéve, op. cit., T. 11. p. 67 .

(٤) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٤٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص٤٠ .

(٦) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المرجع السابق ، جـ٢/٩٣ Estéve, Op. Cit; T; 11. p. 66 .

، عبد الرحيم عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ٣٣ ، هـ. ريفلين ، المرجع السابق ، ص٤٩ ، ابراهيم المويلحى، المرجع السابق ، ص٢٣٩ .

ويختاره الفلاحون بموافقة الملتزم ، وإذا وجد فى القرية عدد من الملتزمين ، فان كبير الملتزمين يصدق على تعيينه ، والشرط الوحيد لتعيينه أن يعرف القراءة والكتابة والحساب ، وعليه أن يسجل المعلومات المتعلقة بطبيعة ومساحة كل أرض فى القرية ، واسم كل سكانها ومايحوزه من ممتلكات وما يقع من تغييرات فى الحيازة[١] .

وكان يعفى من البرانى من جزء من أراضيه ويحصل على أجر ضئيل من الفلاحين بحسب مقدار الضريبة المقررة على كل منهم ، ولكن الأمر يختلف كبيرا من قرية إلى أخرى[٢] وعرف عنه أيضا بالعادل وذلك لاشاعة الطمأنينة فى قلوب الفلاحين ، نظرا لأن اختصاصاته تمس أوضاع الفلاحين ، اذ كان فى مقدوره أن يغلب مصالح فريق من الفلاحين على مصالح الآخرين منهم عندما يغفل الجانب الأخلاقى الذى يقتضى بالعدل[٣] .

٧- الصراف :

وكان يقوم بتقسيم الضريبة بين الفلاحين وجمعها منهم ، وغالبا ما كان من الأقباط[٤] وذلك لأمانتهم وخبرتهم فى المسائل الحسابية والمالية[٥] .

وكانت مهمته فرز مختلف القطع النقدية ، على أن يأخذ لنفسه نسبة على الأموال المحصلة من الفلاحين[٦] ، أما الحصيلة فانها تسلم نقدا أو عينا ، ويتسلم الأموال ويدفع المصاريف الادارية التى تتطلبها مصلحة الالتزام وعليه حضور عمليات المسح لكى تقدر الضرائب على أساسها[٧] .

---

(١) Lancret, op. cit., T. 11. pp. 479-480 .

(٢) Ibid, p. 480 .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٧ .

(٤) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٤٠ ، هاملتون جب ، بوون ، المرجع السابق ، جـ٢/٩٧ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٣٦ ، Estéve, op. cit., T. 11 ; p 68 .

(٥) ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص٣٣ ، Shaw, Ottoman. Egypt, p. 115 .

(٦) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٤٠٨ .

(٧) Poliak A.N. , Feudalism in Egypt and Syria, Lebanon and Palistine, p. 72; Shaw, Op. CIt, pp. 56-57 .

ويلاحظ أنهم لايكتفون بالأجرة المفروضة لهم ، وانما يتقاضون أجورا اضافية يفرضونها على الفلاحين ، ويستغلون نفوذهم أسوأ استغلال إلى جانب مايفرضونه من ضيافة على الفلاحين[١] وكان يطلق عليه في الصعيد اسم العامل ، أما في الوجه البحرى فانه على ألسنتهم الصراف[٢] .

ويفضل الفلاحون ادارة الصراف على ادارة عمال الديوان والشاهد ، ويرجع ذلك إلى الثقة التى كان يتمتع بها من جانب الملتزم ، وهذه الثقة كانت تدفعه إلى أنصافهم ، وبخاصة أنه غريب عن القرية ، وينتهى عمله بانتهاء السنة ، ولم يكن متحيزا بخلاف المشايخ والشاهد المقيمين دائما فى دوائرهم المحلية ، ولم يشتهروا بالعدل والانصاف [٣] .

٨- الخفير :

والخفراء هم حراس القرية ، ومن أعمالهم منع السرقات ، وينذرون القرية عند اغارة العربان، ويسهرون بصفة خاصة على حراسة بيت الوسية التابع للملتزم ، الذى يستخدم مخزنا للمحاصيل وحراسة الجسور[٤] .

وعليهم تنفيذ أوامر المشد عندما يناديهم طالبا العون الى غير ذلك من الأوامر التى يأمر بها المشد ، وكذلك ابلاغ الأوامر التى يريد شيخ البلد ابلاغها للفلاحين . ويلاحظ أن بعض العربان قد قاموابدور الخفراء وعرفوا باسم العرب المدركين : أى أصحاب الدرك وأصبح لهم فى نظير قيامهم بعملية الخفارة قدر معلوم من المال عن كل فدان أو حصة[٥] .

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٣٦ ، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٧ .

(٢) Estéve, op. Cit., T. 11 p. 67; lancret; Op. cit., T. 11 . p. 497 .

(٣) ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص٣٥ .

(٤) ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص ٣٤ Eatéve, Op. cit., T : 11. P. 67 .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص٣٥ .

٩- المساح :

وكان يقوم بعملية مسح أرض الالتزام ، وتقدير المساحات البور فيها والمساحات الزراعية[١] .

تلك هى أهم أجهزة الادارة الرئيسية فى الريف التى كانت تشترك فى الادارة ، وكانت هناك عناصر أخرى تعاون الملتزم فى أرض الوسية وهى فى الغالب عشر مساحة الالتزام ، وكان يعاونون الملتزم معاونون للاشراف على زراعتها ، ويأخذون أجورهم منه وهم على النحو التالى :

الوكيل ، الخولى ، الكلاف ، السقا

أ- الوكيل : ومن أهم أعماله حفظ الغلال التى تنتجها أرض الأوسية ، ويحافظ على البذور للزراعات المقبلة ، كما يحافظ أيضا على أدوات الزراعة كالمحاريث والسواقى والنوارج والفؤوس وغيرها من الادوات التى تتعلق بأرض الأوسية[٢] .

ب- الخولى : ومهمته أن يكون مسئولا عن حدود القرية ، ورى الأراضى المزروعة فعلا ، ونصيب هذه الأراضى من المياه ، ويحافظ أيضا على صيانة قنوات الرى[٣] كما أنه يحسم المنازعات التى تنشب حول هذا الموضوع وخاصة الأراضى التى تزرع بالسخرة[٤] وكانت وظيفته تحتم عليه الالمام بالقراءة والكتابة[٥] .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٩ ، ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ ، ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص٣٥ .

(٢) Shaw, Ottoman Egypt, p. 148 .

(٣) Shaw, The financial, pp. 54-55; Idem, Ottoman Egypt, p. 148 .

، عبد العزيز السناوى ، المرجع السابق ، جـ١/١٥٩ ، عبد للرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٣٠ ، هـ. ريفلين ، المرجع السابق ، ص٤٥ .

(٤) ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص٣٤ ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٣١ .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص٣١ .

ويحصل من الملتزم فى نظير ذلك ، على الاعفاء من البرانى عن بعض أرضه ، ونصف المنحة المخصصة للشيخ كما كان يعطيه كل فلاح ١/٢ من الأردب الحبوب باعتباره مساح القرية[١] .

ب - **الكلاف** : وكان عمله ينحصر فى المسئولية عن علف الماشية على اختلاف أنواعها ، وتسريحها ومراعاتها فى كل ماتحتاج اليه ، وجمع الصوف والجبن والزبد وأن يقوم بدور البيطرى فى القرية . وكان أجره عن العوائد التى يأخذها من أهل القرية بجانب الأجرة التى يحصل عليها من الملتزم ويبلغ أوامر الخولى الخاصة بالزراعة والحصاد[٢] .

جـ - **السقا** : وكان آخر تلك العناصر هو السقا ، وانحصرت مهمته بملئ الأزيار الخاصة بالوسية بماء الشرب [٣] .

أما الإدارة فى الإسكندرية فى العصر العثمانى : فترجع أهمية الاسكندرية إلى أنها كانت ميناء مهما طوال تاريخها الطويل ، وظلت مزدهرة لفترة طويلة حتى أصابها التدهور والركود فى أواخر العصر المملوكى ، أى فى الوقت الذى اكتشف فيه طريق جديد يمر من حول افريقية إلى الهند . وقد ترتب على ذلك أن تأثرت الموانئ المصرية ، الاسكندرية ودمياط والسويس وغيرها من ثغور الدولة ، وقد فكر السلطان الغورى فى الذهاب إلى الإسكندرية فى عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م للوقوف على أحوال هذا الميناء ، ولكن الزيادة لم تتم بسبب فيضان النيل . فأرسل أحد نوابه إلى هناك[٤] ، لنقل صورة عن أحوال تلك المدينة ثم زارها السلطان فى عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فوجدها فى حالة سيئة من التدهور الاقتصادى ويرجع إلى سياسة المماليك التعسفية ضد التجار والأجانب[٥] .

---

(١) Lancret, Op. Cit., T. II. p. 483 .

(٢) Shaw ottoman Egypt. p. 148 .

، ابراهيم المويلحى ، المرجع السابق ، ص٢٤٠ ؛ ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص٣٥ ، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١/ص١٥٩ .

(٣) ابراهيم المويلحى، المرجع السابق ، ص٢٤٠ ، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٦٠.

(٤) جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، ص١٥٢ .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك ، فى ضوء كتابات ابن اياس ، ص٨٧ .

وعندما خضعت مصر للاتراك العثمانيين عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ، أدرك السلطان سليم الأول أهمية هذه المدينة فزارها فى العام نفسه[١] . وهناك أمر بترحيل الحرفيين والقضاة وأعيان التجار إلى استانبول للاستفادة من خبرتهم في بلاده (آسيا الصغرى) وقد ذكرت المصادر المعاصرة اسماءهم ووظائفهم[٢] كما سافر أيضا إلى استانبول تجار الرقيق الذين كانوا يفدون إلى مصر من بحر آزوف والبحر الأسود والقرم ، ليبيعوا عبيدهم لأثرياء القاهرة[٣] .

وترجع أهمية الإسكندرية أيضا إلى أنها كانت محطة وصول الولاة العثمانيين الذين كانوا يصلون إلى مصر عن طريق البحر[٤] وتصف لنا المصادر وصول هؤلاء الباشوات والاجراءات التى كانت تتبع عند وصولهم فإذا كان الباشا قادما عن طريق الإسكندرية كان فى استقباله كتخدا الجاويشية ، ومتفرقة باشا وباش جاويشية والملازمون ، وقد حدث فى احدى المرات أن كاشف البحيرة[٥] توقف فى الاسكندرية لزيارتها وهناك قام بزيارة أضرحه بعض أولياء الله الصالحين ، مثل أبى العباس المرسى ، وأبى الفتح الواسطى ، أوقف بعض الأوقاف الخيرية على أضرحتهم ، وقدم العطايا والانعامات للفقراء ، ثم زار قلعة قايتباى[٦] وكان مثل هذه الأمور يحدث فى القاهرة[٧] وقد شهدت الاسكندرية أيضا سفر الوفود المرسلة للدولة العثمانية فى إبان حدوث الأزمات السياسية فى مصر ، وكانت تلك الوفود تضم ممثلين عن

---

(١) محمد بن اياس الحنفى ، بدائع الزهور وقائع الدهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، ج٥ ، ص١٨٤ .

(٢) محمد بن اياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، ج٥ ، ص٣٥٤ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص١٥٤ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزارة والباشات ، تحقيق عبد الرحمن عبد الرحيم ، ص١٤٥ ، ص٣١٨ ، ص٥٥٧ .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٢ ، ص١٠٩ .

(٦) محمد بن أبى السرور البكرى ، كشف الكربة برفع الطلبة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة المصرية التاريخية ، ص٣٠ ، المجلد٢٣ .

(٧) أحمد الدمرداشى ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ص٥ .

الأوجاقات السبعة . المتفرقة ، والجاويشية والجمليان ، والتفكجية ، والجراكسة ، والعزب ، والانكشارية ، اضافة ، إلى جاويش الاشراف وإلى بعض العلماء ، وكان هدفهم من مقابلة السلطان عزل بعض الولاة بسبب إستعماله أسلوب القهر ضدهم(١) .

وكان يعيّن للادارة فى الإسكندرية فى العصر المملوكى نائب ، أسوة بالنيابات الشامية ، ويرجع ذلك إلى أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية (٢) وظلت كذلك حتى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م إلى أن خضعت مصر للاتراك العثمانيين(٣) وعندما أعاد العثمانيون تنظيم الادارة فى مصر اعتبرت الموانئ المصرية وهى الإسكندرية ودمياط ورشيد والسويس ، أقاليم ادارية خاصة تمتع بإدارة متميزة فكان الباب العالى يرسل إلى مصر ثلاثة قبودنات ، أحدهم للإسكندرية والثانى لدمياط ورشيد والثالث للسويس ويحمل هؤلاء القبودنات رتبة الباشوية بالإضافة إلى حملهم رتبة الصنجقية ، مثل كتخدا الباشا ، فيعتبرون من صناجق مصر الأربعة والعشرين . وبذلك كان لهم الحق فى كافة الامتيازات المقررة للبكوات الصناجق من مرتب نقدى (ساليانة) ومرتب عينى جراية وعليق ، كل ذلك كان يصرف لهم من خزانة مصر ، ومع ذلك لم يكونوا أعضاء فى الديوان العالى مثل البكوات الصناجق ، ولم يكن لهم دخل فى إدارة مصر ، بل كانت مهمتهم الأساسية (حفظ القلاع ، وربط البنادر ، والعمل على نشر الأمن فى الميناء وتوابعه ، وكانت الشفقة ، وعوائدهم تصرف من طرف الميرى أى من أصل الساليانات المحددة لهم ، اضافة إلى جانب أنها كانت تصرف من السلع التجارية المجلوبة إلى البنادر (٤) .

وكان يتولى الادارة فى الموانئ قاضى الميناء ، وأمين الجمرك ، وأغات الحوالة ، وأمين الاحتساب ودزدار القلاع ، وهؤلاء هم الذين يوجه إليهم الباشا قراراته الادارية الخاصة بادارة

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات ، ص١٤٦ . وكان الباشا هو رجب باشا .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص٢٣ ، ص٤ ، ص٤١ ، ص٢٣١ .

(٣) محمد بن اياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٥ ، ص٤ ، ص٤١ ، ص٢٣١ .

(٤) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٣٤٥ .

الموانئ وكانت تلك القرارات تسجل فى سجلات محاكم الموانئ . وكان يشترك فى الادارة المفتون على المذاهب الأربعة ، إلى جانب ممثلين للفرق السبع سدادرة والاختيارية[١] .

وبالإضافة إلى ماسبق نتناول بالدراسة الأجهزة الادارية فى مدينة الإسكندرية فى تلك الفترة وهى على النحو التالى :

١- القابودان [*]

يعد هذا الشخص على قمة الجهاز الإدارى بالإسكندرية ، وكانت الدولة العثمانية تعينة مع غيره من القبودنات الذين يعينون فى دمياط ورشيد والسويس . وكان قابودان الإسكندرية أهم هؤلاء القبودنات ، وتتمثل مهمة قبودان الإسكندرية فى إمداد الأسطول العثمانى بالسفن عند قيامه بالعمليات البحرية فى شرق البحر المتوسط وغربه ، وكان من واجباته إرسال الجنود المطلوبين من الأوجاقات العسكرية المختلفة ، مثل مستحفظان ، وعزبان ، وجاوشان إلى أماكن القتال ، وكان عليه أن يتفق مع السفن التى تنقلهم ، وأن يدفع أحور تلك السفن[٢] كما أنه كان يقوم باعداد الذخيرة اللازمة لهم[٣] وكان من واجبة الاحتفاظ بخمسين سفينة على الأقل فى ميناء الإسكندرية بصفة احتياطية يقدمها عند اللزوم [٤] .

---

(١) نفسه ، ص٣٨٧ .

(*) القابودان : "أورقبطان كلمة تركية صحة كتابتها "قبودان" وهى بمعنى آمر رئيس السفينة (قبطان) وتعنى أيضا أمير البحر أوناخوذة . (انظر ، ابراهيم محمد يونس ، تاريخ مصر العثمانية من خلال مخطوط تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، وليوسف الملوانى ، الشهير بابن الوكيل ، رسالة ماجستير ، ص١٧٤ ، من كلية بالإسكندرية عام ١٩٨١ .

(٢) أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية ، محكمة الإسكندرية ، سجل رقم ٥٥ ، مادة ٥٦ ، عام ١٠٢٩هـ/١٦١٩م سأشير اليها بعد ذلك بالعقارى .

(٣) العقارى ، سجل رقم ٦٣ ، مادة ٢٣١ ، ص١٣١ ، عام ١١٢٨هـ/١٧١٥م ، سجل رقم ٦٤ ، مادة ٥٤٩ ، ص٣٠٥ عام ١١٢٩هـ/١٧١٦م .

(٤) S.J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revoluion pp. 80-81; Idem, The financial and Administrative Organization and Development in Ottoman Egypt, pp. 184-188 .

وكان عليه أيضا أن يشرف على إرسال السلع المصدرة للدولة العثمانية مثل الحبوب والسكر والبقسماط[١] فضلا على تصدير بعض السلع الغذائية إلى الخارج مثل الأرز ، والعدس والحمص والسكر . وكان يساعده في ذلك وكيل خرج السلطنة [٢] وكان يحضر الاتفاقات التي تعقد بين السلطات المختصة بالمدينة والسفن الأوروبية لكي يضمن شحن البضائع المصدرة إلى الخارج ، إلى جانب على أنه كان يحدد إجمالي المبلغ المطلوب دفعه ويقف على كيفية تسديد المبلغ الباقي[٣] .

وبالإضافة إلى اختصاصاته السابقة كان هو المسئول الأول عن الأمن وعن اتخاذ الإجراءات المناسبة لذلك كان يعقد الاتفاقات مع بعض القبائل العربية لكي تقوم بهذه المهمة ، أي مهمة حفظ الأمن في الطرق مابين رشيد والاسكندرية ، وفوة ، فتتعهد تلك القبائل بحماية أمن المسافرين والبضائع في تلك المناطق[٤] وقد اطلقت بعض المصادر المعاصرة على هؤلاء العرب المدركين . وكان حاكم ولاية البحيرة يشترك مع هذا القابودان في هذه المسئولية ويرجع ذلك إلى اشتراك الحدود بين الاقليمين الاسكندرية والبحيرة .

وكان من واجب هذا القبودان أيضا الاشراف على ملء الصهاريج الموجودة بالمدينة بالماء ، وملء السواقي ، وتعيين المختصين للاشراف على تشغيلها وكان هذا القبودان يتابع قيامهم بهذه المهمة بكل دقة وكان عليه أن يمدهم بالمساعدين من النجارين والحدادين والجيارة والبنائين والمكارين ، كما كان يعين شيخ السقائين . وكانت رواتبهم تصرف لهم من كشاف ولاية البحيرة . ويبدو أن رواتبهم كانت لاتكفيهم لذلك تقدموا بالتماس إلى القبودان يشكون

---

(١) العقاري ، سجل رقم ٧ ، مادة ٢٥٨ ، ص١١٢ ، عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م .

(٢) العقاري ، سجل رقم ١٥ ، مادة ١٤ ، ص٩ ، عام ٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م .

(٣) دار المحفوظات المصرية بالقلعة بالقاهرة ، سجل محكمة الإسكندرية رقم٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركي ، ص٩٥ ، مادة ٥٩٠عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م . وكان المبلغ المتفق عليه مائة وعشرون ريالا ، دفع منه خمسة وثلاثين ريالا ، وزتفق على أن يدفع كل يوم مبلغ اثنى عشر ريالا . سأشير إليها بعد ذلك بالمحفوظات.

(٤) المحفوظات ، سجل محكمة الاسكندرية ، رقم٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركي ، ص٥٣ مادة ١٨٥ ، عام ١١٢٧هـ/١٧٢٤م .

فيه من قلة رواتبهم ، فبادر - القبودان - بإجابة مطالبهم ورفعها بمقدار النصف أى ٥٠٪ كى تتناسب مع العمل الذى يقومون به[١] .

وكان من واجبات قبودان الإسكندرية تعيين الجوربجي فى سردار مستحفظان أوجاوشان[٢] وكانت الفرمانات تصل إليه من القاهرة ،لتحديد المسئول ، عن دلالة الجلود فى المدينة وكانوا فى الغالب من اليهود . وكان من واجباته ايضا تحديد قيمة السمسرة بين البائع والمشترى [٣] كما كان يقوم بإصدار الأوامر إلى القاضى وإلى أغاوات الحوالة وسدادرة البلوكات السبعة للاجتماع لمناقشة بعض الأحداث المهمة المتمثلة فى امتناع الحمالين والشيالين والبائعين عن دفع الرسوم المقررة عليهم إلى السلطات المختصة بالمدينة . وكانت هذه المهمة من اختصاص أوجاق المستحفظان[٤] وقد انتهت المناقشة باتفاق الجميع على اختصاص الأوجاق المذكور بهذه المهمة[٥] .

وكان قبودان الاسكندرية يحصل على دخل سنوى قدره(٨٠٠٠٠ بارة من الرسوم التى يفرضها على البضائع الصادرة من ميناء الإسكندريتواسواق المدينة والواردة إليها ، كما كان يحصل على سالياته سنوية من خزانة مصر قدرها ٣٠٠٠٠٠ باردة ، كان ذلك فى القرن السابع عشر ، ثم هبطت هذه السالياتة إلى ٢٢٦ر٩٨ بارة فى السنة ، أسوة بما حدث من تخفيض لساليانات جميع البكوات والصناجق إلى جانب ذلك كان لقبودان الإسكندرية مرتب عينى بلغ ٥١٥ أردب من الغلال كانت تصرف له من الأنبار الأميرية[٦] .

---

(١) المحفوظات ، سجل رقم ٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٩٥ ، مادة ٢٩٠ ، عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م .

(٢) المحفوظات ، سجل محكمة اسكندرية رقم ٦ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠٤م .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ١٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ٩٦٤٧هـ/١٧٨١م ، ص١٠١ ، مادة ٣ . السمسرة ٢٪ وقد حدد الأمر هذا السمسار .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ١٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٤٢ ، عام ١٢٠٠هـ/١٧٤٥م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٨٣ ، عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م .

(٦) ليلى عبد اللطيف احمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٧ .

٢- الديوان :

أطلقت كلمة الديوان فى مصر العثمانية على كل مجالس الحكم والإدارة ، فللباشا ديوان أى : مجلس حكم ، وللأمير المملوكى ديوان ، ولكبار رجال الأوجاقات دواوين[١] . ويتضح أن كلمة ديوان تعنى جميع الهيئات المختصة بالحكم والادارة والسلطة والنفوذ . ويتكون الديوان من القبودان والقاضى أو نائبه ، وأعضاء بحكم وظائفهم من مثل كتخدا القبودان ، والأمراء وأغاوات واختيارية الأوجاقات الممثلة فى المدينة ، ونقيب الأشراف أو من ينوب عنه، وأمين بيت المال وغيرهم . وفى الجلسات التى يعقدها الديوان لمناقشة بعض القضايا المهمة ، لم يكن يشترط حضور كل هؤلاء ، وإنما يحضرها القاضى أو نائبه وبعض الأعضاء الآخرين . وهذه الجلسات ذات الطابع الخاص كان يحضرها أشخاص ليسوا من أعضاء الديوان ، كانوا يحضرون باعتبارهم أطرافا فى النزاع أو شهودا للمتقاضين[٢] .

وبالاضافة إلى ذلك ، كانت هناك وظيفة كاتب الديوان وهو من اليهود وكان يتولى وظائف الصيارفة والمباشرين بالديوان[٣] وكان بعض هؤلاء الصيارفة من المغاربة[٤] وقد عمل بعض اليهود متحدثين على الأموال السلطانية بديوان الثغر[٥] وظلوا يمارسون هذا العمل حتى عهد على بك الكبير الذى أستأثر بالسلطة ، فقبض على اليهود لسوء سلوكهم وحل محلهم المسيحيون السوريون[٦] والمترجمون الذين كانوا فى أغلب الأحوال من اليهود ، وكانت الأوامر الخاصة تصدر بتعينهم ، ويطلق على كبيرهم الباش ترجمان [٧] . ولعب اليهود دورا

---

(١) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ١٣٢ .

(٢) نفسه ، ص١٣٧ .

(٣) العقارى ، سجل رقم ٣ ، مادة ٤٤٥ ، ص١٥٢ ، عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م .

(٤) العقارى ، سجل رقم ٦ ، مادة ١١ ، ص٦ ، عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م .

(٥) العقارى ، سجل رقم ٤٢ ، مادة ٥٩١ ، ص١٨٤ ، عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م .

(٦) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٠ ، عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م ، محمد رفعت ، على بك الكبير ، ص١٤٣ .

(٧) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ١٣٨ .

مهما فى قنصليات الدول الأوروبية ، حيث كانوا يقومون بأعمال الترجمة بين السلطات الحاكمة ، وبين رؤساء القنصليات ، وفى حالة اختيار احدى القنصليات لأحد المترجمين كان عليها ابلاغ السطات الحاكمة باسم هذا المترجم على اعتبار أنه من رعايا الدولة الذين يصدر باسمهم والقابهم أمرا[١] ولم تكن الترجمة مقتصرة على اليهود[٢] بل كان البعض من المسلمين يمارسونها[٣] كما مارسها المغاربة[٤] والمسيحيين [٥] وبخاصة من أبناء الأسر المسيحية ، الذين اتصلوا بالأجانب وتعلموا اللغات الأوروبية ، ووقفوا على أساليب السلوك الأوروبى وحذقوا فنون الاتصالات والمداخلات فى بلاد الشرق[٦] واستمر ذلك حتى عصر محمد على[٧] وقد مارس حرفة الترجمة بعض الرودسيين[٨] والأرمن[٩] وبعض أفراد الأوجاقات العثمانية[١٠] .

وكان من المسائل التى يبحثها الديوان ويشرف عليها قرارات التعيين مثل قرار تعيين القضاة فى المدينة ، وكان هذا التعيين يسجل فى سجل المحكمة[١١] ويصدر هذا التعيين شيخ الاسلام بالقاهرة وقد لوحظ أن أوامر التعيين كانت تصدر من ديوان القاهرة ، وترسل إلى ديوان الثغر ، ومنه إلى القاضى وأغا الحوالة وكتخدا بك أغاوات القلاع وسدادرة البلوكات

(١) المحفوظات ، سجل رقم ١٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، مادة ٥٢٣ ، عام ١٢١٩هـ/١٨٠٤م .

(٢) العقارى ، سجل رقم ٥٦ ، مادة ١٦٧ ، ص٥٦ ، عام ٩٨٦ هـ/١٥٧٧م .

(٣) العقارى ، سجل رقم ٨ ، مادة ٥٩ ، عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٤) العقارى ، سجل رقم ٨ ، مادة ٥٠٢٥ ، ص١٧٣ ، عام ٩٧٣هـ/١٥٦٥م .

(٥) العقارى ، سجل رقم ١١ ، ص٥٥ ، مادة ١٩٠ ، عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٦) أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، ص٣٧ .

(٧) المحفوظات ، سجل رقم ١٦ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٣ ، مادة ٣٥ عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م .

(٨) العقارى ، سجل رقم ١٤ ، ص١٤٢ ، مادة ٥١٢ ، عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م .

(٩) العقارى ، سجل رقم ٢٠ ، مادة ٢٢١ ، ص٧٧ ، عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م .

(١٠) العقارى ، سجل رقم ٢٠ ، مادة ٢٢١ ، ص٧٧ ، عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م .

(١١) العقارى ، سجل رقم ٨ ، ص١٥ ، مادة ٣٨ ، عام ١٠٠١هـ/١٥٩٢م .

السبع وجميع المسئولين[١] وكان يرسل إيضا إلى المفتى[٢] وكان من واجبات الديوان أيضا تعيين نائب شيخ الطريقة الأحمدية وكان أمر تعينه يصدر من قبل الدولة العثمانية[٣] وتعيين خلفاء أولياء الله الصالحين بالمدينة الذين تتوفر فيهم الشروط ، ومثال ذلك تعيين أحد أفراد ذرية سيدنا الزبير بن العوام فى هذا المنصب[٤] وتعيين نائب نقابة الأشراف بالمدينة ، وكان عليه أن يحكم بالعدل ويمنع الأذى عن الأعضاء ، وغير ذلك من الأمور الأخرى التى يلتزم بها[٥] .

وكان من واجب الديوان تعيين ناظر للأوقاف يكون من واجبة تحديدالوقف وجهته بالإسكندرية مثال ذلك وقف الحرمين الشريفين بالإسكندرية ومن واجب هذا الناظر تحصيل الأموال المخصصة للانفاق على الحرمين الشريفين ، وتحديد الأشخاص الذين يتولون هذه الوظائف[٦] والاشراف على وقف قايتباى الذى كان يخصص للصرف على بعض الأوجاقات العثمانية الاسكندرية ورشيد[٧] وكان على ناظر الوقف أن يتابع الأعمال الخيرية التى حددها الواقف وأن يقوم بالاصلاحات اللازمة لمبانى الأوقاف[٨] وقد يكون الوقف أرضا خالية مؤجرة

---

(١) المحفوظات ، سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ،مخزن ٤٦ تركى ، ص٢٢٨ ، عام ١٢٨٦هـ/١٧٧٢ ، وهو صورة قرار وارد مصر المحروسة من شيخ الاسلام على الصعيدى .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ،عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٣، عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م ، والفرمان موجه إلى أحمد جوربجى سردار مستحفظان ، وكامل الحكام ، وموقع عليه سراد بك وإبراهيم بك بناء على أمر الوالى ملك محمد باشا .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، مادة ٧٣٩ ، عام ١١٤٩هـ/١٧٣٦م .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م والفرمان موقع عليه من على بك أمير الحاج السابق .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٢٥ ، عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م ، صدر هذا القرار من السيد محمد أفندى البكرى الصديقى نقيب الأشراف بالقاهرة إلى السيد خليفة التونسى .

(٦) العقارى ، سجل رقم ٨ ، ص٢٢٤ ، مادة ٢٢٨ ، عام ٩٧٢هـ/١٥٦٤م .

(٧) العقارى ، سجل رقم ١٥ ، مادة ٣١ ، ص٣٠ ،عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

(٨) العقارى ، سجل رقم ٣١ ، ص٣٠ ، مادة ٧٢ ، عام ١٠٢١هـ/١٦١٢م .

للغير للأوروبيين مثلا ، فكان عليه أن يتابع دفع الايجار بانتظام ، والمحافظة على حدود الوقف ، ودفع الاعانات لمستحقيها[١] والأمر اللافت للنظر أن إحدى السيدات عينت ناظرة للوقف[٢] ويم يقتصر تعين نظار للأوقاف على المسلمين فقط ، بل تعدى ذلك إلى الأوقاف الخاصة بالمسيحيين فكان يعين عليها نظار من المسيحيين ، وكان عليهم أن يتابعوا أوجه الأنفاق ، والمستفيدين من هذا الوقف[٣] .

وكان من واجب الديوان كذلك تعيين أغا الحوالة ، والحوالة هو الشخص الذى خولت إليه سلطات جمع الأموال السلطانية من العمال وغيرهم من المكلفين بتحصيلها لتسليمها إلى الميرى[٤] وتتلخص واجباته فى الاشراف على ارسال الجنود إلى الدولة العثمانية من أوجاق عزبان أو مستحفظان [٥] أو الجاويشية[٦] كما كان عليه أيضا تصدير الأغنام والأبقار إلى الدولة العثمانية [٧] وكذلك الحبوب[٨] والبارود[٩] وتحصيل الرسوم المفروضة على الأجانب[١٠] وكانت الرسوم المتحصلة من الفرنسيين تخصص لكتخدا الثغر ودزدار القلاع والمستحفظان وكان على الحوالة كذلك أخطار الديوان بذلك[١١] وكان قرار تعينه يصدر من الوالى العثمانى بالقاهرة[١٢] وقد احتكر أوجاق متفرقة وظيفة أغا الحوالة[١٣] فكان عليه

---

(١) العقارى ، سجل رقم ١٢ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ ، تركى ص٩٨ ، عام ١٢٠٠هـ/١٩٨٥م .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٧٢ ، ص٢٣ ، مادة ٢٩ ، عام ١١٤٥هـ/١٧٣٢م .

(٣) العقارى ، سجل رقم ٨ ، ص٢٢٤ ، مادة ٢٣٨ ، عام ٩٧٢هـ/١٥٦٤م .

(٤) قانون نامة مصر ، ترجمة وعلق عليه أحمد فؤاد متولى ، ص٤٧ هامش ١ .

(٥) العقارى ، سجل رقم ٥١ ، ص٨٨٣ ، عام ١٠٧٦هـ/١٦٦٦م .

(٦) العقارى ، سجل رقم ٥٥ ، ص٢٥ ، مادة ٥٦ ، عام ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م .

(٧) العقارى ، سجل رقم ٤٦ ، ص١١٧ ، مادة ٢٥٤ ، عام ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م .

(٨) العقارى ، سجل رقم ٥٧ ، ص١١ ، مادة ٦٢ ، عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٦م .

(٩) العقارى ، سجل رقم ٥٧ ، ص١٢ ، مادة ٢٩ ، عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٦م .

(١٠) العقارى ، سجل رقم ٥٧ ، ص٧٥ ، مادة ١٦٨ ، عام ١٠٩٨هـ/١٦٨٦م .

(١١) العقارى ، سجل رقم ٦٠ ، ص٦٠ ، مادة ١١١ ، عام ١١١٤هـ/١٧٠٢م .

(١٢) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٣١ ، عام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م . وقد حضر هذا الاجتماع الأمير عبد الله جوربجى سردار مستحفظان ومعه سائر الحكام والجوربجية وموقع عليه من القائم مقام ابراهيم بك .

(١٣) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٤٢ ، عام ١١٩٨هـ/١٧٨٣م .

فكان عليه حضور جلسات الشرع الشريف عندما يعرض فيها بعض الأمور المهمة المتعلقة باختصاصاته[1] وكان من إختصاص الحوالة تعيين بعض الأشخاص فى منصب الأغاوية[2] وسردار مستحفظان ، وكان ينبه على سردار مستحفظان بحفظ الأمن وأقامة العدل[3] فكان الحوالة يقوم باصدار قرار تعيين أمين الاحتساب وتحدد مدته بسنة خراجية ، يمكن تجديدها سنة أخرى[4] وكان عليه أن يثبت قرار التعيين وأن يثبت كذلك تسليمه العمل وأنه التزم بكل ما يوكل إليه على حسب القواعد المعمول بها [5] وكان على المحتسب أيضا حفظ وضبط كامل تعلقات الميرى ، وكامل ارزاق التجار وله فى نظير ذلك مرتب ثابت وكان عليه اتباع العدل[6]. وكان من سلطته كذلك وضع تسعيرة للبضائع الموجودة فى الأسواق ، بل كان يقبض على المخالفين ، ويضربهم ضربا مبرحا حتى يشرفوا على الهلاك[7] وكان يرافقه فى تلك الجولات أتباعه من حاملى الموازين [8] وكان له السلطة على طوائف تجار الطعام وعمال الأخشاب ، وصناع القناديل ، وكذلك كان عليه جمع الضرائب منهم[9] وكان يدفع له الحرفيون رسوما مقابل السماح لهم بالقيام بأعمالهم ، وسمى هذا الرسم باسم يومى دكاكين (الرسم اليومى على الدكاكين) ، كان عليه أيضا تحصيل رسوم أخرى ، أهمها رسم السوق

---

(١) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٣ ، عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ١١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٦ ، عام ١١٩٣هـ/١٧٧٩م .

(٣) المحفوظات نفسه .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٧٩ ، عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٧٩ ، عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م .

(٦) المحفوظات ، سجل رقم ٨ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٦٨هـ/١٧٥٤م . وذلك بحضور الأمير مصطفى جاوشان مستحفظان قازدغلى وملتزم ديوان ثغر الاسكندرية ، وهو عبارة عن تقرير الاحتساب باسم السيد اسماعيل الكاتب من الديوان .

(٧) محمد بن اياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٥ ص٣٣٥ .

(٨) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣١٦ .

(٩) Gabrial Baer, Guilds in Egypt in Modern times, p. 84;

Lusignan, A History of Revolt Ali Bey, p. 62 .

الذى كان يؤخذ عن بيع أى حيوان أو سلع أخرى . وكانت السلع التى تعفى من تلك الرسوم هى التبن والبرسيم الجاف[١] .

وكان الديوان يعين أمين الجمرك وتنحصر مهمته فى متابعة تحصيل الرسوم الخاصة بالديوان والالتزام بتوريدها إلى الجهات المختصة . ويصدر به فرمان من الباشا موجه إليه إلى جميع المسئولين بالمدينة[٢]. وكان عليه تسجيل مفردات الأمتعة المتحصلة من العشور فى سجله ، وكان من الأفضل أن يباع النفيس منها فى القاهرة ، فيرسله العامل مع رجل موثوق به إلى القاهرة ، ومعه دفاتر تسجيل منها المفردات . وكان ناظر الأموال والأمين (أمين البلد) يقومان ببيعة بالمزاد ، ثم يرسل ثمنه إلى الخزانه وكان يخصم ذلك من أقساط العامل ، ويدون بالتفصيل مفردات المتاع المشابه الذى يفضل بيعه هناك ، ويوقع عليها القاضى ، ثم يخطر ناظر الأموال وأمين البلد ، ويباع فى الميناء مايكون بيعه هناك أجدى وأنفع بعد أخذ موافقتهما[٣] .

إما أمين بيت المال فكان يعينه الديوان ، وكان من أهم اختصاصاته حصر ميراث المتوفين والمستحقين لميراثهم ، وكان عليه أيضا حصر التركة من أمتعة وأموال[٤] ثم تسجل تاريخ الوفاة ، وقد لوحظ أنه لاتوجد سجلات فيها أسماء المتوفين أو المواليد ، ولكنهم كانوا يستشهدون بمن هم على صلة بالمتوفى قبل وفاته ، ثم تتخذ الإجراءات المناسبة لصرف مستحقات التركة لمن يستحقها[٥] بعد أن يخصم نصيب بيت المال منها ، وفى حالة عدم وجود وارث للمتوفى فإن تركته تئول إلى بيت المال بعد خمس سنوات من الوفاة[٦] ولعل هذه المدة كانت لاتاحة الفرصة لظهور أى وريث غائب ويشترط فى أمين بيت المال الأمانة

---

(١) هاملتون جب ، هارولدبوون . المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، سلسلة تاريخ المصريين ص٢٣-٢٤ .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٦ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٠٥ ، عام ١١٥٠هـ/١٦٣٦م .

(٣) قانون نامة مصر ، ص٤٧ .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ٦ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ١٠٥ ، عام ١١٥٠هـ/١٧٢٧م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٦ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص ، عام ١١٥٢هـ/١٧٢٩م .

(٦) قانون نامة مصر ، ص٧٥ هامش ١ .

والاستقامة والعدالة وقد حددت الأوجاقات التى يتم تعيين أمناء بيت المال من بين أفرادها وهى فى أوجاق الكوكليان والتوفكجيان أو الجاويشية[١] .

أما تعيين مشايخ الحرف بالمدينة فكان يخضع لتقاليد معينه ، ففى بعض الأحوال كان تعينهم يتم بناء على اختيار أهل الحرفة وطلبهم كما حدث بين السماكين[٢] والخبازين[٣] والجيازين[٤] أو بناء على تنازل شيخ الحرفة بناء على رغبته لغيره كما حدث من شيخ العرقسوسية[٥] وفى مثل هذه الظروف تحدد اختصاصات شيخ الحرفة أو الطائفة. فقد حددت اختصاصات طائفة البنائيين اصلاح وترميم وصيانة المبانى العامة مثل بعض الوكالات بسوق الحدادين[٦] بعض القلاع والميناء [٧] وكان يشرف على تلك الترميمات المعمرجى[٨] .

بعد هذا العرض نشير إلى موضوع التنازل عن بعض الوظائف أو العزل منها ، مثال ذلك التنازل عن منصب الكتخدا إلى قائم مقام نقابة الأشراف ، وكان على المتنازل أن يذكر أنه قد تم هذا التنازل برغبته وبرضاه [٩] ونشير كذلك إلى عزل أحد القضاة من وظيفته بتهمة

---

(١) نفسه .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٢ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٣٠ ، عام ١١٣٢هـ/١٧١٩م .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ٢ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٣٠ ، عام ١١٣٢هـ/١٦١٩م .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٣٠ ، عام ١١٣٢هـ/١٧١٩م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٣٨هـ/١٧٢٩م .

(٦) المحفوظات ، سجل رقم ١٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٤٨ ، مادة ٦٥٦ ، عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م .

(٧) المحفوظات ، سجل رقم ١١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٤٨ ، مادة ١١٨ ، عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م .

(٨) نفسه .

(٩) المحفوظات ، سجل رقم ٨ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٣٧ ، عام ١١٦٨هـ/١٧٥٤م . وقد حضر هذه الجلسة المفتى ، وأغا قلعة الركن فى برج مصطفى باشا ، وقائم مقام الأشراف ، وأغا الحصار الأشرفى الكبير وسردار عزبان وأغا الجاوشان (المراكشى) وجوربجى سردار الجراكسة وسردار طائفة مستحفظان وأمين الجمرك الذى كان يتولى منصب كتخدابك وتنازل إلى قائم مقام الأشراف الذى أعلن قبوله المنصب .

لاخلاله بشروط الوظيفة وقد أجرى التحقيق معه ، وكانت نتيجته أنه برئ مما نسب إليه ، فأعيد إلى وظيفته[١] ومن هنا نرى أنه على الرغم من أن القائم مقام على بك أصدر قرار العزل ، فإن القاضى أعيد إلى منصبة وأن دل ذلك على شئ فانما يدل على أن قرار القضاء كان له فاعليته فى رد الحق لأصحابه .

وكان من الأمور الأخرى التى يناقشها الديوان اعلان وفاء النيل وفى هذه المناسبة كان القبودان يحضر الجلسة ويحضرها حاكم ولاية البحيرة وجميع رؤساء الأجهزة الادارية ، للاحتفال بهذه المناسبة[٢] وكانت السلطات الحاكمة بالقاهرة تخصص لذلك مبلغا من المال بموجب فرمان من الباشا للصرف على السواقى ، وكان سردار جاوشان يتسلم المبلغ بإيصال لكى يتولى الصرف بعد ذلك [٣] كما كان يتم اعتماد بعض المبالغ اللازمة لإصلاح رصيف سد محمود المجاور لترعة الأشرفية بالخليج الناصرى ، وفى الحالة كانت تحدد المواد اللازمة لذلك مثل الجير والأحجار والأخشاب والحديد والأتربة والآلات اللازمة وأجرة الحرفيين كالبنائين والنجارين والحمالين ، والمدة المقترحة لاتمام ذلك[٤] كما كان من اللازم عمل جرافة الجسور السلطانية وصيانتها وكانت تتم باشراف حاكم ولاية البحيرة[٥] .

ولم تقتصر أعمال الاصلاح والصيانة على الجسور والأرصفة بل تعدى ذلك إلى أصلاح بعض القلاع الموجودة فى المدينة مثل قلعة الركن[٦] وقد أصابها بعض التآكل فى أواخر

---

(١) المحفوظات ، سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م . وهو مرسوم موقع عليه من القائم مقام على بك ، وقد حضر هذه الجلسة القاضى ومعه قاضى رشيد .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٢ ، عيم ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٢٢٤ ، ٢٢٥ ، عام ١١٣٣هـ/ ١٧٦٩م .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ٦٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، مادة ٧٣٣ ، ص ٢٠٣ ، عام ١١٦٥هـ/١٧٥١م .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٠ ، عام ١١٩٥هـ/١٧٨م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٢٧ ، عام ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م .

(٦) قلعة الركن : يبدو أنها كانت تقع محل منارة الاسكندرية القديمة ، حيث أقام الحكام محل هذه المنارة قلعة صغيرة بها برج صغير كان يستخدم لهداية السفن القادمة إلى الإسكندرية ، ويعرف هذا المكان الآن بطابية قايتباى ، ويقع فى الجهة الشرقية من شبة جزيرة رأس التين . [انظر ، عفاف مسعد العبد ، دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، من آداب الإسكندرية عام ١٩٨٣م ص٧٩ .

القرن الثامن عشر ، وكادت تسقط ، فتدخلت سلطات القاهرة ، وأصدرت فرمانا من الديوان إلى ديوان الإسكندرية ، بتشكيل لجنة فنية تتكون من المهندسين والمعمارجي وشيخ طائفة البنائين وغيرهم من أهل الخبرة ، كي تقوم تلك اللجنة بالفحص ثم تقدم تقريرها الذي يثبت وجود تصدع في المبنى والأماكن المخصصة للمدافع ثم يشير التقرير إلى المواد اللازمة والتكاليف الكلية مع التوصية بالبدء فورا[١] .

وأشار هذا التقرير - فيما أشار إليه - إلى ترميم الرصيف الخاص بالميناء[٢] ويناقش التقرير كذلك الاصلاحات الخاصة بدور العبادة الخاصة بأهل الذمة بناء على شكوى منهم ، فقد كانت ثلاث كنائس في حاجة إلى اصلاح وترميم ، وقد شكلت لجنة من الكاشف والسراج ليتم اتخاذ اللازم لإصلاحها وهذا يدل على تسامح الدين الإسلامي تجاه النصارى وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ، وبعد أصلاح تلك الكنائس اقيمت فيها الشعائر الدينية للمسيحيين[٣] وتم أيضا اصلاح الوكالة الخاصة الكائنة بسوق الحدادين[٤] واصلحت كذلك المباني الخاصة بالأوقاف بسبب تسرب مياه الأمطار في أحد المباني وقد أثر ذلك بشكل واضح على المباني المجاورة . ونتج عن ذلك حدوث ضرر بها ، فقدم أصحابها شكواهم فشكلت لجنة فنية لتقرير حجم الاصلاح اللازم ، وتم الاصلاح والترميم ، وأخطر ناظر الوقف لإتخاذ اللازم[٥] .

---

(١) المحفوظات ، سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركي ، ص٢٥ -٢٥٤ ، عام ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م . قدرت المبالغ المطلوبة بأربعين كيس ، ١٥٥ نصف فضة .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ١١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركي ، ص٤٨ ، مادة ١١٨ ، عام ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م . وقد حضر هذه الجلسة جاويش الحصار الأشرفي الكبير والمعمارجي والبنائين وكبير طائفة النجارين ، وحضور القضاه ونوابهم أيضا .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ١١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركي ، ص٣٥٧ ، عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ١٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركي ، ص١٤٨ ، مادة ٦٥٦ ، عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . وقد شكلت لجنة من شيخ طائفة المهندسين وبعض الاشراف من النجارين. وقد قدرت التكاليف الكلية بتسعين الف نصف فضة .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركي ، عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م .

وكان الديوان يجتمع عند حدوث أزمات اقتصادية واختفاء بعض السلع الأساسية كالقمح لاتخاذ الاجراءات المناسبة لذلك[١] وكان من نتيجة اضطراب الأحوال السياسية أن تأثرت قيمة العملة بشكل واضح فأوقف التعامل بها[٢] ويبدو أن الأزمة استمرت بدليل أن الأهالى بجميع فئاتهم اشتكوا للسلطات الحاكمة فاستجابت على الفور لمطالبهم ، فتم ابطال التعامل بتلك العملة[٣] لدفع المظالم عن الأهالى . وخاصة عندما استأثر بالسلطة مراد بك وابراهيم بك عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م وفى هذا الوقت صدر فرمان بتحديد الضريبة على الأراضى المزروعة قمحا ، وأشار إلى رفع المظالم وإلغاء المغارم التى قررت على التجار والدلالية والجزارين والحمالين والمتسولين[٤] فأدت إلى تقاعس بعض أصحاب الحرف عن دفع ما عليهم من الضرائب المخصصة للمال الميرى إلى ملتزم الخردة مثل الفرحانية (العوالم) والدخاخنية ، والزامهم بدفع هذه الضرائب والتحذير من التأخير[٥] .

وكان من الإجراءات التى يتخذها الديوان عن طريق الدولة العثمانية الحملات التى كانت ترسلها الدولة للقضاء على حركات التمرد وعلى عصيان بعض القبائل العربية وكانت هذه الحملات فى معظمها تحقق أهدافها ومن الأمثلة على ذلك حملة محمد بك أبو الذهب ضد الشيخ ظاهر العمر عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م وقد أقيمت الزينات ثلاثة أيام ابتهاجا بهذه المناسبة[٦] والحملات التأديبية لوقف عصيان بعض القبائل العربية التى هددت الأمن ، وفى مثل هذه الحالة كان يتم التنسيق بين المسئولين بالثغر وحاكم ولاية البحيرة[٧] .

---

(١) العقارى ، سجل رقم ١١ ، مادة ٧٤٣ ، ص٩٨٤ ، عام ١١٧٨هـ/١٧٦٤م .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٨١هـ/١٧٧٢م .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ٩ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، مادة ٦٨٦ ، ص٢١٧ ، عام ١١٨٧هـ/١٧٧٣م . وقد حضر هذه الجلسة كل من جاويش مستحفظات ، وجاويش عزبان ، وجاويش متفرقة .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م . والفرمان موجه من حسن باشا إلى القضاة والعلماء والأعيان والحكام والبلوكات السبعة .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م . فرمان صادر من حسن باشا إلى القضاة والعلماء والأعيان والحكام والبلوكات السبعة . وكانت الخردة تابعة لسردار عزبان .

(٦) المحفوظات ، سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م .

(٧) المحفوظات ، سجل رقم ٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٣٧هـ/١٧١٥م .

ومن الواجبات الديوان القضائية الفصل فى منازعات كبار الدولة ، وخاصة فيما يتعلق بالصالح العام ، مثال تداخل سلطات أغا الحوالة مع سلطات وكلاء الجوربجية بالجمرك . ويرجع ذلك إلى وجود مواد تعرقل سير العمل بالميناء الشرقى وقد أدى ذلك إلى النزاع بين الطرفين ، وترتب عليه امتناع البعض عن دفع الرسوم الخاصة بذلك . ويبدو أن هذه النزاع كان على درجة كبيرة من الأهمية لدرجة أن كبار المسئولين تدخلوا لحله وكان من هؤلاء نقيب الأشراف ووكيل الدزدار وأغا برج مصطفى باشا[١] وجوربجى كوكليان وسردار مستحفظان وجاويش الحصار الأشرفى الكبير[٢] وقد انتهى هذا النزاع لصالح الطرفين ، على أساس الاعتراف بسلطة كل منها فى دائرة اختصاصه .

ومن واجبات الديوان القضائية النظر فى قضايا الأحوال الشخصية مثل الميراث وخصوصا عند حدوث نزاع بين الورثة الشرعيين فى الأسرة الواحدة ، وفى أغلب الأحيان ينتهى النزاع باقرار ما أوصى به الشرع فى هذا المجال[٣] ومن اختصاصاته كذلك اثبات تحرير العبيد[٤] واعتناق بعض أهل الذمة للاسلام[٥] .

---

(١) برج مصطفى باشا ، ويعرف باسم قلعة برج مصطفى باشا ، وهى تقع على شاطئ البحر المتوسط . ويعرف رجالها باسم حصار مصطفى باشا . (انظر ، عفاف مسعد العبد ، دور الحامية العثمانية ، فى تاريخ مصر ، ص٨٠) .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٢ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٣٣٩ ، مادة ٢٦٤ ، عام ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م . الحصار الأشرفى الكبير وكانت تعرف بقلعة ترسانة عزبان اسكندرية وهو موضع لبناء السفن وترميها . وكان يشرف عليها قابودان الاسكندرية وهو موضع لبناء السفن وترميها . وكان يشرف عليها قابودان الإسكندرية . وعرفت باسم الحصار الأشرفى الكبير . (انظر ، عفاف مسعد العبد ، دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر ص٧٩) .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ٤ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ص٢٥ ، مادة ٢٨ ، عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ٥ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٦١ ، مادة ١٨٠ ، عام ١١٤٧هـ/١٧٣٦م .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٣، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٤٠٩ ، مادة ١٢٩١ ، عام ١١٣٨هـ/١٧٢٥م .

ومن إختصاصاته كذلك الموافقة على اختيار رعايا الدول الأوربية لقناصلهم ، مثال ذلك ما حدث فى عام ١١٨٠هـ/١٧٦٦م . عندما اختار الهولنديون بالمدينة قنصلهم بعد تعهده بالعمل على راحتهم ودفع الرسوم الخاصة بهم[١] وقد تولى الديوان حل المنازعات بين بعض البنادقة وبعض المغاربة ، ويبدو أن هذه المشكلة كانت على درجة كبيرة من الأهمية ، بدليل أن القناصل والمسئولين تدخلوا ، والزموا الأوروبيين بعدم خروجهم ليلا إلا ومعهم الفوانيس ، وكان كل من يخالف ذلك يقبض عليه ويسلم إلى قنصلة[٢] وهناك مشكلات خاصة إهتم بها الديوان وكان منها النزاع على مسكن بين القنصل الانجليزى وأحد اليهود ، وقد نجح الديوان فى تسوية هذا النزاع[٣] كما أن الديوان كان يهتم بحالات الوفاة بين أفراد الأوجاقات العثمانية ، فكان الديوان يقوم بتسديد ديون المتوفى ثم يحصل عليها بعد ذلك من تركته[٤].

٣- الأوجاقات العثمانية فى الإسكندرية ودورها فى الإدارة :

وقبل الحديث عن الأوجاقات العثمانية فى الإسكندرية ودورها فى الادارة، لابد من الإشارة السريعة إلى القلاع التى كانت موجودة بتلك المدينة لكى نفهم طبيعة دورها وهذه القلاع على النحو التالى[٥] :

١- قلعة كبير الإسكندرية .

٢- قلعة ركن الإسكندرية[٦] .

---

(١) المحفوظات ،سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦تركى ، عام ١١٨٠هـ/١٧٦٦م .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ١١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٤١ ، مادة ١٠٣ ، عام ١١٩٣هـ/١٧٧٩م . وقد حضر الاجتماع المفتون وسردار مستحفظان ، وأمين الجمرك ، وأغا دزدار القلاع ، وأغا كتخدا الترسانة ، ومعلم الثغر ، وسردار عزبان ، وأمين الاحتساب ، وجوربجى الحصار الأشرفى ، جوربجى قلعة الركن ، بالإضافة إلى المترجمين وكانوا من اليهود ، وقناصل البندقية وفرنسا وهولندا .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ١٤ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٥١ ، مادة ١٦٣ ، عام ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٠م .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ١٠ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٨٠هـ/١٧٦٦م .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٢٠٥ .

(٦) انظر هامش ، ٥ من هذا البحث .

٣- قلعة ترسانة عزبان اسكندرية[١] .

٤- قلعة أبو قير[٢] .

٥- قلعة صارو أحمد[٣] .

٦- قلعة البرلس[٤] .

ومن المعروف أن هذه القلاع كان لها أهمية كبيرة فى مجال حماية المدينة من أى اعتداء خارجى . وكانت تمثل خط الدفاع الأول وكان الجنود يقيمون فيها إقامة كاملة وكان هذا هو الأسلوب الأمنى السائد فى العصور الوسطى ومطلع العصر الحديث وقد حل محل القلاع فى تاريخنا المعاصر القواعد الجوية والصاروخية النووية والقواعد البحرية (بصفة خاصة) .

أما الإدارة هذه القلاع فكانت من اختصاص فرقة المتفرقة التى كانت تقوم بتزويد مصر بالرجال ويشاركها فى ذلك فرقة عزبان ، فكانوا يقدمون الرجال لترسانة عزبان الاسكندرية طوال العصر العثمانى ما عدا الفترة التى حكم فيها على بك الكبير ، وبعد ذلك حل رجال المستحفظان محل العزبان فى تلك القلاع ، ولكن بعد عزله عاد الأمر إلى ما كان عليه ، واستعاد العزبان اشرافهم على قلعة ترسانة الإسكندرية[٥] .

أما الواجبات الإدارية فكان يقوم بها رجال القلاع أنفسهم بمشاركة فعالة ، فكانوا دائما يحضرون جلسات الادارة[٦] كما كان أفراد بعض الأوجاقات يقومون بادوار أخرى

---

(١) انظر هامش ٢ من هذا البحث .

(٢) قلعة أبو قير ، قد بنيت عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م . ويعرف رجالها باسم جماعة ابو قير .

(٣) قلعة صارو أحمد ، بالقرب من رشيد لحراسة مدخل النيل .

(٤) ويقوم أفرادها بحماية مداخل النيل عند فرع رشيد . (انظر ، S.J. Shaw, The Finanial and Administrative Organization and Development in Ottoman Egypt p. 195 .

(٥) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص١٠٦ ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٢٠٦ .

(٦) المحفوظات ، سجل رقم ٣ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٦٠ ، عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م .

فى مساعدة الإدارة مثل جمع الضرائب والجزية من أهل الذمة عن طريق أوجاق الانكشارية[١] والمعمارجي الذى كان يشرف على البنائين والنجارين[٢] ، وقد شغل أفراد المتفرقة هذا المنصب منذ عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م ، وكان قبل ذلك يمنح لأفراد العائلات اليهودية[٣] وملتزم الخردة الذى كان مشرفا على تحصيل الرسوم المفروضة على الملاهى والعوالم ، والبهلونات والحواة ومن يمثلهم . فقد انشئت هذه الوظيفة فى مصر عام ١٥٥٨م . وعهد إلى شاغلها طوال القرن الثامن عشر بالاشراف على بعض الأسواق الخاصة بالمأكولات التى كانت لاتدخل ضمن نطاق أعمال المحتسب[٤] بجانب عمله وفي الوقت نفسه التزم سردار المستحفظان بتحصيل المال الميرى[٥] وكان هذا السردار يحضر جلسات الشرع الشريف، وقد حددت اختصاصاته بصيانة الجسور ، وتحديد المواد اللازمة لهذا الغرض ، وكان عليه احضار الحرفيين اللازميين من نجارين وبنائين وحمالين[٦] وتحديد المدة اللازمة لتنفيذ العمل وكان من واجب العزبان أن يمدوا الترسانه بالبحارة ، وأن يتولوا بعض الوظائف الادارية[٧] .

وكان السردار يحضر بصفة دائمة جلسات الشرع الشريف ومعه نقيب الاشراف وأغا الحوالة والدزدار وجاويش الحصار الأشرفى الكبير ، وجاويش قلعة الركن بالمدينة[٨] وكانت

---

(١) Shaw, Ottoman Egypt, p. 142 .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ١١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٤ ، مادة ١٨ ، عام ١١٩٢هـ/١٧٧٧م .

(٣) استيف ، النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية ، ج٥ ، ص١١٩ ، ترجمة زهير الشايب .

(٤) محمد شفيق غربال ، مصر عند مفرق الطرق ، ص٢٢ ،

Shaw Ottoman Egypt. Op. Cit. p.128-139 .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٢٤ ، عام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م .

(٦) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٥ ، عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م ، نفسه عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م .

(٧) Shaw, Ottoman Egypt Op. p. 94, 133 .

(٨) المحفوظات ، سجل رقم ١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص٢٣٤ ، عام ١١٣٠هـ/١٧١٧م .

الأوجاقات العسكرية مقسمة إلى سبعة أوجاقات فى مصر بصفة عامة وهى المتفرقة والجاوشان والكوكليان والتفكجيان والجراكسة والمستحفظان أو الينكجرية والعزبان . كما سبق القول وكان لكل أوجاق قائد أى رئيس وكتخدا وباشى اختيار أى رئيس القدماء فيه . وجماعة الاختيارية والجوربجية[١] وكاتب يمثل الأوجاق فى ديوان الروزنامة لكى يساعد فى صرف مرتبات الأوجاق . أما بالنسبة للأوجاقات العثمانية بالإسكندرية فكانت المتفرقة ومستحفظان عزبان . لذلك نجد أن أهم أعمال أوجاق المتفرقة هو حراسة القلاع التى تحيط بمصر مثل قلاع الإسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور واسوان وأبريم ولكل واحدة من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاه والفرسان والطوبجية مع جماعة من نافخى الأبواق والمعمارين والنجارين . ويعنى اوجاق المتفرقة بإعداد البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر ، وكان جانب منه يرسل إلى السلطان العثمانى[٢] ويعنى أوجاق مستحفظان : جنود الانكشارية وكانوا أقوى الأوجاقات واكثرهم عددا . حتى أنهم عرفوا فى ذلك الوقت بأوجاقات السلطان ، وكانت مهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان ، كما كانت لهم رقابة عليه وكان منهم طائفة من كبار أصحاب المناصب[٣] .

أما أوجاق عزبان هم رجال البحرية من حملة البنادق ، فكان لهم عدة اختصاصات ؛ فكان منهم بحارة ترسانة الاسكندرية والسويس[٤] تلك أهم الأوجاقات بالإسكندرية أما رواتب رجال القلاع ، فكانت تصرف باجراءات فى منتهى الدقة ؛ فيتوجه الجوربجى المسئول فى القلعة إلى الديوان فى ميعاد معين لتسلم رواتب فرقته ويؤخذ إيصال منه باستلام المبلغ المخصص لهم وكانت هذه الرواتب على النحو التالى[٥] .

رواتب قلعة برج مصطفى باشا	١٩٫٢٢٧	نصف فضة
رواتب قلعة البرج الكبير الأشرفى	٤٥٫٢٣٣	نصف فضة

---

(١) عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين ، وقلاع اسلامية معاصرة ، ص٦٦ .

(٢) عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين وقلاع اسلامية معاصرة ، ص٦٧ .

(٣) نفسه ، ص٦٨ .

(٤) نفسه ، ص٦٨ .

(٥) المحفوظات ، سجل رقم ٢ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، عام ١١٣١هـ/١٧٢٠م .

رواتب قلعة أبى قير	١٤٫٨٨٧	نصف فضة
رواتب قلعة برج الثغر	٣٣٫٥٧٤	نصف فضة

وقد لوحظ ضخامة المبلغ المصروف للبرج الكبير الأشرفى ، ويرجع ذلك أنها كانت تشمل راتب شهرين وعشرة أيام . ولانعرف سببا لتأخير هذه الرواتب . كانت ظاهرة تأخر الرواتب الخاصة بالجند فى العصر العثمانى ظاهرة مألوفة وهذا أدى بالجند إلى ممارسة أعمال غير أعمالهم المسندة إليهم إلى جانب قيامهم بأعمال النهب والسلب . أما فيما يخص برج الثغر فربما ترجع ضخامة المبلغ إلى كثرة الأعداد الموجودة هناك ، ولذلك كان الفرد العادى فى الأوجاق يتقاضى علوفة يومية تبلغ خمسة أقجات أما أغا الأوجاق فكان يحصل على ثمانى أقجات[1] .

وبعد هذا التناول للادارة فى الإسكندرية فى العصر العثمانى وأجهزتها الادارية المختلفة واختصاصاتها ، والأوجاقات العثمانية ومدى مساهمتها فى الادارة نشير إلى أنه قد حدثت تطورات مهمة فى مصر بصفة عامة ، وأثر ذلك فى الإسكندرية بصفة خاصة ، وبخاصة فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وكان من ذلك استئثار على بك الكبير بالسلطة فى مصر ، بعد أن أعلن تمرده على الدولة العثمانية ، ثم تولية محمد بك ابو الذهب الحكم من بعده ، واستئثار مملوكيها مراد بك وإبراهيم بك بالسلطة ، وأثر ذلك بصفة عامة فى الأوضاع السياسية والاقتصادية ، وقد ترتب على ذلك التأثير المباشر فى الادارة ثم قدمت إلى مصر بعد ذلك الحملة الفرنسية ، فأدخلت تعديلات ادارية مهمة ثم قام محمد على أيضا بمثل ذلك .

من المعروف أن مركز القابودانات قد تطور فى بداية القرن السابع عشر منذ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م اذ استولى بكوات مصر على منصب قبودان السويس ، فصار أحد البكوات يشغل هذا المنصب فاستغل سفنه وايراداته لمنفعته الخاصة ومنفعة بيته المملوكى[2] أما قبودان الإسكندرية وقبودان دمياط فقد بقى اسماهما يردان فى سجلات المرتبات إلى عام ١١٦٤هـ/١٧٤٩ أى إلى منتصف القرن الثامن عشر ، أما بعد ذلك التاريخ فقد حذف اسماها

---

(١) عفاف مسعد العبد ، دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر ، ص٦٨ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٧ .

من سجلات المرتبات لنقدية والعينية . وبعد ذلك أخذ عدد الأمراء الصناجق يكتمل حتى وصل إلى أربعة وعشرين صنجقا دون الاشارة إلى وجود رتبة صنجقية لهذين القبودانيين أى قبودان الاسكندرية وقبودان دمياط ، ويرجع ذلك أن بكوات المماليك فى مصرهم الذين اخفوا اسمى قبودان الاسكندرية وقبودان دمياط وفى عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م . أعاد حسن باشا القبودنات العثمانيين إلى مراكزهم ، ولكنهم طردوا من مصر عند استعاد مراد بك وابراهيم بك سلطتهما فى عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م . ويؤيد خلو الاسكندرية من وجود قبودان بها أن السيد محمد كريم الذى أشار اليه الكثيرون على أنه حاكم الاسكندرية كان أمين جمركها فقط[١] .

وصار التعيين فى منصب الأغاوية يتم بدفع ثمن للحصول عليه ، وكما هو معلوم فإن هذا المنصب كان من المناصب العسكرية وكان لشاغلة امتيازات كبيرة يحصل عليها فى أثناء شغلة ولنا أن نتصور مقدار الضرر الذى يعود على الصالح العام فى مثل هذه الأمور ، وبخاصة فى أواخر القرن الثامن عشر[٢] .

أما منصب سردار مستحفظان ففى احدى الحالات عين أحد أبناء المختصين الوظيفة بدلا من سابقه المعزول لاخلاله بشروط الأمانة والعدالة وقد وضح ذلك من استشاره بالمبالغ المتحصلة من تفريغ حمولات المراكب التى يقوم بتوزيعها على المختصين على حسب القوانين المعمول بها[٣] وكان من الضرورى توافر الأمانة والعدالة فى الشخص الذى يشغل تلك الوظيفة[٤] .

---

(١) نفسه ، ص٣٨٨ .

(٢) المحفوظات ، سجل رقم ٧ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١٣ ، عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م .

(٣) المحفوظات ، سجل رقم ١١ ، عين ٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١١٦ ، عام ١١٩٣هـ/١٧٧٩م .

(٤) المحفوظات ، سجل رقم ١٤ ، عين٦٩ ، مخزن ٤٦ تركى ، ص١١٤ ، عام ١٢٠٦هـ/١٦٩١م . وقد حضر هذا الاجتماع المفتون على المذاهب الأربعة وجوربجى سردار مستحفظان وأمين الجمرك وأغا دزدار القلاع وسردار عزبان وسردار جاويشان ومندوبين عن الأشراف ومن الحصار الأشرفى الكبير .وكان أوجاق عزبان هو الذى يشرف على الدخل .

أما سلطة المحتسب فانها تدهورت فى أواخر القرن الثامن عشر ، وصار الحصول عليها بدفع رشوة إلى كاتب الديوان المعلم يوسف كساب[١] وكان المحتسب يعوض المبلغ الذى يدفع عن طريق تقاضية الرشوة من أصحاب الحوانيت ليتغاضى عن نقص الأوزان والمقاييس ، وقد ظهر ذلك بشكل واضح ، وهذا ما أدى إلى تدخل أحد الأمراء المماليك ، لوقف تلاعب المحتسب فقد تولى هذا الأمير أعمال تلك الوظيفة بنفسه وبذلك منع المحتسب من المحصول على الرشوة[٢] .

وترتب على ذلك كله ازدياد سلطة أغات المستحفظان على سلطة المحتسب ، ووضح ذلك من ازدياد سلطتهم تدريبا على طوائف الحرف والتجار ، وبخاصة فى اثناء الأزمات الاقتصادية ، وكان لجولات أغا المستحفظان المعروفة لمباشرة شئون الأسعار وضبط الأسواق والعملات المتداولة والمكاييل أثر كبير . وقد باشر دوره الاقتصادى من ابطال الحمايات والالتزام بتسعيره السلع والبضائع المختلفة ، ونجح فى هذا الدور إلى حد كبير[٣] وعندما استولى مراد بك وابراهيم بك على السلطة فى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، أصدر مراد بك فرمانا بشأن تنظيم العمل فى الجمارك ، وطالب جميع التجار بضبط أموالهم[٤] وقد نتج عن ذلك تأخر توريد الميرى إلى الدولة بسبب تهريب البضائع من الجمرك ، وربما يرجع ذلك التهرب إلى ارتفاع قيمة رسوم الجمرك اذ قدرت بربع القيمة الحقيقية للسلعة[٥] .

وفى ابان الاحتلال الفرنسى لمصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م فقد الغيت للمحتسب ايراداته السابقة سواء القانونية وغير القانونية ، وصار من أصحاب المرتبات المقررة على الخزينة[٦] وفى عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ، تدخل محمد على فى اختيار المحتسب وأغا مستحفظان[٧] .

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ١ ، ص٨٣ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات ، ص٢٥٠-٢٥٥، أحمد الدمرداش ، كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، ص١١٣ .

(٣) عراقى يوسف ، الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرنين الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، ص٢٧ .

(٤) العقارى ، سجل رقم ١٠٧ ، مادة ٧١ ، ص٧٢ عام ١٢٠٩هـ/١٧٩٥م .

(٥) العقارى ، سجل رقم ٦٦ ، ص ٣٩ ، مادة ٦٦ ، ص٤٢ عام ١٢٠٩هـ/١٩٥م .

(٦) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص٣٢٢ .

(٧) نفسه .

وفى تلك الفترة أيضا أصيب القضاء بالتدهور ، لأن القضاة لجئوا إلى طريق غير مشروعة من أجل الحصول على الأموال كما كانت تفعل الأجهزة الادارية الأخرى ، حتى حقق بعض المسئولين ثروة كبيرة ، وأدى هذا الأسلوب فى الوقت نفسه إلى تدهور القضاء وزغزعة العدالة، لأن القادرين من المتخاصمين صار فى إمكانهم شراء ذمة القاضى للحصول على أحكام لصالحهم . وترتب على ذلك شكوى الأهالى إلى قاضى عسكر أفندى ، ولم يكن هو نفسه فوق مستوى الشبهات[١] ولذلك نجد أنه عندما احتلت فرنسامصر عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م أصدر نابليون أوامره فى يوليو من العام نفسه بضرورة اعادة التنظيم الإدارى فى مصر ، فانشأ ما يعرف بدواوين الأقاليم ، على أن يتألف فى كل أقليم ديوان ، مكون من سبعة أعضاء ، وحددت اختصاصاتهم بالسهر على مصالح الأهالى ، وكان يعرض عليه جميع الشكاوى الواردة إليهم ، ومنع اعتداء أية قرية على الأخرى ، وكان على هذا الديوان مراقبة الأشخاص من ذوى السمعة السيئة ومعاقبتهم والأستعانة فى ذلك بالقوات الفرنسية .

وكان يعين فى كل اقليم اغا الانكشاريتويتصل دائما بالقومندان الفرنسى ، ويكون تحت إمرته قوة مسلحة من ستين رجلا من الأهالى يحافظ بهم على النظام والأمن والسكينة . ويعين شخص فى وظيفة مباشر لجباية الأموال الأميرية والضرائب وايراد املاك المماليك التى صودرت وأصبحت ملك للجمهورية الفرنسية . ويكون تحت رئاسته العمال الذين يحتاج إليهم، فضلا على تعيين وكيل فرنسى للاتصال بمدير المالية ، ومراقبة تنفيذ الأوامر التى يصدرها بحيث تكون من إختصاص الادارة المالية[٢] ويفهم من هذا الأمر أن اختصاصات دواوين الأقاليم أو مجالس المديريات كانت تتمثل فى حفظ الأمن ، وجباية الأموال الأميرية ، والضرائب وحراسة الأموال المصادرة .

وعندما ارتاب كليبر فى نيات السيد محمد كريم أمر بالقبض عليه فى ٢٠ يوليو عام ١٧٩٨ ، واتهمه بتحريض الأهالى والبدو ، على مهاجمة كتيبة الجنرال ديموى التى كانت تطوف بالمنطقة المجاورة لتأمين مواصلات الفرنسيين ، وبعد اعتقاله جمع كليبر أعيان المدينة وأخبرهم

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القضاة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص١٨٤ .

(٢) لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل ص.١٢٠-١٢١ .

خبر القبض عليه للريبة فى اخلاصه للجمهورية الفرنسية ، وطلب أن يختاروا بدلا منه فوقع اختيارهم على السيد محمد الشوربجى الغريانى ، ووعدوا بمعاونته فى تأديه وظيفته ، وعاونه فى ذلك الشيخ المسيرى كبير علماء الاسكندرية (١) وفى عام ١٢١٤هـ/١٧٩٩م أعاد كليبر تنظيم الادارة فى مصر وضم إلى الاسكندرية البحيرة ورشيد (٢)، وعين لانوس - أحد الضباط الفرنسيين - حاكما على الإسكندرية ولكنه تراخى فى الادارة وترتب على ذلك اساءة العلاقات بينه وبين منو الذى تولى بعد كليبر ، فاتخذ منو بعض المشكلات ذريعة وأبعده عن الادارة ، وعين أحد المقربين لديه من الفرنسيين وهو فريان (٣) .

أما رأى الديوان الذى انشأه نابليون فكان أن يبقى نظام القضاء على ما كان عليه وألا يتغير شئ من ترتيب المحاكم ونظامها ، لكنه طلب أن تحدد رسوم التقاضى ، التى تدفع للقضاة وموظفى المحاكم . وطلب أيضا أن تكون تعيين القضاة فى كل مديرية من حق الدواوين المؤلفة بها (٤) وكان نابليون قد أصدر فى ١٠ سبتمبر عام ١٧٩٨ أمر بانشاء محاكم جديدة تسمى المحاكم التجارية فى كل من القاهرة والاسكندرية ورشيد ودمياط وتختص بالفعل فى النزاعات التجارية والمدنية كان أعضاؤها يختارون من التجار على اختلاف جنسياتهم وكان من بين هؤلاء الأعضاء القائد العام . وكانت مدة العمل فى المحاكم التجارية ثلاثة سنوات ، وحددت رسوم التقاضى بـ٢٪ من قيمة مبلغ المنازعات التى تطرح أمام المحاكم (٥) . وهذا المحاكم التى شكلها نابليون بونابرت فى القاهرةوالاسكندرية ورشيد ودمياط ، لم تستمر فى عملها في عهد الجنرال كليبر بسبب غير معروف لذلك كان من نصيب منو أن ينظر فى كل هذه الأمور لاعادة تنظيم الدواوين والمحاكم وكان من رأيه بعد الفحص والدراسة ، أن يكتفى الفرنسيون باعادة تشكيل ديوان القاهرة ، والاستغناء عن دواوين الأقاليم ودعم هذا الديوان(٦) .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، مجتمع الاسكندرية فى العصر العثمانى ، ص ٣٣٣، ص٣٣٤ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج٢ ، ص١٧٠ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك مينو ، ص٢٢٨ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج ٢ ، ص١٠٨ .

(٥) نفسه ، ج ، ص١٠٩ ، ص١١١ .

(٦) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك مينو ، ص٢٦٢ .

أما للتنظيمات الإدارية التى قام بها محمد على فى مصر فكانت معقدةوغامضة فى كثير من النواحى فقد غير كل النظم الادارية التى كانت سائدة قبل الاحتلال الفرنسى وأجرى تغييرا فى المصطلحات الادارية ، فقد اختفت الإدارات والالقاب القديمة وحلت محلها أسماء ذات معنى واضح كما ظهرت فى عهده كلمات جديدة حلت محل القديمة (١) .

واعتبرت المدن الكبرى والثغور أقساما ادارية مستقلة ، فأطلق على دمياط والاسكندرية فى عام ١٢٢١هـ/١٧٠٨م اسم محافظة ثم اطلق على رشيد والسويس اسم محافظة وكان ذلك فى سنوات ١٨٢٠ -١٨١٦م ، وقد خضعت الاسكندرية لسلطة الوالى مباشرة (٢) .

---

(١) عمر عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث، ١٧٩٨-١٩١٤ ، ص١٣٨-١٣٩ .

(٢) زين الدين شمس الدين نجم ، ادارة الأقاليم ١٨٨٢-١٩٠٥ ، ص٢٦ .

الفصل الرابع
الالتزام والضرائب فى مصر العثمانية

أولاً : الالتزام :

لم يبدأ نظام الالتزام فى مصر مرة واحدة ، ولكنه مر بعدة مراحل : فبدأ أولاً بنظام المقاطعات ، الذى كان يوزع على فئتين هما الأمراء والجند ، ويضم بلاداً وأرضًا يستغلها ويتصرف فيها الإقطاعى كيفما شاء ويحصل على ريعها . ويقدر الدخل على هذا النوع ، ويوزع السلطان هذه الإقطاعات بينه وبين أمرائه وأجناده ، فقد كان إقطاع الوجه البحرى على حسب توزيع السلطان صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م يشمل ضواحى ثغر الإسكندرية ، وثغر رشيد ، البحيرة ، وحوف رمسيس المزاحمتين (أ) وجزيرة بنى نصر (ب) جزيرة قويسنا ، والغربية والسمنودية ، والمنوفية ، أما الوجه القبلى فقد كان يشمل الإقطاعيات الجيزة ، والبوصيرية ، والواحات الداخلة والخارجة (وواح البهنسا) والإطفيحية، والفيومية ، والأشمونين ، والسيوطية ، خارجًا عن منفلوط ومنقباط ، والأخمينية ، والقوصية ثغر أسوان[(١)] .

واستعان صلاح الدين بعربان مصر ، وأعطاهم الإقطاعيات ، وأهمها جذام وثعلبة ، نظير المحافظة على الأمن والاشتراك معه فى الجهاد . أما إقطاعيات الحيادرة ، فقد كانت فى البرامون والشواكرة فى سنبارة بنى خصيب ، وبنى خليفة وسحسن من بنى عبيط فى هربيط مهياع فى كفر برشوط [(٢)].

وقد وزعت المقاطعات على أساس مساحتها وتقدر بالقيراط إذ كان يقسم خراج مصر إلى أربعة وعشرين قيراطًا ، توزع أجزاؤها على القرى ، توزيعًا مناسبًا مع طاقتها ، وتعرضت

---

(١) ابراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٢ .

مقادير الخراج سواء فى مجموعها الكلى أم فى الأجزاء الموزعة على القرى ، لكثير من التعديل ، وكان تصيب العربان من الأراضى المقطعة من الدرجة الثانية والمخصصة لهم والأجناد الحلقة الثانية والتركمان من أرباب الإدراك[١] وملتزمى خيل البريد[٢] وغيرهم[٣] .

واعتبر النظام الإقطاعى المملوكى زعماء العرب والتركمان الداخلين فى طاعة الدولة المملوكية من رجال السيف المقطعين ، لأن طبيعة عملهم تتركز فى حماية أطراف الدولة وطبق عليهم أحيانًا " أرباب الإدراك " أو المشاغرون ، وعرف الواحد من زعماء العرب باسم الشيخ. ويرجع تعميم الإقطاعيات لزعماء العربان إلى عهد الأيوبيين ، إذ أقر صلاح الدين جماعة منهم ، وسارت دولة المماليك علي نفس هذا النظام وسجلتهم فى الجريدة الجيشية بديوان الجيش[٤] .

وكان عربان هوارة يخصها وحدها فى القرن الثامن الهجرى / القرن الرابع عشر الميلادى نحو ٢٤ ألف فدان ، وقد أنزلهم السلطان برقوق (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م - ٨٠٢هـ/١٣٩٩م) بالصعيد الأعلى فى عام ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م وأقطع منهم بن مازن ناحية جرجا ، وكانت خرابًا فعمروها وانتشر بنو هلال بن عامر بن صعصعة وهم بطن من بنى عامر بأسوان وماحولها حتى ثغر عيذاب ، وكما سكنت منهم عدة بطون بأخميم مثل بنى رفاعة ، وبنى جحير ، وبنى عزيز، فضلاً عن بعض بطون بلى التى إمتدت كذلك إلى الأعمال القوصية والمنفلوطية ، وفى

---

(١) أرباب الإدراك : يدخل فى نطاق الخدمة الحربية أعمال حفظ الأمن فى الداخل والخارج ، واصطلح علي تسمية هذه الأعمال بالأطراف بأعمال الدرك ، لذلك نجد أن أغلب إقطاعيات العربان فى أطراف المملكة (انظر : ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٩٦) .

(٢) ملتزمو خيل البريد : كان هذا الالتزام يختص بتسهيل سبل النقل ووسائطه بين أجزاء الدولة ، فأهمه القيام بتقديم خيل البريد والجمال والقيام بحمل الغلال والمحاصيل المختلفة ، وأكثر ماعرف هذا الالتزام عن المقطعين العرب والتركمان خلال عصر المماليك ، ونصت الجريدة الجيشية أمام اسم التركمانى أو البدوى علي مايقدمه إلى الاسطبلات السلطانية والمناخات من الخيل والجمال ، وأمام أسماء العربات بمصر ، على المقرر عليهم من التقاديم وإقامة خيل البريد وغير ذلك من نقل الغلال ، ووضع التأكيد كذلك على الالتزام بالجهة الموجهة إليهم (انظر : المرجع السابق ، ص ١٩٧ - ١٩٨) .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٤) ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

معظم بلاد البهنسا سكنت لواته ، وأقامت جهينة من قضاعة ببلاد أخميم في عصر الناصر محمد (٦٩٣هـ / ١٢٩٣م - ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م) ودخلت الواحات فى إقطاع العربان بموقعها النائى ومايترتب عليه من صعوبة الاستقلال من غير العرب المقطعين [١].

وكانت هناك مناسبات عديدة تجرى فيها عملية توزيع الإقطاع ، مثل تعيين سلطان جديد فى الحكم ، حيث يعيد توزيع الإقطاعيات على أنصاره ، وعند استعراض الجنود ، ليختار القادرين منهم ، ويستبعد غير القادرين ويوزع إقطاعهم على القادرين ، أو استيلاء الدولة على أراضى جديدة نتيجة للفتح أو الاستصلاح أو شق قناة أو ترعة ، يقوم السلطان بتوزيع هذه الأراضى[٢] .

واستطاع المماليك أن يضعوا أيديهم على الأرض وأن يورثوا حيازاتهم لذراريهم ، وأن يستقلوا أحيانًا عن السلطة المركزية ، ولكنهم لم يستطيعوا أبداً أن يكتسبوا لأنفسهم حق ملكية تلك الأرض ، وحق السلطة الفعلية فى ممارسة قانونية ، والدليل على ذلك هو أن مصر ظلت دائمًا وحتى فى عهد حكام الصعيد فى الدولة الفرعونية وفى عهد المماليك وحدة سياسية واحدة [٣] .

ولم تكن ملكية الأراضى الزراعية فى مصر فى ذلك الوقت ملكية إقطاعية بالمعنى الأوروبى، وإنما كانت ملكية شرقية ، وتقوم على أسس تختلف عن أسس الإقطاعية الغربية ، وتلك الأسس مستمدة من انعدام الملكية الفردية ، ومركزية سلطة الدولة فى الزراعة . وتتشابه بعض مظاهرها مع مظاهر الإقطاعية الغربية ، وهى تلك المظاهر الصادرة عن نظام السخرة ونظام الاقتصاد الطبيعى فى الريف[٤] .

وحصل الأمراء والمماليك المسنون ، الذين لايقوون على تحمل تبعات الإقطاع ، على بدل الإقطاع بمنحهم رواتب نقدية تخصص لهم جهات معينة ، يتناول المقطع نصيبه منها . كما

---

(١) ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٢) ابراهيم طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ ؛ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٣) ابراهيم عامر ، الأرض والفلاح فى المسألة الزراعية فى مصر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٦٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٩ .

أنه لم يكن الإقطاع بعد ذلك فى منطقة واحدة ، وأصبحت القرية بعد ذلك لعدة مقطعين ، لكل منهم أتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمندوبه المسمى "القاصد"(١) وفى جميع هذه الأحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من إقطاعه إلا ماجرت به العادة ، فإذا ظلم أحد جاز للمظلوم أن يرفع أمره إلى الديوان أو السلطان فى دار العدل (٢) .

ولكن أصيب هذا النظام بالخلل والفساد فى أواخر عصر المماليك وظهر ذلك واضحًا فى تصرف الأمراء والأجناد فى إقطاعهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة ، وأدى ذلك إلى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش . ولما كان الجيش فى عصر المماليك يعتمد فى نظامه على الإقطاع ، فقد أدى فساد النظم الإقطاعية إلى ضعف الجيش وانهيار دعائمه(٣).

واتبعت الدولة العثمانية فى أول الأمر نظام الإقطاع الحربى الذى كان السلطان يمنح أرضًا زراعية لأمراء من سلاح الفرسان أو الخيالة بمصطلح ذلك العصر ، ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين . وكانت هذه الأراضى تسمى إقطاعات ، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الإقطاع الحربى اسم السباهية الإقطاعية (٤).

---

(١) القاصد : هو المندوب المرسل من قبل المسئولين فى الدولة للاتصال بالآخرين لإبلاغ نبأ ما أو غير ذلك ، ويذكر ابن إياس عن ذلك بقوله (المصدر السابق ، جـ ٣ / ٣٩٥) .

وفى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة (عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) حضر قاصد من عند ابن عثمان صاحب بلاد الروم ، وهو أبو زيد ابن مراد بن عثمان وأرسل معه هدية جليلة للسلطان (الملك الناصر فرج) وكذلك للأمراء ، وأرسل يعرف فى كتابه للسلطان بأن يكون على حذر من تيمورلنك ، فإنه جمع عسكرًا عظيمًا وقال: مارجع حتى آخذ مصر " .

(٢) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٥٩م ، ص ٢٠ - ٢١ ؛ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١١٣ .

(٣) سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٣٥١ .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ / ١٣٠ .

والحقيقة أن هناك بعض المميزات لهذا النظام ، يمكننا أن نشير إلى اثنتين منها ، فنحن نجد أولاً أن شغل السباهية للإقطاعات الحربية - التيمارات [١] والزعامات - كان وراثيًا إلى حين معين ، فهى فى الأحوال العادية تنتقل إلى أبناء السباهية إذ كانوا صالحين للخدمة العسكرية، برغم أن ذلك دون شك كان لاينطبق على أى إقطاعات من النوع الذى رصد كمكافأة عن وظيفة ، حتى لو كانت الإقطاعات العسكرية من نوع " الخاص " . ونجد ثانيًا أن كل إقطاع كان يحتوى على مايمكن وصفه بأنه بؤرة الممتلك " بمعنى حقل خاص " ، كان شاغله يعمل فيه شخصيًا ، أو عن طريق وكيل له يعمل لمصلحته . وأخيراً فإن الإقطاعيات من مختلف الأنواع كانت تمتاز عن الأملاك التى يديرها متولون ، أو تلك التى يحصل الملتزمون ضرائبها فى كونها تسمى " مورد رزق " ، وهو إصطلاح يؤكد الحقيقة الخاصة بأن المقصود من إيرادات كل منها أن تزود شاغلها بوسائل معيشته ، على حين أن معظم تلك التى كان يحصلها المتولون كان من نصيب المؤسسة التى كانت توفر الهبة الموقوفة عليها ، وأن الإيرادات التى كان يحصلها الملتزمون يجب أن تعوض الكمية التى يكونون قد دفعوها للخزانة بمقتضى صفقة الالتزام [٢].

وكان السباهية أكثر ملاك الأراضى صلة بالفلاحين ، فهم من ناحية لم يكونوا يزيدون عن كونهم فلاحين ذوى مركز مرموق - ويتضح فى الواقع من أحكام مختلفة أنه كان يحدث أن يصبح السباهية فلاحين عاديين عن طريق التسجيل كما يصبح الفلاحون سباهية - بسبب منحهم إقطاعية ومن ناحية أخرى نجد أن وراثة أسر السباهى لإقطاعيات - برغم أن ذلك كان مقصوراً على الأبناء الذين لهم الحق الشرعى ، وفى أحوال خاصة على الأحفاد - وتوارث التصرفات فى أسر الفلاحين ، قد أديا إلى خلق عواطف قوية بين الطبقتين ، وهى روابط برغم أنها تدين فى بدايتها للخضوع الذى يكاد يكون تامًا من ناحية الرعايا للسباهية ، قد أوجدت بينهما تضامنًا له قيمته [٣] .

---

(١) التيمار : كلمة فارسية اقتبسها العثمانيون من اللغة الفارسية ، وهى ترجمة لكلمة Pronois اليونانية ، وهى تقابل فى اللغة اللاتينية لفظة Cure واشتقت منها Curator الإنجليزية ، Curateur الفرنسية . ومعناها ناظر وقف ، أو وصى ، أو وكيل تركة ، أو ولى ، أو قيم (انظر : عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص ١٣١) .

(٢) هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٧١ .

(٣) جب ، بوون ، المرجع السابق ، جـ ٢ / ٧٢ .

وكان السباهية لايتقاضون مرتبات نقدية من الحكومة ، بل كانوا يعتمدون فى معيشتهم على المحاصيل الزراعية التى تغلها لهم الإقطاعيات الممنوحة ، ولذلك كانوا يمدون الفلاحين عادة بالماشية والبذور ، وفى نظير ذلك كان السباهية يستولون على نصف المحصول ، ويقومون أيضًا بجباية حصيلة العشور [١] وغيرها من الضرائب المقررة على الفلاحين والأرض[٢] .

واتبع العثمانيون نظام المقاطعات أو ماكان يسمى بنظام الأمانات ، وكان هذا النظام يقوم على أن كل قرية أو عدة قرى متقاربة تكون مقاطعة أو أمانة ، أى تكون وحدة إدارية ومالية فى ذات الوقت ، وكان يعين لكل مقاطعة أو أمانة عامل يقوم بعمل الملتزم ، قبل أن يطبق نظام الالتزام . ويختلف الحال هنا عن الالتزام ، إذ أن هذا الموظف يعتبر تابعًا لديوان الروزنامة، يتقاضى أجرًا عن عمله ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان يوجد بكل مقاطعة مفتش يحمل لقب أمين أو أفندى ومهمته الإشراف على الأراضى القابلة للزراعة وتحديد ماعليها من ضرائب ، ويعاونه عدد كبير من الكتبة ويستعينون بمشايخ القرى وأجهزة الإدارة من الكشاف أو " مشايخ العرب " وغيرهم لتذليل مايعرضهم من صعوبات فى عملهم[٣] .

وكان هؤلاء الموظفون مسئولين عن بقاء جزء من الأرض دون زراعة وعليهم تحضيرها ، كما أنهم لم يترك لهم حرية تقدير الضرائب حسب أهوائهم ولكن وجدت دفاتر مسجل بها محاصيل

---

(١) حصيلة العشور : كان العشر أهم الضرائب المفروضة على الزراعة ، وأنه كان يطلق عليه لفظ مناسب هو خراج مقاسمة ، (أو جمع ضريبة المحصول) والعشر الذى كان بالطبع ضريبة نوعية ، يحتجزه الجباة فى موسم المحصول قبل جنيه . ولكن الفلاحين كانوا ملزمين بأن يحضروا كل محصولهم لصاحب الأرض بقصد درسه ، وبأن ينقلوا ذلك الجزء من الغلال الذى يؤخذ بصفته عشرًا إما إلى أقرب سوق أسبوعى أو إلى شونة القرية . وكانت النسبة المأخوذة من أى محصول عن طريق العشر يختلف من ولاية إلى أخرى من العشر مايقرب من النصف . كذلك كان صاحب الأرض مخولاً أن يجبى العشور عن القمح والشعير وقش الجاودار ، كما كان يجبيها عن الفاكهة والخضر التى يزرعها الفلاحون على أرض الميرى (بمعنى فى أى مكان إلا فى المساحة الصغيرة المخصصة لكل منزل بمثابة ملك خاص) بل عن المنتجات المزروعة فى هذه المساحة الخاصة مما يعرضه الفلاحون للبيع ، وذلك فقط فى حالة عدم تسجيل الكروم وبساتين الفاكهة أو الخضر بقصد دفع رسم محدد (انظر جب . بوون ، المرجع السابق ، جـ ٢ / ٦١ - ٦٢) .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ / ١٣١ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص ٧٦ .

كل قرية ، والأموال المقررة عليها مثل الأموال السلطانية ورسوم الكشوفية[1] ورسوم الشياخة وأموال الأوقاف والرزق[2] والأملاك وتقديم التذاكر المذكورة لأمير الأمراء فى مصر ، فيضع عليها إمضاء ويختمها بخاتمه هو وناظر الأموال ويرجع إليها - الدفاتر - فى حالة قيام نزاع بين هؤلاء الأمناء والفلاحين[3] .

وفشل نظام الأمانات أو المقاطعات ، وهذا يرجع إلى اتباع الموظفين المشرفين على هذا النظام أساليب غير مشروعة ، لمصلحتهم الشخصية ، وذلك فى جمع الأموال الخاصة بهم من الفلاحين حتى أن الوكلاء المعينون من قبلهم - الأمناء - تعسفوا فى جمع الضرائب وأرهق الفلاحون بالإضافة إلى استغلال بقية الموظفين أيضًا بالرغم من إنشاء ديوان الروزنامة ولكنه لم يقض على تعسف هؤلاء الموظفين ، وعلى هذا فقد اضطرت الدولة العثمانية على تطبيق نظام الالتزام فى مصر منذ عام ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م بعد نجاح تطبيقه فى الأناضول والروملى

---

(١) رسوم الكشوفية : هى الضريبة المخصصة لسد نفقات الإدارة المحلية فى الأقاليم ، مثل مرتبات الكاشف ، وترميم الجسور ، وشق الترع ، ومرتبات العسكر المحليين ، وهذه الضريبة مثل غيرها من الضرائب لم تسجل فى دفاتر الالتزام فى السنوات الأولى ولكنها بدأت تظهر فى دفاتر الالتزام ابتداء من عام ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١١٤ وانظر أيضًا : Shaw, Ottoman Egypt, p. 53 .

(٢) أراضى الرزق : بعضها ملك ينتقل بالميراث ويتصرف فيه أصحابه كيفما شاءوا وأكثرها أوقاف أهلية على مكة والمدينة وعلى المساجد وعلى الأضرحة وعلى أعمال البر والصدقة والإحسان من مستشفيات ومكاتب وأربطة (تكايا) وسبل لسقى الناس وأحواض لسقى الدواب ومقارىء لتلاوة القرآن الكريم وبعض طلبة العلم الفقراء (انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣١ ؛ أحمد أحمد الحتة ، تاريخ الزراعة فى عهد محمد على الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٣٢) .

(٣) ويذكر عبد الرحيم عبد الرحمن ، (المرجع السابق ، ص ٧٣) أن قانون نامه سليمان أشار فى ص ١- ٢ ، إلى أن البعض من الكشاف والأمناء وماسوى ذلك من مباشرين يقبضون على الفلاحين من حقوق شرعية ورسوم عادية ثم يدعون بأن البعض منها مايزال فى ذمم القرويين باقيًا ولايعيرون أفكار القرويين أوذنًا صاغية ولايقيمون لما يقدمون من شهود وزنًا ، وأن هذا سبب لأكل وضياع الأموال ووسيلة للضغط على الرعية وأمرنا الشريف فى القضية على العادة الجارية فى تلك الديار أى الرجوع إلى دفتر شهود البلاد .

وقد فرق هذا القانون بين الأجزاء المزروعة وغير المزروعة ، كما أنه أعطى حق الفلاح فى استلاف التقاوى من ديوان المقاطعة ، حتى لا يترك الأرض بدون زراعة ، وإن ثبت إهمال ذلك من الكشاف وأتباعهم حاسبوا على ذلك .

وشمال العراق القرن السابع عشر ، ويختلف تطبيقه عن نظام الأمانات[١] فهو لا يخضع لموظفين حكوميين وإنما تولى الالتزام طبقة من الأثرياء وهم البكوات المماليك (وإن كان بعض المصريين في أواخر العهد الإقطاعي قد اشتغل بالالتزام)[٢] وكان هؤلاء يتعهدون بجمع الضرائب من الفلاحين نيابة عن زمام معين قد يكون قرية أو عدة قرى ، فيدفع للحكومة الضريبة كلها أو بضعها مقدمًا ، ويتولى هو جمع الضرائب من الفلاحين بمساعدة سلطات الحكومة ، وهذه الضريبة التي يطلق عليها الميري وهي الضريبة المخصصة للسلطان[٣].

وعلى هذا فقد كانت الضرائب تجبى بواسطة الملتزمين ، وكان الشخص يلتزم ضريبة ناحية أو عدة أنواع عن سنة أو أكثر ، ويسجل خراج سنة ويتم الالتزام بالمزايدة أو الاتفاق بين الملتزم والروزنامة بعد موافقة شيخ البلد على عقد الالتزام[٤] .

ويتسلم الملتزم من الحكومة وثيقة تدعى تقسيطًا[٥] تثبت التزامه ، ويتضمن الأمر الصادر إلى زعماء القرى وسكانها بإطاعته ، ودفع الإتاوة إليه، وبهذه الوثيقة يحل الملتزم محل الحكومة ينفذ في الأهلين الذين أصبحوا أرقاء له في خدمة الأرض وله جميع السيادة العليا[٦].

---

(١) جب ، وبوون ، المرجع السابق ، جـ ٥٣/٢ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٧٤-٧٥.

(٢) انظر من ص ٢٥٣ ، إلى ص ٢٥٦ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص ٤٨ .

(٤) يذكر ابراهيم الصوالحي (المصدر السابق ، ص ٧٦٤) عن بيع التزام ناحية أم دينار وتوابعها ، وناحية المنصورية وتوابعها أن صاحب الالتزام وهو يوسف أغا قد باعه بسبعة وعشرين كيسًا في عام ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧م ، واشترى إسماعيل بك الدفتردار ومصطفى أغا الجراكسة سابق ناحية البدرشين (الصوالحي ، المصدر السابق ، ص ٧٥٧) الكيس ، ٢٥٠٠٠ ألف بارة والبارة أو النصف فضة هي أصغر عملة فضية في مصر العثمانية وهي ١/ ٤٠ من القرش وترد كثيراً في مصادر العصر العثماني باسم ميدي (انظر: عبد الرحمن فهمي ، النقود المتداولة أيام الجبرتي ، في كتاب عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات وبحوث ، ص ٥٧٣).

(٥) تقسيط : سند يعطيه ديوان الروزنامه للملتزم ، بعد أن يرسوا عليه التزام الحصة التي يتعهد بجمع الأموال المقررة عليها ، وكان ينص في هذا السند على مقدار الأموال المقررة على الحصة (انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦) .

(٦) يوسف النحاس ، المرجع السابق ، ص٢١٤؛ أحمد الحتة ، المرجع السابق ، ص ٢٧ - ٢٨.

وقد كان نظام الالتزام يحمل فى مظاهره سمة النظام الإقطاعى ، إن لم يكن كذلك فى واقعه ، وإنما كان أقرب شكلاً إليه ، ويختلف هذا النظام عن النظام الأوروبى ، فى أنه كان يوجد فى أوروبا قيادات منهم تزعمت المعارضة والمقاومة ضد الحكومة ، وهذا بعكس الحال فى مصر ؛ لأن الملتزمين غالبًا حافظوا على مصالحهم بتبعيتهم لأجهزة الإدارة ، ويرجع ذلك إلى أن غالبيتهم لم تكن من خارج الريف فقط ، وإنما كانت من خارج أهل البلاد أنفسهم ، كما هو واضح من الأمراء المماليك والعسكريين العثمانيين ، وعلى هذا الأساس فالمعارضة هنا مبتورة غير موجودة للأسباب الموضحة [١].

وكان التزام الوجه القبلى يسجل عند أفندى الشهر[٢] وعنده دفتر السجل مقيد به أسماء الملتزمين ، وقدر الميرى الذى عليهم ، وله عوائد على الملتزمين ، وعلى الجمارك وعلى جانب الميرى ، وعلى الباشا الذى قبله ، وله من الأفندية أربعة عوائدهم[٣] .

وتبعًا لهذا النظام حل الملتزمون محل الحكومة ، ووضعوا أيديهم على نواحى التزامهم كل بنسبة ما التزم به حيث كان كل من طين الفلاحة وطين الأوسية[٤] فى القرية الواحدة مقسمًا إلى ٢٤ قيراطًا ، ويستولى الملتزم على قراريط متساوية من طين الفلاحة وطين الأوسية ، وقد يكون الملتزم لقرية واحدة أو الناحية كلها وقد يشاركه ملتزمون آخرون[٥] .

ولايعنى هذا النظام ملكية الأرض للملتزم ، ولم يكن له سوى حق الانتفاع ، وكان هذا الحق يتقاسمه الملتزم مع الفلاحين الذين ينتفعون بهذه الأرض ويدفعون له ضريبة ويستبقى

---

(١) فوزى جرجس ، دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٥-١٦ .

(٢) أفندى الشهر : رئيس قلم شهر أى قلم العاصمة والمشرف عى التزامات مقاطعات الجمارك والتزامات أرض الوجه القبلى . (انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ ؛ ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٣٩) .

(٣) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٤) طين الأوسية : ذلك الجزء من حصة الالتزام الذى لايوزع بين الفلاحين بل يزرعه الملتزم لحسابه (انظر، المرجع السابق ، ص ٤١) .

(٥) سجلات محكمة إسنا ، محفظة رقم ٣ ، وثيقة بدون رقم تاريخ ١٤ رمضان عام ١١٣٥هـ/١٧٢٢م.

الملتزم جزءاً من ربحه من الضرائب التى كان يحصلها من أرض الفلاح « الفايظ »[١] وهى فى القرن الثامن عشر المضاف والبرانى . ولكن معظم ربحه يستبقى من استغلال أراضى الالتزام المخصصة له شخصيًا " أرض الأوسية " على أنها لم تصبح ملكًا خاصًا له ، ويمكن استغلالها لصالحه فقط طالما يحتفظ باستئجاره للالتزام [٢].

ويلاحظ أنه كان هناك اختلاف بين نظام الالتزام فى الصعيد والوجه البحرى ، كما أن عدد المزارعين يزيد أو ينقص تبعًا للأراضى المزروعة ، ويدخل الفلاح ضمن عملية التوزيع . ويطلق على هذه الأراضى " المشاع " كما أنه لايجوز لأحد امتلاك هذه الأراضى ، ويتم توزيعها سنويًا بمعرفة مشايخ القرى[٣] وعلى هذا فإن ارتباط الفلاح بالأرض لايسرى إلا لمدة سنة واحدة ، وليس فى استطاعة الملتزم أن يجبره على الاستمرار فى زراعة الأرض ، إذ أن التعاقد بينهما اختيارى ينتهى بحصاد الزرع ، وهذا بعكس الحال فى الوجه البحرى[٤].

وكان إقليم الفيوم والجزء الأدنى من إقليم أطفيح يقسم ويدار بنفس الطريقة المتبعة فى الوجه البحرى ، من حيث دفع الضرائب ولم يسمح لفلاحى الوجه البحرى ببيع أراضى الأثر التى كانت تخصهم [٥].

وتعود هذه الاختلافات فى جزء منها إلى الصعيد ذاته وإلى نمط الزراعة التى تقتضيها طبيعة أرضه، ومع ذلك فتسبب هذه الاختلافات أساسًا إلى بعد الصعيد نفسه عن مقر الحكم،

---

(١) الفايظ : يمثل الفرق بين المال الميرى المقرر على الحصة ، والإيجار الفعلى الذى يفرضه الملتزم على الفلاحين ، وكان هذا الفرق يأخذه الملتزم لنفسه ، ولم يكن الفائض فى بدء أمر تطبيق النظام يسجل فى دفاتر الالتزام ، إلا أنه فى القرن الثامن عشر أصبح يسجل فى الدفاتر ، وطبقًا لإحصاءات علماء الحملة الفرنسية عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م حصل الملتزمون على أرباح الفائض ١٨٠،١٥٨،٥٠٧ بارة أى ٤٤٪ من مال الخراج عن هذا العام (انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٥٤ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١١٠ ؛ Shaw, op. cit., p. 41 .

(٢) هـ . ريفلين ، المرجع السابق ص ٤٠ ؛ ابراهيم عامر ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٣) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٤) أحمد الحتة ، المرجع اليابق ، ص ٣٩ .

(٥) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٥٨ ؛ Lencret, op. cit. T.11, p. 469; Shaw, The finanacial., p. 25 .

بالإضافة إلى الاضطرابات المستمرة التى كان الصعيد مسرحًا لها ، وقد ظهر هذا الاضطراب واضحًا منذ استقرار الهوارة فيها حتى أصبح الشيخ همام رئيسًا لهم ، واستطاع أن يدخل كثيراً من التحسينات فى الزراعة ، وانتظمت الإدارة بشكل واضح ، ولكن اختلف الحال بعد موته[١] .

كما لم تكن الأراضى المتعلقة بكل قرية موزعة على الفلاحين ، ولكنها كما نعلم كانت ملكية مشاعة للجميع وتوزع على كل حسب إمكانياته فى الزراعة وخاصة المنطقة الواقعة بين جرجا والشلالات يوزعها مشايخ البلاد عى الفلاحين وتعرف باسم أراضى المساحة[٢] ولايتوقف هذا النمط من الملكية فجأة عند جرجا ، بل يمتد إلى كل الأقاليم الأدنى حيث كان يعرف كذلك نظام الملكيات المحددة وكانت هذه الأراضى تعرف بأرض الأثر [٣].

وعلى هذا الأساس كان الفلاح لايملك أرضًا ، إنما كان يزرع الأرض التى ورثها بوضع اليد، وإذا عجز أحدهم عن زرعها ، أو خشى الملتزم ألا يستطيع سداد اتاوتها اشتراها منه وأعطاها

---

(١) Lancret, op. cit., T. 11, p. 489., Shaw, op. cit., p. 25 .

(٢) أراضى المساحة : كان المفروض أن الأراضى التى تصلها مياه الفيضان هى التى تدفع عنها الضرائب، وقد واجه الفلاح فى الصعيد صعوبات عديدة فى سبيل ذلك ، نظراً لعدم انتظام الفيضان كل سنة ؛ فإذا جاء الفيضان فى إحدى السنوات قليلاً تعرضت الأرض الزراعية للقحط ، أما إذا جاء الفيضان عاليًا تعرض الأرض للغرق . وكانت هذه الأراضى وتلك تحدد مساحتها بإجراء قياس لها ، وتخصم نسبتها من المجموع الكلى للضرائب المربوطة على القرية ماعدا ضريبة الميرى التى تبقى دون أى تخفيض . ولذلك كان يطلق عى الأرض التى يزرعها الفلاح فى الوجه القبلى مصطلح آخر هو " أرض المساحة " أما من الناحية الفعلية فإن هذه الرحمة بالفلاحين كانت رحمة ظاهرية ، لأنه إذا جاءت السنة التالية رغيدة بالنسبة للفيضان ، فإن التخفيض الضريبى عن السنة السابقة كان يضاف إلى ضرائب لسنة الجديدة . (انظر : عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ / ١٦٥ ؛ وانظر أيضًا : سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاطات القرى سجل رقم ٣ المادة ١٣ بتاريخ غرة جمادى الأولى عام ١١٤٥هـ / ١٧٣٢م .

(٣) أراضى الأثر : هى الأراضى التى كانت مخصصة للفلاحين فى الالتزام ، وأطلق عليها أرض الأثر ويقوم الفلاحون بزراعتها وخدمتها ، ويحصلون على محصولها ، وأحيانًا يحصلون على جزء من هذا المحصول . ولايجوز التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو الإيجار أو التنازل ولاتورث الأرض لأولادهم وأحفادهم وإنما يجوز وراثة زراعتها ومحاصيلها والانتفاع بها . ويستطيع الفلاح الاحتفاظ بذلك طالما أنه يستطيع أن يفى بالتزاماته نحو الملتزم . ولايستطيع الملتزم طرد الفلاح من الأرض طالما أنه يقوم بالتزاماته كاملة ، انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٥١ - ٥٢ ، وانظر أيضًا : Shaw, op. cit., pp. 21 - 22 .

لغيره ، أما إذا مات الفلاح الواضع يده على الأرض بلا وارث ، ضم الملتزم الأرض إلى أعيانه الخاصة بخلاف الحال فى سائر مملوكات الفلاح لبيته ومنقولاته وماشيته ، وإذا كات بلا وارث آلت إلى بيت المال لا إلى الملتزم [١].

وكان من حق الملتزم توريث التزامه لأولاده أو مماليكه البيض ، نظير دفع حلوان ، يقدر بثلاثة أمثال فائض الحصة نفسها ، ولا تؤول الحصة إلى الحكومة إلا فى حالة واحدة كانقراض ذريته ، كما أصبح من حقه أن يسقط حصته ، أو أجزاء منها إلى الأبد أو لمدة معينة حسب العقد المبرم بين المسقط والمسقط له نظير دفع مبلغ الحلوان الذى يتفقان عليه[٢] وقد يسقط الوصى أراضى الالتزام بموجب التوكيل الذى معه نظير مبلغ الحلوان[٣] ، كما كان من حق الملتزم رهن حصة التزامه ، ولكن كان لهذا النظام أثره السيء ؛ فقد كثرت المشاكل والمنازعات بين الملتزمين ووصلت إلى حد الاشتباك المسلح وقد يستعين أحدهم بقوى أخرى[٤] وهناك العديد من هذه الاسقاطات المدونة بسجلات اسقاطات القرى بالمحكمة الشرعية ، وبدراسة هذه السجلات لوحظ أنه يحق للملتزم أحيانًا تأجير التزامه نظير مبلغ معين ، كما أن هذا الإيجار لايخرج عن نطاق القبيلة مثل قبيلة الهوارة[٥] أما خارج القبيلة فإنه يمكن الإيجار بين الأفراد العاديين[٦] وكان يشترط فى نظير ذلك أن يقوم المستأجر بدفع جميع الأموال المقررة على الأرض مثل مال الديوان وتوابعه .

---

(١) أحمد بدوى ، تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٥٦ ؛ ابراهيم زكى ، الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهدى الحملة الفرنساوية ومحمد على ، ص ٢٨ ؛ . Poliak, op. cit., pp. 69 - 70

(٢) سجلات المحكمة الشرعية ، سجل اسقاطات القرى رقم ٣ ، ص ١ بتاريخ غرة جمادى الأولى عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٣) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاطات القرى رقم ٣ مادة ١٦ بتاريخ ١١٤٥هـ/١٧٢٢م .

(٤) أحمد الدمرداشى ، المصدر السابق ، جـ١ / ٤٩٩ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ص ٨٣ – ٨٥ ؛ جب ، بوون ، المرجع السابق ، ص ٢/ ٩٠ .

(٥) سجلات محكمة إسنا ، محفظة رقم ٢ وثيقة رقم ٤٣ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م .

(٦) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى السجل رقم ٣ ، المادة ٣٢ ، ص١٢ ، بتاريخ ١١٤٥ هـ / ١٧٢٢م .

واقتصر الالتزام على الأوجاقات والمماليك والجلبية[١] وبعض التجار والنساء والعربان وأرباب السجاجيد[٢] وبعض من العلماء والمشايخ[٣] .

ودخلت الطوائف العسكرية ميدان الالتزام ، ويرجع ذلك إلى الظروف السياسية التى كانت تمر بها مصر خلال تلك الفترة واحتياج هذه الطوائف إلى كثير من الأموال ، بل إن بعضهم كانت تتم عملية الإسقاطات لصالحهم ، بل شملت الإسقاطات أحيانًا الوقف فى ولاية الأشمونين[٤] وولاية المنفلوطية [٥]. وكان يتم التنازل نظير دفع مبلغ معين بناحية ما ، مثال ذلك بناحية ديروط الشريف[٦] .

---

(١) الجلبية : طائفة أحضرت العبيد من أفريقيا ، اقتصر أبناء هذه الطائفة على الواحات وأسوان وابريم ، كما أنه توجد طائفة أخرى تجلب العبيد من أوربا .انظر : . Gabrial Baer,op. cit., p. 30

(٢) أرباب السجاجيد : هم رؤساء الطرق الصوفية والمشرفون على التكايا والأضرحة والزوايا ومنهم نقيب الأشراف ، وهم السادة البكرية ، والسادات وآل العنانى وآل الخضيرى .

ولما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م اهتم بأمر أرباب السجاجيد اهتمامًا كبيراً جداً، ورتب لهم موارد رزق سخية ودائمة ، وأعطاهم بلاداً ومكنهم منها . وكانوا أعضاء فى ديوان القاهرة . وكان الباشا العثمانى فى مصر وكبار موظفى الحكومة يرجعون إلى أرباب السجاجيد ، وكان معظمهم يجمع إلى شرف المحتد غزارة العلم - فيرجعون إليهم عندما يستغلق عليهم دقائق لمسائل الهامة ، ويسترشدون بآرائهم ، وكانوا يتلقون التقادم أى الهدايا من الباشا العثمانى عند تعيينه فى منصبه وقدومه إلى مقر منصبه . وكانوا يصعدون إليه فى القلعة فى أول كل شهر عربى لتهنئته بحلول الشهر . وكان يقدم لهم فى شتى المناسبات على مدار السنة فراوى سمور ، وهو الرداء الرسمى لشاغلى المناصب الكبرى والشخصيات الكبيرة . (انظر : عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص ١/ ١٥٠؛ وانظر أيضًا : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨) .

(٣) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٤) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٧ ، عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٥) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٢٧٠ ص ٩٣ ، عام ١١٤٥ هـ / ١٧٢٢م .

(٦) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ١٥ ، عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

وأحيانًا على الأرض المشاعة فى ولاية الأشمونين[١] والجيزة[٢] وقد يحدث أن يتم الإيجار لنفس الأرض المسقط عليها[٣] ويتم التنازل أحيانًا عن أراضى الرزق[٤] وقد استغل البعض تبعيته لحاكم ولاية جرجا وأسقط له بعض الأراضى[٥] . وهناك العديد من الإسقاطات التى تمت لصالح الطوائف العسكرية ، وقد استعنت ببعض الحالات على سبيل المثال لا الحصر .

وقد دخل الأمراء المماليك ميدان الالتزام ، وكانت لهم العديد من الالتزامات فى كثير من الجهات ، وقد يحدث أن يكون للأمير أحيانًا عدة التزامات فى عدة مناطق[٦] وقد يكون الإسقاط فى أكثر من ناحية وتكتب فى وثيقة واحدة[٧] وأحيانًا يتم التبادل عن طريق الإسقاط[٨] . أو أن يكون الإسقاط فى ناحية واحدة[٩] .

وقد يحدث أن يكون هذا الأمير حاكمًا لإحدى ولايات الوجه البحرى ويسقط له أراضى خاصة به فى الصعيد ، نظير استلام الحلوان المطلوب من الأمير المسقط له[١٠] وهناك العديد

---

(١) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ١٣ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٢) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٤١ عام ١١٤٥ هـ / ١٧٢٢م وأرقام ٦ ، ٨ ، ١٢ .

(٣) سجلات المحكمة الشرعية ، سجل إسقاطات القرى رقم ٣ مادة ١٧ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٤) سجلات المحكمة الشرعية ، سجالات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٩ عام ١١٤٥هـ/١٧٢٢م .

(٥) سجلات المحكمة الشرعية ، سجل إسقاطات القرى رقم ١ ، ص ١١٣ عام ١١٤٢هـ / ١٧١٩م .

(٦) دفتر الالتزامات الولايات القبلية رقم ١٠٥ عين ٣ مخزن تركى لسنة ١٠٤ هـ / ١٧٠٣م .

(٧) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٥٠ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٨) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، سجل رقم ٣ مادة ٢٧٣ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٩) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، سجل رقم ٣ مادة ٢٧٣ ، عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(١٠) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، سجل رقم ٣ مادة ٢٧٣، عام ١١٤٥هـ/١٧٢٢م

من الإسقاطات من جانب أمراء المماليك فى نظير استلامهم مبالغ الحلوان . وهناك جهات عديدة لمثل هذه الإسقاطات[١] .

أما ثالث هذه الفئات التى دخلت ميدان الالتزام ، فإنها فئة التجار ، ويرجع ذلك إلى الظروف السياسية التى كانت تمر بها مصر فى ذلك العصر التى تمثلت فى الصراع بين البيوتات المملوكية للحصول على المناصب الهامة فى ولاية مصر العثمانية ، مثل منصب شيخ البلد وإمارة الحج وحكم ولاية جرجا وغيرها ، ويرجع أيضًا إلى احتياج أمراء المماليك للأموال لمواجهة نفقاتهم الكثيرة فاضطروا إلى بيع جزء من حصص التزامهم ، أو تأجير جزء منها أو كلها . وقد دخل التجار هذا الميدان نتيجة لكثرة الأموال بأيديهم ، كما أن التنازل يتم أحيانًا فى العديد من الأماكن لصالحهم فى وثيقة واحدة ، أما أن يكون لصالح شخص معين أو لصالح عدة أشخاص ، كما فى ناحية الرواق وناحية المخرص التابعة لولاية الأشمونين ، كما كان التجار أحيانًا نوابًا عن الملاك الأصليين[٢] . وقد كان التجار أحيانًا يسقطون حصصًا لهم فى جهات عديدة [٣]، وقد يكون التنازل من جانب التجار أنفسهم[٤] .

أما رابع فئة دخلت ميدان الالتزام ، فهى النساء ، فقد دخلت ميدان الالتزام لأول مرة عام ١١٤٤هـ / ١٧٣٢ ، وقد أخذ عددها يزداد دائمًا فى الفترات التالية ، وأحيانًا كانت أكثر من ملتزمة تشترك فى جهة واحدة ، بل وجدت قرى كاملة كان ملتزموها من النساء ، وأحيانًا تشارك النساء الملتزمات فى أكثر من قرية واحدة[٥] ويرجع ذلك إلى اشتداد عمليات الصراع بين الأمراء المماليك وانقسامهم إلى بيوتات متنافسة على السلطة ، وعدم استقرار كثير من

---

(١) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٤١ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٢) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ١ مادة ٥٥ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٣) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ١ مادة ١٢٦ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٤) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ١٠٨ عام ١١٤٥هـ / ١٧٢٢م .

(٥) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

الأمراء فى مراكزهم ، أدى ذلك إلى التجاء كثير من الأمراء فى مراكز النفوذ إلى كتابة الالتزام بأسماء زوجاتهم ، كما أن حق التوريث جعل الملتزمين يقصرونه على زوجاتهم كما يرجع ذلك إلى الأعباء المالية الكثيرة الى فرضت على الأراضى الزراعية نتج عن ذلك إلى التجاء أغلب الملتزمين البيع والتنازل بأرخص الأسعار مما ترتب عليه دخول النساء ميدان الالتزام [١].

أما خامس الفئات التى دخلت ميدان الالتزام إلى جانب الفئات الأخرى فهى فئة العربان ، وخاصة عربان هوارة الذين كاننت لهم السطوة والجاه فى الصعيد ، وخاصة إبان حكم رئيسهم شيخ العرب همام ، فقد حرصوا على أن تتم عمليات الإسقاطات داخل قبيلتهم ودافعوا عن ذلك بكافة الطرق والوسائل ، كما لم يسمحوا على الإطلاق بانتقال التزام أى منهم عند وفاته، إذا لم يكن له وريث ، ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة ضد من يقوم بهذا الإجراء ، ولو كان من قبل الأجهزة الإدارية ، فقد توفى أحد أفراد قبيلة الهوارة فى عام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢م وأراد محمد جوربجى انتقال التزامه إلى وكيله بدلاً من ابن المتوفى ، واضطر الابن إلى الاستعانة بأفراد قبيلته الذين أرسلوا له قوة كبيرة من فرسان وخيالة و " سيجمانية "[٢] وانتهى ذلك الموقف من جانب السلطات الحاكمة بالقاهرة بالتدخل وإنهاء هذا النزاع بنفى

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٩٥ .

(٢) السيجمانية : السجمان من الفارسية (سك) الكلب ، (بان) الحافظ والصاحب والسكبان هو المتولى أمر الكلاب . وكان السجمانية فى الدولة العثمانية فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر فى أيام مراد الأول وكانوا يرافقون السلطان فى الحرب وفى الصيد ، وكانوا مستقلين عن الإنكشارية حتى إذا كانت سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م. خرج السلطان محمد الفاتح لقتال إبراهيم بك قرمان أوغلى ؛ فلما رجع طالبه الإنكشارية بتوزيع المنح والإعطيات ، فغضبوا أمر رئيسهم (قازانجى طوغان) بأن يضربهم ويقمعهم ويقر الأمن فى جيشهم ، فلما فشل ذلك الرئيس فى تنفيذ أمر السلطان عزله السلطان ، وأدمج السيجمانية وكانوا أحب إلى قلبه لملازمتهم إياه فى رحلات الصيد فى الجيش الإنكشارى فصاروا هم الفرقة الإنكسارية الخامسة والستين ، واحجز السلطان لخدمته فى أمور الصيد خمسمائة سكبان .

وجرى القانون بعد ذلك على أن يكون أغا الإنكشارية من فرقة السكبانية ، فلما كان عهد بايزيد الثانى أو عهد ابنه سليم الأول حرض أغا الإنكشارية المنتمى فى الأصل للسكبانية جيشه الإنكشارى على التمرد ، ففقد السكبانية ماكانوا يتمتعون به من الثقة ، وتقرر ألا يكون أغوات الإنكشارية من الكبانية ، وانحطت منزلتهم .

وكان السكبانية قسمين : قسم من المشاة ، وقسم من الفرسان أنشىء متأخراً ، ليساعد على اللحاق بالصيد البعيد . وإذا قيل فرسان الإنكشارية فالمراد بهم فرسان السكبانية هؤلاء هم فرسان الزغارجية (أى مربى الكلاب (انظر : أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥) .

وكيل الجورجى[١] إلى أرض الحجاز وعودة الهوارى إلى أرضه[٢] ، وقد كان للهوارة العديد من الالتزامات فى كثير من جهات الصعيد[٣] .

وتؤكد جميع المصادر أن عملية البيع والشراء والتنازل كانت تتم لصالحهم[٤] ، كما حرصوا على دفع حلوان المتوفين من أفراد قبيلتهم ، ووكلوا عنهم بعض المشايخ فى إدارتها ، واستولوا أحيانًا على بعض الأراضى الموقوفة لصالح أعمال الخير ، مثل وقف الناصر صلاح الدين بناحية نقادة بولاية القوصية[٥] ولم يقتصر استيلاؤهم على هذه الأراضى فقط بل استولوا على التزامات أخرى خاصة ببعض الأمراء أو الأفراد[٦] كما كان يحدث نزاع بين عربان هوارة والأهالى ويلجأ الطرفان إلى القضاء الذى كان غالبًا يصدر الحكم لصالح الهوارة[٧] . وهنا تثار بعض الشكوك حول الأراضى المتنازع عليها ، ومن مالكها الحقيقى ، فإذا كانت ملكًا لشيخ عربان هوارة ، فلماذا هذا التنازع حولها ؟ ، مع العلم بأن كان له من القوة ما يمكنه من أن ينهى المشاكل دون إثارة أى مشاكل . والحقيقة أنه أراد أن يثبت أن القانون فوق كل اعتبار ، وكان هذا هو الظاهر ولكن الواقع عكس ذلك ، وربما كان يعلم مقدمًا أن القضاة سيحكمون لصالحه لأنهم يخشون بأسه أو ربما يكون قد رشى القاضى ، وخشى منه الأهالى الذين يضطرون للشهادة لصالحه أمام القضاء .

وقد كان للهوارة الكثير من الإسقاطات فى جميع أنحاء الصعيد ، وأسقطت لهم الكثير من الإسقاطات لصالحهم وبخاصة لشيخ العرب همام[٨] ، ولم يكن عربان هوارة وحدهم فى ميدان الالتزام ، بل كان معهم كثير من العربان مثل عربان البصيلية الذين التزموا بالخراج المطلوب القديم والجديد ، على ناحيتهم من مال وغلال ، ونقل إليهم الالتزام من عربان المحلات [٩].

---

(١) أحمد الدمرداشى ، المصدر السابق ، جـ ٢ / ٥٥٠ - ٥٥٢ .

(٢) دفاتر التزام الوجه القبلى رقم ٥٨٣ عين ٢ مخزن تركى التزام الهوارة بأسيوط .

(٤) سجلات المحكمة إسنا ، محفظة رقم ٣ وثيقة بدون رقم بتاريخ ١٤ ربيع الأول عام ١١٧٨ هـ / ١٧٦٤م .

(٥) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاطات القرى السجل رقم ١ ص ٩٤ بتاريخ ١١٤١هـ / ١٧٢٨م .

(٦) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة ، عام ١١٤١هـ / ١٧٢٨م .

(٧) سجلات محكمة قنا محفظة رقم ٢ وثيقة بدون رقم .

(٨) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم١ مادة١٥١ عام١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م .

(٩) سجلات محكمة قنا محفظة رقم ١ وثيقة بدون رقم بتاريخ ٢٢ شعبان عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م .

وكان عربان البصيلية تابعين لعربان هوارة ، كما تمت الإسقاطات أيضًا لعربان المغاربة ، وكانت مناطق التزامهم وإسقاطاتهم غالبًا فى ولاية الفيوم ، وتمت لهم العديد من الإسقاطات من جانب الأمراء المماليك كما أنهم لم يدفعوا الثمن نقداً ، وكان الثمن يسدد بنظام المقايضة. كما لم يقتصر دورهم على الالتزام فقط بل كانوا أحيانًا يؤجرون هذه الأراضى للأمراء[١] كما كان فى ميدان الالتزام أيضًا عربان غزالة بالجيزة .

أما سادس الفئات التى دخلت ميدان الالتزام فى جهات عديدة ، وتمت لصالحهم الكثير من عمليات الإسقاطات فهى فئة العلماء ، ويلاحظ أن هذه الإسقاطات كانت كبيرة الحجم بالنسبة للفئات الأخرى ، فقد تم الإسقاط لأحد العلماء فى ناحية الرواق تابع ولاية الأشمونين[٢] .

ويرجع ذلك إلى أن إشرافهم على أراضى الوقف قد أتاح لهم نوعًا من الإثراء إلى حد ما . وأدى ذلك إلى أن عملية الإسقاطات لم تكن بمشكلة فى ذلك الوقت ، كما كان أغلبهم من الريف الذين كانوا غالبًا مايحتفظون بالأرض[٣] وقد كان بعضهم يبيع مناطق تالتزامه فى ناحية أبوتيج بولاية جرجا[٤] .

تلك أهم الفئات التى دخلت ميدان الالتزام ، ولكن هذا النظام وجهت إليه ضربات عنيفة ، وتتمثل ذلك فى الحملة الفرنسية ، إذ ألغت نظام الالتزام مؤقتًا ، وصادرت أموال أمراء المماليك ، وجعلت الفلاح ينتفع بإنتاجه ويصبح مالكًا لأرضه . وأوجدت تلك المحاولات هزة فى الرأسمالية ، وهدمًا للسيادة الإقطاعية ، حتى إذا ما تحققت تلك المبادىء الاقتصادية تحرير الفرد من سلطة المماليك وتخلصت القرية من عسفهم وظلمهم ، وهكذا تشع أضواء جديدة من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، فمن الناحية السياسية تفهم الجمهور المصرى مبادىء الديموقراطية ، بدلاً مما عاش فى ظلاله من ظلم نظم الحكم الأوتوقراطى ومن الناحية

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، دور المغاربة فى تاريخ مصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٦ ١٩٧٦ ، ص ١٢٧ .

(٢) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٥٧ عام ١١٤٥هـ/١٧٢٢م .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤) سجلات المحكمة الشرعية ، سجلات إسقاطات القرى ، السجل رقم ٣ مادة ٣٠ عام ١١٤٥هـ / ١٧٣٢م .

الاقتصادية محاولة تبديل الحال بأن يتفهم القوم حقوقهم الاقتصادية ، وإقرار القضاء على النظام الإقطاعي وإحلال النظام البرجوازي بدلاً منه (١).

وعندما ألغى محمد على هذا النظام عام ١٢٣٠هـ / ١٨١٤م بدأه بأن ترك لملتزمى الوجه البحرى والجيزة أراضى الأوسية لهم طوال حياتهم ، وإعفائهم من الضريبة ومنحهم دخلاً سنويًا مدة حياتهم تعويضًا عن الإتاوات التى كانوا يجبونها من الفلاحين ، أما ملتزمو الوجه القبلى فقد ثاروا عليه وحملوا السلاح فى وجهه ، فكان نتيجة ذلك أن نزع منهم أراضى الأوسية ولم يعطهم بدلاً منها(٢) .

أما مزايا نظام الالتزام فقد وفر على السلطات الحاكمة متاعب الاتصال بالفلاحين وغيرهم لجباية الضرائب والرسوم ، وألقت العبء على كاهل الملتزمين . كما أن هذا النظام كان يتمشى مع طبيعة الحكم العثمانى للولايات التى خضعت لسيادة الدولة ، إذ كان من أهم خصائصه قلة تدخل السلطات العثمانية فى حياة الجماهير ، بحيث كان هذا التدخل فى أضيق نظام ممكن (٣).

كما كان هذا النظام مثاليًا بالنسبة لمصر إبان الحكم العثمانى فى ظل الملابسات التى كانت سائدة قبل القرن الثامن عشر ، وإن هذا النظام أتاح لخزانة الحكومة تدفقًا مستمرًا من الإيرادات مع أقل قدر ممكن من النفقات أو التكاليف الإدارية ، وأعطى للملتزمين مصلحة دائمة ومستمرة فى العمل على الحفاظ على خصوبة الأرض حتى لايسرفوا فى استغلالها أو إنهاك التربة الزراعية والحرص على عدم إخراج المزارعين منها ؛ كما أن نظام الالتزام أخضع المزارعين لنظام ضريبى منظم ، وحال بينهم وبين التعرض لإجراءات تعسفية(٤) .

وكانت هذه المزايا تتحقق للسلطات والملتزم والفلاح طالما كان الباشا العثمانى ومعاونوه قادرين عى تحقيق تفوق نفوذ الدولة السياسى والحربى فى البلاد . فقد كان هذا النظام ملائمًا للفلاح الصغير بوجه خاص وكان يوفر له وسائل الزراعة والأمن والاستقرار . وكانت تتلاقى

---

(١) أمين عفيفى ، عبد اللاه ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣١ ، يوسف نحاس ، المرجع السابق ، ص ١٩ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ / ١٦٧ .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ ١ / ١٦٧ .

مصلحة الفلاح مع مصلحة الملتزم فى عدم إرهاق الفلاح فى العمل فى أرض الوسية طبقًا لنظام السخرة ، وعدم ابتزاز الأموال منه ، أو مصادرة المحاصيل ، وفرض ضرائب جزافية عليه، ومراعاة حالة الفيضان كل سنة (١).

ثانيًا : الضرائب :

مر نظام الضرائب بعدة تطورات ، فقد كانت الضرائب فى عهد الدولة المموكية تسير على أن المقطع ملزم بدفع الخراج المقرر على الإقطاعات ، ويعتبر الخراج فى ذلك الوقت من أهم مصادر بيت المال ، وكان الخراج يجبى نقداً أو عينًا ، وأغلب خراج الصعيد غلة ، ومتوسط إخراج الفدان من اثنتين إلى ثلاثة أرادب ، وربما زاد أو نقص ، بسبب الظروف ، ويحصل على كل أردب من اثنتين إلى ثلاثة دراهم أو نحو ، أما خراج الوجه البحرى ، فقد كان أغلبه من النقد(٢) كما كانت تقدر كمية الضرائب تبعًا لحالة النهر(٣) .

وعلى هذا فالأراضى التى تصل إليها المياه هى وحدها المعرضة لدفع الضرائب وفى حالة انخفاض النيل أو زيادة فيضانه ، كانت تقاس الأراضى غير المزروعة ، وتخفض نسبتها من المجموع الكلى للرسوم الواجب دفعها على القرية ، ولكن الميرى يبقى دون تغيير . ومن الناحية الفعلية فقد كان على الملتزمين أن يقنعوا بانتقاص مؤقت للدخل فى السنوات العجاف ، وكان كثيراً مايضاف هذا النقص إلى الكمية المطلوبة فى السنة الرغيدة التالية (٤).

وكان عربان الصعيد المقطعون كثيرى المماطلة فى دفع الخراج ، فضلاً عن فتنتهم المستمرة ضد المماليك ، فقد واجه سلاطين المماليك ذلك بقسوة ضدهم فقام الأمير يشبك الدوادار بحملة لجمع خراج الصعيد فى عام ٨٧ هـ / ١٤٦٩م إبان عهد قايتباى ، وارتكب الكثير من المظالم، حتى أنه شوى بالنار " محمود " شيخ بنى عدى ، كما خوزق جماعة من العربان وسلخ جلده جماعة منهم ودفن بعضهم أحياء فى التراب وأدخل الرعب فى قلوبهم وكافأه السلطان على ذلك(٥) .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق جـ ١ / ص ١٦٨ .

(٢) إبراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٣) قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٢١.

(٤) جب ، وبوون ، المرجع السابق ، جـ ٢ / ٩٤ .

(٥) ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ٢٥٢

وكانت ضرائب الصعيد يجمعها شيخ العرب همام بموجب التزام من الحاكم ، ويدفع ذلك حلوانًا سنويًا ، ويدفع للخزينة السلطانية مبلغًا من المال والضرائب العينية السنوية[١] وقد كان عربان هوارة يكلفون عربانًا آخرين تابعين لهم بذلك ، كما كان الشيوخ يتعهدون أيضًا لهم بدفع الخراج المطلوب[٢] .

وعلى هذا كانت الضرائب المفروضة من حيث المبدأ على العقارات المبنية والأراضى الزراعية، وكانت الأراضى الزراعية مثقلة بثلاثة أنواع من الضرائب [٣]:

١ - ضريبة الخراج : وكانت تسمى بالميرى أى الأموال الأميرية وهى أموال الجزية التى كانت تدفعها البلاد سنويًا للسلطان .

٢ - ضريبة الالتزام : وهى الزايدة التى يحصلها الملتزم لنفسه زيادة عن المطلوب للجزية والحكام .

٣ - ضريبة الكشوفية : وهى الضريبة التى كان يفرضها الكاشف حاكم الولاية .

وكانت تفرض على السكان ضرائب إضافية ، كلما احتاج الحاكم لأموال لمحاربة نظرائه من المماليك أو مناهضة الباشا أو السلطان ولم يكن لهذه الضرائب من ضابط سوى مشيئة المماليك فقد عاثوا فى البلاد فساداً متنازعين فيما بينهم ، متصرفين كما هو معروف لابتزاز الأموال فاختل الأمن وأهملت الزراعة ، وتأخرت التجارة وانقرضت الصناعة [٤].

وقد قسمت مصر إبان الحكم العثمانى إلى أربعة أقاليم رئيسية لجباية الضرئب ، ويتبع كل إقليم بلاد معينة ، وكانت هذه الأقاليم على النحو التالى [٥]:

- إقليم الشرقية ويتبعه الشرقية ، المنصورة ، قليوب ، فرسكور ، المنزلة ، البحيرة ، الطرانة ، القطيعة ، الواحات .

---

(١) Shaw, The Financial. p. 68; idem, Ottoman Egypt; in the eighteenth century, p. 44 .

(٢) سجلات محكمة قنا محفظة رقم ١ وثيقة بدون رقم بتاريخ ١٢ شعبان عام ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م .

(٣) عمر ممدوح مصطفى ، أصول تاريخ القانون ، ص ٣٦٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٦٣ .

(٥) Shaw, op. cit., p. 68; idem, The Financial. p. 69.

- إقليم الصعيد ويتبعه جرجا ، أسيوط ، البهنسا ، أشمونين ، إبريم ، بالإضافة إلى إقليم الفيوم .

- إقليم الغربية ويختص بالغربية والمنوفية .

وكانت عوائد دخل الخزينة الثابت عامى (١٠٠٤هـ) ١٥٩٥ / ١٥٩٦م ٤٤،٤٧٨،٣١٢ بارة ثم ارتفعت إلى ٧٥، ٢،٣٨٩،٢٠٢ بارة فى عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م بزيادة قدرها ٣٠،٧٣٣،٠٧٧ بارة أى حوالى ٧٦٪ بينما نجد الزيادة ١٨،٦١٤،٨٠٠ بارة أو ٦٠٪ حدثت حوالى ٧٥ سنة ومن عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م إلى عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م حتى وقت وصول الحملة الفرنسية[١].

وقد كان الدخل فى بعض بلدان الصعيد يزداد من سنة إلى أخرى ، ويوضح ذلك الجدول التالى[٢]:

السنة	إقليم الجيزة	منفلوط
١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥ م	٢،٦١٧،٦٠٤	٠٩٢،٤٤٨
١١٧٩ هـ / ١٧٦٥م	٤،٢٢٨،٢٢٥	٣٩٤،٤٥٤
١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م	٤،٤٤٣،٣٠٧	٨٢٨،٥٣٢
مجموع الزيادة	+ ١،٨٢٦،٦٠٣	٧٢٦،٠٨٤+

وقد كانت جملة إيرادات إقليم الجيزة فى عام ١٠٠٤هـ / ١٥٩٥م (٢،٦١٧،٦٠٤ بارة) ، وأصبحت إيرادات منفلوط فى عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م (٤،١٢٨،٢٢٥ بارة) وللجيزة ٣٩٤،٤٥٥بارة ، والزيادة فى تلك الإيرادات وصلت إلى الضعف فى حين أنها كانت طفيفة فى عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م .

---

(١) نقلاً عن : Shaw, The financial, p. 69 .

(٢) Ibid, p. 71 .

وترجع الزيادة فى الفترة الأولى لقوة الولاة العظام الذين تولوا حكم مصر خلال تلك الفترة، ولكن الزيادة الطفيفة حدثت فى وقت وصول الحملة الفرنسية ، وظهور الصراعات بين البيوتات المملوكية مابين إبراهيم بك ومراد بك مكونين جبهة واحدة ضد السلطات الحاكمة فى القاهرة متمثلة فى الباشا العثمانى وشيخ البلد إسماعيل بك ، ثم عندما تولوا الحكم فرضوا الكثير من المظالم والضرائب على الأهالى ، ويبدو أنهم وجدوا صعوبة فى تحصيل الضرائب ، والدليل على ذلك أنها لم تزد إلا زيادة طفيفة من عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م إلى عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م . كما لوحظ من الجدول السابق بالنسبة للجيزة ، أن الزيادة كانت بحوالى ٣٣٤,٩٨٢ بارة ، بينما نجد العكس بالنسبة لمنفلوط فقد سجلت زيادة مستمرة على التوالى حتى وصول الحملة الفرنسية ، وربما يرجع ذلك إلى بعدها عن الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد خلال تلك الفترة التى أثرت بشكل مباشر على الجيزة ، وذلك لقربها من ميدان الأحداث .

وعندما ضعف الولاة العثمانيون فى منتصف القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وخاصة بعد سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٤٠م اضطر بعض الولاة تحت ضغط قوة الملتزمين ، الذين كان أغلبهم من أمراء المماليك إلى إلغاء بعض هذه الضرائب ، أو دفع ضرائب الالتزام على بعض مقاطعات التزامهم حسب رغبتهم ونتج عن هذا خسارة كبيرة للدولة والنظام المتبع فى إدارة المقاطعة (١). وقد قدرت الضرائب على أرض طهطا وتوابعها بولاية أسيوط عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م بمبلغ ٢,٤٥٩ مدينى على مساحة ٦ قراريط ، ٩٠ فدان (٢).

وكانت أغلب الضرائب المفروضة على الصعيد عينية ، ولم تكن نقدية وكان أغلبها من الغلال وأنشىء مخزن خاص (شونة) بذلك فى مصر القديمة ، تحت إشراف حاكم جرجا ، كما وجد قلم خاص بذلك سمى قلم " إيراد الغلال "(٣) . وكانت عملية التسليم تتم بطريقة منظمة وفى غاية الدقة (٤). وكانت عملية نقل الحبوب الواردة من الصعيد تتم تحت حراسة

---

(١) Shaw, op. cit., p. 68 - 72 .

(٢) Estéve, op. cit., p. 97 .

(٣) قلم إيراد الغلال : القلم المختص بإيرادات الحبوب المحصلة من الأرض التى تسدد ضرائبها عينًا فى إقاليم أطفيح والفيوم والبهنساية وأشمونين ومنفلوط وجرجا ، ويرأسه أفندى إيراد الغلال . (انظر : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٥٣) .

(٤) Estéve, op. cit., p. 97 .

الجند[١] ، ولكن اختلف الحال بالنسبة لضريبة الفيوم التى كانت تدفع نقداً ، لأن بعض البلاد فيها كانت تعتمد على " الغيطان " وكان البعض الآخر يعتمد على الجناين[٢] .

وكانت تتم عملية مسح شامل سنويًا لكل أراضى الصعيد ، ويلى ذلك عملية توزيعها عن طريق مشايخ البلد بين الزراع سواء أكانوا فلاحين أم من البدو . وتدفع القرى مايخصها من الضرائب عينًا من إجمالى المحصول ويتم بعد ذلك تقسيم المحصول بين الزراع والملتزمون سواء أكانوا من مشايخ العرب أم من المماليك الفارين ، وتتخذ الضرائب طبقًا لجودة الأرض وجشع الملتزم ، ويلجأ الزراع البدو إلى العنف للحصول على أراضى أفضل ، ودفع ضرائب أقل[٣].

وتفرض الضريبة على الفدان ، إذا كانت أطيان القرية ممسوحة ، أما إذا كانت الأراضى غير ممسوحة فتدفع القرية جملة ويوزعها على الفلاحين الصراف ومشايخ البلد وتعرف هذه الطريقة باسم كلالة .

وكان " المال الحر " [٤] يجبى نقداً وعينًا فى أقاليم قنا وإسنا وجرجا وأسيوط ومنفلوط والمنيا وبنى سويف ، أو ينقسم إلى قسمين رئيسيين ، المال على محصول الذرة والضريبة العينية على الشعير والقمح والفول والعدس[٥] . ويبين الجدول التالى توزيعه خلال عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م فى بعض أقاليم الصعيد[٦] .

---

(١) أحمد الدمرداشى ، جـ ١ / ٢٩٠ - ٢٩١ . يذكر الدمرداشى عى سبيل المثال أن غلال بنى سويف عن عام ١١٣٤هـ / ١٧٢١م قد وصلت إلى الشونة ، (انظر : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ٣٠٩) .

(٢) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٣) هـ . ريفلين ، المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٤) المال الحر : اصطلاح روزنامجى يعنى المال الصافى الذى يضم إلى خزينة الولاية ، بعد صرف الإخراجات والموقوفات (انظر : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٥٤) .

(٥) أحمد الحتة ، تاريخ الزراعة فى عهد محمد على الكبير ، ص ٦ .

(٦) نقلاً عن : Shaw, op. cit., p. 95 .

توزيع المال الحر عن أراضى مصر فى عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م
طبقًا لتقارير الحملة الفرنسية على مصر
(١) مال خراج الأراضى

الإقليم	مال الميرى (أ)	الكركجى (ب) (١)	تذاكر	مجموع مال الميرى	مال أوقاف	مجموع مال الخراج
منوف	١٢٤٠٣٩٠٨	١١٠٠٤٦	٢٣٠٨٨٦	١٢٧٤٤٨٤٠	١٥٣٥٧٧٩	٤٢٨٠٦١٩
قليوب	٣٨٣٨٤٣٤	٣٠٢٧٤	٦٢٠٣٤	٣٩٣٠٧٤٢	١٥٥٧٧٦	٥٤٥٥٥١٨
غربية	١٥٤٠٠٥٣٥	١٢٥١١٢	٢٦٠٥٤٧	١٥٧٨٦١٩٤	١٥٢٨٨٥١	٧٣١٥٠٤٥
منصورة	٩٤٩٩١٤٢	٥٢٥٨١	١٥٦١١٥	٩٧٠٧٨٣٨	٨٩٧٠٥٧	٥٩٩٨٩٥
شرقية	٥٠١٢٣٥٩	٣٩٩٨٤	٩٤٥٨٩	٥١٤٦٩٣٢	......	١٤٦٩٣٢
البحيرة	١١١٤٤٣٢٩	٤٢٦٨٩	٩٢٤٧٩	١١٢٧٩٧٩٧	٤٣٧٣٤٥	٧١٦٨٤٢
جيزة	٤٣٣١٧٣٣١	٣٧٨٣٤	٧٧٦٠٠	٤٤٤٣٢٠٧	٤٢٩٤٤٨	٨٨٧٦٥٥
فيوم	٢٣٩٣٠٢١	٢١٨١٦	٢٢٢٧١	٢٣٧٧٢٠٨	٢٠١٨٧٤	٥٣٩٠٨٢
أطفيح	٦٣٢٧٨٠	٦٠٣٥	٨١٥٦	٦٤٦٩٧١	٨٥٥٠٠	٧٣٢٤٧١
أشمونين	٣٢٢١٣٠	٢٣٧٣٦	.....	٣٤٥٨٦٦	٤٠٣٩٩	٣٨٦٥٦٥
منفلوط	٨٠٦٨٧٠	٢٠٦٩٦	٩٩٦	٧٢٨٥٣٢	٣١٣٢٠	٨٥٩٨٥٢
بهنسا	٣٤٣١٠٠١	٤٩٢٩٢	٣٧٦٥١	٣٥١٧٩٤٤	٩٠٢٩٨٩	٤٤٢٠٧٢٣
جرجا	٩٩١٥٢٠٩	٧٦٧٩٦	٣٠١١٤	٩٣٠٢١١٩	٣٦٠٠١	٩٣٣٨١٢٠

ملاحظات :

يذكر شو Shaw أن مساحين الأراضى الفرنسيين احتسبوا مجموع المال من ضرائب الأرض التى أرسلت للوالى مثل ضريبة الكشاف من الحبوب فى عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م وحصل شو Shaw من سجلات الأرشيف عن نفس السنة على كشوفيات قرى الوالى .

مال كوركشى ، متصلة بعوائد الخزينة فى أواخر القرن الثامن عشر[١] .

تذاكر الكشوفية : الجزء الذى يخصم من إيرادات ضرائب الأقاليم ويخصص لنفقات الإدارة المحلية .

مال الأوقاف ، سجل أرشيف الوقف ، ولم تغطها مشتملة على الدراسة الحاضرة (ولم تكن معروفة فى وقت الحملة الفرنسية) .

- خلال الاحتلال الفرنسى كان إقليم الأشمونين يشمل المنيا .

- خلال الاحتلال الفرنسى كان إقليم البهنسا يسمى بنى سويف .

- خلال الاحتلال الفرنسى قسم إقليم جرجا حسب ماكان فى القرن السادس عشر إلى أقاليم قنا ، إسنا ، جرجا ، وأسيوط .

وتختلف أرض الأثر والوسية كل عام ، حيث أن الملتزمين والفلاحين يمتلكون الأرض على المشاع [٢]ويدفع الفلاحون فى الصعيد ضريبة النبارى[٣] والبعلى[٤] ولاالجر الشتوى نقداً ، لكنهم يسددون ضرائب البياضى ، فهى تفرض على الأرض التى تزرع بالقمح والشعير وتدفع عينًا فى شكل حبوب [٥].

وعلى هذا الأساس كان المال الذى يجمع من الأراضى التى بذرت بالأعلاف الشتوية ، هو المال الحر النقدى ، وحصيلة البياضى تشكل المال الحر العينى والغلال التى تستند بها هذه الضريبة الأخيرة فتتحول إلى أرادب للشعير والحبوب الأخرى [٦].

---

(١) مال الكركجى : " الكركشى " من كلمة كورك التركية ، وهى آلة الجرف ، والكرجى الجراف ، وأصل الكركجى ضريبة فرضت على الملتزمين وخصصت للاتفاق على إزالة الأتربة وما إليها من القاهرة - وعلى مرور الزمن بطل إنفاق هذا المال فيما يخصص له ، ولكن جمعه من الناس ولم يبطل - وهذا هو السر فى تراكم وتكوين الكيمان التى كانت تحيط بالقاهرة ، واستمر يؤذى غبارها وما ينبعث من رائحتها أهل المدينة إلى أن زالتها حكومة محمد على (انظر : محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣٠) .

(٢) Shaw, op. cit., p. 96 .

(٣) النبارى وهى الأراضى التى تزرع بالذرة والأعلاف .

(٤) البعلى ، وهى تفرض على الأراضى التى تروى صناعيًا بالشادوف .

(٥) Shaw, op. cit., p. 96 .

(٦) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٣١ - ٣٢ ؛ إبراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص ٤٢ .

وقد سددت الأراضى العينية من القمح والشعير عن عامى ١٠٨١ هـ / ١٦٧٠م ، ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م عن بعض أقاليم الصعيد على النحو التالى[١] .

الإقليم	جملة الأرادب المطلوبة من القمح عام ١٠٨١هـ	عدد المقاطعات ونوع الضريبة	جملة الأرادب المطلوبة عن عام ١١٧٩هـ
الفيوم	٩٦٧٨	٩	٧٣٨٠
البهنسا	٨٠٩٧٤	٨٥	٧٥١٩
الأشمونين	٩٥٢٤١	٥٥	٦٥٤٠٩
منفلوط	٨٠٠١٠	٣٦	٦٦١٢٢
أطفيح	٤٠٠	٥	٣٢١١
جرجا	١٥٥٦١١	٧٦	٠١٧٠٧٧٢
المجموع	٤٢١٥١٤		٤٦٤٨٣٣

ويلاحظ أن جملة الضرائب العينية المدفوعة من الصعيد عن عامى ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م و ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م كانت على النحو التالى :

أكبر الضرائب المدفوعة من جرجا بلغت ١٥١,٦١١ أردب فى عـام ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م وازدادت فى عـام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥ إلى ١٧٠٧٧٢أردب بينما نلاحظ أن الأقاليم الأخرى مثل الفيوم وجد بها عجز ، ويرجع ذلك إلى قوة حاكم جرجا والأقاليم التابعة له . ومن ناحية أخرى يرجع إلى ثراء الإقليم وكثرة موارده الاقتصادية .

---

(١) Shaw, op. cit., p. 96 .

أما مال الخراج المسلم نقداً إلى قلم إيراد الغلال عن بعض السنوات فى بعض الأقاليم فقد كان موزعًا على النحو التالى[١] :

السنة	أطفيح	الفيوم	البهنسا	الأشمونين	منفلوط	جرجا	المجموع
١٠٨٢ هـ							٥١٧٧٢٨
١٠٩٤ هـ							٦٤٤٦٥٠
١١٠٧ هـ							٧١٤١٩٠
١١٧٩ هـ	١٣٨٨٦	٢٣٠٦٣٨	٥٣٦٥٢٤	١٧٦٩٠٠	٢٧٣٣٩٥	٢٢٠٩٨٢٧	٤٠٧٠٠
١٢٠٠ هـ	١٣٨٨٦	٢٣٠٦٣٨	٥٩٦٦٤٦	١٨٥٤٧٥	٤٤٧٣٩٨	٢٢٢٧٥١٦	٢٨١٨٩

لوحظ أن أعوام ١٠٨٢هـ / ١٦٢١م ، ١٠٩٤هـ / ١٦٨٣م ، ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م ، كان فيها مال الخراج شاملاً فى الولايات أطفيح ، البهنسا ، الأشمونين ، ومنفلوط وجرجا . ويرجع ذلك إلى أن هذه الأقاليم كانت تتبع إقليمًا واحداً من الناحية الضريبية ، وهو غالبًا ولاية جرجا ؛ كما أن الزيادات تعتبر قليلة بالنسبة إلى سنوات ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥م ، ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥م فى أقاليم أطفيح والفيوم والبهنسا ، ولكن اختلف الحال فى منفلوط فمسجلة بها زيادة ملحوظة فى تلك السنوات ، وجملة المبالغ بالبارات .

وكان المساح وقصابه يقيسان الأرض ويتحققان من المساحة الموزعة على كل فلاح ويبلغانه مقدمًا بالضريبة المفروضة عليه ، وفى هذه الحالة كان يقوم بدفع الضريبة النقدية والعينية فى موسم المحصول[٢] وتقسم الرسوم والضرائب الواجب دفعها إلى فئتين ، فئة تفرض على الأرض أو على انتاجها ، والأخرى تفرض على الفلاحين بأشخاصهم . وقد قسم النوع الأول بدوره إلى ضرائب الماشية والزراعة وكان العشر أهم الضرائب المفروضة على الزراعة . وكانت النسبة المأخوذة عن طريق العشر تختلف من ولاية إلى أخرى ويصل أحيانًا مايقرب من النصف[٣].

---

(١) Shaw, op. cit., p. 96 .

ويذكر شو Shaw أنه استقى هذه المعلومات من أرشيف استانبول .

(٢) هـ . ريفلين ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(٣) Estéve, op. cit., T. 12., p. 93 .

بالإضافة إلى الرسوم الثابتة التى حصلت عن بساتين الكروم وحدائق الفاكهة والخضروات ، ورسوم المطاحن والأسقف [١] .

وكان الأهالى فى الصعيد يدفعون نوعًا من الضرائب تسمى " الخطيطة " وهى ضريبة تدفع نظير حمايتهم من السرقات التى كان يقوم بها العربان الذين استقروا فى بعض قرى الصعيد[٢].

* نظام جباية الضرائب :

كان الأقباط الذين يقومون بعملية جباية الضرائب ، وكانت هناك رسوم قديمة وحديثة ، وأصبحوا - أى القبط - بفضل خبرتهم مباشرين للبكوات والملتزمين ، ويشار إلى الواحد منهم دائمًا بكاتب ، ويبدأ بجباية الضرائب بعد انحسار النيل مباشرة ، ويدعو المشايخ والشاهد ويبدأ فى عملية توزيع الضرائب وجبايتها[٣] .

ويوجد بكل قرية بخلاف الرزق والأطلاق والوسايا والأثر وكل هذا أراضى يطلق عليها اسم " بور المناجزة "[٤] ، وكانت أراضى الرزق والأطلاق معفاة من الضرائب ومثلها أيضًا أراضى البور ، والأراضى التى من النوع الردىء وتتبع المشايخ والموظفين الرسميين فى القرية بنفس الدرجة من الأفضلية التى تعامل بها أراض الوسية . وتتكون القرية عادة من عدة كفور لاتشكل إلا فى دائرة وحيدة تحمل اسم القرية الرئيسية ، وتنقسم هذه الوحدة الإدارية فى مجموعها - مهما تكن مساحتها - إلى ٢٤ قيراطًا ، تتبع لملتزم واحد أو عدة ملتزمين كما سبق أن أشرنا [٥].

وكانت معظم التزام أراضى الصعيد لقبائل العربان الذين سيطروا عليها مما جعلهم وكلاء لحكام المقاطعات ، كما كانت ضرائب الصعيد العينية تمثل ٣/٤ غلال مصر العثمانية . وساهم العربان بحوالى ٧٥٪ منها والباقى من جرجا والقاهرة ، ويخصص لشونة الإمبراطورية

---

(١) جب ، وبوون ، المرجع السابق ، جـ ٢ / ٦٢ .

(٢) Lancret, op. cit., T. 12, p. 487.

(٣) Estéve, op. cit., T. 12., p. 68-69 .

(٤) بور المناجز المناجزة : هى الأراضى الزراعية الى زصابها الضعف ولم تعد تعطى محصولاً جيداً .

(٥) Estéve, op. cit., T. 12., p. 72 .

كميات كبيرة منها ، فقد جمع من قراها عام ١٠٨١هـ / ١٦٧٠م ٢٥٠,٠٠٠ أردب ساهمت القبائل العربية بحوالي ٦٥٪ والباقي من جرجا والقاهرة [١].

وقد كانت هناك أعباء مالية فرضت في ظل نظام الالتزام ، وكان هذا يرجع إلى اضطراب أحوال مصر السياسية والاقتصادية خلال هذا العصر ، مما أرهق الفلاح وجعله عاجزاً عن تسديد تلك النفقات في بعض الأحيان ، مما جعل الملتزمين يتعللون بعدم دفع حصص التزامهم. وكان بكل ولاية ديوان ، يجمع كل مايرد إليه ، ثم يقوم بعد ذلك بتسديد كل ما تجمع لديه إلى الروزنامة على قسطين ، قسط شتوى ، وقسط صيفي بعد خصم النفقات اللازمة ، وخصم نصيب السلطان وإرساله إليه في استانبول[٢] .

وحدثت بعض التغيرات بالنقص في المال الميرى حتى وصول الحملة الفرنسية ، التي أوجدت كثيراً من التغييرات الإدارية والمالية . وتبين الإحصائية التالية هذا النقص بين سنتي ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧م ، ١٠٩٥هـ / ١٦٨٣م [٣].

اسم الولاية	جملة المال الميرى ١٠٨٨ هـ/١٦٧٧م	جملة المال الميرى ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٣م	ملاحظات
ولاية جرجا	١٩٢٧٩٩٢	١٩٠٥٦٥٤	
أسيوط	٢٤٧٠٠	٣٤٧٠٠٠	
أبريم	٤٥٩٠٠٠	٤٥٩٠٠٠	
ولاية الفيوم	٢٠٧٥٥٢٧	٢٠٥٥٠٥	
بهنساوية	٢٤٨٠٦٧٦	٣٤٩٩٣٢٦	
الأشمونين	٤٣٨٨١٤	٣٩٠١٣١	
أقلام متفرقة مال	٧٠٨٤١	١١١٧٣٣٣	
الصرة ومستجدة			
على العين	١٠٤٥٣٥	١٠٤٥٣٥	
مال حماية أوقاف ولاية	٤٨١١	٤٨١١	
الجملة	٧٨٠٩١٩٦ كيس كسور ٣١٢ ٩١٩٦	٧٧٨٧٨٥ كيس كسور ٣١١ ٣١٨٥	

(١) Shaw, op. cit., pp. 78-79 .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٣) دفاتر التزام الوجه القبلي ، مخزن تركي ١ عين ٣ .

ويلاحظ أن جملة المال الميرى قد اختلفت من سنة إلى أخرى ، فقد قل فى ولاية جرجا ، فى حين أنه ازداد فى أسيوط ، وظل ثابتًا فى الفيوم وكذلك بقية الولايات .

وكانت عملية التحصيل تتم على أربع مرات سنويًا ، فتحصل المرة الأولى عندما يكون النيل على أعلى درجاته ، أما الثانية والثالثة فتؤخذ من المال الشتوى ، والرابعة تؤخذ من الصيفى . وكان النظام المتبع أن يرسل الأفندى إلى الملتزم مع أحد خدمة الديوان يذكره بتسديد ما عليه ، يقوم الملتزم بدفع المطلوب إلى خادم الديوان ، وهذا يقوم بدوره بتوريد المبلغ إلى الروزنامجى مقابل إيصال مؤقت ، ويقوم الأفندى بموجب هذا الإيصال المؤقت بتحرير الإيصال النهائى[١] .

وكانت هذه الأموال تجمع ، ويصرف منها على الإدارة وصيانة الجسور السلطانية بالوجه القبلى ، أما باقى المال الميرى فقد كان يسدد للروزنامة . وقد لوحظ أن بعض ولايات الوجه القبلى كانت تسدد ضرائبها فى الشتاء وكان البعض الآخر يسددها فى الصيف ، ويرجع ذلك إلى مواسم الزراعة فى تلك الولايات[٢] .

ويصرف الملتزم جزءًا من المال على الأوجه التالية[٣] :

١ - مال الجهات : ويصرف على المراكب التى تسبق مراكب الحج وتحمل المحمل ، ويدفع الملتزم طبقًا لعدد قراريطه .

٢ - خدمة العسكر : وتصرف للجنود الذين عملوا فى خدمته لكن حكام الولايات حصلوا عليها لأنفسهم ، وخاصة للجوربجية وضباط وعساكر المستحفظان وخصوصًا الأوجاقات التفكشيان والجومليان والشراكسة الذين كانوا يوزعون على الأقاليم ليكونوا مستشارين ورقباء على البكوات المماليك ، والكشاف حكام تلك الأقاليم . وقد أعادها محمد بك أبو الدهب إلى حالتها الطبيعية بعد أن ارتفعت ارتفاعًا باهظًا[٤] .

---

(١) Lancret, op. cit., T. 12, p. 503 .

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) إبراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٤) ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص ٣٢ ؛ Shaw, The financial, p. 155 .

٣ - عادة أوراق شتوى وصيفى : وترسل لأهالى القرى لإخطارهم بسداد الضرائب ، أما الكشوفية فكانت الضريبة المخصصة لنفقات رجال الإدارة المحلية[١] وكانت تصرف على الأوجه التالية[٢] :

١ - رفع المظالم : وكان الهدف منها منع هجمات العربان على الفلاحين ولكنها لم تمنعها ، بل ازدادت الأعباء المالية المفروضة على الفلاحين .

٢ - مطالب حاكم الولاية : وهى تكون عادة مطالب عينية ، وقد تكون أطعمة للفرقة التى تصاحب الحاكم .

٣ - مصاريف الغاية اللازمة : ويتكفل بها مشايخ القرى ، ويقومون بالتالى بجمعها من الفلاحين .

٤ - حق الطريق : ويدفع للقواسين أو صغار المماليك الذين يقومون بحمل الأوامر إلى القرية. واستبدلت ضريبة حق الطريق التى فرضها محمد بك أبو الذهب لتسديد مصاريف تحصيل ضريبة رفع المظالم[٣] .

وهى تعتبر حق طريق جديد خصص لتحصيل " فردة التحرير " وأخيراً استبدلت جميع الضرائب التى ربطت ظلماً على القرى ، ولم تنص عليها اللوائح بضريبة واحدة سميت "الكلفة" لمشابهة الرسوم التى تتألف منها الرسوم التى كان يطلق عليها هذا الاسم فى الكشوفية القديمة[٤] .

٥ - الشراقى : وتفرض على الأراضى التى تتخلف شراقى لاتفرض عليها ضريبة فينتج عن ذلك أن هذا الفايض كان تحت العجز والزيارة تبعاً للزمام الذى توفر له الرى واستحق جباية المال الحر عنه[٥] :

---

(١) أحمد بدوى ، تاريخ مصر الاجتماعى ، ص ١٥٣ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٢) Lancret, op. cit., T. 12, p. 507 .

(٣) Shaw, op. cit., p. 146 .

(٤) ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٧٤ .

وعلى هذا فقد كان مال الكشوفية عن عام ١٢١٢ هـ / ١٧٩٨م على النحو التالى[١] :

السنة	مال الجهات	خادم عسكر	كلاف	الجموع	رفع المظالم	فردة التحرير	كلاف	المجموع	المجموع الكلى
جيزة	٣٢٢١٥٧	١٠٨٥٧٠	٤١٦٢٥	٤٧٣٣٣٥	٢٥٩٦٠٠	.....	١٦٦٢٠٨٦	١٩٢٢٤٠٦	٣٩٤٧٥٨
الفيوم	١٩٤٩٢٠	.....	١٣٧٣٤٩	٩٥١٣٤	٩٥١٣٤	.....	٣٢٠٣٢٩	٣١٥٤٣٣	٦٤٧٧٢٢
أطفيح	.....	....	.....	....	.....	.....	....	.....	......
أشمونين	٥٨٧٧٧٨	٤١٥٠٣٣	...	٩٩٧٨١١	....	.....	٢٠١٠٩٩٨	٢١٠١٩١٨	٩٩٧٢٩
منفلوط	٣١٨٨٧	....	١٣٧٧٤٨	٤١٩٦٣٥	....	....	٤٢٠٢٠	٤٢٠٢٠	٨٤٠٠٥٥
بهنسا	٩٦٦٨٢٢	٤٥٨٧٢٨	٨٢٢٩٤١	٨٣٨٤٩١	١١٢٨٢٥٠	....	....	١١٢٨٢٥٠	٣٣٧٦٤١
جرجا	٨٠٠٠	....	٣٨٠٩٢٢٢	٣٨٠٩٢٢٢	...	.....	٣٨٨٠١٦	٣٨٨٠١٦	٥٢٢٣٨

ويلاحظ أن بعض القرى الواقعة على حافة الصحراء كانت تتعرض كثيراً لهجمات العربان، والاستيلاء على بعض الأراضى لزراعتها ، وكان العربان يمتنعون كثيراً عن دفع الضرائب المقررة عليهم ، وفى هذه الحالة ، كانوا يتعرضون لمظالم وقسوة الحكام ، ولايجدون أمامهم طريقًا للهروب من أرضهم .

أما البرانى فهو المال الذى كانت تقدر به العادات التى أصبحت القري ملزمة بتقديمها إلى أجهزة الإدارة من سمن وعسل وجبنة وحبوب ودجاج وغيرها من منتجات الريف ، ولم تكن هذه العادة موجودة أساسًا فى العصر العثمانى ، ولكنها سابقة فى وجودها على ذلك ، وبالغ رجال الإدارة فى العصر العثمانى فى تقديرها حسب رغبتهم ومشيئتهم ، وأصبحت عبئًا على الفلاحين إلى أن جاء محمد باشا وقضى عليها ، حتى أن بعض المؤرخين يعتبر قضاءه عليها وعلى طغاة السباهية ، الفتح العثمانى الثانى[٢] .

(١) Shaw, op. cit., p. 96 .

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .

وازدادت قيمة المال البرانى عن المال الميرى ، حتى أن المال المقرر على قرية الورنى التابعة للفيوم كان ٥٧٣٢ بارة ، بينما كان البرانى ٢٩٧٥٢ بارة وقت وصول الحملة الفرنسية أى حوالى خمسة أو ستة أضعاف المال الميرى ، وهذا يدل على كثرة العادات المفروضة على القرى[١].

وكان البرانى فى الأصل عبارة عن هدية اختيارية تحولت شيئًا فشيئًا إلى أتاوة إجبارية[٢].

ولم تسجل بعض قرى الصعيد ضريبة البرانى مثل قرى المنقوة فيوم ، وصدفة أطفيحية ، والصالحية أطفيحية ، ويرجع ذلك إلى صغر زمام هذه القرى أو سوء حالة أهلها الاقتصادية، والدليل على ذلك قلة الأموال الأميرية المقررة عليها ، مثال ذلك المنقورة ٢٢٥ بارة ، صدفة ٥٥٦ بارة الصالحية ٣٧٨١ بارة وقت وصول الحملة الفرنسية [٣].

وقد أطلق على الفائض اسم البرانى القديم والبرانى الجديد (مضاف قديم ومضاف جديد) ولم يكن هناك نص صريح لفرض هذين الرسمين اللذين لم يكونا فى الأصل إلا نوعًا من الإكراميات أو المنح ، التى كان الفلاحون يؤدونها مقابل قضاء مصالحهم أو جريًا على العرف[٤]. ويرجع تحصيل البرانى القديم إلى عهد بعيد جداً ، واعتبر مثل المال الحر الأصلى ، وقد تحايل البكوات المماليك لفرض البرانى القديم .

وسددت جميع قيم البرانى القديم والبرانى الجديد نقداً ، ولم يدرج هذان النوعان بالتفصيل فى الأنواع التى تتألف منها الكشوفية الجديدة ، ومع هذا كانت جبايتها أمراً مفهومًا لا سبيل أمام الفلاحين لتجاهله . وكانت هذه المبالغ تصرف فى دفع مرتبات الضباط المحليين المقيمين فى القرية[٥] .

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٢) يوسف النحاس ، المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٤) إبراهيم زكى ، المرجع السابق ، ٣٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

وقد تعرض فلاحو مصر العثمانية بصفة عامة لأنواع كثيرة من الضرائب مثل عادة جاويش[١] كاشف ، وتسويف مقرر[٢] ، وعادة رأس نوبة، وعادة مسودة [٣]، وعادة خدام الرملة[٤] ، وعادة مسلم[٥] ، وعادة اليازجي[٦] ، وعادة تبن السلطان[٧] ، وعادة حوالة الجولات[٨] ، وعادة خفر المال[٩] ، وعادة جسور السلطانية[١٠] ، وعادة شيخ الجرافة[١١] ،

---

(١) عادة جاويش : وهي ضريبة تدفع للرسل ، وقد وجد في مصر أوجاق جاويشان ديوان ، ونسبوا إلى الديوان لاختصاصهم بخدمته (انظر : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٥٣) .

(٢) تسويف مقرر : وهي التي تقررت لصالح الفرق العسكرية (انظر : إبراهيم زكي ، المرجع السابق ، ص ٢٥) .

(٣) عادة رأس نوبة ومسودة : وهما ضريبتان تدفعان لبعض الأوجاقلوا المسين رأس نوبة ومسودة تدفع للذين كانت وظيفتهم حماية عملية سداد مال الجهات (انظر : المرجع السابق ، ص ٣٥) .

(٤) خدام الرملة : وهي أجر الفرقة التي تحمل الزكائب التي تملأ بالتراب الذي يستخدم في صنع الجسور (المرجع السابق ، ص ٣٦) .

(٥) عادة مسلم : وهي تدفع للرسول الذي يرسله الباشا الجديد لمصر لإعلان خبر تعينه وإقامة قائمقام له وأحيانًا كان يسمى متسلم كما وجد مسليم حاكم الأقاليم (انظر : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٤٥) .

(٦) عادة اليازجي : كاتب الفرقة (إبراهيم زكي ، المرجع السابق ، ص ٣٦) .

(٧) تبن السلطان : أي العادة المخصصة لتأمين التبن اللازم لخيل السلطان (انظر : المرجع السابق ، ص ٣٧) .

(٨) حوالة الجولات : الحوالة بمعى تحويل قبض المبالغ ، وترد في الوثائق بمعنى الشخص المحول إليه تحصيل مبالغ ضرائب نقدية أو عينية ، أما الجولات فهي مرتبات مقررة لبعض العلماء من حصيلة ضريبة الجزية على أهل الذمة (انظر : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥) .

(٩) عادة خفر المال وهم الحراس اللازمون لنقل ناتج القرية (انظر : ابراهيم زكي ، المرجع السابق ، ص ٣٧) .

(١٠) جسور السلطانية ، وهي حدود القنوات الكبيرة التي كان حفظها وصيانتها من أهم واجبات رجال الإدارة (انظر : ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٤٤٤) .

(١١) شيخ الجرافة : أي عادة رئيس الأنفار الذين يشتغلون بواسطة الجرافة (انظر ، المرجع السابق ، ص ٣٨) .

وعادة صغار الجرافة [١] وغيرها من العادات . وكان يتم تحصيل العادات من مال الكشوفية الذى يدفعه الملتزم [٢].

أما الفايض فهو الجزء الذى خصص للملتزمين من المال الحر ، ولم يكن قابلاً للتعديل أو الأداء سنويًا كالميرى والكشوفية ولم يكن مصرحًا للملتزمين بأخذه إلا بسبب وفاء ماهو مطلوب للسلطان ولحكام الأقاليم [٣].

وعلى هذا فقد كانت جملة المتحصل من الفائض والبرانى عن عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م على النحو التالى[٤] :

جملة الفائض والبرانى عن عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م

الإقليم	الفائض	البرانى القديم	البرانى الجديد	المجموع
جيزة	٨٥٤٣١٦٧	٩٣٧٠٨٢	٧١٠٩٦٣	١٠١٩١٢١٢
فيوم	٥٤٢٦٣١٠	٧٧٦١٧٩	٨٨٧١٩٣	٧٠٨٦١٨٢
أطفيح	٤٦٢٤٦٩٠٠	٣٦٢٠٤٤	١٨٣٤٤١	٥١٦٩١٧٥
أشمونين	٣٤٨٧١١٣٢	١٠٧٩١٧٠	.....	٣٥٢٦٣٠٢
منفلوط	٢٢٨٤٥٧٨	٥٧٩٢٦٦	١٦٢٨٥٨	٣٠٢٦٧٠٣
بهنسا	١٥٢٢٨٠٠٩	٧١٣٣١٥	٢٠٩٨٦٩٠	١٩٠٣٠٠١٤
جرجا	١٧٢٥٢٢٤	٨١١٤٨٢	١١٠٥٠٠	٣٥٣٤٧٢١٥

(١) صغار الجرافة : أى الأولاد الذين يعملون بالجرافة ، ولم يكن يدفع هذه العادة إلا عدد ضئيل من القرى (انظر : المرجع السابق ، ص ٣٨) .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٣ ؛ أحمد بدوى ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ - ١٥٤ .

(٤) Shaw, op. cit., p. 96 .

أما المال الحر فقد كان يشمل مال الخراج ومال الكشوفية وفايض البرانى وكان فى عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م على النحو التالى[١] :

الإقليم	مال الخراج	مال الكشوفية	فائض البرانى	المجموع
جيزة	٤٨٧٧٦٥٥	٢٣٩٤٧٥٨	١٠١٩١٢١٢	
فيوم	٢٥٣٩٠٨٢	٦٤٧٧٢٢	٧٠٦٨١٨٢	
أطفيح	٧٣٢٤٧١	.....	٥١٦٩١٧٥	
أشمونين	٣٨٦٥٦٥	٣٠٩٩٧٢٩	٣٥٢٦٣٠٢	
منفلوط	٨٥٩٨٥٢	٨٤٠٠٥٥	٣٠٢٦٧٠٣	
بهنسا	٤٤٢٠٧٣٣	٣٣٧٦٧٤١	١٩٠٤٠٠١٤	
جرجا	٩٣٣٨١٢٠	٣٢٠٥٣٣٨	٢٥٣٤٧٢١٥	

وكان يعهد بتحصيل هذه الضرائب إلى فئة معينة معروفة باسم الأفندية ، وكان الأفندى الأول يعرف باسم الروزنامجى ، ويعمل تحت أمرته مباشرة أربعة أفندية يسمون حلفًا ، ويمكن اعتبارهم بمثابة كتبة له ، ويكلف الباش حلفًا[٢] بعمل حسابات الميرى التى ينبغى أن يرفعها حاكم هذه الولاية ولثلاث قرى فقط من ولاية منفلوط ، هى بنى رافع وبنى حسين الإشراف وقرية حيط بلاغيط .

(١) Shaw, op. cit., p. 97 .

(٢)الباش حلفا " قلفا " : وهو باش قلفة الروزنامة وأنه ضابط على سائر الأفندية ، ويقيد جميع إيراد مصر ومصروفه ، وعنده سجل بلاد الجيزة وقيد أسماء ملتزميها يقدر على أموال الميرى على الولاية المذكورة وعنده دفاتر ميرى مال الكشوفية الذى هو مطلوب من أرباب المناصب والبلاد وقيد أسمائهم ، وهو الذى يعطى سند إلى الملتزمين الذين يدفعون المال الميرى وله عوائد على جانب الميرى والباشا ، وله فراوى على المذكور حسين قدومه ، وفى وقت عزله ، وفى وقت غلاق مال الصرة ، وفى وقت إرسال الخزنة وتحت رئاسته ثلاثة من الأفنديتوكان لديه أيضًا سجل بملتزمى ثلاث بلاد من ولاية منفلوط ، وهذه البلاد هى بنى رافع وبنى حين الأشراف وحيط بلا غيط كما سبق أن عرفنا (انظر : محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ٢٦ ، ٢٨ ؛ وانظر أيضًا : Shaw, op. cit., pp. 341 - 345.)

وكان الصعيد من الأهمية بحيث أنه كان يطلق على الأفندى الخاص به " أفندى الشهر " الذى كان من ضمن مهام منصبه أن يتصل بولايات الصعيد ويكلف بكل الأعمال التى يكلف بها الأفندية الثلاثة السابقون فى دوائرهم ويساعده عدد من الأفندية ، أهمهم أفندى الغلال ، الذى كان مرؤوسًا للأفندى السابق ، ويعهد إليه بحسابات توزيع الحبوب المحصلة لحساب الميرى[١] كما كان هذا القلم يحصل المبالغ النقدية التى تقدمها هذه الأقاليم بدلاً من جزء من التزاماتها العينية ، وكان يرأس هذا القلم أفندى إيراد الغلال وكان يساعده أربعة من المباشرين .

وهناك أنواع أخرى من الضرائب كانت تجبى بواسطة أصحاب الوظائف العامة ، الباشا والدفتردار والبكوات والكشاف حكام الولايات ، وكانوا يدفعون عنها نظير أموالاً تعرف بالميرى ، وكان بك واحد يحكم ولاية تشمل إسنا وقنا وجرجا وأسيوط ومنفلوط والمنيا فى عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م وجملة مادفعه ١،٨٣٠،٠٩٦ مدينى أما حاكم بنى سويف فقد دفع مبلغ ٣١٩،٦٤٠ مدينى[٢] .

أما الضرائب التى كانت مفروضة على الأقباط عرفت بالجزية ، فقد اختلفت باختلاف معاملة المسلمين لهم باختلاف لعهود المعطاة لهم فى البلاد التى فتحها المسلمون ، وتختلف هذه العهود تبعًا لشدة المقاومة التى أبداها أهل الذمة ضد المسلمين أو قلتها ، وتبعًا لإقبالهم على مساعدتهم أو إحجامهم عنها ، وينحصر الاختلاف فى أن تلك العهود ما اشترط فيه المستحق فقط ومنها ما اشترط فيه المستحق والمستحب[٣] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .

(٢) Lancret, op. cit., p. 503 .

(٣) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ ؛ قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

ويذكر أن المستحق له شروط ستة هى :

١ - ألا يذكروا أهل الذمة كتاب الله بطعن فيه ولاتحريف له .

٢ - ألا يذكروا رسول الله (ﷺ) بتكذيب له ولاازدراء . ٣ - ألا يذكروا دين الإسلام بذم ولاقدح فيه.

٤ - ألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح . ٥ - ألا يفتنوا مسلمًا عن دينه ولايتعرضوا لماله ولا دمه .

٦ - ألا يعينوا أهل الحرب ولا يأووا أغنيائهم . =

وقد عوهد أقباط مصر على المستحق مقابل الشروط التى تعهد لهم بها المسلمون بموجب الصلح الذى عقده عمرو بن العاص والمقوقس ، وهى تحديد الجزية بدينارين على كل رجل قادر على العمل وإعفاء الصبيان والشيوخ والنساء والرهبان بشرط عدم إخراجهن من ديارهم، وأن لاتنزع نساؤهم ولاكنوزهم ، ولا أراضيهم وألا تزداد عليهم الجزية[١] وتسقط الجزية عمن أسلم سواء كان إسلامه أثناء العام أو بعد نهايته ، ويجوز تأجيل تحصيل الجزية من الفقير المعسر ، حتى يصبح قادراً على أدائها ، ولا تجب الجزية إلا مرة واحدة فى السنة بعد انتهائها بشهور هلالية ولا يجوز للإمام تحصيل الجزية قبل ميعادها كما هو الحال فى أموال الزكاة[٢].

وفى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) كانت الجزية تجمع مقدمًا فى أول العام وفى بعض الأقاليم كانت تجبى قبل انتهاء السنة بشهر أو بشهرين وتورد قلمًا مستقلاً بعد المال الهلالى [٣].

وكان أهل الذمة من الأقباط يدفعون الضرائب أو الجزية ، ويلاحظ أنهم كانوا تحت سيطرة إحدى قبائل العربان فى الصعيد فى نظير دفع مبلغ معين وجمعت منهم مبالغ كبيرة ، وكان حاكم الولاية يورد الضريبة المقررة ويحتفظ بالباقى لنفسه [٤].

= وأما المستحب فستة شروط أخرى هى :

١ - أن يغير أهل الذمة هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار .

٢ - ألا يعلوا على المسلمين فى أبنيتهم .

٣ - ألا يسمعوهم أصوات نواقيسهم .

٤ - ألا يجاهروا بشرب الخمر ولا بإظهار صلبانهم أو غيرها من شعائر دينهم .

٥ - أن يخفوا دفن موتاهم .

٦ - أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقًا وهجانًا .

(١) عمر ممدوح ، المرجع السابق ، ص ٣٤٢ ؛ قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٢) قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٣) قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٤) Shaw, The Financial, p. 157 .

وقد عرفت ضريبة أهل الذمة فى العصرين المملوكى والعثمانى باسم ضريبة الجوالى ولذلك فقد نظم إبراهيم باشا (٩٧١هـ / ١٥٢٥م) عملية تنظيم الجوالى[١] وأصبح لها وجاق خاص أطلق عليه وجاق الجوالى وجعل جملة المبالغ المتحصلة تصرف على العلماء والفقراء والأيتام والأرامل[٢] .

وفى القرن السابع عشر سيطر أمراء المماليك على التزام مقاطعة الجوالى ، كما سيطروا على المقاطعات الهامة الأخرى ، وأصبح أمين الجوالى هو ملتزمها ، وكان يدفع للخزينة مبلغًا سنويًا ، بالإضافة إلى ضريبة الكشوفية الكبيرة للخزينة أيضًا ، وللكشوفية الصغيرة للباشا ويحتفظ بباقى الجزية لنفسه[٣] .

وكان من حق حاكم جرجا جباية الخراج المطلوب من المسيحيين واليهود فى الصعيد ، وكانت ترسل لهم من البك المذكور التعليمات الخاصة بذلك ، نقلاً عن صورة مثلها عند الأغا ، ونظراً لأن الأغا كان يحاسب الروزنامجى عليها بقيمتها الأصلية وليس بقيمتها المعدلة ، فكانت إيراداته الخاصة تزيد زيادة ظاهرة ، وكانت هناك أنواع من الإعفاءات يمنح بكل سهولة لكل مسيحى أو يهودى متصل بخدمة المسلمين والقناصل الأوروبين . ولم تفرض الجزية على النساء والأولاد الذين تقل أعمارهم عن ١٣ سنة وكان يعتمد فى تقدير أعمارهم على حسب مقاس رؤوسهم [٤].

ويذكر البعض أنه قد صدر أمر شريف فى عام ١١٤٥هـ / ١٧٣٢م بتحرير نصارى ويهود الصعيد من الجزية [٥]. ولكن المصادر الأخرى تؤكد أن أهل الذمة بالصعيد وبالوجه البحرى

---

(١) الجوالى : ومفردها جالية تطلق على أهل الذمة ، وذلك لأن عمر ابن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية وإن لم يجلوا عن أوطانهم ، وقد استخدمت فى عصر المماليك بهذا المعنى (انظر : قاسم عبد قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٠٥) .

(٢) أحمد شلبى ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦ .

(٤) سعيد عاشور ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٢١٥ ؛ ابراهيم زكى ، المرجع السابق ، ص ٦٥ . ويذكر أنه كان مع الجابى حبل صغير على شكل طوق يقدر مقاس الولد الذى يبلغ أقل من ١٢ عاماً ، فجميع الأولاد الذين كانت تمر رؤوسهم من هذا الحبل كانوا يعتبرون فى عداد المولين .

(٥) الجبرتى ، جـ ١ / ٣١٧ - ٣١٨ .

كانوا يدفعون الجزية بصفة منتظمة ، وقدخصصت لتحصيل هذه الجزية فرق الإنكشارية ، فقد أشارت المصادر المعاصرة إلى قيام تلك الفرق فى عام ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م بتحصيلها ، كما كان للدولة العثمانية نصيب منها يرسل إليها بصفة منتظمة [١].

وفى عام ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م قررت الدولة إدارة شئون الجزية عن طريق موظفيها فأخذت مقاطعة الجزية من ملتزميها المملوكى ووضعت إدارة الجزية فى مصر تحت الإدارة المباشرة لديوان الجزية المركزى في أدرنة الذى أرسل محصل خاص (جزية دار لتسلم إيرادات الجزية) وأصبح للجزية دار يأتى سنويًا من مكتب الجزية فى أدرنة ليرتب جمع الجزية المعتادة وقسم الذميون إلى ثلاث فئات[٢] :

١ - الفئة العليا : يدفع الشخص منها ٤٠٠ بارة سنويًا .

٢ - الفئة الوسطى : يدفع الشخص منها ٢٠٠ بارة سنويًا .

٣ - لفئة الأدنى : يدفع الشخص منها ١٠٠ بارة سنويًا .

وفى عام ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢م خضعت ضريبة الجزية مثل الضرائب الأخرى فى مصر العثمانية للمضاف التى فرضت فى عام ١١٥٥هـ / ١٧٤٢م ، فأصبحت على النحو التالى :

١ - الفئة العليا تدفع ٤٢٠ بارة سنويًا .

٢ - الفئة الوسطى تدفع ٢١٠ بارة سنويًا .

٣ - الفئة الأدنى تدفع ١٠٥ بارة سنويًا .

وفى عام ١١٨٧هـ / ١٧٢٢م تولى على بك التزام جمع الجزية ولم ترسل الجزية للباب العالى فى العام التالى حتى نهاية عهد على بك بسبب قطع العلاقات بينه وبين السلطان العثمانى . واستمر هذا الوضع فى عهد مراد بك وإبراهيم بك حتى طردهما حسن باشا من القاهرة فى عام ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥م ثم رجع المال المخصص إلى السلطان بعد ذلك ثم ارتفع مرة أخرى وظل المال ثابتًا حتى مجىء الحملة الفرنسية [٣].

---

(١) الدمرداشى ، المصدر السابق ، جـ٢/٤٠٩ . وقد قدر المبلغ المخصص للدولة العثمانية فى العام المذكور ٢٢٠ كيس .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص ٣٢٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٠ .

الفصل الخامس

دراسة عن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر
(الاسكندرية - دمياط - رشيد البرلس)

موقع مصر الجغرافى :

إمتازت مصر بموقعها الجغرافى الفريد بين القرات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ولقد لعبت الملاحة دوراً مهما فى ربط مصر بشعوب تلك البلاد عن طريق البحر المتوسط شمالا ، والبحر الأحمر شرقا ، ثم بحر النيل الذى يربط بين أجزائها وبين شعوب أفريقيا جنوبا .

ويعد البحر المتوسط منذ أقدم العصور . مركزاً للحضارات الكبرى ، وأداة وصل بينها شرقا وغربا . وقد حمل لواءها الشعوب المطلة عليه ، كالمصريين القدماء والفينقيين واليونان والرومان ثم العرب . وساهمت مصر بنصيب كبير فى هذا المضمار ، لطول سواحلها وكثرة قواعدها ، وقوة أساطيلها التى تمخر فى عبابه .

وتطل مصر على البحر المتوسط بساحل يمتد من رفح حتى السلوم[١] ورغم طوال السواحل المصرية ، فإن قلة الموانى الصالحة وملائمة الظروف الطبيعية والإقتصادية للنشاط البشرى وغنى البيئة فى الدلتا والوادى جعلت هذا النشاط البحرى قريبا من منفذ الدلتا إلى البحار ، ويتضح ذلك فى كثير من عهود التاريخ المصرى ، وقد أدت ضرورة توفير هذه المنافذ إلى انشاء ميناء الاسكندرية والعمل على توسيعها وتدعيمها لتلائم احتياجات السفن الحديثة ذات الغاطس الكبير ، فأهملت تبعاً لذلك الميناء الشرقية منها[٢] .

ولما جاء الاسكندر إلى مصر اختار موقع الاسكندرية فى مكان راقوده المواجهة لجزيرة فاروس البعيدة عن غرين النيل . وبدأ يشحن منها الإغريق قمح مصر . وقد جعل هذا الميناء من الاسكندرية عاصمة العالم الثقافية فى القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . أما بعد عهد

---

(١) محمد فاتح عقيل ، أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية ، فى كتاب تاريخ البحرية المصرية، عام ١٩٧٤ ، ص١٩ .

(٢) نفسه ، ص٤٣ .

الاسكندر فقد برزت قيمة موقع مصر وسواحلها وأصبح تاريخ مصر وحياة مجتمعها مرتبطاً أشد الإرتباط بهذا الموقع وبدأ البطالمة فى اعداد مصر لان تكون قاعدة صالحة للتحكم فى طرق المواصلات العالمية ، ثم التوسع التجارى والثقافى ، والتفتوا نحو فتح طرق التجارة خصوصا طريق البحرالأحمر إلى الشرق والهند ، فأصبحت مصر بالتدريج حلقة الاتصال التجارى فى العالم[١] .

وفى العهد الإسلامى إهتم العرب بالبحر الاحمر ، أكثر من أهتمامهم بالبحر المتوسط[٢] وعلى البحر المتوسط شهدت سواحل مصر نشاطا كبيراً فى هذه الفترة وكانت التجارة الوافدة من ممالك أوروبا من آسيا الصغرى والشام وجزر البحر المتوسط تصل إلى موانى مصر الشمالية ثم تنتقل بالقوافل إلى الفسطاط عن طريق النيل وفروعه وترعه .

وظهرت أهمية البحر المتوسط فهوحلقة اتصال بين الشرق والغرب[٣] ويتضح من ذلك كله أن مصر كانت بمثابة المحور الرئيسى الذى تتم عن طريقه عملية التبادل التجارية ، والاستثمارات الإقتصادية بين البلدان العربية ، فمنها تخرج القوافل التجارية إلى مختلف المناطق العربية فى الغرب والشرق على السواء ، وفيها تعود هذه القوافل محملة بمنتجات هذه المناطق ، وهى مركز لعمليات التصدير والإستيراد مع كل البلدان الاوربية والاسيوية[٤] .

وكانت السلع والبضائع الشرقية الواردة من الشرق الأقصى ومن الصين والهند وغيرها من بلاد شرق وجنوب شرق آسيا فى طريقهاإلى أسواق أوروبا الغربية تمر بثلاث طرق رئيسية[٥] :

---

(١) محمد فاتح عقيل ، المرجع السابق ص٤٦ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . العلاقات الإقتصادية والإجتماعية بين الولايات العربية فى العصر العثمانى ، ١٥١٧-١٧٩٨م ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد التاسع ، المجلد الثالث عام ١٩٨٣ ، ص١٦ .

(٤) زيجريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية على أوروبا ص٣٤ .

(٥) أسامه أحمد اسماعيل ، الإسكندرية فى عصر دولتى سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الاسكندرية عام ١٩٨٧ ، ص٧٨ .

١- الطريق المصرى أو كما كان يعرف أيضا بطريق البحر الأحمر .

٢- الطريق الشامى ، أو طريق الشرق الأقصى ، الخليج العربى .

٣- الطريق البرى ، الذى يشق أواسط آسيا ويمكن تسميته بطريق البحر الاسود .

أولا : الاسكندرية :

كانت الاسكندرية تتصل بالمغرب اتصالا وثيقا منذ أوائل القرن الرابع الهجرى ، فقد كانت الهدف الاول لحملات الفاطميين الأولى على مصر برا وبحرا ، وبها نزلت جنود هذه الحملات وأساطيلها وأيضا نزلت جنود الحملة الفاطمية الرابعة التى نجحت فى فتح مصر . ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مقر أسطول الخلافة ، وتعرضت الاسكندرية كما تعرضت دمياط لغزوات الفرنج الصليبية ، وقد أتى إلى الاسكندرية أسطولهم فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م وأستطاعوا النزول إلى الاسكندرية فى عهد صلاح الدين[١] .

وفى عصر الايوبين إرتفعت مكانة الاسكندرية حتى أصبحت ميناء مصر الأولى ، وميناء المرور لتجارة الشرق والغرب . وتحولت اليها أنظار الصليبيين أو بقاياهم فى جزر البحر المتوسط وأوروبا بعد أن منيت حملاتهم على دمياط فى عهد الملك الكامل محمد والملك الصالح نجم الدين أيوب بالهزيمة[٢] .

وأصبحت تمثل مركز الصدارة فى التجارة العالمية فى البحر المتوسط : وكانت معظم الطرق العالمية تمر عليها .

وكان ميناء الاسكندرية من أكبر المراكز التجارية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ، حيث صدر منها منتجات الشرق الاقصى ، وقد حرص السلاطين المماليك على الترحيب بالتجار الاوروبيين الذين يفدون إلى الاسكندرية ودمياط لشراء الحاصلات الشرقية ، وكان هؤلاء التجار الأوروبيون يفضلون الإقامة دائما بالمدن التجارية بالثغور على شاطئ البحر المتوسط[٣].

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية : العصران الايوبى والمملوكى ، ص٢٢٧ .

(٢) محمد عقيل ، المرجع السابق : ص٥٤ .

(٣) ابراهيم حسن سعيد ، البحرية فى عصر سلاطين المماليك ، ص٢٠٤ .

وكانت الاسكندرية بحكم موقعها مع بداية العصر العثمانى تفوق القاهرة ويرجع ذلك لاتصالها بأوروبا مباشرة[١] وموانئ مصر أبان العصر العثمانى هى الاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس . وكانت هذه الموانى . لها إدارة خاصة استقلت عن الباشا ، فكان الباب العالى يرسل إلى مصر ثلاثة قبودنات أحدهم للاسكندرية والثانى لدمياط ورشيد والثالث للسويس[٢] .

ويحمل هؤلاء القبودنات رتبة الباشوية بالإضافة إلى حملهم رتبة الصنجقية مثل كتخدا[٣] (الباشا فيعتبرون من صناجق المقررة للبكوات الصناجق من مرتب نقدى (ساليانة) ومرتب عينى (جراية وعليق) تصرف لهم من خزينة مصر ولكنهم يكونوا أعضاء فى الديوان العالى مثل البكوات الصناجق ولادخل لهم بإدارة مصر ، بل كانت مهمتهم الأساسية حفظ القلاع ، وربط البنادر والحكم بين الرعايا بالعدل والشفقة وعوائدهم على طرف الميرى[٤] من أصل السالیانات المرتبة وعلى جانب التجارات المحضرة بالبنادر[٥] .

---

(١) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٨٧ .

(٢) نفسه ، ص٣٣٨ .

(٣) كتخدا ، بفتح الكاف وسكون التاء وضم الخاء ، وفى التركية كتخدا من الفارسية كتخدا ، والكلمة فارسية من كلمتين (كد) بمعنى البيت وخدا بمعنى الرب والصاحب ، فالكتخدا هو الأصل رب البيت ويطلقها الفرس على السيد الموقر وعلى الملك ويطلقها الترك على الموظف المسئول والوكيل المعتمد ، والأمين ، فقد كان يقال مثلا وزراء كتخدا سى أى أمين الخزانة . (أنظر ، أحمد السعيد سليمان ، تأصيللما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل . ص١٢٧) .

(٤) الميرى ، كان المال الميرى يمثل الضريبة الرسمية إلى قدرت على أرض الفلاحة ، وقد حددت الروزنامة مقدار المال الميرى المقرر على كل حصة تبعا لمساحتها وجودة كل جزء من أرض هذه الحصة ، حيث قسمت أرض كل حصة حسب جودتها إلى (عال) و(وسط) و(دون) أو إلى (عال) و(وسط) أو إلى (دون) و(وسط) (أنظر عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ص١٠ . القاهرة ١٩٧٨) .

(٥) ليلى عبد اللطيف أحمد ، المرجع السابق ، ص٣٨٨ .

وكان قبودان الاسكندرية مسئولا عن الأمن والنظام فى الاسكندرية وصيانة وملأ صهاريج الماء العذب فيها ، كما أن عليه أن يقوم بحماية الميناء والشواطئ المجاورة لهة[١] .

ويحصل قبودان الاسكندرية على دخل سنوى يصل إلى ٨٠٠,٠٠٠ بارة[٢] من الرسوم التى يفرضها على البضائع الصادرة والواردة إلى ميناء الإسكندرية وأسواق المدينة نفسها. كما كان يحصل على ساليانة سنوية نقدية من خزينة مصريلفت ٣٠٠,٠٠٠ بارة فى القرن السابع عشر[٣] ثم هبطت تلك الساليانة إلى ٩٨,٢٢٦ بارة فى السنة فقط أسوة بما حدث من تخفيض لساليانات جميع البكوات والصناجق[٤] كما كان لقبودان الاسكندرية مرتب عينى وصل إلى ٥١٥ أردب من الغلال فى السنة تصرف له من الأنبار الأميرية[٥] .

أما ميناء رشيد . فقد عرف باسم ميناء رشيد النيلى ، وتحرم السلطات المماليكية دخوله من البحر المتوسط بصفته الحربية ، ونقلت نشاطه التجارى إلى ميناء بلدة فوة جنوبه ، وهى تتصل بالأسكندرية بقناة ملاحية ظلت تعمل حتى أواخر القرن الخامس عشر[٦] .

ومن جنوبى رشيد تخرج قناة تصل إلى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط وهو مفتوح طول العام ، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية ، والغربى للسفن الإسلامية من المغرب وتتبع الموانى . نائب الاسكندرية الذى يحصل مندبوه رسوم الدخول وشحن وتفريغ السلع . وقد ذكرت البرلس فى وثائق البندقية وفلورنسا فى العصور الوسطى ، وإن كانت لاتظهر على الخرائط ، وكان بها قنصلية للبندقية وفندق لمواطنيهم[٧].

---

(١) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص١٨ .

(٢) بارة ، عملة ظهرت لأول مرة فى مصر عام ٨١٨هـ/١٤١٥-١٤١٦م فى عهد الملك المؤيد المملوكى ، وكانت تسمى (مؤيدى) كما سكت عند العثمانيين لأول مرة على على مايعتقد عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥-١٦٣٦م واعتبرت الاقجة جزء من البارة فالبارة تساوى ثلاثة أقجات (أنظر . قانون نامة، ترجمة وعلق عليه : أحمد فؤاد متولى ، ص٥٩) .

(٣) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٣٨٦ .

(٤) نفسه ، ص٣٨٧ .

(٥) نفسه ، ونفس الصفحة .

(٦) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ص١٤٣ .

(٧) صبحى لبيب ، التجارة الكارمية وتجارة العصور الوسطى ، المجلة التاريخية مايو ١٩٥٢ ، ص١٢ ، أسامه أحمد ، المرجع السابق ، ص٧٨٤) .

وقد ضمت الجمارك فى اسكندرية ورشيد منذ منتصف القرن العاشر الهجرى / منتصف القرن السادس عشر الميلادى ، ثم الحق بها مقاطعه تنظيم الملاحة فى الميناثين (مقاطعة تعريف المراكب) ومقاطعة تنظيم وتحصيل الرسوم على التجارة المتجولين الذين يرغبون فى إستخدام أسواق هذين الميناثين (مقاطعة سرد بازاران)(١) والحقت بهذا الجمرك عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م مقاطعة كانت مستقلة من قبل وهى مقاطعة تنظيم أسواق المأكولات والأوزان فى الإسكندرية ورشيد (مقاطعة احتساب فى نظام القبانى ؛ وبالمثل أضيفت اليه أيضا مقاطعة التنظيم والتحكيم فى بوغاز النيل قرب رشيد مقاطعة خدمة رئيس بوغاز رشيد(٢) .

واحتلت رشيد مكانة اقتصادية مهمه فى العصر العثمانى نظراً لموقعها وكانت تعد مستودعات للبضائع القادمه من القاهرة ومدن صعيد مصر ، ويتم نقلها بعد ذلك إلى أوروبا ،بالإضافة إلى أنها تستقبل البضائع الواردة من أوروبا التى تنتقل بعد ذلك إلى القاهرة عن طريق النيل . وقد ساهم أهل الذمه هناك فى النشاط الإقتصادى بجانب بعض الأوربيين وبخاصه اليونانيون ؛ وهدفهم من ذلك ممارسه النشاط الاقتصادى(٣) .

ولم يكن الغرض من انشاء جمرك رشيد تقرير رسوم جديدة ، بقدر ما كان الهدف منه هو التحقق مما إذا كانت لم ترتكب أيه عمليه خداع أو تدليس فى جمركى بولاق والاسكندرية . وهناك كان يتم التحقق من أن كميه ونوع السلعه قد جاءتا مطابقتين للمخالصات الجمركيه التى كان لابد من ابرازها . وذلك بجعل حمولات السفن القادمة إلى هذا الموقع ، تنتقل من مراكبها إلى مركب أخرى ، وقد توصل رجال الجمارك قبل مجئ الفرنسيين بسنوات قليلة

---

(١) بازاران ، كلمة فارسية وتعنى المشتغل بالمسائل التجارية والبازار كان باشى : هو كبير الموردين للمنسوجات اللازمة للقصر السلطانى فى أستانبول وهو أحد أعوان الباشا ، وقد أختص بشئونه وكان عادة من اليهود ويحضر ضمن حاشيته وتنهى مدة عمله بانتهاء مدته وكان فى بعض الاحيان يبقى فى مصر ليعمل فى خدمه الباشا الجديد (أنظر هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، جـ٢ ، ص٣٤٢ ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ومصطفى الحسينى) .

(2) Pceeke, Adeseription of the Egypt. P. 116 .

(3) Ibid, p. 171 .

إلى القيام بعمليات المراجعة والفحص هذه فيتم فرض رسوم على كل كميات السلع وان كان الأوربيون قد تمسكوا بامتيازاتهم ، ولم يخضعوا مطلقا لهذه الرسوم ، وفى نفس الوقت سمح مراد بك ، بعد أن غرته المكاسب الهائله التى سوف تعود عليه من تصدير الحبوب إلى العالم الأوروبى ، مقابل تحصيل رسم قدره زر محبوب[١] واحد عن كل أردب[٢] ، وأدت عمليات الشحن البحرى التى كانت تتم فى رشيد إلى نشأة جمرك جنى منه مراد بك . هو الذى كان يديره لحسابه الخاص أموالا طائله[٣] .

وحيث لم يكن يدفع أى مال ميرى إلى الخزينة عن جمركى القصير ورشيد فإن من الضرورى أن نشير إليها باعتبارهما عبئاً مضاعفا على حركة التجارة وليس باعتبارهما يشكلان جزءاً من عوائد السلطان .

---

(١) الزرمحبوب : هو نقد ذهب تركى ، ضرب فى السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وهو يزن أربعين حبة أى ٢ر٦ جرام ، وقد أطلق عليه فى تركيا «طغر إلى ألتون» وإذا كانت ألتون فى التركية تعنى الذهب فان طغرالى نسبة إلى نقش الطغراء أو الطره باسم السلطان على أحد وجهى هذا النقد وقد أطلق الجبرتى على هذا النقد فى أسواق مصر أسم «دينار طرلى» سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م والدينار هنا إمتداد للنقود الذهب الإسلامية منذ عهد المماليك أما «الطرلى فهى بالنسبة إلى «الطره» (الطغراء) ، كما أطلق عليه الجبرتى أحيانا اسم الجنزرلى أو المحبوب الجنزرلى نسبة إلى الحافه المشرشرة لهذا النقد ، وهى أشبه بالإطار أو الجنزير ، وحدد الجبرتى سعره عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م بمائتى نصف فضة ، ويبدو أنه انخفض بعد ذلك فتشير الوثائق إلى سعره فى سنة ١١٥٤هـ ، ١١٥٥هـ/١٧٤١ ، ١٧٤٢ بمائة وعشرين نصف فضة . ورغم تعدد هذا النقد الذهبى فى الشرق العربى كله سواء أكان من ضرب استانبول أو مصر هو زر محبوب (انظر عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص٥٧٥) .

(٢) أردب ، يستخدم فى وزن الحبوب والأشياء الصلبة ، وكان حجمه الحقيقى يختلف تبعاً للحبوب الموزونه وكذلك المكان الذى كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفى القرن الخامس عشر كان يقدر ب٩٠ لترا . وفى سنة ١٦٦٥م قدر بلترا ، وفى القرن الثامن عشر ضعفت قيمته وأصبح يساوى ١٨٤ بوشل ، وفى نهاية القرن الثامن ، كان الأردب ينقسم إلى أربعة وعشرين جزءاً وأحيانا ما كان ينقسم إلى ١٣٠ أوقة .

(أنظر Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the french Revolution, p. 170 .

سميرة فهمى : امارة الحج فى مصر العثمانية ص١٢٠) .

(٣) استيف ، النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية ، ص١٧٢-١٧٣ .

ثانياً : ميناء دمياط

ويعتبر هذا الميناء ، ميناء بحرى نهرى ، وهو مخرج لتجارة مصر لمدن وموانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وكريت وقبرص ، والدولة العثمانية ، كما يتصل بالقوافل البرية إلى موانئ البحر الأحمر ، وبسبب شدة التيار من النيل لاتدخل السفن مباشرة دمياط . كما تم ردم جزء من فم البحر عندها . ولذا يخرج من دمياط قناة تصل إلى بحيرة المنزلة حيث تدخلها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على بعد سبعين ميلا منه - البحر المتوسط - ومثلها من قناة دمياط وهى فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة والصادرة بين وإلى دمياط . وقد وجد بالمدينة الأوروبيون من يونان وبنادقة وجنويين وفلورنسيين . وبها قنصلية خاصة بفرسان القديس يوحنا فى رودس ، وظلت هذه القنصلية موجودة حتى الفتح العثمانى لمصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ؛ ويقال أن المماليك كانوا يحصلون على الأسلحة عن طريقهم ، ولكن المصادر المعاصرة أكدت عكس ذلك [١] .

وخلفت مدينة الاسكندرية دمياط باعتبارها ميناء مصر الأول على البحر المتوسط منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءاً من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أى غزو أوروبى منه ، لذا لم يعد فى استطاعة السفن الأوروبية الكبيرة الوصول إليها وأصبحت ترسو بالبحر قريباً من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينه وبين الميناء[٢] .

واعتبر ميناء دمياط مخرجا لتجارة مصر فى العصر العثمانى حيث كانت يرد إليها الواردات القادمة من سوريا وفرنسا وغيرها . وتوفرت لديها التسهيلات اللازمة للنقل والملاحة لوجودها على ثنية النيل البارزة[٣] .

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ، ص٩٢ .

(٢) نعيم زكى ، المرجع السابق ، ص١٣٠ ، حاشية (٢١) .

(٣) عبد الوهاب بكر ، ميناء دمياط ودوره فى العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الليفانت خلال القرن الثامن عشر ، ص١٨ .

وكانت دمياط مزدهرة إقتصاديا فى العصر العثمانى ، وظلت محتفظة بذلك حتى مجئ الحملة الفرنسية عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م . هذا بالإضافة إلى شهرتها التى اكتسبتها من كونها مدينة صناعية وخاصة فى صناعة النسيج ، حيث كان يشرف على هذه الصناعة الأقباط (١) .

وكان لها قبودان يشار إليه باسم قبودان بندر دمياط مع رشيد ومهمته امداد الاسطول العثمانى بحاجاته عند مروره بمصر ، كما كان عليه أن يقوم نيابة عن قبودان الاسكندرية بحماية الشواطئ ، عندما يستدعى الأخير اللانضمام للأسطول العثمانى ، وعليه أيضا تنظيم الملاحة فى مينائى دمياط ورشيد ورعاية النظام فيهما .

وتقدم له الخزينة المال اللازم لصيانة صهاريج المدينة التى كانت مخزناً للمياه العذبة التى تمدها بالماء أثناء فيضان النيل وكانت تصرف تحت اسم نفقات سد سدود دمياط ، وقد بلغ المقرر لذلك فى عام ١١١١هـ/١٦٩٦م ، ١٣٢٦ بارة سنويا (٢) .

ويحصل على رسوم يفرضها على الملاحة بين مينائى دمياط ورشيد وقد وصلت تلك الرسوم إلى ١٧٥ بارة عن كل قبطان تمر سفينته بين هذين الميناءين ويحصل على مايقرب ٢٠٠ر٠٠٠ بارة سنويا ، كما كان يحصل على مرتب نقدى ساليانة سنوى من خزينة مصر بلغ ٣٠٠ر٠٠٠ بارة سنوياً ، ومرتب عينى بلغ ٥١٥ أردبا من الغلال سنوياً فى القرن الثامن عشر (٣) .

وظل قبودان الاسكندرية وقبودان دمياط يتقاضان مرتباتهما حتى منتصف القرن الثامن عشر أى إلى عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م وبعد أن أعاد حسن باشا القبودانات العثمانيين الا أنهم قد طردوا بعد إستيلاء مراد بك وإبراهيم بك على السلطة مرة أخرى فى عام ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م ومما يؤيد خلو الاسكندرية من وجود قبودان ، أن السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية ، كان أمين الجمرك فى عام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م (٤) .

---

(١) جمال الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، ص٤٧ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص٣٤٩ .

(٣) نفسه ، ص٣٨٦-٣٨٧ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٣ ، ص٦٢-٦٣ .

والبرلس ، نظراً لموقعها فى الدلتا جنوب دمياط، فكانت تعد فى المقام الأول سوقا رئيسية لمنتجات وسط الدلتا ، وكانت مركزا للقوافل الواردة من شمال أفريقيا وفزان ، الا أن هذه التجارة قد تدهورت فى القرن الثامن عشر(١) وقد حقق جمركها الخسائر الفادحة ، ولذلك انضم هذا الجمرك إلى جمرك دمياط(٢) وقد كان ضمن إلتزام الانكشارية(٣) .

وكانت التجارة مع أوروبا تسير وفق اتفاقيات تحدد الرسوم التى يجب أن تدفع ، ولذلك فقد كانت أقدم الاتفاقيات التى عقدت مع البندقية عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م . بين السلطان سليم والبندقية ، ونجد أنه فى هذه الاتفاقية إستمرار نفس الامتيازات التى حصل عليها البنادقة سابقا فى عهد دولة المماليك الجراكسة(٤) . وكان هدف العثمانيين من ذلك هوتشجيع رعايا الدول الأوروبية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية(٥) . ومعاهدة أخرى بين السلطان سليمان القانونى مع فرانسوا الاول ملك فرنسا عام ١٥٢٨م ، وفى هذه المعاهدة جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التى سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الجراكسة للفرنسيين وأهل كتالونيا Le Catalans . ويمكن الحاق معاهدة ١٥٢٨م بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧م من حيث الهدف ، اذ كانت موادها مقصورة فى الغالب على بلاد الشام ومصر بعامة ومصر بخاصة(٦) وعقدت معاهدة أخرى بين فرنسا والدولة العثمانية عام ١٥٣٥م. وعرفت هذه المعاهدة باسم «معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا(٧) .

---

(١) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ص٣٥ ، S. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 130 .

(٢) محمد غربال ، المرجع السابق ، ص٣٥ . Icem, The Fianancial and Adminstrative Organization and Development, of ottoman Egypt p. 113 .

(٣) نفسه .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، *الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها* ، جـ٢ ، ص٧٠ .

(٥) نفسه ، ص٧٠٧ .

(٦) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص٧٠٨ .

(٧) نفسه ، ص٧٠٨ .

واتبعت ذلك أيضا أيضاً انجلترا فكانت هناك بعض المحاولات الفردية فى أول الأمر كمحاولة أنطونى جنكنس Anthony Jenkinson الذى استطاع مقابلة السلطان سليمان القانونى عام ١٥٥٣م فى حلب أثناء استعداده الزحف على فارس ، ونجح هذا الانجليزى فى الحصول على موافقة السلطان له بالاتجار داخل ممتلكات الدولة على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين وعلى الا يدفع أكثر من الرسوم المقررة . الا أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لانجلترا عهدا تجاريا مهما على الرغم من الامتيازات الواسعة التى منحها سليمان لذلك التاجر الانجليزى(١) .

واستقبلت الحكومة العثمانية عام ١٥٧٨م ، بعثة انجليزية واستطاعت هذه البعثة أن تحقق نجاحا كبيرا فى وضع الحجر الاساسى للتجارة الانجليزية فى الدولة العثمانية . وفى عام ١٥٨١م صدر العقد التأسيسى لإنشاء شركة الليفانت The Levant Company وهى شركة انجليزية مارست إختصاصات سياسية وتجارية واسعة . فهى التى كانت ترشح سفراء انجلترا فى استانبول وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع قناصل انجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين فى ممتلكات الدوله العثمانية يعدون مستخدمين فى الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم . وظل هذا التقليد ساريا أكثر من قرنين من الزمان حتى عام ١٨٠٣م .

وإنتهى الامر بعقد إتفاقية بين انجلترا والدولة العثمانية عام ١٦٧٥م جددت فيها الامتيازات التجارية التى سبق منحها فى معاهدة سابقة وأضيفت إليها مواد جديدة وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم «المعاهدة النهائية للامتيازات بين الامبراطورية العثمانية وانجلترا(٢) Final Treaty of Capiulation the ottoman Empire and England .

وكان لهذه الاتفاقيات التى عقدتها الدول العثمانية مع الدول الأخرى أثرها الواضح فى دفع الرسوم ، ويكفى أن نقارن الرسوم التى كان رعايا السلطان يدفعونها (٣) ، بتلك الرسوم بالغة الاعتدال والتى تحصل من الأوروبيين ، لذلك سمح لهم بدفع رسوم أقل بكثير مما يدفعه رعايا السلطان ، فقد كانوا يخضعون لرسوم ثابتة ، بينما يدفع الأوروبيون رسوما أقل(٤) .

---

(١) نفسه ، ص٧١٥ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص٧١٦-٧١٧ .

(٣) نفسه ، ص٧١٨ .

(٤) استيف ، المرجع السابق ، ص١٦٥ .

ورغم ذلك تعرضت التجاره الأوروبية للإبتزاز من جانب الأمراء المماليك والمعاملات السيئة عند تقدير الرسوم ، ولقد كان من المتفق عليه أن السفينة الأوروبية التى تسدد الرسوم فى أحد ثغور الإمبراطورية العثمانية تمتع باعفاء كامل فى بقية الثغور بمجرد إبرازها التذكرة التى حصلت عليها من الجمرك السابق ، ولكن لا يؤخذ بذلك ، وتعامل كأنها دخلت الميناء لأول مرة(١) .

ثالثا : الجمارك

خضعت السفن التجارية لنظام تفتيش دقيق فى جمرك(٢) أو ديوان(٣) الإسكندرية إلى إجراءات حكومية متعددة فى العصر المملوكى ، ونظراً للعلاقات التجارية للمدن الإيطالية فقد أعطى لها مخازن مسقوفة يحمل القنصل مفاتيحها وتتولى هيئة الجمارك حراسة السلع

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٦٦ .

(٢) والجمرك من الإيطالية Ccnnercio واليونانية Conmerciuni وحرفت إلى جمرك فى العربية وكمرك فى التركية . الجمرك هو الهيئة المختصة بتنظيم وفرض الضريبة على التجارة الصادرة والواردة (أنظر، أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص٧٠ ، وأنظر ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام أبان العصرالعثمانى ، ص١٢١ ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ ، ص١٧١) وعرف الجمرك بالاسكالة ، وقد ألحقت بالجمارك مقاطعات مدنية أقيمت فى أسواق القاهرة ، وأختصت بجمع رسوم معينة مثل مقاطعة إحتساب ومقاطعة خردة ومقاطعة كيالة غلال بولاق . لذا كان يشار إلى الجمارك فى الوثائق دفتر أصول مال أسلكلهات ومقاطعات . (أنظر بهذا الخصوص ، سجلات الروزنامة ، بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة) .

(٣) ديوان ، استخدم مصطلح الديوان للدلالة على الإدارة الجمركية فى الميناء وقد أنتقلت كلمة الديوان إلى اللغة الأسبانية Aduana بمعنى الجمرك ، ومازالت تستخدم بهذا المعنى حتى يومنا هذا . (أنظر ، أسامة أحمد ، المرجع السابق ، ص٨٠٣) وقد أطلق على الأدارات فى العصر العثمانى أيضا لفظ دواوين ، يوجد ديوان الروزنامة ، وديوان الجمارك . (أنظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى، ص١٣١) .

الموجودة بها نظير رسم معين يدفعه التجار للحكومة ، وترك التجارة أو نقلها معه إلى الفندق[١] وسار نفس النظام المعمول به فى العصر العثمانى أيضا .

إدارة الجمارك :

تتمثل إدارة الجمرك فى وجود أحد الموظفين وهو من قبل السلطان ومهمته تحديد شراء السلع لمتجر السلطان مثل الخشب والقطران وغير ذلك . مع وجود موظف آخر يقوم باستجواب التجار أو الوافدين أو العابرين عن الحالة السياسية فى أوروبا وظائفهم ، وأن كان لهذا التاجر أو الوافد أو العابر صفة دبلوماسية ففى هذه الحالة يستجوب عن مقاصده وعن أمراء وملوك أوروبا وعما إذا كان هناك حملات صليبية جديدة . وبعد الانتهاء من هذه الإجراءات يسمح لهم بالمبيت فى فنادقهم وفرز سلعهم . وكان يسمح فقط لقنصل فرنسا حضور عمليات التفتيش[٢] .

ولكن الحال يختلف فى ميناء السلسلة فهو مخصص لتجار ومسافرى المغرب والجنسيات الأخرى من أتراك ويمنيين وهنود وفرس ، وتتخذ معهم الإجراءات فيقوم الموظفين المختصين بحصر أنواع وكميات السلع الموجودة إحضار جميع المسلمين بالسفينة وكتابة أسمائهم وحقيقتم، وبلادهم ، والإستفسار عن دفع أموال الزكاة على السلع التى بحوزتهم ، ومن كان منهم ذا صفة سياسية فيطاف به على المسئولين تحت الحراسة للقاضى وأهل الديوان والحاشية . وفى كل مرة يستجوب ثم يطلق سراحة ، وانزال السلع للتفتيش عليها ، وتقدير الرسوم الجمركية . وقد لوحظ أن هذه الإجراءات الجمركية تتخذ فى كل جمارك مصر والشام[٣] .

---

(١) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة العالمية فى العصور الوسطى ، ص٣١٤ ، وكلمة فندق ، أسم مأخوذ من الكلمة اليونانية pandekeicn ونقلت إلى اللغة الإيطالية لتدل على المبنى الذى أسفلة مخازن وأعلاه نوم لسكنى الأجانب ، ويعرف فى مصر بأسم فندقى ، وفى بعض الأحيان وكالة . (أنظر ، صبحى لبيب ، البحارة الكارمية وتجارة العصور ، الوسطى ، المجلة التاريخية ، العدد ١٤ ، ص٣٨٢) .

(٢) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص٣١٤ ، ٣١٥ .

(٣) القلقشندى ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٤٦٤ ، سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٢٠١ ، ٢٠٢ .

وكانت هذه الإدارة فى منتهى القسوة فى البحث والتفتيش ، على كل مايحمله التجار والمسافرين من متاع وأموال ولا يفرقون بين مسلم ومسيحى ولم تكن هذه القسوة فى جمارك مصر فقط ، وكانت متبعه فى جمارك مدن غرب البحر المتوسط ، حيث كان يراقب التاجر مراقبة شديدة ودقيقة ، ولا يترك حرية إختيارمسكنه ، بل يوضع فى فندق خاص بالأجانب ، وفيه يصير تخزين سلعه[١] .

بالإضافة إلى هيئة الجمارك السابقة ، وجدت هيئة أخرى تشرف على التجارة الخارجية ، وهى هيئة تمثل القناصل التجاريين ومهمتهم تغطية وتسويق وعبور المتاجر الشرقية والغربية ، وكان يعاون القنصل هيئة تتكون من موثق العقود وترجمان كان يحرم عليه - القنصل - الاشتغال بالتجارة لحسابه أو لحسابه غيره[٢] ويعاونه مجلس أعلى مكون من إثنى عشر مواطنا من مواطنيه[٣] .

وقد طبقت الدولة العثمانية نظام الألتزام على الجمارك التى كانت قائمة فى جميع موانئ الدولة[٤] وكان يطلق على هذه الموانى كلمه أساكل[٥] dec Eéchlles كما كان يطلق على

---

(١) نعيم زكى ، المرجع السابق ، ص٣٢١ .

(٢) نفسه ، ص٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣) Heyed, Op. Cit., V; 11. pp. 539-546 .

Combe Etilenne : L'Egypte Ottoman ée la Conaqéte par Sélim 1517 a l'arrivée de Bonaparte (1798) p. 88 .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ١ ، ص٧٠ .

(٥) أساكل ، ومفردها أسكلة ، وأقتبست من الكلمة الإيطالية desce بمعنى أن ميناء أو ثغر ، وهى تكتب فى المصادر والمراجع العربية والتاريخية فى أشكال شتى .

- فى صيغة المفرد - أسقالة - سقالة - صقاله - أسكلة

فى صيغ الجمع ، أسقالات ، سقالات ، أساكل ، أساكيل

وتردد أحيانا فى بعض المصادر التاريخية العربية كلمة سكلر ، وهى مقتبسة من اللغة الأسبانية ، ومعناها ميناء العابرين أو المارين (أنظر ، عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٧١) .

إيرادات الجمارك «محصول أسكله» وكانت تباع رسوم كل جمرك إلى الشخص الذى يرسو عليه المزاد مقابل مبلغ من المال يؤديه للحكومة ، ويصبح لقبه الملتزم . ثم يشرف على جبايه الرسوم الجمركية .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية تأتى فى المرتبة الثانيه بعد ضرائب الأراضى الزراعيه بالنسبة لإيرادات الحكومة[١] ولايدير الملتزم الجمرك بل كانت لديه هيئة من الموظفين يرأسهم موظف يسمى «كمرك أمينى» أى أمين الجمرك ، وأطلق عليه أحيانا الجمركى ، ويكون عادة رجلا يهوديا[٢] وكان ذلك قبل عهد على بك الكبير ، وعندما غالوا فى فرض الرسوم على التجار الأجانب ، قبض عليهم وصودرت أموالهم ، وعهد إلى المسيحيين الشوام الكاثوليك الذين هاجروا إلى مصر فى القرن السابع عشر بادارتها[٣] .

وعندما تولى الشوام إدارة الجمارك ، فرضوا رسوما باهظة على البضائع المرسله إلى ليفورنيو وتريستا ، كما خضعت السفن العثمانية والأوروبية التى كانت تشحن فى دمياط بالإضافة إلى ذلك لأداء اتاوة قدرها ٢٠٠ بوطاقة[٤] ظلت تتضاعف خلال السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، حتى بلغت رسوم الشحن ، وحيث أنه لا تقدم فى أية ذرائع لتبرير مثل هذه المظالم ، فقد كان بمقدور التجار أن يجدوا دوافع حقيقة لإلقاء اللوم على وكلاء الدول الأوروبية فى تساهلهم فى هذه الأمور لولا أنهم يدركون أنه من العسير على هؤلاء أن يصارعوا النجاح ضد رجال الجمارك فى مصر[٥] .

---

(١) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، ص١٧١ ، جـ١ .

(٢) دار الوثائق القومية ، دفاتر الروزنامة ، سجل أصول مال وأسكلهات ومقاطعات ، رقم الحفظ النوعى ١٢ ، مسلسل ٤١٥٠ ، مخزن تركى رقم (١) عين (٥٣) عام ١١١٠هـ/١٦٩٨م .

(٣) محمد رفعت . على بك الكبير ، ص ٨٩-٩٠ .

(٤) أبو طاقة ، هو الريال النمساوى وكان يعرف (بأبو طيره) نسبة لطائر النسر المنقوش ، وسمى أحياناً بالريال (أبو طاقة) نسبة لرسم النافذة أو الطاقة أو هيئة الشباك الصغير ، (أنظر عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ص٥٥٨) .

(٥) Shaw, The Fianacial and Adninstrative and . Organization P. 103 .

وعمل بعض الإيطاليين فى بعض الجمارك ، وقد ظهروا بشكل واضح فى جمرك دمياط ، كما أنهم عملوا وسطاء بين التجار الأوروبيين والأهالى[١] .

وقد التزم أحد الشوام بضمان جمارك مصر فى الفترة ١٧٧٤-١٧٨٤م ، وذلك فى عهد كل من على بك الكبير ومحمد أبو الذهب ، وابراهيم بك ومراد بك وقد رفع بدل ضمانه حينما تولى إدارة الجمارك من ثلاثين كيسا إلى مائة كيس . وازداد هذا البدل تدريجيا حتى بلغ ألف كيس[٢] وقد استمر التزام الجمارك فى يد الشوام الكاثوليك إلى عهد محمد على[٣] .

وكان اسم الجمركى فى الولايات العربية يذكر مسبوقا بكلمة المعلم الذى يعين وكلاء عنه فى المدن والثغور لجباية الرسوم الجمركية ، وكان يختارهم بطبيعة الحال من بنى جنسه ، وكانت الحكومة تضع سلطتها تحت تصرفهم[٤] ومعه قاضى الميناء[٥] وأغا الحوالة[٦] وأمين الاحتساب وسدادرة البلوكات السبعة[٧] وهؤلاء هم الذين يوجه اليهم الباشا قراراته الادارية

---

(١) كارستن نيبور ، رحله إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م ، ص١١٤ ، ترجمة مصطفى عبد لقادر .

(٢) عبد الله عزباوى ، الشوام فى مصر فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، ص٣١ .

(٣) نفسه ، ص٣٤ .

(٤) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص٨٩-٩٠ .

(٥) أغا الحوالة ، الأغا من الكلمة التركية من المصدر أغمق ، ومعناه الكبير وتقدم السن وقبل أنها الكلمة الفارسية (أقا) وجرى العرب على إضافة تاء اليها إذا وقعت مضافاً ، تطلق فى التركية على الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصى الذى يؤذن له بوخول غرف النساء . (أنظر أحمد السعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، ص١٧) والحوالة هو الشخص الذى خولت له السلطات أنذاك جمع الأموال السلطانية من العمال وغيرهم من المكلفين بتحصيلها لتسليمها إلى الميرى . (أنظر قانون نامة ، ص٤٨) .

(٦) البلك ، أو البلوك ، بلوك من المصدر التركى يولمك أى أن يقسم وكلمة البلوك يعنى القسم أو الجزء ، وكان الأوجاق ينقسم إلى وحدال صغرى تعرف باسم البلوكات . ويحمل كل بلوك رقماً منسوبا إلى الاوجاق الذى ينتمى اليه مقرونا باسم الوجاق . (أنظر عفاف مسعد العبد ، دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر ص١٥٣) .

الخاصة بادارة المواني[١] وكانت تلك القرارات تسجل فى سجلات المحكمة الشرعية[٢] بالإضافة إلى إنه وجدت وظائف أخرى غير رسمية ، وقد اتخذت السلطات الحاكمة الإجراءات الكفيلة لطردهم[٣] .

ولابد من الحصول على موافقة الباشا على عملية نقل حق الإلتزام (سواء فى الأرض أو الجمارك) من شخص إلى آخر ، فقد أذن له السلطان بالختم والعلامة على جميع التمكينات التى يقع فيها التغيير بالبيع والشراء .

وفى القرن السابع عشر طولبت معظم جمارك مصر المهمة بالإلتزام للباشا الذى كان عليه أن يدفع مال الخراج المقرر عليها بالخزينة ، ويحتفظ بفائض الإيراد السنوى ربحاً له ، وقد كانت الجمارك من أهم مصادر الثروة فى مصر بعد الأرض ، وأهم الجمارك فى مصر العثمانية

١- جمرك اسكندرية ورشيد وتوابعها .

٢- جمرك بولاق ومصر القديمة .

٣- جمرك دمياط وبرلس وتوابعها .

٤- جمرك عشور أصناف بهار .

٥- جمرك سمسارية بحرين وتوابعها .

وقد ألحقت بالجمارك السابقه مقاطعات جمع الرسوم فى الجهات الاتية :

١- مقاطعة حمام خاصة الذى أنشأة السلطان سليم فى القلعة لإستخدام الجنود العثمانيين) .

٢- مقاطعة خردة وتوابعها .

٣- مقاطعة كيالة أرز بياض در بندر دمياط .

٤- مقاطعة بحيرة سمك بندر دمياط .

٥- مقاطعة إحتساب نفس محروسة مصر .

---

(١) سجلات محكمة ابيكندرية ، سجل رقم ١٣ ، ص١٢٠ ؛ عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م .

(٢) قانون نامة ، ص٥٦ .

(٣) نفسه ، ص٢٦ ، وسجل رقم ١٣ ، ص٧٧ عام ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م .

٦- مقاطعة كيالة غلال بولاق .

٧- مقاطعة مرتجع سره بازاران در بندر رشيد[١] .

وقد كان للباشا فى القرن السابع عشر التزام أهم جمارك مصر وهو (مقاطعة أسكلة اسكندرية وتوابعها مع تعريف المراكب ورسم جلود بقرى وجاموسي در بندر رشيد) وكان هذا الجمرك مختصاً بالرسوم التى تفرض على التجارة الصادرة من مصر إلى السلطنة العثمانية وأوروبا وكذلك التجارة الواردة اليها من تلك البلاد . بالإضافة إلى هذا لحق تنظيم الملاحة فى الميناثين (حق تعريف المراكب) والرسوم المفروضة على تجار الجلود البقرى والجاموسى فى أسواق رشيد[٢] .

وقد ظل التزام جمرك اسكندرية وتوابعه من حق الباشا حتى أواخر القرن السابع عشر ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، ثم سيطرت فرقة الانكشارية بالإضافة إلى معظم جمارك مصر العثمانية الأخرى[٣] ولذلك عندما إستولت الانكشارية عليها - الجمارك - دفعوا عوائد ثابتة للباشا من ايراد هذه الجمارك وتشمل اسكندرية ورشيد ودمياط والبرلس وبولاق ومصر القديمة وقد بلغت تلك الضريبة ٢٫٠٨٩٫٠٠٠ بارة فى السنة[٤] .

وقد تم تأجير مقاطعات جمارك اسكندرية ورشيد ودمياط وبولاق ومصر القديمة لاختيارية[٥] فرقه المستحفظان[٦] وتم لهم ذلك حتى عهد على بك الكبير[٧] .

---

(١) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفاتر أصول مال أسكلهات ومقاطعات سلسلة تبدأ من ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م إلى عام ١٢٢٧هـ/١٨٢١م وهى السنة التى بدأ فيها محمد على الغاء التزام الجمارك ، وتحوى تلك الدفاتر أسماء الجمارك والمقاطعات وتكوينها والمال الميرى المطلوب منها للخزينة كل عام .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، ص ٩ ؛ استيف ، النظام المالى فى مصر العثمانية ، ص١٢٣ .

(٣) دفتر أصول مال اسكلهات ومقاطعات تابع قلم شهر عام ١١٠٧هـ/١٩٦٥م برقم ٤١٤٦ .

(٤) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٣٤ ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٩٦ .

(٥) أختيارية ، هم المسنون من رجاله ، وأقدمهم الباش اختيار (أنظر محمد شفيق غربال . المرجع السابق، ص١٨) .

(٦) قانون نامة ، ص١٥) .

(٧) سجلات الديوان العالى ، رقم ١ ، ٣١٠٢ ، عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م رقم ٢ ، ص٧٥ عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م .

وحاولت الدولة العثمانية أن تعيد التزام هذه الجمارك إلى الباشا فى القرن الثامن عشر ، ولكنها لم تفلح وإزداد الانكشارية فى دفع المبلغ المطلوب للباشا [١] ولوحظ أن ايراد الباشا من الجمارك فى عام ١١٧٣هـ/١٧٦٠م كان ٢٫٢٥٠٫٠٠٠بارة سنوياً وفى عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥ ، حصل الباشا على ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون بارة[٢] ولكن انخفضت هذه الايرادات إلى أقل من مليون بارة فى عام ١٢١٠هـ/١٧٩٥م[٣] .

وبالرغم من ذلك فقد استطاع الباشا أن يحتفظ لنفسه طوال العهد العثمانى بأغنى المقاطعات للجمارك فى مصر وهى مقاطعة جمرك السويس ومقاطعة عشور أصناف بهار وتوابعها وسمسارية بهار وتوابعها مع مقاطعة قصير شامى[٤] ، ونتيجة لذلك أنخفضت ايرادات الباشا من الجمارك فى نهاية القرن الثامن عشر من ١٢ مليون إلى ٧٫٥ مليون بارة .

وكان على الباشا أن يدفع ضريبة وهى التى تعرف بضريبة الكشوفية الكبيرة على الجمارك، وهى فى الأصل كانت مقررة للخزينة على جمارك الاسكندرية ورشيد كانت مقررة أساساً على فرقة الانكشارية التى استولت على التزام هذه الجمارك . ولكن لتزايد قوتهم وسلطتهم على الباشا أرغموه على دفع تلك الكشوفية للخزينة وسدادها بدلا منهم وقد بلغ مقدارها من بعد عام ١١٢٦هـ/١٧١٤م ، ١٫٣٣٣٫٢٤٩ بارة سنويا ، وظل يدفع هذا المبلغ حتى نهاية القرن الثامن عشر[٥] .

الرسوم الجمركية :

كانت السلطات الحاكمة فى عصر دولة المماليك ، تفرض رسومات تتراوح مابين ٢-٢٫٥٪ على التجارة العابرة[٦] وكانت إجراءات الجمارك تتم على ثلاث مراحل رئيسية :

---

(١) أحمد كتخدا عزبان ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، جـ٢ ، ص٤٤٥ .

(٢) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٩٦ .

(٣) سجل الروزنامة مقاطعات اسكلهات الدفتر رقم ٢٢٦٢ .

(٤) ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص٩٧ .

(٥) دفاتر مقاطعات اسكلهات لسنوات ١١٢١هـ برقم ٤١٧٨ ، ١١٣٤هـ/١٧٢١م برقم ٤١٨٣ ، ١١٧٦هـ/١٧٦٢م برقم ٤٢٢٣ .

(٦) القلقشندى ، صبح الاعشا فى صناعة الانشاء ، جـ١٤ ، ص٣٩١-٣٩٢ .

فالمرحلة الأولى ، تبدأ بمعرفة جنسية السفينة ، وعدد المسافرين والبضائع التى يحملونها ، وتبلغ هذه المعلومات إلى أمير الإسكندرية الذى يقوم بدوره تبليغ هذه المعلومات عن طريق الحمام الزاجل[١] .

وتبدأ المرحلة الثانية عند دخول السفينة الميناء ، ترفع عنها أشرعتها ، وبعد إتخاذ الإجراءات المناسبة . يسمح للقبطان والركاب بالنزول ، بموجب تصريح بذلك ، وتتخذ إجراءات فى غاية الدقة إذا كانت هذه السفينة لدولة فى حالة حرب مع المماليك ، خوفا من وجود أسلحة معهم[٢] .

أما المرحلة الثالثة ، فهى تحصيل الرسوم الجمركية وتشمل دوكتين[٣] لكل فرد وخمسة اذا كان من الحجاج وهى ماتعرف بجزية الرأس ، ٢٪ من قيمة السلع وتعرف برسم الدخول ، ١٠٪ من قيمة السلع وهو مايعرف بالرسوم الجمركية[٤] ولكن هذه النسبة لم تكن ثابتة دائما بل كانت ترتفع أحيانا إلى ١٥٪ [٥] أو تزيد على ذلك وتصل إلى ٢٠٪ وهو مايطلق عليه الخمس[٦] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٣٦٣ .

(٢) Hyed, Histcrie éu Con merce ée Levant au Moyen Ages, V; II P. 39 .

(٣) دو كات ، هى العملة الذهبية لجمهورية الادرياتيك ويرجع ضربها إلى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، وكانت تتميز بالإستدارة التامة وثبات العيار والوزن ، الذى كان يبلغ ٣ر٤٥ جرام ، وكان ذلك من أسباب انتشارها فى أسواق الشرق الأدنى الاسلامى وبخاصة الاسكندرية المركز التجارى العالمى مع بداية القرن ٨هـ/٤ م فى وقت اتسمت فيه العملة المملوكية بتذبذب الوزن والعيار والقطر وقد بلغ من ذيوعها فى الأسواق العالمية أن البندقية قدرت مبلغ ما ضرب فى النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى / النصف الأول من القرن التاسع الهجرى بحوالى مليون قطعة . (انظر عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، ص٩٥-٩٦) القاهرة ١٩٦٤ .

(٤) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص٣١٤ .

(٥) تقى الدين المقريزى ، الخطط ، جـ١ ، ص١٠٩ ، التلقشندى ، المرجع السابق ، جـ٣ ، ص٣٦٣ .

(٦) نعيم زكى فهمى ، المرجع السابق ، ص٣٢٢ .

وقد تزايدت هذه الرسوم ، وأدى ذلك إلى إرتفاع أسعار التوابل واستاء التجار الأجانب ، ورفعوا شكواهم للسلطان المملوكى فرج برقوق ، واستجاب لشكواهم وخفض الرسوم[١] .

أما إجراءات تحصيل الرسوم الجمركية فى العصر العثمانى ، فكانت تحصل من طائفة التجار الرسوم والعشور ، كما كانت تحصل بموجب العوائد والقوانين المعمول بها منذ عهد قايتباى ، ولايؤخذ شئ مخالف لها ، وشدد بعدم رفع رسوم الجمارك على أمتعة المسلمين ، أو تخفيضها على التجار . وكان المتبع عند وصول السفينة الخاصة بأية دولة أوروبية ، على قنصل الدولة التابعة لها - السفينة - أن يحضر إلى الجمرك ومعه البيانات الخاصة بالبضائع ويقدم هذه البيانات إلى مجلس القضاء ، ويطلع عليه ناظر وأمين الجمرك . وترسل منها صورة إلى القاهرة والهدف من ذلك القضاء على الاختلاسات[٢] .

وكان يدون مفردات الأمتعة التى تحملها السفن التى تقلع بحمولتها فى الدفاتر ، ويحصلوا عليها رسوما ، وعلى قاضى المدينة أن يتابع ذلك بنفسه ، ويكون موجودا عند تحصيل الرسوم أيضا ، وعدم التهاون فى تحصيل هذه الرسوم ، وتورد هذه الرسوم إلى الخزينة مرة كل ثلاثة شهور ، حتى يتمكن الروزنامجى[٣] من تسجيلها[٤] .

وقد يصاحب بعض جنود السباهى أو أحد من أشرف الحجاج أو الأكابر مع من يلوذ بهم من التجار عند وصول سفينة أو إقلاعها فيخلصون كل من فى السفينة من رسوم الجمارك ولا يأخذون منهم شيئاً أو يساعدوا على تقييم أمتعتهم بأبخس الأثمان ، فيدفعوا رسوما زهيدة ، ويلحق الضرر والخسائر نتيجة لذلك بالأموال السلطانية[٥] .

أما الرسوم على البضائع ، فكانت تحصل بنسب متفاوته ، فقد فرضت رسوما جمركية على السلع التى ترد من بلاد السلطان ١١٪ على المشمش والصوفان (الأسفنج الطبى) واللوز ، ٥٪ على الصلب والأبر والشبة ، ومن ٣ر٥٪ على البضائع الواردة من مرسيليا والبندقية

---

(١) نفسه ، ص٣٢٣ .

(٢) قانون نامة ، ص٥٣ .

(٣) نفسه ، ص٥٤ ..

(٤) نفسه ، ص٥٤ .

(٥) قانون نامة مصر ، ص٥٤ .

وليفورنيو وترستا و٥٪ على البضائع الواردة من أوروبا عن طريق أزمير وأيضا الزئبق ، والأسلحة ، سلفور الرصاص زرنيخ ، جوارب ، مجوهرات ، أسيبيداج أبيض ، خشب فرنامبوك ، قلنسوات حمراء شمع ، خمارات ،شال أنقرة ، صنوبر ، قرمزية (للصبغة الحمراء) نحاس (جديد ، مصنوع ، خام ، قديم) أوراق مذهبة ، أجواخ ، عقاقير طبية . قصدير ، أقمشة ، زنك ،كتل من الحديد ، سنابك الخيل ، قرنفل ، قطران ، قطع غيار للساعات زيت الصباغة نحاس أصفر ، رقائق فضية وفالصو ، صمغ ، خردوات ، جوز ، ورق ، جلود وفراء ، ورصاص ، كبريت ، مناشف (فوط) شراب السكر ، حرير ، أحذية ، سجاجيد للأرائك ، لوازم النسيج ، أقمشة من بيروت ، أقمشة حريرية ، أقمشة حريرية منقوشة ، خراطيم النارجيلة[١].

وتفرض رسوما مابين ١٠ ، ١١٪ على الحرير والقطن الواردة من بلاد السلطان ، والبرادق الفخارية من بلاد المغرب والبرنس (معاطف صوف) سمن ، قلنسوات حمراء ، وكراويه وشيلان صوف وحلويات ، جلود فاسى فاصور (عقار طبى) جياقلو (للصباغة) ، أحرمة (حرام) من كل نوع حرام صوف من البربر وبلاد السلطان ، وعسل ، ومناديل سيدات ، خراف زيتون (الملكان) كافورية صوانات البندقية ، سمك مجفف وملح قتيب (عقار طبى) صابون عجين وسائل كبريت ، أحذية قديمة من بلاد السلطان مصنوعات زجاجية ، أقمشة من الهند ، تبغ منفاخ ، السروج والركاب ، عنب طازج ، ذيول الخيول ، شعر الماعز ، أمشاط خشبيه ، بطيخ من يافا ، بيض السمك كافيا ، جوز لصنع النرجيلات ، موسلين ، عسل ، كاب أو قباب للسيدات ، فواكه جافه ، جبن فوه (عقار طبى) فناجين ، حديد ملاعق خشبيه ، زغب القطن حبال ، حلويات[٢] .

وفرضت رسوما على السلع المصدرة من ميناء الإسكندرية إلى ولايات السلطان فى القرن الثامن عشر كما يلى :

تفرض ٥٪ على القافلة ، شمشم ، ثمار جوز الهند ، كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) ، بخور ، عقاقير ، عقاقير طبيه من كل نوع ، كركم ، كتان أهليج ، مر ،

---

(١) أستيف ، النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية ، ص١٢٧-ص١٤٧ .

(٢) نفسه ، ص١٢٧-١٤٧ .

فلفل، زغفران ، وملح النوشادر ، خراطيم نارجيلات ، على شكل أعواد جذور الزغفران ، و١٠٪ على المهم من الهند ، خشب الألوه ، شيلان وأقمشة من الهند ، موسيلين من الهند ، الخزف ، والتبغ[١] .

وفرضت رسوما ثابته على حسب الوزن أو الكمية أو النوع ، فكان يفرض ٣٠ مدينى على قنطار البن ، ٢ مدينى على قفة الرمادا والصودا [٢]، ٣ مدينى على شيلان صوف من الفيوم، ٤ مدينى لأغطية الرأس الحمراء ، ٤ مدينى للجلد ، وجلود بقر وجمال وثيران ، ٢ مدينى للجلد الواحد ، ٣ مدينى لقفة البلح العجوة ١٢ ، ١٣القنطار العجوة ، ٢٥ مدينى للعبد الأسود ٤ ، ٦ مدينى للجوال تبعاً لحجمه وحناء لصبغ أظافر وشعر النساء ٢ مدينى للعباءات الصوفية للفلاحين ومدينى واحد لكل جلد ، ٤١ مدينى للسمك المملح للبرميل الكبير ، ٨ مدينى لبرميل السمك المجفف ، ٢ مدينى لقطعة القماش من الكتان للقمصان[٣].

والرسوم التى كانت تفرض على السلع المصدرة إلى بلاد البربر فكانت على النحو التالى :

٨٦٪ على كوبال (صنع الطلاء) أما الألوة فكانت ٢٢ مدينى للقنطار ، ٣٣ مدينى لقنطار الحتليت ، وخيوط وبر ، ٢ مدينى للقطعة ٣٠ مدينى على مشافة (وبر) حرير للقطعة، وبر صنع القاهرة ١٥ مدينى للقطعة ، ٢٥ مدينى للقطعة وبر عادى وأحمر ، ١٦ مدينى لقنطارالبن ، ٣٣ مدينى قنطار القافلة ، ٣٣ مدينى قنطار شمشم، ٣٣٠ مدينى لقنطار سن سمك ، ٢ مدينى على قطعة ديميتى منقوش وهو أقمشة قطنية تسمى نانكين أو بازان ويسميها الانجليز ديميتى ، ٣٠ مدينى لقنطار البخور ، ٦ مدينى لقنطار عقاقير طبية من كل نوع ، ٨٦ مدينى لقنطار زنجبيل ، ٢٦ مدينى لقنطار الصمغ ، ٣٣٠ مدينى لقنطار ألك

---

(١) نفسه ، ص١٢٧ ، ١٤٧ .

(٢) المدينى هو قطعة نقدية باللغة الصغر ، يزن الألف منها ٧٣ درهما أى ١٠٠ر٢٢٤٧٦ جراما بعيار قدره ٣٥٠ (من الألف) من الفضة الخاصة على أحد وجهيه توقيع سلطان القسطنطينية أو طغرائه وحدها ويحمل على الوجه الآخر عباره ضرب فى مصر (أى القاهرة) سنة تنصيب السلطان . (أنظر . سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص١٦٣) .

(٣) أستيف ،المرجع السابق ، ص١٥٢ ، ١٦٢ .

(صمغ) ٥ر٦ مدينى لبالة حناء (لصبغ أظافر وشعر النساء) ٣٣٠ لقنطار أصابع هرمس ١٢٥ مدينى لقنطار العاج ، ١١٠ مدينى لقنطار الكنح ، ١١٠ مدينى لقنطار خولان (عقار طبى) ، ٨٦ مدينى لقنطار كركم ، ٢٧ مدينى لبالة الكتان ، ٦ مدينى لاردب الخضروات وحبوب وعلف ، ٤ مدينى لبالة الكتان ، ٦ مدينى للبالة الصغيرة ٨٦ مدينى قنطار أهليج ، وقنطار المر ، والفلفل أسود ، ٤ مدينى لأردب الارز ، ٥ر٢٧ مدينى لقنطار الزهور الجافة ، ١٣ مدينى لبالة الزعفران ، ٣٠ مدينى لقنطار ملح النوشادر ، ٢٦ مدينى لقنطار بذور اليسر ، ١ مدينى لقطعة الخيش ، ٦-١٢ مدينى للقطعة مناشف (فوط) ١٨ مدينى لقنطار سكر مكرر تمر هندى ٤٥ مدينى للقنطار ، ، ٥ر٣٧ مدينى لقنطار لوازم النسيج ، ٤ مدينى لقنطار أقمشة همايون ، ١٥ مدينى لقطعة أقمشة عاتكى ، ٣ مدينى لقطعة أقمشة زرقاء ، ٣٠ مدينى لقطعة أقمشة ضابولى من القسطنطينية ، ٥ مدينى للقطعة قماش ضابولى من مصر ، ١٠ مدينى لقطعة القماش التابولى العادية ، ٦ مدينى لقطعة أقمشة ملونة ، ٤٠ مدينى لقطعة القماش فيتلى درجة أولى ، ٣٠ مدينى للعادية ، ٢٠ مدينى لقطعة الأقمشة الجبشية ، ٤٠ مدينى لبالة أقمشة الأرائك ، ٣ مدينى بقطعة أقمشة سهن ، ٣٠ مدينى لقماش العمائم ٢٦ مدينى لقنطار الزعفران[١] .

أما الرسوم الجمركية على البضائع المصدرة إلى أوروبا من الإسكندرية وكانت تسمى بلاد النصارى على النحوالتالى :

٣٪ على الألوة (الصبر) ، وحتليت ، مشاقة (وبر) خرز ، وبر صنع القاهرة ، وبر عادى . كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) قطن فى شكل رزم ، غزل قطن من الهند ، أغطية حمراء ، جلود جاموسى ، جلود بقر وجمال وثيران ، عجوة بلح مجفف (تمر) سن سمك، دميتى منقوش . بخور عقاقير طبية من كل نوع ، صمغ ، أصابع هومس ، عاج ، كركم ، صوف ، كتان ، كتان مغزول ، اهليج ، مر ، ملح النظرون ، جوزة القبئ ، ريش النعام ، فلفل زعفران ، ملح النوشادر ، ملح البارود ، بذور اليسر ، سنامكى ، سكر تمر هندى ، لوازم النسيج ، أقمشة زرقاء من القطن ، أقمشة من الكتان ، أقمشة من الهند ، أقمشة ملونة ، أقمشة للأرائك جذور الزعفران[٢] .

---

(١) أستيف ، المرجع السابق ، ص١٥١ - ١٦٢ .

(٢) استيف ، المرجع السابق ، ص١٥١- ١٦٢ .

وفرضت رسوم على حسب الكمية والوزن والنوع ، ٤٠ مدينى لقفة الرمادا والصودا ، والأرز ١٣٣ مدينى للأردب .

والرسوم التى تفرض على السلع المصدرة عن طريق جمرك دمياط إلى بلاد السلطان والبربر وأوروبا على النحو التالى :

١٠٪ على الألوة (الصبر) والينسون ، وحتليت ، أطباق من الخزف ، خشب هندى ، خشب عطرى ، وخشب للصباغة ، قاقلة ، شيلان وأقمشة من الهند ، خمارات (خمار) القرمزية ، ثمار جوز الهند ، كوبال (صمغ للطلاء) ثمرة البوصير (سم السمك) قرون الثيران والماعز ، قطن على هيئة لوزات ، قطن فى شكل رزم ، شعر عرفه الخيول ، ماء الزهر ، بخور ، عقاقير طبية من كل نوع ، تصدير أقمشة حريرية من الاسكندرية والمحلة الكبرى ، زنك ، حديد على هيئة قضبان صمغ الك ، أصابع هرمس ، عاج ، كلخ ، خولان (عقار طبى) كركم . صوف ، حواشى جوخ ، قدور فخارية ، وموسلين من الهند ، مر سنامكى كبريت ، سكر ، سكر مكرر ، تبغ ، بودرة تبغ (سعوط) تفتاز . تمر هندى ، مناخل (منخل) ناعة فناجين من الخزف ، أقمشة من الهند ، خراطيم نارجيلات على شكل أعواد ، جذور الزعفران ، ١٢٪ على مسامير حجم كبير ، ٣ مدينى لقنطار البن ، ٢٠ مدينى لكل ١٠٠ اطار (أطواق ٣ مدينى على كل من قطعة شيلان صوف من الفيوم ، جلد جاموسى والبقر والثيران ، ٣ مدينى لقفة العجوة والبلح المجفف (تمر) ٤٥ مدينى ، ٥ مدينى لقطعة الصوف تسمى زعبوط ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل زنجبيل ، ١٥ مدينى لأردب الكمون ٢ مدينى لكل حمولة خميش(١) .

أما الرسوم على السلع الواردة فكانت الآتى :

١٠٪ على المشمش الطازج ، والصلب والأبر ، ١٢٪ على المشمش الطازج ، والصلب والابر ، ١٢٪ (قمر الدين والصوفان (سفنج طبى) واللوز ، والعنبر الأصفر وهلب للمراكب . ولم تكن الرسوم فى جمرك دمياط تتغير مطلقاً تبعا للأمة التى تأتى منها السلع كما هو الشأن فى الاسكندرية ، وكانت الرسوم التى يحصلها هذا الجمرك والتى تفرض بشكل متساو على سلع أوروبا وآسيا وبلاد البرر تسدد جزءاً منها نقدا ، والجزء الآخر عينا ، كما كانت الرسوم النقدية تتحدد وفق تقيم خاص وقريب من الواقع بالنسبة لقيمة السلع ، وكان يتم ذلك بمجرد إتمام عملية الانزال(٢) .

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٥١ - ١٦٢ .

(٢) استيف ، المرجع السابق ، ص١٢٧ .

ولذلك فرضت ١٠٪ على بعض السلع مثل الفضة والأسلحة ، وبرادق فخارية ، برنس ، (معاطف صوف) اسبيداج أبيض ، قلنسوات حمراء ، منسوجات خشنة لصنع الملابس ، بن جلود ، خرفان ، ماعز ، لحم مملح ، شيلان ، شيلان صوف ، خمارات شال أنقره ، شموع ، ثمار جوز الهند ، حلويات ، مرجان ، مرجان فالصو ، ملاعق خشبية ،جلود ثيران ، نحاس ، سن الفيل ، أوراق مذهبة ، ماء القرنفل ، مشروبات روحية ، أسفنج ، قصدير أقمشةمن الأموى ، أقمشة من تركيا ، فاصور (عقار طبى) حديد ، فناجين ، فواكه جافة ، صمغ من سوريا ، أحرمة من كل نوع ، كاب أو قبعات للسيدات ، العرقسوس ، رقائق فضية ، وفالصوه ، مشروبات روحية ، سلع من الهند ، خردوات ، موسلين ، جوز لصنع الارجيلات ، زيتون ، بطيخ من يافا ، خرف ، خردة وحدايد من كل صنف ، عنب فى صناديق ، مواقد طينية مناشير، ملح البارود ، السروج ، حرير مطبوع وقيطان حرير ، سجاجيد للأرائك من كل نوع أقمشة من الهند ، أقمشة حريرية ، أقمشة منقوشة ، خراطيم النارجيلة ، مصنوعات زجاجية وكريستال ، أحذية قديمة .

وكانت تفرض١٢٪ على زئبق بلسفور ، الرصاص ، مجوهرات ، اسبيداج أبيض خشب للوقود ، خشب فرنامبوك ، شمع ، شيلان ، خمارات قلفونية ، حلويات حبال ، زغب القطن ، زرد ، ملاعق خشبية ، جلود فاسى ، عقاقير طبية ، قصدير فاصور (عقار طبى) دوباره ، فواكه جافة ، عفصة ، صمغ من سوريا ، حشيش مفرط فاصوليا ، زيت ، زيت للصباغة . جرار مليئة بالعرقسوس ، صوف ، نحاس أصفر ، عسل ، هاونات ، موسلين مطبوع ، بندق ، جوز ، بصل ، رصاص ، شعر ماعز ، خزف ، رصاص بنادق ، بودرة ، حراص (للصق) عنب جاف ، عرقسوس ، صابون حرير مطبوع وقيطان حرير ، أحذية ، سكر ، ودك (شحم للأمعاء)(١) .

وتفرض أحيانا على الوحدة أو على عدة وحدات ١٨٠ مدينى العجل الواحد ، ٦٠ مدينى على قطعة الحرير ووبر الحرير والقطن ، ٢ مدينى لكل طروق ، ١٠ مدينى لكل قطعتين الكستناء ، ١٨٠ مدينى على كل حصان ، ١٤٦ مدينى على كل أربعة من قطع الأقمشة الحلبية ٧ مدينى لربع بذور الخيار ، ٨ مدينى لجوال بذور النيلة ٥٠ر١ مدينى بذور البطيخ ،

---

(١) استيف ، المرجع السابق ،ص١٢٦-١٤٧ .

٣ مدينى لأقمشة الحشيش المفرط ، ٨٠ مدينى للقفص الزجاجى ، ١٨ مدينى لقطعة ماء سودوات ، ١٥ مدينى لقفة بيض السمك المسمسى كافيار ، ٣ مدينى للقربة الواحدة ٢٠-٣ مدينى لرطل الورق ، ١ مدينى لجلد الماعز الواحد ، ٢٩ مدينى لكل ١٠ ألواح من الرصاص ، ٣٠ مدينى لصندوق التفاح ، ٣٦ مدينى لصندوق العنب ، ٣٠ مدينى للباليه الصغيرة من الصابون السائل والعجين الوارد من سوريا ، ١١-١٢ مدينى المرطل من شراب السكر ، ٥ر١-٥ر٢ مدينى للسرج الصوفية ، والتركية ٢-٤ مدينى للاقة الخل ، ٥٠ مدينى للبرميل وحناء (لصبغ أضافر وشعر النساء) ٨ مدينى للبالة الصغيرة ، ٨٠ مدينى لقنطار النيلة الدرجة الأولى ، ٦ مدينى للدرجة الثانية ٤٠ مدينى لقنطار الدرجة الثالثة ، ١٠٠ مدينى لأردب الخضروات والحبوب والعلف ، ١٨ مدينى لكل ١٠٠ رطل مغزول ٥٠ر٢٦ مدينى لكل ١٠٠ رطل اهليج ، ٢ مدينى للحصيرة الواحدة ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل بندق من الهند ومدينى واحد لكل جلد ، ٣ مدينى لكل جلد من الجلود الرقيقة ، ٩ مدينى للأردب الحمص ، ٦٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل فلفل أسود ، ٣٠ مدينى لكل ١٠٠ رطل مسحوق لصباغة الخيول، ٧٠ مدينى لأردب الأرز ، ٣ مدينى لقطعة العباوات الصوفية للفلاحين ، ٦ مدينى لكل ١٠٠ رطل زعفران ، ٢٥ مدينى لكل ١٠ أرادب ملح ، مدينى لرطل ملح النشادر ، ٣٠٠ مدينى للبالة الأقمشة ، مدينى لقطعة أقمشة القلاع[١] .

وبالإضافة إلى الرسوم السابقة ،فانه كان يحصل رسوما أخرى ، وخاصة عندما تكون واردة من داخل مصر وتدخل المدن الموضحة فانها تخضع للرسوم المبينة :

بالنسبة للإسكندرية ، لا يوجد رسوم ، فقد كانت تجبى فيها الرسوم كاملة أما بالنسبة لرشيد فكانت تفرض فيها الرسوم التالية :

الكبريت ٣٠ مدينى للبرميل الكبير ، الأحذية ٤٥ مدينى للبالة ، تبغ وارد تركيا ٤٣-٨٠ مدينى للبالة ، سجاجيد للصلاة ٩٠ مدينى للبالة ، سجاجيد موبرة ومساجد قدم ٤٥ مدينى للبالة ، وردى ٩٠ مدينى للبرميل تنباك ٤٥ مدينى للبرميل ، زجاج نوافذ ٣٠ مدينى للصندوق ، أملاح معدنية الصلب ٤٥ مدينى للصندوق والابر والقلنسوات الحمراء ، والحلويات من البندقية ، السكاكين الشعبية ، النحاس سن الفيل ، الأقمشة الصوفية من بلاد البربر ،

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص٢٦ -١٤٧ .

الزنك ، جلد فاس أحمر ، وأصفر ، مستكة ، صدف لؤلؤ ، وللصندوق وقرب المياة ٤٥ مدينى، ولصندوق الفستق ، ١٥ مدينى للبالة من الصوفات ، ٢٠ مدينى لقفة اللوز ، ٩٠ مدينى للعنبر ، ٣٠ مدينى سلفور الرصاص ، ٢٠ مدينى لقنطار خشب الصباغة ، ٩٠ مدينى لصندوق الشموع ، ٢٠ مدينى للأساور الزجاجية ، ١٠ مدينى لقفة الخروب ، ٩٠ مدينى للبالة الصغيرة لشال صنع أنقرة ، كستناء ٣٠ مدينى للبرميل الكبير ، ٩٠ مدينى لبرميل القرمزية ٩٠ مدينى لصندوق البوصيرى ، ٢٠ مدينى لبرميل بوتقات الصاغة ، ٦٠ مدينى لبالة سن الفيل ، ٩٠ مدينى لبالة أجواخ الصغيرة ، ٩٠ مدينى لبرميل القصدير ، ٥ مدينى لسلة الفوانيس الزجاجية من البندقية ، ٢ مدينى لقضيب الحديد فى شكل قضبان ، ٣٠ مدينى ورد اللاوندة ، ٦٠ مدينى لقفص الزنجبيل ، ٩٠ مدينى لبرميل القرنفل ، ٢٠ مدينى صنع الكثيرا ، ٦٠ مدينى للصنع العربى ، ٩٠ مدينى لصنع الطلاء ، مدينى لجرة زيت الزيتون ، المحالب ٣٠ مدينى للبالة ، ٢ مدينى للرخام للصنوق ، مدينى متر مربعات الرخام ، ٩٠ مدينى لسلع فى صناديق ، ٤٥ مدينى لصندوق المستكة ، ٩٠ مدينى لصندوق المرايا ، ٦٠ مدينى لقفص المر ، ١٥ مدينى لجوال البندق ، ٢٠ مدينى لقفة الجوال ، ٩٠ مدينى لبالة ذهب البراق ، ٤٥ مدينى لصندوق قرب المياه ، ٢٢ - ٤٥ مدينى لبالة الورق وارد جنوه وأيضا البندقية ، ٢٠ مدينى لكوم الجلود المصبوغة ، ٢٠ مدينى لبرميل قداحات البنادق ، ٤٥ مدينى لصندوق الفستق ، ٥ مدينى لسبيكة الرصاص ، ٩٠ مدينى لصندوق ريش العام ، ٩٠ مدينى لصندوق الفلفل ، ٩٠ مدينى لبالة الخزف ، ٢٠ مدينى لجوال جذور نبات القوة ، وجذور السحلب ، ٢٠ مدينى لصندوق العنب الجاف ، ٣٠ مدينى لبالة عنب لصنع الخمور ، ١٣ مدينى لكل ١٠ أقراص راتنج[١] .

أما بالنسبة لجمرك دمياط ، فكانت تفرض رسوم ٦٪ على آبا قدار (نوع من البذور) عجين المشمش (قمر الدين) الصلب ، الابر الصبار ، الصوفان ، اللوز ، العنبر ، هلب مراكب، فضة سبائك ، طباشير ، خشب للوقود ، اللوز ، العنبر ، هلب مراكب ، فضة سبائك . طباشير، خشب للوقود ، خشب للصباغة ، شموع ، أساور زجاجية ، زفت ، أحزمة مطرزة ، خمارك ، فحم مقصات ، مسامير ، مسبحات ، خشب قرمزية ، جوز الهند ، حلويات ، مرجان

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٧٢ - ١٨٢ .

حبال ، حاس مطهر للاذن ، سن الفيل ، أجواخ : ماء قرنقل ، دبابيس ، أسفنج ، قصدير زنك حديد فى شكل قضبان ، بنادق ، صمغ عربى ، قطران ، زيت زيتون ، مصابيح زجاجيه ، مشروبات روحيه ، جلد فاسى أحمر وأصفر ، مستكة ، زئبق ، رحى طاحون ، مرايا ، هاودنات ، موسلين ، صدف لؤلو ، بندق ، جوز ، زيت ، ذهب خام ، شباشب ، وارد القسطنطينيه ، رصاص ، ريش النعام ، خزف منافيخ ، تبغ وارد سورا ، سجاجيد للصلاة ، خراطيم للنارجيلة، أكواب والرسوم الأخرى فكانت ١٦ مدينى لعلبة القلنسوات الحمراء ، ٣٠ مدينى لقنطار البن ، إذا لم يدفع فى بولاق ، ١١/٢ مدينى لرزمة الورق وارد جنوة ، ٦ مدينى لرزمة الورق وارد البندقية ، ٥ مدينى للجرة رصاص البنادق ، ٣٠ مدينى برميل راتنج ، ٩٠ مدينى لجرة الزغفران ، ٩٠ مدينى لبالة فشاغ ، ٢ مدينى لصندوق الصابون ، ٩٠ مدينى لبالة الحرير ، ٩٠ مدينى لصندوق الأحذية ، ١٨ مدينى لكل ١٠٠ رطل كبريت ، ٢ر١١ مدينى لزوج الأحذية ، ٤٨ مدينى للقفة تبغ وارد سوريا وأيضا تركيا ، والنشوق ، ٤٠ مدينى لكل ١٠٨ رطل تمر هندى[١] .

وعندما تخرج السلع من المدن الموضحة ، وتكون مخصصة للاستهلاك المحلى فانها تخضع للرسوم التالية :

بالنسبة لجمرك اسكندرية فانها كانت تفرض رسوما على البن من ٢٢-٥٠ مدينى للبالة ، ولم تفرض أية رسوم أخرى .

وبالنسبة لرشيد . فكانت على الصبر ٦٠ مدينى للبالة ، وحتليت ٦٠ مدينى للبرميل بوصيرى ، ومن ٣٠ -٦٠ لبالة ماء القرنفل ، ولا نرى رسوما خلاف ذلك ، ولم تفرض أية رسوم فى دمياط خلال القرن الثامن عشر[٢] .

وكانت السلع التى تصل إلى رشيد تودع فى وكالة الباشا وتخضع لدفع رسم يسمى رسم إقامة لصالح ملتزم هذه المنشأة[٣] .

---

(١) استيف ، المرجع السابق ، ص١٥١ -١٦٢ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، ص١٥١-١٦٢ .

وكانت حصيلة الرسوم الجمركية التى يتم تحصيلها من كل جمرك تخصص لها جهة ، مثل مرتب الباشا العثمانى ، ضباط الحامية ، الصرة ، وهى الأموال التى ترسل إلى الحجاز كل سنة مع قافلة الحج المصرى ، وجزية السلطان[١] .

ونظر للظروف السياسه التى مرت بها مصر فى القرن الثامن عشر ، طبق نظام الالتزام على الجمارك تطبيقا سليما ، فقد أشرف الملتزمون وأعوانهم فى ابتزاز الأموال من المشتغلين فى تجاره الاستيراد والتصدير ، وكانت غالبيتهم من الاجانب مثل البنادقة واليونانيين والفرنسيين وبعض الانجليز[٢] .

ولما تم للانكشارية الإستيلاء على الجمارك وايرادتها فقد أدى هذا إلى تقوية مراكزهم والتحكم فى إدارة مصر خلال هذه الفترة ، وقد حصل الانكشارية فى عام ١١٥١هـ/١٧٣٨م من ايرادات الجمارك مبلغ ٠٠٠ر١٢٥ر٢٢ بارة من جمارك الاسكندرية ودمياط والبرلس وبولاق ومصر القديمة دفعوا منها للخزينة السلطانية مبلغ ٨٥٢ر٦٤٨ر١٤ بارة ، ومبلغ ٠٠٠ر٧ر٦ كشوفية صغيرة للباشا ، والباقى قدره ١٤٨ر٧٢٦ر٧ بارة صافى ربحهم [٣] .

واحتفظ الانكشارية طوال القرن الثامن عشر بأرباح هذه الجمارك الأربعة فيما عدا بضع سنوات قليلة ، عندما أنفرد على بك الكبير بحكم مصر (١٧٦٨-١٧٧٣م) حاول القضاء على بعض عيوب تطبيق الالتزام على الجمارك . ولكن بعد وفاته عادت عيوب تطبيق نظام الإلتزام تطل برأسها ، وفى عهد محمد بك أبوالذهب[٤] .

وفى أواخر القرن الثامن عشر ، إستولى مراد بك وابراهيم بك على مقاليد الأمور فى مصر، واقتسما دخول كل الجمارك فيما بينهما بالتساوى فيما عدا جمرك القصير فقد ترك لبكوات الصعيد[٥] .

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص٢٧٠ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ ، ص١٧٢ .

(٣) سجلات الروزنامة ، دفاتر الجمارك أرقام ٤٢٤٢ ، ٤٢٤٣ ، ٤٢٤٤ ، لسنوات ١١٨٦هـ، ١٧٧٢م ، ١٧٨٦هـ /١٧٧٢م ١١٨٧هـ/١٧٧٣م .

(٤) سجلات الروزنامة ، المرجع السابق .

(٥) على مبارك، الخطط التوفيقية ، جـ٧ ، ص١٥٦ .

ولقد إحتفظ مراد بك لنفسه بديوان القاهرة المكون من مكتبى مصر العتيقة وبولاق ، وكذلك بجمارك دمياط ورشيد والاسكندرية ، ولم يحتفظ ابراهيم بك إلا بجمرك السويس[١] وأتضح أن جمرك دمياط كان ألتزاماً لابراهيم بك فى عام ١١٩٣هـ[٢] وأستمر ذلك الوضع إلى عام ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م وفيه أعيد التزام الجمارك إلى الانكشارية[٣] .

وكان الملتزم العام أو المدير العام لجمارك مراد بك يختار ويضع تحت امرته ، مأمور الجمارك الرئيسية لمكاتب بولاق ورشيد والاسكندرية ، وكان كل من هؤلاء يرأس عددا من الموظفين يتناسب مع حجم السلع التى تصل إلى كل من هذه الأماكن والتى تتحتم المرور عليها من هناك .

وبالنسبة لعدد العاملين بجمرك الاسكندرية ، فقد كان كثيرو العدد ، ويرجع ذلك لضخامة العمل فيه ، ويليه مباشرة دمياط ثم رشيد : حيث كان بجمرك الاسكندرية اثنا عشر كاتبا وستون مرؤساً ، ودمياط ثمانية كتبه وخمسون مرؤساًورشيد ثلاثة كتبة وعشرون مرؤساً [٤].

أما رواتبهم فكانت على النحو التالى :

مرتب المأمور العام لجمرك الاسكندرية يحصل

سنويا على ٤٠٠٠ ريالا[٥] بوطاقة .

مرتب المأمور العام لجمرك دمياط يحصل سنويا على ٤٠٠٠ ريالا بوطاقة .

مرتب المأمور العام لجمرك رشيد ، يحصل سنويا على ٤٠٠٠ ريالا بوطاقة .

من الملاحظ هنا أن مرتب مأمور الاسكندرية يتساوى مع مرتب مأمور دمياط ، علماً بأن العمل فى جمرك الاسكندرية مضاعف ، ويرجع ذلك إلى أهميتها فى التصدير والاستيراد .

---

(١) ب.س جيرار ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر جـ١ ، ص٣٥٢-٣٥٤ .

(٢) دفتر أصول مال اسكلهات ومقاطعات ، رقم ١١٣ ، عين ٥٤ ، مخزن تركى (٢) مسلسل رقم ٤٢٥١ .

(٣) ليلى عبد اللطيف ،المرجع السابق ، ص١٨٨ .

(٤)ب . س جيرار ، المرجع السابق ، جـ ، ص ٣٥٤ .

(٥) الريال ، اللفظ مقتبس من Royal بمعنى ملكى ، وقد كان الاسبان أول من تداولوا هذا النقد فى الاسواق التجارية ، وهو عبارة عن النقد الفضى المسمى (بيزو) وأطلق الريال فى العالم العربى منذ القرن السابع عشر الميلادى على نقود فضية كبيرة . فرنسية ، وأسبانية وهولندية وألمانية ونمساوية . (أنظر عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص٥٨٧) .

ويحصل الكاتب على ٦٠ - ٣٠٠ بارة فى اليوم ، ويصل راتبه السنوى إلى ٧٣٠ ريالا بوطاقة ، ويحصل كل الموظفين المرؤسين عادة على ٤٥ بارة فى اليوم أى ١٨٢ بوطاقة فى العام .

ولم يكن مأمورا الجمارك أو أى تابعيهم يحصلون على مكافآت عن الحصيلة التى يجمعونها ، ومع ذلك فلم يكن من النادر أن يحصلوا على بعض الهدايا البسيطة من جانب التجار ، أما بالنسبة للملتزم فانه بالإضافة إلى الديون المستحقة له ، والتى تضيع عليه ، وهو أمر يحدث له بصفة دائمة ، وبالإضافة كذلك إلى بعض الترتيبات والتسويات الخصوصية، والتى تتم بين المتعاملين مع الجمارك ، وبين مأمورى هذه الجمارك ، فقد كان يقوم بنفسه من وقت لآخر بتقديم هدايا تتفاوت قيمتها إلى مراد بك وإلى المقربين اليه[١] .

وكان لابد أن يفيد هذا الملتزم فى كل الأحوال بين كل المنافع التى تنتج عن ذلك ، ومع هذا فحين تصل هذه المنافع إلى مبالغ ، مبالغ فيها يفوق ماهو معتد من هذا الأمور يتعرض الملتزم لمظلمة تتنزع عنه إما حقق من كسب ، وبهذه الطريقة حطم مراد كثيرا من رجال جماركه واحدا بعد الآخر[٢] .

وكان الملتزم العام للجمارك يدفع إلى مراد بك نحو٠٠٠ر٢١ بوطاقة فى الشهر ، وبذلك يبلغ جملة مايدفعه فى العام ٠٠٠ر٢٥٢ بوطاقة .

وبالنسبة للمصاريف التى كان على الملتزم أن ينفقها هى :

حوالى	٠٠٠ر١٢٤ بوطاقة
ثمن التزامه	٠٠٠ر٢٥٢ بوطاقة
مجموعة المصاريف	٠٠٠ر٣٧٦
فى حين تبلغ حصيلة الرسوم	٠٠٠ر٤٨٠
	٠٠٠ر١٠٤

(١) جيرار ، المرجع السابق ، ص٣٥٥ .

(٢) على مبارك ، المرجع السابق ، جـ٧ ، ص١٥٧ .

ويعتبر هذا المبلغ شديد الضخامة لدرجة أكبر مما ينبغى الأمر الذى يثير لعاب جشع البكوات ونهمهم ، فيجاب الكثير من المغارم والمظالم التى كانت تضيع على الملتزمين العاملين للجمارك[١] .

وكانت كل الرسوم التى تحصل عن مختلف السلع الواردة إلى مصر تنظم تبعا لتعريفات لم تتناولها سوى تعديلات طفيفة منذ وضعها ، ومع ذلك فقد كان البن الذى يصل عن طريق السويس مثقلا برسوم كانت ترتفع بصفة مستمرة حتى بلغت ٢٢ بوطاقة من الفردة الواحدة .

وكانت الرسوم التى تحصل فى جمرك السويس تبلغ فى السنة الاعتيادية وتبعاً للأحوال ٤٠٩,٣٦٥١ بوطاقات أى أنها كانت تعادل حصيلة الجمارك الأربعة فى القاهرة ودمياط ورشيد والاسكندرية . فى حين كانت مصاريف التحصيل (فى جمرك السويس) أقل منها بكثير (منها فى هذه الجمارك) وهذا مايفسر لماذا إكتفى إبراهيم بك وهو الذى كان يقتسم السلطة مع مراد بك بعائد جمرك السويس وحده تاركا لزميله عوائد الجمارك الأخرى[٢] .

وكانت هناك ظاهرة تكررت ، وهى أنه كلما إحتاج هذا الأميران المملوكيان إلى أموال وفيرة تصل قيمتها فى كل مرة إلى خمسمائة ألف بارة ، كانا يستدعيان ملتزم الجمارك لتقديم المبلغ ، فلا يتردد الملتزم فى أداء ما يطلبان ، وارتاح الملتزم إلى أمثال فى رفع الرسوم الجمركية بصورة غير رسمية تعويضاً له عن المبالغ التى دفعها . وهكذا كان الملتزم لايتقيد بالتعريفه الجمركية . وكان يفرض ما شاء له جشعه من رسوم إضافية لاتغطى المبالغ التى يدفعها للأمراء المماليك فحسب ، بل لتحقق له مزيداً من الأرباح . وعلى هذا النحو تلاقت أو التحقت مصالح ملتزمى الجمارك مع مصالح الأمراء المماليك ، وقد شخصوا بأبصارهم إلى الرسوم الجمركيه باعتبارها مورد مالى لاينضب معينه وقد إرتفعت أصوات التجار بالشكاوى من تصرفات ملتزمى الجمارك ، وتظاهر مراد بك برغبته فى القضاء على عيوب نظام إلتزام الجمارك وقرر أن ينفرد هو دون سواه بالإشراف على الجمارك وإزداد الموقف تدهوراً ، اذ لم يكن هدفه الاصلاح وإنما الاستيلاء على حصيلة الرسوم الجمركية ، دون أن يشاركه فيها زميله فى الحكم المملوكى إبراهيم بك[٣] .

---

(١) جيرار ، المرجع السابق ، ص٣٥٥ .

(٢) جيرار ، المرجع السابق ، ص٣٥٦ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٧٤ .

ونتيجة للتدهور قامت بعض الدول الأوروبيه مثل فرنسا وانجلترا لحسم الموقف مع مراد بك وإبراهيم بك ، وعقد إتفاقيات لأجل هذا الغرض فعقدت فرنسا مع مصر ثلاث معاهدات فى يناير عام ١٧٨٥م ، الأولى مع مراد بك ، وفيها تعهد بصيانة التجارة الفرنسية عند مرورها بمصر ، وحدد الضرائب على متاجر الهند بمقدار ٢٪ للوالى فى مصر ، ٤٪ للبيك الحاكم ، ٣٪ فقط إذا كانت هذه المتاجر مصدرة لفرنسا ، وتعهد . يوسف بعدم زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية ، وتحصيل ٥ر٪ من قيمة المتاجر المفرغة إلى السويس ، وكانت المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ الأعراب وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان فى طريق القاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل(١) .

على أية حال فقد كان لهذه المعاهدات رد فعل مهم ، فلما علمت الحكومة الانجليزية بعقد هذه المعاهدات ، وبدأت تهتم بالمخططات الفرنسية بمصر . وتفاوضت عن طريق قنصلها بمصر مع البكوات المماليك لابرام معاهدةتجعل الرعايا الإنجليز على قدم المساواة مع الفرنسيين . وعقدت معاهدة مع مراد بك وإبراهيم بك على نمط المعاهدة الفرنسية . ولكنها لم تهتم بالمعاهدة لانشغالها بقيام الثورة فى فرنسا(٢) .

هكذا سلطت الدراسة الأضواء على نظام الجمارك فى مصر العثمانية وإدارتها . والعناصر المشتركة فى إدارتها ، ونظام التفتيش الدقيق الذى كان يطبق فيها ، والمراقبة المحكمة من جانب هذه الأجهزة والرسوم الجمركية المختلفة التى كانت تفرض على الأشخاص والبضائع التى اختلفت رسومها أما بالنسبة المئوية أو بالقطعة وغير ذلك .

وأبرزت الدراسة الوظائف التى كانت موجودة والنقود المستخدمة وتم شرحها من واقع المراجع المتخصصة . ونظراً للأحداث السياسية التى شهدتها مصر خلال القرن الثامن عشر ، فقد لوحظ أن هذا أدى إلى تذبذب الدخل فى تلك السنوات .

وبالنسبة لإيراد جمرك الاسكندرية ورشيد ، فنجد أن إيراده ظل ثابتا فى القرن الثامن عشر ، فقد كان إيراده الإجمالى هو ٥٠٧ر٥٠٤ر٥ بارة فى السنة . بخصم منه مصاريف ثابتة

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٩٢ .

(٢) عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص٩٣ .

هى ١٫٢٢٥٫٤٥٦ بارة تنفق على الحرمين الشريفين ، ومسموح علماء ، ونفقات قلاع .. الخ فأصبح المبلغ الصافى هو ٤٫١٧٤٫٩٤٥ بارة ، وهو نصيب الملتزم[١] .

وإبتداء من عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م إنخفض هذا الإيراد فأصبح ٥٫٤٠٤٫٦٦٨ بارة يخصم منه مصاريف ثابتة هى ١٫٢٢٥٫٤٥٦ بارة ، فيصبح الصافى ٤٫٢٧٩٫٢١٢ بارة[٢] وظل هذا المبلغ ثابتا إلى عام ١١٨١هـ/١٧٦٧م ، أصبحت النفقات التى تخصم هى ١٫١٨٣٫٥٦٠ بارة[٣] وفى عام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م ، وأصبح قيمة المبلغ الذى يخصم هو ١٫٢٠٢٫٤٩٥ بارة[٤] وظل ذلك حتى عام ١١٨١هـ/١٧٧٥م ، فأصبح الخصم هو ١٫٢٥٫٦٧١ بارة[٥] وإستمر ذلك حتى عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م ، فأصبحت قيمة الخصم ١٫١٢١٥٫٦٧١ بارة[٦] وإستمر ذلك حتى عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م[٧] .

ولم أعثر على السجلات الخاصة بالفترة من ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م حتى عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م ، وقد حاول المسئول بالدار القومية العثور على هذه السجلات ولكن دون جدوى حيث أن الدار تنقل سجلاتها إلى دار الكتب المصرية ، على الرغم من أننى قد اطلعت عليها فى فترات سابقة .

وتشمل حصيلة الرسوم تعريف مراكب ومال سنوى ومال ميرى ومستحفظان وموجب ريس بوغاز ، وموجب قبانى رشيد .

أما إيراد جمرك دمياط خلال القرن الثامن عشر ، فكانت حتى عام ١٢١هـ/١٧٠٩م تصل إلى مبلغ ١٫٢٤٤٫٢١٠ بارة ويخصم منه ٢٩٩٫٤٠٨٫٠ بارة فيصبح الصافى ٩٤٥٫٨٠٢٫٠ بارة وأوجه الصرف الثابتة تتمثل فى مصاريف قلاع والأموال المخصصة للحرمين

(١) دفاتر الالتزام ، الخاصة بالجمارك .

(٢) دفتر أصول مال اسكلهات ومقاطعات اسكلة اسكندرية ورشيد وتوابعها رقم الحفظ النوعى ٢٩٤ ، عين ٥٤ مخزن ١ تركى ، مسلسل رقم ٤٢٢٤ عام ١١٧٧هـ/٧٦٣م .

(٣) دفاتر مسلسل ٤٢١٧ ، ٤٢٣١ ، سنوات ١١٨٠هـ/١٧٦٦م ، ١١٨١هـ/١٧٦٧م .

(٤) دفتر مسلسل رقم ٤٢٣٦ ، عام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م .

(٥) دفتر مسلسل رقم ٤٢٤٣ عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م .

(٦) دفتر رقم ٤٢٥٢ عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م .

(٧) دفتر رقم ٢٤٦٢ ، عام ١٧٨٣م .

الشريفين والمرتبات التى تدفع للعلماء والمشايخ ، واللحم الضانى ومرتبات القلاع[١] ومنذ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م ، زاد الإيراد فأصبح ٤٩٦ر٢٩٦ر١ بارة وإزدادت معه قيمة خصم المصروفات فأصبح ٣٠٨ر٣٥٩ر. بارة فأصبح الصافى ٨٨ر٩٣٧ر. بارة[٢] وأصبح منذ عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م مبلغ ٤٩٦ر٤٤٦ر١ بارة ، وإزداد معه قيمة الخصم فأصبح ٠٨٨ر١٨٧ر١ بارة . الصافى ٤٠٨ر٣٦٩ر. بارة[٣] وإنخفض فى عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م إلى ٤٩٠ر٤٤٦ر١ بارة وترتب على ذلك تخفيض قيمة المصاريف إلى ٩٨٢ر٢١٩ر. بارة فصار الصافى ٥٠٨ر٢٢٥ر. بارة[٤] وإزداد عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م إلى ٣٥٦ر٥٠٤ر١ بارة ، يخصم منه ٥٨٢ر ٢٢٦ر. بارة فيصبح الصافى ٧٦٤ر٣٧ر١ باوة[٥] ، وإبتداء من عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م ، إرتفع الإيراد إلى ٥٣٠ر٥٦٤ر١ بارة يخصم منه ١٥٤ر٢١٩ر. بارة فيصبح الصافى ٣٧٦ر٣٤٥ر١ بارة[٦] وفى عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م . أصبحت قيمة خصوماته ٦٦٢ر٢٢٨ر. فاصبحت قيمته الصافية مبلغ ٨٦٨ر١٣٥ر١ بارة[٧] .

وإبتداء من عام ١١٩٤هـ/١٧٨٠م أصبحت قيمة الخصومات هى ٠٤٧ر٢١١ر. بارة فأصبح الصافى ٤٨٣ر٣٥٣ر١ بارة وإستمر ذلك حتى عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م[٨] .

أما جمرك البرلس فكان إيراده حتى عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م هو ٢٨٨ر١٤٥ر١ بارة يخصم منه ٤٠٨ر٢٩٩ر. فيصبح الصافى ٨٨٠ر٩٤٦ر. بارة[٩] ومنذ عام ١١٢٤هـ/١٧١٢م قل إيراده إلي ٨١٨ر١١٧ر بارة يخصم منه ٥٨٣ر٩٧٥ر. بارة فيصبح الصافى ٢٣٥ر٢٠ر.

---

(١) دفتر رقم ١٤٧١ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م .

(٢) دفتر رقم ٤١٧٢ عام ١١٢٣هـ/١٧١١م .

(٣) دفتر رقم ٤١٨٢ ، عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م .

(٤) دفتر رقم ٤٢٠٢ عام ١١٥٤هـ/١٧٤١م .

(٥) دفتر رقم ٤٢٠٥ ، عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م .

(٦) دفتر رقم ٤٢٢٥ ، عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م .

(٧) دفتر رقم ٤٢٥٩ ، عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م .

(٨) دفتر رقم ٤٢٩٠ ، عام ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م .

(٩) دفتر رقم ٤١٧٢ عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م .

بارة[١] ، وظل ذلك ثابتا حتى عام ١٢٩هـ/١٧٦م ، فأصبح إيراده ٣٥٧٥ر٤٠٥ر١ يخصم منه ٧٥٨ر٩٠٠ر فأصبح صافي ايراده ٧٧٦ر١٦٠٤ بارة [٢] وإنخفض الإيراد مرة أخرى عام ١١٥٩هـ/١٧٤٦م إلى ٨١٨ر١١٧ر٠ بارة يخصم ٥٨٣ر٩٧٥ر٠ بارة فأصبح الصافي ٩٧٨٥ بارة [٣] وإزداد منذ عام ١١٦٣/١٧٤٩م ، إلى ٥٣١ر١٢٢ر٠ بارة يخصم من ٥٨٠ر٩٧٥ر٠ بارة فيصبح الصافي ٩٥١ر٢٤ بارة[٤] ، ومنذ عام ١١٧٣هـ/١٧٥٩م أصبح الإيراد ١٤١ر٤١٢ر٠ ويخصم منه ٥٨ر٩٧٠ر فيكون الصافي ٥٦١ر٣١٤ر٠ بارة [٥] واستمر ذلك حتى عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م ، فأصبح إيراده٤٦٦ر١٨٦ر٠ بارة يخصم منه ٢٥٢ر٢٧٠ر بارة فيصبح الصافي ٢١٤ر١٣٩ر بارة[٦] .

وإبتدآد من عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م ، وإزداد الإيراد إلى ٩٦٦ر٢٤٨ر٠ بارة يخصم منه ٢٥٢ر٥٧٠ر بارة فيصبح الإيراد ٧١٤ر١٩١ر٠ بارة[٧] وفي عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م إزداد الإيراد إلى ٩٦٦ر٢٧٣ر٠ بارة يخصم من ٥٢٥ر٥٧٠ر بارة فيصبح الصافي ٧١٤ر٢١٦ر٠ بارة [٨] . وظل ذلك ثابتا إلى أن إنتهى به الأمر وضم إلى جمرك دمياط .

---

(١) دفتر قيد رقم ٤١٧٣ عام ١٧١٢م .

(٢) دفتر رقم ٤١٧٨ عام ١١٢٩هـ/١٧١٦م .

(٣) دفتر رقم ٤٢٠٣ عام ١٥٩هـ/١٧٤٦م .

(٤) دفتر رقم ٤٢١٢ عام ١١٦٣هـ/١٧٤٩م .

(٥) دفتر رقم ٤٢٢٥ عام ١١٧٣هـ/١٧٥٩م .

(٦) دفتر رقم ٤٢٤٦ عام ١١٨٨هـ/١٧٧٤م .

(٧) دفتر رقم ٤٢٤٩ عام ١٩٩٠هـ/١٧٧٦م .

(٨) دفتر رقم ٤٢٥٣ عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م .

الفصل السادس

التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر

أولاً : الحياة العلمية فى العصر العثمانى :

أصبحت مصر مركزاً للنشاط العلمى فى عصر المماليك ، ويرجع ذلك لإحيائهم الخلافة العباسية فى القاهرة ، بالإضافة إلى أن السلاطين المماليك أنفسهم كانوا يشجعون العلم والعلماء ، واشتهر فى عهدهم بعض العلماء والمؤرخين أمثال محى الدين بن عبد الظاهر ، وابن خلكان وجمال الدين بن واصل (١).

كذلك حرص السلطان قانصوه الغورى على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة مرة أو مرتين كل أسبوع . واشتغل بعض أمراء المماليك وأبنائهم فى مصر بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لإقراء الطلبة والتدريس لهم (٢).

وعندما خضعت مصر للحكم العثمانى ، أصدر السلطان سليم مرسومًا عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م ، بعدم التعرض للأوقاف الموقوفة على أوجه الخير ومنها الخاصة بالجوامع والمدارس والتكايا والزوايا والمعابد التى تمت فى عهد السلطان الأشرف الغورى ، والصرف عليها نقداً أو عيناً ونبه على الإدارة العثمانية بضرورة مراعاة ذلك (٣).

كما أمر السلطان سليم أثناء إقامته بمصر بترحيل بعض علماء الأزهر إلى إستانبول ، وكان من بينهم صفوة علماء الفقه ومذاهبه وعلوم القرآن الكريم والحديث والمواريث والافتاء ونواب القضاه على المذاهب الأربعة ، فضلاً عن الصناع المهرة ، وكان ترحيلهم مادة خصبة استند إليها بعض الباحثين للتشهير بالدولة العثمانية (٤).

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٣١ .

(٣) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفاتر رزق القوصية ، مخزن تركى رقم (١) مسلسل رقم ٤٦١٦ ، بتاريخ ٢٤ ربيع آخر عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ ، ص ص ٢٩٠ - ٦٩٦ ؛ حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، ص ص ٣٣ - ٣٥ .

ولاجدال فى أن هذا القرار قد أدى إلى حرمان الأزهر من فريق خيرة علمائه . ولكن هذا الحرمان وقتيًا استمر ثلاثة أعوام . فقد توفى السلطان سليم عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م ، ورأى إبنه السلطان سليمان القانونى ، إعادة جميع المصريين الذين أخرجوا من بلادهم فى عهد والده، ومن ثم أصدر فرمانًا عام ٩٢٧ هـ / ١٥٢١م بهذا المعنى . ولما وجد أن بعض المصريين يتأخرون فى العودة أصدر فرمانًا لاحقًا فى نفس العام أنذر فيه بالشنق لكل من يتباطىء فى العودة إلى بلاده . وعقب ذلك وصل العلماء وغيرهم إلى مصر أفواجًا ، حتى أتخذت عودتهم شكل ظاهرة طرأت على المجتمع المصرى فى ذلك الوقت[١] .

وتميزت الإدارة العثمانية فى مصر بأنها كانت إدارة تقليدية تنحصر وظائفها فى تحقيق الأمن العام والصحة العامة والدفاع عن البلاد . وكانت تترك فيما عدا ذلك من الشئون الإدارية لنشاط الأفراد فلم توجه عناية خاصة لشئون الزراعة أو الصناعة أو الصحة أو التعليم، تلك المهام التى تطلع بها الإدارة الحديثة . وكان هذا نابعًا من فلسفة العثمانيين فى حكم الدولة حتى القرن التاسع عشر ، فقد قامت تلك الفلسفة على أساس أن تتخفف الدولة بقدر ماتستطيع من أعباء الإدارة المباشر فتترك الرعية يديرون شئونهم بأنفسهم ، فإذا إحتاجوا إلى شيء من التعليم التمسوه عند بعض من يحسنونه ، وإذا استبد بهم داء التمسوا له الطب عند بعض العارفين ، والتعليم فى الأزهر والمساجد يسير على مألوف ما أعتاد العلماء والمجاورون من الطلاب[٢] .

واستأنف علماء الأزهر وغيرهم نشاطهم العلمى والفنى ، وقد تكون المدة التى قضوها فى أستانبول وهى ثلاث سنوات ذات أثر على حياة الفرد ولكنها لاتكون بأى حال من الأحوال ذات أثر على مسيرة الأزهر العلمية لأن الشعب المصرى لم يبدأ من فراغ ، وإنما هو ذو ماضى حضارى يطول الزمان وجوداً ، ولما جاء نابليون بونابرت إلى مصر بعد قرابة ثلاثة قرون وجد الأزهر يموج بنشاط علمى كثيف[٣] .

وقد اشتهر بعض باشوات مصر العثمانيين بالعدل وتكريم أهل العلم مثل داود باشا الخادم (٩٤٥ - ٩٥٦هـ / ١٥٣٨ - ١٥٤٩م) فقد كان على درجة كبيرة من العلم ، وقد اهتم

---

(١) محمد بن أياس الحنفى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٥ ، ص ٣٩٧ .

(٢) ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة فى مصر العثمانى ، ص ٤٣ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ١ ، ص ١٨٣ .

بجمع الكتب العربية ونسخ له النساخ كثيراً منها فتكونت لديه مكتبة كبيرة ، كان مواظبًا على الإطلاع فيها ، وعلى باشا الخادم (٩٦٦ - ٩٦٧ هـ / ١٥٥٨ - ١٥٥٩م) ومحمد باشا الصوفى (١٠٢٠ - ١٠٢٤هـ / ١٦١١ - ١٦١٥م) الذى كان محبًا لأهل العلم [١]، وجعفر باشا (١٠٢٨هـ / ١٦١٨م) الذى كانت له اليد الطولى فى غالب العلوم خصوصًا علم التفسير[٢] ، وظهر بعض العلماء مثل ابن سهراب أفندى والذى كان عارفًا بعلم الرمل والزايرجية والروحانى والنجم والميقات والكيمياء إبان تولية عمر باشا (١٠٧٤ - ١٠٧٧هـ / ١٦٦٤ - ١٦٦٧م) ، وعبد الله باشا الكبورلى (١١٤٢ - ١١٤٤هـ / ١٧٢٩-١٧٣١م) الذى كان ميالاً للأدب ، وأحمد باشا كور (١١٦٢ - ١١٦٣هـ / ١٧٤٨ - ١٧٤٩م) ومحمد باشا ملك (١١٩٥ - ١١٩٦ هـ / ١٧٨٠ - ١٧٨١م) وكان من أفاضل العلماء ، متضلعًا فى سائر الفنون ويحب المذاكرة والمباحثة والمسامرة وأخبار التواريخ وحكايات الصالحين وكلام القوم[٣] .

بالإضافة على ذلك فقد ظهر بعض العلماء الذين تفوقوا فى بعض العلوم مثل الشيخ حسن الجبرتى الذى تخصص فى دراسة الفلك ، وميقات وزايرجية ، ودروس الرياضة والهندسة والجبر والمساحة والجغرافيا وحل الرموز [٤].

أما العلوم الرياضية . فكان الإقبال عليها قليلاً ، فى حين كان الإقبال على العلوم الدينية له الغلبة ، وهذا يرجع إلى قانون العرض والطلب ، فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيراً . فقد كانت الوظائف المعروفة فى ذلك الوقت وظائف دينية كالمؤذن والإمام والخطيب ، والمأذون والشاهد ، والقاضى ونائبه ، المفتى والمحتسب والمدرس . وكان لوجود المذاهب دخل فى هذه الكثرة التى وزعت على كل مذهب ، وكان رجل الدين يكتسب احترامه فى ذلك الوقت من الحكومة والشعب [٥].

---

(١) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب فيمن تولى مصر من الملوك والنواب ، تحقيق ابراهيم يونس ، رسالة ماجستير غير منشورة ص ١٦٥ .

(٢) محمد سيد الكيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ١١ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ص ١٦٣ .

(٤) توفيق الطويل ، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، ٣١ .

(٥) محمد سيد الكيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

وكانت مهنة الطب والجراحة فى أيدى الحلاقين والمشايخ الذين تخصصوا فى إعطاء العلاج لبعض الأمراض عن طريق عمل الأحجبة والتمائم ضد الأمراض ، ولم يكن شائعًا أن نجد قاضيًا أو عالمًا على رأس رابطة أطباء أو رجال الدين يمارسون الطب . وكان الطب فى تلم الآونة يعتبر تجارة أكثر منه علمًا من وجهة النظر الأكاديمية ، ولم يلق الاهتمام الكافى[١] . وكان اليهود أكثر إقبالاً على الاشتغال بالطب من المسلمين[٢] وأيضًا بعض الأقباط ولاسيما الرهبان[٣] .

وبالرغم من ذلك كله فقد وجد فى القاهرة خلال هذه الفترة مدرسة للطب فى المارستان المنصورى الذى استخدم كمستشفيات عادية وللأمراض العقلية [٤].

وقد انحطت علوم الصيدلة ، وخاصة بالنسبة للعقاقير المستخدمة فى هذا العصر ، كان ينقصها التكوين الطبى ، وكانت تصنع من النباتات فى أغلب الأحيان ، ومن تلك زيت اللوز المر[٥] .

ثانيًا : مراحل التعليم :

وتشمل مراحل التعليم المختلفة فى تلك الفترة ، فالمرحلة التعليمية الأولى وتشمل الكُتّاب[٦] سواء بالنسبة للمسلمين والأقباط واليهود ، والمواد التى تدرس فى كل منهم ،

---

(١) G. El Din Shayyal, Some Aspects of Intellecuall and Socia life in Eghteenth Century in Egypt; p. 199, Lane Pool. Soical life in Egypt, p. 89 .

(٢) أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية ، سجلات محكمة الرسكندرية ، سجل رقم ١١ . مادة ١٤٧١ ، ص ٣٦٦ ، بتاريخ ٨ صفر عام ٩٧٩هـ .

(٣) El Shayyal, op. cit., p. 199 .

(٤) Ibid., p. 120 .

(٥) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ٢ ، ص ٤ .

(٦) والكتاب : موضع تعليم الكتاب أى الكتابة ، ولكن استخدام الكتاب للقراءة والكتابة ولاشىء سواهما ، ولما كان الصبيان هم الذين يتعلمون فى هذا الكتاب وهم الذين يتعلمون فى المعهد الآخر الذى كان مخصصًا لتعليم القرآن والدين ، فقد كان ذلك سببًا فى أن أطلق اسم الكتاب على المعهد الثانى أيضًا ، ثم شاع هذا الإطلاق ، وأصبح اسم الكتاب يطلق على المعهد الذى يتعلم فيه الصبيان أيًا كان الموضوع الذى يعلمونه قرآنًا كان أو قراءة وكتابة . (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة كتب ، جـ٢ ، ص ١٩٢ ، وانظر : أحمد شلبى ، تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٤٨) .

ووجد هذا النوع من الكتاتيب قبل ظهور الإسلام ، ولو أنه كان قليل الانتشار ويقال أن أول من تعلم الكتابة بالعربية من أهل مكة هو سفيان بن أمية ابن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وقد تعلماها من بشر بن عبد الملك الذى تعلمها من الحيرة . والذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية، ويقال حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ، (انظر : أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٢٤).

والمدرسة والمؤسسات التعليمية الأخرى مثل المساجد والربط والتكايا والزوايا والترب ، وتشمل المرحلة الثانية من التعليم ، أما المرحلة الثالثة فهى التعليم العالى .

١ - الكتاب :

والكتاب يقوم مقام مدارس المرحلة الأولى في وقتنا الحاضر ، حيث يبدأ الطفل مرحلة التعليم الأولى ، وقد عرفت مصر نوعين من الكتاب هما ، الكتاتيب الخاصة ، وهى التى يدفع والد الطفل أجرة تعليمه ، والمكاتب العامة ، وهى التى أنشئت بهدف تعليم الإيتام والفقراء ، ويصرف عليها من الأموال الموقوفة وتصرف منها على حسب شروط الواقف [١].

ومنذ قيام الدولة العثمانية ، أن لم يكن قبل ذلك كان النمط الوحيد من التعليم فى البلدان الإسلامية يكاد يقتصر على التعليم الدينى . وكانت مكاتب تحفيظ القرآن هى الأساس العام لكل أنواع التعليم ، سواء أكان مدنيًا أم إداريًا أم فنيًا أم دينيًا . ومن المحتمل أنه لم يوجد إلى جانب هذه المكاتب أى تنظيم اجتماعى آخر ، نجح فيه الروح العالمى للإسلام نجاحًا كاملاً فى فرض التماثل على كافة أرجاء العالم الإسلامى الذى انتشرت فيه موضوعات هذا التعليم الابتدائى وطرائقه التقليدية المتبعة[٢] .

وقد أنشىء فى وقفى أمير الأمراء خاير بك والأمير جانم الحمزاوى مكاتب لتعليم يتامى المسلمين القرآن الكريم ، والعبادات والخط العربى[٣] وقام بعض الولاة بإنشاء بعض المكاتب لنفس الغرض مثل مسيح باشا الخادم (٩٨٢ - ٩٨٨هـ / ١٥٧٥ - ١٥٨٠م)[٤] وأيضًا أبو النور محمد باشا (١٠٦٣ - ١٠٦٦هـ / ١٦٥٣ - ١٦٥٦م)[٥] وقرة محمد باشا (١١٠١ - ١١١٦هـ / ١٦٩٩ - ١٧٠٤م) الذى أنشأ مكتبًا للفقراء يقرؤن فيه القرآن الكريم ، وجعل

---

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص ٩٩ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، حفاظ العثمانيين على التراث الرسلامى ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد ٣١ ، المجلد ٨ ، صيف ١٩٨، ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٣) جميل عرفة منتصر ، دور علماء الأزهر فى مصر العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، ص ١٣٤ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الإسكندرية ١٩٨٣.

(٤) يوسف الملوانى ، تحفة الأحباب بمن تولى مصر من الملوك والنواب ،ص ١٤٦ .

(٥) نفسه .

لهم من الجريات ما يكفيهم[١] ، وكان للأمراء المماليك جهود فى هذا المجال مثل مصطفى جوربجى[٢] مستحفظان ، الذى أنشأ مكتبًا فى عام (١١٦١ هـ / ١٧٠٠م) وعين له فقيه مؤدبًا للأطفال وعريف ليعين ذلك الفقيه ، وخصص له راتبًا شهريًا يصرف من الوقف المخصص له[٣].

ويتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات ، فى نفس الوقت الذى يتدربون فيه على نطقها . وينحصر تعليمهم الأولى فى هذا ويردد التلاميذ بصوت عال ، وهم متجمعون داخل فناء الدروس التى سبق أن تلقوها . وهنا يحدث ضجيج ، وعلى المؤدب أن يكون متعوداً عليه، فكان الأطفال يستذكرون دروسهم بطريقة الغناء[٤] أما الحساب فيتعلمونه فى مرحلة لاحقة ، ويحفظون بعض الآيات القرآنية [٥]وأصبح القرآن نقطة الارتكاز فى هذه الدراسة[٦].

وعندما يحرز الأطفال تقدمًا فى القراءة والكتابة ، يبدأ التعليم بطريقة الإملاء . ولا يكلف المعلون أنفسهم مطلقًا عناء تعليم تلاميذهم لا الصلاة ولا القوانين التى فرضها الرسول ﷺ ، ويلتزم الآباء بتعليم قواعد الشريعة فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الأب دروسه الأولى [٧].

---

(١) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

(٢) جوربجى : أو شوربجى حرفيًا رجال الشوربة أو ممونوا الشوربة وهو المسئول عن طعام الأورطه لأن القوات الإقطاعية لم تكن تقبض رواتب من الدولة ، بل أيضًا لا تلقى منها مؤنتها اليومية . ويبدوأن الألقاب المخلوعة على كثير من رتب سلك الضباط توضع أن المهمة الرسمية لأصحابها هى مواجهة هذه المشكلة قبل كل شيء (انظر : هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، جـ ٢ ، ص ١٧٦) . وكان هذا الاسم يطلق فى الاستعمال العثمانى على ضباط الأنكشارية وعلى مختارى القرى المتقدمين فيها أو بعبارة أخرى على أعيان الجهات (انظر : محمد شفيق غربال ، مصر عند مفترق الطرق ، ص ٢١ ، هامش رقم ١) .

(٣) جميل عرفة منتصر ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٤) H. Dunne, An Introduction to the History of Education, in Modern Egypt, p. 3 .

(٥) ج . دى . شابرول ، دراسات فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، المجلد الأول ترجمة زهير الشايب ، ص ٦١ ، جومار وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ، ترجمة أيمن فؤاد ، ص ٢١٣ ؛ إدوارد لين ، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، ص ٥٦ .

(٦) P.J. Vatikitis, The Modern history of Egypt, p. 22 .

(٧) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

ويكتب الدرس عـادة على ألواح[١] من الخشب المصبوغ بالأبيض ، تمسح بعد كل درس ويكتب عليها الدرس الجديد[٢] ثم يتعلمون بعد ذلك الكتابة بالمداد ، ومما يذكر أن معلم الخط غير معلم القرآن ، علمهم بكتب الأشعار وسواها ، ولايكتبون القرآن فى الألواح تنزيهًا له ، فينصرف الصبى من التعليم إلى التكتب لأن معلم الخط لايعلم غيره[٣] ويجلس جميع التلاميذ مربعى السيقان[٤] .

وبالنسبة لسن الالتحاق فى هذه المرحلة فيتراوح مابين الرابعة أو الخامسة ، فالذى يهمه تعليم طفله يحرص على أن يجعله فى هذا السن أحيانًا يتردد على المكاتب حتى يتعود على شكل الحروف ، ولكى يدركها دون مشقة كبيرة [٥]. وسبب ذلك أن تعليم الصغر أشد رسوخًا وهو أصل لما بعده ، لأن السابق للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال نبى عليه[٦] فإذا بلغ الطفل الحلم صرف من المكتب ليحل محله مستحق آخر[٧] .

أما نظام التغذية فى هذه المكاتب ، فإنه كان يمنع الأطفال من إحضار الطعام معهم إلى المكتب أو إحضار النقود لشراء احتياجاتهم أثناء الدراسة لأن ذلك يؤثر بشكل ضار على نفسية وإحساس الطفل الفقير الذى يعود إلى بيته[٨] ، وأحيانًا يسمح للأمهات أن ترسل وجبات لأطفالهن ، ويقتسم هؤلاء الأطفال طعامهم مع زملائهم المعوزين ، وهذه العادة تنبع عن معتقدات ، فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين ، وكيف تنمو مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادىء الدين [٩].

---

(١) إدوارد لين ، المرجع السابق ، ص ٤٥ - ٥٥ ؛ محمد كامل الفقى ، الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، ص ١٩ .

(٢) إداورد لين ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٣) جومار ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٤) إدوارد لين ، المرجع السابق ، ص ٥٥ ؛ ج . دى شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٠ ؛ Dunne, op. cit., p. 4 .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٩ .

(٦) سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والام ، ص ٣٢٦ ؛ جومار ، المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٧) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

(٨) شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٠ ؛ إدوارد لين ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٩) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

وكان هناك الإشراف الصحى على الأطفال ، فإذا اشتكى أحد أطفال المكتب من مرض أو تعب ، يبلغ فوراً ولى أمره لعلاجه ، وفى نفس الوقت لحماية باقى الأطفال من العدوى[١] .

أما نظام العقاب داخل هذه المكاتب ، فقد وجدت العقوبات فيها ، وأصبحت عصا المعلم شيئًا لايخلوا منها كتاب قط ، وشاعت عنها عبارة عصا المعلم من الجنة ، ومن أجل هذا كان المؤدب يستطيع أن يضرب الطفل أكثر مما يستطيع أقرب الناس إليه ، وكانت الأم تقبل أن يضرب المؤدب أبنها ، ولكنها تتدخل فى حالة إن ضرب والده له ، وذلك لأن عصا المعلم من الجنة ، ولكن عصوات الآخرين ليست كذلك[٢] .

وأبيحت العقوبات البدنية للصبيان الذين تجاوزوا العاشرة من أعمارهم ولم يبلغوا الشباب، فلايجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة ، ولا ضرب الذين تقدمت أعمارهم . ولايستطيع المؤدب أن يلجأ إلى العقوبة البدنية إلا عند الضرورة القصوى ، ويجب عليه ألا يكثر استعمالها ، وإذا استعملها فيجب ألا يكون منشقًا قاسيًا ، بل مؤدبًا رحيمًا ، ويكون الضرب بالدرة على أن تكون رطبة مأمونة ولايضرب على الرأس ولا على الوجه ، بل يضرب على الأفخاذ وأسافل الرجلين لأن هذه المواضع لايخشى منها مرض ولا غائلة[٣] .

أما عن نظام المكافآت للطفل نظير تفوقه فى مسابقة تسمى جائزة ، ومنها ما يستحقه نظير تفوقه بدون مسابقة ويسمى مكافأة ، وإن كان أغلب الكتاب يتحررون مع ملاحظة وجه الخلاف بين اللفظين فيصفون كلاً منها فى موضع الآخر فى كثير من الأحاين ، وكثيراً ما كان مؤسسوها يجعلون لها حصيلة خاصة فى أوقافهم [٤].

وإذا تم التلميذ المرحلة الأولى وهى حفظ القرآن الكريم ، احتفل به احتفالاً كبيراً يسمى "الاصرافة " فتزين أرض المكتب وحيطانه وسقوفه بالحرير ويقوم أهل الطفل بزينته بقلائد الذهب والعنبر ، ثم يركبونه على فرس أو بغلة مزينة ويحملون أمامه أطباقًا فيها ثياب من حرير وعمائم ، على حين مشى بين يديه بقية الصبيان ينشدون طوال الطريق حتي يوصلوه إلى

---

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠ ؛ عبد الحليم منتصر ، دور العرب فى تقدم العلم ، ص٦٣.

(٣) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤ .

(٤) نفسه ، ص ٢٧٥ .

بيته ، وعند البيت يدخل المؤدب ويعطى اللوح لأهل صاحب الأصرافة وعليهم تقديم هدية قد تكون عينية فى شكل ملابس وهى عبارة عن عمامة وقفطان وزوج من الأحذية ، أو مالية وهذا على حسب مقدرة الوالد المالية [١].

ويجب ملاحظة أن أمر إهداء المؤدب هدية يصبح فى حكم العرف سائر المواسم والأعياد شرط أن تكون هبة من أهل الصبى غير إجبارية ، له بشرط ألا تؤثر على نوعية المعاملة التى يلقاها الصبية من المؤدب ، فإن من حقهم جميعًا على مؤدبهم أن يعدل بينهم فى التعليم والمعاملة ، ولا يفضل أحد منهم على الآخر بغض النظر عما يقدمه البعض من الهدايا وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة سواء من كان منهم غنيًا أو فقيراً[٢] .

أما نظام الكتاتيب عند الأقباط فإنه يختلف عما عند المسلمين ، فأولاً يتعلم الأطفال الدين والسلوكيات الطيبة والقراءة والكتابة باللغة القبطية ، ويتعلمونها عن طريق الأغانى ثم بعد ذلك مزامير داود[٣]، ورسائل الرسل باللغة العربية ثم الأناجيل باللغة القبطية[٤] ، ويتعلمون أيضًا الحساب وقياس الأراضى[٥] ، أو الإشراف على بعض الصناعات التى كانت منتشرة خلال هذه الفترة [٦].

وكانت هذه المكاتب محاطة بجو من السرية ، فكانتوا يقيمونها فى الأحياء البعيدة أو فى جوف المنازل[٧] . واكتسب مكاتبهم شهرة خاصة فى تعلمهم الحساب ويبد أن تلك الشهرة قد أقنعت بعض المسلمين بتفوق الأقباط فى علم الحساب ، فأخرجوا أولادهم من مكاتب المسلمين

---

(١) إدوارد لين ، المرجع السابق ، ص ٢٦ ؛ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ؛ Dunne, op. cit., p. 36 .

(٢) عبد الغنى محمود عبد المعطى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عهد محمد على ، ص ٦٦٨ ؛ كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر ، تعريب محمود مسعود ، جـ٢ ، ص ٢٠٦ ؛ دى شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٤) إدوارد لين ، المرجع السابق ، ص ٤٥٢ .

(٥) أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٦٦٨ .

(٦) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٩ ، ص ٨٧ .

(٧) أحمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٦٦٨ ؛ . Dunne, op. cit., p. 185

وأرسلوهم إلى تلك الكتاتيب لكى يتعلموا الحساب ، وعرف أغنياء المسيحيين نوعًا من التعليم المنزلى لأطفالهم [١].

وإذا كان بعض المسلمين قد ألحقوا أبنائهم بالمكاتب القبطية ، فإن طلاب العلم من غير المسلمين قد ألحقوا فى مسجد قرطبة ، وكانوا يفدون من شتى بلاد أوروبا وخاصة من روما للدراسة هناك . وقد وصل أحدهم إلى كرسى البابوية ، وكذلك يقال عن الجامع الأزهر ، فإلى يومنا هذا يحضر الكثيرون من غير المسلمين الدروس فيه إلى جانب الألوف من المسلمين الذين نهلون العلم من موارده التى لاتنضب[٢] .

أما بالنسبة لتعليم الأطفال عند اليهود فلم يكن لهم نظام ثابت بسبب وجود ليهود فى الشتات ، وكان التعليم يبدأ لديهم بشكل عام بتعليم أطفالهم فى المنازل تعليمًا خاصًا ، أو فى مدرسة أعدت لغرض التعليم الأولى[٣] .

ولم يكن هناك معلومات كافية لأن اليهود كانوا يعيشون فى حى خاص بهم فى القاهرة[٥].

ولذلك كان التعليم عندهم ينصب أساسًا على تعلم أطفالهم القراءة والكتابة وبعض الأدعية والصلوات التى كانوا يتلونها فى صلوات السبت والمناسبات الدينية ، ويطلب من المؤدب تعليم الأطفال القراءة فى النواحى الأربع للورقة رغبة فى الاقتصاد وبسبب ارتفاع أثمان الكتب وأجور النساخين ، وكان ذلك فى مكاتبهم الخاصة والتدريس يتم باللغة الإيطالية والعبرية والفرنسية بالإضافة إلى مبادىء الحساب والجغرافيا [٥].

أما المتقدمين فى السن من اليهود فيتعلمون التلمود مرة كل أسبوع أما من الالتحاق بهذه الكتاتيب فكانت تتراوح بين ثلاث سنوات وست سنوات [٦].

---

(١) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة في مصر فى العصور الوسطى ، ص ١٤٢ .

(٢) حسين مؤنس ، المساجد ، ص ١٧١ .

(٣) قاسم عبد قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٤) Dunne, op. cit., p. 91 .

(٥) محمود الشال ، تاريخ مدارس الطوائف الدينية ومدارس الجاليات الأجنبية فى مدينة الإسكندرية فى القرن التاسع عشر ، ص ٨٥ ، رسالة ماجستير غير منشورة .

(٦) إلياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل ، ص ٢١٥ .

أما طريقة شرح الدروس فكان المؤدب يشير إلى الحروف بعصا من الخشب فيتبعه على الأثر له رنين ونغم فى الوقت الذى يهز فيه التلاميذ رؤسهم إلى الخلف والأمام دون انقطاع[١].

٢ - المدارس :

كانت المدارس هى المرحلة التالية للتعليم الأولى ، ولذلك كانت المدرسة فى مصر القديمة تتألف من قاعة ذات أفنية وبهو وأعمدة ويستقر فيها تمثال رب الآداب والعلوم ومقاعد للأساتذة وصناديق للكتب تتكون منها مكتبة وهى تشهد بفخامة الدور الحكومية التى كثيراً ما منى المدرسون تلاميذهم الصغار بالالتحاق بها [٢].

أما فى العصر الإسلامى ، فيعتبر عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦م حداً فاصلاً فيما يختص بأمكنة التعليم عند المسلمين ففى هذا العام افتتحت فى بغداد أول مدرسة من مجموعة المدارس الكثيرة المنظمة التى أنشأها الوزير السلجوقى نظام الملك ، وقد انتشرت هذه المدارس فى العالم الإسلامى حتى شملت البلدان والقرى الصغيرة ، بالإضافة إلى المدارس الكبرى فى عواصم الأقاليم ، ثم اقتدى بنظام الملك كثير من الملوك والعظماء[٣] .

ولم تكن فى مصر مدارس فى عهد الطولونيين والأخشيديين ، فكانت الدروس تلقى فى قصور الأمراء والوزراء وفى منازل العلماء [٤].

أما فى الدولة الفاطمية فسارت على أن يعقدوا مجالس علمية صاخبة من حين إلى آخر ، وقوام هذه المجالس أساتذة دار الحكمة الذين كانوا ينقسمون إلى جماعات تبعًا لمواد دراستهم وتخصصهم ، فكان يجتمع هنا أساتذة المنطق والجدل ، وهناك الفقهاء والمحدثون ، وفى مكان ثالث علماء الرياضة ، ويشغل الأطباء مكانًا رابعًا وهكذا[٥] .

وفى الدولة الأيوبية أنشئت الكثير من المدارس مثل المدرسة الناصرية[٦] لتدريس الفقه الشافعى ، والصلاحية التى بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب وكانت المدارس الصلاحية

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، بناء دولة مصر محمد على ، السياسة الداخلية ، ص ٢٨٧ .

(٢) أحمد شلبى ، تاريخ التربية فى الإسلام ، ص ٤٣ .

(٣) نفسه ، ص ٩٣ ؛ عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ص ٥٤ .

(٤) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

(٥) نفسه ، ص ٩٤ .

(٦) تقى الدين المقريزى ، الخطط المقريزية ، جـ ٢ ، ص ٣٦٢ .

المجاورة لضريح الإمام الشافعي[١] ولعبت هذه المدرسة دوراً هامًا فى خدمة الفكر الإسلامى[٢] والقمحية[٣] لتدريس الفقه الملكى وسميت بهذا الاسم ، لأنها كانت توزع على مدرسيها ومعيدها وطلبتها قمحًا ، والمدرسة السيوفية[٤] لتدريس الفقه الحنفى ، أما نظام التخصص الدقيق ، فقد أختصت كل مجموعة معينة بتدريس مذهب معين من المذاهب[٥] .

وكان المماليك يكثرون من إنشاء المدارس ، ويرجع ذلك إلى حرصهم على الظهور فى صورة حماة العقيدة الإسلامية السنية ؛ العاملين على نشرها وذلك لينسى لهم رعاياهم ماضيهم الذى ارتبط بالرق ، فضلاً عن اغتصاربهم الحكم من بنى أيوب وأرادوا أيضًا أن يظهروا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية ولاسيما بعد انتهاء الأخطار الكبرى الخارجية والتى تمثلت فى الصليبيين والمغول . وليتخذوا من المدرسة أداة تضمن بقاء الحكم فى أيديهم وتساعدهم عى تدعيم مركزهم فى أعين الشعب . بالإضافة إلى ذلك ماقام به السلطان الظاهر بيبرس من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ؛ مما أكسب المماليك مركز الزعامة الروحية فضلاً عن زعامتها السياسية فى العالم الإسلامى[٦].

وكانت نتيجة تحكم مصر فى مسارات تجارة العصور الوسطى ، وحصولها على أرباح هذه التجارة ؛ ووجود فائض لديها من هذه الأرباح مكنها من إقامة المؤسسات التعليمية والدينية والاجتماعية [٧].

وليس ذلك بالسبب الوحيد الذى دفع إلى الاستكثار من بناء المدارس وترتيب الأوقاف للصرف من ريعها على المدرسين والطلبة ؛ فثمة سبب آخر يتعلق بالحياة السياسية الداخلية

---

(١) إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى ، الشهير بأبن دقمان ، الانتصار لواسطة عقد الإمصار، جـ٤ ، ص٩٣ .

(٢) أحمد شلبى ، مصر مركزاً للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى ؛ ضمن أبحاث ندوة الجبرتى ؛ ص ٤٢٨ .

(٣) المقريزى ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ .

(٤) المقريزى ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ٣٦٥ ؛ وابن دقمان ، المرجع السابق ، جـ ٤ ، ص ٩٤ .

(٥) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ؛ جـ١ ، ص ١٠٥ .

(٦) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٧) نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومواصلاتها فى العصور الوسطى ، ص ٢٧٩ .

فى عصر المماليك ؛ وما اتسمت به من عدم استقرار . إذ أن الأمراء ، بل والسلاطين أنفسهم كانوا يتعرضون لحوادث المصادرة والسجن مما جعلهم يرون فى الأوقاف وسيلة وملجأ يلجأون إليه عند الضرورة ؛ وضمانًا لذريتهم من بعدهم (١).

وكانت وظيفة المدرسة هى فى الأساس تأدية الوظيفة التعليمية ، وبالرغم من ذلك فقد أقيمت بها الشعائر الدينية واتخذت كمسجد تقام فيه الصلوات المفروضة وصلاة الجمعة والعيدين أيضًا (٢).

ومن المدارس العديدة التى أنشأها سلاطين المماليك المدرسة الظاهرية نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م ، والمدرسة الناصرية التى شيدها الناصر محمد عام ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م . ومدرسة السلطان برقوق عام ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م . ولم يقتصر إنشاؤهم المدارس فى المدن الكبرى ، ولكنهم شيدوا العديد منها فى القرى مثل مدرسة سرياقوس التى أنشأها السلطان برسباى (٣).

أما الأمراء المماليك فقد أنشأوا العديد من المدارس منها المدرسة الطيبرسية ، وقد بناها الأمير علاء الدين طيبرس عام ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م(٤) . والمدرسة الأقبغاوية التى بناها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م ، وقد قام الأمير عبد الرحمن كتخدا بتجديد هذه المدرسة فيما بعد (٥). والمحمودية التى بناها الأمير جمال الدين محمود عام ٨١١هـ / ١٤٠٨م(٦) ومدرسة الجوهرية التى بناها جوهر القنبقائى عام ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠م(٧) ومدرسة جانبلاط التى أسسها عام ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م(٨) .

---

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

(٢) المقريزى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٦٥ - ٣٩٧ ؛ سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٣١ ؛ إبراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط ، ص ٣٢٥ .

(٣) المقريزى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٤) نفسه ، ص ٣٨٢ .

(٥) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ٢١٤ .

(٦) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢١٥ ؛ جومار ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٧) جومار ، المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

(٨) المقريزى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٧ .

وسار الأمراء المماليك على هذه السياسة فى العصر العثمانى ، فقد أسس الأمير شمس الدين أق سنقر الفارقانى السلحدار ، المدرسة الفارقانية ، وكانت فى الأساس مسجداً ثم جعلها مدرسة لتدريس المذهب الشافعى . وظلت هذه المدرسة قائمة حتى القرن الحادى عشر حيث هدمت عام ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م . وأقيم مكانها مسجداً حيث هدمها الأمير محمد كتخدا مستحفظان وسميت بمسجد الحبشلى[١] ومدرسة محمد بك أبو الذهب والتى بناها عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥م ، ومنشآت الأمير عبد الرحمن كتخدا التعليمية[٢] وكان لبعض الولاة العثمانيين دور فى بناء المدارس مثل مسيح باشا (٩٨٢هـ / ١٥٧٤م) الذى بنى مدرسة عرفت باسم المدرسة المسيحية [٣].

وبالنسبة لتصميم المدرسة فى العصرين المملوكى والعثمانى فكانت فى الغالب أربعة أيوانات متعامدة متقابلة أكبرها إيوان المحراب وأصغرها الإيوانان الجانبيان ، ويتوسطهما فى الغالب صحن مكشوف به الفسقية وألحق بالمدرسة مدفن للمنشىء ، وسبيل يعلوه مكتب لتعليم الأيتام ، عدا مسكن للطلبة والمدرسين[٤] . ولذلك أصبحت المدرسة أقرب ماتكون إلى الخانقاه [٥]. وفى بعض الحالات خانقاه بالفعل ، ففى بعض الأحيان كان الطلبة أنفسهم الصوفية المنزلين بالخانقاه[٦] .

واعتبرت هذه المدارس امتدادات مكانية للأزهر ، حيث يتصدر كبار علماء الأزهر الحلقات الدراسية التى تعقد فى هذه المدارس[٧] .

---

(١) سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ ٥ ، ص ٢٠٠ .

(٢) أرشيف الشهر العقارى بالقاهرة ، سجلات القسمة العسكرية ، أرقام ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، مواد ٥٨١ ، ٨٠٠ ، ٨٢١ ؛ وانظر أيضاً الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٦ ، Dunne, op. cit., p. 16.

(٣) جومار ، المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

(٤) المقريزى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤٠١ ؛ محمد عبد الستار عثمان ، وثيقة وقف جمال الدين يوسف الاستادار ، دراسة تاريخية وثائقية ، ص ٨٧ .

(٥) الخانقاه : كلمة فارسية تعنى المكان الذى ينقطع فيه المتصوف للعبادة ، ويفصل المقريزى معنى الخوانك « جمع خانقاه وهى كلمة فارسية معناها بيت الأكل وقيل أصلها خونقاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . ونشأت هذه الخوانك فى حدود القرن الرابع الهجرى ، أما فى مصر فلم تظهر الخوانك إلا فى القرن السابع الهجرى ، وفى عصر صلاح الدين (انظر سعاد ماهر ، المرجع السابق ، جـ ٥ ، ص ٥٦) .

(٦) محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ٢٣٩ .

(٧) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢١٦ .

وكانت هذه المدارس تخضع للتفتيش من قبل القاضى ، وعندما يتبين له أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المدارس وتلاميذها قد صرفت فى غير أغراضها فإن له الحق فى أن يرغم القائمين على إدراتها على الامتثال لرغبة مؤسسها[١] .

ومن وظائف المدرسة أنها أعدت أساسًا لتكون مكانًا للتدريس ومبيت للطلبة والمدرسين ، وبالإضافة إلى باقى الموظفين الذين يقومون بخدمتهم . كذلك قامت المدرسة بدور المسجد حيث يتمكن الطلبة وأعضاء هيئة التدريس أن يقيموا بها شعائر الصلاة فيما عدا صلاة الجمعة[٢] وتعددت الأغراض فى استخدام المدارس فى غير التعليم ، فقد استخدمت مقرًا للقضاة ونواب دار العدل للفصل فى القضايا . كما كانت تنفذ تحت شباكها أحكام الإعدام[٣] وكذلك استخدمت فى بعض الأحيان كسجن مؤقت لمن يقبض عليهم حتى يقدموا للمحكمة إلى أن تقام عليهم البينة أو ثبت براءتهم [٤]. بالإضافة إلى ذلك فقد استخدمت بعض المدارس فى بعض الفترات كاستراحة لعمال البريد كالمدرسة القراسنقورية[٥] .

وكان لقرب بعض المدارس من القلعة وميدان الرميلة مثل مدرسة السلطان حسن ومدرسة الأشرف شعبان ، - كان لهذا القرب - أثر على الأمراء المتصارعين على السلطة فى أن يستولوا على هذه المدارس وظهر هذا واضحًا عندما حدثت أول فتنة من عساكر الإسباهية حيث هجموا على أويس باشا (٩٩٤ - ٩٩٩ هـ / ١٥٨٦ - ١٥٩١م) وهو فى الديوان ، فقفز منهم وهرب إلى الحريم ، فنهبوا ما وجدوه ، ثم خرجوا فقتلوا كتخدا الجاويشية[٦] وطلبوا من قاضى العسكر أن يحضر لهم بعض القضاة وقتلوهم لأنهم شجعوا أويس باشا على ظلمه ،

---

(١) ج . دى شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٣ ؛ Dunne, op. cit., pp. 3 , 4 .

(٢) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) نفسه ، ص ١٨٨ .

(٤) نفسه ، ص ١٨٩ .

(٥) المقريزى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٨٢ .

(٦) الجاويشية : جمع فارسى لكلمة جاوش Cavus وهى مشتقة من المقطع التركى جاو Cav الذى يدل على معنى الصياح والنداء والصوت والصيت ، والجاويش منصب عسكرى يطلق على أنواع مختلفة من الجند منهم الرسل والحرس الخاص بالسلطان العثمانى وكانوا يترأسون موكبه حين خروجه من القصر ويصحبونه حين يخرج إلى الحرب (انظر : هاملتون جب ، هارولد بوون ، المجتمع الإسلامى والغرب جـ٢ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧).

وأدى ذلك لتأزم الموقف فى البلاد . وترتب على ذلك اجتماع قاضى العسكر والدفتردار وأعيان العسكر بمدرسة السلطان حسن ، وطالبوا السباهية بالعدول عن موقفهم ولكن باءت هذه المحاولة بالفشل [١]. وعنما قتل موسى باشا عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م ، قيطاس بك الكبير اجتمع العسكر وقاضى العسكر ونقيب الأشراف ، فى مدرسة السلطان حسن وطالبوا بعزل الباشا[٢] . والأزمة التى حدثت بوفاة الشيخ محمد النشرتى ، الذى كان يتولى وظيفة التدريس فى المدرسة الابتغاوية ، فانقسم المجاورون فرقتين ، فرقة تطلب الشيخ أحمد النفراوى ، وأخرى تطلب الشيخ عبد الباقى القلينى ، وتأزم الموقف ، مما أدى إلى تدخل الأوجاقات السبعة[٣] .

كما اجتمع نقيب الأشراف والعلماء وأرباب الأشاير فى مدرسة الشيخونية بالصليبة . إبان حدوث فتنة أفرنج أحمد عام ١١٢١هـ / ١٧١١م ، وأصدروا فتوى بنفى الأنكشارية إذا لم يمتثلوا للأوامر فأمتثلوا[٤] .

أما بالنسبة لمدارس الأقباط فلم يكن لهم مدارس نظامية حتى عهد الخديوى اسماعيل ، وهذا يعنى أن النصف الأول من القرن التاسع لم يشهد أية محاولة لأنشاء مدرسة قبطية على غرار المدارس النظامية التابعة للجاليات الأوربية [٥]، وكان ذلك على أيدى الأنبا كيرلس الرابع (١٨٠٦ - ١٨٦١م) الذى أسس أول مدرسة للأقباط فى عام ١٨٥٥م[٦] .

أما اليهود فقد كانت لهم مدارسهم . فقد لوحظ أن بعض الطلبة المسلمين قد التحقوا بهذه المدارس ، ويرجع ذلك إلى تفضيلهم الالتحاق بهذه المدارس على غيرها من المداس التابعة للجاليات الأوربية والتى كانت مهمته بالفعل بالعامل التبشيرى أكثر من اهتمامهم بالتعليم

---

(١) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات ، تحقيق عبد الرحمن عبد الرحيم ، ص ١٤٣ ؛ الملوانى ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٢ . وكان الباشا هو حسن باشا السلحدار .

(٤) الملوانى ، المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٥) Dutcher El,. The Story of the Church of Egypt. p. 397 .

(٦) محمود الشال ، المرجع ، ١٢٤ .

نفسه [1] والمواد التى تدرس فى مدارسهم هى الشرائع والقوانين اليهودية والتاريخ المقدس واللغة العبرية ، ثم يأتى التدريب العملى من خلال المشاركة فى خدمات واحتفالات السبت والأعياد اليهودية[2].

٣ - المؤسسات التعليمية الأخرى :

كانت هذه المؤسسات تساهم بجانب المكاتب والمدارس فى مجال التعليم خلال هذه الفترة ، فقد كانت هناك مؤسسات تعليمية خاصة بالمسلمين مثل المساجد والخوانق ، والزوايا ، والربط والأسبلة وبعض الترب ، وبالنسبة لأهل الذمة ، فقد كان التعليم وخاصة للأجانب يعتمد على الهيئات الكاثوليكية منها الفرنسيسكان والجزويت والفرير والراعى الصالح والقلب المقدس وغيرها[3] .

وبالنسبة للمؤسسات التعليمية الإسلامية ، نبدأها بالمساجد واستخدمت كمعاهد للتعليم ، لأن العلم دائمًا من اختصاص الجماعة ، فلم تكن دول الخلافة أو دول السلاطين مسئولة عن التعليم فى عصر الخلفاء الراشدين ، وإنما كان التعليم من اختصاص الأفراد والجماعة[4] .

وكانت المساجد أقدم معاهد للتعليم التى وجدت بمصر خاصة قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية ، ولم يقلل ظهور المدارس وانتشارها من شأن المساجد وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى [5].

وكون المدرسة ملحقة بأحد المساجد يعد سمة من السمات البارزة فى العصر العثمانى شأنه فى ذلك شأن العصور الإسلامية الأخرى . فلم تقتصر وظيفة المساجد الكبرى فى العالم الإسلامى على إقامة الصلوات ، بل كانت تلحق بها منشآت خيرية أخرى تضم مكتبة تحتوى على التراث الفكرى الإسلامى ، المدون فى البلدان العثمانية باللغات العربية والفارسية والتركية [6].

وتتميز الدراسة فى المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة فى اختيار مناهج الدراسة وأسلوبها وأوقاتها ، إلا ماوجد منها خاضعًا لما قام به البعض من ترتيب الدروس

---

(١) جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٦٦ .
(٢) قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص ١٤٣ .
(٣) جرجس سلامة ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .
(٤) حسين مؤنس ، المساجد ، ص ٣٥ .
(٥) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٦٠ .
(٦) عبد الغنى محمود ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

والأوقاف للصرف منها عليهم والتى كانت شروط الواقف تعتبر ملزمة لمن يكون بالدروس من الطلبة والمدرسين [١].

وتختلف الدراسة فى المساجد عن المدارس ففى المساجد لايحدد عدد الطلبة ويتحدد عددهم بالنسبة لشهرة المدرس نفسه فى الوسط العلمى . واختلفت أيضًا عن المدارس حيث أنها كانت تسير على نظام الحلقات العلمية والتى لها احترامها من رواد المسجد أو كانوا من أصحاب الدروس الأخرى . فإذا زاد عدد الطلبة فتكون الحلقة فى شكل دائرة كاملة . أما إذا كان العدد أقل فإنه يكون فى شكل نصف دائرة . ويكون الدرس عبارة عن إلقاء المحاضرات وإملائها ، ولكن فرصة المناقشة تكون محدودة وبالنسبة للطلبة الوافدين من خارج مصر والقاهرة فيجدون فى هذه الأماكن مساكن خاصة لهم [٢]، وأيضًا كمستشفيات ومطاعم للفقراء وخانات وحمامات وآبار ، كان السلاطين والأمراء يتنافسون فى إنشائها[٣].

ومن المساجد المشهورة والتى كانت تقوم مقام المدرسة ، مسجد داود باشا[٤] ، ومسجد محمد بك أبو الذهب بالأزهر ، وأنشأه فى الأصل برسم جامع ، وعين فيه من أعضاء هيئة التدريس ، منهم من يقوم بالدروس ومنهم بالخطبة والإمامة[٥] وجامع شيخون ، حيث كان يدرس فيه الشيخ مرتضى الزبيدى (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩١م)[٦] ومسجدا كتخدا بالأزبكية[٧] ومسجد المشهد الحسينى حيث تصدى للإقراء مجموعة كثيرة من شيوخ العصر وقادة المفكرين[٨] .

وكانت هناك مدارس بالمساجد المنتشرة فى سائر مدن مصر فى الوجهين القبلى والبحرى ، وقد أطلق البعض كليات قائمة فى المساجد[٩] . وكانت الدراسة فيها تسير على نمط الدراسة فى الأزهر ، ومن أشهرها المدارس التى كانت منتشرة فى جميع أنحاء البلاد مثل طنطا ودسوق والاسكندرية ورشيد والمنصورة والمحلة الكبرى والفيوم وأسيوط وقوص وقنا وطهطا وقفط وأبريم ، وكان الطلاب فى هذه المدارس يلتحقون بالأزهر [١٠].

---

(١) عبد الغنى محمود ، المرجع السابق ، ص ٢١٠ .
(٢) نفسه ، ص ٢١١ .
(٣) كارل بروكلمان ، الشعوب الإسلامية ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .
(٤) سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ٥ ، ص ١٠٥ .
(٥) محمد سيد الكيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ٤١ .
(٦) نفسه ، ص ٤١ .
(٧) أحمد شلبى ، مصر مركزاً للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى ، ص ٤٤٠ - ٤٤١ .
(٨) نفسه ، ص ٤٤٠ ؛ سعاد ماهر ، المرجع السابق ، جـ٥ ، ص ١٠٥ .
(٩) El Shayaal, op. cit., pp. 111 - 112 .
(١٠) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة جـ ١ ، ص ١٦٩ .

وكانت لقرب بعض هذه المساجد من أماكن الأحداث التى شهدتها مصر خلال هذه الفترة ، نجد أن كلا الفريقين المتصارعين يحاولان الاستيلاء على هذه المساجد ، ووضح ذلك إبان حدوث فتنة أفرنج أحمد عام ١١٢٣ هـ / ١٧١١م استولى فريق على جامع قلاوون والفريق الآخر جامع السلطان حسن وجامع المحمودية[١] وجامع الماس ، واستيلاء الفقارية على جامع بشتك فى درب الجماميز[٢] ، وتم الاتفاق على اختيار صنجق من الصناجق نائب وعزل الباشا ووافق الجميع على ذلك .

والتعليم فى الخوانق يكاد ينصب على الأحاديث وروايتها فضلاً عن أداء الواجب للضيوف وروادها من المستحقين ، وكانت أول خانقاه أنشئت فى مصر للصوفية ، هى خانقاه سعيد السعداء . وظلت موجودة إبان الحملة الفرنسية حيث تغيرت إلى جامع وعرفت باسم جامع سعيد السعداء[٣] والزوايا[٤] والرباط[٥] والتكايا[٦] وبعض الترب التى أتخذت كأماكن للتعليم والعبادة[٧] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، وأوضح الإشارات فيمن تولى مصر من الوزراء والباشات ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

(٣) المقريزى ، المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٤١٥ ؛ على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ١ ، ص ٩٠ ؛ وخانقاه سعيد السعداء كانت فى الأصل داراً لبيان وقيل قنبر أو عنبر خادم الحافظ لدين الله أحد الأستاذين المتمكنين والملقب « سعيد السعداء » توفى عام ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م وبعد وفاته صارت هذه الدار سكنًا للوزير الصالح طلائع وولده رزيك بن طلائع الذى فتح سردابًا بين دار الوزارة المواجهة لها . كذلك سكنًا الوزير شاور السعدى . ولما تولى صلاح الدين جعلها فى عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م . خانقاه للصوفية ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانية بجوار بركة الفيل (انظر : جومار ، المرجع السابق ، ص ١٨٠) .

(٤) الزاوية : وهى مأخوذة من الفعل أنزوى وبمعنى أتخذ ركنًا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد ، أنشئت الزوايا فى أول الأمر ملحقة بالمساجد ثم تطورت إلى أبنية صغيرة للتعليم والصلاة والعبادة يتخذها أحد المشايخ المشهورين بالتقوى والصلاح مسكنًا له ولمن يرد عليه من العابرين ، ويقوم بالوعظ والإرشاد لمن يتردد عليه من الناس . (انظر : سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ١٦٩) وكانت الزاوية تطلق على الرباط الذى تنشئه إحدى جماعات الفرق الصوفية وقد خلط البعض بين الزوايا والخوانق .

(٥) الرباط فى الأصل البناء المحصن الذى يقام قرب الحدود ، والمرابطة ملازمة ثغر العدو . إلا أن الرباط يطلق على الدار التى يسكنها أهل طريق الله إذ يرى الصوفية فى قوله تعالى {وصابروا ورابطوا } أى واصلوا على مواقيت الصلاة ، وقيل أن المقيم بالرباط عى طاعة الله إنما يكون مرابطًا فى انتظار الصلاة بعد الصلاة. (انظر : سعيد عاشور ، المرجع الشابق ، ص ١٦٨ ، عبد الغنى محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧) .

(٦) التكية : دور يستقبل فيها المسافرين الفقراء أو الأشخاص الموصى عليهم ، حيث يجدون فيها ضيافة بلا مقابل (انظر : جومار ، المرجع السابق ، ص ١٩٣) .

(٧) توفيق الطويل ، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، ص ١٧ .

وكانت نوعية الدراسة فى هذه الأماكن هى التبحر فى علوم الشريعة والحديث بالإضافة إلى بعض العلوم المساعدة كالتفسير وأصول الدين وغيره من العلوم . ويمكن القول أنها كانت مؤسسات صوفية بها حياة علمية ، ولكن من نوع خاص يقوم به الصوفية بدون أن يكون لذلك وقت معين أو طبقًا لشروط محددة من قبل الواقف[١] وقد نهضت الزوايا الصوفية بنشر العلوم الدينية وإن انصرف اهتمام أهلها إلى مزاولة الشعائر الدينية وممارسة الحياة الصوفية صادقين أم كاذبين [٢].

أما الأسبلة فكان التعليم فيها عن طريق المكاتب التى كانت بها مثل سبيل خسرو باشا الذى أنشأ عام ٩٤٢ هـ / ١٥٢٢م[٣] وسبيل تغرى بردى[٤] وسبيل الأمير محمد عام ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م[٥] وسبيل وقف النقادى عام ١٠٢٧هـ / ١٦١٨م [٦].

وسبيل مصطفى أغا عبد الرحيم أغا[٧] دار السعادة [٨]عام ١٠٢٨هـ / ١٦١٨م[٩]. وسبيل يوسف أغا الحين عام ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م [١٠]، سبيل وزاوية مصطفى باشا[١١] .

---

(١) عبد الغنى محمد ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .

(٢) توفيق الطويل ، المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٣) محمود حامد الحسينى ، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ، ص ١٢٢ .

(٤) نفسه ، ١٢٧ .

(٥) نفسه ، ص ١٢٩ .

(٦) نفسه ، ١٣٢ .

(٧) أغا : كلمة تركية من المصدر أغمق ، ومعناها الكبير وتقدم السن ، وقيل أنها من الكلمة الفارسية (أقا) وجرى العرب على إضافة تاء إليها إذا وقعت مضافًا . وتطلق فى التركية عى الرئيس والقائد وشيخ القبيلة وعلى الخادم الخصى ، الذى يؤذن له بدخول غرف النساء . (انظر : أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص ١٧) .

(٨) دار السعادة : اسم يطلق عند الجراكسة والعثمانيين علي دار الحكم ، ولذلك أطلق على مدينة القسطنطينية وهى أستانبول العاصمة القديمة للدولة العثمانية وتطلق دار السعادة أيضًا على دار الحكومة الى يقيم فيها الحاكم أو الوالى لإدارة شئون الولاية أو المقاطعة (انظر : سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص ٣١٤) .

(٩) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(١٠) نفسه ، ص ١٢٧ .

(١١) نفسه ، ص ١٢٧ .

١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م ، سبيل وقف قيطاس بك المعروف (بسبيل بيبرس) عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠ م[١]، سبيل مصطفى سنان عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م[٢] ، سبيل الكريديلية عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م[٣] سبيل خليل أفندى المقاطعجى عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م[٤] وسبيل سليمان جاويش عام ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م[٥] وسبيل يوسف بك براسينا عام ١٠٤٤هـ / ١٦٣٧م[٦] ، سبيل سليمان بك الخربوطلى عام ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م[٧] سبيل جمال الدين الذهبى عام ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م[٨] وسبيل مصطفى بك طبطباوى عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م[٩] وسبيل البازدار[١٠] عام ١٠٥٠هـ / ١٦٤١م[١١] سبيل وقف كلس منتصف قرن ١١ هـ / ١٧م[١٢] وسبيل إبراهيم أغا مستحفظان عام ١٠٥١ هـ / ١٦٤١م[١٣] وسبيل السيد على بن هيزع عام ١٠٥٦هـ / ١٦٥٢م[١٤] وسبيل عمر أغا عام ١٠٦٣هـ / ١٦٥٧م[١٥] .

---

(١) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٤٠ .

(٢) نفسه ، ص ١٤١ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٣ .

(٤) نفسه ، ص ١٤٥ .

(٥) نفسه ، ص ١٤٧ .

(٦) نفسه ، ص ١٥١ .

(٧) نفسه ، ص ١٥٣ .

(٨) نفسه ، ص ١٥٤ .

(٩) نفسه ، ص ١٥٦ .

(١٠) البازدار: لفظة فارسية مؤلفة من باز بمعنى مقر ودار من المصدر داشتن بمعنى ممك ، ومعناها حامل الصقر ، وكان البازدار موظفًا من أرباب الخدم ، مكلف بحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده عند الخروج للصيد ، وقد عرفت هذه الوظيفة منذ عهد السلاجقة (حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ١ ، ص ١٩٢) .

(١١) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(١٢) نفسه ، ص ١٦٠ .

(١٣) نفسه ، ص ١٦١ .

(١٤) نفسه ، ص ١٦٦ .

(١٥) نفسه ، ص ١٦٧ .

بالإضافة إلى بعض الأسبلة التى أنشئت في القرن الثامن عشر نذكر منها على سبيل المثال سبيل إبراهيم جوربجى مستحفظان عام ١١٠٦هـ / ١٦٩٤م[١] سبيل أغا كوكليان ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤م[٢] ، سبيل مصطفى جوربجى مستحفظان الشهير بميرزا عام ١١١٠ هـ / ١٦٩٨م [٣]، وسبيل أحمد أفندى سليم عام ١١١١ هـ / ١٦١٩م[٤] ، سبيل حسن أفندى كاتب عزبان عام ١١١٣ هـ / ١٧٠١م[٥] وسبيل على بك الدمياطى ١١٢٢هـ / ١٧١٠م[٦] وسبيل عافين بك أبو الأقبال عام ١١٢٥هـ / ١٧١٣م[٧] وسبيل إبراهيم بك المناسترلى عام ١١٢٦هـ / ١٧١٤م[٨] ، سبيل مصطفى موصلى جوربجى مستحفظان عام ١١٢٧ هـ / ١٧١٥م. وهذه الأسبلة كانت على سبيل المثال لا الحصر .

أما عن تعليم الأوربيين ، فقد بدأ لأغراض دينية بحتة حيث كانت البابوية تستهدف نشر نفوذها فى الشرق وفى مصر خاصة . واخضاع الأقباط الأرثوذكس لرئاستها ، وكذلك بذلت الإرساليات الدينية البروتستانية - مجهودات كبيرة لتحويل أقباط مصر البروتستانية - وترجع مجهودات الكاثوليك فى هذا السبيل إلى القرن الثالث عشر الميلادى على يد الآباء الفرنسيسكان[٩] . وكان مركزهم بيت المقدس ، وانشأوا الكنائس الخاصة بهم بعد ذلك ، وقد انتشروا بالوجه القبلى ثم استقروا بالإسكندرية فى عام ١٥٧١م ، وأنشأوا ديراً خاصًا بهم ، عرف بدير سانت كاترين بالإسكندرية عام ١٦٣٢م . ونقلوا نشاطهم بعد ذلك إلى القاهرة ، وأنشأوا كنيسة لهم فى مصر القديمة عام ١٦٩٨م ، ولكن استولى أقباط مصر عليها بعد ذلك[١٠] . وكان نشاطهم التعليمى فى بداية الأمر محدود جداً [١١].

---

(١) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ١٩٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٩٦ .

(٥) نفسه ، ص ١٩٨ .

(٦) نفسه ، ص ٢٠٠ .

(٧) نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٨) نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٩) جرجس سلامة ، تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ص ٤٠ .

(١٠) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عهد محمد على ، ص ٦٦٨ .

(١١) H. Dunne, op. cit., p. 343 .

وبدأ الرهبان الفرنسيسكان نشاطهم التعليمى عام ١٧٣١م . وكان هدفهم من ذلك التأثير على أقباط مصر ، لكى يرسلوا أبنائم إلى روما لتعليمهم وفق العقيدة الكاثوليكية . وبالفعل أرسل البعض أبناؤهم . ورغم أن هذه الطريقة ذلك لم تنجح إلا أن بعض هؤلاء قد عادوا إلى القاهرة وهم يتقنون اللغة الإيطالية واللاتينية(١) .

ورغم اخفاق مجهودات الفرنسيسكان الدينية إلى حد ما ، فإنه قد وفد إلى مصر فى القرن الثامن عشر الكثير من السوريين الكاثوليك وبعض الموارنة اللبنانيين الكاثوليك وبعض التجار الأوربيين الكاثوليك أدى ذلك إلى تشجيع الفرنسيسكان فى مصر لزيادة نشاطهم ، ووافق الباب العالى عام ١٧٣٢م على إنشاء كنيسة وديراً لهم فى الموسكى(٢) والحقت بالكنيسة مدرسة لتعليم الأطفال تحت إشراف الرهبان(٣) .

ولما تواجد عدد من الكاثوليك يحتاج أبناؤهم إلى عناية من الناحية التعليمية ، انتقل نشاط الفرنسيسكان من الناحية الدينية إلى الناحية التعليمية لخدمة الأغراض الدينية ، ولذلك فقد كان يدرس فى مدرسة الكنيسة اللغتين العربية والإيطالية ، وكانت هذه أول مدرسة فى مصر تدرس بها لغة أجنبية أوربية هى اللغة الإيطالية (٤).

وشهد القرن الثامن عشر مجهودات لإرساليات أجنبية أخرى مثل إرسالية هوكر (E.W.Hoker) وإرسالية بيلدر (G.Pilder) فى عام ١٧٥٣م وإرسالية انيسته (J.Antes) فى عام ١٧٥٦م . وإرساليتداناك (J.H.Dank) فى عام ١٧٦٨م . وإرسالية وينجير (Wieniger) فى عام ١٧٧٠م وكانت هذه الإرساليات تنتمى إلى الحركة المارونية ، ولذلك انتهت بالفشل(٥) .

وأقام الفرنسيون بعد وصول الحملة الفرنسية مدرستين فى القاهرة لتعليم أبنائهم المولودين فى مصر(٦) . والمناهج فى هذه المدارس هى اللغة العربية والإيطالية (٧). وقد لوحظ أن

---

(١) Ibid., p. 88 .

(٢) Dunne. op. cit., p. 90 .

(٣) Ibid., p. 90 .

(٤) Ibid., p. 91 .

(٥) Ibid., p. 90 .

(٦) أحمد أحمد بدوى ، رفاعة الطهطاوى ، ص ٦ .

(٧) Dunne. op. cit., p. 90 .

الأوربين فى الإسكندرية الذين لايجيدون اللغة العربية قد تحدثوا باللغة الإيطالية ، وتعلم بعض الأهالى اللغات الأوربية مثل الفرنسية والألمانية وهدفهم من ذلك هو القيام بأعمال الترجمة ، أو العمل على السفن الأوربية وخدمتها[١] .

أما عن جهود اليونانيين ، فإنهم كانوا على غير وفاق مع الكنيسة الكاثوليكية نظراً لاختلاف مذهبهم الدينى الذى كان على المذهب الأرثوذكسى ، وقد هاجر اليونانيون إلى مصر منذ القدم . غير أن التعليم اليونانى قد بدأ فى القرن السابع عشر ، وخاصة منذ عام ١٦٤٥م . وكان يعتمد فى ذلك على الكنيسة اليونانية والجالية اليونانية حيث افتتحت مدرسة خاصة بها فى دير سان جورج بواسطة البطريك أيونيكيو (Ioanikio) ثم توسعوا فأنشأوا مدرستين أخريين إحداهما فى حارة الروم . والأخرى فى حى الجوانية فى القاهرة . وأنشأوا مدرسة أخرى فى الإسكندرية فى دير سان ساباس[٢] .

وكانت تدرس بهذه المدارس اللغة اليونانية وتلاميذها من اليونان فقط وليسوا من المصريين.

أما جهود البروتستانت فى هذا السبيل ، فيرجع إلى القرن التاسع عشر[٣] وعلى ذلك فإن التعليم الأجنبى فى مصر استطاع أن يحول عدداً كبيراً نسبيًا من الأقباط الأرثوذكس فى مصر إلى الكاثوليكية والبروتستانتية ، وصحيح أن الفكرة الأولى التى كانت ترمى إليها البابوية الكاثوليكية هى أن تعترف الكنيسة الأرثوذكسية القبطية برئاستها ، وهو لم يحدث قط ، ولكن ذلك لم يمنع الإرساليات الكاثوليكية من أن تقوم بنشاطها الكبير لتكسب عدداً من الأقباط وتحولهم إلى المذهب الكاثوليكى ، مما يدل على ذلك تنوع الجاليات الكاثوليكية فى مصر وقد بلغت سبع جاليات هى الجالية الأرمينية ، والكلدانية ، والقبطية الكاثوليكية ، واليونانية الملكانية ، واللاتينية ، والمارونية ، والسريانية ، وزيادة عدد الجاليات زيادة محسوسة ، وكثرة الكنائس الكاثوليكية ، وتعدد المدارس الكاثوليكية بشكل كبير ملموس[٤].

---

(١) كارستن نيبور ، رحلة إلى مصر ، ١٧٦١ - ١٧٦٢ ، ترجمة مصطفى ماهر ، ص ١٢٠ .

(٢) D. Kallinahos, Patriarh's of Alexandria Creek Schools, at Cairo, p. 4; H.Dunne, op. cit., p. 91 .

(٣) جرجس سلامة ، المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٦٦ .

ولكن رغم ذلك كله ، ورغم مجهودات البابوية من ناحية ، والإرساليات من ناحية أخرى فإن الكنيسة القبطية ظلت راسخة البنيان بحيث لم تستطع لا البابوية فى روما ولا الإرساليات أن تؤثر فيها تأثيراً كبيراً . بل إن شعور الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بخطر هذه الإرساليات أدى إلى نهضة كنيستها بحيث أنشأ الأقباط مدارس اللاهوت على المذهب الأرثوذكسى وعلموا القسس والوعاظ لكى يستطيعوا المحافظة على كيانهم وأنشأوا المدارس القبطية ، وكان ذلك فى القرن التاسع عشر على أيدى الأنبا كيرلس الرابع (١٨٠٦ - ١٨٦١م) [١].

ويأتى الحديث عن تعليم فئات أخرى مثل تعليم المماليك والبدو ، وتعليم البنات .

فقد كان تعليم المماليك بهدف تدريبهم على الفروسية ، وكان الحصول على الجياد والخيل من لوازم حياتهم وأيضًا الأسلحة . ولكن رغم تفوقهم فى التدريبات العسكرية ، لم يهتموا كثيراً بدراسة العلوم والرياضيات والأدب ولا حتى بدراسة الجغرافيا والتاريخ ، التى قد تفيدهم فى حياتهم كمحاربين وحكام . وبطبيعة الحال كان لهذه القاعدة بعض الاستثناءات ولكنها كانت بسيطة فى عددها[٢] وتربوا تربية دينية بعد اعتناقهم للإسلام وهم يتعلمون اللغة التركية واللغة العربية ويتلقنون القرآن الكريم [٣].

ومن المماليك من كان يعرف علوم اللغة ويتقنها ويدرس الكتب العسيرة الشاقة أو يشتغل بالأدب الخالص منها ، اشتغاله بالفقه مثال ذلك عثمان بك ذو الفقار الذى كان يقرأ على الشيخ حسن الجبرتى مقامات الحريرى ، وقام الأخير بكتابتها لهذا الأمير بخطة الجميل فى خمسين جزءاً كل جزء على حده ، كما كان الأمير يقرأ على الشيخ حسن الجبرتى كتبًا فى فقه أبى حنيفة ، ولم يجالس عثمان بك إلا أرباب الفضائل والعلم [٤] والأمير عثمان كتخدا (ت١١٩٠هـ / ١٧٧٦م) ارتاد مجالس العلماء مثل الشيخ عبد الله الادكاوى ، والأمير أحمد أفندى الروزنامجى (ت١٢٠٢ / ١٧٨٧م) ، الذى تلقى العلم عن مشايخ عصره واشتهر بحفظه ألفية ابن مالك فى النحو والصرف[٥] .

---

(١) جرجس سلامة ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٣) عراقى يوسف محمد ، الوجود العثمانى المملوكى ، ص ٣٦ .

(٤) عصمت محمد حسن، الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ، ص ١١٩، رسالة ماجستير غير منشورة.

(٥) عصمت محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

ولكن بعد مذبحة المماليك فى عام ١٨١١م ، جمع محمد على غلمانهم وصغارهم فى القلعة بمدرسة على غرار المدارس التى كان أمراء المماليك يقيمون فيها فى قصورهم ، وأحضر لهم المعلمين يعلمونهم القراءة والكتابة واللغة التركية والفنون الحربية ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الإيطالية ثم أرسل فيما بعد كبار تلاميذ هذه المدرسة وبعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه إلى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسة حربية يتعلمون فيها على أيدى المدرسين الأوربيين وعلى رأسهم الكابتن سيف الذى تسمى بعد ذلك باسم سليمان باشا الفرنساوى [١].

والبدو قليلو التعليم ، وبالكاد كان من بينهم الشيوخ قد يعرفون القراءة والكتابة ، ولهم بعض الممارسات فى مجال الطب ، كما لايمكن الاستهانة بفن البيطار عندهم [٢]، ومن ناحية أخرى نجد أن بعض مشايخ العربان عملوا على تثقيف أبناء المناطق التى يقيمون بها . وكان هذا العمل مرتبط أولاً وقبل كل شىء بالشعور الدينى ، فقد طلب الشيخ إسماعيل بن عبد الله وهو أحد مشايخ هوارة أحد العلماء لكى يعلم أبناء الناحية أمور دينهم . ولم تكن هذه الظاهرة عامة بل كانت نادرة جداً[٣] .

وهناك حالة أخرى عن أهل الحلة ، الذين كانوا معروفين بالكبرياء والجهل ، ويرجع ذلك إلى أنهم إدعوا بأنهم ذكروا فى القرآن ، لأنهم عند تلاوة القرآن سمعوا الآية التى تقول «يسألونك عن الأهلة » كما أنهم لم يعلموا أطفالهم القراءة لأنهم كانوا يظنون أن التعليم سيقلل من شجاعتهم ومن كفاءتهم على الإغارة والقتال ، هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يستحضرون الأئمة من المدن لمجرد التباهى بذلك فقط . أما عن أنفسهم فإن الصلوات والدين لم يكن ينفعهم بشىء . ويبدو أن هذا الاتجاه قد تغير فى القرن التاسع عشر . إذ صاروا يتسمون بالرقة والرأفة ، وشيد منهم الكثير من المدارس بالقرب من منازلهم بل وذهب بعضهم إلى الأزهر الشريف طلبًا للعلم ، وعملوا على تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم [٤].

---

(١) عبد الرحمن زكى ، التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، ص ٢٩٢ .

(٢) دى . بوا . ايميه ، القبائل العربية فى صحراوات مصر ، ص ٢٢٠ .

(٣) نفسه ، ص ٢٢٠ .

(٤) ج . بير ، دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ص ٢٤ .

أما تعليم البنات فلا يتعلمن حتى مجرد القراءة والكتابة ، وإن حدث فإنهن يتعلمن فى معقل الحريم ، ويكون مدرسيهم فى هذه الحالة رجالاً متقدمون فى السن أو محرومين من نعمة البصر . ولايستطيع مثل هؤلاء المدرسين أن يعلموهن أكثر من حفظ بعض آيات القرآن الكريم[١] وخاصة سورة يوسف[٢] لأن هذه السورة تناولت قصة أمرأة العزيز ، مع يوسف عليه السلام وأخطاءها وخطيئتها التى كشفها القرآن الكريم وبين سوء نيتها وبراءة يوسف عليه السلام . ولذلك فإن سورة سيدنا يوسف توضح بعض النقاط التى يجب على البنات أن تعرف منها وهى كالآتى .

أولاً : خطيئة إمرأة العزيز فى أنها راودت يوسف أى عجلت لمواقعته إياها وهيأت لنفسها أن تستمتع به فقفلت الأبواب ونادته ورفض هو ، وحاول الهرب فأمسكت به ومزقت قميصه من الخلف ، ودليل خطيئتها :

١ - شهادة ابن عم لها أو ابن خال وكان صبيًا فى المهد .

٢ - تمزيق القميص من الخلف وليس من الأمام .

٣ - اعتراف زوجها بقوله واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

٤ - اعترافها هى نفسها حين كثرت الأقاويل فاستدعت النساء وأدخلت يوسف عليهن لترى ما يصنعن بأنفسهن فيحرجن حتى يعذرونها فيما صنعت .

٥ - كذبها فحين أحست بقدوم زوجها ادعت كذبًا على يوسف أنه أراد بها سوءًا وطلبت له السجن والتعذيب . وبرأه الله سبحانه وتعالى وأظهر خطيئة زليخا أو راعول .

وقد كان المعلمون يعنون عناية خاصة بتحفيظ الفتيات سورة النور[٣] والحكمة من ذلك ، أن بعض الصحابة قد أدعوا على السيدة عائشة الفاحشة مع صفوان ابن المعطل حينما فقدت عقدها فى إحدى الغزوات ، وتركوها وحملها مصعب فى بعيره فقال المنافقون فيها السوء ومنهم عبد الله وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت سطح بين أثاثه ، وكثر القيل والقال حتى نزلت براءة عائشة ونزلت هذه البراءة فى سورة النور ، بقوله تعالى { لكل امرء منهم ما كسبت من الأثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم }[٤] هذه تبرئة من الله سبحانه وتعالى لأم

---

(١) ج . دى . شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦ ؛ جومار ، المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

(٢) Dunne, op. cit., p. 14 .

(٣) أحمد شلبى ، تاريخ التربية الإسلامية ، ص ٥٧ .

(٤) الآية ١١ .

المؤمنين التى ادعوا فى حقها الفاحشة . ومن الآداب التى جاءت فى سورة النور عقوبة الزانى والزانية وذلك لنهى الفتيات عن فعل هذه الفاحشة ، كذلك ورد فى سورة النور اللعان بين الزوج وزوجته حين يدعى عليها الفاحشة وليس معه شهود .

ويستخدم بعض الأغنياء « شيخة » لتزور الحريم يوميًا ، فتعلم بناتهن وجواريهن إقامة الصلاة وتلاوة بعض سور القرآن الكريم ، أما البنات اللاتى يحفظن القرآن تصبح بعد ذلك شيخة[١]، وقد يتعلمن القراءة والكتابة وهناك عدة مدارس تعلم فيها البنات الخياطة والتطريز. ولكن إذا سمحت الظروف يعهد بالبنات إلى معلمة تعلمهن تلك الأشغال فى منازلهن[٢] .

أما تعليم البنات المسيحيات ، فقد كان لايسمح لهن بالتعليم فى المدن الكبرى كالقاهرة ، ولكن يسمح لهن فى الصعيد فى سن مبكرة بالتعليم مع الأولاد ، حتى يصلن إلى الثامنة أو التاسعة وهى السن التى ينقطعن فيها عن الدراسة[٣] وبالنسبة لتعليم بنات اليهود فإنهم لم يهتموا بها إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر[٤] .

٤ - التعليم العالى :

كان الأزهر يمثل المرحلة الخاصة بالتعليم العالى ، ومعه بعض المدارس التى كانت تقوم مقام الأزهر فى التعليم . ولذلك فقد كان الجامع الأزهر - إلى حد بعيد - أعظم معهد فى مصر كلها للدراسات العليا وفيه تخرج العلماء. وكانت هذه مهمة يتقاسمها عدد كبير من المدارس الأخرى ، والجوامع ولاريب فى أن الأزهر كان أكثر تلك أهمية وشهرة . بسبب الأوقاف لطلبته وأساتذته .

وفى العصر العثمانى ، ارتفع عدد أساتذته إلى ستين أو سبعين ووفد عدد من الطلبة إلى الأزهر من القاهرة وسائر المدن المصرية فى حين كان غيرهم ينتمى إلى بلاد إسلامية أخرى[٥].

---

(١) Dunne, op. cit., p. 92 .

(٢) إدوارد لين ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٣) Dunne, op. cit., p. 91 .

(٤) Ibid., p. 92 .

(٥) Ei Shayyal, op. cit., p. 117 .

بالإضافة إلى ذلك فإنه كان يوجد بمصر خلال هذه الفترة المدارس الخاصة بالدراسات العليا في المدن المختلفة ، وكان المدرسون الأساسيون في تلك المدارس من خريجي الأزهر ، بيد أن طلبة تلك المدارس بدورهم ، كانوا يمدون الأزهر بكثير من طلاب المنح البارزين ... وأنه لأمر غريب للغاية لم يكن يوجد واحد من كبار مشايخ الأزهر في القرن الثامن عشر من أصل قاهري . وكانت أكثر تلك المدارس الإقليمية نشاطًا بالإسكندرية ودمياط والمنصورة والمحلة الكبرى ودسوق وطنطا في الوجه البحري ، ثم قوص وقنا وطهطا في الوجه القبلي[١].

ولم يتدخل العثمانيون في شئون الأزهر ، وإذا كانوا قد فرضوا اللغة التركية لغة رسمية في دواوين الحكم في مصر إلا أنهم لم يجعلوا اللغة التركية لغة الدراسة في الأزهر ، ولم يفرضوا عليه الدراسات التركية والدراسات اللغوية أو الأدبية من نحو وصرف ، ولم يقحموا في خطط الدراسة في الأزهر دراسة الحضارة التركية والفكر التركي ، وفي وسط الوجود العثماني عاش الأزهر كالواحة الإسلامية يفيء إليها الظامئون إلى المعرفة يتلقون الدراسات الإسلامية العربية العليا[٢] .

بالإضافة إلى ذلك فإن السلطات العثمانية ، لم تقم بإنشاء معاهد أو مدارس لتعليم اللغة التركية ونرها ولم يحاول المصريون من ناحيتهم تعلم اللغة التركية سواء بدافع ذاتي أو جبري وراء مغانم يظفرون بها [٣].

وبالنسبة للمنهج الدراسي ، فإنه ترك للطالب أن يختار المواد التي يدرسها ، واعتمد هذا الاختيار علي مكانة المدرس وشهرته العلمية ، بحيث ينتقل الطالب من بلد بعيد ليتتلمذ على يد فقيه أو محدث مشهور[٤] فإذا أتم الطالب دراسته ، أجاز له شيخه ذلك ومذهبه فتاريخ الإجازة وغير ذلك ولاشك أن قيمة هذه الإجازة تتوقف على سمعة الشيخ الذى صدرت عنه ومكانته العلمية [٥].

---

(١) محمد سيد الكيلاني ، الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص ٢٩ .

(٢) عبد العزيز الشناوي ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

(٣) S.J. Shaw, Ottoman , Egypt in the Eighteenth Century, p. 38 .

(٤) سعيد عاشور ، المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك ، ص ١٤٥ .

(٥) نفس المؤلف ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٣٣٢ .

وكانت الدراسة بالأزهر متنوعة فهناك دراسة الحديث وكتبه المشهورة كالبخاري ومسلم ، وأبي داود ، والترمذي وابن ماجه ، ومسند أحمد والشافعي ، ثم عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني ، وشذور الذهب ، للشيخ جمال الدين بن هشام ، وجامع الجوامع ... إلخ [١].

والمنهج الدراسي غير محدد بأي فترة زمنية ولو أن معظمهم متفرغين . وكان للمذاهب الأربعة مشايخهم في الأزهر ومعظمهم للمالكيين والثانية للحنفيين والحنابلة والمشايخ الأساسيين في الأزهر إما شافعيين أو مالكيين ، ولكل مذهب المفتي الخاص به أو رئيس المفتيين فهو المفتي[٢] العثماني للإمبراطورية ، وحتى القرن الثامن عشر كان باستطاعة أي رجل أن يغير مذهبه[٣] .

والطلاب في الأزهر ليسوا ببساطة مجرد مستمعين عاديين ، فبإمكانهم إيقاف المدرس عند نقطة معينة لم يتعهدوا معانيها ، وأن يعارضوا رأيه برأي شيخ آخر فيتبعوا بذلك نوعًا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ومن جهة أخرى فإن الشيخ بدوره يسأل طلابه لكي يعرف ما إن كانوا قد فهموا وتقدموا[٤] .

وبالنسبة لحفلة التخرج من الأزهر ، فإنه إذا فرغ أحد الشيوخ من تدريس كتاب أقيم لذلك حفل عظيم ، وكانت العادة في الختم أن يحضر يوم الختم أنجب تلاميذ المدرس وكبراء إخواته ، فرذا فرغ المدرس قرأ القارىء آيات من القرآن الكريم بقراءة مطربة ومنهم من يقرأها بالقراءات السبعة . وبعد فراغه ينشد منشد بصوت رخيم قصيدة من إنشاء بعض التلاميذ فيها مدح النبي ﷺ ، والترضي عن مؤلف الكتاب المقروء والدعاء للشيخ الذي يدرسه ، ثم يقوم آخر ويثني على الله ورسوله ثناء بليغ . ثم على آل رسول الله ﷺ ، وأصحابه وتابعيهم بإحسان ، ثم يترضى عن المشايخ أرباب المراتب كل ذلك بنثر بديع ولفظ فصيح . ثم يقرأ الفاتحة ويهدي ثوابها إلى حضرة النبي ﷺ . وإلى من ذكر بعده ، ويبالغ في الثناء إلى أن يصل إلى الشيخ المدرس فيدعو له وللحاضرين بأبلغ دعاء بقلب حاضر ، وصوت خاشع ويؤمن الحاضرين على دعائه ، ثم يختم وبعد هذا يقوم أهل المجلس كلهم ويصافحون الشيخ . ويدعون لهم ويحضر الختم جمع عظيم من الناس وأل الفضائل والمجاذيب[٥] .

---

(١) عبد العزيز الشناوي ، امرجع السابق ، جـ ١ ص ١٥٢ ؛ إداورد لين ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ ، ويذكر أن الطلبة لايدفعوا أجوراً نظير تعليمهم في الأزهر ويصرف عليهم من إيرادات العقارات الموقوفة على الأزهر . ؛ Dunne, op. cit., p. 90 .

(٢) Dunne, op. cit., p. 37 .

(٣) Ibid., p. 39 .

(٤) ج. دي . شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٥) محمد سيد الكيلاني ، الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ، ص ٤٣ .

وكان الشيوخ يمنحون طلابهم أجازات ، إن هى إلا شهادة كتبها الشيخ على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب ، يثبت فيها للطالب قراءة هذا الكتاب ويجيز له تدريسه . وكان يجوز أن يحصل على أجازة فى موضوع معين ، ، ومازال طالبًا فى موضوع آخر ، وكانت الأجازات تسلسل من المؤلف إلى آخر ماوصلت إليه وكان يشترط لمن يشتغل بالطب ، أن يجتاز امتحانًا وينال شهادة مكتوبة ، تحدد له الأمراض التى يمكن أن يتصدى لعلاجها[١] .

وكانت الأجازات التى تصدر عن علماء الأزهر ثلاثة أنواع[٢] الأجازة الأولى أجازة بالفتيا والتدريس[٣] والثانية أجازة بعراضة الكتب[٤] والثالثة أجازة بالمرويات على الاستدعاءات[٥] .

هذا بالنسبة للتعليم العالى عند المسلمين . أما بالنسبة للمسيحيين فإنه لم يكن سهلاً فى المجتمع القبطى ، وإن كان ذلك فى القرن التاسع عشر[٦] .

أما المناهج التعليمية فى مدارس الجاليات الأوربية ، فقد تنوعت أغراضه ، بحيث كان من أهم هذه الأغراض المحافظة على عادات وثقافات ولغات الجاليات الأوربية . على الرغم من أنه كان قد استخدم لنشر المذاهب البروتستانتية والكاثوليكية ، ولكنه استخدم أيضًا بالنسبة لبعض الجاليات اليونانية والأرمنية والإنجليزية للمحافظة على كيان هذه الجاليات وذلك خوفًا من أن تذوب هذه الجاليات فى المحيط المصرى[٧] .

---

(١) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ص ٦٣ .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ١ ، ص ٨ ؛ ١ - ١٤٩ : عباس العقاد ، الإمام محمد عبده ، عبقرى الإصلاح والتعليم ، ص ٣٣ .

(٣) إجازة بالفتيا والتدريس ، وكانت تعطى هذه الشهادة للطالب الذى وصل إلى مستوى علمه لإصدار الفتاوى والتدريس بمقتضى هذه الشهادة يأذن له شيخه فى أن يفتى وأن يدرس . وكان هذا النوع من الشهادات ينص على الإذن للطالب فى تدريس مادة أو مذهب معين فقهى والإفتاء به . (انظر : الشناوى، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٤٩) .

(٤) أجازة بعراضة الكتب ، كانت هذه الشهادة تعطى للطالب ، إذا حفظ كتاب فى الفقه أو فى أصول الفقه أو النحو أو البلاغة أو الأدب أو غير ذلك . (انظر : المرجع نفسه ، جـ١ ، ص ١٤٩) .

(٥) أجازة بالمرويات على الاستدعاءات . وتعطى هذه الشهادة من علماء الأزهر إلى عالم يقيم فى بلد إسلامى آخر . ويعرف كل شيء عن إنتاجه العلمى وحسن الخلق . ولكن يعنى ذلك إعطاء هذه الشهادة عن طريق المراسلة . (نفسه . جـ ١ ، ص ١٥٠ ؛ الكيلانى ، المرجع السابق ، ص ٤٢) .

(٦) Dunne, op. cit., pp. 86 - 87 .

(٧) M. Papastefanou, Greek Education in Egypt, p. 13 ؛ جرجس سلامة ، المرجع السابق ،ص٧٢.

ولذلك فقد تعلم اليونانيون اللغة العربية ، وبدءوا يتجرون بأنواع معينة من التجارة فى مصر ، وأخذوا يستقرون فيها غير أنهم شعروا أنهم لو تركوا أنفسهم هكذا فإنهم سوف يذوبون فى بحر الثقافة واللغة والعادات المصرية ذات الحضارة العريقة ، فكان لابد لهم من أن يرسموا لأنفسهم خطة للمحافظة على عاداتهم وثقافتهم ولغتهم وكانت وسيلتهم لذلك هى المدارس اليونانية ، التى اعتمدت على الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية وعلى المنح الخاصة لذوى اليسار من أعضاء الجالية[١] .

وكانت المواد التى تدرس فى المدارس اليونانية هى اللغة الإغريقية والفرنسية لجميع التلاميذ[٢] .

أما التعليم فى المدارس الأرمنية ، فلم تبدأ مدارس الأرمن إلا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر [٣].

وبدأ التعليم الإيطالى فى مصر فى القرن الثامن عشر على أيدى الفرنسيسكان ودرست بها اللغة الإيطالية ، والفرنسية والحساب والإنجليزية واللغة العربية والجغرافيا والتاريخ والخط، وكان ذلك فى مراحل تعليمية مختلفة [٤].

وهكذا نرى أن أنواع التعليم اليونانى والأرمنى والإيطالى قد قصد بها - فى أغلبها - المحافظة على عادات وثقافات ولغات هذه الجالية الأجنبية . وكانت هذه الأنواع من التعليم هى الوسيلة إلى تحقيق هذا الغرض إلى جانب صبغتها الدينية من حيث ارتباطها بالكنيسة وبرجال الدين بشكل أو بآخر . وليس فى كل هذه المناهج شىء عن مصر أو العالم العربى ، والتلميذ فى هذه المدارس لايقرأ وجهة النظر المصرية العربية لأنه لا يقرأ الكتب العربية .

ثالثًا : المكتبات :

واتصالاً بالتعليم فإنه لايمكن أن يكون هناك نظام للتعليم فى مكان ما ، دون أن يكون هناك مكتبة . وكانت هذه - المكتبات - فى المدارس والجوامع والخانقاوات وغير ذلك من

---

(١) جرجس سلامة ، المرجع السابق ، ص ٧٥ .

(٢) نفسه ، ص ٧٦ .

(٣) نفسه ، ص ٨٣ .

(٤) نفسه ، ص ٩٧ .

أماكن العلم ، تحقيقًا للفائدة المرجوة [١] ، كما كان لكل رواق من الأروقة الموجودة فى الأزهر مكتبة كان يطلق عليها « كتبخانة » [٢] بالإضافة إلى ذلك وجدت المكتبات الخاصة مثل مكتبة بيت الشواربى - حيث وجدت فيها أندر الكتب وأغلاها ثمنًا ، وأباحوا لم يشاء الاطلاع عليها من العلماء وأهل الفكر [٣].

أما نوعية الكتب التى تحويها هذه المكتبات فكانت بدورها تخضع للهدف الذى أنشئت من أجله المدرسة وخدمته . فكانت مكتبة المدرسة الشافعية خاصة بكتب فقه المذهب الشافعى وهكذا . أى أنها مكتبات متخصصة حسب المواد التى تدرس فى كل مدرسة طبقًا لنصوص لائحتها ومع ذلك وجدت الكثير من المدارس التى يدرس بها فقه المذاهب الأربعة ، بالإضافة إلى علوم الحديث والقراءات والنحو وغيرها . والمتعارف عليها فى تلك الفترة إن لم يكن كلها[٤] ، أى أن مكتباتها شاملة لمعظم مواد الدراسة .

وكانت تغذية المكتبات بالكتب مستمرة ، فبالإضافة إلى مجموعة الكتب التى يحبسها صاحب المدرسة على خزانتها ، استمرت المكتبات تحصل على الجديد من الكتب إما عن طريق الهدايا والهبات ، وإما عن طريق النسخ وإما عن طريق الشراء [٥].

ولم تخل مكتبة ذات شأن ، سواء كانت عامة أو خاصة من فهرس يرجع إليه لسهولة استعمال مجموعة الكتب ، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية ، فهى تشمل الكتب التى بالمكتبة مرتبة على حسب موضوعها ، وبجانب هذه الفهارس العامة كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب ، وقد كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التى يحويها ذلك الدولاب وأرقامها فيه ، وبالإضافة إلى عنوان الكتاب ورقمه ، كانت الفهارس تشكل ملاحظات عن الكتب التى فقدت بعض أوراقها أو لم توجد أجزاؤها [٦] .

---

(١) سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٣٤ ؛ وإداورد لين ، المرجع السابق ، ص١٨٤ .

(٢) محمود الشرقاوى ، مصر فى القرن الثامن عشر ، جـ١ ، ص ١٠١ .

(٣) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٥ .

(٤) عبد الغنى محمود ، المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .

(٥) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

(٦) أحمد شلبى ، تاريخ التربية فى الإسلام ، ص ١٥ .

وقد كانت عملية استعارة الكتب كفيلة بأن يستغنى بعض العلماء عن شراء الكتب [١] ولم تكن الاستعارة على أية حال مطلقًا تمامًا ، بل وضعت عليها قيود لتنظيم العمل وسيره ، ولذلك كانت مكتبة القاهرة تعير الكتب إلى القاطنين فى القاهرة فقط [٢] وأحيانًا يدفع المستعير ضمانًا إذا كان من غير العلماء الأفاضل[٣] ، ولايسمح للمستعير كتابة أى شىء أو يصلح أى خطأ ولايعيره لغيره وعليه أن يلتزم بالمدة المقررة للإعارة[٤] . وقد وجدت فى عهد مبكر عادة الاستهانة بالكتاب المستعار أو عدم رده ، وكان ذلك سببًا فى أن كره بعض العلماء والأدباء إعارة كتبهم خوفًا عليها[٥].

أما إدارة هذه المكتبات فكانت فى « الخازن » و « المترجم » و « النساخ » و « المجلد » و « المناول » .

وكان « خازن الكتب » يشرف على المكتبة ومهمته ترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحبكها وترميمها بين حين وآخر ، فضلاً عن إرشاد القراء إلى مايلزمهم من مراجع ، لذلك كان يختار لخزانة الكتب عادة فقيهًا أو عالمًا يراعى فيه سعة العلم والأمانة . وأحيانًا يكون للمكتبة أكثر من خازن واحد إذا كانت المكتبة كبيرة الحجم [٦].

وكان المترجم من موظفى المكتبة . وقام بنقل علوم اليونان والسريان والقبط والفرس والهنود إلى اللغة العربية ، من الكتب المتخصصة فى الطب والفلك والكيمياء [٧].

أما النساخون وإن لم تكن وسائل الطباعة الحديثة قد وجدت بعد ، فعينوا نساخين عرفوا بالدقة وجودة الخط ، وكانت الكتب الحديثة يؤتى بها لهؤلاء النساخين ، ينقلوا صورة منها

---

(١) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ص ٥٦ .

(٢) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٣) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ .

(٤) عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٦٦ .

(٦) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٤٦ ؛ ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط ، ص ٣٢٧ .

(٧) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

تزود بها المكتبة ، فإذا ضن مؤلف الكتاب أو مالك بإعارته بضعة أيام للناسخ خوفًا عليه ، فإنه من الممكن أن ينتقل إليه النساخ ليقوم بعملية الكتابة تحت إشرافه ، والحق أن هؤلاء النساخين أدوا واجبهم خير أداء . وأمدوا المكتبات بكل جديد وطريف دون تأخير أو تقصير[١].

ووجد المجلدون متلازمين مع النساخين ، وأقدم ما عرف عن تجليد الكتب عند المسلمين هو الذى كان يقوم به الصناع المصريون المهرة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، ثم تطور فن التجليد عن المسلمين حتى أصبح التذهيب والترويق شائعين ، وأصبح مجلد الكتب فى العالم الإسلامى معروفًا باتقانه وسيطرته على هذا الفن الجميل[٢] .

أما وظيفة المناولين فهى ، إرشاد القراء إلى موضع الكتب فى الرفوف ، إذا لم يعرفوا طريقها ، أو إحضار الكتب لهم من أمكنتها إلى حيث يقرؤن ، ومن هنا سمى من يؤدى ذلك العمل مناولاً . وهو لايتساوى مع الخازن ، وعمله يتساوى مع الخادمين أو الفراشين[٣] .

وكان بناء المكتبة مزوداً بحجرات متعددة ، تربط بينها أروقة فسيحة وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب ، وبعض الأروقة كان يخصص للاطلاع على الكتب ، كما كانت تخصص بعض الحجرات للنسخ ، وبعضها لحلقات الدراسة ، وانتظمت بعض المكتبات كذلك حجرات للموسيقى يلجأ إليها المطالعون للترفيه وتجديد النشاط . وكانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثًا فخمًا مريحًا ، وقد فرشت الأرض بالبسط ، أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دون دخول الهواء البارد فى الشتاء إلى الحجرات[٤] .

رابعًا : الإنفاق على التعليم :

كان يصرف عليه من الأوقاف من أرض وبيوت وأسواق ومعاصر زيت وغيرها وهى أوقاف ينفق مع ريعها على الكتاب أو المدرسة ومن فيها من مدرسين وطلاب علم وموظفين[٥].

---

(١) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٦.

(٣) المقريزى ، جـ١ ، ص ١٧٦ ؛ عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٤) عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٥) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ص ١٤٧ - ١٤٨ .

وتسابق كل من الأهالى والأمراء المماليك ، وبعض الولاة العثمانيين فى وقف الكثير من الأماكن للصرف على أماكن التعليم مثل المساجد والأسبلة والمدارس والبيمارستان وغيرها من أوجه الخير الأخرى مثل الصرف على أهالى مكة والمدينة والحرمين الشريفين (١).

وأوقف بعض الأمراء المماليك للصرف على هذه الأماكن ، وحدد أوجه الصرف على بعض الأسبلة ، وإقامة الشعائر الإسلامية والتدريس داخل بعض المدافن ، كما حدد أيضًا المواد التى تدرس فيها مثل الفقه الحنفى والشافعى والمالكى . وحدد جهة الوقف ومساحتها والرواتب النقدية والعينية (٢).

كما شملت الأوقاف عدة أماكن منها ماهو خاص بالتعليم فى بعض الزوايا والأسبلة والمكاتب والجوامع ، ويحدد الواقف هنا أوجه الصرف عليها ، والقيام بأعمال تعميرها وصيانتها ، وأحيانًا تكون هذه الأماكن خارج مصر مثل مكة والمدينة (٣).

---

(١) أرشيف الشهر العقارى بالقاهرة ، سجل الباب العالى ، رقم ٢٤٢ ، مادة ٣٣٤ ، ص ١٦٠ ، بتاريخ غرة محرم عام ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م ، سجلات القسمة العسكرية ، أرقام ١١٥ مادة ٢٧ ، سجل ١٢٠ ، مادة ٥٧ ، سجل ١٥ ، مادة ٦٤ ، سجل ١٥٢ ، مادة ١٠٣ .

(٢) دار الوثائق القومية بالقلعة ، دفتر رزق ، رقم الحفظ النوعى ١١ ، عين (٦١) . مخزن تركى رقم(١) مسلسل عمومى ٤٦٢٥ ، وهى حجة وقف من الميراللو الشريف السلطانى الأمير صالح بك بجهة منية الخصيب بتاريخ ٤ ذو القعدة عام ١١٧١هـ / ١٧٥٧م فقد خصص المبلغ المنصرف للجامع ٣٢٦٠٠ نصف فضة(*) مرتبات للموظفين : ٩٩٨ أردب غلال ، مبلغ ٢٠٠٤٧ نصف فضة ، ٦٣٠ أردب لعمال الساقية ، والمبلغ المخصص للمدفن هو ١٠٣٨ نصف فضة ، ٩٣٠ نصف فضة للفقهاء .

(نصفة فضة : نقد تركى ، ترجع أقدم إشارة إليه فى عام ١٥٨٣م ، وقد ضرب أولاً من الفضة بقيمة أربع أقجات (أخشا) وسرعان ما اختلف مركز الأخشا باعتبارها الوحدة النقدية الصغرى ، أصبحت الفضة تساوى ١ : ٤٠ من القرش (انظر : عبد الرحمن فهمى ، النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ضمن بحوث ندوة الجبرتى ، ص ٥٧٣) والقرش فى الأصل تعريب Croshén الألمانية وهى تعنى البياستر Piaster أى النقد الأسبانى الفضة الذى ضرب وتداول فى مطلع القرن الادس عشر الميلادى ، ثم استقر التعامل التجارى مع بلدان الشرق العربى فى مصر ، ضرب هذا النقد فى الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليمان الثانى (١٦٨٦ - ١٦٩٠م) وفى مصر ضربت القروش لأول مرة فى عهد على بك (١١٨٣ هـ / ١٧٦٩م) « انظر : عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص ٥٢٥ ») .

(٣) دفتر ثانى الجيزة احباسى ، رقم الحفظ النوعى ٦ ، عين (٦١) مخزن تركى رقم () مسلسل عمومى ٤٦٢٠ ، بتاريخ ٢٣ ربيع أول عام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م . وقد حدد الواقف مبلغ ٩٧٥٠ نصف فضة على المدرسة والمكتب .

وقد أوقف الأمير محمد بك أبو الذهب الكثير من الحوانيت والقيساريات[١] وأراضي زراعية في ولاية الغربية ، للصرف على المساجد ومنشآت التعليم مثل المدارس الملحقة بالمساجد[٢] ، وقد أوقف البعض من أمراء المماليك عدة أراضي للصرف منها على مكاتب وزوايا وأسبلة ، ومرتبات الموظفين العاملين بها [٣].

وأوقف بعض الولاة العثمانيين للكثير من الإحباسات للصرف على أماكن التعليم ، مثال ذلك سنان باشا ، الذي أوقف الكثير من أجل الصرف على جامع بالمحلة الكبرى مخصصًا للتدريس[٤] ، كما أوقف بعض التجار المغاربة عدداً من القراريط للصرف على البيمارستان المنصوري[٥] .

---

(١) **القيسارية** . يتفق معظم الباحثين على أن كلمة القيسارية التي تعني السوق المعمارية في المدينة لإسلامية وهي : بمعنى السوق الإمبراطوري أو القيصري ، التي تقيمها الدولة ، ويكون خاضعًا لإدارتها . بخلاف الفندق الذي يقيمه الأفراد وتؤول ملكيته إليهم ، في حين يفسرها بعض الدارسين بأنها سوق التجار ، ويرى بعض الباحثين أنها اشتقاق من كلمة القصر العربية .

والقيسارية مؤسسة تجارية متسعة النطاق ، تختلف نوعًا ما من مدينة إلى أخرى وتتكون في بعض الأحيان من فناء مركزي فسيح تحيط به أروقة مسقوفة تقام فيها الحوانيت ، والمصانع الصغيرة والمخازن ، ومنازل الغرباء من التجار على نمط الفندق أو الخان أو الوكالة ، وأحيانًا أخرى تتخذ شكل شارع مسقوف بقبوات من الآجر أو بمعروشات العنب أو بأسقف الخشب المقرمدة أو يترك مكشوفًا وتتوزع عى جانبيه حوانيت الباعة ، وأحيانًا ثالثة بشكل بدروبه المستقيمة الضيقة حيًا مصغراً من أحياء المدينة ، وقد يكون ساحة في وسط المدينة تتوزع حولها المنشآت التجارية (انظر : أحمد الطوخي ، القيساريات الإسلامية في مصر والمغرب والأندلس .، مجلة كلية آداب سوهاج ، العدد ٢٨ عام ١٩٨١م ، ص ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢) دفتر الرزق رقم الحفظ النوعي (٦) ، عين (٦١) مخزن رقم (١) .

(٣) دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعي (٦) ، عين (٦١) مخزن رقم (١) مسلسل ٢٠٠ ، عام ١١٢٣هـ / ١٧١١م من الأمير عبد الرحمن جاويش مستحفظان القازدغلي ملتزم ناحية جبارس . وقد حدد الواقف أغراض أخرى مثل فرش الجامع بالحصير ونوعها والشمع اللازم للإضاءة ونوعه ومرتبات ناظر الوقف والمساعدين له ؛ ويحدد أيضًا مرتب الفقيه نظير تأديب الأطفال وتعليمهم (انظر دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعي (١١) عين (٦٢) مخزن تركي رقم ١٠) مسلسل عمومي ٤٦٢٥) كما حدد البعض المرتبات النقدية والعينية ، وشراء الورق والكراريس الخاصة بلوازم هذه المؤسسات وصيانتها . (انظر دفتر الرزق ، رقم ١١ ، عين (٦١) مخزن تركي رقم ١٠) مسلسل عمومي ٤٦٢٥ . حجة وقف من جانب الأمير صالح بك شاهين أمير الحاج المصري سابقًا بتاريخ ٢٠ جمادى أول عام ١١٧٥ هـ / ١٧٦١م) .

(٤) دفتر رزق ، رقم الحفظ النوعي (٦) مخزن تركي رقم (١) مسلسل ٤٦٢٠ .

(٥) دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعي (٥) ، عين (٦١) مخزن تركي رقم ٤٦٦٢ .

وأحيانًا يمتنع بعض الملتزمين عن دفع خراج الأوقاف وخراج الرزق المرصدة على المساجد ، إبان حدوث أزمات سياسية فى البلاد مثل أزمة كوجك[١] محمد ولكنهم ألزموا بالدفع[٢] .

وتكون عادة الأموال والممتلكات وفيرة بشكل واضح بحيث يسمح للصرف على هذه الأماكن من تعليم وكساء الأطفال الفقراء منهم مهما كان عددهم ، وكان باستطاعة أى طالب أن يأتى إلى الأزهر ويتلقى علومه دون أن يدفع أى مبلغ . ويقول البعض أن الطلبة يأتون إلى الأزهر أو المدارس الأخرى من أجل وجبة الطعام التى تقدم لهم وهو أمر مبالغ فيه[٣] .

كما كانت الإقامة الدائمة فى الرواق بالمجان طوال السنوات التى يقضيها كل منهم فى تحصيل العلم ورحابه ، ويوزع عليهم بدون مقابل نقود يومًا بعد يوم وفق نظام رتبت الجراية ، وهى عدد معين من أرغفة الخبز ، كما صرف لأعداد منهم مرتبات نقدية فى أول كل شهر هجرى ، ويقدم لطلبة الأروقة الأطعمة والحلوى والعطايا فى المناسبات الدينية كشهر رمضان المبارك والعيدين والمولد النبوى الشريف وما إلى ذلك[٤] .

أما بالنسبة للمدارس الخاصة بالمسيحيين ، فكانت تعيش على الإعانات والعطايا الخيرية مثل الأديرة[٥] ومرتبات المدرسين ، وكان يحصل عليها من الأتعاب المتواضعة التى يجمعها من التلاميذ[٦] .

ومرتبات المدرسين فى المدارس اليهودية . فكانت أجرة المدرس فى المدارس المجانية تصل إلى ٥٥٤ قرشًا ، إلا أن هذا لايعنى ارتفاع أجور جميع المدرسين ، فكان مدرس اللغة العبرية يتقاضى ١٠٧٧ قرشًا سنويًا ، ومدرس اللغة الإيطالية ٥٧٧ قرشًا ، ومدرس اللغة الفرنسية والجغرافيا ٣٨٥ قرشًا واللغة العربية ١٢٦ قرشًا فقط[٧].

---

(١) كوجك : كلمة كجك هو الكلمة التركية أى الصغير (انظر : أحمد السعيد ، المرجع السابق ، ص٦٥) كما تعنى كلمة كوجك الصغير أو الحقير . (انظر : على الشاذلى الفرا ، ذكر ما وقع بن عسكر مصر المحروسة ص ٣٩٣ ، هامش ٤) .

(٢) دفتر الرزق ، رقم الحفظ النوعى (٦) ، عين (٦١) مخزن تركى ١ ، مسلسل ٤٦٢٠ .

(٣) G. El Shayyal, op. cit., p. 118 .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص ٢٤١ ؛ إدوارد لين ، المرجع السابق ، ص ٧٨٦.

(٥) ج . دى . شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٦) نفسه ، ص ٦٢ .

(٧) محمود الشال ، المرجع السابق ، ص ٣٤٢ .

كان ذلك بالنسبة لأوجه الإنفاق على التعليم فى مصر خلال هذه الفترة وقبل ذلك . فكان التعليم يقع على عاتق كل من الأمراء والأهالى على حسب أوقافهم وهذا بعكس أوروبا فإن عبء التعليم وإنشاء مؤسساته العلمية ورعايتها تقع على عاتق الحكومات ، وهذا أدى إلى الوصول لدرجة عالية من التوهج العلمى والأدبى ، وأنه خضعها بوسائل تشبه ما عليه مؤسساتنا المعاصرة [١].

خامسًا : هيئة التدريس :

إن الحديث عن هيئة التدريس تشمل الكتاب والمدرسة والمؤسسات التعليمية الأخرى ، وأيضًا التعليم العالى ، والمهام التى يقوم بها كل منهم .

فأعضاء هيئة التدريس بالكتاب تتمثل فى ، المعلم أو الفقيه أو المؤدب[٢] والعريف . وكان الفقيه يقضى وقتًا من حياته فى الأزهر أو تلقى العلم فى إحدى المدارس الملحقة بالمساجد الكبرى على يد متخرج من الأزهر[٣] وكان أغلبهم قليل الاطلاع والقليل منهم من يتعدى حفظه للقرآن وبعض الأناشيد والأدعية فيؤجرون لتلاوتها وتلاوة القرآن الكريم ، فى المناسبات الخاصة ، واشترط عليه أن يكون خيراً أمينًا على أطفال المسلمين ، متين الخلق عفًا متزوجًا عارفًا بضاعته صالحًا للتعليم ، وربما كان فى المكتب أكثر من واحد ، وعريف إذا تطلب كثرة الأطفال ، ففى مثل هذه الحالة يعين له عدد من الأطفال ، ليقوم بالإشراف عليهم وتعليمهم[٤].

وكانت مهمته الإشرافية تتلخص فى الإشراف على تصرفات وتحركات الصبية داخل وخارج المكتب ، وعليه مراعاة ظروف الأطفال الاجتماعية والفروق الاقتصادية بينهم ، فلا يسمح لأطفال الأثرياء إحضار دكة أو غيرها للجلوس عليها ، لأن ذلك ترفيعًا لابن الغنى على غيره[٥] ، ويجب عليه أن يتحرى على أطفاله وأن يكونوا حسنى الخلق والسلوك ، ألا يترك

---

(١) خوليان ريبرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيرها الغربية ، ترجمة الطاهر أحمد مكى ، ص ١٢ .

(٢) مؤدب ، أشتق المؤدب من الأدب والأدب إنما خلق أو رواية ، وقد أطلقوا كلمة مؤدب على معلمى أولاد الملوك إذ كانوا يتولون الناحيتين جميعًا (انظر : أحمد شلبى ، تاريخ التربية فى الإسلام ، ص ٥٨) .

(٣) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤ - ٨ .

(٤) سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٣٥ .

(٥) نفسه ، ص ١٠٣ .

بينهم أحداً ممن عرفوا بسوء الخلق ، أو من يكون ناهز الاحتلام ، وله جرأة ويخشى عليه من الفساد ، لأن فى ذلك سبيلاً للوقيعة فى حق بعض الصبيان [١].

وعليه مراقبة الأطفال داخل المكتب حتى لا يتشاغلوا باللعب عن دراستهم وألا يترك أحداً من الباعة يقف أمام المكتب حتى لايجذب انتباه الصبية إليه ، وفى نفس الوقت يجب ألا يتشاغل هو عنهم بالحديث مع من يمر عليه من الناس أو القيام بأى عمل آخر سواء بالكتابة أو غيرها بغير ضرورة شرعية إلا إذا كان أنشغاله فى الكتابة [٢].

وأن يتوخى الحذر فلا يرسل أحداً من الصبيان إلى داره وهى خالية ، حتى لاينظر إليه الشك والتهم ، وألا يرسل صبيًا مع امرأة ليكتب لها كتابًا ولا غير ذلك حرصًا على سمعة الصبيان ، حتى لا يستطيع أحد من النساء التغرير بهم [٣].

ويعلم الطفل احترام الناس ومراعاة الذوق والأدب طبقًا للعرف الجارى وأن يلقى السلام على من يدخل عليهم أو يمر بهم من الناس وخاصة الوالدين إذ يفترض على الأولاد تقبيل أيديهما عند الدخول والبر بهم[٤] بالإضافة إلى مهامه التعليمية .

وكانوا يخضعون لرقابة المحتسب ، فتقضى قوانين الحسبة ألا يعلم الخط فى المساجد ، حتى لايعبث الأطفال بالكتابة على جدرانها ، وألا يستخدم الصبية فى قضاء حاجاته[٥] ألا بعد موافقة والده[٦] .

وتصدر قرارات تعيين مؤدبى الأطفال من شيخ الإسلام ، قاضى القضاة ، ويصدر بالقرار بأنه مؤدبًا ومعلمًا للأطفال فى مكتب تأديب الصبية ، وحددت مرتباتهم الشهرية[٧] وكان بعض المؤدبين من المغاربة أحيانًا [٨].

---

(١) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) ابراهيم طرخان ، النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ص ٣٢٨ .

(٤) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٥) ابراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

(٦) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٧) جميل عرفة منتصر ، دور علماء الأزهر فى مصر العثمانية ، ص ١٣٥ .

(٨) أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية ، سجلات المحكمة الشرعية ، سجل رقم ٥ ، مادة ٣٥ ، ص ١٣٤ .

أما العريف ، وهو فى الأصل طالب متفوق ، يقوم بمساعدة المعلم ، لتعليم الأطفال الكتابة مدعيًا ضعف البصر[١] وهو أشبه بالمعيد فى الجامعات فى عصرنا الحالى ، وغالبًا كان يأخذ مكان المعلم عندما ينتقل إلى مكان آخر أو عند موته[٢] .

أما أعضاء هيئة التدريس بالمدرسة منهم المدرسون والمعيدين ، وكانت وظيفة المدرس فى العصر المملوكى جليلة القدر ، يخلع السلطان على صاحبها ويكتب له توقيعين من ديوان الإنشاء مختلف باختلاف المادة التى يدرسها المدرس تفسيراً كانت أو حديثًا . ويقدم السلطان النصح بأن يظهر « مكنون علمه » للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه منشرح الصدر ليستميل إليه طلبته ويربيهم كما يربى الوالد ولده ، « كذلك طلب منه » أن ينظر فى طلبته ويحثهم كل الوقت على الاشتغال [٣].

وقد اشترط فيمن يتولى التدريس بعض الصفات التى يجب أن تتوفر فيه ، وفى مقدمتها الديانة والورع والتقوى بجانب ما يمتاز به من العلم فى فروع تخصصه .

وعليه أن يتدرج فى التعليم من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المعقد وهكذا ، على أن مهنة التعليم فى ذلك العصر قد اتسمت بطابع الأرستقراطية ، وليس ذلك بغريب فى مجتمع طبقى نمى غالبًا نحو الجمود ، إذ حرص المدرسون على ألا ينظرون إلى زمرتهم من العوام [٤].

وينبغى أن يكون المدرس الموكل إليه بأمر التدريس قادراً على القيام بمهام وظيفته ، وأن يكون حافظًا للقرآن ، وإذا ما رأى القاضى أنه أقل كفاءة ، مما يقتضيه العمل فباستطاعته أن يرغم القائم على أمر إدارة المدرسة أن يختار مدرسًا آخر أكفأ ، ولكن مهنة التدريس لاتحظى بالعناية الكافية ومكانتها بالغة الضعف . وإذا ماكان المدرس كفئًا لحد أمكنه أن يجذب عدداً كبيراً من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل بعض النفع ، وإلا فعليه أن يعيش خامل الذكر ، وفى حال تقرب من العوز ، وليس له أن ينتظر نفعًا[٥] ، وفروع التخصص للمدرسين هى الفقه

---

(١) إدوارد لين ، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم ، ص ٥٧ ؛ . Dunne, op. cit., p. 44

(٢) سيد إبراهيم الجيار ، تاريخ التعليم الحديث فى مصر وأبعاده الثقافة ، ص ١١ .

(٣) Dunne, op. cit, p. 34.

(٤) إبراهيم طرخان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٥ .

(٥) ج . دى . شابرول ، المرجع السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ .

والتفسير والقراءات والحديث ، واشترط على كل متخصص منهم بعض الشروط[١] . فاشترط على مدرس الفقه أن يكون ملمًا بالمذاهب الأربعة وكان منهم من هو دون المستوى الأمر الذى أدى إلى سخرية وتندر الناس بهم ، وبالنسبة لعلم التفسير اشترط على مدرسه أن يكون قد سبق له دراسة علوم اللغة والنحو والتفسير والمعانى والبيان وعلم البديع والقراءات ، كما يستعين بأصول الفقه وعلم الحديث ، واشترط على مدرس القراءات معرفة أنواع الرواية وأحكامها وشروط الرواة والتأكد من براءتهم من الجرح والفعلة ، وأضبط الكتب التى صنفت فى ذلك وأصحها رواية صحيح مسلم ، وصيحي البخارى والسجستانى والترمذى وغيرهم[٢] واشترط فى مدرس الحديث أن يكون عالمًا فى اللغة والنحو حافظًا لحديث رسول الله ﷺ ، بطريقة الرواية والدراية والعلم بأسماء الرجال ، وطرق الأحاديث والمعرفة بالأسانيد [٣].

أما المعيد فقد ارتبطت وظيفته بالمدارس فى مصر منذ نشأتها . فقد عين صلاح الدين معيد بالمدرسة الناصرية المجاورة للشافعى ، إلى جانب مدرسها . وبعد ذلك رتب بعض الواقفين المعيدين فهو دون المدرس وأعظم درجة من الطلبة . ومن المعتقد أن هذه الوظيفة قد ظهرت فى القرن الخامس الهجرى ، وارتبطت غالبًا بالمدارس التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن الخامس [٤].

ويختاره المدرس من أحسن تلاميذه النابغين المتفوقين ، وكانت وظيفته شرح بعض الدروس لمن يحتاج ذلك من الطلبة[٥] فقد حرص أن يكون فى بعض المدارس ، بعض المعيدين أو أكثر، ووظيفته تشبه إلى حد كبير وظيفة المعيد فى الجامعات فى العصر الحديث ، وعليه أن يحضر الدروس التى يكلفه بها المدرس ليقرأها أثناء الدرس[٦] ، وكان من الجائز أن يندب معيد للقيام بعمل مدرس فى مدرسة أخرى أو أن يرقى إلى مدرس فى نفس المدرسة[٧] .

---

(١) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ٢٧١ .

(٣) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ص ٦٢ .

(٤) سعيد عاشور ، العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٢٢ ؛ محمد سيد الكيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ٣٩ .

(٥) محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ٢٤٦ .

(٦) عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٧) نفسه ، ص ٦٢ .

وبالنسبة لأعضاء هيئة التدريس بالأزهر ، فكان يتم تعيين العضو بمرسوم يذكر اسمه مسبوقًا بالألقاب العلمية ، ويشتمل المرسوم على توجيهات الأستاذ برعاية مصالح الطلبة ، وإعزازهم والاشتمال عليهم ، كما كانت هذه المراسيم تختلف صياغتها اللفظية من مرسوم إلى آخر . باختلاف المادة التي يسند تدريسها إلى الأستاذ من الفقه الشافعي ، أو الفقه المالكي ، أو الحديث أو الرقائق أو التفسير أو القراءات ، أو الدراسات اللغوية من نحو وصرف وغيره ، أو الدراسات الأدبية وما إلى ذلك[1] .

ورتب لهم السلطان تراتيب عظيمة وخيرات كثيرة من جانب مال ميري وغلال الميري في كل سنة . ولهم على الباشا فراوي وأصواف جيب حين حضوره بمصر [2].

ولم يكن هيئة التدريس بالأزهر من المصريين فقط ، بل شملت فئات أخرى من العالم الإسلامي مثل الحجازين ، والشوام[3] والمغاربة[4] وغيرهم .

سادسًا : الجهاز الإداري في المدارس والمؤسسات التعليمية الأخرى :

كان الجهاز الإداري في هذه المؤسسات ، يتكون من الناظر ، والمباشرين والجباه ، والصيارفة ، والشادية ، وكاتب الغيبة ، والوظائف الفنية مثل الرخم ، والمعمار ، والسباك ، والنجار ، بالإضافة إلى وظائف الخدمات ، مثل الوظائف الخاصة بالمطبخ ووظائف خاصة بالساقية والمزملة ، ووظائف خاصة بالنظافة والحراسة مثل الفراشين ، القومة ، والبوابين .

فكان الناظر على قمة الجهاز الإداري في الوقف الخاص بالمدرسة ، وفي بعض الأحيان يكون الواقف هو نفسه ، أو ناظر يقرره الواقف نيابة ويتقاضى مرتبًا سنويًا مقابل القيام بنظارته . وكان يشترط فيمن يتولى وظيفة النظر على الأوقاف أن يتمتع بالكثير من الصفات الخلقية كالأمانة والكفاية والعدالة . ويقوم بتنفيذ شروط الواقف التي تعتبر اللائحة الإدارية الخاصة بالمدرسة والموظفين الذين جرى تعينهم فيها ، وشروط العمل وشروط السكن سواء أكان

---

(١) عبد الله عنان ، تاريخ الجامع الأزهر ، ص ١٣٠ ؛ عبد العزيز الشناوي ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣) سجل الباب العالي ، رقم ٢٢٤ ، مادة ١٨٤ ، ص ٢٤٣ ، بتاريخ ١٢ ربيع الأول عام ١٠٥٠ هـ.

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن ، المغاربة في مصر في العصر العثماني ، ص ٨٥ .

ذلك بالمدرسة أو الخانقاه أو غير ذلك من المؤسسات التى أنشئت بغرض التعليم فى تلك الفترة[١].

ولم يكن نظار المدارس من المصريين فقط بل شاركهم فى ذلك المغاربة[٢] والحجازين[٣] وعليهم جميعًا تنفيذ شروط الواقف من حيث الصرف على أجور المدرسين ، وصيانة المبانى وترميمها ، والمواد التى تدرس ، وإذا خالف البعض وصية الواقف ، ففى مثل هذه الحالة يتدخل بعض العلماء ، ويصدروا فتوى بإلزامهم بتدريس المواد على حسب شروط الواقف[٤].

والمباشرون ، ومهمتهم عمل حسابات الوقف وضبطه واستلام المتحصل من الجباه وصرفه على الوجه الذى حدده الواقف[٥] والجباه ، ويشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من أهل الذمة ، ويقوم بجباية ريع الأوقاف وأن تكون لديه المقدرة على تحصيلها ، وألا يترك قسطًا إلى أن يستحق قسطًا آخر[٦] . والصيرفى الذى يتولى صرف مستحقات الموظفين ، وقد يقوم الجابى أو المباشر بمهام هذه الوظيفة[٧] .

والشادية أو المشد ، وكان يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون ثقة أمين ومن أهل الخير والدين وله همة وأن يكون أمينًا جداً ، وهذه الوظيفة متعددة الجوانب إذ أن صاحبها يتبر مشرفًا على الأقسام الثلاثة ، إذ يقوم بالإشراف على العمارة وصيانتها ، والإشراف على العمال الفنيين ، والمعاونة فى جباية ريع الأوقاف وعمل مصالحها بالإضافة إلى إشرافه على أرباب وظائف الخدمات بالمدرسة وحثهم على العمل[٨] .

ويشترط فى كاتب الغيبة أن يكون من أهل الأمانة ، ويكتب أسماء المتخلفين عن الحضور للمدرسة من سائر الموظفين فإذا كانت غيبة الموظف بدون عذر قطع عنه المعلوم عن الأيام التى تغيبها ، أما بالنسبة لغيبة الطلبة فغالبًا ما يقوم بها النقيب[٩] .

---

(١) تقى الدين المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٦٣ ؛ محمود حامد الحسنى ، الأسبلة فى مصر العثمانية، ص ٣٠٣ .

(٢) أرشيف الشهر العقارى ، سجل رقم ٣ ، مادة ٦٠٨ ، ص ٢٠٧ .

(٣) سجل رقم ١١ ، مادة ٢٢٩ ، ص ٦٦ .

(٤) سجل رقم ٩ ، مادة ١٤١ ، ص ٤٥ .

(٥) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٦) محمد محمد أمين ، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ٣٠٤ .

(٧) نفسه ، ص ٣٠٥ .

(٨) محمد عبد الستار عثمان ، وثيقة جمال الدين الاستادار ، ص ١٥٨ .

(٩) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

أما الوظائف الفنية ، فيتولاها المعمار ، فهو المختص بأعمال الصيانة وتفقد المبانى وإصلاح مايحتاج إليه الإصلاح فيها ، والإشراف على العمال والفعلة أثناء عملية البناء أو الترميم ، وإحضار مايحتاج إليه من المون والآلات وغير ذلك[١] والمرخم ، ومهمته القيام بعملية تركيب الرخام وصيانته ، وإصلاح ما يتطلب ذلك من الرخام الذى بالجدران أو أرضية المدرسة وفسقيتها [٢]، والسباك ومهمته صيانة مجارى المياه بالمدرسة وإزالة العوائق التى تسدها[٣] ومهمة النجار الأساسية صيانة السواقى المعدة لرفع الماء لما لها من أهمية فى حياة المقيمين بالمدرسة[٤].

وبالنسبة لوظائف الخدمات بالمدرسة فتشمل المطبخ ، وكانت وظيفة الطباخ من الوظائف النادرة فى المدارس . وكان أصحابها - المدارس - فى بادىء الأمر يؤجرون الطباخين لطهى ما يرغبون فيه فى مدارسهم . أما كون الطباخ موظفًا دائمًا فى المدرسة فهى وظيفة لم توجد إلا فى مدرسة السلطان برقوق[٥] . ويساعده واحد أو أكثر من المساعدين له يسمى حوائج كاشيد، واختصاصاته القيام بشراء احتياجات الطبخ وإحضارها للمدرسة ، ويساعد الطباخ فى تأدية عمله والقيام بعملية النظافة داخل المطبخ . ويقوم بالإشراف على المطبخ أحد المشرفين تكون مهمته الإشراف على توزيع الطعام على مستحقيه[٦] .

أما الوظائف الخاصة بالساقية والمزملة فكان السقا هو الذى يتولى نقل المياه من البحر الأعظم إلى صهاريج المدرسة أو الأسبلة لملئها ، بالروايا والقرب على ظهور الجمال أو الحمير . وكان عملهم موسميًا أو سنويًا ولعدة أيام فقط ، وغالبًا أثناء موسم الفيضان ولهذا كان يتم استئجارهم مقابل مبلغ محدد بعدها يمارسون عملهم فى الشوارع والبيوت[٧] وهذه الفئة لا تتبع الواقف أو ناظر الوقف وإنما كانوا تابعين لشيخ طائفتهم ، والشروط التى يجب أن تتوافر

---

(١) محمد عبد الستار عثمان ، المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٢) محمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

(٣) محمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٣١٨ .

(٤) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٥) نفسه ، ص ٢٠٣ .

(٦) نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٧) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٣٠٧ .

فيهم ، أن يكون رجلاً أمينًا لايخلط ماء البحر بغيره من المياه المالحة ، ولا يتخذ رواية أو قربة جديدة حتى لايتغير طعم ولون ورائحة الماء من أثر الدباغة [١].

والمزملاتى هو الموظف المختص بالعمل فى السبيل ، وكان عليه فتح وإغلاق السبيل فى الأوقات التى حددها الواقف فى كتاب وقفه ، وعليه نقل الماء من الصهريج وصبه فى أحواض المزملة . ثم يتولى تفريقه على المارة والمترددين من الناس والطلبة فى أوقات الدراسة . وقد اشترط عليه أن يكون من الرجال ومسلمًا ، وأن يكون من أهل الخير والدين والصلاح ، نظيف الثياب والبدن ، سالمًا من العاهات ، قوى النهضة ، قادر على العمل ورجل ثقة وأمينًا وجميل الهيئة [٢].

وبالنسبة للوظائف الخاصة بالنظافة والحراسة ، فنجد أن الفراش يقوم برش الماء أمام المبنى وكنسه وتنظيفه ، وإنارته وهى من المهام التى تولاها المزملاتى . والقومة هو الذى يتولى الإشراف على إنارة المدرسة والمئذنة وتعمير القناديل ووقودها وطفيها وعمل الصيانة اللازمة لها من المسح والتنظيف[٣] والبواب هو الذى يقوم بحراسة باب المدرسة أو السبيل وغيره . وحفظ ما بها من متاع ومنع غير المرغوب فيهم م أرباب التهم والفساد وأصحاب الحرف الدنيئة من دخولها . وفى بعض الأحيان نجد أن البواب يقوم بوظيفة البوابة والفراشة والنظافة أن تمكن من القيام بذلك بمفرده ، فإن تعذر فيمكن زيادة عدد الأفراد[٤] .

وأخيراً علينا أن نذكر أن مؤسسى المدارس لم يهملوا الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب لوظائف بالمدرسة سواء كانوا المقيمين بالمدرسة أو المقيمين خارجها ، على أن هذه الرعاية لم تشمل كل المدارس كلها ، ولكنها وجدت بالمدارس الكبيرة فقط[٥] .

أما بالنسبة للأجازة بهذه المؤسسات التعليمية فإنها تبدأ من شهر رجب حتى الأسبوع الأول من شهر شوال ، ويقضى أعضاء هيئة التدريس والطلبة أجازاتهم فى مدنهم وقراهم ، والأجازة

---

(١) محمود حامد الحسينى ، المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) نفسه ، ص ٣٠٩ ؛ عبد الغنى محمود عبد العاطى ، ص ٢٠٤ .

(٤) عبد الغنى محمود عبد العاطى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

(٥) محمد أمين ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤ .

القصيرة هى الخاصة بالعيد الكبير ويقضى طلبة الصعيد والأجانب هذه الأجازة فى الأزهر ، وهذا بعكس طلبة الوجه البحرى[١] . وبالنسبة للأروقة تأخذ الأجازة فى نفس الوقت أيضًا وتستمر فى تقديم الجرايات والمرتبات النقدية والأعطيات وما إلى ذلك من وجوه البر للطلبة المقيمين فيها على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم الدينية[٢] . أما أجازات الموظفين فهى أجازة الحج إلى بيت الله الحرام ، وثلاثين يومًا لزيارة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه[٣] .

أما الزى ، فإننا لانجد من المصادر شيئًا عن ملابس التلاميذ ، فإنه يبدو أنه لم يكن هناك زى معين ، أما بالنسبة للأزهر فإن طلبة الأروقة يختلفون فى الزى لاختلاف بلادهم . وقد يلبس الطلبة الوافدون من الصعيد جلاليب زرق ذات خيوط بيضاء . وكان هذا النوع من الجلاليب يصنع فى أخميم أو فى جرجا . وقد يرتدى الطلبة الموسرون الثياب المفرجة من جيب وقفاطين وجوارب فى أقدامهم تشبها بأهل القاهرة ، ولكن جميع الطلبة الأغنياء والفقراء ، يتفقون فى غطاء الرأس وهو العمامة ، ونادراً جداً أن يوجد طالب لايرتدى العمامة[٤] .

أما عن ملابس العلماء ، فإنهم يلبسون العمائم ، ونظراً لأنها الجزء الأكبر أهمية فى ملابسهم ، فقد أطلق عليهم لكونهم طبقة قائمة بذاتها « أرباب العمائم » أو « المتعممون ». وهذا لايعنى أنهم كانوا الوحيدين الذين لهم عمائم فوق رؤوسهم ، غير أن عمائمهم كانت أكبر حجمًا وأكثر أهمية من عمائم الآخرين وتتضح أهمية العمائم عن بقية الملابس الأخرى عند الحديث عن العمائم الملونة التى كان يمكن بها تمييز المسيحيين واليهود عن المسلمين ، حيث كان المسيحيون عمامتهم زرقاء واليهود صفراء [٥].

وبصفة خاصة كانت ملابس العلماء من المسلمين تستند إلى الطبقة التى ينتمى إليها صاحبها فى الهيئة الاجتماعية أو المركز الذى يشغله فى خدمة الحكومة . وكان من المألوف أن يرتدى القضاة والعلماء عمائم كبيرة الحجم شاذة فى ضخامتها وكان لبعضهم أطراف عمائم

---

(١) Dunne, op. cit., pp. 36 - 37 .

(٢) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣) سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ ٥ ، ص ٢٦٦ .

(٤) عبد العزيز الشناوى ، الأزهر جامعًا وجامعة ، جـ١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ؛ عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، ص ٦٤ .

(٥) ل . م . ماير ، الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، ص ٩٠ .

أو ذوائب تسترسل بين الكتفين حتى تبلغ « قربوس » سروجهم إذا ركب ومنهم من يجعل عوض الذواية الطيلسان العائق ، ويلبس فوق ثيابه دقًا (جبة) متسع الأكمام طويلها مفتوحًا من الأمام سابلاً على قدميه . أو يلبس بدل الدلق فرجية مرجة من أعلاها إل أسفلها مزورة الأزرار (١).

سابعًا : تدهور التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر :

لقد تدهور التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر بشكل ملحوظ لدرجة أن أحد باشوات مصر ، أحمد باشا (١١٦٢ - ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ - ١٧٥٠م) ، كان رجلاً متعلمًا ، ومغرمًا بالرياضيات . وعقب وصوله إلى القاهرة أعلن عن رغبته فى مقابلة علماء الأزهر ، كى يناقشهم فى بعض المسائل الرياضية . وفى اجتماعية الأول لم يستطع العلماء الإجابة عن تلك الأسئلة ، ولكنم ذكروا اسم أحدهم وله دراية بهذا الموضوع ، وكان الشيخ حسن الجبرتى ، وناقشه وأجاب ، وقال له الشيخ عبد الله الشيرازى « ألا فليسترك الله كما سترت وجوهنا أمام الباشا فلو لم توجد لعدنا الباشا حميراً »(٢) .

وتوضح الدراسات والإنتاج الأدبى لهذا القرن على وجه العموم الخاصية ذاتها فى الانحلال، وأحيانًا يوصف هذا الانحلال بتركيز زائد على المؤلفات الدراسية والدينية والسحرية، ولايشكل هذا إلا جزءًا من الحقيقة فالواقع أنه رغم أن الإنتاج التعليمى كان وفيراً إلا أنه كان قليل الأصالة .

وإننا لانتوقع غير ذلك ، لأن غرس الأدب كان يتوقف إلى حد كبير على تشجيع الكبار ، كما أن إخضاع الأقاليم العربية للسيطرة العثمانية ، فقد حرمها من تأييدهم ، اللهم إلا فى نطاق ضيق . ويذكر جب وبوون ذلك بقولها « ويجب البحث عن الأسباب الرئيسية لتدهور الأدب فى أحوال وجودها ، وبخاصة فى إنعدام الاتصال المستمر بالعالم الخارجى ». ولما كان هذا الأدب يعوزه أى دافع صحى أو نقد يأتيه من الخارج ، لذا كان يعانى نوعًا من الانطواء ، وكان يعيش على ماضيه . وحتى صلاته بالأدب المعاصر . التركى والفارسى ، كانت صلاته

---

(١) ل.م.ماير ، الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتى ، ص ٩١ .

(٢) G. El Din El Shyyal, Some Aspects... p. 118 , Dunne, op. cit., p. 78 .

طفيفة ، وباستثناء حلب وثمة سبب آخر لهذا الضعف ، وهو ضيق فى دائرة الأدب ، ونتائج المستويات الزائفة التى لامناص منها ... وهى التي ثبطت همة الابتكار والأصالة [١].

ولذلك فإننا نجد أنه بالنسبة للمنهج الدراسى ، فإن المدرسين لم يكتبوا أى كتب جديدة أصيلة ، إذ أنهم قرروا الكتب القديمة التى كتبها من سبقوهم .

ويتضح ذلك من تواريخ حياة العلماء وشيوخ العصر أن بعضهم كتب عدداً من الكتب والملازم ، ولكن لم يكن لأى من هذه الكتب فائدة كبرى ، أو إضافة جديدة للمعرفة ، وكل ماقاموا به ، هو كتابة تعليقات على النصوص القديمة أو إضافة مذكرات لهذه التعليقات ، وفى الواقع يمكن أن نطلق عليه عصر التعليقات[٢].

ويمكن تقدير وضع مصر العلمى فى القرن الثامن عشر من خلال فحص كتب العلماء والمفكرين . وزيادة عدد المتصوفين ، وصارت الصوفية نوعًا من الهلوسة واعتقد الناس كثيراً فى السحر والخرافات ، واعتبرت المصحات أماكن للأولياء واعتبر المعتوهين مشايخ محترمين. وكان المشايخ الذين كتبوا كثيراً أحجبة محل تقدير من قبل العامة والطبقة المثقفة[٣].

يمكننا أن نضيف أن نوع الحياة التى عاشها رجال الأدب فى خلال ذلك العصر كانت مسئولة أساسًا عن ضعف إنتاجهم ، وهبط الوضع الاقتصادى ، وساد الفقر أيضًا لدى رجال الأدب ، فأصبحت جوانب الإيحاء بالنسبة لهم قليلة ، لذلك أهملوا المعنى واهتموا بتجميل الأسلوب فحسب ، وبذلوا قصارى جهدهم لكتابة أنواع من القصائد التى تقرأ من اليمين إلى اليسار والعكس ، كما كتبوا كثيراً عن الأقاصى التى تشير إلى تاريخ وفاة رجل عظيم أو بناء أثر وهكذا .

وكانت علامات هذا الانحلال فى الحركة الثقافية جلية فى الكتابات التاريخية التى وصلت إلى وقفة حقيقية بعد استمرارها ، دون توقف منذ أيام ابن الحكم ما لم تعتبر كتابات الشعرانى: مثلاً كتاريخ وهو الذى كتب تواريخ حياة الصوفيين فى كتابه الطبقات الكبرى[٤]،

---

(١) G. El Din El Shyyal, op. cit., p. 118 .

(٢) توفيق الطويل ، التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، ص ٢٥ .

(٣) توفيق الطويل ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٤) جرجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ٤ ، ص ٥ - ٦ ؛ عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ١ ، ص٤٨-٤٩ ؛ عبد الله شحاته ، منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، ص ١٢ ؛ أحمد بدوى ، رفاعة الطهطاوى ، ص ٦ .

وتدهور علم التاريخ ، ويرجع ذلك إلى عدم اهتمام كتاب ذلك العصر بكتابات ودراسة علم التاريخ فكانت نظرتهم هابطة إلى هذا النوع من المعرفة (١) .

وفى الحقيقة ظهر بمصر خلال هذه الفترة عدداً من المؤرخين غير أنهم لم يكونوا ليتعارفوا باسلافهم مؤرخى القرن الخامس عشر وهناك محاولات قليلة لكتابة التاريخ والبيلوجرافيا من جانب الشيخ عبد الله الشبراوى الذى كتب تاريخه عن مصر ، والجبرتى ، وزين الدين أبو الملاح حسن ابن على حجاجى الفرار ، وشمس الدين والأمير الحاج مصطفى بك والمرادى وغيرهم (٢). وفى الجغرافيا مثل بيرى بك عن « البحرية » وأورد كل المعلومات عن البحار والملاحة التى طورها رجال البحر والكتاب المسلمون خلال القرون السابقة مضافًا إليها تجاربه وتجارب رجال البحر الغربيين الذين وصلته معلوماتهم(٣) .

وإذا كانت بعض المدارس قد تدهور فيها أنظمة التعليم ، نجد أن الأزهر على عكس ذلك . وذكرت بعض المصادر أسماء الأساتذة الذين تخرجوا ى الأزهر مثل الشيخ أحمد الدمنهورى والشيخ أحمد العرشى ، والشيخ محمد البليدى والشيخ محمد الخالدى والشيخ الجعرانى وآخرون والشيخ مرتضى الزبيدى الذى تعلم فى جامع الحنفى ، والشيخ الجبرتى والشيخ الشنوانى الذى كان يلقى دروسه فى جامع الفاكهانى (٤).

أما التعليم العسكرى فإنه لم يكن بالمعنى المفهوم والدراسات الحديثة أثبتت محاولات إصلاح التعليم العسكرى للأتراك العثمانيين التى بدأت منذ عهد على بك الكبير وانتهت بحكم محمد على . على أية حال كان تعليمهم وتدريبهم يرجع إلى استعدادهم حيث أحضر المماليك إلى مصر ودخلوا فى الإسلام وتعلموا التركية والعربية وحفظوا بعض الآيات القرآنية، وتعلموا فن المبارزة واستخدام السيف وإطلاق النار ، وكان ذلك كله طيلة العصور الوسطى ، ولم يقفوا على التطور فى الأسلحة لدى الأوروبين ، ومن أجل ذلك ضعف نظامهم فى الفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر . وبدأوا الاهتمام بالتعليم واستعانوا بالأوروبين وخاصة اليونانيين ، وغيروا من نظامهم التعليمى ، واستخدموا المعدات الأوربية الحديثة ، رغم ذلك

---

(١) عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ١ .

(٢) الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٦ .

(٣) H . Dunne, op. cit., p. 78 .

(٤) Ibid., p. 95 .

كله لم يهملوا لثقافة التركية . وبدأت الدولة العثمانية نفسها تستعين الأوروبين ، ففى عهد السلطان عبد الحميد الأول بدأوا فى استخدام المهندسين الإنجليز فى الأسطول العثمانى. كما افتتح السلطان مصطفى الثالث مدرسة لتعليم الرياضيات بمساعدة البارون دى توت Bar De Tott والمدرسة الفنية . وإنشاء السلطان سليم الثالث العديد من المدارس العسكرية والبحرية واستعان بالسويد والفرنسيين[١] .

وسار على نفس المنهج بكوات مصر ، منتهزين فرصة وجود قبطان حسن باشا فى مصر (١٧٨٦ - ١٧٨٧م) لتطوير ذلك بوجود الضباط اليونانيين ، وأراد كل من مراد بك وإبراهيم بك أن يساير هذا التطور ، واعتمدوا فى ذلك على الأوروبيين ، وكادت محاولاتهم تكلل بالنجاح لولا أنهم فوجئوا بوصول الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨م [٢].

وانحطت علوم أخى مثل الفلسفة والفلك وإن كان قد ظهر بعض علماء الفلك فى القرن الثامن عشر ، مثل الشيخ رضوان الفلكى (ت١١٢٢هـ / ١٧١٠م)[٣] والشيخ رمضان ابن صالح عمار (ت ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤م) والشيخ حسن الهندى وغيرهم[٤] .

ولكن الرد على ذلك كما أورده محمد شفيق غربال فى نقطتين مهمتين هما[٥].

أ - « ولكن الباحث المنصف لا يستطيع أن يسلم بأن الأوروبيين فى القرن السادس عشر وما تلاه من الأزمنة ، كانوا على استعداد لأن يقدموا للشرقيين المسيحيين والمسلمين من رعايا السلطان ثمرات نهوضهم العلمى هدية خالصة . كما أن الباحث لايستطيع أن يجهل أن تقدم الحضارة كان فى أغلب الأحايين اسمًا مرادفًا لما كانت تقوم به الأسرات المالكة فى أوروبا من الحروب فى سبيل المجد ، ويشد أزر الملوك - ولكن فى سبيل المجد الأعلى - رجال الدين ، وفى سبيل الاستقلال - رجال المال . أما والأمر كذلك ، فلا سبيل إلى القول بأن الشرق العثمانى كان يستطيع الإفادة كمن النهضة الأوروبية دون أن ينزل عن رجولته وحريته .

---

(١) H . Dunne, op. cit., p. 78 .

(٢) H. Dunne, op. cit., p. 69 .

(٣) الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧٤ .

(٤) نفسه ، جـ ١ ، ص ١٧٠ .

(٥) محمد شفيق غربال ، مقدمة كتاب ، حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ص (هـ) .

ب - « والصحيح فى مسألة الركود هو أن الدولة العثمانية تولت أمر أمم كانت على نوع من الأعياء ، لم يكن الحكم العثمانى قادراً على أن يزيله عنها ، فالعثمانيين كانوا قومًا يأخذون ولايعطون ، تشهد بذلك خططهم وفنهم وآدابهم . فلم يكن منهم إلا أن نظموا ما وقع تحت سلطانهم فى ملك عريض وعملوا على ألا يتطرق إليه تغيير أو تعديل ، شأنهم فى هذا شأن الدول الكبرى المتعددة الأجناس والأديان ، تتهددها دول أخرى معادية » .

ومهما تكن الأسباب فإنا لا نستطيع أن ننسى أن هذا الركود الطويل دفع مصر وسكانها إلى الانكماش زداخل بلادهم ، كما تنكمش القوقعة داخل صدقتها ، وطال إنكماش مصر وسكانها فأصيبت وأصيب سكانها بالضعف ، شأن المريض يطول به الرقاد . وتطول به الوحدة ، ولهذا لاتعجب إذا قرأنا وصف الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا على مصر والشام وسائر بلدان الدولة العثمانية فى أواخر القرن الثامن عشر ، أمثال سافارى وفولنى وغيرهما . قال فولنى يصف الحالة الصناعية والعلمية وقتذاك[١] .

« الجهل عام فى هذه البلاد مثل سائر تركيا ، وهو يتناول كل الطبقات ، ويتجلى ذلك فى كل العوامل الأدبية والطبيعية وفى الفنون الجميلة ، حتى الصناعات اليدوية ، فإنها فى أبسط أحوالها ، ويندر أن تجد فى القاهرة من يصلح الساعة ، ورذا وجود فهو إفرنجى ، أما الصياغة فأصحابها فيها أكثر من أزمير وحلب ، لكنهم جهلاء ، وإنما يتفنون المنسوجات الحريرية وإن كانت أقل اتقانًا وأغلى ثمنًا من صنع أوروبا ، أما العلم فموجود فى الأزهر ووجوده فيها جعلها مرجع الطلاب فى الشرق الإسلامى » .

ومع اقتراب نهاية القرن الثامن عشر ، تكتشف أول علامة للإحياء الثقافى التلقائى ، كانت حركة داخلية انبعثت من داخل مصر ، وكانت مستقلة من أى نفوذ خارجي من الشرق والغرب . بدأ جماعة من الكتاب المصريين الذين ظهروا على المسرح الثقافى والذين لم يكن لهم نظير خلال القرون الثلاثة السابقة ، لا فى عددهم ولا فى قدرة المادة التى أخرجوها ، فى مجال الدراسات الرياضية والفلكية تفوق الشيخ حسن الجبرتى ، وفى مجال الأدب كان هناك الشيخ عبد الله الشبراوى ، والشيخ حسن العطار (الذى شغل وقت ما منصب شيخ الأزهر) والشيخ إسماعيل الخشاب ، وفى مجال الدراسات اللغوية والفقهية ، كان الشيخ محمد مرتضى الزبيدى ، وفى التاريخ كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى .

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة فى عهد الحملة الفرنسية ، ص ١٢ .

كان محتملاً أن تأخذ هذه اليقظة شكل الإحياء الوطنى الذى يعيد إلى الوجود الأمجاد القديمة وأساطير الماضى بيد أن هذه اليقظة التلقائية قطعها مجيء الفرنسيين التى صحبها عدد من العلماء ورجال العلم الذين أحضروا معهم ملامح كثيرة لثقافة مغايرة تمام لما عرفه المصريين ، اتصل عدد كبير من العلماء المصريين بهؤلاء وزاروا المعهد الذى أسسوه بالقاهرة ، كما زاروا المكتبة وأعجبوا بالمطبعة التى أحضروها معهم ، ودهشوا بما رآه وبدأوا فى مقارنة ثقافتهم الخاصة بتلك التى أحضروها معهم الفرنسيون .

وكانت للجهود التى بذلها العلماء الفرنسيون أبعد الأثر فى مستقبل مصر الثقافى والفكرى ، إذ أصبحت مصر شديدة الاتصال بفرنسا والتأثر بها فى هذين الميدانين ، سيتوجه محمد على إليها ببعثاته ومطالبه من العلماء الاختصاصيين الذين يردهم وستزداد هذه الصلة على مر الأيام حتى يزول كل أثر للعداء بين فرنسا ومصر ، ويحل محل ذلك وئام وصلح وعلاقة هى أشبه بعلاقة التلميذ بالأستاذ ، بل سعتهم مصر فى كل مناسبة بالميل لفرنسا والعمل لمصلحتها ، وسيشقى محمد على بذلك كثيراً إذ لازال بالمرستون يرميه بأنه صنعة الفرنسيين وألعوبة فى أيديهم ويعارضه فى كل مشاريعه[(١)] .

وأصبحت مصر ميدانًا خصبًا للثقافة الفرنسية والعلم الفرنسى وأصبح الأدب الفرنسى أحب ألوان الآداب إلى المصريين وأقربها إلى نفسهم ، وأصبح الفلاسفة الفرنسيون أئمة الفلسفة الفلسفة ولفكر عند زعماء النهضة والثقافة فى مصر ، وقد بلغ من عمق هذا الأثر أن الإنجليز لم يفلحوا فى محاربته والقضاء عليه على الرغم مما بذلوا من جهود منذ احتلالهم لمصر[(٢)] .

وحدثت بعد ذلك تطورات كثيرة فى مصر ، إذ تم جلاء الفرنسيين عن مصر ، وتطورت الأحداث ، وصار محمد على واليًا على مصر ، وحل مجد جديد . وأدرك الحاكم الجديد منذ البداية أن مصر عليها أن تقلد الغرب إن كان فى هدفها إحياء حقيقى وإن لم يكن هذا غرضها تترك متخلفة عن التقدم ، ففتحت مدارس جديدة وأرسل الطلبة فى بعثات تعليمية إلى أوروبا. وفى تلك الظروف توقفت حركة الكتابة فى حين أن حركة الترجمة بدأت واستمرت طيلة عهد محمد على [(٣)].

---

(١) حسين مؤنس ، الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، ص ٨٩ .

(٢) نفسه ، ص ٩٠ .

(٣) G.El Shyyal. op. cit., p. 129 ؛ جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ١٨٥ - ١٩٢ ؛ توفيق الطويل ، التصوف فى مصر أبان العصر العثمانى ، ص ٣١ .

على الرغم من أن الأزهر وفر المادة التى كونت الطبقة الفكرية الجديدة إلا أن هؤلاء شبوا بعيداً عن التقليدية بسبب تدريبهم الغربى ، فرفاعة الطهطاوى - ذات مرة - رأى أن الأزهر ينبغى أن يركز على تدريس الدين واللغة العربية وأن يترك الفروع الأخرى للذين تأهلوا لتدريسها وحتى شيوخ الأزهر مثل حسن العطار شعر برياح التغيير وألح أن الأزهر يجب أن يؤدى دوره فى الإصلاح المقبل نفسه [١].

وقد لوحظ أنه لم يهتم بتعليم اللغات الأجنبية إلا فى عهد محمد على عندما أصدر أوامره بتعيين أحد القسيسين لإعطاء دروس فى اللغة الإيطالية لبعض تلاميذه فى القلعة ويعتبر هو أول أمر بتعلم اللغة الأجنبية بمدارس مصر[٢] ، ولكن كان هناك فى مدارس الجاليات الأوروبية مثل مدرسة الرهبان الفرنسيسكان حيث يتعلم هناك الإيطالية بجانب اللغة العربية[٣] وتعلم البعض اللغة الفارسية واللغة التركية ، مثل الشيخ حسن الجبرتى[٤] واتقن بعض المماليك اللغة العربية [٥].

وقد شهد القرن الثامن عشر أيضًا محاولات أخرى للنهضة فى علوم أخرى مثل علم الفلك، حيث كان يطلق عليه علم الهيئة ، والعلوم الأخرى فى نطاق ضيق ، وهى الطبيعة والأحياء وكان يطلق عليها علم المواليد وكذلك الرياضيات من حساب وجبر وهندسة ومساحة[٦] وقد مهر أيضًا بعض علماء الأزهر فى دراسة الخط العربى وبحث أصوله وبدايته وتجويده وتطور أشكاله وأنواعه[٧] بالإضافة إلى أنه كان هناك بعض العلوم الأخرى مثل علم الفلاحة حيث أنه كان مهتمًا بخدمة الزراعة والفلاحين[٨] .

---

(١) Afaf Loutfi El Sayed, The Role of Ulama, p. 152 .

(٢) أمين سامى باشا ، تقويم النيل وعصر محمد على ، ص ٥٨٢ ؛ جمال الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى مصر فى عهد محمد على ، ص ١٢ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر ، عبد الرحمن الجبرتى ونقولا ترك ، ص ٦ .

(٤) نفسه ص ٧ .

(٥) G. El Din El Shyyal, op. ct., p. 119 .

(٦) الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ١ ، صفحات ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ؛ جـ ٢ ، صفحات ٢٥ ، ٢٧ .

(٧) نفسه جـ ١ ، ص ٢١٩ - ٣٩٢ ؛ H. Dunne, op. cit., p. 79 .

(٨) H. Dunne, op. cit., p. 90 .

وفى مجال الطب ، تفوق بعض الأطباء منهم على سبيل المثال على بن جبريل المتطيب شيخ دار الشفاء بالمارستان المنصورى ، والشريف قاسم بن محمد التونسى[١] والشيخ أحمد الدمنهورى ، حيث كان له عدة مؤلفات منها « القول الصريح فى علم التشريح » ، و « القول الأقرب فى لسع العقرب » ، والشيخ أبو العباس أحمد بن عمر الديربى له مؤلف مشهور سماه « فتح الملك المجيد لنفع العبد » و « مجرية الديربى فى الطب » [٢].

وهكذا نرى أن نهاية القرن الثامن عشر قد شهد محاولات فى جميع المجالات العلمية والأدبية ، وكادت أن تنجح هذه المحاولات لولا أن فوجئت مصر بالحملة الفرنسية ، وما لها من نتائج وخاصة فى المجال العلمى ، وما تتبع ذلك من أحداث فى مصر نفسها . وانتهت هذه الأحداث بتولية محمد على باشوية مصر وما اتخذه من خطوات فى جميع المجالات ومنها التعليم .

---

(١) الجبرتى ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٠ - ٢٧ .

(٢) نفسه ، جـ١ ، ص ١٦١ ؛ H. Dunne, op. cit., p. 77 .

الفصل السابع

الأوبئة والأزمات الاقتصادية فى مصر العثمانية

(٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م)

تعرضت مصر فى أثناء الحكم العثمانى للكثير من الكوارث والأزمات ، وكان من أهم هذه الكوارث انتشار الأوبئة فى فترات متعاقبة فعرض ذلك مصر من أقصاها إلى أقصاها لمخاطر جمة ، كما أنها تعرضت لأزمات اقتصادية طاحنة خلال تلك الفترة ، وسوف الحدث عن :

أ- الأوبئة :

فأما عن الأوبئة - فقد تعرض البحث للأوبئة التى وقعت فى مصر العثمانية فى الفترة ما بين ٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م ، وقد نتجت هذه الأوبئة عن سوء الأحوال الصحية ، فضلا على أن الدولة العثمانية لم تهتم بتلك الشئون على الاطلاق ، شأنها فى ذلك شأن الكثير من الدول سواء فى الشرق أو الغرب فى تلك الفترة ، وتركت هذه الأمور للأهالى يتصرفون فيها بوسائلهم الخاصة ، فزاد ذلك من مخاطر تلك الأوبئة على حياةالناس . وكان ما اتخذته الدولة حيال انتشار الوباء أنها كانت تصدر أوامرها إلى الأهالى بضرورة الاهتمام بنظافة شوارع القاهرة ، وترسل المنادين لكى يعلنوا ذلك للسكان فى حوارى المدينة ، يطالبون بكنسها ورشها بالمياه ، كما جرت العادة بذلك ، لكى تكون نظيفة وطاهرة ، ومن لم يقم بتنفيذ هذه الأوامر يعاقب أشد العقاب ، لكى لايترك مكان غير نظيف فى الحوارى والأسواق[١] .

وقد شهدت مصر انتشار الطاعون[٢] فى إبان ولاية مسيح باشا (٩٨٣-٩٨٨هـ/ ١٥٧٥-١٥٨٠م) فلم يتخذ أية اجراءات لمواجهة هذه المرض ، ومما زاد الموقف سوءا ارتفاع

---

(١) قانون نامة سليمان ، ترجمة وعلق عليه ، أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص٨٤ ، مادة ٤٣ .

(٢) الطاعون : مرض وبائى عفوى معد تتسبب فيه جرثومه من نوع العصبات (Bacilles) تعرف علميا بـ (Yersinia Pesty) نسبة إلى العالم الفرنسى الكسندر ييرسين (A. Yersin) الذى تمكن فى أواخر القرن التاسع عشر من عزل العصبة المتسببة فى هذا المرض ، وذلك خلال وباء الطاعون الذى انتشر أيضا فى بلاد الصين سنة ١٨٩٤ ، كما تمكن باحث آخر هو Pl. Simond عام ١٨٩٨م من اكتشاف الدويبة الطفيلية =

أسعار السلع الغذائية الرئيسية فى الأسواق ، ويرجع ذلك إلى اختلال قيمة النقد والاقتصاد العثمانى بصفة عامة[١] .

وانتشر الطاعون مرة أخرى فى فترة على باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة ما بين {١٠١٠-١٠١٣هـ/١٦٠١-١٦٠٣م} وقد أودى هذا المرض بحياة الكثير من السكان بسبب سوء الأحوال الصحية لأن العثمانين لم يهتموا مطلقا بصحة المواطنين اذ كان جل اهتمامهم النواحى العسكرية ، وكان يموت فى القاهرة بسبب هذا الوباء ألف شخص يوميا ، وقد إنتهز الوالى هذه الفرصة فأمر أمين بيت المال[٢] ألا يكشف عن أموال المتوفين وكان هدفه من ذلك

= الناقلة لجرثومة المرض ، وهى برغوث الفأر الذى يتسبب فى نقل الداء من فأر إلى فأر ومن الفأر إلى الانسان ، ويمكن فى هذا العصر الوقاية من الطاعون بالتطعيم والعلاج من اصاباته بالمبدات الحيوية الخاصة بذلك .

واشتهر هذا الوباء فى أوروبا بالوباء الأسود (بالفرنسية La tpeste noire - وكلمة Peste كانت تعنى فى العصور القديمة "الوباء" أما اليوم فمعناها الطاعون خاصة . وقد اثبتت الدراسات الحديثة أن هذا الوباء كان مبدؤه فى بلاد الصين كما بين ابن خاتمة الانصارى فى كتابة "تحصيل غرض القاصد ، ومنها انتقل إلى معظم البلاد التى اجتاحها (انظر : محمد العربى الخطابى ، الطب والأطباء فى الأندلس الاسلامية ، جـ٢ . بيروت عام ١٩٨٨م ، ص١٥٣) .

ويقرر علم الطب المعاصر أن الإصابة بالطاعون تظهر بصور ثلاث (١) الطاعون الدبلى (ضم الدال) وهو من صنف الطواعين بمعنى الدماميل القاتلة ويسمى باللاتينيه Bubonie مشتق من Bubon أى الدبل ٢) الطاعون الانتنفس وهو تركيب مزجى لعبارة "إنتان دموى" كما جاء فى المعجم الطبى الموحد ويطلق عليه Septiencenic (٣) الطاعون الرئوى "Pulmonaire" وهوأخطرها وأشدها فتكا وكل هذا قريب مما قاله ابن خاتمة فى الأصناف الثلاثة . [انظر ، محمد العربى الخطابى ، المرجع السابق ، ١٥٧] .

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص٥٦-٥٧ .

(٢) بيت المال : التزام ما يعود للخزينة من رسوم وحقوق وميراث من لا وارث له من عامة الناس أو من رجال الدولة وجندها وموظفيها . [انظر : ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص٤٤٥) .

مصادرة تلك الأموال لمواجهة الأزمة الاقتصادية التى كانت تمر بها البلاد[١] مراعياً فى ذلك نص قانون نامة على عدام ابتزاز الأموال الخاصة بالمتوفى قبل الاعلان عنه ، حتى لا يوجه إليه تهمة استغلاله لمنصبه فى ابتزاز الأهالى ، قبل التصريح لهم بدفن موتاهم ، ووجوب دفن الموتى فى يوم وفاتهم ، وأن يحصل الأمين من تركته لبيت المال[٢] . ان وجد ، واذا خالف ذلك وقع عليه الدفتردار وناظر الأموال ، عقوبة وقد تكرر انتشار هذا الوباء . ففى حكم جعفر باشا ٩ ربيع الأول ١٠٢٨هـ/١٤ شعبان ١٠٢٨هـ/٢٤ فبراير ١٦١٩م - ٢٧ يوليو ١٦١٩م انتشر الطاعون وعرف باسمه فى مصر[٣] . وقد فتك هذا الوباء بالشباب والفتيات، وبعدد كبير من الأمراء والأعيان وكبار رجال الولاية منهم ناظر الجوالى [٤] وأمير اللواء الشريف ، وقابودان دمياط ، وكتخدا حاكم مكة المشرفة وكانت صلاة الجنازة تقام فى الجامع الأزهر وقدر عدد المتوفين بتسعمائة وثلاثين وقد تم حصر عدد من توفى نتيجة انتشار هذا الوباء فكان نحوا من ستمائة ألف وخمسة وثلاثين هذا بخلاف الذين لم يتم تسجيلهم .

ونتيجة لانتشار هذا الوباء أغلقت جميع أسواق مصر ، عدا الأسواق الخاصة ببيع الأكفان ، وأصدر جعفر باشا أوامره بعدم التعرض لدفن الموتى ، وصار الأهالى يدفنون موتاهم ليلا ونهارا .

ويبدو أن ثمار النارنج كانت تستخدم لعلاج هذا الوباء ، والدليل على ذلك ارتفاع سعرها إلى خمسة عشر نصف فضة[٥] وقد أدى ذلك إلى حدوث أزمة اقتصادية حادة اذ ارتفعت الأسعار بشكل لم يسبق له مثيل[٦] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزارة والباشات ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص١٢٧-١٢٩ .

(٢) قانون نامة ، ترجمة وعلق عليه ، أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص٧٥-٧٦ ، مادة ٣٤ .

(٣) يوسف الملوانى ، الشهير بابن الوكيل تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، وقام ابراهيم يونس بتحقيقها ، ونال بها درجة الماجستير - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠م ص٧٠.

(٤) ناظر الجوالى : وهو المختص بجميع ابرادات ضريبة الجوالى المقررة على أهل الذمة ، ويصرف على الجزء المخصص منها للانفاق فى مصر على المستحق لذلك . (انظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ، ابان العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص٢٦) .

(٥) محمد بن ابى السرور البكرى ، الروضة الزهية . ص٢٧٦-٢٧٩ ، نفسه ، اللطائف الربانية فى المنح الرحمانية ص٣٠ ، أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص١٣٧ .

(٦) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٧ .

الولاة والطاعون :

ومن الملاحظ فى فترات انتشار هذا الوباء . فى مصر أن الحكام والولاء كانوا هم أيضا وباء أشد فتكا من الطاعون ، ومن أمثلة ذلك أن الوالى مصطفى باشا الذى حكم فى الفترة مابين ٢٧ رمضان عام ١٠٢٨هـ و١٧ رمضان عام ١٠٢٩هـ/١٧ سبتمبر ١٦١٩- ١٦ أغسطس ١٦٢٠م استغل الموقف وارتكب الكثير من المظالم ، خاصة ضد التجار وأصحاب الأموال . وكثرت العوانية فى عهده ، ومع ذلك لم يقم الأهالى بثورة ضده أو مقاومته ، ويمكن تفسير ذلك بأن آثار الطاعون قد أضعفت من مقاومة السكان واستعدادهم للثورة كما أن الذين تعرضوا لظلم الباشا كانوا من التجار ، وليسوا من العساكر الذين يمكنهم الثورة بسهولة، وكل مافعله التجار وأصحاب الأموال أنهم أرسلوا شكاوى إلى استانبول[١] واستمر انتشار الطاعون حتى ولاية قرة حسين باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٢٨-١٠٣١هـ/ ١٦٢٠-١٦٢٢م[٢] وظل الوباء منتشرا حتى ولاية مصطفى باشا الجن الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٣٢و١٠٣٥هـ/١٦٢٣-١٦٢٥م ولنا أن نتصور مقدار الخسارة التى حلت بالأهالى نتيجة انتشار هذا الطاعون لطول مدته . وعلى حسب تقدير بيت المال توفى بسببه ثلاثمائه ألف نسمة ، وهذا يعتبر تقريرا رسميا ، بالإضافة إلى من لم يشملهم التقرير ، ونتج عن ذلك الغلاء الفاحش ، وذلك لوقف ورود الغلال والمواشى إلى القاهرة[٣] .

وقد انتشر الوباء فى ولاية مقصود باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٥٢هـ و١٦٤٢-١٦٤٣م مدة سبعة أشهر من مدة حكمه ، وهى نحو سنة واحدة[٤] ، وتوفى بسببه الكثير من الرجال والنساء ، ووقع الرعب فى قلوب الأهالى من انتظار الموت ، وصارت الجنائز تمر فى مثل قطار الجمال كل ثلاثين دفعة واحدة[٥] وأصبح الصراخ والعويل سمة واضحة

---

(١) عبد الكريم رافق : بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت على مصر ، دمشق ١٩٦٨ ، ص٢٥٦ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ ، يوسف الملوانى المرجع السابق ، لوحة ٩٣ ب .

(٣) نفسه ، نفسه.

(٤) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، بوحة ٩٨ أ .

(٥) ابى السرور البكرى ، الكواكب السائرة ، ورقه ٤٣ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٨ .

فى جميع المنازل ، وقد ذكرت المصادر المعاصرة لتلك الفترة أن عدد الجنائز فى جوامع القاهرة فقط على النحو التالى[١] .

فى الجامع الأزهر بلغ عدد المتوفين ستمائة واثنين وستين ، وفى جامع باب النصر خمسمائة وأربعين متوفى ، وجامع الشيخوختين خمسمائة متوفى ، وجامع الماس أربعمائة متوفى ، وجامع المارادانى ثلاثمائة متوفى ، بالإضافة إلى المتوفين الذين تم الصلاة عليهم فى منازلهم أو فى الجوامع القريبة منهم[٢] .

ونظرا لكثرة عدد المتوفين ، أمر مقصود باشا بعدم الكشف على عدد الأموات ، وترتب على ذلك أزمة اقتصادية وأفلس الكثير من التجار وافتقر الكثير من الناس[٣] وكان نتيجة ذلك أن توفر لدى الوالى مائتا ألف عثمانى[٤] واثنا عشر ألف إردب شهريا من القمح من الجرايات إلى مال الخزينة ، أما حلوان البلاد ، فقد ضمة إلى ضريبة الميرى .

واستغل حيدر باشا انتشار الطاعون فى عام ١٠٥٦هـ/١٦٤٦م . ومارس سياسة الظلم ضد الأهالى ، ففى الوقت الذى كان فيه الصراع بين البيوتات المملوكية على أشده ، كان الطاعون يفنى الناس ، ولم تتخذ معه أى اجراءات وقائية[٥] .

وأحيانا كان ضمن ضحايا الطاعون ، المعروف بالطاعون الحبشى ، شخصيات كبيرة من العلماء ، والمشايخ ، مثل الشيخ أحمد السويدى ، والشيخ على الأجهورى ، فى ولاية ابو النور محمد باشا الذى حكم فى الفترة مابين١٠٦٣ و١٠٦٦هـ/١٦٥٢ و١٦٥٦م[٦] .

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٩٨ أ .

(٤) عثمانى : اسم لعملة تركية فضية سكت فى عصر السلطان عثمان الثانى (١٦١٨-١٦٢٢م) بمعرفة باكير أفندى بناء على الفرمان الصادر فى غرة محرم ١٠٢٨هـ/١٦١٨م ، بعد سبعة أشهر من جلوس السلطان، وكان العثمانى يساوى نصف بارة . [انظر ابراهيم يونس ، المرجع السابق ، ص٢٠٢] .

(٥) عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص٢٧١ .

(٦) يوسف الملوانى ، المرجع السابق لوحة ١٠١ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٥٥ .

ولم يكن الطاعون نوعا واحدا ، بل كان أنواعا ، فهناك الطاعون الأصفر الذى عرف بالموت الأصفر ، لأنه إذا أصيب به أى انسان ، إصفر وجهه وجلده وقد انتشر ذلك الطاعون فى أبان ولاية ابراهيم البستنجي الذى حكم فى الفترة من ٢٠ شوال ١٠٧٧هـ إلى ١٧ رجب ١٠٧٧هـ/١٥ ابريل ١٦٦٧ - ٢ يناير ١٦٦٨م[١] .

كما انتشر طاعون الحريق ابان ولاية ابراهيم باشا الوزير الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٨١ و١٠٨٤هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٣م وقد استغل بعض الانتهازيين هذا الموقف وقاموا بتزييف العملة ، فإمتنع الناس عن تداولها[٢] .

وشهد عهد الوالى إسماعيل باشا انتشار الطاعون أيضا فى عام ١١٠٧هـ/١٦٩٥م ، ويبدو أن هذا الطاعون كان منتشرا بدرجة كبيرة ، فقد كان الأهالى يتساقطون يوميا بالآلاف ، وامتلأت بهم الأزقة والحارات ، فأدى هذا إلى حدوث أزمة فى القبور ، وقد ساهم أهل الخير فى بناء عدد كثير منها ، وكان اللحادون يقومون بغسل الموتى ويدفنونهم ليلا[٣] ونتيجة لذلك واجهت مصر أزمة اقتصادية طاحنة بسبب تلاعب الملتزمين [٤] بالأموال الأميرية ، وبسبب استيلاء هذا الوالى على أموال المتوفين ، ولكى يخفف من وطأة هذه الكارثة على الناس أمر السناجق والملتزمين بإطعام الفقراء ، وأدى ذلك إلى نقمة السناجق والملتزمين[٥] .

---

(١) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧٠ .

(٢) نفسه ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ ، أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧٠ .

(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص٢٩ .

(٤) الملتزم : كان الالتزام من قديم الزمان مخصصا للأوجاقات والمماليك والجلبية وبعض من التجار والأفندية ، والحريمات ، والهوارة ، وأرباب السجاجيد ، وبعض من العلماء والمشايخ . [انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٣٦] .

(٥) مؤلف مجهول ، أخبار النواب ، لوحه ٤٥ أ ، ٤٩ ب ، ابراهيم الصوالحى ، تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، لوحة ٥ ب ٢٨ أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٨٨ ، عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الاسكندرية عام ١٩٨٨م . ص٥-٥٨ .

وهكذا نرى أن الوالى العثمانى - فى هذه الفترة - بدلا من أن يقوم بواجبه كحاكم مسئول بتدبير الطعام للفقراء نجده يلزم الملتزمين والسناجق بإطعامهم ولم يكتف بهذا العبء بل كان يستغل الموقف ويقوم بمصادرة أموال المتوفين ، ولم يراع فى ذلك حقوق الورثة الشرعيين فى هذه الأموال .

وانتشر طاعون النار كذلك فى مصر العثمانية عام ١١٢٥هـ/١٧١٢م أثناء ولاية ولى باشا ، وتوفى بسبب هذا المرض كثير من الناس ، وتوفى بعض العلماء بسببه فكان منهم الشيخ أحمد النفراوى شيخ الجامع الأزهر[١] .

وأحيانا تكون كارثة الطاعون شاملة لاتقف عند حد معين ، ففى عام ١١٣٠هـ/١٧١٧م أى فى ولاية على باشا الأزمرلى الذى حكم فى الفترة مابين ١١٢٩ و١١٣٣هـ/١٧١٧-١٧٢٠م انتشر هذا المرض الأسود فى كل أنحاء مصر وتوفى على اثره كثير من الشباب والأطفال وبعض أمراء المماليك منهم عثمان بك بارم ديلو فى طيلون[٢] وابراهيم بك أبو شنب دفتردار مصر[٣] .

وفى عام ١١٣٨هـ/١٧٢٦م شهدت مصر طاعونا لم تشهده من قبل توفى على أثره كثير من الناس ، حتى إن الأهالى كانوا يتساقطون على الأرض وهم سائرون ، وأصبحت المنازل خالية من السكان ، وتوفى بسبب هذا شيخ الاسلام محمد الصغير المغربى ، ومحمد بك أبو شنب[٤] واستمر هذا الطاعون فى الانتشار حتى عام ١١٣٩هـ/١٧٢٨م . ولنا أن نتصور أثر استمراره فى صحة الأهالى ، وكان ذلك ابان ولاية محمد باشا النشنجى الذى حكم فى الفترة ما بين ١١ جمادى الآخرة عام ١١٣٨هـ - ١١ محرم ١١٤١هـ/ الموافق ١٥ فبراير ١٧٢٦ - ١٧ أغسطس ١٧٢٨م[٥] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٦١ .

(٢) نفسه ، ص٢٩٣ .

(٣) أحمد كتخدا عزبان الدمرداش ، المرجع السابق ، مصطفى بن الحاج ابراهيم ، تابع الأمير حسن كتخدا عزبان ، تحقيق ، صلاح أحمد هريدى ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص٣٨ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٨٨ ، ٤٨٩ .

(٥) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٣٣ .

وبالاضافة إلى ذلك تعرض الشعب المصرى مرة أخرى فى اثناء تلك الفترة لوباء الطاعون الذى وقع عام ١١٤٣هـ/١٧٣١م ، وكان ذلك فى ولاية عبد الله باشا الكبرلى الذى حكم فى الفترة مابين ١١٤٢و١١٤٤هـ/١٧٢٩-١٧٣٢م وتوفى كثير من الأهالى ، على أثر انتشاره ، وكان من الموتى أبناء الوالى ومحظيته ، وعلى الرغم من المحنة التى كانت تمر بها مصر ، الوالى لم يكترث الوالى بها ، فقد بنى مقبرة فخمة ، لمحظيته بالقرب من الامام الشافعى ، برغم استمرار انتشار هذا الطاعون مدة طويلة فقد إستمر من شهر شعبان ١١٤٣هـ/فبراير ١٧٣٦م وحتى شهر المحرم عام ١١٤٤هـ/يوليو ١٧٣١م) .

ومن العجيب أن مصر قد شهدت طاعونا فى شتاء عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م ، وكان من المعتاد أن ينتشر هذا المرض فى الصيف . ومن خطورة هذا الطاعون أنه إذا انتشر فى منزل ما قضى على جميع سكانه ، ولهذا توفى كثير من السكان وعدد من أمراء المماليك منهم ايوب بك إشراق محمد بك، وأحمد بن عطية ، ومصطفى بك بلفية وزوجته ، ومن الأشراف الشريف بركات ، والشريف حمزة ، وعلى بك حاكم جرجة خازندارة[١] زين الفقار بك ، واسماعيل كتخدا مستحفظان [٢] وحسن كتخدا الدمياطى ، ، ويوسف كتخدا عزبان ومصطفى كتخدا الفجمى ، وأحمد أوضا[٣] باشا الضرباس ، ومات ولدان لوالى مصر باكير باشا

---

(١) احمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٧٤ ، ٧ ، ٦ ، ٨ ، ٦ ؛ أحمد عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٠٣ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٤٠٢ .

(٢) خازندار : كان أمين صندوق الحاكم . [انظر محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص١١ هامش٢] . والخزنة دار كان من أهم أتباع الباشا ، وهو المختص بالعناية بخزانة مصر ، وله عوائد على الأمراء والكشاف ، وأرباب المناصب وقت توليتهم . وكان الخزنه دار يعمل فى خدمة الباشا الخصوصية ، وكان يخدم معه فى أى مكان يذهب إليه فكان مكلفا بحفظ خزانة الباشا الشخصية ، وتسلم الإرادات التى تأتى له عن طريق الكتخدا ، كما كان يقوم بعمل التوزيعات اللازمة ، وكان مكلفا بالإشراف على المبانى التى تحفظ بها الخزانة، وكذلك برج القلعة الذى بنى عام ١٥٢٤م .

[انظر ، ابراهيم يونس ، المرجع السابق ، ص٣٦٧] .

(٣) أوضا باشا ، بمعنى حجرة أو غرفة وباش أو باشة كلمة تركية مازال أصلها الاشتقاق موضع خلاف فقيل أنها من باش أغا أى رئيس الأغوات وقيل أنها من الكلمة الفارسية(بادشاه) ويرجع الأصل التاريخى لهذه الوظيفة إلى تنظيم الانكشارية ، اذ أن تلك الفرقة كانت مقسمة إلى وحدات حربية تسمى كل منها أورطة أى فرقة أو كتيبة ، وكانت كل أورطة تقيم فى ثكنة تسمى أوضه (أود) وكان يرأسها (باش أوضه)=

{١١٤٧-١١٤٩هـ/ ١٧٣٥-١٧٣٧م} كان من نتيجة أنتشار هذه الطاعون أن انتشرت البطالة بين الحرفيين وخاصة الطباخين بسبب موت سادتهم[١] ولم تقف المخاطر عند هذا الحد بل انتشر الطاعون فى عام ١١٧٧هـ/١٧٦٣م ، ونتج عن انتشار القضاء على كثير من الأهالى[٢] .

وكان من الكوارث التى حاقت بمصر فى أثناء الحكم العثمانى احتراق سوق البارود المجاور للباسطية وكان ذلك فى ولايةابراهيم باشا الوزير الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٨١ و١٠٨٤هـ/ ١٦٧٠-١٦٧٣م ، ونتج عن هذا الحريق هذه الحوانيت فضلا عن موت الكثير من الأهالى[٣] .

ومن الكوارث التى حاقت بمصر انه فى ٢ رجب عام ١١٢١هـ/٦ سبتمبر ١٧٠٩م تعرضت البلاد لزلزال أصاب الناس بالخوف والهلع وكاد أن يؤدى إلى هدم المنازل ، وكان ذلك فى ولاية ابراهيم باشا القبطان الذى حكم فى الفترة مابين ١١٢١هـ و١١٢٢هـ/١٧٠٩ - ١٧١٠[٤] .

ومن الكوارث الطبيعية التى أصابت مصر هطول أمطار غزيرة كانت حبيباتها فى حجم بيض النعام فى كل من بلبيس الشرقية والغربية ، ونتج عن هذا الأمطار تدمير سبع قرى ؛ وهرب سكانها إلى الحقول[٥] وقد أصيب الناس كذلك بسبب هذه الأمطار بالخوف والوهم ، وقد توفى الكثير من الأهالى ، وكان من هؤلاء المتوفين أبناء المؤرخ أحمد شلبى عبد الغنى ، وقد توفى له ولدان فى يوم واحد فى عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م[٦] .

= ويرأس الأوضه باشيه موظف يسمى باش (انظر ، هاملتون ، هارولد بوون المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، القاهرة ١٩٧١ . جـ١ ص١٦٨-١٧٥ ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص٣٦ عصمت محمد حسن الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، جامعة الاسكندرية ، عام١٩٨١ ، ص٣٢٥) .

(١) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق . ص٤٠٢ .

(٢) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، القاهرة ٩٥١ ، ص٧٣-٧٤ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧٠ ، يوسف الملوانى المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ أ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

(٥) نفسه ، ص٦٠٩ .

(٦) نفسه .

هذا عن الكوارث الطبيعية التى تعرضت لها مصر فى ظل الحكم العثمانى وما ترتب عليها من أضرار مادية وبشرية كان لها أثرها السلبى فى التنمية الاقتصادية ، مما جعل مصر تتعرض إلى أزمات اقتصادية خانقة . وهذا ما سوف يتضح بعد قليل .

الأزمات الاقتصادية أسبابها ونتائجها :

وأما بالنسبة للأزمات الاقتصادية التى مرت بها مصر خلال تلك الفترة - موضوع البحث- فهى كثيرة ومتنوعة وكان لها آثارها السلبية فى الحياة الاجتماعية فى مصر وسوف نشير إلى تلك الأزمات كل على حده .

كان من أسباب تلك الأزمات الاقتصادية الثورة التى قام بها جنود الاسباهية التى تعتبر الأولى من نوعها فى مصر العثمانية فى عهد أويس باشا الذى حكم فى الفترة مابين (٩٩٤ و٩٩٩/١٥٨٦-١٥٩١م) اذ قام هؤلاء الجنود بالسلب والنهب ، بل خربوا الأسواق والحمامات، بالإضافة إلى أنهم قاموا بنهب بيوت أعيان مصر ، وأثر ذلك سلبيا فى إقتصاديات البلاد[١] .

ومن الأسباب التى أدت إلى سوء الأحوال الاقتصادية الصراع الذى وقع بين البيوتات المملوكية ، وكان ذلك فى ولاية أحمد باشا الوزير الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٢٤ و١٠٢٧هـ/ ١٦١٥-١٦١٨م ونتج عن تلك الصراع ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، فارتفع ثمن أردب القمح إلى تسعين نصف فضة ، وواجه الوالى الموقف بنفسه ، فتوجه إلى الخانكة وبلبيس وبصحته المحتسب . خفية وأخرج القمح من المخازن وحمله على الجمال والحمير ، ونقله إلى القاهرة . ومن اجراءات الوالى كذلك أنه أمر بكسر مخازن القمح الأخرى ، وأمر باعدام أصحاب تلك المخازن حتى يكونوا عبرة لمن تسول له نفسه القيام بمثل هذا العمل ، ونتيجة لما قام به الوالى إنخفض سعر أردب القمح إلى ثلاثين نصف فضه[٢] أى أن السعر انخفض إلى الثلث .

ومن الأسباب كذلك أنه حدث فى عام ١٠٨٨هـ/١٦٧٦م ، صراع بين أوجاقى مستحفظان، والينكجرية فى ولاية عبد الرحمن باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٨٧ و١٠٩١هـ/

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٢٢ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٣٥-١٣٦ .

١٦٧٦-١٦٨٠م وترجع أسباب هذا الصراع إلى قتل جاويش وكتخدا مستحفظان بجرجا ، بايعاز من كوجك[١] محمد من الينكجرية الذى التجأ إلى باب العزب ، فقامت على أثر ذلك أعمال الشغب على نطاق واسع ، وخربت البيوتات والمخازن . فأدى ذلك إلى أزمة اقتصادية ، تمثل فى ارتفاع سعر أردب القمح إلى مائة وخمسين نصف فضة ، وزاد ثمن أردب الشعير إلى ١٢٠ نصف فضة . وبلغ حمل التبن مائة وخمسين نصف فضة ، ونتج عن هذا الشغب عدم استتباب الأمن ، فنهبت البيوت والمحلات المجاورة لمسجد السلطان حسن بالرميلة[٢] ، وتفيد المصادر المعاصرة لتلك الفترة ، أن هذه الفتنة لم تهدأ إلا بعد سفر كوجك محمد إلى استانبول[٣] ولم تذكر هذه المصادر شيئا عن انخفاض الأسعار .

ومن هنا نجد أن أسعار المواد الغذائية قد ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، فى فترة زمنية تقدر بثلاثين عاما ، فقد ارتفع سعر إردب الشعير من ثمانية نصف فضه إلى مائة وعشرين نصف فضه ، ويعنى ذلك أن سعره قد تضاعف خمس عشرة مرة ، وينطبق ذلك على سعر أردب القمح فقد ارتفع سعره من عشرين نصف فضة إلى مائة وخمسين نصف فضة أى أنه ارتفع سبعة أضعاف[٤] .

ومن أسباب الأزمة الاقتصادية فى مصر أيضا ، عودة وقوع صراع بين البيوتات المملوكية، بسبب ارسال حسن باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٩٩ و ١١٠٠هـ/

---

(١) كوجك : كلمة فارسية بمعنى صبى أو طفل أو حقير ، وكوجك أو كجك كلمة تركية بنفس المعنى السابق ، والمراد هنا تحقير ، وأنها كلمة تركية بمعنى الصغير أى الجاويش الصغير . (انظر ، أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ، ص٦٥) .

(٢) الرميلة : هو المكان المعروف الآن بالمنشية (تابع لقسم الخليفة بالقاهرة) ، ومكانه الحالى ميدان محمد على وصلاح الدين بالقلعة ، والرميلة مكان قريب من القلعة الحالية ، وفيه مسجد السلطان حسن ، الذى لايزال قائما إلى اليوم ، وجامع المحمودية ، وكان هذا الميدان يجاور ميدان قرة ميدان جنوب القلعة . (انظر ، عبد الرحمن زكى ، خطط القاهرة ايام الجبرتى ، ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى ، عام ١٩٧٦ ، ص٤٦٩) .

(٣) أحمد شلبى عبد الغزيز ، المرجع السابق ، ص١٧٦ ، يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحه ١٠٩ أ.

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، ص١٧٦ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٩ أ .

١٦٨٨/١٦٨٩م الكخيا إلى جرجا ، فقد كلفه حسن باشا بالإشراف على الغلال الخاصة بالحرمين الشريفين[١] ولكن يبدو أن هذا الكخيا تصرف فى هذا الغلال بشكل ردئ ، فأدى هذا التصرف إلى وقوع تصادم بين البيوتات المملوكية ، ونتج عنه أزمة سياسية واقتصادية ، كان من سلبياتها ارتفاع سعر المواد الغذائية ارتفاعا كبيرا[٢] .

ونتيجة للصراعات السياسية التى عرفت بحادثة كوجك محمد وبسبب انخفاض النيل ابان ولاية على باشا الخازندار ، حدثت ازمة اقتصادية فى عام ١١٠٦هـ/١٦٩٤م ارتفعت أسعار المواد الغذائية فى جميع انحاء مصر ، فلم يجد الأهالى الأقوات الضرورية ، وهاجر أهل الريف إلى القاهرة وخاصة من البهنسا والفيوم ، ونظرا لفقر هؤلاء فقد تناولوا الجيف ومات الكثير منهم بسبب الجوع ، وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن على رءوس الباتعين[٣] .

وكان من نتيجة تلك الأحداث أن ارتفع سعر اردب القمح إلى ريال حجر (يساوى ستين نصف فضه) وخمسة أنصاف فاضطر كوجك محمد ازاء هذا الموقف أن يتوجه إلى بولاق ويحضر الأمناء والكيالين والرؤساء ، ويحدد لهم سعر أردب القمح بستين نصف فضة أى بريال حجر ، وفى الوقت نفسه - طلب من التجار أن يبيعوا نصف أردب قمح لمن يطلب أردبا ، ويبيعوا ربع أردب لمن يطلب نصف أردب ، ويرجع ذلك إلى اتباع سياسة الترشيد فى استهلاك المواد الغذائية الأساسية وكل من يخالف ذلك يعدم[٤] .

---

(١) غلال الحرمين الشريفين : وهى كميات القمح المبرى ، التى كانت تجبى من ولايات الوجه القبلى ، وتصرف منها الجرايات والعليق لكل من يستحقها وإذا توفرت الغلال بعد ذلك ، تطرح فى أسواق القاهرة والاسكندرية ورشيد ، لتوفير القوت للأهالى أولا ، فإذا تبقى فائض بعدئذ فيجوز لأمين الشونة ، بيعه للتجار الأوربيين القادمين للثغور بعد موافقة الباشا ، والدفتردار . (انظر أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٢٧ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٢٧ هامش ٢) .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٨٤ .

(٣) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٤٦ ، عبد الرحمن الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ١ ، ص٢٦ .

(٤) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٧٠ .

وكان رد الفعل من جانب وكلاء الهوارة والملتزمين أن اجتمعوا فى منزل خليل أفندى باش اختيار[١] الجراكسة وقرروا تقديم رشوة قدرها خمسة آلاف دينار [٢] إلى كوجك محمد لكى يسمح لهم ببيع أردب القمح بأربعة قروش[٣] ولكن رفض كوجك محمد ذلك وأقسم أنه سيقتل كل من يخالف تعليماته ، وحذر الهوارة والملتزم المتقاعسين عن توريد القمح ، وقتل بعض المخالفين[٤] .

---

(١) اختيار : واصل الكلمة عربى ونقلها الأتراك ، وكان كبار ضباط الأوجاقات يسمون اختيارية ويشكلون مجموعة ذات نفوذ فى فرقهم ، واكبر هؤلاء الضباط سنا يسمون باش اختيار . (انظر محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص١٨ ، جلال يحيى مصر الحديثة ، بدون تاريخ ، ص١٥) .

وكان الكخياوات الثلاثة ، أى الباش اختيارية (باش اختيار) أو ملازمو أوجاقات الجوموليان ، وانتوفكجيان والشركة يحصلون على رواتبهم من الباشا . وفى الأزمنة الأخيرة كان هذا الحاكم هو الذى يسدد الميرى المترر على هذا المناصب الثلاثة ، اذ أنه جريا على سنه استنها أحد اسلافه ، لم يعد يقوم بدفع الرواتب المقررة لهذه الوظائف وأصبح هؤلاء يحصلون على معاشاتهم من فرقهم العسكرية .

(انظر ، علماء الحملة الفرنسية ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص١١٨) .

(٢) الدينار : يعرف باسم الدينار الذهبى الجديد ، يساوى خمسا وعشرين بارة ، ولكن عقب انهيار نظام النقد عام ١٥٨٤م صار كل خمس وثمانين بارة تساوى دينارا شريفيا . (انظر ، عفاف مستعد العبد ، دور الحامية فى مصر العثمانية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، عام ١٩٨٢، ص٤٣) . ولكن فى عام ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م ، أصبح الدينار الذهبى يساوى نصف فضه . (انظر، سجلات المحكمة الشرعية بالشهر العقارى بالإسكندرية ، سجل رقم٣٢ ، مادة ٥٥٤ ، ص٢٤ محرم عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م) .

(٣) القرش : والقرش فى الأصل تعريب Groshen بالإلمانية ، وهى تعنى البياستر أى النقد الأسبانى الفضة الذى بدأ ضربه وتداوله فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، ثم استقر فى التعامل التجارى مع بلدان الشرق العربى ، فاطلق على البياستر الفضة التركى اسم (غرش) و(قرش) . وقد ضرب هذا النقد في تركيا لأول مرة فى عهد السلطان سليمان الثانى (١٠٨٧هـ/ ١٦٩٠م) وفى مصر ضربت القروش فى عهد على بك الكبير لأول مرة عام ١١٨٣هـ/١٧٦٩م . وقد أشار إليها الجبرتى فى أحداث عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م ، وقد ذكر أن مصر عرفت على يد على بك اجزاء القروش ، المجوز والتى قيمة القطعة منها عشرة أنصاف ، والقرش المفرد وقيمته خمسة أنصاف ، وذكر أن محمد بك ابو الذهب أبطل عام ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م ، كل هذه القروش التى كانت تحمل علامة (اسم على بك ، ولكن الفرنسيين بعد احتلالهم لمصر اعادوا ضرب القروش) ، (انظر عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ، ص٥٧٤-٥٧٥) .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٨٩-١٩٠ .

وانتهت هذه الأزمة بقتل كوجك محمد ، وسر تجار القمح الذين تضروا من اجراءاته ، لذلك ارتفعت أسعار المواد التموينية حتى وصل سعر أردب القمح إلى مائة وعشرين نصف فضة ، وظل سعره يرتفع حتى وصل إلى ستمائة وستين نصف فضة ، ووصل سعر إردب الشعير إلى أربعمائه وخمسين نصف فضة ، وبلغ سعر أردب الأرز ثمانمائة نصف فضة ، وأردب الفول مائة نصف فضة ، وبلغ سعر رطل اللحم الضانى بخمسة أنصاف - فضة وبلغ سعر رطل اللحم الجاموس الوقيع (*) ثلاثة أنصاف فضة ، وبلغ سعر قنطار السمن ألف نصف فضة وقنطار لعسل النحل ستمائة نصف فضة[1] .

وترتب على هذه الضائقة الاقتصادية أن ازداد الناس فقراء وانتشر الجوع فمات كثير من الناس فى شوارع المدن والقرى ، واعتاد الفقراء على خطف الخبز العجين اثناء نقله إلى المخبز، وكان على كل من أراد أن يخبز الخبز أن يحمله واحد ويحرسه اثنان ، وصنع الخبازون أقفاصا يحفظون فيها الخبز حتى لايهجم العامة لسرقته ، ورهن كثير من البلاد عند بعض التجار[2] وازداد اشتداد هذه الأزمة الاقتصادية حتى اضطر إلى أكل القطط والجيف[3] .

ومما زاد الطين بلة أن ارتفع سعر أردب القمح من ١٢٠ نصف فضة إلى ستمائة نصف فضة، ارتفع سعر أردب الشعير من مائة وعشرين نصف فضة إلى أربعمائة وخمسين نصف فضة ، أى أن سعره قد ارتفع إلى ثلاثة أضعاف تقريبا . وارتفع سعر رطل اللحم من نصف فضة إلى خمسة أنصاف فضة كما كان فى عهد الوالى حسنى باشا الذى حكم مصر فى الفترة

(*) الوقيع تعنى الجاموسة المكسورة أى التى أصيبت بكسر نتيجة سقوطها على الأرض ، فتصبح غير صالحة للعمل ، فيشتريها الجزار ويباع لحمها ، وأحيانا تعنى الوقيعة الجاموسة الكبيرة السن الهزيلة (الباحث) .

(١) أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٧ ؛ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق، ص٧١ ، ابراهيم الصوالحى ، المرجع السابق ، صلوحة ١٩٣ أ ، ١٩٣ ب ، عمر عبد العزيز عمر ، المرجع السابق ، ص٥٤-٥ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٩٣-١٩٥ ، عبد الكريم رافق ، ص٢٨٧ ، عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص٢٥٥ .

P.M. Holt, op. cit, p. 87 .

(٣) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٩ ؛ أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٩٥ .

من ٩٤١إلى ٩٤٣هـ/١٥٣٥-١٥٣٦ وارتفعت هذه الأسعار في عهد ايوب باشا الذى حكم فى الفترة من ١٠٥٤-١٠٥٦هـ/ ١٦٤٤-١٦٤٦. ومن الواضح أن هذه الأزمة الاقتصادية لم تكن قاصرة على سلعة بعينها بل شملت سلعا كثيرة(١) .

وكان رد الفعل من جانب الأهالى أن اطلعوا إلى القلعة ، ووقفوا بساحة الديوان وصاحوا من الجوع ، فلما لم يجبهم أحد رجموا بالاحجار موكب الوالى ، وتم طردهم ، فنزلوا إلى ميدان الرميلة ، استولوا على مخزن الحبوب من القمح والشعير ، ولما علم السلطان العثمانى بذلك عزل الوالى على باشا الخازندار ، وعين مكانه واليا آخر ، الذى جمع الفقراء والمتسولين ، ووزعهم على الأعيان والأمراء لكى يقوموا باطعامهم حتى انقضت هذه الأزمة(٢) وكانت من أقسى الأزمات التى مرت بمصر فى هذه الفترة ، ودعا الجميع الله عز وجل ألا يعود مثلها مرة أخرى(٣).

وفى عام ١١٢٣هـ/١٧١١م ، تعرضت مصر لأزمة سياسية حادة عرفت بفتنة افرنج أحمد ، فى عهد الوالى ولى باشا الذى حكم فى الفترة مابين ٢٧ رجب ١١٢٣ و١٢ شوال ١١٢٦هـ/ = ١٠ سبتمبر ١٧١١-٢١ اكتوب عام ١٧١٤) وترتب عليها حدوث ازمة اقتصادية تمثلت فى عدم توريد الغلال من الصعيد ، فاضطر الوالى إلى تعيين مسئول خاص عرف بمباشر الغلال(٤) لمراقبة وصول الغلال إلى القاهرة ، فكان هذا المسئول يتابع بنفسه وصول السفن القادمة من الصعيد(٥) .

---

(١) أحمد الدمرداش ، المرجع السابق ، ص٣٠ .

(٢) عمرعبد العزيز عمر ، دارسات فى تاريخ العصر الحديث والمعاصر ، الإسكندرية ، عام ١٩٧٣ ، ص١٦٠ .

(٣) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٣٠ .

(٤) مباشر الغلال : يعرف أيضا بأفندى الغلال ، وهو المسئول عن ولايات الوجه القبلى ، التى تؤدى ما عليها من ميرى غلال من قمح وشعير ، وهو الذى يعطى لسندات للملتزمين الذين يسلمون الحبوب المقررة عليهم . (انظر Shaw, op. cit, p. 150) .

فكان يمسك سجل لكل الأراضى التى تسدد الميرى فى شكل حبوب ، وكان يحصل على راتبه من الخزينة العامة ، ويفرض عادات على الملتزم ، الداخل ضمن دائرته . (انظر علماء الحملة الفرنسية ، المجلد السادس ، المرجع السابق ، ص١٢١) .

(٥) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٣٠ .

ونتج عن هذه الأزمة السياسية انقسام الأوجاقات العسكرية إلى قسمين :

القسم الأول : ويتكون من بلوكات الأسباهية الثلاثة والجاويشية والعزب ، ويؤيدها أمير الحج والدفتردار ، وبعض أمراء المماليك ، وهم الذين وقفوا ضد فرنج أحمد .

القسم الثاني : ويتكون من أغاوات الأسباهية وأغا المتفرقة وكتخدا الجاويشية ، وبلوك الانكشارية ، وهم الذين أيدوا فرنج أحمد[١] وتأزم الموقف في البلاد نتيجة للانقسام الداخلي وأدى ذلك إلى أن انتهز البعض الفرصة وهجموا على حديقة أفرنج أحمد ونهبوها وسرقوا مواشيه وأحرقوا المنازل[٢] وقام القسم المؤيد لفرنج أحمد بالاستيلاء على جمال وحمير السقاين[٣] ومنع الماء عن القاهرة حتى وصل ثمن قربة الماء خمسة أنصاف فضة ، بعد أن كانت بنصف فضة ، وارتفعت أسعار المواد التموينية نتيجة لهذه الأزمة السياسية ، وظهرت بعض العملات النحاسية التي سكت في اخميم ، واضطر الأهالي لتداولها ، عندئذ تدخلت السلطات الحاكمة ، وأصدرت أوامرها للمعلم داوددأمين دار الضرب[٤]. لسك عملة أخرى ،

---

(١) أحمد شلبي عبد الغني ، المرجع السابق ، ص٢٢٨ ؛ أحمد الدمرداشي ، المرجع السابق ، ص١٤٥ .

(٢) مؤلف مجهول ، أخبار النواب ، لوحة ٧٧ أ ، أحمد شلبي عبد الغني ، المرجع السابق ، ص٢٤٤-٢٤٥ ؛ اندرية ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٤م ، ص٢٤٥ .

(٣) عن السقاين ودورهم في الحياة السياسية ، انظر ، صلاح أحمد هريدي ، الحرف والصناعات في عهد محمد علي ، الاسكندرية عام ١٩٨٤ ، ص١٢٦-١٣٠ .

(٤) دار الضرب :هي دارسك العملة حسب النظام الذي تقرره الدولة ، وكانت ملحقة بباب الانكشارية ، (انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ص٤٩) .

أما مدير الضربخانة أو مدير سك النقود فكان يعين من قبل الباب العالي . وكانت الفوائد التي تؤول إليه عن طريق صنعة للقطع النقدية هي التي تشكل راتبه . ومع ذلك فقد كان يدفع بخلاف الميري المقرر على وظيفته ، خمسة عشر كيسا إلى الباشا ، ولم يكن له عمل محدد (بلوائح معينة) اذا كان عليه فقط أن يحرص على أن تكون المسكوكات التي يصدرها تتفق مع الشكل المطلوب . ومنذ عهد علي بك ، ترك هذا المنصب لباشا القاهرة الذي كان يسدد الميري المقرر عليه ، والذي كان يبيع التزامه على الدوام إلى البك شيخ البلد .

(انظر ، علماء الحملة الفرنسية ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص١١٨) .

ومنع تداول عملة اخميم ، وحددت أسعارها على أساس كل ثمانية جدد[١] بنصف فضة ، وكان ثمن البندقى[٢] بمائة وخمسة عشر ونصف والطرلى[٣] بمائة نصف فضة ، والزنجليزى[٤] بمائه وسبعة ، والريال بستين نصف فضة ، والريال ابو كلب بخمس وأربعين نصف فضة[٥] ولم تخمد هذه الأزمة السياسية إلا بموت افرنج أحمد[٦] .

وكان من نتيجة هذه الأزمة السياسية أيضا انخفاض سعر بعض العملات مثل الدينار البندقى الذى انخفض بما قيمته خمسة أنصاف فضة ، وارتفعت أسعار بعض العملات الأخرى

---

(١) جدد : هى نقود نحاسية ، تمثل اجزاء البارة ، وكان الجديد يساوى ربع بارة ، والمقصوص يساوى ٨ جدد ، المرادى يساوى ١٢ جديدا . (انظر ، ليلى عبد اللطيف أحمد ، الادارة فى مصر فى العصر ، ص ١٦٧) .

(٢) البندقى : بالعربية فندقى (بندقى) وفيما مضى كانت عملات البندقية الذهبية Sequins ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم ، تسمى بندوقى أو محرفة عن الكلمة التركية ، ونديكلى (فنديقلى) بمعنى فندقى (نسبة إلى البندقية) . ويشار اليوم إلى البندقية فى مصر باسم بندق (علماء الحملة الفرنسية ، المجلد السادس ، المرجع السابق ، ص٦٦) .

(٣) الطرلى : ويعرف بالشريفى طره لى أو الطره لى أو الطرلى نسبة إلى الطرا (الطغراء) وهو نقد ذهبى تركى، ضرب فى عهد السلطان مصطفى الثانى (١١٠٦-١١١٥هـ/١٦٩٤-١٧٠٣م) وكان يزن ٦ر٢ جرام . واطلق عليه فى الدولة العثمانية (طغرالى التون) طغرالى نسبة إلى نقش الطغراء أو الطرة باسم السلطان على أحد وجهى العملة (انظر عبد الرحمن فهمى ، المرجع السابق ٥٧٥-٥٧٦) .

(٤) الزنجليزى : وهو نقد ذهبى تركى ، زنجارلى لفظ فارسى يعنى السلسلة ،وقد حرف هذا اللفظ على لسان العامة إلى جنزرلى ، وذكره الجبرتى باسم الجنزرلى أو المحبوب الجنزرلى ، نسبة إلى الحافة المشرشرة لهذا النقد ، وهى أشبه بالإطار أو الجنزير ، وحدد الجبرتى سعره عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦ بمائتى نصف فضة . (أنظر ، عبد الرحمن فهى المرجع السابق ، ص٥٧٥) .

(٥) الريال ابو كلب : كما تكتبه الوثائق بالمحكمة الشرعية ، هو الريال الهولندى ، وكان أقل قيمة من الريال الحجر . وكانت كلها تقدر بقيمة العملة التركية ، والنصف الفضة الديوانى . (انظر ، احمد شلبى المرجع السابق ، ص١٠٩ هامش ٥٧) .

(٦) مؤلف مجهول ، المصدر السابق ، لوحة ٨١ أ ، ٨١ ب ، مصطفى الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص١٦٠ ، اندريه ريمون ،المرجع السابق ، ص ١٦٠ .

المثلة فى الريال الحجر ، فقد ارتفع بمقدار عشرة أنصاف فضة ، كما ارتفع الريال الكلب بمقدار نصف فضة .

وقد شهدت مصر أزمة سياسية أخرى بعد الأزمة السابقة باثنى عشر عاما ، عرفت بأزمة جركس محمد الكبير ، وترتب على حدوثها ازمة اقتصادية فى عام ١١٣٥هـ/١٧٢٣م . ونتج عن هذه الأزمة ارتفاع أسعار بعض السلع ، اذ ارتفع سعر رطل الصابون إلى ثمانية أنصاف فضة نتيجة لارتفاع أسعار العملات ، ففى هذه الفترة ارتفع سعر الجنزرلى إلى مائة وخمسين نصف فضة ، وارتفع سعر الريال إلى مائة نصف فضة ، وارتفع سعر الريال ابو كلب إلى خمسة وسبعين نصف فضة ، والطرلى إلى مائة وخمسة وثلاثين نصف فضة والعشر الجدد بنصف فضة[١] ومما زاد الطين بلة ، انهيار جسر بدوية نتيجة لاهمال صيانته ونتج عن ذلك غرق البلاد وتهدم كثير من المنازل ، وتشريد الكثير من السكان ، هذا إلى جانب انخفاض منسوب النيل نصف ذراع[٢] .

واستمرت الأزمة إلى عام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م ، وزاد من استمرارها أن جركس محمد الكبير أرسل إلى هوارة بالوجه القبلى يبلغهم بعدم ارسال الغلال للقاهرة ، حتى يتم التصرف فى حصوله بالسعر الذى يحدده إلى جانب ان الكشافين[٣] استغلوا الموقف ، ومارسوا ظلمهم للأهالى فاشتكوا للعلماء فطلبوا من الوالى ضرورة عقد إجتماع الديوان بجميع هيئاته من العلماء والبكرية والسادات ونقيب الاشراف وأغوات السبعة بلوكات ، والسناجق ، والسبعة أوجاقات ، وذلك لمناقشة ما حل بالأهالى من ظلم ، وقرروا تشكيل لجنة أقرت ضرورة حل جميع المقاطعات التى أنشئت منذ عام ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م حتى عام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م ، ورد الأموال إلى أصحابها ، وحصر التركات ، والتزام جميع المسئولين بتلك الاجراءات[٤] وعلى الفور بدأت الانكشارية فى التخلى عن مقاطعات وعن المذبح[٥] وتخلت العزب عن

---

(١) احمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٣٦١ .

(٢) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص٢٧٨ .

(٣) احمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٤٩ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٤٩ .

(٥) المذبح :يقصد المذبح أى المجزر أو سلخانة القاهرة . (انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق ، ص٢٢ هامش ٢) .

الخردة[1] واتخذ الباشا اجراءات أخرى منها تحديد أسعارالعملة ، وكلف فى هذه الصدد أوجاق مستحفظان والأوجاقات الأخرى ، متابعة ذلك ، وطلب هذا الباشا من الأهالى عدم دفع أى مبالغ زائدة للكشاف[2] .

وعلى الرغم من اتخاذ هذه الاجراءات فإن أوجاق مستحفظان لاحظ ارتفاع أسعار السلع التموينية وغيرها بمقدار ٥٠ ٪ ، وواجه الباشا والديوان هذا الموقف بالاستعانة بأهل الخبرة فى هذا المجال ، فقرروا اعلان أسعار جديدة ، ومعاقبة كل من يخالفها وكانت هذه الأسعار عليالنحو التالى :

يكون سعر رطل اللحم الضانى نصفين فضة ، ورطل اللحم الجاموسى نصفين فضة ، والزيت الحار ثلاثة أنصاف فضة ، والجبن نصفين فضة ، ورطل الصابون ثمانية أنصاف فضة ، وقنطار البن خمسة وأربعين ريالا ، وتظل عملة الجدد يستخدمها الناس ، ومن الملاحظ ، فإن الفضة لم يكن لها استخدام ، اذ أنها زيفت . ونتج عن هذه الإجراءات إغلاق المحلات ، واختفاء السلع واضطراب الأحوال وتوقف التعامل بالجدد[3] .

وانتهز أحد الأمراء المماليك ، وهو عثمان بك ذو الفقار ، الصراعات بين البيوتات المملوكية ابان ولاية يحيى باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١١٥٤ و ١١٥٦هـ/ = ١٧٤١-١٧٤٣م واستولى على بعض الوكالات وما فيها من سلع تموينية مثل السمن والعسل ، والسيرج والدقيق ، والبقسماط[4] والأرز فحمل مائة وعشرين جملا ، واتجه بها إلى جبل الطور ، حتى أن قابودان السويس إشتكى للباشا فطلب على الفور عقد اجتماع للديوان

---

(١) الخردة : ويقصد قلم الخردة، وهى الرسوم المفروضة على الملاهى والنساء العوالم والحواة ومن يماثلهم ، وقد تعددت هذه الرسوم فى السنين القريبة من الاحتلال الفرنسى بدرجة جعلت من المستحيل على ولاة الأمور الفرنسيين تحديدها . (انظر ، محمد شفيق غربال ، المرجع السابق . ص٢٢) .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٤٠ .

(٣) أحمد عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٢٦ .

(٤) بقسماط : بالمفاهيم العسكرية لذلك الزمان ، فإن تجهيزه يعنى قيام حملة عسكرية للغزو ، فالبقسماط هو ذلك النوع من الخبز الذى يصلح للفترات طويلة لاستخدام الجنود (انظر عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٣١) .

لمواجهة الموقف[١] ولم تشر المصادر المعاصرة لتلك الفترة إلى الإجراء الذى اتخذ فى هذا الصدد[٢] .

وكان من العوامل التى ساهمت فى خلق تلك الأزمات الاقتصادية فى مصر العثمانية سلوك بعض الولاة العثمانيين ، نذكر منهم على سبيل المثال الوالى مصطفى باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٢٨هـ/١٠٢٩هـ/١٦١٩-١٦٢٠م ، فقد قام هذا الوالى بفرض ضرائب على التجار وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار بعض المواد التموينية[٣] ومنهم الوالى ابراهيم باشا الذى حكم في الفترة ما بين ١٣ محرم ١٠٨١ آخر جمادى الأولى ١٠٨٣هـ/ = ٢ يونيو ١٦٧٠-٢٣ سبتمبر ١٦٧٢م فقد أدى الحريق الذى نشب فى سوق البارودية القريب من باب زويلة نتج عنه تهدم كثير من الحوانيت والمنازل ، وموت كثير من الأهالى ، فقام بسك عملة جديدة مخلوطة بالنحاس الأصفر ، وأمر الناس بالتعامل بها ولكنهم امتنعوا عن تداولها[٤] فعرضهم هذا الرفض لتجاوازات ها الوالى ضدهم .

ولم يكن هذا الوالى آخر الولاة العثمانيين الذين تلاعبوا بالعملة يخلطها بالنحاس ، بل نجد أن حسين باشا بن جنبلاط الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٨٤ و ١٠٨٦ هـ/١٦٧٤-١٦٧٥م يقوم بتحديد أسعار العملة على أساس كل قرش كلب بثلاثين نصف فضة بعد أن كان ثمن هذا القرش يقدر بأربعين نصف فضة ، والريال باثنين وأربعين بعد أن كان ثمنة ستين نصف فضة ؛ والأشرفى المحمدى بخمسة وثمانين نصف فضة والبندقى خمسة وتسعين نصف فضة ، واتفق الأمراء الممالك على أن الريال الشريفى الريال ابو كلب بثلاثين نصف فضة ، وفى المعاملة خمس وثلاثين نصف فضة . ومع ذلك ندر وجود الريال ابو كلب لذلك عادت الأسعار إلى سابق عهدها[٥] .

---

(١) أحمد عزبان الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٢٦ .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧١ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٣ أ .

(٣) نفسه ، المرجع السابق .

(٤) نفسه ، ص١٧١ ، نفسه ، لوحة ١٠٧ أ .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص١٧١ ، يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٧ أ.

وترتب على ذلك انخفاض وارتفاع أسعار بعض العملات ، فقد انخفض الريال ابو كلب من أربعين إلى ثلاثين نصف فضة ، وارتفع سعر الريال إلى اثنين وأربعين نصف فضة ، بعد أن كان ثلاثين نصف فضة ، ابان ولاية حسنى باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ٩٤١ و٩٤٣هـ/١٥٣٥-١٥٣٦م) .

ومن الجدير ذكره أنه كان هناك سعران للعملة فى مصر العثمانية سعر رسمى وسعر حر كما يقال فى أيامنا هذه ، وهذا بالطبع يؤثر فى القوة الشرائية ، فعادة ما يقبل الناس على السعر المنخفض للعملة .

لذلك اتخذت اجراءات عام ١١٠٩هـ/١٦٩٧م ، ابان ولاية اسماعيل باشا حكم مصر فى الفترة مابين ١١٠٧ و١١٠٩هـ/١٦٩٥-١٦٩٧م كان منها تغيير العملة[١] فقد استبعدت العملة الذهبية المعروفة بالأشرفى وحل محلها العملة الذهبية المعروفة بالذهب لطرلى ، ولذلك عقد الوالى اجتماعا للديوان حضره السناجق ، والأغوات وأمين دار الضرب ، وسلمه السكة الجديدة ، وأمره الديوان بسك تلك العملة من الذهب ، عيار ٢٢ قيراطا ، وكانت المائة طرلى تزن ١٢٥ درهما [٢] وفى الوقت نفسه انتشر معدن الفضة ، واعدمت عملات الجدد المسكوكة من النحاس وصار الناس يصرفون الشريفى الطرلى بمائتى نصف فضة . كان كل من أراد من التجار والأهالى شيئا جديدا من العملة لم يجده[٣] .

ومع ذلك ارتفعت الأسعار ، فاشتكى الأهالى للباشا ، فدعا إلى عقد اجتماع فى منزل إسماعيل بك أحد الأمراء المماليك ، وحضر السناجق والأغوات ، واختيارية الأوجاقات السبع، ونقيب الأشراف ونائب القاضى، والسادات والبكرية والعلماء ، وأرباب الخرق وكبار التجار ومشايخ الحرف ، لبحث الوضع الاقتصادى المتدهور ، وأصدر هؤلاء المجتمعون القرارات

---

(١) نفسه ، ص١٧٢ ، نفسه ، لوحة ١٠٨ ب .

(٢) درهم : وحدة من وحدات السكة الاسلامية الفضية . وهو مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ، وقد استعاره العرب فى المعاملات من الفرس ، اذ كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامى تتعامل بالدراهم الفضية عند الفتح العربى لها ، ويزن الدرهم ١٥ قيراطا ، والقيراط أربع حبات ، والحبة واحدة الحب وتعنى بذور الشعير ويبلغ وزن الشرعة سبعة أعشار الدينار أى ٢٫٩٧ جراما . مازال بعض البلاد العربية تستعمل الدراهم كعملة أساسية إلى اليوم ، وإن كانت غير فضية . (انظر ، سميرة فهمى ، المرجع السابق ، ص٨٢).

(٣) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٩٨ -١٠٠ .

اللازمة لمواجهة الموقف ، كان منها قرار بابطال الفضة المقصوصة ، والتعامل بالفضة المرادى ، والجدد والنحاس ، وقرروا تعيين لجنة لمواقبة تنفيذ هذا القرار ، ولكنها لم تنفذ أى شئ [١] فاضطر الوالى إلى أن يعقد اجتماعا اخر حضره زعيم مصر وأمين الحسبة بالإضافة إلى المجلس السابق، وقرروا ابطال الفضة المقصوصة ، وتحديد أسعار بعض العملات ومنع الحمايات [٢] والرشوة[٣] .

وفى عام ١١١٤هـ/١٧٠٣م ظهر تزييف العملة وغشها ابان ولاية فترة محمد باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١١١١-١١١٦هـ/١٦٩٩-١٧٠٤م ونتج عن ذلك ارتفاع الأسعار ، كما نتج أيضا تغيير اسم عطفة الصاغة إلى عطفة المقاصيص ، وتقرر أيضا أن يكون سعر الشريفى طره بمائتى نصف فضة ، والشريفى المحمدى بمائتى وستين نصف فضة ، والريال الحجر بمائة وعشرة أنصاف فضة ، الريال الكلب بستين نصف فضة وقد ساعد اليهود الصيارفة على ازدياد الأزمة ، فأنهم جمعوا العملات التى لايتعامل بها الأهالى وأخفوها ، فاشتد الكرب بالناس ، واجتمع تجار الاسواق ، وعرضوا شكواهم على علماء الأزهر فقاموا بتبليغ شكواهم إلى الوالى فأمر بانعقاد الديوان لمناقشة الأمر . واتفقوا على ابطال المقاصيص فعلا ، وتقرر أن من لديه شئ من هذه العملات فعليه استبدالها فورا من دار الضرب ، أو من الصيارف كما قرر المجتمعون فى الديوان بإغلاق الصاغة ، وكان على الصاغة الجواهرجية تسليم ما لديهم من الفضة والنحاس إلى دار الضرب ، وحددت أسعار العملة على أساس الطرلى بمائة نصف فضة والمحمدى بتسعين نصف فضة ،والبندقى بمائة وعشرين نصف فضة ، والريال الحجر بخمسة وخمسين نصف فضة ، والريال ابو كلب بثلاث وأربعين نصف فضة ، وحددت أسعار السلع التموينية وكل من يخالف ذلك يعاقب طبقا للقانون[٤] وبالفعل تم معاقبة اثنين قبانية وثلاثة زياتين وجزار ، لتلاعبهم فى الميزان ، فضربوا حتى الموت[٥] .

---

(١) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص١٠٠ .

(٢) الحمايات : أموال يفرضونها بعض أصحاب النفوذ من الجند وغيرهم ، على أصحاب المصالح لحمايتهم . (انظر عبد الكريم رافق ، المرجع السابق ، ص٢٨٦) .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى، المرجع السابق ، ٢٠٧-٢٠٨ .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢٠٧-٢٠٨ .

(٥) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٦٨ ، مطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص١٠٤ ، عمر عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ مصرالحديث ، ص١٦١ .

ونتيجة لقرارات الديوان انخفض سعر العملة ، فأصبح الشريفى طره لى بمائة نصف فضة بعد أن كان سعره مائتين وخمسين نصف فضة والمحمدى بتسعين نصف فضة بعد أن كان بمائتين وتسعين ، والريال بخمسة وخمسين نصف فضة بعد أن كان بمائة وعشرة أنصاف ، والريال ابو كلب بثلاثة وأربعين نصف فضة ، بعد أن كان بتسعين نصف فضة . ولنا أن نتصور أثر ذلك على الأسعار ، وعلى الأهالى ، فقد أصبحت معيشتهم ضنكا .

ورغم تلك الاجراءات التى اتخذت لمواجهة الموقف الاقتصادى فى البلاد ، فإن الأغا استدعى شيخ الطحانين وشيخ الخبازين وباقى مشايخ الحرف ، وأحضر أردب قمح وطحنه وقدر سعره على حسب الفضة الديوانى ،فقدر الجدد بخمس ، كما حددت الأسعار على النحو التالى :

حدد سعر رطل البن باثنى عشر نصفا ، ورطلى السكر الخام بنصفى فضة ، ورطل الشمع بخمسة أنصاف فضة ، ورطل الشمع الشفاف بستة أنصاف فضة ، ورطل السكر المكرر بثمانية أنصاف فضة ، ورطل العسل الحر بنصف فضة ، ورطل العسل المقطر بنصف فضة ، ورطل العسل الأبيض المصرى بخمسة أنصاف فضة ، ورطل العسل الرومى بجميع أنواعه بنصفين وأربعة جدد[1] ورطل الصابون بثلاثة أنصاف فضة ورطل التبغ بخمسة أنصاف فضة ورطل الزيت الطيب المصفى بنصفين وأربعة جدد ورطل الزيتون الأخضر بنصف فضة ، ورطل الزيتون المغربى بنصف فضة وأربعة جدد ، ورطل الزيتون البلدى ، بنصف فضة ، ورطل العسل المقطر المصفى ، بنصف فضة وأربعة جدد ، ورطل السمن الحر بنصف فضة ، والسمن البقرى بثلاثة أنصاف فضة للرطل ، والزهر بنصفى فضة للرطل ، والسمن الشريد مثل الزهر والسيرج بنصفى فضة ، والطحينة بنصف فضة وجديدين للرطل ، والزيت الحار بنصف فضة وستة جدد للرطل ، والزيت الحلو بنصف فضة وجديدين والجبن الجاموسى الوادى بنصف فضة وأربعة جدد ، والجبن الجاموسى الطرى بنصف فضة وجديدين ، الحالوم والسلطان بنصف فضة، والناعمة بنصف جديدين ، والقريش والشلفوطى بخمسة جدد ، والطرية بنصف فضة وستة جدد ، واللحم الضانى بنصف فضة وأربعة جدد ، ولحم الماعز بنصف فضة وجديدين[2] .

---

(١) أحمد الدمرداشى ،المرجع السابق ، ص٦٧ ، عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص١٦٢ .

(٢) نفسه ، ص٦٨ ، مصطفى بن الحاج إبراهيم ،المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

وبمقارنة هذه الأسعار بالأسعار السابقة نجد انخفاضا وارتفاعا فى أسعار السلع . فقد انخفضت أسعار رطل العسل بمقدار نصف فضة ، وانخفض كذلك سعر الصابون والسمن واللحم الضانى والشعير ، وفى الوقت نفسه ارتفعت أسعار القمح ، والأرز والشحم والبن وأدخلت سلع لأول مره فى قائمة الأسعار مثل السيرج ، والجبن الجاموسى ، والطرى والوادى ، والحالوم والسكر بأنواعه الخام والشفاف والمكرر ، وكذا الشمع والتبغ والدجاج .

وفى الوقت نفسه أصدر حسن باشا السلحدار محافظ مصر السابق الذى حكم فى الفترة مابين ١١١٩ و١١٢١هـ/١٧٠٧-١٧٠٩م أمرا بسك عملة من الذهب الزنجليزى والزلاطة[١] كما أصدر أمرا بسك عملة من الفضة والأخشا[٢] ولكن الأهالى امتنعوا عن تداولها ما عدا الزنجليرى [٣] الذى فضله الأهالى للتعامل به لمعرفتهم أنه أكثر قيمة .

ثم أصدر محمد باشا النشنجى الذى حكم فى الفترة ما ١١٣٤ و١١٣٨هـ/ = ١٧٢١-١٧٢٦م أمرا لتنظيم العملة فاحضر الأغا ومعه أمين دار الضرب وجميع العاملين بهذا الدار ومعهم نقود مسكوكة من الذهب الفندقلى[٤] .

لم يكن هذا النوع يستخدم من قبل ، بل كان المستخدم عملة ذهبية تعرف بالاشرفى والطرلى والزنجليرى وقد تم تحديد قيمة الفندقلى باثنين وعشرين قيراطا كما ذكر أحمد شلبى[٥] أما الدمرداشى ومصطفى بن الحاج ابراهيم فقد حددا قيمته بأربعة وعشرين قيراطا[٦] ونميل إلى ترجيح الرأى الثانى ، ويرجع ذلك إلى أن الباشا عندما عرض الرأى الأول على الأوجاقات رفضوه وقبلوا الرأى الثانى ، وعندئذ أصدر أمره بتعيين المعلم داود

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢١٥ .

(٢) الاخشا : الأشجة بمعنى السكة البيضاء ، ضربت لأول مرة فى عهد السلطان أورخان فى بروضة عام ١٣٢٨وكان وزنها ربع مثقال أى ستة قراريط ، ١٥٤ر١ جراما وعيارها ٩٠٪ (انظر أحمد فؤاد متولى ،قانون نامة سليمان مصر ص١٦ ، هامش ١) .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٢١٥ .

(٤) انظر فى معنى البندقى ص٤٠١ هامش ٢ .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٤١ .

(٦) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٥٥ مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص٣٠ .

ناظرا لدار الضرب والبسه الباشا القفطان[١] الخاص بالمنصب[٢] وبموجب هذا القرار أخذ منه سكه الجنزولى ، ووضعها فى كيس خاص بذلك ، وتم اغلاقه ووضع الختم عليه ، وسلم إلى خازندار الديوان ،وضعه فى الخزانة ، وأعطى السكة الجديدة للمعلم داود[٣] .

ورغم قيام الوالى بتلك الاجراءات فإنها لم تقضى على الأزمة الاقتصادية ، بل استمرت فى الازدياد ، ولم يجد الاهالى القوت الضرورى مثل السمن والجبن والزيت ولو بأعلى الأسعار، لهذا اشتكى الأهالى إلى باب مستحفظان وكان مسئولا عن مراقبة الأسعار وعن أى ظلم يحيق بالناس من جانب الجهات المسئولة . ومن أجل ذلك أصدر أغا المستحفظان قرارا ببطلان جمع الحمايات ، ويفهم من ذلك أن الباشا لاحول ولاقوة ، وأن الأمر بيد محمد جركس الكبير وكتخدا المستحفظان اللذين كتبا حجة بذلك وبحضور العلماء البكرية والسادات ، ووقع عليها قاضى القضاة . وتم تسليمها إلى الأغا الفندقلى[٤] .

ورغم قيام الوالى بتلك الإجراءات فإنها لم تقضى على الأزمة الاقتصادية ، بل استمرت فى الزيادة ، ولم يجد الأهالى القوت الضرورى مثل السمن والجبن والزيت ولو بأعلى الأسعار لهذا اشتكى الأهالى إلى باب مستحفظان وكان مسئولا عن مراقبة الأسعار وعن أى ظلم يحيق بالناس من جانب الجهات المسئولة ومن أجل ذلك أصدر أغا المستحفظان قراراً ببطلان جمع الحمايات ، ويفهم من ذلك أن الباشا لاحول له ولاقوة ، وأن الأمر بيد محمد جركس الكبير وكتخدا المستحفظان اللذين كتبا حجة بذلك وبحضور العلماء البكرية والسادات ، ووقع عليها قاضى القضاة ، وتم تسليمها إلى الأغا بتاريخ السادس من شهرجمادى الآخر عام ١١٣٧هـ/ الاثنين ١٩ فبراير ١٧٢٥م ، ونادى فى الناس بعدم التعامل بالعملة السابقة .

وكان من نتيجة هذا الإجراء اختفاء السلع من الأسواق ، ورغم ارتفاع أسعارها . لهذا قررت السلطات الحاكمة وضع مراقبين على كل مخبزتكون مهمته مراقبة أحوال البيع ، ولكن

---

(١) القفطان : أرقفتان اسم لأحد الألبسة الخارجية منذ القدم ، وتقابل كلمة خلعة فى اللغة العربية ، وهى فى اللهجة العثمانية مأخوذة من الفارسية خفتان وهى غطاء خارجى (عنترى) وهى نوع من الملابس البيضاء ، السادة أى خلعة التشريف . (انظر ، ابراهيم يونس ، المرجع السابق ، ص١٧٩) .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤١١ .

(٣) نفسه .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٤٠ .

لم يأت هذا الإجراء بنتيجة ، ومع ذلك نودى بالتعامل بالعملة الجديدة ، ولكن الأهالى خشوا من توقف التعامل بالعملة التى يتعاملون بها . وبدأ العامة يقارنون الأسعار بأسعار فترة ولاية رجب باشا الذى حكم فى الفترة ١١٣٣-١١٣٤هـ/ ١٧٢٠-١٧٢١م ففى تلك الفترة كان سعر أردب القمح يباع بسعة وعشرين نصف فضة ، ويباع الفول بأربعة وعشرين نصف فضة وتباع الشعير بعشرة أنصاف فضة ، وكان هناك عامل آخر ساعد على ازدياد الأزمة ، وهو أن الباشا أراد إخراج الهوارة والتجار من الأوجاقات العسكرية لكى يحرمهم الامتيازات التى كانت لهم، ومنها عدم دخول تركتهم فى الحصر من لكى تؤول إلى بيت المال ، ولكن الأوجاقات تمسكت بهم ، ومن الملاحظ أن الهوارة كانوا منضمين إلى الانكشارية والعزب ، على حين انضم التجار إلى الأوجاقات السبعة منذ ولاية إبراهيم باشا .

ونتيجة لكل ذلك استغل الباشا الموقف المتأزم فى البلاد ، وباع غلال الحرمين الشريفين وغلال الفقراء والمساكين بسعر الأردب بجنزرلى ، لهذا حرم أهالى الحجاز وأهالى مصر من هذه الغلال ، بالإضافة إلى ذلك باع غلال الدشايش[1] والخواصك[2] وقدرت تلك الكمية بثمانية وعشرين ألف أردب .

---

(١) الدشايش : وهى أوقات الدشيشة الكبرى والمرارية المحمدية والأحمدية ، ووقف الدشيشة الكبرى ، سابق على العصر العثمانى ، وهو من أوقاف السلاطين المماليك ،والدشيشة قمح مجروش يرسل لفقراء الحرمين الشريفين .

أما أوقاف المحمدية والمرادية والأحمدية فهى أوقاف وقفها سلاطين العثمانيين فى مصر وخصصوها لأهالى الحرمين الشريفين .

وكلها تكون أوقاف الحرمين الشريفين فى مصر ، وكانت هذه الأوقاف تمثل الايرادات المرسلة مالا أو غلالا إلى الحرمين الشريفين ، وتعرف بصرة الأوقاف . وكانت تسلم لأمير الحاج (انظر ، ليلى عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص١٤٣-١٤٤) .

(٢) الخواصك : هذه كلمة تطلق على هذه الوظائف الثلاث . الخاصكية من النساء ، والخاصكية الثانية وهى طائفة من موظفى العصر تابعة لجماعة البستانجية، كما كانت فى الجيش الانكشاريأربع فرق تعرف بالخاصكية وفى الكتائب الآتية :

الرابعة عشرة والتاسعة عشرة والأربعون والسادسة والستون والسابعة والستون ، وكان هؤلاء الخاصكية متخصصين فى تربية كلاب الصيد ، وكان أربعة منهم يصاحبون السلطان إذا خرج للصيد .(انظر أحمد السعيد سليمان ، المرجع السابق ٨٢-٨٥) .

ولهذا تضامن العلماء مع الأهالى فى شكواهم إلى السلطان العثمانى فى استانبول فى عاشر ذى الحجة عام ١١٣٧هـ/٩ أغسطس ١٧٢٥م وعقدوا اجتماعاً فى منزل محمد بك الدفتردار ، وعينوه قائم مقام ، عليهم لمتابعة شكواهم لدى السلطان العثمانى ومن حسن الحظ أن منسوب ماء النيل ارتفع فى هذا العام ، ولكن لم تتراجع على موجة الغلاء الفاحش .

ونتيجة لعدم استقرار الأمور فى البلاد ، ولسوء الأحوال الاقتصادية إبان ولاية حسن على باشا الذى حكم فيما بين ٢١ ربيع الأول ١١٣٨هـ و٨ جمادى آخر عام ١١٣٨هـ/٢٧ نوفمبر ١٧٢٥-١١ فبراير عام ١٧٢٦م ، انتهز اللصوص الفرصة وقاموا بالسطو على الأسواق والمحلات ونهبوا النحاسين والصاغة وخان الخليلى ، واستولوا على الكهرمان ، واستولوا من الغورية ومن الألماطيين والسكرية على الشاش والقطن . ووصل الأمر إلى أن بعض السراجين كانوا يقومون بالاستيلاء على بعض الأشياء من أحد المحلات ، فإذا طالبهم صاحب المحل بأثمانها أطلقوا عليه الرصاص ولم يكتف هؤلاء اللصوص بذلك ، بل قاموا بالهجوم على الحمامات واستولوا على أموالها ، وترتب على عدم استقرار الأحوال الأمنية ، والاستيلاء على أموال بعض التجار ، إلى إفلاسهم كما أن هؤلاء اللصوص قاموا بقتل بعض الأمراء المماليك وقتل بعض الجنود والتمثيل بجثثهم ، ولما علم الباشا بذلك أصدر أوامره بالقبض على هؤلاء وإعدامهم فوراً .

وعلى الرغم من ذلك لم تهدأ الأحوال الأمنية فى مصر العثمانية ، بل قام اللصوص بالاستيلاء على أمتعة الأهالى ولم يعبئوا بأى شئ حتى بآراء العلماء ووصل بهم الأمر إلى فرض الإتاوات على الأهالى الذين يقيمون أفراحهم .

ورغم كل هذه الإجراءات التى قام بها الولاة فإن هذه الأزمة بقيت حتى عام ١١٤٠هـ/١٧٢٨م ففى هذا العام أصدر محمد باشا النشنجى الذى حكم فى الفترة مابين ١٣جمادى آخر عام ١١٣٨هـ و١١ محرم ١١٤١هـ/١٥ فبراير ١٧٢٦م - ١٧ أغسطس ١٧٢٨م أوامره بإصدار عملة جديدة حدد أسعارها وأوزانها ، وفى الوقت نفسه أعلن الأغا أن كل نصف فضة يساوى عدداً من العملة الجديدة ، وأمر بوقف التعامل بالدراهم ، ولذلك أعدم المعلم داود أمين دار الضرب ، لأنه أخذ يضرب الدراهم الملغاة وبخاصة من الذهب الجنزرلى ، وأعدم كذلك أحمد أفندى الروزنامجى[١] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٤٥٠-٤٥١ .

وعلى الرغم من القيام بكل هذه الإجراءات فإن أسعار السلع التموينية ظلت مرتفعة فلم ينخفض سعر أردب القمح فى مدته عن زنجليزى ، وحددت أسعار القمح والفول فى بولاق بستين نصف فضة ، والحمص بنصفى فضة ، ولم ينخفض السعر عن ذلك ولم ينخفض سعر رطل الصابون عن سبعة أنصاف فضة ، وشهدت مدة ولايته أعمال السلب والنهب رغم أنه قضى على نفوذ الشواربية[١] .

ومع كل هذه الإجراءات لم تنخفض الأسعار واستمرت فى الارتفاع حتى وصل سعر الأردب القمح ثمانية قروش عام ١١٤٢هـ/١٧٢٩م ، أى فى ولاة باكير باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٤ صفر ١١٤١هـ - غرة محرم ١١٤٢هـ/١٩ سبتمبر ١٧٢٨-٢٧ يوليو ١٧٢٩م وتفاقمت الأزمة السياسية التى كانت تمر بها البلاد ، وخاصة بعد تدهور الموقف فى صعيد مصر ، وترتب على ذلك عدم إبحار السفن إلى الصعيد . وقام جركس محمد الكبير وكان قد وصل إلى البهنسا فى العام نفسه ، بأعمال السلب والنهب ، بل أنه ساعد على ازدياد الأزمة الاقتصادية بمنعه ارسال مراكب من الصعيد ، لهذا قل وجود القمح ، وارتفع سعره . ويبدو أن السلطات الحاكمة فى مصر وكان يتولاها عبد الله باشا الكبرلى الذى حكم فى الفترة ما بين ٦ ربيع الآخر عام ١١٤٢هـ - ١٢ ربيع الأول ١١٤٤هـ/٢٩ أكتوبر سنة ١٧٢٩م - ١٤ سبتمبر عام ١٧٣١م) كانت من الضعف بحيث أنها جهزت خمس تجريدات عسكرية للقضاء على نفوذ جركس محمد لكنها لم تتمكن القضاء عليه[٢] فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار فوصل قنطار القطن أربعين قرشا ديوانيا ، وبلغ سعر قنطار البصل أربعين نصف فضة ، ونتيجة لارتفاع الأسعار بهذا الشكل المخيف صارت حالة الناس يرثى لها[٣] وزاد الأمور تعقيدا أنه فرض على التجار ضرائب عينية ، فقد فرض أربعين كيسا من البهار ، لكى يواجه الباشا نفقات الحملة المزمع ارسالها ضد جركس محمد الكبير فى صعيد مصر ومن العوامل التى أدت إلى عدم استقرار الأحوال الاقتصادية فى مصر كثرة تغيير العملة ، فعندما تولى السلطان محمود خان العرش صارت أسعارها على النحو التالى :

---

(١) الشواربية : كان ال الشواربى من كبار التجار ، وكان بينهم من بيوت المجد والعز والفخر ومنهم عائلة مشهورة بالقلوبية . (انظر على مبارك الخطط التوفيقية ، الجديدة ومدنها وبلادها القديمة .

(٢) أحمد شلبى عبد الغنى المرجع السابق ، ص٥٥٩ .

(٣) نفسه ، ص٥٧٥ .

تغير عملة الفندقلي بزر محبوب صار سعر الفندقلي زرمحبوب ونصف زر محبوب ، مائة وعشرة أنصاف فضة ، والنصف بخمسة وخمسين نصف فضة ، والريال المشط ، والريال ابو طاقة بتسعين نصف فضة ، والريال ابو كلب والريال الحجر بخمسة وخمسين نصف فضة ، والفندقلي الذى ابطل سكه بمائتى نصف فضة ، وأصدر والى مصر أمرا بذلك لأغاوات الإنكشارية ، كى يقوموا بتنفيذ هذه الاجراءات كما نودى بهذا القرار فى البلاد(١) وكان تغيير العملة سمة واضحة من سمات هذا العصر ، فقد تغيرت العملة فى ابان ولاية محمد باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة مابين ٨ جمادى الآخر عام ١١٤٤ - ١٥ صفر ١١٤٦هـ/٨ ديسمبر ١٧٣١ - ٢٨ يوليو ١٧٣٣م فأصبح سعر الفندقلى مائتى جنزرلى والزنجليرى بمائة وستين ، ولكن الناس ثاروا على هذه الاجراءات ، وألقوا على موكب الوالى الحجارة فاضطر الوالى إلى الذهاب إلى القلعة ، وطلب قادة الأوجاقات العسكرية لعقد اجتماع فى الديوان ، لمناقشتهم فى الأمر . وبعد المناقشة اتفق المجتمعون على ابطال العمل بأسعار العملة الجديدة حددت أسعار أخرى على أساس الريال بستة وثلاثين نصف فضة ، والزنجليرى بمائة وسبعة نصف فضة ، والطرلى بمائة ، والفندقلى بمائة وثلاثين نصف فضة ، والنصف فضة باثنى عشر جديدا ، وكان قد تم التصديق على هذه الأسعار الجديدة فى ١٦ جماد آخر عام ١١٤هـ/ ١٦ ديسمبر ١٧٣١م (٢) .

وعلى الرغم من اتخاذ هذه الإجراءات فإن الأمور لم تهدأ فلجأ اللصوص إلى الخطف والقتل واستولوا على بغال التجار ، وارتفع سعر قربة الماء فصارت بأربعة أنصاف فضة ، وأغلقت الاسواق محلاتها ، وأصبحت البلاد فى حالة يرثى لها ، بل أن الوالى أصدر أمرا بعدم خروج النساء والأولاد إلى الاسواق ، وامتثلت النساء لذلك(٣) ومن الأمثلة على سوء الأحوال الأمنية والاقتصادية أن عام ١١٤٥هـ/١٧٣٣م شهد ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا، ومن الأدلة على ذلك أن ارتفع سعر العملة فأصبح الفندقلي بمائتين وأربعين نصف فضة . لهذا شكا الأهالى للعلماء والتجار ، واختاروا الشيخ ابراهيم بسيونى وبعض طلبة الشيخ عبد الله

---

(١) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص١٩٠-١٩٤ .

(٢) نفسه .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٧٦ .

الشبراوى ، وتوجهوا إلى محمد بك قطامش ، ومن بعده توجهوا إلى الوالى ، وقرأوا الشكوى عليه . وأرسل معهم كخيته . وعندما تأكد الوالى من صحة ماقرئ فى شكوى الأهالى أمر بعقد اجتماع للمسئولين فى بيت رضوان بك الدفتردار . وفى يوم الاجتماع امتلأ الأزهر بالأهالى . وخرج عميان الأزهر فى مظاهرة ، واغلقوا المحلات بالقوة إلى أن وصلوا إلى ميدان الرميلة ، وخشى الصناجق من ذلك ، وتحت ضغط هذه المظاهرة صدرت الأوامر بعدم استعمال المقاصيص والدراهم ، وحدد سعر الجدد الديوانية بثمانية أنصاف فضة ، وأمر بمنع تداول الفضة الأخشا . وطالب العلماء الوالى بتحديد الأسعار ، فأمرهم الوالى بضرورة الاجتماع فى منزل شيخ الاسلام واجتمعوا وحددوا أسعار بعض السلع ، وكل من يمتنع عن تنفيذها يقتل فورا ، وامتثل الجميع لذلك .

وعلى الرغم من ذلك شح وجود بعض السلع مثل الخيار ، والبطيخ ، والخضر ، وبعض السلع الضرورية ، واستمر الحال على هذا المنوال ثلاثين يوما ، لم تهدأ الأحوال فى أثنائها إلا بعد أن هدد الباشا بخوزقه كل من يخالف هذه التعليمات[١] .

وعلى الرغم من ذلك استمرت الأسعار فى الارتفاع ،حتى مجئ عثمان باشا والى طرابلس الشام ، الذى حكم فى الفترة ما بين (١٣ جمادى الآخر عام ١١٤٦-٢٧ ذى الحجة عام ١١٤٧هـ/ ٢١ نوفمبر ١٧٣٣-١٧٣٤م) واشتكى الأهالى إليه من ارتفاع الأسعار ، ولم يلتفت لشكواهم ، فرموه بالحجارة ، وكاد الحرس أن يشتبك معهم ، ومع ذلك استمر التلاعب أيضا بالعملات حتى مجئ باكير باشا والى مصر السابق ، الذى حكم فى الفترة ما بين ١٤ شوال عام ١١٤٨هـ و٢٧ ذى الحجة عام ١١٥٠هـ/٨ مارس ١٧٣٥ - ٢٧ إبريل عام ١٧٣٧م. فاشتكى إليه الأهالى من تعدد العملات ، اذا أصبحت ثلاث عملات أخشا ، مرادى ، مقصوص وكان الأخشا بستة عشر جديدا ، والمرادى باثنى عشر جديدا ، والمقصوص بثمانية جدد . وتوقع الأهالى أن يقوم الوالى باستبدال العملة ، ولكن لم يحدث شئ من ذلك، فاغتم الناس غما شديدا ، وامتنعوا عن تداول المقصوص ، واقتصر تعاملهم على الأخشا والمرادى ، لهذا اختفى المقصوص ، فأصبح الذى كان يسعر بالمقصوص يسعر بالديوانى .

وعدلت الأسعار بعد ذلك ، فبعد أن كان سعر رطل اللحم الضانى بثلاثة مقاصيص صار سعره بثلاثة أخشا ، ورطل الجاموس باثنين مرادى بعد أن كان باثنين مقاصيص . لهذا حزن

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٨٥ .

الناس حزنا شديدا ، وما زاد الموقف سوءا أن الدولة العثمانية طلبت من والى مصر ارسالة ثلاثة آلاف جندى ، ولكن لم يتمكن الوالى من تنفيذ المطلوب منه ، اذ لم يحضر جنود من القلوبية ولا من الجيزة ولا من شرقى اطفيح ، بسبب الغلاء الفاحش . لكنه تمكن بعد ذلك من اعداد هذا العدد المطلوب من الغربية والبحيرة والمنوفية والشرقية والمنصورة[١] .

وبالإضافة إلى ذلك أصدر أغا الحسبة أوامره للتجار بدفع ما كان يؤخذ منهم سابقا أى منذ عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م ، فامتثل الجميع ماعدا الشيخ التجار بالغورية والجميلون ، ولانعرف سببا لذلك ، وطلب شيخ التجار هذا عقد اجتماع فى منزله ، ومن الطريف أنه طلب من الجميع المساهمة فى مصاريف هذا الاجتماع ، ولكن شيخ التجار المغاربة امتنع عن الحضور والمساهمة فى مصاريف هذا الاجتماع ، على أساس أن شيخ التجار هو الذى دعا للاجتماع وعليه أن يتحمل تكاليفه . وعندما علم المحتسب بذلك أخبر شيخ التجار بضرورة تنفيذ ما أقره الإجتماع والتزم بذلك[٢] .

وكان من نتيجة تخبط الولاة العثمانيين فى سياستهم المالية فى هذه الفترةوقد تمثل فى تغيير العملة من وقت لآخر ، ان زادت شكاوى الأهالى للدولة العثمانية فأصدرت فرمانا عام ١١٤٨هـ/١٧٣٦م ، ينص على ابطال عملة الفندقلى بعد أن ارتفع سعرها من مائة وأربعوثلاثين نصف فضة إلى مائة وستة وأربعين نصف فضة على أن يسك بدلا منه زرمحبوب[٣] وحدد سعره بمائة وعشرة انصاف أخشا ، ونص كذلك على ابطال المرادى ، وعدم استخدامه فى البيع والشراء ، وأن يستخدم بدلا منه الدراهم وحدد سعرها بأربعة أنصاف أخشا لكل درهم ، ونودى بذلك بالقاهرة[٤] ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد قامت الدولة العثمانية عام ١١٦٧هـ/١٧٥٤بتبديل العملة فى مصر بمناسبة تولية السلطان عثمان خان عرش السلطانه وكان الوالى فى مصر ذا ذاك مصطفى باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١١٦٧هـ / و١١٦٨هـ / ١٧٥٤-١٧٥٥م فجمعت العملة القديمة ووضعت فى المخازن ، وبدأت دار الضرب تسك العملة الجديدة وهى زر محبوب .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٥٩٥ ، عمر عبد الغزيز ، المرجع السابق ، ص١٦٤ .

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص٦٠٦ - ٦٠٧ .

(٢) نفسه ، ص٦١٢ .

(٤) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢٥٥ .

وفى عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م ، أمر محمد بك ابو الذهب بابطال العملة التى سكت فى عهد على بك الكبير ، وأدى هذا القرار إلى فقدان ٢٠٪ من قيمة العملة ، وانتهز التجار الأوربيون هذه الفرصة وجمعوا هذه العملتوحولوها إلى سبائك من الذهب ، وأرسلوها إلى مرسيليا ، وحققوا من وراء ذلك أرباحا طائلة[1] .

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن الأمير المملوكى محمد بك الألفى فرض عام ١٢١١هـ/١٧٩٦م ضرائب جزافية على سكان قرية قرب بلبيس عاصمة مديرية الشرقية فاستغاث الأهالى بالشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وكانت له حصة فيها ، فاتصل بابراهيم بك ، ومراد بك فحاولا منع المظالم المستحدثة والمكوس وكتبا بذلك حجة[2] .

إلى جانب أسباب الأزمات الاقتصادية والسياسية السابقة ، نجد أن اليهود كان لهم دور فى حدث ازمات اقتصادية رهيبة مستغلين فى ذلك خبرتهم بالأعمال المصرفية ، ولكن أحمد باشا الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٨٦-١٠٨٧هـ - ١٦٧٥-١٦٧٦م) فطن لأساليبهم ، فأمر بابعادهم من الديوان وعين بدلا منهم ابراهيم جاويش دلال البلاد[3] فى وظيفة صراف باش ، وصالح أفندى كاتب الحوالة[4] ، وبالإضافة إلى ذلك عين عددا من الصيارف المسلمين[5] .

وقد فرض الباب العالى ضرائب على الأهالى عام ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥-١٦٩٦ وذلك بايعاز من ياسف اليهودى ملتزم دارسك النقود ، لما سافر إلى استانبول ، سأله الباب العالى عن

---

(١) محمد رفعت رمضان ، على بك الكبير ، ص٨٦ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر ، دراسة فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٥٩ - ٦٠ .

(٣) جاويش دلال البلاد : أى رئيس السماسرة الوسطاء فى القاهرة فكان يفرض اتاوة على كل الدلالين الذين يبيعون فى الأسواق العامة الأسماك والبياضات والملابس .. الخ ، وبخلاف ذلك فقد كان كل واحد من هؤلاء الشيوخ (شيوخ الدلالية) يستطيع أن يبيع بنفسه ، ذلك أن وظيفة الدلالين فى الأسواق لاغنى عنها ، وكان أحد هؤلاء الشيوخ اثنين أحدهما تركى والآخر مصرى ، (انظر علماء الحملة الفرنسية ، المرجع السابق ، المجلد السادس ، ص١٠٢) .

(٤) كاتب الحوالة : هو الموظف المسئول عن قيد اسماء الملتزمين وقدر الميرى المقرر عليهم ، والأقساط المطلوبة منهم ، وارسال الحوالات أى الأشخاص الذين يطالبونهم بهذه الأقساط . (انظر ، أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص١٧٤) .

(٥) أحمد شلبى ، المرجع السابق ، ص١٧٤ ؛ يوسف المللوانى ، المرجع السابق ، لوحة ١٠٨ أ .

أحوال مصر وامكانية زيادة الضرائب المفروضة على أهلها ، أجاب أنه يمكن فرضها وتعهد بتحصيلها ، فأرسل الباب العالى معه الفرمان السلطانى الخاص والقاضى بفرض تلك الضرائب وسلمها ياسف اليهودى للوالى قام بتنفيذها فورا ، وأعلنها فى الطرقات والشوارع[١] ولكن الأهالى ثاروا وطالبوا الوالى بتسليمهم ياسف ، ولكنه رفض، فقبضوا على ياسف وقتلوه حرقا[٢].

وتعرضت البلاد عام ١١٢٨هـ/ ١٧١٥م ، لأزمة اقتصادية ابان ولاية عابدى باشا الذى حكم البلاد فى الفترة مابين ١١٢٦ و١١٢٩هـ/ ١٧١٤-١٧١٧م ، ويرجع سبب هذه الأزمة الاقتصادية إلى ثلاثة من اليهود ، كانوا يعملون كتبة فى الديوان فتلاعبوا بأسعار العملة ، وانتهى الأمر باعدامهم ، وطلب الوالى عقد اجتماع للديوان ، لتحديد أسعار العملة ، وكانت تلك الأسعار على النحو التالى :

الجنزرلى بمائة وسبعة أنصاف فضة على حسب السعر السابق ، والطرلى بمائة نصف فضة ، والفندقلى بمائتوعشرين نصف فضة ، والريال بستين نصف فضة ، وابو الكلب بخمسةوأربعين نصف فضة على حسب السعر السابق ، وأصدر الديوان أمرا بوقف التعامل بالأسعار القديمة . وتم اصدار عملة جديدة على أساس كل جديدين بدرهم ، عرفت تلك العملة بجدد طره . ونودى بذلك فى القاهرة لأخبار السكان وبرغم ذلك لم يجد الأهالى السلع الضرورية .

ومن الملاحظ أن سعر الريال فى المنصورة فى الفترة نفسها كان يعادل خمسة وسبعين نصف فضة ، ولانعرف سببا لذلك[٣] .

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات ارتفعت الأسعار بصورة لم يسبق لها مثيل فقد ارتفع سعر أردب القمح عام ١١٣٠هـ/١٧١٨م إلى جنزيرين فى إبان ولاية على باشا الأزمرلى الذى حكم فى الفترة مابين (١١٢٩-١١٣٣هـ/١٧١٧م - ١٧٢٠م) ثم عادت الأسعار إلى الانخفاض فى إبان ولاية رجب باشا الذى حكم فى الفترة مابين (١١٣٣-١١٣٤هـ/ ١٧٢٠-١٧٢١م) فكان أردب القمح يباع بسبعة وعشرين نصف فضة ، والفول

---

(١) عمر عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص١٦٢ .

(٢) نفسه .

(٣) دار المحفوظات المصرية ، سجل محكمة المنصورة ، سجل رقم ١، ص ١٣٦ ، عام ١١٢٨هـ/١٧٥م.

ثمانية عشر نصف فضة والشعير باثنى عشر نصف فضة والقمح اثنين وثلاثين نصف فضة ثم ارتفع سعرها بعد عزل الباشا ويمكن أن يرجع السبب فى انخفاض الأسعار إلى زيادة المحاصيل واستقرار الأمن .

ومن العوامل الأخرى التى ساعدت على حدوث الأزمات الاقتصادية الاختلاسات ففى عام ١١٠٣هـ/١٦٩١م حصلت الروزنامة على ١٢٠ كيسا دون علمالسلطات الحاكمة ، وعندما علمت السلطات الحاكمة أرادت معرفت السبب الذى من أجله تم تحصيل هذه الأموال ، ولكنها لم تحصل على الاجابة المطلوبة ، ووجدت أن كل طرف من الأطراف المختلفة يلقى المسئولية على الآخر ، لذلك شكلت السلطات الحاكمة لجنة للتحقيق ، وكان نتيجة التحقيق أن الروزنامجى اختلس ثمانين كيسا ، وأن كاتب الروزنامة اليهودى اختلس أربعين كيسا ، وانتهى الأمر بأعدامها[١] .

وعلاوة على كل ذلك اختلس أمين الشون[٢] والكتبة تسعة عشر ألفا أردبا من الفول كان نصيب الأمين أحد عشر ألفا والباقى كان من نصيب الكتبة ، وكان ذلك ابان ولاية محمد باشا النشنجى الذى حكم فيما بين ١١٣٤ و١١٣٨هـ/١٧٢١-١٧٢٦م . وكادت تحدث مجاعة ، لولا أن واجهت السلطات الحاكمة ذلك باستيلاءها على نصف كمية الفول الذى كان مخصصاً للحرمين الشريفين [٣].

---

(١) أحمد الدمرداشى ، المرجع السابق ، ص٢١ .

(٢) أمين الشون :فكان يحكم وظيفته كمدير للمخازن العمومية يحصل على العادات المقررة لصالحة نقدا من الملتزمين الذين يسددون ضرائبهم عينا ، وكان كل الموظفين العاملين تحت امرته يحصلون على رواتب منه، وكان مخولا له عند استلام الغلال من المولين أن يستخدم مكابيل اكبر حجما على نحو طفيف من تلك التى يستخدمها عن تسليمه هذه الحبوب لتوزيعها على الجهات التى حددتها اللوائح (انظر ، استيف ، النظام المالى والادارى فى مصر العثمانية ضمن مجموعة وصف مصر ، الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٧٩ ، ترجمة زهير الشايب ، ص١٢٠) .

(٣) مصطفى بن الحاج ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

وفضلاً على ذلك كله ساهم فساد عربان غزالة [١] فى ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية فى إبان ولاية أحمد باشا الحافظ ، الذى حكم فى الفترة مابين (٩٩٩-١١٠٣هـ/ ١٥٩١ -١٥٩٥م) ولكن الحاكم واجه فسادهم بتجهيز حملة ضدهم ، وقتل منهم ثلاثمائة فرد واستولى على أموالهم ونسائهم وذراريهم ، وباعهم فى سوق الرميلة كالأسرى ، فبيع الولد بدينارين والبنت بدينار [٢] ومن الجدير بالذكر أن تجارة الرق كانت منتشرة لا فى مصر العثمانية فحسب بل كانت منتشرة فى أنحاء كثيرة من العالم ، ولم يكن فى ممارسة تلك التجارة غير الإنسانية أية عضاضة .

ولم تتوقف أعمال المفسدين عند هذا الحد ، بل قام عربان المغاربة والضعفا [٣] والنجما [٤] فى البهنسا فى عام ١١١١ هـ / ١٦٩٩- ١٧٠٠م بالهجوم على الأهالى ، ودمروا مزروعاتهم واغتصبوا نساءهم ، فاشتكى السكان للسلطات الحاكمة فلم تتخذ أى إجراء ضد هؤلاء المفسدين مما اضطر الأهالى إلى أن يرسلوا وفداً للشكوى للسلطان العثمانى فى أستانبول [٥].

ومما ساعد علي ازدياد سوء الأحوال الاقتصادية فى مصر العثمانية امتناع عربان الهوارة عن توريد الكمية المفروضة عليهم من إنتاج القمح ، وأدى ذلك إلى ارتفاع سعره فبلغ سعر الأردب منه مائة وعشرين نصف فضة ، فاشتكى الأهالى للسلطان العثمانى فأصدر فرمانًا لوالى مصر يحثه فيه على القضاء على فساد هؤلاء العربان [٦].

---

(١) عربان غزالة ، وأماكن إقامتهم ضواحى الجيزة ، والمناطق القاحلة بجوار الأهرام (انظر : علماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، جـ ٢ ، ص ٣٩٦) .

(٢) يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٨أ .

(٣) عربان الضعفا : وهم مستقرون فى ضواحى شمال بنى سويف (انظر : علماء الحملة الفرنسية ، ترجمة زهير الشايب ، العرب فى ريف مصر وصحراواتها ، لقاهرة ١٩٨١م ، ص ٢٠) .

(٤) عربان النجما : وهم المستقرون بولاية البهنسا (المرجع السابق ، ص ٣٠) .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ ؛ أحمد الدمرداش ، المرجع السابق ، ص ٤١ ؛ مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٦) مصطفى بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

وعلاوة على كل العوامل السابقة التى أدت إلى سوء الأحوال الاقتصادية فى مصر ، كانت هناك عوامل أخرى ساهمت فى سوء تلك الأحوال ، وهى العوامل الطبيعية ، وانخفاض منسوب النيل أو ارتفاعه ، وقد شهدت مصر إبان ولاية محمد باشا الشهير بدوقة لين الذى حكم فى الفترة مابين ٩٦١ و ٩٦٣ هـ / ١٥٤٤ - ١٥٥٦م انخفاضًا فى مياه النيل ؛ أدى إلى ندرة بعض السلع ، مثل القمح والشعير ما يقتاتون به حتى أصبحوا يقتاتون بذور الترمس ، فهلك الكثير من الفقراء ، ثم تمكن التجار من استيراد القمح من بلاد الشام [١].

وفى إبان ولاية على باشا السلحدار الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠١٠ و ١٠١٣ هـ / ١٦٠١ - ١٦٠٣ م حدث انخفاض لمنسوب مياه النيل فأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار المواد التموينية . وبدلاً من أن يخفف الوالى عن الأهالى ، نجد إنه قد استغل الموقف فباع بعض كميات من القمح للتجار الأوربيين على أنها بهار ، ولما علم العسكر بذلك أرادوا قتله ، فتراجع عن ذلك[٢] وارتفع سعر أردب القمح ارتفاعًا هائلاً ، ونتج عن ذلك وفاة الكثير من الأهالى[٣] .

وفى عام ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩م ، انخفض منسوب مياه النيل مرة أخرى إبان ولاية محمد باشا المعروف بقول قران ، الذى حكم فيما بين ١٠١٦- ١٠٢٠ / ١٦٠٧ - ١٦١١م[٤] فضعف إنتاج القمح فى مصر فى تلك الفترة من فترات متتالية .

وقد شهدت البلاد فى إبان ولاية قرة حسين باشا ، الذى حكم فى الفترة مابين ١٠٢٩ و ١٠٣١ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٢٢م فيضانًا شديداً للنيل ، ولم ينخفض عن معدله ، طوال فصل الفيضان (فصل الصيف) ، وترتب عى ذلك ارتفاع أسعار المواد الغذائية ، بسبب عدم تمكن الفلاحين من القيام بأعمال الزراعة بسبب الفيضان وقد كان العامل الدينى وأثره المهم ؛ فقد دعا العلماء والأشراف الله أن تزول عنهم هذه الكارثة ، فاستجاب الله لهم ، وانخفض النيل إلى معدله الطبيعى فعادت الأسعار إلى سابق عهدها [٥].

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١١٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٤ أ .

(٢) ابى السرور البكرى الصديقى ، الكواكب السائرة ، لوحة ١٥ ب ، ١٦ ب ؛ نفسه ، المنح الرحمانية، لوحة ٦٤ أ - ٦٥ ب ؛ أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع اسابق ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) يوسف الملوانى : المرجع الشابق ، لوحة ٨٩ ب .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٥) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ،ص١٢٣ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة٩٣ب.

وتحدثنا المصادر المعاصرة لهذه الفترة عن انخفاضات للنيل فى عهود كثيرة . ترتب عليها حدوث أزمات اقتصادية شهدتها البلاد ، ففى ولاية إبراهيم باشا السلحدار فيما بين (٤ جمادى آخرة عام ١٠٣١ ورمضان عام ١٠٣١هـ / ١٥ أبريل عام ١٦٢٢ - يوليو ١٦٢٢م) حدثت أزمة اقتصادية استمرت أربعة أشهر وهى مدة حكمه بسبب انخفاض النيل[١] وفى أثناء الفترة التى تناولها البحث استمرت الأسعار فى الارتفاع ، ففى عهد ولاية بيرم باشا (٩ شعبان ١٠٣٥ - ٩ محرم ١٠٣٨ هـ / ٦ مايو ١٦٢٦ - ٨ سبتمبر عام ١٦٢٨م) ندر وجود الصابون ، وهنا تدخل قاضى العسكر وأمر بألا يباع الصابون إلا بإشرافه شخصياً ، إذ بلغ سعر الرطل خمسة عشر نصف فضة ، بعد أن كان يباع فى إبان ولاية قرة حسين باشا بعشرة أنصاف فضة أى أن الأسعار قد زادت بنسبة ٥٠٪ وفى تلك الفترة نفسها قل وجود الماء ، وترتب عى ذلك اختفاء السقائين وارتفعت أسعار القمح ، حى وصل سعر الأردب إلى ثمانية قروش إبان ولاية محمد باشا طبانة الذى حكم في الفترة ما بين ١٠٣٨ و ١٠٤٠هـ / ١٦٢٨ - ١٦٣٠م[٢] ، وشهدت فترات حكم كل من محمد باشا الشهير بزلعة السم ، فيما بين ١٠٤٧ - ١٠٥٠ هـ / ١٦٣٧ - ١٦٤٠م ،ومصطفى باشا البستنجى فى الفترة ١٠٥٠ و ١٠٥٢ هـ / ١٦٤٠ - ١٦٤٢مم انخفاض منسوب مياه النيل ، وترتب على ذلك ارتفاع الأسعار حتى بلغ ثمن ويبة[٣] القمح ، ثلاثين نصف فضة ، وأدى ذلك إلى اضطراب الأمن فكثر اللصوص وقطاع الطرق واستغلوا الفرصة ونهبوا المحلات والمنازل فاضطر السكان إلى اخلائها وفى الفترة نفسها ندر وجود الخبز ، فتعرضت الأسواق مثل سوق ابن طولون والمغاربة للنهب والسرقة[٤] وارتفعت أسعار القمح فوصل سعر الأردب إلى ثلاثة أضعاف سعره فى مدة حكم سنان باشا .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٢) أحمد شلبي عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٩٤ب.

(٣) الويبة : مكيال مصرى ، وهى تساوى ستة عشر قدحًا مصريًا ، والقدح المصرى صغير تقديره بالوزن من الحب المعتدل مائتان وثلاثون درهمًا (انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنسا ، جـ٣ ، ص ٤٤٥) .

(٤) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ١٥٠ ؛ نفسه أيضًا لوحة ٩٨ب .

لهذا يمكن القول بأن الأزمة الاقتصادية لم تتوقف بل استمرت فى ولاية مقصود باشا الذى حكم فى الفترة ما بين ١٠٥٢ و ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٢ - ١٦٤٣م فلم تكن الغلال ولا المواشى تصل إلى القاهرة ، واستمرت الأسعار فى الارتفاع وصل ثمن أردب القمح إلى ثمانية قروش ، وفوق كل ذلك منع إعطاء الأهالى القروض التى كانت تعطى من الخزانة ، وفضلاً على ذلك كثرت المظالم فى إبان ولاية هذا الوالى حتى أفلس كثير من التجار (١).

وشهدت ولاية محمد باشا فيما بين [١١١٦ و ١١١٨ هـ / ١٧٠٥ - ١٧٠٧م] انخفاضًا فى منسوب مياه النيل ؛ ونتج عن ذلك ارتفاع الأسعار حتي وصل سعر أردب القمح إلى مائة وأربعين نصف فضة ، ووصل سعر أردب الشعير إلى مائة وخمسين نصف فضة ، والفول إلى مائة وثمانين نصف فضة . والأرز إلى أربعمائة نصف فضة ، وقنطار البن إلى اثنين وخمسين ريالاً بعد أن كان واحداً وعشرين ريالاً فقط . وساعد على ارتفاع أسعاره عدم استيراده من اليمن ، ووصل سعر رطل اللحم إلى ثلاثة أنصاف فضة والدجاجة إلى عشرة أنصاف فضة ورطل الشحم بثمانية أنصاف فضة ، وكان نتيجة هذه الأزمة أن كثر المتسولون(٢) .

ونتج أيضًا عن عدم توريد الغلال من الوجه القبلى عام ١١١٩هـ / ١٧٠٧م - أى إبان ولاية حسن باشا السلحدار نقص اللحوم فى الأسواق ، وأدى ذلك إلى حدوث أزمة سياسية عرفت فى المصادر المعاصرة لتلك الفترة بواقعة الرطلين لحم واستغلت الأنكشارية الموقف وأعلنت حمايتها لدار سك النقود ، وكان هدفهم من وراء ذلك إصدار عملة على حسب أهوائهم، وفضلاً على ذلك ارتفعت أسعار الخضر والفاكهة (٣).

ومن الكوارث التى حدثت فى مصر فى عام ١١٣٤ هـ / ١٧٢٢م ، انخفاض منسوب مياه النيل فى إبان ولاية محمد باشا النشنجى صدر أعظم الذى حكم فى الفترة مابين ١١٣٤ و ١١٣٨ هـ / ١٧٢١ - ١٧٢٦م ، ونتج عن ذلك ارتفاع أسعار بعض المواد التموينية فوصل سعر أردب القمح إلى خمسة وثمانية نصف فضة ، بعد أن كان سعره أربعين نصف فضة وقد نقصت الغلال الوردة من الصعيد ، لذلك وصل سعر أردب القمح إلى أربعة قروش ، وواجه

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٩٨ ب.

(٢) أحمد الدمردارش : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى : المرجع السابق ، ص ٢١٥ .

الوالى الموقف باتخاذ عدة قرارات كان منها وقف التعامل بالعملات ، ولم تحدثنا المصادر المعاصرة لتلك الفترة عن البديل لكن المحتمل أن تكون قد حلت محلها عملة جديدة ودعا إلى عقد اجتماع تقرر فيه تسعير بعض المواد التموينية ، فصار أردب القمح بسبعين نصف فضة والشعير بخمسة وثلاثين نصف فضة . وعلى الرغم من اتخاذ كل هذه القرارات تعذر وجود القمح ، وكاد الأهالى يموتون جوعاً . ويقال أن أحد أسباب هذه الأزمة أن كتخدا الباشا استغل الموقف وصدر القمح إلى أوربا[١] .

يتضح من ذلك أن سلطة السلطان العثمانى لم تكن قوية عى الولاة ، فكانوا يتصرفون عى حسب ما تقضى به حاجاتهم .

،وقد شهد عام ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ - ١٧٣٧ م وقوع عدد من الكوارث كان منها انخفاض منسوب مياه النيل ، ووقف توريد القمح من الوجه القبلى ، فارتفع بذلك سعر أردب القمح إلى مائة نصف فضة ، والفول إلى خمسة وتسعين نصف فضة [٢].

وفى عهد على بك الكبير وخاصة فى الفترة مابين ١١٨٤ - ١١٨٦ هـ / ١٧٧٠ - ١٧٧٢م . شهدت مصر مجاعة بسبب انخفاض منسوب النيل فى الوقت الذى ازدادت فيه نفقات الجيوش الغازية لبلاد الشام والحجاز ، ولكن حكومة على بك الكبير واجهت ذلك بإلقاء التبعة على المحتسب الذى كان يخرج على ظهر جواده وأمامه تابع يحمل الميزان العيارية ، مع عدد من رجال الشرطة يحملون العصى لمواجهة التجار الذى استغلوا الفرصة ورفعوا أسعار المواد التموينية ، فعملت حكومة على بك على توفيرها بأسعار معقولة ، ولم تتوان الحكومة فى اتخاذ إجراءات رادعة ضد المنحرفين ، كما أمرت حكام الأقاليم بتشجيع الفلاحين على زراعة أراضيهم بالغلال اللازمة للاستهلاك المحلى [٣] .

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ - ٣٥١ ؛ مصطفي بن الحاج إبراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(٢) نفسه .

(٣) محمد رفعت رمضان ، علي بك الكبير ، ص ٧٣ - ٧٤ .

الخاتمة

على الرغم من هذه الكوارث الطبيعية التى نتج عنها التدهور الاقتصادى والسياسى ، وشهدت مصر إبان ولاية حسنى باشا الذى حكم فيما بين ٢١ شعبان ٩٤١ و ٦ جمادى الآخرة ٩٤٣ هـ / ٢٥ فبراير ١٥٣٥ - ٢٠ نوفمبر عام ١٥٣٦م رخاء إقتصاديًا ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى سياسة الوالى الحاسمة فى القضاء على اللصوص ، والعمل على استتباب الأمن ، فاستقرت الأسعار نتيجة لهذه السياسة ، واتخذ هذا الحاكم بعض الإجراءات الخاصة برفع مستوى معيشة السكان كان منها :

تسعير رطل الحم الضانى بربع نصف فضة ، وتسعير جرة العسل الحر بنصفين (والجرة عشرة أرطال) ، وصار ثمن ربعة الأرز بنصفى فضة ، والشعير بخمسة أنصاف فضة ، ورطل البن أربعة أنصاف فضة وكان من نتيجة رخص سعره انتشار المقاهى ، أما أسعار العملة فكان الريال الحجر بثلاثين نصف فضة ، وأبو كلب بأربعة وعشرين نصف فضة ، وكان الشريفى الجديد بخمسة وستين نصف فضة والبندقى بخمسة وستين نصف فضة[١] .

وكانت نتيجة ارتفاع النيل إبان ولاية إسكندر باشا فيما بين ٩٦٣ و ٩٦٦ هـ / ١٥٥٦ - ١٥٥٩م انخفاض أسعار المواد الغذائية[٢] كما شهدت ولاية سنان باشا فيما بين ١٤ جماد آخر عام (٩٧٩ وجماد آخر ٩٨٠ هـ / ٣ نوفمبر ١٥٧١ - ١٥٧٢م) ارتفاعًا فى منسوب النيل ، فعم الرخاء البلاد[٣] كما عم هذا الرخاء أيضًا لنفس السبب إبان ولاية خليل باشا فيما بين ١٠٤١ - ١٠٤٢هـ / ١٦٣١ - ١٦٣٢م [٤].

وفى عهد ولاية أيوب باشا فيما بين ١٠٥٤ - ١٠٥٦هـ / ١٦٤٤ - ١٦٤٦م ألغى المظالم التى كانت سائدة ، وأدى ذلك إلى انتشار الرخاء فى البلاد ، وخفض الأسعار فوصل سعر أردب القمح إلى عشرين نصف فضة وسعر أردب الشعير إلى ثمانية أنصاف فضة [٥].

---

(١) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) نفسه ، ١١٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٥ أ .

(٣) أحمد شلبى عبد الغنى ، المرجع السابق ، ١١٢ ؛ يوسف الملوانى ، المرجع السابق ، لوحة ٨٥ أ .

(٤) نفسه ، ص ١٤٨ ؛ نفسه أيضًا ، لوحة ٩٧ أ .

(٥) نفسه ، ص ١٥١ ؛ نفسه ، لوحة ٩٩ أ.

وشهدت مصر الرخاء فى عام ١١٠٨ هـ / ١٦٩٧م ، بسبب فيضان النيل ، وقد عبر النساء عن فرحتهن بذلك " بالزغاريد " واستبشر الناس بذلك ، واحتفلوا بختان أبنائهم ، وأقيمت الأفراح ، وساهمت السلطات الحاكمة ، فى ذلك كما ساهم الجميع مثل القرداتية ، والحواة ، والخيالة والأدباء والبهلوانات والمطربين والموسيقيين .

ومن نتائج هذه الدراسة أنها ألقت الضوء على الأوبئة ، والأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها مصر العثمانية ، فقد كانت الأوبئة منتشرة فى تلك الفترة ممثلة فى الطاعون ، حتى أن هذا المرض الأسود كان أحيانًا يسمى باسم الوالى العثمانى مثل طاعون جعفر ، كما سمى باسماء مختلفة مثل الطاعون الحبشى والطاعون الأصفر ، وطاعون الحريق ، وطاعون النار ، والشتاء وشيخه . وقد أوضحت هذه الدراسة أيضًا تحديد فترات انتشار هذه الأوبئة وموقف السلطات الحاكمة الإيجابية والسلبية منها .

وأوضحت الدراسة أيضًا أن مصر أصيبت بكوارث أخرى طبيعية مثل احتراق سوق البارود ، والأمطار الغريبة التى تمثلت فى سقوط ثلوج كثيرة كبيرة مثل بيض النعام .

وأوضحت هذه الدراسة كذلك بعض سنوات الرخاء وأثر ذلك فى حياة الأهالى كما حدث فى عهد ولاية حسنى باشا فيما بين (٩٤١ و ٩٤٣ هـ / ١٥٣٥ - ١٥٣٦م) كما بينت أن الأزمات الاقتصادية قد تكون نتيجة لعوامل طبيعية مثل انخفاض النيل أو تلاعب أخذ الولاة العثمانيين بالعملة وخلطها بالنحاس أو ظهور عملة مزيفة أو نتيجة لثورات من جانب العساكر الأسباهية وقيامهم بالسلب والنهب ، أو فساد بعض القبائل العربية ، وقد ظهر ذلك فى قبائل غزالة والمغاربة والضعفا والنجما ، واستغلال بعض الولاة العثمانيين للموقف ببيع القمح للتجار الأوروبيين ، والصراعات بين البيوتات المملوكية وظلم بعض الولاة العثمانيين للأهالى ولم يغفل البحث دور اليهود فى حدوث الأزمات الاقتصادية ، فقد ساهم بعض اليهود ممن عملوا بالأعمال المصرفية فى إحداث الأزمات الاقتصادية ، وقد تنبهت السلطات الحاكمة لذلك ، وأمرت بإبعادهم ، وعينت بدلاً منهم صيارفة مسلمين .

وأوضحت هذه الدراسة كذلك دور الاختلاسات وفرض الضرائب فى إحداث أزمات اقتصادية ، وأبرزت كذلك أثر سنوات الرخاء فى حياة الأهالى وفرحتهم بختان أبنائهم .

وأوضحت هذه الدراسة دور تغيير العملة من حين لآخر فى إحداث تلك الأزمات الاقتصادية، فارتفاعها وانخفاظها وإظهار عملات جديدة كل ذلك أدى بلا شك إلى حدوث تلك الأزمات الاقتصادية التى أثرت فى حياة السكان .

وبينت الدراسة أيضًا أن عدم توريد الغلال من الوجه القبلى قد ساهم إلى حد كبير فى حدوث الأزمات الاقتصادية ، إلى جانب عدم استيراد بعض السلع من الخارج مثل البن من اليمن ، والأقمشة من الهند كل هذه الأمور ساهم بلاشك فى حدوث الأزمات الاقتصادية الطاحنة . كما ذكرت الدراسة موقف علماء الأزهر من هذه الأزمات والتجاء الأهالى إليهم عندما كان الظلم يحيق بهم ، وأظهرت موقف العلماء من هذه الأزمات المختلفة وتضامنهم مع الأهالى زد على ذلك أن الدراسة أوضحت تعرض مصر لعدم استتباب الأمن ، وأوضحت قيام اللصوص بنشاطهم متجاهلين أوامر السلطات الحاكمة ، وكان من نتيجة هذه الأزمات إفلاس بعض التجار .

وأوضحت هذه الدراسة الأوزان التى كانت موجودة فى تلك الفترة مثل القنطار والرطل والمكاييل ، والأردب ، كما أشارت إلى العملات مثل الريال أبو كلب ، والريال الحجر ، والزنجليرى ، والفندقلى ، والنصف فضة والأخشا والزلاطة ، والجديد والبندقى والقرش والمقصوص . كما تعرضت الدراسة أيضًا لبعض الوظائف التى كانت موجودة مثل الكتخدا ، والأغاوات ، والضاجق وأمين دار سك العملة ، ومباشر الغلال ، والدفتردار ، والمحتسب ، والقائم مقام ، وغير ذلك من الوظائف .

ولعلى بذلك أكون قد أبرزت صورة لفترة مهمة من فترات التاريخ المصرى ، ولعلى أيضًا أكون قد أضفت الجديد إلى رصيد تاريخ مصر الحديث فى فترة الحكم العثمانى التى تحتاج منا إلى البحث والاستقصاء لإظهار الحقائق التاريخية المجهولة لتقديمها للباحثين والدارسين .

الفصل الثامن

الحملة الفرنسية على مصر ونتائجها

(١٢١٣- ١٢١٦ هـ/ ١٧٩٨- ١٨٠١م)

١ - العالم القديم :

شهد الشطر الثانى للقرن الثامن عشر تحولاً ملحوظًا للجغرافيا السياسية العالمية التى كانت شبه مستقرة منذ الكشوف الكبرى ، فدفعه واحدة ، توصد أمريكا أبوابها فى وجه التوسع الأوروبى : فحرب السنوات السبع تؤدى إلى طرد الفرنسيين من أمريكا الشمالية (١٧٦٣م) . وحرب استقلال الولايات المتحدة تختزل حصة إنجلترا التى تضطر إلى التسليم باستقلال ذاتى متزايد الأهمية لممتلكاتها الأخيرة . وجزر الأنتيل يبدو أنها تضطر - فى مستقبل قريب - إلى الاعتماد على الولايات المتحدة . وكل الاعتبارات تسمح بتصور أن أمريكا اللاتينية - التى تملكها القوتان الأبيرتان (أسبانيا والبرتغال) . سوف تتبع تطوراً مماثلاً لتطور أمريكا الشمالية . وينتهى الفصل الأوروبى فى تاريخ القارتين الأمريكيتين وبانتهائه تنتهى أول إمبراطورية استعمارية أقامتها القوى البحرية الأوروبية الغربية . ومع إدراك تحرر القارتين الأمريكيتين ، يحل مصطلح " الغرب " محل مصطلح " أوروبا " للإشارة إلى المجال الجغرافى للثقافة الأوروبية [١].

لم يكن العالم القديم قد تعرَّض بالكاد لتغيير يذكر منذ القرن السادس عشر ، ففى أثر التوسع الأوروبى فى هذه الأرجاء يشهد القرن التالى انكفاءً ، فالصين واليابان ، توصدان أبوابهما ، والإمبراطورية العثمانية وفارس لاتسمحان إلا بعلاقات تجارية ودبلوماسية . والانغراس الإقليمى الأوروبى الحقيقى لا يوجد إلا فى أرخبيلات المحيطين الهندى والهادىء وفى بعض أقاليم أفريقيا[٢] .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية فى مصر ، بونابرت والإسلام ، ترجمة بشير السباعى ، القاهرة ١٩٩٥ ، الطبعة الأولى ، ص ١١ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية فى مصر ، بونابرت والإسلام ، ص ١١ .

إلا أن هناك استثناءً ملحوظًا : الهند إن انهيار القوة المغولية يسمح ببروز توازن محلى بين القوى التى تستخدم فى نهاية الأمر مرتزقة أوروبيين لتدريب جيوشها ، ومنذ ذلك الحين ، فى القرن الثامن عشر ، يقف الفرنسيون والإنجليز وجهًا لوجه بالفعل فى " لعبة كبرى " قاصرة على شبه القارة الهندية هدفها السيطرة على تجارتها . وقد كسبتها انجلترا خلال حرب السنوات السبع ، فأصبحت بذلك قوة إقليمية ، تشارك بلا مواربة فى لعبة التوازن المحلى المعقدة ، حيث يؤدى نظام سياسى جديد مزدوج إلى الحفاظ فى آسيا على توازن أوروبى هش، ففرنسا يمكنها العودة بشكل هجومى إلى هذه الأقاليم بحشدها حولها جميع القوى المحلية لمناوئة لانجلترا ؛ وروسيا كاترين الثانية تبدأ فى التفكير فى تغلغل صوب المحيط الهندى ، مروراً بأفغانستان ، الطريق التقليدى للغزوات البرية التى تستهدف شبه القارة الهندية[١] .

إن الهند غواية وانجلترا نموذج . أما فارس فهى غير متاحة إلا لروسيا . ومنذ عصر بطرس الأكبر ، كانت روسيا قد بدأت تعدياتها ، مستفيدة من انهيار الإمبراطورية الصفوية لكن البلد ليس ضعيفًا بالدرجة التى يبدو عليها ، والمغامرة قريبة العهد التى قام بها نادر شاه ، الذى سارت جيوشه فى بغداد إلى دلهى فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن ، ماتزال حية فى الأذهان للتذكير بذلك . ومع صعود سلالة القاجاريين الحاكمة ، بيد أن البلد يستقر بعد أكثر من نصف قرن من الاضطرابات التى أثارت مشاعر أوروبا[٢] .

٢ - الإمبراطورية العثمانية :

والإمبراطورية العثمانية أقرب إلى أوروبا ، وهى تجمع تحت سلطتها كل غرب الإسلام ، باستثناء المغرب الأقصى وتوسع نفوذها فى القرن السابع عشر أيضًا ، على حساب أوروبا . وهذه الدولة العظمى تُعد - منذ القرن السادس عشر - مندمجة فى النظام السياسى الأوروبى. وتوجد فى عاصمتها بشكل دائم سفارات أوروبية . ومن حين لآخر ، توفد الحكومة العثمانية رسلاً مفوضين إلى كبرى بلدان أوروبا . ويوجد تحالف تقليدى مع فرنسا .

لكن هذه الإمبراطورية تبدى علامات اضمحلال ، والظاهرة معقدة ، فعملية انهيار المركزية السياسية ، والتى بدأت منذ أواخر القرن السادس عشر ، تشهد عندئذ أوجها . وتحت قيادة

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

سلطوية من جانب الباشوات الولاة على الولايات ، تتشكل أشباه دول فى الأقاليم الرئيسية للإمبراطورية والسلطة المركزية - الباب العالى - تجد صعوبة كبيرة فى كسب الانصياع لها ، لكن الجميع يظلون داخل النظام العثمانى . وإذا كان بوسع حروب أن تدور بين الولاة ، فإنه لا توجد فى الواقع حدود غير الحدود الإدارية ، وجميع هؤلاء الموظفين الإمبراطوريين الكبار شركاء فى اللعبة السياسية . والباب العالى العاجز عن اختزال درجات هذا الاستقلال ، بالشكل الذى يتمناه ، إنما يلعب على هذه التنافسات ويدير بمفرده مايمكن تسميته بالتوازن العثمانى .

ويتمشى مع هذا الانهيار للمركزية ضعف للانضباط الداخلى . ومن جراء التعرض لضغوط قوية ، تجعل من الوحدات العسكرية تعبيراً عن المجتمع المدنى الإسلامى ، لا تتمتع السلطة المركزية بعد بأداة عسكرية متماسكة ومنضبطة بدرجة تماسك وانضباط الإدارة العسكرية التى عرفها زمن العصور العثمانية الأولى . وبينما يبلغ التحكم فى سلوك الرجال فى أوروبا ، ذروته فى الانضباط البروسى ، فإن الجيش العثمانى يبدو مفككًا بشكل مطرد[١] .

والشىء الأهم هو أن الإمبراطورية العثمانية لاتعرف - فى القرن الثامن عشر - نمواً سكانيًا مساويًا لنمو سكان أوروبا ، التى تتحرر من الأسباب الرئيسية للارتفاع الكبير لنسبة الوفيات . فتدشن بذلك ثورتها الديموغرافية . ففى المجال العثمانى الشاسع ، تتكرر أوبئة الطاعون بصورة منتظمة ويصبح الداء متوطنًا هناك . وثقل البداوة وانعدام الأمن - اللذين يؤكد البدو والتركمانيون هيمنتها - يحدان من المجال الزراعى . وتزايد الضرائب ونظام جبارية غير ملائم - بالرغم من التدابير التى اتخذتها السلطة المركزية لإصلاحه - لايحفزان الفلاحين على زيادة انتاجهم ، على الرغم من ظهور تنويع المحاصيل . بسبب طلبات السوق الأوروبية المتزايدة . وعلى المستوى الديمغرافى ، تظل الإمبراطورية العثمانية فى مرحلة تاريخ راكد ، مرحلة تباين لعدد السكان بين قواعد متغيرة وسقف لن يتسنى تجاوزه إلا فى القرن التاسع عشر مع إعادة فرض سلطة مركزية قوية . وعلى مدار زمن جد طويل (من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر) يمكن رصد ارتفاع لعدد السكان فى الولايات الآسيوية على الأقل ، لكن هذا الارتفاع لايتناسب البتة مع الأرقام الأوروبية[٢] .

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٣ .

(٢) نفسه ، ص ١٣ ، ١٤ .

وهكذا فإن وزن الإمبراطورية من الناحية الديموغرافية يصبح أقل فأقل قياساً إلى جارتيها الطموحتين اللتين تحت قيادة مستبدين مستنيرين - تعززان قوة الدولة مع تعبيرها العسكرى وتشرفان بذلك - عبر الانضباط على النمو الملحوظ لعدد السكان . وفى الشطر الثانى للقرن، يختل التوازن بين الإمبراطورية العثمانية من جهة ، والنمسا وروسيا ، من جهة أخرى ، اختلالاً حاسمًا ، وتوضح ذلك حربان : حرب / ١٧٦٨ - ١٧٧٤ م ، حيث تهب الإمبراطورية العثمانية استجابة لنداء من فرنسا إلى مساعدة بولندا ضد روسيا كاترين الثانية ، وتُمنى الإمبراطورية بهزائم مريرة بحيث أن مستقبلها يصبح محل شك وحرب / ١٧٨٧ - ١٧٩٢م ، حيث تنضم النمسا إلى روسيا ، متصورة أن بوسعها المشاركة بذلك فى اقتسام للبلقان مطابق لاقتسام بولندا ، أما فرنسا الغارقة فى قلاقل ماقبل الثورة ، ثم فى الثورة نفسها ، فهى لاتهتم باللعبة ، ويضطر العثمانيون المحاصرون إلى مناشدة بروسيا والجلترا ، القادمتين الجديديتين إلى الساحة ، ويؤدى التوتر المتزايد الذى أفرزته الثورة والتقسيم الثانى لبولندا إلى انقاذ الإمبراطورية العثمانية - مؤقتًا فى نظر المعاصرين - من الفناء الذى توقعه المراقبون الأذكياء [١].

٣ - بونابرت والشرق :

إن الانتصارات الخرافية لحملة إيطاليا تبرز بونابرت فى صدارة المسرح ، وجيشه يعبده والفرنسيون - المعادون فى غالبيتهم للحكومة الجمهورية - يرون فيه منقذا محتملاً ، ذلك الذى سوف يضع نهاية للثورة مع حفاظه على مكاسبها . وهوش منافسه الرئيسى الذى قام مثله وربما أكثر منه ، بدعم حكومة الإدارة ضد أغلبية المجالس ، يحدث فى ١٩ سبتمبر ١٧٩٧م . لكن فاتح إيطاليا يدرك أن من شأن فترة عدم نشاط عسكرى ، أو إخفاق فى محاولة انزال فى انجلترا ، التهديد بتعريض وضع لم يتعزز بعد للخطر . ثم إن الشرق يجذبه بشكل عفوى[٢] .

إن مصدر قوة بونابرت إنما يكمن فى هيمنته الأبدية على الوسائل وقدرته ، فى ذلك العصر على الأقل على حسابها بدقة فى الوقت الذى تعتبر فيه الغايات زائدة عن الحد . وعلى الرغم

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٤ .

(٢) نفسه ، ص ٢٢ .

من أنه كثير الكلام ، فإنه رجل وحيد . وما أندر الأفراد الكبار الذين كان يمكنهم الإفصاح لهم بما يعتمل فى صدره . وفى خلال صيف ١٧٩٧م ، يكتشف تاليران العائد من منفاه فى الولايات المتحدة ليصبح - بفضل حسه التآمرى - وزيراً للعلاقات الخارجية . أنهما يتبادلان رسائل مهمة يكتشف بونابرت فيها أن الوزير يفكر مثله فى مصر . وهو يكشف له آنذاك عن التوتر القائم فى فكرة بين الخطاب السياسى المهندس الذى يوحى به الأيديولوجيون . والاثنان تلميذان لهما - والبعد شبه الكونى والواقعية الناجمة عن الحساب الدائم للوسائل(١) .

وهو يشير إلى أنه لايؤمن ، من زاوية الفعالية على الأقل ، ببياناته الخاصة بأحياء الإيطاليين . وإن الشىء الجوهرى يكمن فى حسابات الوسائل ... إلخ .

وتكمن المفارقة فى اجتماع وهج الخيال وبرودة الوسائل : " إننا إذا ما اتخذنا كأساس لجميع العمليات السياسية الحقيقية ، وهى ليست غير نتيجة الحساب والتوليفات والفرص فسوف تكون لزمن طويل الأمة العظمى وحكم أوروبا ؛ وأنا أقول على ذلك أننا يجب أن نحافظ على التوازن ، وإننا سوف نجعله يميل كما تشتهى ، بل إننى - وهذا هو حكم القدر - لا أرى استحالة فى أن يصل المرء فى غضون سنوات قليلة إلى هذه النتائج العظيمة التى يحلم بها الخيال الجامح والمتقد ، وأن الإنسان البارد فى تقديره للأمور والدءوب والحكيم إلى أقصى حد هو وحده القادر على بلوغها "(٢) .

هذا التوسع الثورى الجديد يزعج كثيرين خاصة العثمانيين والروس . فالبنسبة للأوائل تأسس التحالف مع فرنسا على البعد الجغرافى ، فملكية النظام القديم لم يك بوسعها أن تستهدف الأرض العثمانية . لكن استقرار الفرنسيين فى الجزر الأيونية واتصالاتهم مع اليونانيين المستعدين دائمًا للتمرد ، بينما يميل كبار الباشوات إلى زيادة درجة استقلالهم بلاتوقف ، ليس من شأنه إلا أن يزيد انزعاجات الباب العالى ، أما فيما يتعلق بالروس ، فإن هذه الدعاية نفسها الموجهة إلى اليونانيين ، إنما تهدد بخلق منافسة رهيبة لهم بين صفوف هؤلاء العملاء جد المفيدين لهم من عام ١٧٧٠م . ثم إن سان بطرسبورج ، وهو ما يشمل مفارقة مميزة لكل وضع ديبلوماسى معقد ، تخشى من أن يؤدى التدخل الفرنسى إلى تقديم

---

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٧ .

عون لإمبراطورية عثمانية بسبيلها إلى الاستسلام فى أوروبا تحت ضربات الهجمات الروسية . إن عملاً فرنسيًا فى البلقان انطلاقًا من البحر الأدرياتى إنما يشكل خطراً أكيداً بالنسبة لتحقيق المشاريع الروسية الخاصة بالسيطرة على تلك المنطقة ، والوجود الفرنسى فى البحر الأدرياتى يعدل التوازن السياسى فى البحر المتوسط ومن ثم فى أوروبا[١].

إن المشجع الآخر على سياسة فرنسا هذه فى البحر المتوسط هو تاليران ، فهو وريث دعاة التدخل فى زمن الملكية الآخذة بالزوال . وقد عرف شواسول وتعرف على المسائل الشرقية من الدبلوماسيين الذين تولوا مناصب فى الشرق . وتردد ، فى الولايات المتحدة على ڤولنى الذى كان عليه أن يكون أول من يطلعه علي شخصية بونابرت وعلى مصر نفسها [٢].

وعلى المستوى السياسى ، لم يعد التحالف مع الإمبراطورية العثمانية ثمر شيئًا وقد أدت الحرب البحرية إلى تدمير تجارة الثغور . والانحطاط العثمانى لا علاج له . وقد استنفدت فرنسا بلا طائل فى دعم إصلاحات مستحيلة . واحتلال مصر يفرض نفسه بوصفه الوسيلة الوحيدة لمهاجمة انجلترا فى الهند[٣] .

والهند فى أواخر القرن الثامن عشر هذه ، هى العماد الرئيسى للقوة الإنجليزية ، أنها لم تصبح بعد سوقًا كبيرة مصيرها استقبال المنتجات المصنعة التى زادتها الثورة الصناعية الإنجليزية . وهدف جهود الأوروبيين هو السيطرة على الصادرات الهندية وفى ذلك العصر ، بفضل عمل جماهير غفيرة من الحرفيين ، تعتبر صناعة القطن أول صناعة فى العالم ، أكان ذلك من حيث نوعية أم من حيث كمية منتجاتها ، وحجم صادراتها . ثم إن الهند ، عبر شبكاتها التجارية ، تفتح أمام الأوروبيين مجمل الأسواق الآسيوية . وفى أواخر القرن الثامن عشر ، تسيطر انجلترا بفضل عملها الدءوب علي نسبة ٨٥ إلى ٩٠ فى المائة من تجارة الهند الخارجية .

والحال أنه إذا كان هناك من درس هذا الاقتصاد ، فإن تاليران أساسًا . وخلال إقامته فى الولايات المتحدة فكر فى عدة مشاريع للمضاربات التجارية [٤].

---

(١) هنرى لويس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ .

(٣) نفسه ، ص ٢٨ .

(٤) نفسه ، ص ٢٨ .

ومن المؤكد أن التجارة الإنجليزية مع القارتين الأمريكيتين تظل الأهم . والشيء الرئيسى هو أن الفرنسيين يجهلون الدور الذى تلعبه بداية الثورة الصناعية فى اقتصاد الجزر البريطانية ، وذلك بالرغم من احتجاجات على الدخول جد السهل للمنتجات البريطانية إلى فرنسا فى السنوات الأخيرة للنظام القديم . وبالنسبة لأهل القارة ، فإن سر القوة الإنجليزية لايمكن إلا أن يكون كامنًا فى تجارة انجلترا ، وهى ظاهرة جد مصطنعة قياسًا إلى الرسوخ الطبيعى ، الزراعى للسكان الفرنسيين ، وهذا البنيان التجارى الهش سوف ينهار بسرعة إذا ما جرد من عنصره الحيوى ، التجارة الهندية . والمسؤولون الإنجليز يتقاسمون هذا التفسير نفسه للمجريات الواقعية . فبالنسبة لهم هم أيضًا ، لا تُعد انجلترا دولة أوروبية عظمى إلا بفضل تجارتها مع الهند . وقبل أسبوع على تعينه وزيراً يوجه تاليران إلى حكومة الإدارة فى ٢٣ يوليو ١٧٩٧م ، ثلاث مذكرات تدعو فى النهاية إلى الاضطلاع بعمل مشترك مع الأمراء الهنود ضد السيطرة الإنجليزية انطلاقًا من الجزر الفرنسية فى المحيط الهندى[١] .

وثم يجرى تدشين المشروع الهندى عندما يبلغ بونابرت حكومة الإدارة فى ١٦ أغسطس ١٧٩٧م ، بفتح الجزر الأيونية وتختم رسالته قائلاً : " لن يمر وقت طويل حت ندرك أننا لكى ندمر انجلترا فعلاً ، يجب أن نستولى على مصر . إن الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف والتى تهلك كل يوم إنما تملى علينا التفكير فى اللحظة المناسبة لاتخاذ الوسائل التى تسمح لنا بالحفاظ على تجارتنا فى شرق البحر المتوسط " .

وفى اليوم نفسه ، يكتب إلى تاليران : " إن معًا لا طائل من ورائه أن نسعى إلى دعم إمبراطورية تركيا" ، إننا سوف نشهد سقوطها فى أيامنا (...) وكورفو وزانت تجعلانا سادة للبحر الأدرياتى ولشرق البحر المتوسط .

ويحمل رد تاليران تاريخ ٢٣ أغسطس : " لاشيء أكثر أهمية من اعتمادنا على ألبانيا واليونان ومقدونيا والولايات الأخرى للإمبراطورية التركية فى أوروبا ، بل وجميع الولايات المطلة على البحر المتوسط ، كمصر خاصة ، التى يمكنها أن تصبح عظيمة النفع لنا[٢] .

وهكذا فمنذ صيف ١٧٩٧م ، تلتقى أفكار تاليران وبونابرت ، رغم اختلاف الدوافع ، حول حملة مصر ، وهما بحاجة إلى مؤازارات واحدة . ففى ٣ يوليو ١٧٩٧م ، ذكر تاليران الجمهور

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ - ٢٩ .

في مذكراته الموجهة إلى المعهد الوطني ، حول الفوائد المترتبة عى إيجاد مستعمرات جديدة في الظروف الحاضرة ، بمشروع شواسول . والحال إن المعهد الوطنى ، حديث التأسيس ، إنما ينبثق من وسط الأيديولوجيين جد المؤثرين فى السياسة الجمهورية .

وبونابرت يدرك ذلك ، فهو عند عودته من إيطاليا ، يصبح منتخبًا هو أيضًا فى المعهد ويبرز فى بياناته إلى الجنود انتماءه إلى تلك المؤسسة . وهكذا يظهر بونابرت وتاليران ، فى تلك اللحظة من تاريخهما ، كممثلين للأيديولوجيين فى الأوساط الحاكم[1] .

والواقع أن العودة إلى استقلال أوروبى نسبى ، منذ معاهدات بال فى عام ١٧٩٥م ، إنما تسمح بعودة ظهور مذكرات ، موجهة إلى المسئولين السياسيين الفرنسيين ، ترى إيجاد مستعمرة فرنسية فى مصر ، وما ذلك غير إمارة على أن تراخى الحرب الثورية يعيد المسئولين السياسين تدريجيًا إلى مشكلات ماقبل عام ١٧٩٢م .

وصلح كامبو - فورميو (١٨ أكتوبر ١٧٩٧م) مع النمسا لايترك بعد غير خصم عنيد واحد ، هو انجلترا . وبما أنها لاتملك بعد قاعدة للعمل على القارة فإن الصراع لايمكن مواصلة إلا عبر " نزول " على الجزر البريطانية أو عبر عمل يتم الاضطلاع به ضد الهند . هذا هو الخيار الذى تفرضه قوة الأشياء على زعماء " الأمة العظمى " .

وفى ٢٦ أكتوبر ١٧٩٧م ، يحمل بيرنبيه ومونج ، رفيقا بونابرت الوفيان ، نص معاهدة كامبو - فورميو إلى باريس . ويتمثل القرار ، المتخذ فى اليوم نفسه من جانب (حكومة) الإدارة ، فى الأمر بتكوين جيش لحملة انجلترا تحت قيادة بونابرت . ويتولى قيادته بينما يشارك بونابرت فى مفاوضات راستان حول تطبيق بنود معاهدة كامبو - فورميو على ألمانيا[2].

ومنذ نهاية أكتوبر ١٧٩٧م بدأ الجهاز الإدارى لحكومة الإدارة فى تنظيم جيش انجلترا . إن النزول ممكن ، إذا ما توفرت ، فى لحظة محددة فى نقطة محددة ، هيمنة على البحر تكفى لنقل الجيش الفرنسى . ولكى يتسنى ذلك ، لابد من توافر المبادرة فى العمليات ولابد من توافر عدة نقاط ممكنة لحشد القوات سعيًا إلى إرباك انجلترا فيما يتصل بنوايا القيادة

---

(١) هنرى لورانس ، المرجع السابق ، ص ٢٨ - ٢٩ .
(٢) نفسه ، ص ٣٠ .

الفرنسية . وسوف يجىء الجانب الرئيسى من " الجيش الكبير " فى إيطاليا بينما يصدر بونابرت الموجود بعد فى موقعة ، الأوامر الضرورية .

وهو يصل إلى باريس فى ديسمبر ١٧٩٧م ، ويقابل لأول مرة تاليران . ويحمل فاتح إيطاليا معه التصديق الذى قدمه الإمبراطور على معاهدة كامبو - فورميو . ويقدمه إلى حكومة الإدارة فى اجتماع مهيب فى ١٠ ديسمبر ١٧٩٧م . ويتميز خطابه بالتصور السياسى شبه الخلاصى الذى تبناه الأيديولوجيين : " إن أجمل جزأين فى أوروبا ، جد الشهيرين فى سالف الزمان بالفنون وبالعلوم وبالعظماء واللذين كانا مهداً لهم ، يتطلعان بأعظم الآمال إلى انبثاق روح الحرية من أرماس أسلافهما " .

والحال أن روح الحرية ، الفكرة المألوفة للبلاغة الثورية ، قد أبرزها ڤولنى فى " الأطلال " فى عام ١٧٩١م . وفى هذا النص ، فإنه يجعل الروح تنبأ بانهيار الإمبراطورية العثمانية ، وببعث الأمم المكونة لها وبالدور القائد لـ " الأمة العظمى " فى هذا المشروع . وفى ذلك العصر ، بعد الأيديولوجى ڤولنى الولى الفكرى والسياسى لبونابرت الشاب[١] .

والصورة واضحة ، فالمسألة هى مسألة بعث قومى ، كما أن بونابرت ينبه حكومة الإدارة : " عندما ترتكز - مادة الشعب الفرنسى على أفضل القوانين الأساسية . سوف تصبح أوروبا كلها حرة " .

والحال أن دستور العام الثالث بعد انقلاب ١٨ فركتيدور ، هو دستور بالغ الهشاشة بالرغم من استئناف الزخم الثورى لـ " الأمة العظمى " . وفى مراسلاته مع تاليران ، كان بونابرت قد فكر بالفعل فى مشروع إصلاح دستورى ينطوى على تعزيز ملحوظ للسلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية [٢].

حدثت بعض التطورات ، فقد كان هناك مشروع لحكومة الإدارة لاحتلال الجزر البريطانية ، وحددت حكومة الإدارة المشاركة فى جيش حملة انجلترا ، ويتجه بونابرت إلى فحص الإمكانات التى تتيحها الموانىء المواجهة للأراضى المنخفضة . ويوجه بونابرت إلى حكومة الإدارة تقريراً لايخفى مصاعب المشروع ، ويقدم مشروعًا ثانيًا فهو القيام بحملة فى شرق البحر المتوسط من شأنها تهديد تجارة الهند[٣] والاستيلاء على مصر . وتجد حكومة الإدارة

(١) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٣٠ .
(٢) نفسه ، ص ٣١ .
(٣) نفسه ، ص ٣٤ .

نفسها مضطرة إلى التخلى عن مشروع النزول فى انجلترا والذى اعتبره العسكريون غير عملى. ومن شأن التدخل فى ألمانيا أن يعقد وضعًا شائكًا بالفعل وأن يهدد باشعال الحرب القارية . ومشروع فتح مصر مشروع بالغ الجاذبية . وبوسعه أن يجبر انجلترا على عقد صلح يعترف بهيمنة الأمة العظمى على القارة الأوروبية . وبدأ الاستعداد بالجيش والأسطول ، وصدرت التعليمات إلى نابليون بقيادة الحملة . ولقد اتهمت حكومة الإدارة في قرارها الذى أصدرته بكوات المماليك بالتحالف مع البريطانيين وأنهم نتيجة لذلك قد ضيقوا الخناق على المصالح الفرنسية وعاملوا الرعايا الفرنسيين معاملة سيئة فى مصر . ولقد تعرَّض البيان إلى الاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح وعرقلة وصول الفرنسيين إلى الهند وطلب من نابليون ضرورة فتح طريق آخر إلى الهند . وتتلخص المهام التى كلف بها القائد العام لجيش الشرق فيما يلى : أن يستولى على مالطة ويطرد الإنجليز من مؤسساتهم فى الشرق ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأن يشق برزخ السويس ، وأن يحسن الأحوال المعيشية للوطنيين فى مصر ، وأن يحتفظ بالعلاقات الطيبة مع الباب العالى [١].

وفى مايو ١٧٩٨ غادر جيش الشرق ميناء طولون . وهكذا كان قرار حكومة الإدارة بإرسال حملة عسكرية لاحتلال مصر مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالحرب مع انجلترا ، وساد الاعتقاد بأن الحملة لن تلقى فى مصر أى مقاومة عسكرية خطيرة . كما أن العثمانية لن تعارض هذا الأمر فكانت تأمل أن يرضى السلطان عنها لمحاربها المماليك والقضاء عليهم[٢] . وكانت وجهة الحملة هى جزيرة مالطة ، وهكذا أصبح احتلال مصر أمراً مقرراً وبدأ تسلسل الأحداث .

وصلت الحملة الفرنسية إلى جزيرة مالطة فى يونيو ١٧٩٨م ، وكانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، واستولى عليها بونابرت بسهولة نسبية ، وترك بها ثلاثة آلاف جندى ، وجند بدلهم ما يقرب من الألفين من أبناء الجزيرة أخذهم معه عند سفره منها ؛ كما أخذ معه منها الأسرى من الترك والعرب والمغاربة ، الذين كانوا يعملون فى التجديف ويجبرون على القيام بالأعمال الشاقة لاستغلالهم فى مصر [٣].

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ١٧٩٨ - ١٩١٤م ، الاسكندرية ١٩٧٢ ، ص٣٣ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٧٩٨ ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٣٤٣ .

وكان الأسطول البريطانى يراقب البحر المتوسط ، حتى يعرف وجهة الأسطول الفرنسى ، ويشتبك معه ويحطمه . وحضر أسطول الإميرال نلسون إلى الاسكندرية فى يوم ٢٨ يونيو ، ولم يكن الأسطول الفرنسى قد وصل إلي هذه المدينة بعد ، نتيجة لقيامه بالاستيلاء عى مالطة. ووقف الأسطول البريطانى فى عرض البحر ، وإن كانت وحداته فى مدى رؤية أهل الثغر . ثم أرسلوا " فايق " صغير يحمل عشرة أفراد ، للتفاهم مع سلطات الميناء ، وقابلوا السيد محمد كريم أمين الجمرك ، وأفهموه أنهم حضروا للتفتيش عن الفرنسيين الذين خرجوا بعمارة كبيرة ، لايعرفون وجهتها ، وقد يقوموا بمهاجمة الاسكندرية ، ولاتتمكن سلطات المدينة من دفعهم ، ولا من منعهم من الاستيلاء على الاسكندرية . ولكن السيد محمد كريم لم يأمن لهذا القول ، واعتقد فى أنها ربما تكون خدعة من جانب الإنجليز ، لاحتلال المدينة بدعوة مساعدة المصريين على صد الفرنسيين القادمين ؛ وجاوبهم المصريون " بكلام خشن " . وعرض الإنجليز أن تقف سفنهم فى عرض البحر ، لملاقاة القادمين ؛ وقالوا أنهم لايحتاجون إلا للتموين بالماء والزاد وبثمنه ، ولكن سلطات المدينة رفضت هذا العرض ، وذكرت أن هذه البلاد كانت بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل فاذهبوا عنا " فاضطر الإنجليز إلى الانسحاب ، واستمروا فى عملية تفتيشهم عن الأسطول الفرنسى فى البحر المتوسط[1].

وفى ٢٨ يونيو أذيع على الحند المنشور الموجه إلى الجيش والذى حرر بونابرت قبل ذلك بستة أيام ، وهذا نصه :

أيها الجنود

إنكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فى حضارة العالم وتاريخه . وستطعنون انجلترا طعنة تؤذيها لا محالة فى أضعف مواطنها ، انتظاراً لليوم الذى تسددون فيه إليها الطعنة القاتلة .

سيقتضينا الأمر بعض الزحف المضنى ، وسنخوض بعض المعارك ، وسننتصر فى جميع مغامراتنا ؛ لأن الحظ معنا .

ولن تنقضى على نزولنا البر أيام حتى نقضى على بكوات المماليك الذين لايرعون غير التجارة الإنجليزية ، والذين يظلمون تجارنا بمعاكساتهم ، والذين يستبدون بأهل وادى النيل الاشقياء .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٣٤٤ .

إن القوم الذين سنعيش معهم مسلمون . وعقيدتهم الأساسية هى : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

فلا تعارضوهم . واسلكوا معهم كما سلكتم فى الماضى مع اليهود والإيطاليين . واحترموا شيوخهم وأئمتهم ، كما احترموا شيوخ اليهود وأساقفة المسيحيين .

وأظهروا من التسامح نحو الشعائر التى يقضى بها القرآن ونحو المساجد مثلما أظهرتم نحو الأديرة ومجامع اليهود ، ونحو ديانة موسى وديانة المسيح .

لقد جرت الفرق الحربية الرومانية على أن تحمى جميع الأديان . وستجدون هنا عادات تختلف تمام الاختلاف عن العادات الأوروبية ؛ فلابد أن تروضوا أنفسكم عليها .

إن أهل البلاد التى سندخلها يعاملون نساءهم معاملة مختلفة : ولكن الرجل الذى يهتك عرض امرأة يعتبر فى جميع البلاد وحشًا .

أما السلب والنهب فلا يثرى منه إلا الأقلون . وهو يجللنا بالعار ، ويقضى على مواردنا ، ويثير علينا عداء الشعب الذى ننشد صداقته .

إن أول مدينة سنشهدها بناها الاسكندر . وسنجد فى كل خطوة آثار أعمال جديرة بأن ينسج الفرنسيون على منوالها "[١].

وفى ٢٩ يونيو وصلت إحدى القطع الحربية الفرنسية إلى الاسكندرية لإحضار قريب مجالون قنصل فرنسا فى الاسكندرية لمقابلة نابليون ، ولقد أخبره مجالون بمجىء الأسطول الإنجليزى إلى شواطىء الاسكندرية بحثًا عن الفرنسيين . ولقد غيرت هذه الأنباء خطة نابليون وقام بإنزال جنوده تجاه ساحل العجمى ظهر أول يوليو ١٧٩٨م . وبدأت فرق كليبر ومينو وبون بالزحف على الاسكندرية فى الفجر ، وفى الصباح وصلت الطوابير الفرنسية إلى حصون الاسكندرية الخارجية وبعد نزول الحملة بادر السيد محمد كريم إلى إخبار مراد بك بقدوم الأسطول الفرنسى ، وأرسل إليه فى تلك الليلة ثلاثة عشر رسولاً يطلب النجدة . وبذل أهل الاسكندرية كل مافى مقدورهم دفاعًا عن المدينة ، ولكن المقاومة لم تدم طويلاً فاقتحم الفرنسيون الأسوار ودخلوا المدينة ، ولقد قاومت قلعة الفنار - التى كان يتولى قيادتها السيد

---

(١) ج . كرستوفر هيرولد ، بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، مراجعة محمد أحمد أنيس ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٨٠ - ٨١ .

محمد كريم إلى ساعة متأخرة من الليل كما نشب القتال فى شوارع المدينة ويؤخذ من تقرير نابليون إلى حكومة لإدارة أن " كل بيت كان قلعة " . وفى رواية لأحد جنود الحملة أن الرصاص انهال عليهم من داخل المساجد ، ولكنهم لم يراعوا حرمة هذه الأماكن فاقتحموها ولم يبقوا فيها على أحد . ولكن سلمت المدينة فى النهاية وسلم حاكم المدينة القلعة ، وكف عن القتال وأبقاه نابليون حاكمًا للاسكندرية ، وليس أدل على شجاعة السكندريين ما كتبه الجنرال مينو إلى نابليون يقول : إن الجنود يستحقون الثناء العظيم على مابذلوه من الإقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التى كانت تحيط بهم لأن الأعداء " الأهالى قد دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم ".

أما احتلال القاهرة ، فقد ترك بونابرت كليبر حاكمًا على الاسكندرية ، كما قرر أن يعهد إلى الجنرال منو بالحكم فى رشيد عند الاستيلاء عليها ، وانتقلت قيادة جيشه إلى الجنرال فيال Vial . وفى مساء ٣ يوليو بدأ الزحف على القاهرة . فأرسل بونابرت دوجًا للاستيلاء على رشيد ، وإعداد حملة نيلية تسير فى النيل حتى تلتقى عند الرحمانية بسائر الجيش الزاحف برًا. كما أرسل برى Perrée ، مع أسطول صغير من المراكب الخفيفة ، إلى مصب النهر للدخول في النيل عند استيلاء دوجا على رشيد . وبدأ الجيش زحفه فى طريق الصحراء الشاق إلى القاهرة فاجتمعت مختلف الفرق فى دمنهور فى ٧ يوليو ، وفى هذا اليوم نفسه غادر بونابرت مع هيئة أركان حربه الاسكندرية ثم استأنف الجيش زحفه من دمنهور إلى الرحمانية ثم إلى شبراخيت وبالقرب من شبراخيت اشتبك الفرنسيون مع فرسان مراد بك فى معركة حتكية ١٣ يوليو لم يلبث أن انهزم فيها مراد بك واضطر إلى التقهقر صوب القاهرة . وكان فى هذه المعركة أن شكل بونابرت جيشه فى هيئة مربعات خمسة ، حتى يدفع عنه غائلة فرسان المماليك . ثم واصل الجيش زحفه على القاهرة[١] .

ولم يكن هذا الزحف " نزهة عسكرية " ، بل لقى الجند فى أثنائه شدائد وصعوبات كثيرة ، حتى سرت بينهم روح استياء خطيرة ، وكان أشد الناقمين أولئك الذين رسخ اعتقادهم من ذلك الحين بأن فولنى وسافارى وغيرهما من الرحالين الفرنسيين الذين زاروا هذه البلاد ، ووصفوا خصوبة أرضها ، ووفرة خيراتها ، واعتدال مناخها وما كان بها من مدن جميلة ، قد غرروا

---

(١)محمد فؤاد شكرى ، عبد الله چاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ٨٧ -٨٨.

بمواطنيهم الذين صدقوا هذه الأكاذيب وآمنوا بها . فكان هذا الاستياء منشأ ذلك الانقسام، الذى استفحل أمره فيما بعد بين أنصار الاستعمار فى مصر والراغبين فى الجلاء عنها . فأفصح كثيرون من ضباط الحملة عن هذا الاستياء ؛ خصوصًا فى تلك الخطابات التى بعثوا بها إلى ذويهم فى فرنسا ، ووقعت فى أيدى أمراء البحر الإنجليز بعد ذلك . فكتب بوابيه Boyer وغيره عما يقاسيه الجنود الفرنسيون من معاناة ومشقة طوال طريقهم من حرارة الشمس وتعقب العربان لهم ، وقتلهم للجنود المتخلفين . وعلى الرغم من ذلك كسبوا معركة شبراخيت[1] . ثم وصلوا إلى أم دينار فى ١٩ يوليو ثم واصلوا سيرهم ، وفى ٢١ يوليو اشتبكوا مع قوات المماليك بقيادة مراد بك فى معركة إمبابة الفاصلة أو الأهرام . وحلت الهزيمة بمراد ، فانسحب بفلول جيشه إلى الصعيد . أما إبراهيم ، الذى وقف بجيشه على ضفة النيل اليمنى عند بولاق ، ولم يحرك ساكنًا للاشتراك فى المعركة ، فقد حمل أمواله ونفائسه ، وقصد مع جماعته إلى بلبيس فى طريقه إلى الشام ، وقد صحبه أبو بكر باشا نائب السلطان فى حكم مصر ، ولما كان البكوات قد تركوا القاهرة دون اتخاذ أى إجراء للدفاع عنها ، فقد ساد الذعر وعم الاضطراب القاهرة ، وقرر المشايخ والعلماء تسليم المدينة ، فأرسلوا الرسل إلى بونابرت ، وكان لايزال بالجيزة ، يستفسرون عن مقاصد الفرنسيين ، ويطلبون " أمانًا " منهم لبعث الطمأنينة فى نفوس القاهريين ، وأجاب نابليون رغبتهم ، فذهب المشايخ لمقابلته وفى ٢٤ يوليو دخل بونابرت القاهرة ، بعد أن احتل جزء من الجيش مصر القديمة وبولاق والقاهرة ذاتها . ووقف ديزيه على مسافة فرسخين من الجيزة فى طريق الصعيد ، وأرسلت القوات لحراسة طريق الشام ، وفى ٣ أغسطس بدأت مطاردة الفرنسيين لقوات إبراهيم بك ، وأرسل بونابرت الجنرال رينيه لتعزيز طلائع الجيش الزاحف فى الشرقية ، بقيادة الجنرال لكليرك Leclerc ، فاحتلوا الخانكة ، ثم قصد بونابرت نفسه إلى بلبيس فبلغها فى ٩ أغسطس ولكنه لم يجد بها ابراهيم بك الذى غادرها إلى الصالحية . وفى ١١ أغسطس اشتبك الفرنسيون مع ابراهيم بك بالقرب من الصالحية ، فأظهر فرسان المماليك براعة وجسارة فائقة ، حتى كاد النصر يفلت من بونابرت ، لولا أن وصلت إليه النجدات سريعًا ، وقد ساعده انشغال ابراهيم بك برد اعتداء العربان على متاعه فى إحراز نصر كلفه جهداً بالغًا . فانسحب ابراهيم

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص٨٨ .

إلى سيناء ، وعاد بونابرت إلى القاهرة ، وفى أثناء عودته إلى القاهرة بلغه فى ١٣ أغسطس نبأ تحطيم الأسطول الفرنسى فى واقعة أبى قير البحرية [١] .

٤ - معركة أبى قير البحرية :

لكن نلسون هو الذى يصل فى أول أغسطس مع أسطوله . والفرنسيون لايتوقعون وصوله بعد . فقد ركنوا إلى أنه قد اضطر إلى العودة إلى غربى البحر المتوسط لإعادة التزود بالمؤن وللاهتمام بالإصلاحات التى تتطلبها إقامة طويلة فى البحر . ولم يتوقعوا الاستقبال الذى تم فى سيراكوز والذى سمح الإنجليز بكسب وقت ملحوظ للتزود بالمياه والمؤن الغذائية بفضل نفوذ السير ويليام هاميلتون والليدى هاميلتون على بلاط نابلى . وقد تسنى لنلسون العودة بسرعة إلى عرض البحر ، لكن مملكة نابلى تعتبر فى نظر الجمهورية الفرنسية متهمة بانتهاك خطير لحيادها . وهو ما سوف يكون أحد الأسباب الرئيسية لاستئناف الحرب فى إيطاليا .

وفى أول أغسطس ، فى بداية مابعد الظهيرة ، يرصد البحارة الفرنسيون السفن الشراعية الإنجليزية . وبعد مجلس حرب قصير ، يقرر بروى التمسك بقراره الخاص بالقتال من المواقع الثابتة . ويمسك نلسون بزمام المبادرة فى العمليات ، ويرى تركيز نيران سفنه الموضوعة فى المواقع الأنسب ، على رأس ووسط صف السفن الفرنسية . وعندئذ يلاحظ أنه يملك الموقع وخاصة العمق الكافى اللازم للسماح لسفنه بالمناورة بين الضفة والصف الفرنسى . ومن ثم يمكنه اجتياح هذا الأخير بين نارين ، وجسارته تسمح له بألا يقوم إلا باختيارات سريعة فى منطقة لم يقم فيها البحارة الفرنسيون بأى شىء على مدار شهر[٢] وفى خليج أبى قير فاجأه نلسون ، أمير البحر الإنجليزى ، فأنزل بالفرنسيين هزيمة بالغة ، وكان لهذه المعركة نتائج خطيرة [٣].

ذلك أن تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبى قير كبد البحرية الفرنسية خسارة جسيمة ، وقض على كل أمل فى إمكان إحياء هذه البحرية ، التى كانت قد ضعفت ضعفًا كبيراً فى أثناء الحروب الأخيرة ، فى المياه الأوروبية ، وفى المياة الأمريكية وفى مياه الهند الغربية خاصة .

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩٠ .

(٢) هنرى لورنس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ١٧٨ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

فظل الإنجليز أصحاب السيطرة فى البحار ، وكان من أثر تأييد سلطانهم فى البحر المتوسط ، بعد أن حطموا أسطول بروى ، أن فرضوا حصاراً شديداً على الشواطىء المصرية ، حتى بات من المتعذر تمامًا على فرنسا أن ترسل النجدات - العتاد الحربى أو أية إمدادات أخرى - إلى جيش الشرق فى مصر ولم يسع الفرنسيين حينئذ إلا أن يعتمدوا اعتماداً كليًا فى تدبير شئونهم ، وسد حاجات حملتهم فى هذه البلاد ، على موارد القطر الداخلية وحدها . وكان لذلك أكبر الأثر فى تلك السياسة الإسلامية الوطنية ، التى أرشد إليها تاليران فى تقريره إلى حكومة الإدارة (فى ١٣ فبراير سنة ١٧٩٨م) ووطد بونابرت العزم على اتباعها . وكان غرضها استمالة المصريين إلى تأييد الحكم الفرنسى ، وإقناعهم بأن الفرنسيين ما حضروا إلى بلادهم إلا ليعدلوا بينهم ، ويهيئوا لهم سبل العيش السعيد ، فلا يشعر المصريون أنهم إنما استبدلوا بحكم البكوات المماليك حكمًا لايقل عنه ظلمًا وعدوانًا ، أو قد يفوقه فى شروره وآثامه . فأصبح غرض هذه السياسة الإسلامية ، توفير أسباب الحياة للفرنسيين أنفسهم ، وترويض المصريين بشتى الأساليب على قبول حكم أجنبى عنهم ، لم يكن هناك مندوحة عن أن يسبب لهم إرهاقًا عظيمًا ، فثاروا ضده ، وتعسف الفرنسيون معهم ، حتى انعدم كل أمل فى حدوث أى " تفاهم " بين الفريقين ، أو إمكان تعاون أهل البلاد مع حكامهم الجدد على الرغم من كل تلك الأساليب التى ابتكرها بونابرت عند " تطبيق سياسته الإسلامية الوطنية فى مصر[١]".

واستندت سياسة بونابرت الإسلامية الوطنية إلى قواعد ثلاث : احترام الدين الإسلامى ، والمحافظة على تقاليد أهل البلاد وعاداتهم الدينية وانتزاع المصريين من أحضان الخلافة العثمانية ، ببذر بذور التفرقة بين المصريين والعثمانيين ، والقيام بدعاية واسعة بين الشعوب الإسلامية فى الأقطار المجاورة ، لإظهار مبلغ احترام الفرنسيين للدين الإسلامى والمسلمين ، ولإقناع كبار حكامهم بأن إنشاء صلات الود والصداقة مع الفرنسيين فى مصر ، واستئناف النشاط التجارى بين بلادهم وبين مصر ، سوف يعود بفوائد كبيرة على هؤلاء الحكام ، وأخيراً إنشاء حكومة وطنية لتكون أداة تمكنه من معرفة رغبات المصريين ، والوقوف على حقيقة نياتهم وآرائهم ، ويتخذ منها وسيلة لإذاعة أوامره وتحقيق مآربه بصورة تضمن استقرار الحكم الجديد . وعدم انتفاض المصريين عليه . وقد كانت هذه ولاشك وسائل تدل على الحكمة وأصالة

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩١ .

الرأى ، ولم يكن ثم مناص من نجاحها في دعم أركان المستعمرة الجديدة ، لو أن بونابرت نفسه، وقادة الحملة من بعده ، وسائر الفرنسيين ، عرفوا كيف يسلكون الطريق السوى فى علاقاتهم مع المصريين ، أو أن هؤلاء المصريين قد بلغوا من قصر النظر وقلة الدراية حداً ، يسدل ستاراً كثيفًا على أعينهم ، حتى يصدقوا دعاوى الفرنسيين العريضة ويؤمنوا بها(١) .

ومنذ أن دان له الحكم فى القاهرة ، حرص بونابرت على توصية قواده وضباطه ورجال المملكة عمومًا فى القاهرة والأقاليم أن يظهروا على الدوام احترامهم العظيم لعقيدة أهل البلاد وشعائر دينهم وتقاليدهم . وفضلاً عن ذلك فقد رأى بونابرت فى مناسبات عديدة ، أن يظهر هذا الاحترام بصورة واضحة ؛ اعتقد واعتقد كثيرون غيره أن من شأنها إقناع المصريين بصدق دعاوى حكامهم الجدد . وواتت الفرص بونابرت بعد أسابيع قليلة من دخولهم القاهرة ، للاشتراك مع المصريين فى احتفالاتهم القومية وأعيادهم الدينية . فترأس مهرجان قطع الخليج، وأقام الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وطلب إلى الجنرال مارمون Marmont (فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م) أن يزور الشيخ المصرى لمناسبة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ويبسط له القول عن اجتماعه بالعلماء والمشايخ فى القاهرة ، وعن اقتناعه العظيم بقدسية دين محمد ﷺ وطهره ونشرت « صحيفة لوكوربيه دوليجبت » بأول أعدادها وصفًا رائعًا لهذا الاحتفال، وبعث بونابرت بهذه الصحيفة إلى كليبر حاكم الاسكندرية حتى يطبع من هذا الوصف بعد ترجمته نسخًا عدة يذيعها فى جميع بلاد المشرق (٢).

ومع ذلك فقد ثابر بونابرت على سياسته الإسلامية الوطنية ، وكان من وسائله محاولة فصم تلك العلاقات الدينية ، التى ظلت تربط بين المصريين والعثمانين من أزمنة قديمة وبعث آمال المصريين فى نصرة الإسلام ، وإقناعهم بأن الإسلام فى وسعه أن يكسب قوة جديدة ، إذ نهضت القاهرة نهوضًا يرقى بها إلى مصاف المراكز الدينية الهامة فى العالم الإسلامى ، فتشغل إلى جانب مكة المكرمة مكان الزعامة فى هذا العالم على أن يتم ذلك كله بالتعاون بينهم وبين الفرنسيين ، وعلى ذلك فإنه ما إن ساءت علاقة بونابرت بالسلطان العثمانى ، وانضمت الدولة العثمانية إلى جانب الإنجليز والروس فى إعلان الحرب ضد فرنسا ، على أن تحطيم بروى فى معركة أبى قير البحرية خاصة ، حتى شرع بونابرت يبذر بذور التفرقة بين

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٩٢ .

(٢) نفسه ، ص ٩٦ .

المصريين والعثمانيين ، ويظهر السلطان العثماني في صورة من أصبح لايهتم بمصلحة الإسلام، ولا يحرص على الشريعة الإسلامية . وكان من دعاواه في ذلك أن السلطان ظل متمسكًا بعلاقات الود والصداقة مع فرنسا ، طالما أنها كتانت هذه أمة عريقة في مسيحيتها ، حتى إذا تبدلت الأحوال بها ، وأضحى الفرنسيون أكثر عطفًا على الإسلام والمسلمين ، وأقرب ميلاً إلى تفهم العقيدة الإسلامية ، نبذ السلطان صداقتهم ؛ فإذا كان ذلك مسلك الأتراك العثمانيين مع هذه الدولة الصديقة ، التي ظلت على ولائها لهم من قديم الزمان ، فإن هؤلاء ولاشك سوف يعجزون عن المحافظة عى تراث الإسلام ولامفر من أن تقتسم الدول المسيحية ، وفي مقدمتها روسيا وألمانيا ، أملاك العثمانيين الإسلامية فيما بينها [١].

ومنذ بداية سبتمبر ، بيد امتلاك الدلتا ، بالرغم من العمليات التي ماتزال جارية متقدمًا بما يكفي في نظر بونابرت ، بحيث يتسنى له اتخاذ قرار بعقد ديوان عمومي في القاهرة لعموم مصر . ويتعين على كل إقليم أن يرسل إليه وفداً مؤلفًا من ثلاثة " فلاحين من مشايخ البلد وزعماء العرب " . ويتعين على الجنرالات اختيار هؤلاء الأعيان " من بين الأشخاص الأوسع نفوذاً بين الناس ، والأكثر تميزاً في البلاد بمعارفهم ومواهبهم وأسلوب ترحيبهم بالفرنسيين : وعليهم أن يحرصوا على عدم اختيار أحد من أولئك لذين يقفون ضدنا - الفرنسيين - بشكل سافر " وموعد الاجتماع (الأول من أكتوبر ١٧٩٨م) وبسبب تأخر وصول بعض الوفود يجري تأجيله إلى (٥ أكتوبر) .

وفي ذلك اليوم ، تبدو عملية تهدئة الدلتا ناجزة وتسمح أمور كثيرة يتوقع انحياز عام إلى صف الفرنسيين . على أن الحدث الرئيسي ، والذي يتمثل في دخول الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب وحملة الدعاية التي تلته ، سوف يقلب الوضع [٢].

٥ - موقف الباب العالي :

لم يكتب تاليران إلى روفان Pierre Ruffin القائم بأعمال فرنسا في أستانبول لينهي إليه نبأ الحملة على مصر إلا في ١١ مايو قبيل إقلاع الأسطول الفرنسي مباشرة . وطلب إليه أن يقنع الباب العالي بأن الحكومة الفرنسية لاتنوي القيام بأي عمل عدائي ضده ، وأن يعلن قرب

(١) محمد فؤاد شكري ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) هنري لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٢٢ .

وصـول مفـاوض فـرنسى تخـول له كـامل السلطات . ولم يصل الخطاب إلى روفـان إلا فى ٢٨ يونيـو عشيـة نزول الفرنسيين الاسكندريـة . وعلى حين ظل روفان يجهل مشروع الحملة تمامًا ، كانت الحكومة العثمانيـة على علم بالاستعدادات الفرنسيـة منذ شهر مايو بفضل سفيرها فى باريس . وفى ١٩ يونيـو علم روفـان بالحـملة فى مـقابلة تمت بينه وبين الريس أفندى (وزير خارجية الدولة العثمانية) وثارت شكوك الباب العالى حول أهداف فرنسا لاسيما أن فرنسا لم ترسل سفيـراً لهـا فى الآستانة ليفسـر لها نواياها بل إن بونابرت تدخل فى الشئون الداخليـة للدولة العـثـمـانيـة فـأجرى مـفـاوضـات مع على باشـا وإلى يانينا وأرسل الرسل إلى اليـونان يحرضم على الثورة . وكان مما ضايق الحكومة العثمانيـة دون إنذار أو إيضـاح . ولكن الباب العالى لم يكن من القوة بحيث يعلن الاحتجاج ويندفع ويتهور . وكان على الدولة العثمانية أن تختار بين أمور ثلاثة :

الأمر الأول أن تقاوم الحملة الفرنسية علانية وبقوة السلاح .

والأمر الثانى أن تتحالف مع الجمهورية الفرنسية .

والأمر الثالث أن تتظاهر بموافقتها على بقاء مصر فى أيدى الفرنسيين ولكن تعمل سراً على إقامة العراقيل فى طريقهم [١].

وبالنسبة للأمر الأول فقد كان لدى العثمانيين أكثر من سبب يمنعهم من اتخاذ هذا الإجراء. فلكى يحققوا ذلك كان عليهم أن يعقدوا معاهدات مع أعدائها التقليديين ، وهذا يعرض أمن الإمبراطورية لتهديد القوات الروسية والنمسوية التى ستهرع عندئذ لنجدتها . وبالإضافة إلى ذلك فإن الجنود الفرنسيين الذين يرابطون فى جزر الإيونيان يستطيعون بسهولة السير إلى الآستانة ومعاقبة لباب العالى قبل وصول حلفائه ولم تستطع الإمبراطورية العثمانية بدافع الكرامة أن تختار الطريق الثانى . أما الأمر الثالث فقد كان مطابقًا لروح الحكومة العثمانية ، فقد صرّح السلطان العثمانى بأنه لن يفرط فى حفنة من رمال مصر ويطالب المماليك بألا يثقوا فى مناورات الكفرة ، ويعدهم بإعطائهم كل مدد ونجدة ، فإنه فى الوقت نفسه يرسل إلى الولايات منشوراً لكى توضح أن الفرنسيين مايزالون أصدقاء الإمبراطورية العثمانية ولابد أن يعاملوا معاملة حسنة بالرغم من أن " شريراً يدعى نابليون قد غزا مصر " ، وهو خارج على

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٠ .

سلطة الحكومة الفرنسية التى لابدلها فى ذلك . وكان هذا ما توهمه العثمانيون ، فلقد أوضح تاليران - بعد معركة أبى قير بيومين - فى خطاب سرى لروفان ، النوايا الحقيقية للحكومة الفرنسية . قال : " إن جميع تجارة البحر المتوسط يجب أن تنتقل إلى أيدى الفرنسيين . تلك هى الرغبة الحقيقية لحكومة الإدارة ، ثم أنها ستكون النتيجة المحتومة لمركزنا فى ذلك البحر . ومصر التى كانت فرنسا تتمنى على الدوام الاستيلاء عليها هى بالضرورة من نصيب الجمهورية . ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف المماليك ، الذى غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار وعجز الباب العالى عن الانتصاف لنا منهم ، أن ندخل جيشنا فى مصر وأن نثبت أقدامنا فيها دون أن نعرض أنفسنا لتهمتى الاغتصاب والجشع... إن الإدارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر بكل الوسائل الممكنة (١).

وهكذا لم تقطع الدولة العثمانية علاقاتها الرسمية بفرنسا ، واكتفى العثمانيون بالتضييق على روفان وظل الأمر كذلك حتى ٢٢ أغسطس عندما وصلت أنباء تدمير الأسطول الفرنسى فى أبى قير والذى وصل إلى إستانبول نحو ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م . إنما يعزز إرادة القتال لدى العثمانيين . وفى ٢ سبتمبر ، يجرى احتجاز الدبلوماسيين الفرنسيين ، وفقًا للعرف فى قصر الأبراج السبعة . والحال أن تاليران ، الذى كان قد أدرك بسرعة أن وضع سفير فى أستانبول ينذر بألا يكون سعيداً البتة ، كان قد تخلى منذ وقت طويل عن هذا المنصب وعين فيه السفير السابق للمؤتمر ، ديكورش دون سان - كروا ، وكان هذا الأخير قد أجرى استعداداته ، لكن قطع العلاقات الدبلوماسية يحول دون رحيله . والواقع أن الباب العالى ينشر فى ٩ سبتمبر ١٧٩٨ ببيانه الحربى : إن فرنسا قد خانت بفظاعة الصداقة لتقليدية التى كانت تربطها بالباب العالى وهذه الخيانة جد مشينة ، بقدر ما أن الإمبراطورية العثمانية ، خلال إئتلاف دول أوروبا ضد فرنسا ، قد تمسكت بحياد عطوف وسمحت بإمداد فرنسا التى تتهددها المجاعة بالمؤن ، وكان جزاء ذلك أن فرنسا قد انتهجت سياسة تخريب فى الولايات الأوروبية للأمبراطورية ، ثم أقدمت على مهاجمة مصر مع سعيها إلى كسب الوقت عبر مناورات تسويفية لدى الباب العالى .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥١ .

وأعلن الجهاد ضد فرنسا ، وأرسل الباب العالى سلسلة بأكملها من الفرمانات إلى مختلف الأقسام الإدارية للإمبراطورية لتجنيد القوات [١]. ويصبح الشيء الأهم هو التعرف على رأى أحمد باشا الجزار ، فإذا ما أختار هذا الأخير الوفاق مع الفرنسيين ، فإن وضع الباب العالى سوف يصبح صعبًا . ومما يسعد هذا الأخير أن سيد عكا قد أدرك أن الفرنسيين فى مصر يشكلون خطراً أعظم بكثير على سلطته من خطر الباب العالى ، الأبعد بكثير ، والذى يحتفظ معه دائمًا ، بوجه عام ، بعلاقات طيبة . وهو يتصل من تلقاء نفسه بالإنجليز الذى يبدى لهم رغبة في القتال [٢].

تأثر قرار الدخول فى الحرب بالضغوط الروسية أيضًا . على أن بول الأول كان قد أبدى فى بداية عهده رغبته فى اتباع سياسة سلمية وساعية إلى تضميد الجراح بعد الحروب الطويلة التى خيضت فى زمن كاترين العظيمة . ولكن وجود الفرنسيين فى البحر المتوسط ، وخاصة فى البحر الأدرياتى ، إنما يشكل فى نظر حكومته خطراً على الأطماع الروسية فى المنطقة . وقد جرى تفسير حشد القوات فى طولون بوصفه علامة تهديد وشيك لروسيا ، ويتم وضع أسطول البحر الأسود فى حالة استنفار . ويقود الاستيلاء على مالطة إلى اتخاذ قرار بمحاربة فرنسا : فمن اللازم حشد جيش يتألف من ستين ألف رجل على الحدود الروسية - العثمانية ، ويتمركز الأسطول البحرى الروسى على مقربة من المضائق ، ومنذ ٢٤ يوليو يجرى اقتراح تحالف على انجلترا .

وهكذا يجد الباب العالى نفسه مدفوعًا إلى التعاون مع روسيا ، وترسو السفن الروسية قبالة إستانبول فى ٢ سبتمبر ١٧٩٨م ، وتبدأ المحادثات العسكرية فى ٥ سبتمبر . وبالرغم من المطالب الإنجليزية ، فإنه يجرى إيلاء الأولوية للبلقان . والحال أن الجزء الرئيسى من الأسطول العثمانى ، الذى أصبح من جديد مهمًا بفضل عمل سليم الثالث ، يجرى إرساله للاستيلاء على جزر البحر الأيونى ، بالتعاون مع الأساطيل الروسية . وينجز الفريقان حشدهما فى ١٩ سبتمبر فى عرض الدردنيل الذى يغادرانه فى الأول من أكتوبر . وتسقط الجزر بسرعة فى أيدى العثمانيين والروس وعندئذ يجرى حصار كورفو ، القاعدة الفرنسية الرئيسية وسوف يقاومه الجنرال شابو حتى ٣ مارس ١٧٩٩م [٣].

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٠ .

وكانت انجلترا قد أولت الأولوية للدفاع عن الهند . وبمجرد تلقى خبر رحيل الفرنسيين فى لندن ، سارع دونداس ، الذى كان آنذاك وزيراً للحربية ، بإصدار الأمر بإرسال تعزيزات إلى الهند . وبما أن قوات انجلترا البرية ضعيفة ، فإنها ستضطر إلى سحب قوات من البرتغال ، بالرغم من التهديدات الفرنسية لهذا البلد . والمسافة جد طويلة لأنه يتعين المرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح . ويأمل البريطانيون فى أن تصل قواتهم إلى الهند قبل لجيش الفرنسى الذى تصوروا أنه سوف يتجه إليها عبر البحر الأحمر . ومن ثم فمن باب الاحتياط يتعين حصار ذلك البحر . والباب العالى نفسه هو أول من يقترح إرسال أسطول إنجليزى إلى البحر الأحمر بالرغم من قرب المدينتين المقدستين ، ومن ثم فإن الخطر العثمانى القديم يختفى بسبب الظروف [١] .

وفى ٥ يناير ١٩٧٩م عقدت بريطانيا محالفة مع الدولة العثمانية . وقعها من الجانب البريطانى كل من سدنى سميث Sir Sidney Smith وسبنسر سميث ، وجاء فيها " أن جلالة ملك بريطانيا الذى تربطه بإمبراطورية روسيا أواصر المحالفة الوثيقة ، قد انضم الآن فى هذه المحالفة « المبرمة بين انجلترا والدولة العثمانية » إلى المحالفة الدفاعية التى تم إبرامها أخيراً ، بين السلطان العثمانى وقيصر روسيا "[٢] .

فضمن الطرفان المعاقدان كل منهما أملاك الآخر ، وتعهد جورج الثالث ملك انجلترا بضمان جميع ممتلكات الإمبراطورية العثمانية دون أى استثناء ، ولما كانت قبل الغزو الفرنسى فى مصر . وتعهد السلطان العثمانى من جانبه بضمان الممتلكات البريطانية دون استثناء كذلك . وفضلاً عن ذلك فقد نصت المعاهدة على ضرورة مواصلة الحرب بالاشتراك فيما بين الحليفين المتعاقدين ؛ فلا يقدم أحدهما على إبرام الصلح منفرداً مع الأعداء دون موافقة الآخر . وبذلك مهد عقد هاتين المعاهدتين لتأليف المحالفة الدولية الثانية ضد فرنسا . إذ أنه سرعان ما انضمت مملكة نابلى إلى الحلفاء بمقتضى معاهدة القسطنطينية فى ٢١ يناير ١٧٩٩ ، كما ضغطت كل من انجلترا وروسيا على الحكومة النمساوية ، فأعلنت النمسا الحرب على فرنسا فى ٢٤ يناير ، وظلت بروسيا وحدها خارجة عن نطاق هذه المحالفة [٣].

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٤١ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٣ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

وحاول بونابرت أثناء وجوده فى مصر أن يوطد النفوذ الفرنسى بها وأن يسعى إلى إيجاد نوع من الصداقة والتحالف أن أمكن ذلك - بينه وبين الحكام العرب والمسلمين المحيطين بمصر. فحاول الاتصال بأمراء طرابلس والشام وعرض صداقته ونواياه الطيبة نحوهم ، كما حاول فى نفس الوقت الاتصال بشريف مكة وبأمراء الهند لتأليبهم على الاستعمار البريطانى هناك باذلاً لهم الوعود بمساعدة فرنسا لهم فى التحرر والاستقلال . ولكن لم تأت تلك الجهود بالثمرة المرجوة، لأن الحكم الفرنسى فى مصر لم يكن مستقراً ، كما أن فترة بقاء نابليون فى مصر كانت قصيرة ، وأهم من ذلك أن الدول الأوروبية - كما سبق القول - قد تحالفت على إخراج الحملة من مصر ، وعندما أعلن السلطان العثمانى الحرب على فرنسا ، أصبح مركز بونابرت فى مصر معرضًا لأخطار جديدة داخلية وخارجية ، فلقد كانت الفرمانات الآتية من عند السلطان تتلى فى المساجد لحث المؤمنين على طرد عدو الإسلام . وعندما علم نابليون بعزم الحكومة العثمانية على إرسال حملة إلى مصر لإخراجه منها بمساعدة الأسطول البريطانى المحاصر للشواطىء المصرية ، صمم على الخروج من هذا المأذق وغزو الشام[١] .

وكانت عملية الحملة على الشام تهدف فى واقع الأمر محاولة من جانب الفرنسيين للقضاء عى خطر آخر من أخطار المقاومة التى واجهت وجودهم فى مصر ، وهو خطر قوات المماليك التى كانت قد انسحبت بعد معركة الصالحية إلى سوريا الجنوبية ، وخطر التجمعات العثمانية التى أخذت الدولة فى القيام بها ، بعد إعلانها الحرب على فرنسا ، للقيام بعملية غزو لمصر ، تستهدف استخلاصها من أيدى الفرنسيين . وزاد من خطورة الموقف أن الدولة العثمانية جاهرت بالعداء تجاه الجمهورية الفرنسية ، وأخذت فى إعداد قوات أخرى لها فى جزيرة قبرص، لكى تتعاون بها مع القوات البريطانية فى البحر المتوسط ، فى عملية الهجوم على سواحل مصر الشمالية ، وكانت السلطات العثمانية فى سوريا مع من انسحب إلى هذا الإقليم من المصريين ومن المماليك قد أخذت الاتصال بشيوخ مصر وعلمائها وأعيانها ، لكى تدفع المصريين إلى الثورة فى وجه الفرنسيين فى الوقت الذى تقوم فيه القوات العثمانية بالهجوم على مصر ووجد بونابرت أنه من الأصوب أن يلتقى بهذا الخطر الذى يتجمع فى سوريا ، كقوة للمقاومة ، قبل أن يتم استعداده ، ويصل لمصر ، وقد يكون ذلك فى وقت تأتى فيه حملة أخرى ، عثمانية إنجليزية ، إلى سواحل مصر الشمالية ، فكان عليه إذاً أن يأخذ بالمبادأة .

---

(١) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٤ .

ولكن جزءاً كبيراً من قوات الحملة كان مشغولاً فى الصعيد ، وكان خروج حملة جديدة إلى سوريا يستتبع من بونابرت أن يقوم من جديد بمحاولة لاستمالة المصريين ، وإظهار رغبته فى اشراكهم فى حكم البلاد ، حتى يؤمن ، فى عاصمة البلاد ، أمن قواته الموجودة فى الصعيد ، وأمن قواته التى سيسير على رأسها زاحفًا إلى سوريا[1] وقرر بونابرت إعادة الديوان ، الذى كان قد ألغاه بعد ثورة القاهرة وقد أصدر الأمر بإعادة الديوان فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ أى فى الوقت الذى أخذ فيه الاستعداد لحملة سوريا ، ولقد أصدر هذا الديوان بيانًا للشعب فى ٢٨ يناير ١٧٩٩م يحثه فيه على التزام الهدوء والسكينة ، ويعلنه فيه بونابرت قد عفا عفواً كاملاً عن كل ماقام به الثوار وأنه سيعمل على رفع المظالم ، وإجراء المشاريع التى تزيد من رفاهية البلاد . وذكر هذا البيان أن بونابرت سيقوم بفتح الخليج الموصل من النيل إلى بحر السويس إشارة إلى المشروع الخاص بوصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر وكان بونابرت قد عاد فى ذلك الوقت من السويس ، التى تعتبر رحلته نقطة ثانية بعد إعادة العمل بالديوان ، للاستعداد لحملة سوريا [2].

غادر بونابرت القاهرة فى فبراير ١٧٩٩ على رأس قوة تقترب من ١٣,٠٠٠ جندى متجه إلى الشام ، بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، ووصل الجيش إلى قطيه ، والتحموا مع حامية العريش فى معركة حامية ، وغادر نابليون القاهرة ، ووصل إلى العريش يوم ١٧ فبراير ، واحتشدت جموع الفرنسيين ومدفعيتهم تحت أسوارها ، واشتد اطلاق نيران المدافع على العريش ، حتى اضطر إبراهيم أغا حاكمها إلى توقيع شروط التسليم فى ٢٠ فبراير ، فاخليت القلعة واحتل الفرنسيون العريش ، وأستؤنف الزحف بعدها إلى سوريا[3] .

أما الأغراض التى يرجو الوصول إليها ن هذا الزحف ، فقد لخصها نابليون فى قوله أنها :

أولاً : دعم فتوح الفرنسيين فى مصر ، ودفع خطر الهجوم عى هذه البلاد من أية جيوش قد تنوى الزحف عليها من جهة الحدود الشرقية ، أو تريد الاشتراك فى العمل مع جيش أوروبى قد ينزل إلى الشواطىء المصرية .

ثانيًا : إرغام الباب العالى على توضيح موقفه بصورة تساعد على نجاح المفاوضات التى لاشك فى أن حكومة الإدارة قد بدأتها مع الباب العالى فى القسطنطينية ، تأييد (بوشان) الذى أرسله فى مهمة لنفس الغرض إلى القسطنطينية .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .
(٢) جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ٤١٧ .
(٣) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسين من مصر .

ثالثًا : حرمان الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط من تموين سفنه من سوريا ؛ وذلك عند استطاعة بونابرت خلال شهرى الشتاء اللذين بقيا له أن يجعل الشاطىء السورى منطقة "صديقة" سواء أتحقق ذلك بالطرق الدبلوماسية ، أم بحد السيف والمدفع(١) .

وواصل الجيش زحفه بعد سقوط العريش ، فاحتل الفرنسيون خان يونس ثم سقطت غزة واللد والرملة ، وحاصر الجيش يافا فسقطت فى ٧ مارس ١٧٩٩ ، وفى ٩ مارس أرسل بونابرت إلى شيوخ نابلس يخيرهم بين الحرب والسلام ، حتى إذا اختاروا السلام طردوا من نابلس المماليك ورجال الجزار باشا . كما أصدر فى اليوم نفسه منشوراً موجهًا إلى شيوخ وعلماء وأهل غزة والرملة ويافا ، ويطلب منهم أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، ويعدهم باحترام شعائرهم وعقائدهم الدينية ونشر العدالة بينهم . ثم كتب إلى الجزار يدعوه إلى ترك القتال والعيش فى سلام مع الفرنسيين ، والانضمام إليهم ضد أعدائهم المماليك والإنجليز . وفى ١٣ مارس كتب بونابرت تقريراً مفصلاً يصف فيه لحكومة الإدارة موقف الجزار العدائى ، وإخفاق جميع ماقام به من محاولات لاستمالته . كما تضمن هذا التقرير ذكر المعارك التى خاضها جيش بونابرت فى العريش وغزة ويافا خصوصًا . ووجد بونابرت فى يافا عدداً كبيراً من المصريين المحتمين فى قلعتها ، ومن بينهم السيد عمر مكرم . فلم يتعرض لهم بأذى . بل إن بونابرت عى حد قوله فى الرسالة التى وصفت حوادث الغزو فى الرملة ومدينتى اللد ويافا ، وقرئت فى ديوان القاهرة ، قد رق قلبه لأهل مصر الذين كانوا فى يافا من غنى وفقير ، فأعطاهم الأمان ، وأمر برجوعهم إلى بلدهم مكرمين (٢).

على أن الوباء سرعان ما انتشر بين الجند المرابطين فى يافا وزاد من خطره وجود حوالى ثلاثة آلاف من أسرى العثمانيين فى حالة سيئة . فكثرت الإصابات بين الفرنسيين ، ولما كان هؤلاء متذمرين من قلة مالديهم من مؤن ، وكان الجيش على وشك استئناف الزحف على العدو، فقد بات من واجب قائد الحملة العام أن يفصل فى أمر هؤلاء الأسرى . ولهذا عقد بونابرت مجلسًا حربيًا لبحث هذه المسألة ، ورؤى فى بداء الأمر أن يرسل الأسرى إلى مصر ، ولكن صعوبات عدة حالت دون ذلك ؛ منها عدم وجود المؤن اللازمة لهؤلاء الأسرى فى أثناء سيرهم الشاق إلى مصر ، ويتعذر الاستغناء عن عدد من الجنود الفرنسيين لحراستهم ، كما

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٦.

(٢) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

كان يخشى من وقوعهم فى قبضة الإنجليز إذا هم أرسلوا بحراً إلى مصر . فقر الرأى على إعدامهم رميًا بالرصاص ؛ وذلك بدلاً من أن يتركوا فى يافا يقضى عليهم الجوع بها ، أو ينتهزون الفرصة للانضمام إلى جيش العدو ثانية ، فاعدموا . ولاجدال فى أن إعدامهم كان وصمة عار فى جبين قائد الحملة . وذلك باعتراف المؤرخين الفرنسيين أنفسهم [١]. لأنه مهما كان نوع الأعذار التى انتحلت لارتكاب هذه الجريمة الشنيعة . فإن هؤلاء المقاتلين كانوا قد آثروا التسليم ، وفق شروط اتفقوا عليها مع بوهارنيه Beauharnais وكروازييه Croisier من ياوران بونابرت . وماكان ينبغى بحال من الأحوال ، ومهما كانت الأسباب أت يخالف الفرنسيون وعودهم ، وأن يخرقوا قوانين الحرب المعترف بها . وفضلاً عن ذلك فقد كان فى وسع بونابرت ، كما يقول بعض أنصاره أن يوفق بين مايتطلبه العمل من أجل المحافظة على جيشه ، وماكان يقتضيه واجب التمسك بتلك الشروط التى ارتضاها المحاربون فى ميدان القتال . وقد لقى بونابرت جزاء ما فعلت يداه ، عندما أصر العثمانيون وأحلافهم الذين لجوا من مذابح يافا على المقاومة بكل شدة ، آخذاً بثأر إخوانهم . فجنى بونابرت تحت أسوار عكا ثمار ما غرسه على شاطىء يافا[٢] .

لقد أستأنف الفرنسيون بعد استيلائهم على يافا ، استولوا على حيفا دون مقاومة . ثم وصلوا أمام عكا وبدأت عملية الحصار يوم ١٩ مارس ؛ ثم استمر الفرنسيون فى ضربها بالمدفعية ، دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . وانسحب بونابرت عن أسوارها ، وكان ذلك أول عملية انسحاب يقوم بها ، ولكنه سرعان ماخشى من أن يؤثر الانسحاب على معنوية جنوده ، فعاد إلى حصارها من جديد وحاول اقتحامها فى أول إبريل وتمكنت المدفعية من فتح ثغرة فى الأسوار . ولكن المدافعبن استماتوا فى منع الفرنسيين من المرور منها . الأمر الذى أدى إلى فشل الهجوم الثانى [٣].

ولقد استمات أحمد باشا الجزار فى الدفاع عن مدينته ، وساعده على المقاومة وجود سفينتين حربيتين إنجليزيتين أمام الميناء . ويمثل وصول الإنجليز كارثة بالنسبة للفرنسيين . فأسطولهم الصغير المكلف بنقل مدفعية الحصار ، جد الثقيلة بحيث يصعب نقلها عبر

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ١٢٧.

(٢) نفسه ، ص ١٢٧ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٢٢ .

الصحراء ، يتم اعتراضه على الفور وأسره ، مما يحرم بونابرت بذلك من عتاده المخصص للحصار . ويتعين عليه إصدار الأمر بإرسال قافلة جديدة من الإسكندرية لتحل محل العتاد المفقود . وفى يومى ١٩ ، ٢٠ مارس يبدأ الجيش مع ذلك محاصرة عكا بينما يغطى لان وفرقته لموقع من جهة الجليل . ويمثل عباس ضاهر - حفيد ضاهر العمر أمام بونابرت ، وهذا الأخير يوليه فوراً على المجال التقليدى لآل الزيدانى ، إقليم طبرية ، ويرسل رسائل إلى شيعة جبل عامل ويكتب بنفسه إلى الأمير بشير ، مبلغًا إياه بحصار عكا وبعزمه على القضاء على استبداد الجزار (١).

والواقع أن عدداً من الجبليين يحضرون فوراً إلى المعكسر الفرنسى لبيع مؤن من كافة الأنواع للفرنسيين ولشراء أسلحة . ويرى الضباط الفرنسيون فى ذلك علامة تحالف سياسى آخذ فى التشكل مع الدروز ، والواقع أن الأمر يتصل أساسًا بأنصار آل الزيدانى وبالشيعة أكثر مما يتصل بالدروز والموارنة . ويكتفى الأمير بشير بالتغاضى عن تجارة يصعب عليها منها على أية حال (٢).

وكان لوصول الأسطول الإنجليزى الصغير أثر ملحوظ على حصار عكا . وإذا كان العثمانيون قد استفادوا بالفعل من إمكانية التزود بالإمدادات عن طريق البحر (فعلوا ذلك فى يافا عندما انقطعت الاتصالات البرية) بشكل مستقل عن الإنجليز ، فإنهم سوف يحصلون على مساعدة من عمليات القصف التى تمارسها السفن الإنجليزية وخاصة من وجود متخصصين مثل فيليبو ، عهد إليهم فوراً بالعمل لدى الجزار . وهم لن يشعروا بأنهم وحدهم فى المحنة أن سيدنى سميث - قائد الأسطول البريطانى - الراغب فى الإعلاء من دوره الخاص. سوف يتفاخر بأنه قد رفع معنويات سيد عكا الذى كان يستعد للاستسلام . ولايتفق ذلك بالمرة مع سيكلوجية الرجل الذى كان ينوى منذ البداية المقاومة بقواته الخاصة . وعلاوة على وحداته المألوفة من المرتزقة ، فإن معه جميع سكان المدينة الذين لم يتردد فى تسليحهم . وهو يأمر بذبح المسيحيين لتجنب أى طابور خامس محتمل وخاصة لإظهار إصراره ، ومصير يافا و بدلاً من أن يرعب المدافعين ، يوضح لهم أنه ما من مخرج هناك سوى الموت فى المعركة أو النصر . وليس أمام الجزار أكثر من اللعب على وتر الذود عن الإسلام لكى يتسنى له

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٢٤٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٧ .

الوصول إلى إثارة حمية قواته ، وهو من جهة أخرى ، مناوىء لوجود وحدات مهمة تتبع الباب العالى فى إقليمه ، الأمر الذى يوضح أنه يهتم فعلاً بالمستقبل . ويبدو الإنجليز له أكثر حياداً ونافعين فى نهاية الأمر لإبقاء سكان الجبل اللبنانى فى فلكه السياسى [١] .

وفى نفس الوقت أرسلت الدولة العثمانية جيشًا لمهاجمة بونابرت من الخلف أثناء حصاره لعكا ولكنه استطاع التغلب على هذا الجيش والقضاء عليه فى موقعة " تل طابور " فى ١٦ أبريل ١٧٩٩م . ولكن بونابرت وجد أن استيلاءه على عكا عنوة سيكلفه كثيراً فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة والإسراع بالعودة إلى مصر لأنه علم بأنباء إرسال حملة بحرية وبرية إلى مصر . ومهما يكن من أمر فقد حقق بونابرت بعض أهداف تلك الحملة إلى القضاء على قوة المماليك المعتصمة فى تلك الجهات والقضاء على قوة الباشوات ، مثل باشا دمشق وباشا عكا حتى لايفكرا فى الزحف على مصر ، ونجح فى هذا كل النجاح ؛ إذ إن انتصار القوات الفرنسية على القوات العثمانية فى الشام جعل هؤلاء الحكام لايفكرون مطلقًا فى تعقب القوات الفرنسية المتقهقرة إلى مصر . أما فشل نابليون الذى نسبه المؤرخون إلى تلك الحملة استناداً إلى فشل نابليون فى الاستيلاء على عكا فهو قول يجانبه الصواب لأن نابليون لو استطاع الاستيلاء على عكا لما أمكنه تحصينها نظراً لمحاصرة الأسطول الإنجليزى لسواحل الشام [٢].

دخل بونابرت القاهرة بجيشه فى ١٤ يونيو ١٧٩٩م ، ولم يلبث أن علم بوصول حملة عثمانية إلى أبى قير فى ١٤ يوليو ، فأصدر أوامره إلى قواده ليلتقوا به عند الرحمانية حيث قرر اتخاذها قاعدة الهجوم على الجيش العثمانى . كما أصدر تعليماته إلى الجنرال ديزيه فى الصعيد بأن يترك القوة والذخائر الكافية فى قلعة قنا وقلعة القصير ويرسل نصف قوته من الفرسان إلى الرحمانية . وتجمعت القوات الفرنسية عند الرحمانية وقادها نابليون لمواجهة الحملة العثمانية واستطاع نابليون القضاء عليها فى موقعة أبى قير البرية فى ٢٥ يوليو وأسر قائدها مصطفى وفر من بقى وكان من بين الفارين محمد على وعاد بونابرت إلى القاهرة فى ١١ أغسطس . وكانت أبى قير البرية نصراً كبيراً لنابليون لأنها بمثابة فتح جديد لمصر كما كانت واقعة الأهرام من قبل . وزال كل خطر على مصر من جانب العثمانيين على الأقل بضعة

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٣٤٧ .

(٢) عمر عبد العزيز عمر ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٦ .

أشهر. ولكن ترتب على موقعة أبى قير البرية نتائج أخرى مهمة . فقد حاول الفرنسيون بفضل اتصالاتهم بالعثمانيين والسير سدنى سميث أن يقفوا على كل شىء كثير مما كان يحدث فى أوروبا . أما الأسرى فلم يجد بونابرت بينهم من يستطيع إعطاء صورة حقيقية عن الأوضاع فى فرنسا ، حتى مصطفى باشا قائد الحملة الذى وقع أسيراً فى يده ، لم يكن يعلم عن أحوال أوروبا الشىء الكثير ، لذلك أرسل رسولين عقب الموقعة للسير سدنى سميث ليتفاوضا فى تبادل الأسرى ولكى يحصلا على مزيد من الأخبار عن فرنسا . وفى نفس الوقت كان القائد البريطانى متشوقًا للتعرف عن الأحوال فى مدينة الاسكندرية ، فأرسل سكرتيره إلى الشاطىء ومعه بعض الصحف التى يرجع تاريخها إلى ١٠ يونيو وقرأ فيها نابليون أخبار الكوارث التى حلت بفرنسا ، وعلم من الصحف بطرد الفرنسيين من إيطاليا وأن فرنسا نفسها معرضة لخطر الغزو من جديد . وفضلاً عن ذلك فقد أثبت المعاصرون رسالة من حكومة الإدارة إلى بونابرت محررة فى باريس بتاريخ ٢٦ مايو ١٧٩٩م ، تسلمها بونابرت بعد عودته من سورية إلى القاهرة وتشير هذه الرسالة إلى الأخطار المحيطة بفرنسا بسبب جهود كل من النمسا وروسيا وتطلب منه العودة بالقسم الأكبر من قواته إن لم يكن الجيش كله ، ليقود جيش الإمبراطورية ، وشرع بونابرت يعمل جديًا لمغادرة مصر بكل سرعة [١].

وكان بونابرت قد قرر ، أن يفاتح الباب العالى فى أمر إنهاء الحرب ، وعقد الصلح بينه وبين فرنسا ، وكلف مصطفى باشا أن يتصل بالصدر الأعظم فى هذا الشأن ، وترك له رسالة أعرب فيها عن حسن مشاعر فرنسا تجاه الدولة العثمانية ، والصداقة القديمة التى كانت تربط بين البلدين ، وعدائها التقليدى لكل من روسيا والنمسا . وشرح فيها أن احتلال فرنسا لمصر لم يكن مبنيًا على روح عدائية للدولة العثمانية ، بل كان يهدف محاربة المماليك ؛ وإنه لم يكن يهدف فصل مصر عن الدولة العثمانية ، بل يهدف محاربة انجلترا فى الهند . وذكر أن الحملة الفرنسية قد احترمت حقوق السلطان ورعاياه وسفنه وأعلامه ، وأبدى أسفه لتعجل الدولة العثمانية الأمر ، وإعلامها الحرب على فرنسا ، وأعرب عن أمله فى قيام المفاوضات سريعًا بين الطرفين ، إما عن طريق سفير عثمانى يصل إلى باريس ، أو عن طريق مندوب يصل إلى مصر .

---

(١) عمر عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث ، ص ٥٧ .

وهكذا وضع بونابرت قبل ذهابه من مصر ، أسس سياسية جديدة يمكنها أن تغير الموقف في صالح فرنسا بشكل عام ، وفي صالح الحملة الفرنسية في مصر بنوع خاص[١] .

وكذلك ترك بونابرت رسالة خاصة إلى أعضاء الديوان ، ذكر لهم فيها أنه ذهب إلى فرنسا من أجل " راحة أهل مصر ، وتسليك البحر ، فيغيب نحو ثلاثة أشهر ، ويقدم مع عساكره " والواقع أن عملية سفره من مصر بهذه الطريقة قد أثارت دهشة المصريين ، خاصة وأنهم كانوا يعلمون بمحاصرة سفن الأسطول البريطاني للسواحل المصرية .

وترك بونابرت رسالة ثانية لكليبر ، عن الأحوال العامة في مصر ، وأعطاه فيها التوصيات اللازمة ، وهي رسالة هامة ، شرح له فيها اضطراره للإسراع بالسفر قبل أن تعود السفن الإنجليزية أمام السواحل ، وترك له بيانًا بالشفرة لكي يتراسل به مع الحكومة ، وبيانًا ثانيًا لمراسلته هو ، وطلب إليه أن يوفد الأفندي الذي كان قد أسره في موقعة أبي قير ، وهو رشيد أفندي الكاتب بالديوان الهمايوني ، برسالته التي كتبها إلى الصدر الأعظم يعرض عليه فيها أمر الصلح .

وكان بونابرت يعرف دقة موقف كليبر في مصر ، فصرح له بأن يتفاوض مع الدول العثمانية في أمر عقد الصلح[٢] .

ونصح بونابرت كليبر بأن يعمل على كسب ثقة العلماء والمشايخ في القاهرة ، حتى يحصل على ثقة الأهالي . وأشار عليه بالاستمرار في عمل الاستحكامات اللازمة للاسكندرية والعريش ، وإقامة خطوط تحصينات واستحكامات عند الصالحية ، إذ أنها مفاتيح البلاد ، ونصحه بالتريث في إدخال الإصلاحات على نظام الضرائب ، والتريث في عملية تحصيلها . كما أوصاه باعتقال خمسمائة أو ستمائة من المماليك ، أو من رهائن العرب ، ومشايخ البلاد أو العمد وإرسالهم إلى فرنسا ، في حالة استئناف المواصلات البحرية ليبقوا بها سنة أو سنتين . وهكذا لم ينس بونابرت وقت سفره من مصر ، إعطاء كل التوجيهات اللازمة ، وكل السلطات المطلوبة لكليبر ، حتى يفيد منها إلى أقصى درجة ممكنة ، من أجل فرنسا أولاً ، ومن أجل الحملة الفرنسية الموجودة في مصر ثانيًا [٣].

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٤١ .

(٢) نفسه ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٤٤ .

وبعد سفره ، دخلت الحملة فى مرحلة جديدة من تاريخها ، وكانت مرحلة جديدة كذلك فى تاريخ مصر الحديثة .

اتفاق العريش سنة ١٨٠٠ :

مع نبأ وصول بونابرت إلى فرنسا ، أخرت حكومة الإدارة إرسال مبعوثها المكلف باستئناف المفاوضات مع العثمانيين - ديكورش دو سانت - كروا - ومن الواضح تمامًا أن بونابرت يقدم صورة متفائلة نسبيًا لوضع جيش الشرق . وهو يوافق على مشروع بعثة ديكورش ، ويدعو إلى إرسال تعزيزات (يجرى قبول ذلك من حيث المبدأ على الرغم من الافتقار إلى القوات والمال والسفن) . ويحدد ماكان قد أملاه على كليبر : عقد مفاوضات مع العثمانيين بهدف كسب الوقت ، وتقديم وعد لهم برد مصر عند عقد الصلح الشامل والاحتفاظ بها حتى ذلك الحين كأداة موازنة تجاه انجلترا [١].

ولكن كليبر نظر إلى الموقف فى مصر ، بمنظار أسود ، فقد اعتقد أن مصير الحملة المحقق إلى الفشل : فخزانة خاوية ، ومرتبات الجند متأخرة ، والجيش العثمانى على الأبواب ، والمصريون متحفزون للثورة ، وحصار الإنجليز قوى ، وروح الجند ضعيفة . وكان كليبر - وهو الجندى الشجاع - يعز عليه أن يظل مع جنده محصورين فى مصر وفرنسا فى حاجة إلى سيوف أبنائها . لهذا قرر كليبر - منذ تولى القيادة العامة - أن يدعو العثمانيين إلى مفاوضات ، وكان مستعداً لأن يسلم بالجلاء العاجل عن مصر . وليس من شك فى أن العثمانيين - وقد هزموا فى الشام وعلى ساحل مصر وأخفقت محاولاتهم النزول فى أبى قير ودمياط - قد رحبوا برغبة كليبر . ودارت مفاوضات العريش بين بعض قطع الأسطول الإنجليزى فى شرقى البحر المتوسط ، ولكنه لم يكن مندوبًا رسميًا من قبل حكومته ، ولكنه اعتقد أن من صالح بلاده أن يجلو الفرنسيون عن مصر صلحًا قبل أن تضطر انجلترا إلى التقدم لإخراجهم عنوة ، وقد ثبت أن العثمانيين وحدهم غير أكفاء لهذه المهمة . وكان سيدنى يود كذلك - بتدخله فى المفاوضات - أن يعمل لحصرها فى موضوع مصر فقط فلا تتعداه إلى موضوع إنهاء الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسا . وكان قائد البحر الإنجليزى يود لو أضاف إلى مركزه البحرى دوراً سياسيًا ينعش به المجد الذى كسبه أمام حصون عكا [٢].

---

(١) هنرى لورانس وآخرون ، الحملة الفرنسية على مصر ، ص ٤٤٨ .

(٢) حسن عثمان ، ومحمد توفيق ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

وتقضى اتفاقية العريش بجلاء الفرنسيين عن مصر بكامل سلاحهم وعتادهم وعودتهم إلى فرنسا على نفقة الدولة العثمانية دون أن يتعرض لهم أحد فى البحر . وشرع الفرنسيون فعلاً يخلون بعض المواقع استعداداً للجلاء ، كما شرع العثمانيون يتأهبون لدخول مصر ، ونزلت قوة إنجليزية فى ميناء السويس .

على أن الحكومة الإنجليزية - وقد بلغها أمر المفاوضات - كانت ترى الموقف رأيًا آخر : كانت تخشى أن يعود الجيش الفرنسى المحصور فى مصر إلى ميادين الحرب فى أوروبا فترجح كفة الجيوش الفرنسية المحاربة ، ولهذا فضلت الحكومة الإنجليزية أن يبقى الفرنسيون بمصر ، أو يسلموا أنفسهم كأسرى حرب . وأرسل القائد العام للأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط بلاغًا بذلك إلى كليبر أعتقد أن فى الأمر خيانة من جانب الحكومة البريطانية ورفض الجلاء وهزم العثمانيين المتجمعين لدخول القاهرة فى عين شمس (٢ مارس ١٨٠٠) .

وكان فريق من جيش الصدر الأعظم ومماليك إبراهيم بك قد دخلوا القاهرة وأثاروا أهلها على الفرنسيين ، وقد اعتقد المصريون أن حكم الفرنسيين قد آذن للزوال . واستخدم الفرنسيون العنف فى القضاء على ثورة القاهرة « الثانية » .

وعلى الرغم من وصول موافقة الحكومة الإنجليزية على اتفاقية اشترك فى التمهيد لها أحد قوادها فإن كليبر - وقد وصلته أخبار أنقلاب برومير - تشبث بالبقاء فى مصر ، وانصرف إلى إجراء بعض إصلاحات إدارية ومالية . ولكن لم يتسع الوقت لتنفيذها إذ طعنه « سليمان الحلبى » طعنة قاتلة فى ١٤ يونيو ١٨٠٠م [١].

٧ - منو والجلاء عن مصر :

تسلم القيادة العامة لجيش الشرق عقب مقتل كليبر أقدم قواد الحملة ، ثم وصل قرار بونابرت تثبيته فى هذا المنصب . ولم يكن منو يتمتع بكفاية عسكرية سواء فى فرنسا أو فى مصر تكسبه احترام الضباط والجند ، ذلك لأنه قضى أكثر حياته فى مناصب إدارية . ومنذ وصلت الحملة إلى مصر عين منو حاكمًا لرشيد حتى يونيو ١٨٠٠ حين نقل قائد لموقع القاهرة. وقد أنف أكثر الضباط أن يعملوا تحت أمرة هذا القائد « الإدارى » الذى لم يخض المعارك ولم يكسب له فى القتال مجداً . هذا إلى أنهم لم يرتاحوا لآراء منو وسياسته فى حكم البلاد ،

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

فقد كان منو من الرجال الذين استهواهم حب الاستعمار ، وكان يرى أن مصر خير مستعمرة تستطيع بتنوع مواردها أن تعوض فرنسا عن مستعمرات الأنتيل ، وكان منو يثق فى نجاح الحملة وفى قدرة فرنسا على الاحتفاظ بمستعمراتها الجديدة والقيام على استغلالها ، وأظهر منو - منذ كان حاكمًا فى رشيد - تحمسه للبقاء فى مصر ، فكان يرسل إلى بونابرت التقارير والمذكرات عن موارد البلاد والسياسة التى ينبغى انتهاجها لحكم المصريين والوسائل اللازمة لإيجاد علاقات تجارية بين مصر وداخل أفريقية ، وفى رشيد أعلن منو إسلامه وتزوج بسيدة من أهلها . وعلى أثر توليته القيادة أعلن بجلاء للضباط والجند عزمه على البقاء بمصر . ودعا اتفاقية العريش « تسليمًا » من كليبر . وكان هذا مدعاة لانقسام الضباط والجند بين أنصار البقاء وأنصار الجلاء ، وقد فعل هذا الانقسام فى التعجيل بنهاية الحملة [(١)].

وكانت انجلترا قد واصلت عدائها لفرنسا بشكل عام ، وعدائها لوجود القوات الفرنسية فى مصر بشكل خاص ، وكان نزول الحملة الفرنسية إلى مصر قد أظهر أهمية موقع مصر الجغرافى ، وبصفته مفرق هام للطرق والمواصلات بين الشرق والغرب ، وبصفته مركزاً يمكن للدولة المسيطرة عليه من أن تقول كلمة لها وزنها فى حوض البحر المتوسط ، ولم تكن أهمية مصر بالنسبة لبريطانيا تقتصر على مجرد الرغبة فى إخراج الحملة الفرنسية منها ، بل كانت تمتد كذلك إلى إمكانية وضع بريطانيا أقدامها فى مصر كنقطة ارتكاز يمكنها أن تفيد منها فى عملياتها الاستراتيجية اللازمة لاحتفاظها بمناطق استغلالها فى الشرق الأقصى . ولذلك فإن بريطانيا قد اختارت أن تعمل في مصر إلى جانب الدولة العثمانية ، حتى تحصل بالود على تلك المزايا التى كانت الحملة الفرنسية قد فشلت فى الحصول عليها بالقوة [(٢)].

انصرف منو إلى العناية بحالة البلاد ، فقد أخذ يجبى الباقى من الغرامة التى فرضها كليبر ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة ، فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وأرباب الحرف ، وعهد إلى الفرنسيين أمر تحصيل الضريبة الجديدة إلى مشايخ الحارات الساكنين بالمدينة[(٣)] . وجدد ديوان القاهرة وكان قد أهمل اجتماعاته منذ موقعة عين

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٤٩٦ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ ٢ ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

شمس وثورة القاهرة ، وفكر فى إلغاء نظام الالتزام . وأصدر قراراً بإصدار صحيفة عربية تدعى " التنبيه " ، ولكن تطور الموقف لم يفسح له المجال لتنفيذ مشروعاته . وقد لاح أن الصلح العام وشيك الوقوع - أن من من صالحها إجلاء الفرنسيين عن مصر - كما سبق القول- وكانت تخشى أن ينجح بونابرت - بعد أن فشلت محاولة " جانتوم " فى يناير ١٨٠١م- فى إمداد مواطنيه فى مصر بالعداد والرجال أو فى إقناع العثمانيين بالانسحاب من محالفة انجلترا والروسيا وخاصة بعد أن تغير موقف القيصر « بولس » من عداء فرنسا إلى صداقتها. ولما كانت الحكومة الإنجليزية قليلة الثقة فى كفاية العثمانيين العسكرية ، قررت أن تقوم بدور فعال فى إجلاء الفرنسيين . وضع الإنجليز والعثمانيون خطة محكمة لمهاجمة مصر من نواح متعددة : من ناحية الشمال بجيش إنجليزى عثمانى ، ومن ناحية الشرق بجيش عثمانى ومن الجنوب بحملة إنجليزية هندية تسيرها حكومة شركة الهند الشرقية فى البحر الأحمر ثم تنزل بالقصير وتتقدم نحو القاهرة[١] .

وقد وصلت هذه الحملات كلها واشتركت فى القتال ، ماعدا الحملة الهندية الإنجليزية فقد وصلت بعد أن سلم الفرنسيون . ولكن حضور هذه الحملة إلى مصر من الهند أمر دلالته : فهو يدل على يد الارتباط بين المستعمرات البريطانية فى الشرق ومصر كمركز متوسط فى حلقة المواصلات الإمبراطورية [٢].

ارتكب منو خطأ عسكريًا فاحشًا بتقسيم قواته ، خرج بجزء منها للدفاع عن الاسكندرية وأرسل جزءاً آخر إلى بلبيس وآخر إلى دمياط ، وترك بقية القوة بقيادة بليار للدفاع عن القاهرة . واستطاع الإنجليز أن ينزلوا فى أبى قير وهزموا الفرنسيين فى كانوب فى ٢١ مارس ١٨٠١م ، واعتصم منو بالإسكندرية وقنع الإنجليز بترك قوة لحصارها وقطعوا البرزخ الفاصل بين مريوط وأدكو وتقدموا إلى القاهرة .

ويزداد موقف الفرنسيين حرجًا وتزداد روح جندهم المعنوية ضعفًا : فالمساعدة التى مناهم بها بونابرت - الذى تولى منصب القنصل الأول فى فرنسا - لم تصل ، والصدر الأعظم يقترب من القاهرة ، والقوة الإنجليزية الهندية أبحرت من بومباى وتوشك أن تبلغ القصير -

---

(١) حسن عثمان ، المجمل فى تاريخ مصر ، ص ٢٩٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩٧ .

وستعبر الصحراء إلى قنا ثم تتجه شمالاً فى وادى النيل ، وستنضم إليها قوة محاربة قامت من رأس الرجاء الصالح ، ومراد بك يموت وهو فى طريقه إلى نجدة الفرنسيين ويعتقد مماليكه أن حكم الفرنسيين إلى الزوال فينحازون إلى الإنجليز .

وإزاء هذا كله آثر بليار قائد حامية القاهرة - وكان من أنصار الجلاء - التسليم بشروط اتفاقية العريش (يونيو ١٨٠١م) وشدد الإنجليز حصار الاسكندرية فاضطر منو إلى التسليم بهذه الشروط فى سبتمبر عام ١٨٠١م ، وعلى هذا النحو تم جلاء الفرنسيين عن مصر [١].

نتائج الحملة الفرنسية على مصر :

وقد كان لهذه الحملة الأثر الأول فى تكوين مصر الحديثة إذ قضى الفرنسيون على فرسان المماليك فمكن ذلك محمد على فيما بعد من القضاء عليهم ، خصوصًا وأن السلطان نفسه كان يريد التخلص من نفوذهم فأصدر فى هذه الآونة قراراً بمنع استجلاب المماليك إلى مصر حتى لايتمكن زعماؤهم من تجديد قواتهم التى أنهكتها المعارك [٢].

ولاريب أن وفود طائفة من العلماء إلى مصر للتنقيب عن اثارها والتعرف على أسرار طبيعتها المجهولة قد أيقظ فى المصريين روحًا جديدة ، فقد كان حملة العلم فيهم حملة الشرع وكانوا يتوهمون أنهم محيطون بالعلوم كافة ، فلما رأوا « الفلكيين » وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيأة والنقوشات والرسومات والمصورين ، والكتبة والحساب والمشئين » ورأوا المكتبة الجديدة التى أنشأها الفرنسيون وما حوته من المصنفات ، وترحيبهم بكل من يريد المراجعة من المصريين وخصوصًا إذا رأوا التجارب العلمية الجديدة وغير ذلك ، ورأوا المطبعة التى أتى بها بونابرت ، والصحيفتين اللتين كان يصدرهما ، ورأوا المصانع والمنشآت الحديثة عداهم شىء من الدهشة وحب الاستطلاع [٣].

وأنشأ بونابرت دواوين أو مجالس مؤلفة من كبار العلماء والتجار ، وممثلى الطوائف ، ومشايخ الحرف ، للنظر في الشئون العامة ، وبذلك كان بونابرت أول من أدخل المبدأ النيابى فى مصر ، وعلينا أن نذكر أن العلماء والمشايخ قد اشتد ساعدهم من ذلك الوقت وكان لهم

---

(١) حسن عثمان ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

(٢) محمد صبرى ، تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٣) محمد صبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٥ .

فيما بعد أثر كبير فى اختيار محمد على لولاية مصر وإرغام الدولة العثمانية على تعيينه سنة ١٨٠٥م[١] .

دعمت الدواوين فى أقاليم مصر تنفيذاً لأمر بونابرت فى ٢٧ يوليو عام ١٧٩٨م ، وكان كل ديوان يتألف من سبعة أعضاء لإدارة مصالح الأقاليم ونظر الشكاوى وفض المنازعات ومعاقبة المفسدين والخطرين ومعاقبتهم وحفظ الأمن داخل القرى وبين القرى المجاورة . أما الإدارة المالية فقد عهد بها إلى « مباشر » ومعه وكيل فرنسى لجباية الأموال والضرائب وكافة الإيرادات . وفى ٢٠ أكتوبر من نفس العام صار الديوان يتألف من تسعة أعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة من علماء وأئمة ومشايخ البلاد وأكابر وأعيان التجار والصناع الذين يعينهم قومندان الإقليم ولكل ديوان الرئاسة فى الإشراف على القضاة ومشايخ البلاد على أن يرأس ديوان القاهرة دواوين الأقاليم ، وقد ألغى منو هذه الدواوين وجعل على رأس كل إقليم قائداً فرنسياً [٢].

أما الأثر الاجتماعى ، فإن واقع الأمر أن الفرنسيين فى مدة إقامتهم لم يحاولوا بتاتًا أن يتعرفوا إلى المصريين ، أو يتغلغلوا فى أوساطهم ، حتى يقفوا على حقيقة شعورهم ، وماكان يجول بأذهانهم ، أو ماكانت تحدثه « إصلاحاتهم » العديدة ، والسريعة التى أرادوا منها إلى جانب الحصول على المال لسد نفقات الحملة « أن يخلقوا من عاصمة البلاد بلداً أوروبيًا يضارع عاصمتهم باريس فى بهائها ورونقًا ، وكثرة ملاهيها (قهاويها) وأنديتها وملاعبها ، حتى يكفلوا لجنودهم ورجالهم عيشًا هنيئًا سعيداً ، وفاتهم أنه من المتعذر على حكومتهم الجديدة أن تغير أخلاق القوم وعاداتهم ومادرجوا عليه من أساليب العيش القائمة على التمسك بالتقاليد الإسلامية من عصور قديمة بين طرفة عين وانتباهتها . وفاتهم أن هذه « الإصلاحات» التى نظر إليها المصريون كما ينظرون إلى « البدع » وكل أمر مستهجن ممقوت ، إنما تتعارض مع ماكانوا يدعونه ويذيعونه عن إسلامهم واحترامهم لشعائر الدين الحنيف ، ويحاولون إقناع المصريين بأنهم كانوا من حماته ومن المدافعين عنه[٣] .

---

(١) محمد صبرى ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

(٢) زين العابدين شمس الدين نجم ، إدارة الأقاليم فى مصر ١٨٠٥ - ١٨٨٢م ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص ١٧ - ١٨ .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، عبد الله جاك منو ، وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٥٥٢ - ٥٥٣ .

ولاجدال فى أن بعض هذه الإصلاحات التى تستلزمها عناية الفرنسيين بشئون الصحة العامة فى القاهرة والمدن الكبرى خصوصًا ، حرصًا منهم على عدم انتشار الأوبئة وفتك الأمراض الخطيرة بجنودهم ، كالطاعون والزهرى والرمد وغير ذلك ، كانت إصلاحات ضرورية ، ويصيب المصريين من إجرائها كل فائدة . ولكن تفكير بونابرت وقواده فى المحافظة وعلى سلامة الجنود ورجال الحملة وعلمائها قد طغى على كل تفكير فيما قد ينجم عن هذه الإصلاحات من نتائج يقع أثرها على القاهريين وأهل المدن عمومًا ، ولعل أكبر ما يؤخذ على الفرنسيين فى هذا الشأن أنهم حاولوا أن يفرضوا فرضًا على المصريين نوعًا من الحضارة الأوروبية كان مقضيًا عليها بالفشل لسبب بسيط ظاهر ، هو أن بونابرت وأنصار التجربة الاستعمارية فى مصر لم يكن فى وسعهم أن يعنوا بغير مظاهر هذه الحضارة الأوروبية المادية فى وقت كانت بحوث علمائهم لاتزال فى مراحلها الأولى ، ولم تكتمل بعد تلك الدراسات التى كان من المنتظر أن تكون أساسًا لكل إصلاح يراد إداخله إلى هذه البلاد ، حتى يثمر ثمرته المنشودة بفضل اطمئنان المصريين إليه وقبولهم له[١] .

ولقد كان من مقتضيات تلك السياسة الإسلامية الوطنية التى وضع بونابرت أصولها وأتباعها خلفاؤه ، أن يحتفل الفرنسيون بأعياد أهل البلاد الدينية ، ويحترموا شعائرهم وعاداتهم ، وأن يحاولوا جذب قلوب المصريين إليهم ، باستمالتهم والتقرب منهم ، وعقد أواصر المحبة والصداقة مع كبرائهم ومشايخهم ، ومحاولة الاختلاط مع عامتهم ، حتى يطمئن إليهم سواد الشعب ويرضى الناس بما قدر عليهم .

فكان لامناص من أن ينتهز هؤلاء فرصة الاحتفال بالأعياد الدينية والمواسم إلى جانب أعيادهم الفرنسية ، حتى يخففوا من حدة بلاياهم بالانطلاق وسط صخب الموالد وضجيج الأعياد والاحتفالات ، يتشاجرون مع العامة والدهماء ، بل يتقاتلون معهم ، ويزاحمون أدعياء « الولاية » وغيرهم من الدراويش و « البلة » فى شرورهم ومفاسدهم يعتدون على النساء ويستشيرون بفعالهم أهل النخوة والشهامة من القاهريين فيقتل من يقتل ويقتلون من يقتلون ، ويتدخل (برطلمين) بجماعته الموهوبة المكروهة « لقمع الفتنة » وإعادة النظام[٢].

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ١٩٥٢ ، ص ٥٥٣ .

(٢) نفسه ، ص ٥٥٥ .

وأما أعياد المصريين وموالدهم المشهورة التى شهدها الفرنسيون مدة وجود الحملة بهذه البلاد وحرصوا على الاحتفال بها ، وارتكبت فى أثنائها كل هذه الشرور والمفاسد ، فكانت الاحتفال بشهر الصوم والعيدين الصغير والكبير ، وإمارة الحج والكسوة الشريفة ، والمولد النبوى ، ومولد السيدة زينب ، ومولد السيد على البكرى ، ومولد الحسين ، والاحتفال بوفاء النيل ، وعلاوة على ذلك احتفل الفرنسيون بعيد جمهوريتهم كما أكثروا من إقامة الزينات فى كل مناسبة ، فاحتفلوا بذكرى واقعة ريفولى وعند رجوعهم من حملة الشام ، ونظموا مهرجانات عدة كلما عمد « مخترعهم » كونتية إلى إطلاق « بالونة » فى الجو ، وعملوا « شنكًا » وضربوا مدافع كثيرة كلما أتتهم الأخبار بانتصار بونابرت فى حملة الشام أو وصلت إحدى سفنهم إلى الشواطىء المصرية (١).

ونجم عن شدة اشتياقهم إلى خلق هذه العاصمة المرحة أو باريس الصغيرة على حد قولهم ، أو القاهرة الخليعة - على نحو ما اعتقد الشيخ الجبرتى ونظراؤه ولاشك من عقلاء المصريين - أنه لم يمض زمن طويل على وجودهم بالقاهرة حتى كانت القهاوى والمطاعم (ذات الموائد والكراسى على الطراز الفرنسى ، بدلاً من الجلوس على المصاطب أو المقاعد الحجرية) ثم (مشارب البيرة) - أو (البارات) قد أنشئت فى أحياء القاهرة وفتحت أبوابها تستقبل الفرنسيين ومن سار سيرتهم من أفراد الطوائف التى رحبت بهذا النوع الجديد من الحياة . وافتتح أحد صنائع الفرنسيين (قهوة) فى حى المشهد الحسينى ، يسهر الناس فيها حصة من الليل ويعلو صياحهم ، وصخبهم ، وفضلاً عن ذلك فقد افتتح أحد مشارب البيرة فى أهم الطرق بين القاهرة ومصر العتيقة . وأقيمت فى هذه المشارب والمطاعم حفلات رقص المخاصرة وصدحت الموسيقى ، وكان من علامات التحول الجديد التى سر لها الفرنسيون كثرة اللافتات التى وضعها أصحاب المحلات التجارية وغيرها على محالهم ، وكانت الكتابات التى على اللافتات باللغة الفرنسية (٢).

وأقام الفرنسيون مسرحًا لتمثيل الروايات « الكوميدية والتراجيدية والأوبراكوميك » ، وصادفتهم كذلك فى مبدأ الأمر صعوبة العثور على الممثلات ، فصار الرجال يتزيون بزى النساء ، ويقومون بأدوار السيدات فى هذه التمثيليات واستمر الحال على ذلك فترة من الزمن

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .

(٢) نفسه ، ص ٥٧١ .

حتى رضيت بعض الفرنسيات الاشتراك فى التمثيل ، وقد ظل هذا المسرح قائمًا حتى أواخر الحملة الفرنسية [١].

وكان تأثير الحملة الفرنسية على مصر كبيراً من وجهة النظر الاقتصادية ، ذلك أن مجىء الحملة إلى مصر أدى إلى قيام الأسطول البريطانى بفرض الحصار على السواحل المصرية ، الأمر الذى أدى إلى منع الاستيراد والتصدير بطريقة شبه كاملة من ناحية البحر ، رغم استمرار العلاقات التجارية مع الأقاليم المجاورة بطريق البر ، وإن كانت هذه المبادلات البرية قد انخفضت فى قيمتها كذلك بدرجة محسوسة نتيجة لتغيير الوضعية العامة فى البلاد ، ولاستمرار العمليات العسكرية . ولاشك فى أن هذا العامل قد أثر على التجار ، وبشكل جعلها تعيش فى أزمة حادة ، وجعل التجار ينظرون إلى هذه الفترة على أنها فترة بلاء[٢].

وكان الفرنسيون قد حضروا إلى مصر ، وهم يحملون بثرواتها ، وبالمغانم الكثيرة التى سيحصلون عليها من البلاد . وجاء انتقال الحملة عن فرنسا ، بعد موقعة أبى قير البحرية ، عاملاً يدفع المصريين إلى ضرورة الحصول على مايلزمهم من أموال من المصريين أنفسهم ، وأخذ ذلك شكل الغرامات والضرائب والإتاوات ، حتى تتمكن الحملة من الانفاق على نفسها . ومع استمرار الحملة فى مصر ، زاد احتياجها للأموال ، وزاد احتياجها إلى انتهاز كل فرصة لفرض الإتاوات . وكانت الثورات ذريعة لكى يضاعف الفرنسيون الضرائب ، بفرضهم غرامات حربية جديدة على الأهالى . وقد أدى ذلك ، سياسيًا ، إلى تذمر التجار والملاك من الفرنسيين ، ولكنه أدى من وجهة النظر الاقتصادية ، إلى تقليل سيولة رأس المال الموجود فى أيدى التجار، وخوف الأهالى من إظهار مالديهم من أموال ، الأمر الذى انتهى إلى ركود الأموال ، أى إلى ضائقة مالية يقاسى منها كل المصريين .

وكانت الحملة الفرنسية تمثل ، من وجهة النظر الاقتصادية ، قوة تمكنت فى بلادها من توجيه ضربة قوية إلى النظام الإقطاعى ، وتمهد الطريق أمام سيطرة الطبقة الوسطى ، أى الطبقة الرأسمالية ، وكان مجيئها لمصر يحمل هذا المعنى ، ويرسم لها القوى التى كان من الواجب عليها أن تعاديها ، والقوى التى كان عليها أن تتعايش معها ، حتى تتمكن من أن

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، المرجع السابق ، ص ٥٧٢ - ٥٧٣ .

(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧ - ١٨٠٥م ، الاسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٥٢٦ .

تتكامل معها ، أو أن تقوم بعملية استغلالها ، وفى هذا النطاق ، نجد أن الحملة الفرنسية قد نظرت إلى المماليك نظرة عداء ، وهو عداء حقيقى ، من وجهة النظر الاقتصادية ، إذ أن تنظيمهم لحكم مصر واستغلالها كان يقرب من النظام الإقطاعى ، حتى وإن كان نظامًا إقطاعيًا التزاميًا ، عن قربه إلى النظام الحر ، النظام الرأسمالى ، الذى تسود فيه الطبقة الوسطى[(١)] .

وعملت الحملة الفرنسية على أن تمول نفسها فى مصر عن طريق الضرائب ، وإن كانت قد فرضتها بطريق مباشر ، وفى شكل غرامات أو إتاوات ، وكان هذا النظام يقرب فى أسسه من نظام التمويل الرأسمالى ، وإن كانت قد احتفظت ببعض الأسس السابقة ، واستعانت ببعض العناصر المملوكية . وفى هذا التسلسل نجد أن الجنرال منو قد فكر فى ضرورة وضع نظام ضرائبى جديد للبلاد ، ترتبط فيه الضرائب بالأرض ، وتدفع مباشرة إلى خزانة الدولة ، دون وساطة الدولة أو صاحب الالتزام . ولو نفذ هذا المشروع لكان ضربة قوية تصيب النظام القديم فى أهم أساس من أسسه ، وهو الأساس الاقتصادى ، وتؤدى بالتالى إلى إضعاف نفوذ السادة فى مناطق الإنتاج الزراعى ، وإلى القضاء على سطوتهم[(٢)].

وعلينا أن نذكر أن مجىء ٣٦,٠٠٠ مقاتل إلى مصر ، قد خلق سوقًا جديدة ، لإشباع ما يحتاجه هؤلاء الرجال من سلع وخدمات ، ودفع بعض المصريين ، حتى وإن كان أكثرهم من النصارى والشوام والأقباط ، إلى النزول إلى هذا المجال ، وإلى فتح المطاعم ودور السهر واللهو ، وتقديم ما يلزم من خدمات ، وكان هذا تطورًا لبعض قطاعات الاقتصاد الموجودة فى مصر فى ذلك الوقت ، وحتى إذا كانت الحملة الفرنسية قد امتصت جزءًا من رأسمال المصريين السائل بالضرائب والإتاوات ، فإنها عادت إلى إنفاق جزء منه على مايلزمها فى نفس البلد ، وأدى ذلك إلى تغلغل اقتصادى ، وإلى حركة إلى أعلى وإلى أسفل بين أصحاب رؤوس الأموال ، وارتفاع البعض ، وهم من يتعاملون مع الفرنسيين ويقدمون لهم الخدمات ، وإلى انخفاض البعض الآخر ، وهم من كانوا يصرون على التعامل فى نفس نطاق نشاطهم ، وهى حركة ستبدأ من هذا العصر ، وتؤثر على توزيع رؤوس الأموال فى السوق خلال فترات

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢٧ .

الاحتلال التى ستشهدها مصر فى تاريخها الحديث . وشهدت القاهرة حركة نشاط واضح فى ذلك الوقت فى كل ما يتعلق بتسلية جنود الاحتلال ، وانتشرت فيها ظاهرة ركوب الخيل والبغال والحمير ، التى أعجب بها الفرنسيون ، أو استخدموها وسيلة للتسلية بدلاً من الملل فى شوارع القاهرة[١] .

ولقد شعر المصريون بشراهية الفرنسيين فى جمع الأموال منهم ، الأمر الذى أدى إلى تحول التجار إلى مجموعات معادية للحكم الأجنبى . ورغم خوف التجار من الفوضى ومن الاضطرابات ، فإنهم قد شاركوا العناصر الوطنية فى الثورة على الحكم الأجنبى ، وأسهموا فى تمويل هذه الثورة ، والإنفاق على الثائرين . وهذا الضغط الفرنسى من أجل المال سيدفع بالتجار إلى الضجيج والشكوى ، وإلى شعورهم بأنهم أصحاب مصلحة ، عليهم أن يدافعوا عنها ، حتى لايكلفوا ما لاطاقة لهم به ، وأدى ذلك إلى انصهارهم ، مع بقية قطاعات المجتمع ، فى اتخاذ موقف معادى للحملة الفرنسية ، واتخاذ مكانهم القومى فى مواجهة قوات احتلال أجنبى .

ولم تسمح الفترة القصيرة التى بقيتها الحملة الفرنسية فى مصر بإنشاء مشروعات اقتصادية جديدة لها أهميتها بالنسبة للبلاد . حقيقة أن الحملة قد شعرت بأن عليها أن تعتمد على نفسها ، وعلى البلاد ، وبخاصة بعد معركة أبى قير البحرية ، ولكن انشغال بونابرت فى حرب الشام ثم اضطراره إلى العودة إلى فرنسا ، وتولى كليبر قيادة الحملة من بعده ، وكان من أنصار الجلاء عن مصر ، كل ذلك لم يسمح للحملة الفرنسية بوضع أسس لنشاط اقتصادى له قيمته من الناحية الإنتاجية فى ذلك الوقت . وتغير الحال بعد تولى منو الحكم ، وكان من أنصار البقاء فى مصر ، والاحتفاظ بها كمستعمرة فرنسية . ولكن ظروفه الخاصة وعلاقته بغيره من القواد ، وخوفه من المصريين من تعليم المصريين أسرار الصناعة ، حرم الحملة من أن تقوم بتجربة لصنع مايلزمها فى مصر ، وحرم مصر بالتالى من مشاهدة مثل هذه التجربة ، التى كانت ستفيد منها بلاشك[٢] .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٨ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

وبالإجمال فإن الحملة الفرنسية على مصر ، قد عملت على هز وقلقلة النظام الاقتصادي الموجود في البلاد ، وساعدت على هدمه دون أن تتمكن من وضع أسس لبنيان اقتصادي جديد ، وساعد ذلك على سيادة الفوضى والاضطراب وتسهيل عمل من يأتي بعدها [١] .

أما النتائج العلمية فقد قام علماء الحملة من علماء النبات والكيميائيين والمهندسين والجغرافيين والرسامين والجراحين والمستشرقين والأدباء والفنانين والميكانيكيين والاقتصاديين وكبار القواد العسكريين من أعضاء المجمع العلمي المصري ، وكان كل هؤلاء من أعضاء لجنة العلوم والفنون أو المجمع العلمي الذي أنشأه بونابرت في القاهرة [٢] .

وواقع الأمر أن ميادين نشاط هؤلاء العلماء كانت متعددة وطفقوا يدرسون آثار مصر القديمة وتاريخها وطبيعة أرضها وأجناسها ، وحيواناتها وطيورها وغلاتها الزراعية وصناعاتها وتجارتها وعادات أهلها ، وغير ذلك من الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجغرافية والجيولوجية ، وكل ما يتعلق بماض البلاد وحاضرها . واستطاع لوبير الأكبر ومساعدوه أن يضعوا خريطة دقيقة لها ، وكذلك حقق نوت وكورابوف مواضع أهم جوامع القاهرة وضواحيها ، وتمكن المذكورين الذين زاروا الأقاليم الشرقية من الوجه البحري أن يحققوا مواقع دمياط وبلبيس والسويس والصالحية ، ورسم الضابط سوهيت مجرى النيل من القاهرة إلى العطف واستكشف جيوفرى سنت هيلير الطريق بين القاهرة والصالحية وجزءاً من الطريق بعد الصالحية إلى الشام ، كما استطاع أن يجمع في أثناء رحلاته العديدة مجموعة من الحيوانات والطيور واهتم فضلاً بدلاً الحيوانات التي حفظها قدماء المصريين كالتمساح والثعابين والطيور ، وذلك عدا الأجسام البشرية التي عثر عليها في طيبة وسقارة [٣] .

وتم اكتشاف حجر رشيد ، وهو عبارة عن ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض ، وأرسل إلى القاهرة للمجمع العلمي لفحصه ودراسته واستطاع شامبليون بعد جهود أن يفك رموزه . وقد تبين أن النقوش المجهولة كانت كتابة ديموطيقية .

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٢٩ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٦١٢ .

(٣) نفسه ، ص ٦٢٦ .

على أن الصعيد بفضل ما ذخر به من آثار سرعان ما أصبح مجالاً واسعًا لنشاط علماء الحملة ، الذين رغبوا فى زيارة المعابد والتماثيل وبقايا المدن القديمة ودراسة آثارها[١] ، وزار علماء الحملة المنيا وملوى ، وهرموبوليس والأشمونين ومنفلوط وأسيوط وسوهاج ثم جرجا ، وقد رسم دينون آثار هرموبوليس (الأشمونين) ومنفلوط وأسيوط وسوهاج ثم جرجا ووصلوا إلى أسوان[٢] .

كما قام العلماء بجمع المعلومات الجغرافية والطبوغرافية التى تساعد على وضع خريطة مفصلة لمصر ، وشجع كل من الجنرال كليبر ثم الجنرال منو ، على الاستمرار فى هذا العمل ، خاصة وأن الجنرال منو كان يرغب فى عمل مسح تام للأراضى الزراعية فى مصر ، ويكون هذا المسح أساسًا لتنظيم الضرائب العقارية . وحملت الحملة مطبعتها معها إلى مصر ، وستكون هذه المطبعة فاتحة لمعرفة المصريين بشئون الطباعة وأهمية المطبوعات .

بالإضافة إلى ذلك كتاب « وصف مصر » الذى اشترك فى وضعه عدد كبير من العلماء ، كل فى نطاق دراسته وبحوثه التى تتعلق بتاريخ مصر الحديثة ، وجغرافيتها وأحوال أهلها وعاداتهم ، وثروتها الطبيعية . ونشر هذا الكتاب بعد عودة العلماء مع الحملة إلى فرنسا ، وتكفلت الحكومة الفرنسية بالإنفاق عليه . ويعتبر هذا الكتاب ثروة ضخمة بالنسبة لمن يرغب فى التعرف على مصر وقت مجىء الحملة الفرنسية إليها ، حتى بالنسبة للفترة التى تمتد منذ الفتح العثمانى للبلاد . وهو ثروة بالنسبة للأجانب ، وثروة بالنسبة للمصريين الذين يرغبون فى التعمق فى دراسة هذه الفترة[٣] .

وهكذا كانت للحملة الفرنسية نتائج كبيرة على مصر فى ميادين عديدة .

٩ - الموقف بعد خروج الحملة :

بعد أن خرجت القوات الفرنسية من مصر تصارع على السلطة فيها قوات أربع كل منها تريد أن يكون لها الغلبة وتستأثر بحكم مصر . أولى تلك القوات هى قوة انجلترا التى بذلت جهوداً جبارة لإخراج الفرنسيين من مصر إلى أن كللت هذه الجهود فى النهاية بالنجاح

---

(١) محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، ص ٦٣٥ - ٦٣٦ .

(٢) نفسه ، ص ٦٣٧ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٤٦ .

بانتصارها على قوات الحملة وطردها من مصر . وكانت انجلترا تود البقاء فى مصر ، ولكنها كانت تخشى أن يؤدى هذا العمل إلى إغضاب الدولة العثمانية ، وما قد يترتب عليه من زيادة تقربها من فرنسا . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإن بقاء قواتها بمصر قد يدفع نابليون إلى إرسال حملة فرنسية جديدة لإخراجهم منها . ولما كانت انجلترا لم تتخذ موقفًا محدداً إزاء تلك الأمور فقد أجلت التفكير فى الجلاء عن مصر إلى فرصة أخرى (١).

ومن المعروف أن انجلترا قد أرسلت قواتها لمصر استناداً إلى معاهدة التحالف التى كانت قد عقدتها مع الدولة العثمانية فى ٥ يناير ١٧٩٩م . وهى المعاهدة التى نصت على ضمان بريطانيا لاستقلال الدولة العثمانية وسلامة أراضيها . ولكن وجود القوات البريطانية فى مصر، وقيامها بدور فعال فى إخراج الفرنسيين من البلاد دفع الحكومة البريطانية إلى محاولة الإفادة من هذه القوات فى عملية الحصول على ميزات فى هذا الإقليم (٢)، وبعد جلاء الفرنسيين ومطالبة العثمانيين للإنجليز بالجلاء عن مصر ، لم يكن أمام انجلترا سوى قطاع المماليك ، أو بعض القطاعات الداخلية منه ، لكى تستند إليها ، وتتخذها ركائز لها ، وظهر موقف مماليك مراد بك بعد موت سيدهم بالطاعون فى سوهاج ، وهو يتحرك شمالاً لنجدة القوات الفرنسية ، واتصال مماليكه ، بالإنجليز ، نتيجة لمعرفتهم بانتهاء حكم الفرنسيين لمصر ومحاولتهم الاستناد إلى قوة خارجية جديدة يستندون إليها ، ماداموا قد شعروا بعداء كل من العثمانيين والمصريين لهم (٣).

أما الدولة العثمانية فإنها تطلعت إلى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف ، وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم مذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الإدارة .

أرادت الدولة العثمانية أن تستخلص مصر لنفسها ، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لاينازعوها سلطة الحكم فى البلاد فكانت تعليماتها للصدر

---

(١) محمد محمود السروجى ، ثورة ٢٣ يوليو جذورها وأصولها التاريخية ، ص ٤١ .
(٢) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٥٤ .
(٣) نفسه ، ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

الأعظم يوسف باشا ضيا تقضى بإبادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة أو إبعادهم عن مصر وإسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات السلطنة العثمانية [١].

كانت القوات العثمانية فى مصر مؤلفة من جيشين ، الجيش الأول وعددهم نحو ٢٥ إلى ٢٠ ألف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الإنكشارية وحرس الوزير والجنود الذين حشدهم فى سورية ، والمعسكر العام لهذا الجيش فى القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف والمنيا وأسيوط .

أما الجيش الثانى فكان مرابطًا شمال الدلتا بقيادة حسين قبطان باشا قومندان الأسطول العثمانى الذى كان راسيًا فى خليج أبى قير ، وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرناؤود والإنكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى الأسطول[١] .

أما المماليك فقد كانت قواتهم قد أصيبت بضربة شديدة نتيجة لمجيء الحملة الفرنسية إلى مصر . وكانت قوات المماليك هى التى حاولت جاهدة أن تزيد من سيطرتها على البلاد ، وعلى حساب سلطة العثمانيين ، منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ودخلت بذلك فى صراع طويل مع الدولة صاحبة السيادة ، وفقد المماليك الكثير من رجالهم فى أثناء عملية مقاومتهم للفرنسيين ، بعد أن فقدوا بضعة آلاف منهم فى المعارك التى تمكن بها الفرنسيون من السيطرة على البلاد . وتم ذلك فى وقت حاصرت فيه الأساطيل البريطانية سواحل مصر ، واستمرت فيه سيطرة الفرنسيين على البلاد ، وبشكل يحرم المماليك من استيراد عناصر جديدة يزيدون بها أعداد قواتهم . هذا علاوة على أن الدولة العثمانية نفسها كانت قد منعت تصدير عناصر الجركس إلى مصر ، حتى لايزيد من قوة المماليك ، وحتى تفيد الدولة نفسها من هذه العناصر فى قوات الفرسان الخاصة بها ، فكان الضعف النسبى إذن هو أول المظاهر التى ظهرت على قوات المماليك[٣] .

أما الظاهرة الثانية فكانت هى انقسام المماليك على بعضهم . وفى الوقت الذى انسحب فيه مراد بك إلى الصعيد ، ومنه إلى الواحات للاستمرار فى مقاومة الفرنسيين من داخل

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، جـ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩٧ .

(٣) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٥٨ .

مصر ، خرج منه إبراهيم بك من مصر إلى الشام ، وانضم إلى قوات الدولة العثمانية ، وهكذا يمكننا القول بأن المماليك قد انقسموا إلى قسمين الأول يحاول استعادة سيطرته على البلاد ، وانتزاعها من أيدى الفرنسيين ، والثانى يحاول الاستعانة بالعثمانيين على إخراج الفرنسيين من مصر ، ويقوم فى ذلك بدور التابع للدولة العثمانية .

وكان اتفاق مراد بك ، أمير البكوات المصرية فى الصعيد مع كليبر ، يعنى تحول هذا القطاع مؤقتًا من العمل على استقلال مصر إلى وصفية التابع للسلطات الفرنسية فى مصر ، وبهذا تحول المماليك ، نتيجة لضعفهم والضربات العسكرية التى نزلت بقواتهم إلى وصفية التابع لكل من العثمانيين والفرنسيين (١).

ولكن خروج الحملة الفرنسية من مصر كان يعنى تغيراً للحالة العامة للبلاد ، وعودة الأمور إلى ماكانت عليه مثل مجىء هذه الحملة . وشعر المماليك بأنهم كانوا حكام مصر سابقين وبأنهم كانوا قد أداروا سلطاتها منذ أزمان بعيدة ، فحاولوا إعادة سلطتهم إلى البلاد . وأغراهم الموقف ، ووجود الإنجليز إلى جانب العثمانيين ، على محاولة الحصول على كل السلطة لأنفسهم فى البلاد . وشعر المماليك بأن العثمانيين يرغبون فى تقليل نفوذهم فى البلاد، وحتى فى التخلص منهم بشكل نهائى ، ودفعهم هذا الشعور أو دفع بعضهم إلى محاولة الاستناد إلى القوات الإنجليزية لتثبيت أقدامهم فى مصر ، ورغم وجود القوات العثمانية (٢).

أما المصريين فكانت قوتهم أنهم أصحاب البلاد الفعليين ، وقد تصدت هذه القوة لجيش نابليون منذ أن وطئت أقدامه أرض البلاد ، فقاومته فى الاسكندرية وتتبعته فى الوجهين البحرى والقبلى ، وتحملت جزءًا من أعباء الحكم فى عهد الحملة ، وهم الذين قدموا التضحيات من الرجال ، فمنهم من أعدم ومنهم من شرد ومنهم من سجن ، وجد هؤلاء أن قوة الدولة العثمانية قد وهنت ، وأن سطوة المماليك قد ذهبت إلى غير رجعة ، وأن قوات انجلترا إن عاجلاً أو آجلاً سترحل عن البلاد ، فلابد من الاستعداد لهذا اليوم الذى يتولون فيه الحكم وتقرير مصير البلاد بأنفسهم خصوصًا وقد بدأت بعض الزعامات تخرج من بين صفوف

---

(١) جلال يحيى ، مصر الحديثة ، ص ٥٥٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥٥٨ .

المصريين وتساهم فى الأحداث التى مرت بها البلاد مثل السيد عمر مكرم والسادات والشرقاوى وغيرهم .

وقد فطن محمد على بثاقب نظره إلى خطورة هذه القوة الجديدة ، ورأى أن يحتضنها وأن يستغلها لصالحه وحده ، فأخذ يتودد للمصريين ويتقرب إلى زعمائهم من أمثال عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ الفيومى وغيرهم لتأييد سلطته فى مصر وكسب ثقتهم فيه . وقد آتت هذه السياسة ثمارها حينما قام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥م بإلباس محمد على حلة الولاية والمناداة به واليًا على مصر ، دون أن يصدر فرمان من الباب العالى . وهذا يدل على مدى ما بلغته اليقظة المصرية من قوة فى ذلك الوقت[١] .

---

(١) محمد محمود السروجى ، ثورة يوليو جذورها التاريخية ، ص ٤٢ .

المصادر والمراجع

أولاً : وثائق غير منشورة :

١ - دار المحفوظات المصرية بالقاهرة

- سجلات محكمة المنصورة .
- سجلات محكمة الاسكندرية .

٢ - دار الوثائق القومية بالقاهرة :

- دفاتر الالتزام .
- سجلات الروزنامة .
- سجلات الرزق
- سجلات محكمة إسنا .
- سجلات محكمة قنا .

٣ - أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية :

- سجلات محكمة الاسكندرية الشرعية .

٤ - أرشيف الشهر العقارى بالقاهرة :

- سجلات اسقاطات القرى .
- سجلات الديوان العالى .
- القسمة العسكرية .

ثانيًا : المخطوطات :

٥ - محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : اللطائف الربانية على المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية ورقمه ٨٠ تاريخ - دار الكتب المصرية .

٦ - تحفة الظرفاء فى ذكرى دولة الملوك والخلفا ، ويليه الفتوحات العثمانية للديار المصرية ورقمه ٦٨٩ / ٢٣٥ ج . مكتبة البلدية بالاسكندرية .

٧ - محمد بن محمد بن أبى السرور البكرى : الكواكب السائرة فى أخبار مصر القاهرة ، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٤١٩ .

٨ - الروضة الزهية فى ولاة مصر والقاهرة المعزية ، رقم ٢٢٦٦ - مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج .

٩ - المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية ، رقم ٥٤٢٤ تاريخ ، دار الكتب بالقاهرة.

١٠ - الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة .

١١ - مرعى بن يوسف الحنبلى : نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

١٢ - مصطفى الشافعى القلعاوى : صفوة الزمان فيمن تولى على مصر من أمير وسلطان. ورقمه ٤٥٦ تاريخ - مكتبة رفاعة الطهطاوى سوهاج .

١٣ - مؤلف مجهول : أخبار أهل القرن الثانى عشر الهجرى " تاريخ المماليك فى القاهرة"، ورقمه ١٣٤١ ، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

ثالثًا : المراجع العربية :

١٤ - إبراهيم حسن سعيد (دكتور) : البحرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك ، الاسكندرية ١٩٨٣ .

١٥ - ابراهيم بك حليم : تاريخ الدولة العثمانية العلية ، المعروف بكتاب التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، القاهرة ١٩٨٨ .

١٦ - ابراهيم زكى : الحالة المالية والتطور الحكومى والاجتماعى فى عهد الحملة الفرنساوية وفى عهد محمد على ، القاهرة بدون تاريخ .

١٧ - ابراهيم الصوالحى العوفى : تراجم الصواعق فى واقعة الصناجق ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٨٧ .

١٨ - ابراهيم طرخان (دكتور) : النظم الاقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٩ - ابراهيم طرخان (دكتور) : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢ / ١٥١٧ ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢٠ - ابراهيم عامر : الأرض والفلاح فى المسألة الزراعية فى مصر ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢١ - ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى " الشهير بابن دقمان : الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، بيروت ، بدون تاريخ .

٢٢ - ابراهيم المويلحى : الأرض والفلاح فى العصر العثمانى ، ضمن كتاب الأرض والفلاح فى مصر ، القاهرة ١٩٧٤ .

٢٣ - أحمد أحمد بدوى (دكتور) : رفاعة رافع الطهطاوى ، القاهرة ١٩٧٥ .

٢٤ - أحمد بدوى : تاريخ مصر الاجتماعى ، الاسكندرية بدون تاريخ .

٢٥ - أحمد أحمد الحتة (دكتور) : تاريخ الزراعة في عهد محمد على الكبير ، القاهرة ١٩٥٠.

٢٦ - أحمد تقى الدين المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٣٢٦هـ .

٢٧ - أحمد جلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، تحقيق الدكتور محمد فؤاد الماوى ، القاهرة ١٩٧٧.

٢٨ - أحمد بن زنبل الرمال : آخرة المماليك ، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ .

٢٩ - أحمد السعيد سليمان (دكتور) تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة ١٩٧٨.

٣٠ - أحمد شلبى عبد الغنى : أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة ، من الوزراء والباشات ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٧٨.

٣١ - أحمد فؤاد متولى (دكتور) الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع المصادر التركية والعربية المعاصرة ، القاهرة ١٩٧٦.

٣٢ - أحمد كتخدا عزبان الدمرداشى : كتاب الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، فى أخبار ماوقع فى عصر دولة المماليك والسناجق والكشاف والسبعة أوجاقات

والدولة وعوايدهم والباشا إلى آخر سنة ثمان وستين ومائة وألف ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، القاهرة ١٩٨٩.

٣٣ - إدوارد وليم لين : المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، القاهرة ١٩٧٦ .

٣٤ - استيف : النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٩ .

٣٥ - أمين سامى باشا : تقويم النيل وعصر محمد على ، القاهرة ١٩١٧.

٣٦ - أمين مصطفى عفيفى عبد اللاه (دكتور) تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥٣.

٣٧ - اندريه ريمون : فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٤ .

٣٨ - إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل ، ٢ جزء ، القاهرة ١٩٤٢.

٣٩ - توفيق الطويل (دكتور) : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٤٦.

٤٠ - جابريل بيير : دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة الدكتور عبد الخالق لاشين ، عبد الحميد فهمى الجمال ، القاهرة ١٩٧٦.

٤١ - جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى في مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، القاهرة ١٩٦٣.

٤٢ - ج . دى . شابرول : دراسات فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٦.

٤٣ - جلال يحيى (دكتور) مصر الحديثة « ١٥١٧ - ١٨٠٥ » الاسكندرية ، بدون تاريخ.

٤٤ - جمال الدين الشيال (دكتور) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى مصر فى عهد محمد على ، القاهرة ١٩٤٢.

٤٥ - تاريخ الترجمة فى عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٤٢ .

٤٦ - تاريخ مصر الإسلامية ، العصران الأيوبى والمملوكى ، القاهرة ١٩٦٥ .

٤٧ - مجمل تاريخ دمياط ، دمياط ١٩٤٧ .

٤٨ - تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

٤٩ - جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الرابع ، بيروت ، بدون تاريخ .

٥٠ - حسن عثمان (دكتور) ، محمد توفيق : تاريخ مصر فى العهد العثمانى «١٥١٧ - ١٧٩٨ » ، نشر فى كتاب المجمل فى التاريخ المصرى ، ضمن أعضاء هيئة التدريس ، رشراف الدكتور حسن إبراهيم ، القاهرة ١٩٤٢ .

٥١ - منهج البحث التاريخى ، القاهرة ١٩٧١ .

٥٢ - حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الإسلامى فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٣٨ .

٥٣ - المساجد ، الكويت ١٩٨١ .

٥٤ - زريجريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ، أثر الحضارة العربية فى أوروبا ، بيروت ١٩٨٦ .

٥٥ - زين الدين شمس الدين نجم (دكتور) إدارة الأقاليم « ١٨٨٢ - ١٩٠٥ » ، القاهرة ١٩٨٥ .

٥٦ - س . ب . جيرار : الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٩.

٥٧ - سعاد ماهر محمد (دكتورة) : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، الجزء الخامس، القاهرة ١٩٨٣.

٥٨ - سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .

٥٩ - مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .

٦٠ - التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك ، فى ضوء كتابات ابن إياس ، القاهرة ١٩٧٣ .

٦١ - المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣ .

٦٢ - سيد إبراهيم الجيار (دكتور) : تاريخ التعليم الحديث فى مصر ، وأبعاده الثقافية، القاهرة ١٩٧٧ .

٦٣ - عباس العقاد : الإمام محمد عبده عبقرى الإصلاح والتعليم ، القاهرة ١٩٨١ .

٦٤ - عبد الرازق الطنطاوى القرموط (دكتور) : العلاقات المصرية العثمانية ، القاهرة ١٩٨٤ .

٦٥ - عبد الرازق ابراهيم عيسى : تاريخ القضاء فى مصر العثمانية « ١٥١٧ - ١٧٩٨ » ، القاهرة ١٩٩٨ .

٦٦ - عبد الرحمن الجبرتى : تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ - ١٨٨٠ .

٦٧ - عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٠ .

٦٨ - عبد الرحمن زكى (دكتور) : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، القاهرة ١٩٥٠.

٦٩ - خطط القاهرة أيام الجبرتى ، ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى ، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٧٦.

٧٠ - قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٦٠ .

٧١ - عبد الرحمن فهمى (دكتور) النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٥٠.

٧٢ - النقود المتداولة أيام الجبرتى ، ضمن ندوة بحوث فى تاريخ الجبرتى ، إشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٧٦ .

٧٣ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحم (دكتور) : الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٧٤ .

٧٤ - المغاربة فى مصر فى العصر العثمانى « ٩٢٣ - ١٢١٣هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨ » ، تونس ١٩٨٢ .

٧٥ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : القضاء فى مصر فى العصر العثمانى ، ضمن بحوث ندوة القضاء فى مصر ، بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٥ .

٧٦ - عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الأزهر جامعًا وجامعة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٨٣.

٧٧ - الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها ، أربعة أجزاء ، ١٩٧٨ - ١٩٨٣ .

٧٨ - عبد الغنى محمود عبد العاطى (دكتور) التعليم فى مصر فى زمن الأيوبيين والمماليك ، القاهرة ١٩٨٤ .

٧٩ - عبد الكريم رافق (دكتور) : بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى حتى حملة نابليون بونابرت على مصر ، دمشق ١٩٦٨ .

٨٠ - عبد الله عزباوى (دكتور) الشوام فى مصر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، القاهرة ١٩٨٦ .

٨١ - عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، القاهرة ١٩٥٨ .

٨٢ - عبد الله محمود شحاته (دكتور) : منهج محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٥٨ .

٨٣ - عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٨٧ .

٨٤ - التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار ، القاهرة ١٩٨٨ .

٨٥ - عبد الوهاب بكر (دكتور) : ميناء دمياط ودوره فى العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الليفانت خلال القرن الثامن عشر ، بحث مقدم لندوة مصر وعالم البحر المتوسط ، بجامعة القاهرة ١٩٨٥ .

٨٦ - الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٨٢ .

٨٧ - عراقى يوسف محمد (دكتور) الوجود العثمانى المملوكى فى مصر فى القرنين الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٨٥.

٨٨ - علماء الحملة الفرنسية : الموازين والنقود ، لصماويل برنارد ، الجزء الثالث ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٨٠.

٨٩ - على باشا مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ٢٠ جزء ، بولاق ١٣٠٥ .

٩٠ - عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، الفتح العثمانى حتى القرن الثامن عشر الميلادى ، بيروت ١٩٧٥ .

٩١ - دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، بيروت ١٩٨٠ .

٩٢ - دراسات فى تاريخ مصر الحديث « ١٧٩٨ - ١٩١٤ » الاسكندرية ١٩٧٣ .

٩٣ - عبد الرحمن الجبرتى ونقولا ترك ، دراسة مقارنة ، بيروت ١٩٧٦.

٩٤ - مجتمع الاسكندرية فى العصر العثمانى ، ضمن بحوث مجتمع الاسكندرية عبر العصور المختلفة ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

٩٥ - مصادر تاريخ مصر العثمانية ، بيروت ١٩٧٢ .

٩٦ - عمر ممدوح مصطفى (دكتور) : أصول تاريخ القانون ، الاسكندرية ١٩٥٤ .

٩٧ - فوزى جرجس سلامة : دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٥٨ .

٩٨ - قاسم عبده قاسم (دكتور) : أهل الذمة فى مصر فى العصر الوسطى ، القاهرة ١٩٧٧ .

٩٩ - قاسم عبده قاسم (دكتور) : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٩ .

١٠٠ - النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٩.

١٠١ - قانون نامة مصر : ترجمه وعلق عليه الدكتور أحمد فؤاد متولى ، القاهرة ١٩٨٦.

١٠٢ - كارستن نيبور : رحلة إلى مصر س ١٧٦١ - ١٧٦٢ » ، ترجمة الدكتور مصطفى ماهر ، القاهرة ١٩٧٠ .

١٠٣ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، منير البعلبكى ، الطبعة العاشرة ، بيروت ١٩٨٤ .

١٠٤ - كلوت بك : محة عامة إلى مصر ، تعريب محمد مسعود بك ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٠ .

١٠٥ - ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتور) : الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٨ .

١٠٦ - دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام ، إبان العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٧٩.

١٠٧ - ل . م . ماير : الملابس المملوكية - ترجمة صالح الشيتى ، مراجعة دكتور عبد الرحمن فهمى ، القاهرة ١٩٧٢ .

١٠٨ - لويس عوض (دكتور) : تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر اسماعيل ، القاهرة ١٩٨٧ .

١٠٩ - محمد بن إياس الحنفى : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، الأجزاء ٣ ، ٤ ، ٥ ، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦١ - ١٩٦٢ .

١١٠ - محمد رفعت رمضان (دكتور) : على بك الكبير ، القاهرة ١٩٥٠ .

١١١ - محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ . الأقسام الثلاثة ، القاهرة ١٩٦٠ .

١١٢ - محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : النزهة الزهة فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، دراسة وتحقيق وتعليق عبد الرازق عيسى عبد الرازق ، القاهرة ١٩٩٨ .

١١٣ - محمد سيد الكيلانى : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، القاهرة ١٩٨٤ .

١١٤ - محمد عبد الستار عثمان (دكتور) : وثيقة جمال الدين يوسف الاستادار ، دراسة أثرية الإسكندرية ١٩٨٢.

١١٥ - محمد العربى الخطابى : الطب والأطباء فى الأندلس الإسلامية ، بيروت ١٩٨٨ .

١١٦ - محمد عبد العزيز عجمية (دكتور) : دراسات فى التطور الاقتصادى ، الاسكندرية ١٩٦٥ .

١١٧ - محمد فاتح عقيل (دكتور) : أهمية الموقع الجغرافى لسواحل مصر العربية ، ضمن أبحاث البحرية المصرية ، الاسكندرية ١٩٧٤ .

١١٨ - محمد فؤاد شكرى (دكتور) : عبد الله جاك منو ، وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة ١٩٦٠ .

١١٩ - بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) القاهرة ١٩٤٨ .

١٢٠ - محمد كامل الفقى (دكتور) الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، القاهرة ١٩٨٣ .

١٢١ - محمد محمد أمين (دكتور) : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر « ١٢٥٠ - ١٥١٧ » دراسة وثائقية ، القاهرة ١٩٨٢ .

١٢٢ - محمد مختار : التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية ، بولاق ١٣١١ هـ .

١٢٣ - محمود حامد الحسينى (دكتور) : الأسبلة فى مصر فى العصر العثمانى ، القاهرة ١٩٨٦ .

١٢٤ - محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٢٥ - مصطفى بن الحاج إبراهيم : تابع الأمير حسن كتخدا عزبان الدمرداشى ، تاريخ وقائع مصر القاهرة المحروسة ، كنانة الله فى أرضه ، تحقيق الدكتور صلاح أحمد هريدى ، الاسكندرية ١٩٨٩ .

١٢٦ - ابن منظور : لسان العرب ، جـ٣ .

١٢٧ - نجم الدين الغزى : الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة ، ٤ أجزاء ، بيروت بدون تاريخ .

١٢٨ - نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣ .

١٢٩ - هاملتون جب ، هارولد بوون : المجتمع الإسلامى والغرب ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، مصطفى الحسينى ، الجزء الأول ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٢ .

١٣٠ - هيلين آن ريڤلين : الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، القاهرة ١٩٧٢ .

١٣١ - يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، استانبول ١٩٨٥ .

١٣٢ - يوسف النحاس : الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٣٤ .

رابعًا : المراجع الأوروبية :

133 - Afaf Loutfy El Sayed, The Role of the ulama in Egypt during the Early Nineteenth Century, Political and social change in Modern Egypt. Historical studies from Ottoman conquest to the united Arab Republic, London, 1968 .

134 - Baer Gabrial, Egyptian Guilds in Modern Times, Jerusalem, 1964 .

135 - Butcher El, The Story of the church of Egypt, 2 Vols, London, 1897 .

136 - Combé, Etienne, L' Egypté Ottoman En precis de L'histoire d'Egypté ed Mohamed Zaky El Jbrach, T.3. Le Caire, 1933 .

137 - Estéve Comte, Mémoine Sur les tribus Arabs des deserts de L'Egypté. T.2. Paris, 1809 .

138 - D, Kallimachs, Pattriah's of Alexandria Greek School at Cairo, 1940 .

139 - Gamal El Din El Shayyal, Some Aspects of the intellectual and Social Life in the Eighteenth century in Egypt, Poltical and Social change in modern Egypt, Histroical Studies From Ottoman conquest to the united Arab Republic, London, 1968 .

140 - Heyworth Dunne, An introduction to the History of Educaton in Modern Egypt, London, 1938 .

141 - Heyed W, Historie du Commerce du Levant au Moyen Age. T.II. Lepzig, 1925 .

142 - Holt, P.M, Egypt and the Fertile crescent IsI6 , 1922, London, 1966.

143 - Lane Pool Stanely, Social Life in Egypt in the Middle Ages, London, 1961 .

144 - Lancret Michel Agge,

Territorial et sur L'Administration des provnces de L'Egypté dans Les deruicus années du goverment de Mamlouks, en Description d'Egypté Etat modern ist ed T.2. Paris, 1813 .

145 - M. Papastetanou, Greek Education in Egypt, London, 1940 .

146 - P.J. Vatikiotis, The Modern History of Egypt, London, 1938 .

147 - Poliak, A. W, Feudalism in Egypt, Syria, Palastine and Lebanon 1250 - 1900, London 1909 .

148 - Poocek, Adescription of the East, V.1, London, 1743 .

149 - Stanford J, Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Gambridge Massachusetts, 1964 .

150 - Ottoman Egypt in the Egitheenth century, The Nizamme Misr of Gézzar Psha Translated From Original Turkish by Stanford Shaw, Harvard 1962 .

151 - The Fianancial and Adminstration, Organization and development in Ottoman Egypt (1517-1798) New Jersy, 1962 .

خامساً : الدوريات :

١ - المجلة المصرية للدراسات التاريخية

١٥٢ - صبحي لبيب (دكتور) : التجارة الكارميلية وتجارة العصور الوسطى العدد ٤ ، القاهرة ١٩٥٢ .

١٥٣ - على الشاذلى الفرا : ذكر ماوقع لعسكر مصر المحروسة ، تحقيق الدكتور عبد القادر طليمات ، العدد (١٤) ١٩٦٨ .

١٥٤ - محمد بن أبى السرور البكر الصديق : كشف الكربة برفع الطلبة ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، العدد (٢٠) القاهرة ١٩٧٣ .

١٥٥ - محمد البرلس السعدى : بلوغ الأرب برفع الطلب ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، العدد ٢٤ ، القاهرة ١٩٧٧.

١٥٦ - نسيم مقار (دكتور) : أضواء على تاريخ الهوارة فى صعيد مصر ، العدد ٢٦ ، القاهرة ١٩٧٦.

١٥٧ - يوسف الشربينى : دراسة نصية لكتاب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلد العاشر ، القاهرة ١٩٧٥ .

٢ - المجلة العربية للعلوم الإنسانية :

١٥٨ - أحمد عبد الرحيم مصطفى (دكتور) : حفاظ العثمانيين على التراث الإسلامى ، الكويت ١٩٨٨ .

١٥٩ - عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية فى العصر العثمانى (١٥١٧-١٧٩٨) العدد التاسع ، المجلد الثالث ، الكويت ١٩٨٣ .

٣ - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة :

١٦٠ - محمد شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨ - ١٨٠١ ، ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية ، كما شرحه حسين أفندى الروزنامجى فى عهد الحملة الفرنسية ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٦ .

٤ - مجلة كلية الآداب بسوهاج - جامعة أسيوط :

١٦١ - أحمد محمد محمود الطوخى (دكتور) : القيسارات الإسلامية فى مصر والمغرب والأندلس ، العدد ١٨ ، سوهاج ١٩٨٢.

سادسًا : الرسائل العلمية :

١٦٢ - ابراهيم يونس محمد : تاريخ مصر العثمانية من ٩٢٣ - ١١٣١هـ / ١٥١٧-١٦٨١م من خلال تحقيق مخطوط " يوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل " تحفة الأحباب عن ملك مصر من الملوك والنواب " ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ ، كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، ١٩٨١م.

١٦٣ - اسامة أحمد إسماعيل : الإسكندرية فى عصر دولة المماليك ، رسالة ماجستير غير منشورة - قسم التاريخ - كلية لآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٨٧ .

١٦٤ - جميل عرفة منتصر : دور علماء الأزهر فى مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٣ .

١٦٥ - سميرة فهمى عمر : إمارة الحج فى مصر العثمانية ٩٢٣ - ١٢١٣هـ / ١٥١٧-١٧٩٨م ، رسالة ماجستير غير منشورة من قسم التاريخ ، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٩٨٣م .

١٦٦ - عصمت محمد حسن : الجبرتى ومنهجه فى كتابة التاريخ ، رسالة ماجستير غير منشورة - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

١٦٧ - عفاف مسعد العبد : دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر العثمانية ، رسالة ماجستير غير منشورة - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣ .

١٦٨ - محمود محمود الشال : تاريخ مدارس الطوائف الدينية ومدارس الجاليات الأوروبية فى مدينة الإسكندرية فى القرن التاسع عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٤م.

المحتويات

المقـدمـة : ٥

الفصل الأول : دراسة تحليلية لبعض مصادر ومراجع مصر العثمانية : ١٩

أولاً : أرشيف دار الوثائق القومية بالقاهرة : ٢٠

١ - دفـاتر الالتـزام : ٢٠

٢ - سجلات محكمة قنا وإسنا : ٢١

ثانيًا : أرشيف المحكمة الشرعية بالقاهرة : ٢٢

أ - سـجـلات إسـقـاطات القـرى : ٢٢

ب - سـجـلات الديوان العـالى : ٢٢

جـ - سجلات القسمة العسكرية : ٢٣

ثالثًا : أرشيف الشهر العقارى بالإسكندرية -

سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية : ٢٣

رابعًـا : المخطوطات : ٦٨

خـامـسًـا : مـصـادر منشـورة : ٨٣

سـادسًـا : دراسـات وثائقـيـة منشـورة : ٨٤

الفصل الثانى : الفتح العثمانى لمصر ونتائجه : ٩١

أولاً : العـلاقـات المملوكـيـة العـثـمـانيـة : ٩١

١ - الصراع على النفوذ فى منطقة البستان : ١٠٠

٢ - لجوء بعض الأمراء العثمانيين إلى المماليك : ١٠٢

٣ - قيام الإمارات التركمانية وأثر ذلك فى

العلاقات بين المماليك والعثمانيين : ١٠٧

ثانيًا : الفتح العثمانى للشام ومصر : ١١٤
١ - الموقف فى مصر : ١٢٦
٢ - لجوء طومان باى إلى الصعيد : ١٣٥
٣ - أسباب ضعف المماليك ونهاية دولتهم : ١٥٥
الفصل الثالث : التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية : ١٤٩
أ - الحكومة والإدارة فى مصر العثمانية : ١٤٩
١ - الباشا : ١٤٩
٢ - ديوان الباشا : ١٦٨
٣ - هيئة المماليك الصناجق والكشاف : ١٦٩
٤ - الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة : ١٧٠
٥ - القضاء : ١٧٤
٦ - المفتون : ١٧٨
٧ - نقيب الأشراف : ١٧٩
ب - الإدارة المالية : ١٨٠
١ - الديوان الدفترى : ١٨١
٢ - ديوان الروزنامة : ١٨٢
جـ - التنظيم الإدارى : ١٨٤
١ - الكاشفيات فى مصر العثمانية : ١٨٩
٢ - الجهاز الإدارى فى الأقاليم : ١٩٠
أ - حاكم الولاية : ١٩١
جـ - الجهاز الإدارى فى الريف : ١٩٧
١ - الملتزم : ١٩٧

٢ - شيخ القرية : ١٩٩
٣ - الوكيل أو القائمقام : ٢٠١
٤ - المباشر : ٢٠١
٥ - المشد : ٢٠٢
٦ - الشاهد : ٢٠٢
٧ - الصراف : ٢٠٣
٨ - الخفير : ٢٠٤
٩ - المساح : ٢٠٥
أ - الوكيل : ٢٠٥
ب - الكلاف : ٢٠٦
جـ - السقا : ٢٠٦
الإدارة فى الاسكندرية فى العصر العثمانى : ٢٠٦
١ - القابودان : ٢٠٩
٢ - الديوان : ٢١٢
٣ - الأوجاقات العثمانية دورها فى الإدارة : ٢٢٣
الفصل الرابع : الالتزام والضرائب في مصر العثمانية : ٢٣٣
أولاً : الالتزام : ٢٣٣
ثانيًا : الضرائب : ٢٥٢
نظام جباية الضرائب : ٢٦١
الفصل الخامس : دراسة عن بعض جمارك مصر فى القرن الثامن عشر
(الاسكندرية - دمياط - رشيد - البرلس) : ٢٧٥
أولاً : ميناء الاسكندرية : ٢٧٧

ثانيًا : ميناء دمياط : ٢٨٢
ثالثًا : الجمارك : ٢٨٦
الرسوم الجمركية : ٢٩٣
الفصل السادس : التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر : ٣١٣
أولاً : الحياة العلمية فى العصر العثمانى : ٣١٣
ثانيًا : مراحل التعليم : ٣١٦
١ - الكتاب : ٣١٧
٢ - المدارس : ٣٢٣
٣ - المؤسسات التعليمية الأخرى : ٣٢٩
٤ - التعليم العالى : ٣٤٠
ثالثًا : المكتبات : ٣٤٤
رابعًا : الانفاق على التعليم : ٣٤٧
خامسًا : هيئة التدريس : ٣٥١
سادسًا : الجهاز الإدارى فى المدارس والمؤسسات التعليمية الأخرى : ٣٥٥
سابعًا : تدهور التعليم فى مصر فى القرن الثامن عشر : ٣٦٠
الفصل السابع: الأوبئة والأزمات الاقتصادية فى مصر العثمانية : ٣٦٩
الأوبئة : ٣٦٩
الولاة والطاعون : ٣٧٢
الأزمات الاقتصادية أسبابها ونتائجها : ٣٧٨
الفصل الثامن : الحملة الفرنسية على مصر ونتائجها
(١٢١٣ - ١٢١٦ هـ / ١٧٩٨ - ١٨٠١م): ٤١١
١ - العالم القديم : ٤١١

٢ - الإمبراطورية العثمانية : ٤١٢
٣ - بونابرت والشـــرق : ٤١٤
٤ - معركة أبى قير البحرية : ٤٢٥
٥ - مـوقف البـاب العـالى : ٤٢٨
٦ - اتفاق العريش عام ١٨٠٠ : ٤٤١
٧ - منو والجلاء عن مـصـر : ٤٤٢
٨ - نتـائج الحملة على مصر : ٤٤٥
٩ - الموقف بعد خروج الحملة : ٤٥٣
ثبت بالمصـــادر والمراجع : ٤٥٩

رقم الإيداع ٩٩/١٦١١٧٨

الترقيم الدولى 0 - 023 - 322 - 977

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

دكتور صلاح هريدى

دراسات فى

تاريخ مصر الحديث والمعاصر

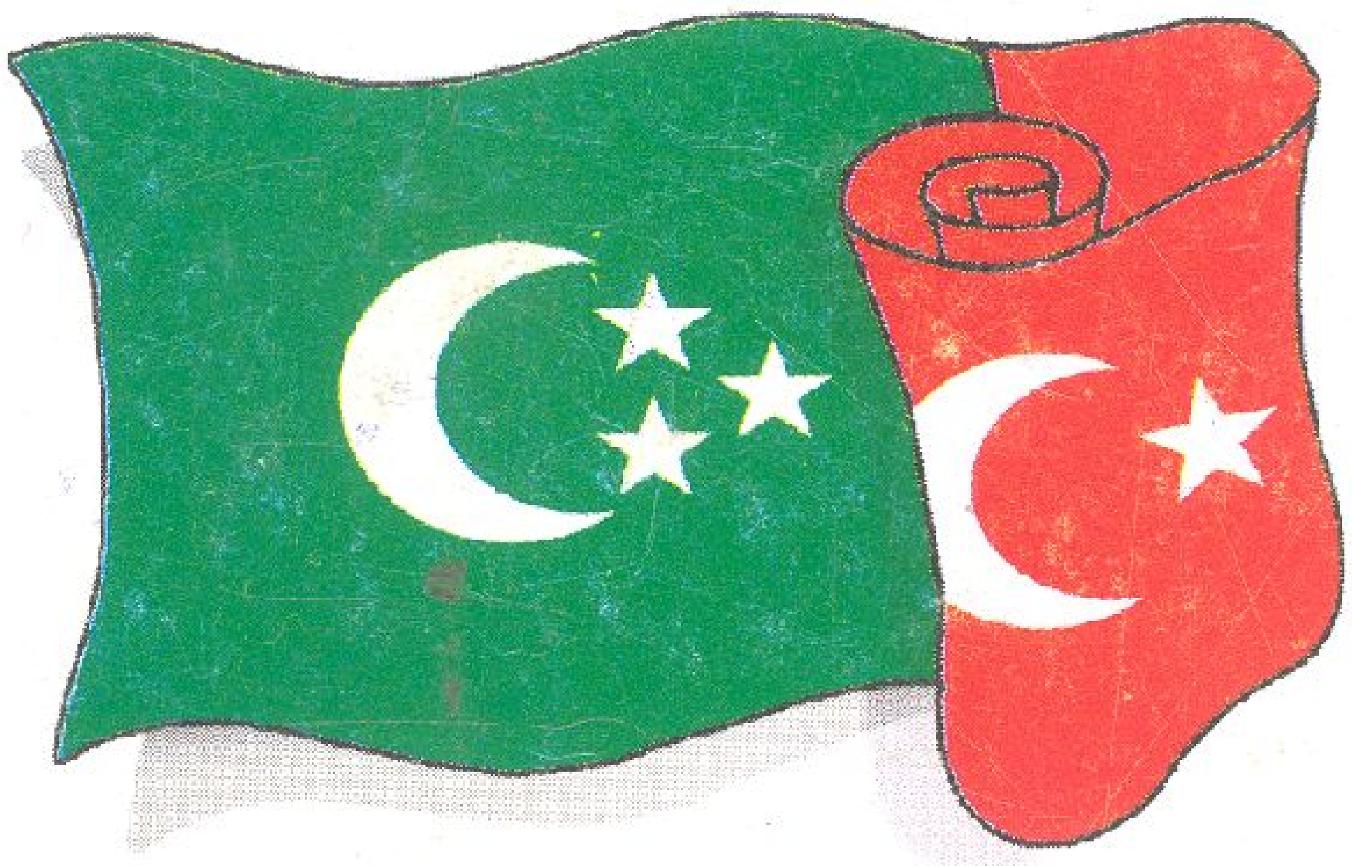

عين

للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

Bibliotheca Alexandrina
0635343